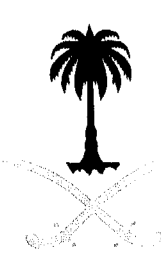






تطبيق الشريعة الإسلامية

في المملكة العربية السعودية

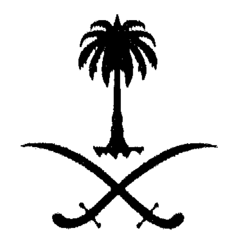
وآثاره في الحياة

تأليف

الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بن زيد الزنيدي

صدر هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية









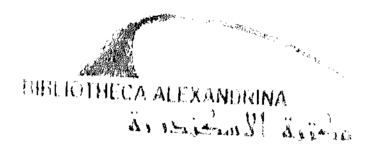
تطبيق الشريعة الإسلامية

في المملكة العربية السعودية
وآثاره في الحياة

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي

صدر هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية



١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ⓒ الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزنيدي، عبدالرحمن بن زيد

تطبيق الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية وأثاره في الحياة - الرياض

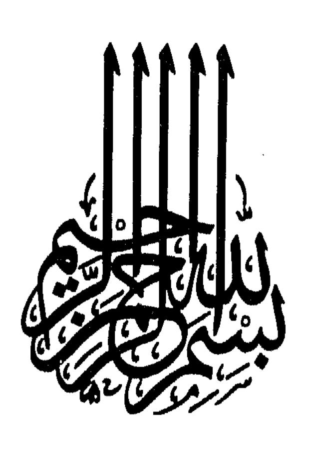
٥٦٠ ص ؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

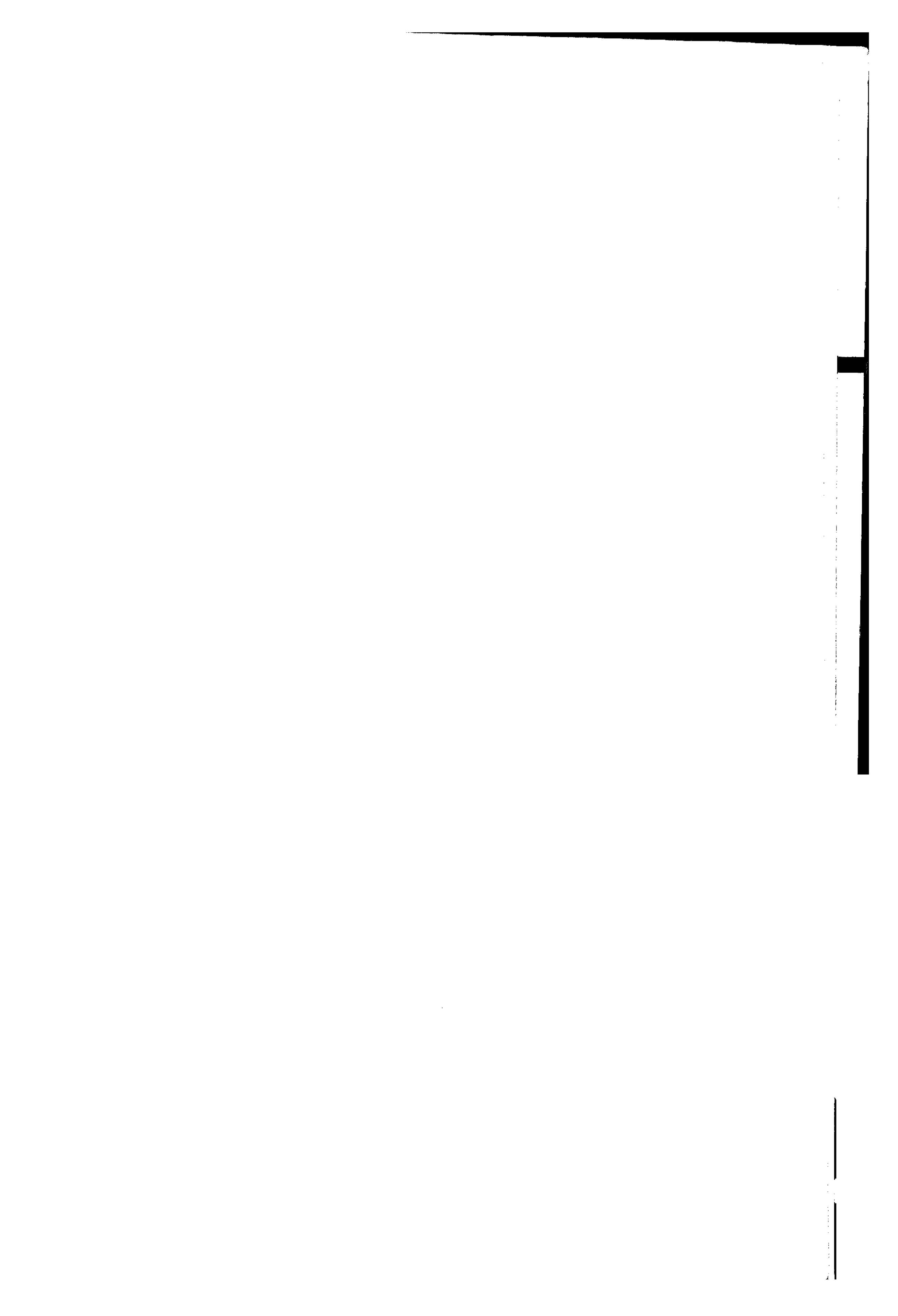
ردمك ٢-٨٤-٦٦٠-٩٩٦٠

١- الشريعة الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢٥٧ ٢٠/٢٩٣٩

رقم الإيداع : ٢٠/٢٩٣٩
ردمك ٢ - ٨٤ - ٦٦٠ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

الحمدُ للّه الذي أمرنا بشكر النِّعم، ووعدَ الشاكرين بمزيد من فضله العميم، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعدُ، فإنَّ اللّه - جلَّ وعلا - قد أكرمَنا في هذه البلاد الطيِّبة بجمع كلمتنا تحت راية الإسلام الخالدة «لا إلهَ إلا اللّه محمدٌ رسولُ اللّه»؛ فكلمة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه هذه البلاد، واتخذتْها شعاراً لها، ومنهجاً لحياتها، وأساساً لنظامها؛ أكَّد ذلك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حين دخل مدينة الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ؛ استمراراً للمنهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده؛ المستمَدِّ من كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ.

وقد جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز مدينةَ الرياض، وتأسيس المملكة العربية السعودية؛ تأكيداً لاستمرار المنهج القويم الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية، والمبادئ السَّامية التي قامت عليها، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في سبيل توحيد المملكة عرفاناً لفضله، ووفاءً بحقِّه، وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام، والتعريف بها للأجيال القادمة.

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلِّ دوحة علمٍ؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة، تولَّى غرسَها الملكُ المؤسِّس، وتعهَّدها من بعده بنوه؛

فواصلوا رعايتها حتى امتد ظلها، وزاد ثمرها؛ فعمَّ البلادَ خيرُها، وانتفع بها الجميع.

وهذا الكتاب يعرض لموضوع من أهم خصائص الشريعة الإسلامية ألا وهو صلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان، فهو يعرض له نظرياً من حيث كونه منهجاً سلفيّاً علمياً وقيماً وتراثاً، ويعرض له من حيث تطبيقه على أرض الواقع، أرض الحرمين الشريفين، أرض المملكة العربية السعودية متمثلاً في الأنظمة التي تسير عليها.

كما يعرض لآثار ذلك التطبيق في المجتمع السعودي، ثقافيّاً، واجتماعيّاً، وسياسيّاً، واقتصاديّاً، ممَّا نتج عنه استقرار ينعم إنسانه بالأمن والأمان.

ولمَا في نشر هذا الكتاب من تيسير للباحثين وراغبي الاطلاع على بعض آثار تَطبيق ذلك المنهج والسير عليه؛ فقد أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز –حفظه الله– بطبع هذا الكتاب ونشره بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة.

اللهم إنا نشكرك، ونتحدث بعظيم نعمتك علينا، وقد وعدت الشاكرين بالمزيد، فأدمْها نعمةً، واحفظها من الزوال.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمير منطقة الرياض
رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية
للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة
سلمان بن عبدالعزيز

مقدّمـــة المؤلف

الحمد لله والصّلاة والسّلام على عبده ورسوله محمّدٍ وعلى آله وصحبه، وبعد :

ففي عالمنا الإسلامي اليوم - أكثر من العقود السّابقة كلّها - يتنادى العقلاء ومعهم جماهير الأمّة إلى تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في مجتمعاتهم، في النّظام السّياسي، وفي كلّ مسارات الحياة التي تحتاج تأصيلاً إسلامياً بعد غربةٍ وتغريبٍ عانت منهما الأمّة .

في جوّ هذا التنادي تبرز المملكة العربيّة السّعودية بصفتها التجربة الرائدة لتطبيق الشّريعة الإسلامية في العصر الحاضر تطبيقا شمولياً نابعاً من قناعةٍ إيمانيةٍ لدى مؤسّسها الملك عبد العزيز بن عبد الرّحمن آل سعود رحمه الله .

لقد تشكّلت المملكة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري مع بدايات القرن العشرين الميلادي في ظلّ وضع متوتر مرتبك للعالم الإسلامي .

فالرّمزيّة الإسلاميّة في مجال الدّولة متمثّلة بالدّولة العثمانيّة كانت في نهايات تَفسُّخها الذي انتهى بمحقها من الوجود .

والجامعة الإسلاميّة التي تنادى بها غيورون من علماء الأمّة وقادتها، تراجعتْ واضمحلتْ .

والاستعمار الغربي يمدُّ أخطبوطه على مجتمعات المسلمين المستضعفة، والتغريب المتبدي بالتائهين من بعض أبناء المجتمعات الإسلاميّة مغسولي الأدمغة يَتوثَّبُ للإمساك بقيادة هذه المجتمعات وتوجيهها وفق مذهبيات غريبة عن دينها وقيم أهلها .

في ظلّ هذه الوضعيّة جاء تَشكُّلُ المملكة حدثاً فريداً متميّزاً .

ولما كانت كلُّ دولة ذات رسالة تهدف إلى تمثّل رسالتها والتعالي بها ؛ فلقد وَجَّهَ باني المملكة العربيّة السّعودية الملك عبد العزيز -رحمة الله عليه- دَولتَه منذ أنشأها لتمثّل رسالة الإسلام ولتنمية مجتمعه وتقدّمه على أساس هذه الرّسالة ، ولإبراز هذه الدّولة بصبغتها المتميّزة « صبغة الإسلام » .

والآن ، والتّجربة تناهز القرن منذ بدأ تأسيسَها رائدُها ، فإنّ من أخصب وأجدى جوانب الرصد لها نفعاً- للمجتمع السّعودي ، وللأمّة الإسلاميّة عامة - علاقة هذه الدّولة بالرّسالة التي حملتها واصطبغت بها وهي رسالة الإسلام ، وانعكاسات هذه العلاقة على الدّولة والمجتمع السّعودي كلّه .

والبحث الذي بين يديك محاولةٌ رصديّةٌ لهاتين النّقطتين :

- تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة العربية السّعودية .
- وآثار هذا التّطبيق في الحياة .

تتكوّن خريطة البحث مما يلي :

تمهيد في ثلاثة مباحث، هي :

* البناء الإسلامي للمجتمع .
* دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب تعيد التّشكيل الإسلامي للحياة .
* الملك عبد العزيز يقيم المملكة العربيّة السّعودية « الإسلاميّة » .

ثمّ **باب أوّل** في : **تطبيق الشّريعة في المملكة العربيّة السّعودية** . وفي هذا الباب :

* مدخل في مصطلح تطبيق الشّريعة الإسلاميّة وفلسفته .
* وفصل أوّل في : العناصر النّظرية لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة .
* وفصل ثانٍ في : العناصر العمليّة لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة .

ثمّ **باب ثانٍ في : آثار تطبيق الشّريعة الإسلامية في الحياة في المملكة العربية السعودية** : وفي هذا الباب فصولٌ ثلاثة :

الأوّل في : الآثار الثّقافية .

الثاني في : الآثار الاجتماعيّة .

الثالث في : الآثار السّياسية والاقتصاديّة .

ثمّ **خاتمة** في استشراف لمستقبل المجتمع السّعودي .

ولما كان محور البَحث في المملكة (دولةً ومجتمعاً) هو تطبيق الشّريعة ؛ أي « إسلاميّة المملكة » كان لا بدّ من تحرير مضمون هذه الإسلاميّة من خلال بيان منهج الإسلام في تشكيل الحياة الإنسانيّة ؛ اتّقاءً للتصوّرات المتعدّدة للإسلام في هذا العصر لدى كثير من القادة الفكريين والسّياسيين فضلاً عن غيرهم ، وهي تصوّرات مشوّهة تستتبعها تصوّرات مغلوطة لتطبيق المملكة له .

ومثل ذلك دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب التي تعلن الدّولة السّعودية انتماءها لها والتزامها بمقوّماتها ، التي هي مقوّمات الإسلام ذاته .

فهذه الدّعوة مشوّهةُ الصُّورة لدى كثير من المسلمين فضلاً عمن سواهم، مما اقتضى أن يتضمن التّمهيد هذين العَنصرين كَقاعدة يرتكز عليها ، يتبعهما افتتاح بمفتاح المملكة العربيّة السّعودية الملك عبد العزيز -رحمَه الله- مؤسِّس هذه المملكة .

وإبراءً للذّمة أو تبريراً لقصور هذا البحث في رصده وتحليله فقد كان ضيق الوقت عائقاً عن تناولات كانت جديرةً بالبسط في مثل هذا البحث .

فأنا أستحضر تساؤلات واردة منطقياً مثل :

- ما رؤية البحث إزاء الكتابات الموجَّهة ضدّ المجتمع السّعودي، وخاصة في مجال تطبيقه للشّريعة الإسلامية ؟

- هل المجتمع السّعودي خلال عقوده المتعاقبة صورة واحدة على الرّغم من التّغيّرات الحضاريّة التي حدثت فيه ؟
- هل البحث يطابق بين المفترض نظرياً والمتمثل واقعياً ؟

ونحوها من التّساؤلات التي لم أعرض لها إلا لماماً ، وغاية ما أقوله هنا أنّ هذه الدّراسة مبنيّة على :

- قناعة بالواقعيّة البشريّة المتراوحة بين (الإيمان المطلق ، ومطلق الإيمان) كما يقول علماء العقيدة إزاء الكمال الدّيني المتمثّل بتعاليم القرآن والسنّة المطهّرة المتعالية فوق ظروف الزمان والمكان عن أن تكون محكومة بهما بل حاكمة عليها ، خلافاً للجهد البشري الذي يحدث منه القصور تحت ضغط الظّروف المحيطة فيكون صاحبه معذوراً ، ويحدث منه التّقصير لكسل أو غفلة فيكون ملوماً ، ولكنه في كلا الحالين يظلّ في دائرة الإيمان ما دام معلناً توحيده متعاهداً لحقوق خالقه (انظر مدخل الباب الأوّل) .

- الدّفع نحو مسارات الحركة الإيجابيّة مستقبلاً للجانب الإيجابي في هذه التّجربة .

أمّا منهجي في الكتابة فلا هو -كما أتصوّر ، وهو ما أردت- بالأكاديمي المرهق بعمقه العلمي وتحليلاته النّظرية ، وإحصائياته الجافة ، ولا هو بالكتابة العائمة المسطحة الدّعائية .

إنّ فيه عرضاً للواقع ، وتحليلاً له ، واستنتاجاً ، متضمخاً كلّ ذلك بروحٍ علميةٍ أرجو أن تكون خفيفة الظلّ دسمة الفائدة .

وقد عولت على كتابات سابقة في مجرى ما أتحدّث فيه ، فلكل من استفدت منه شكري ودعائي بالمثوبة والأجر .

كذلك فقد جعلت نصب عيني فائدة القارئ سعودياً أو غير سعودي مسؤولاً أو طالباً أو إنساناً عادياً ، قصدت إلى رسم خريطة إسلاميّة هذا المجتمع أمامه ليعرف أبعادها التي غالباً ما تنحصر -لدى كثير من الناس- في زاوية ضيّقة من هذه الخريطة هي « الحدود » .

وقصدت استحثاثه ليشعر ويتأمل في التزام هذا المجتمع بالإسلام في حياته ، وحياة هذا المجتمع كلّه ، خصوصاً ما أصبح تميّزاً لهذا المجتمع على المجتمعات الأخرى البعيدة عن هدي الله .

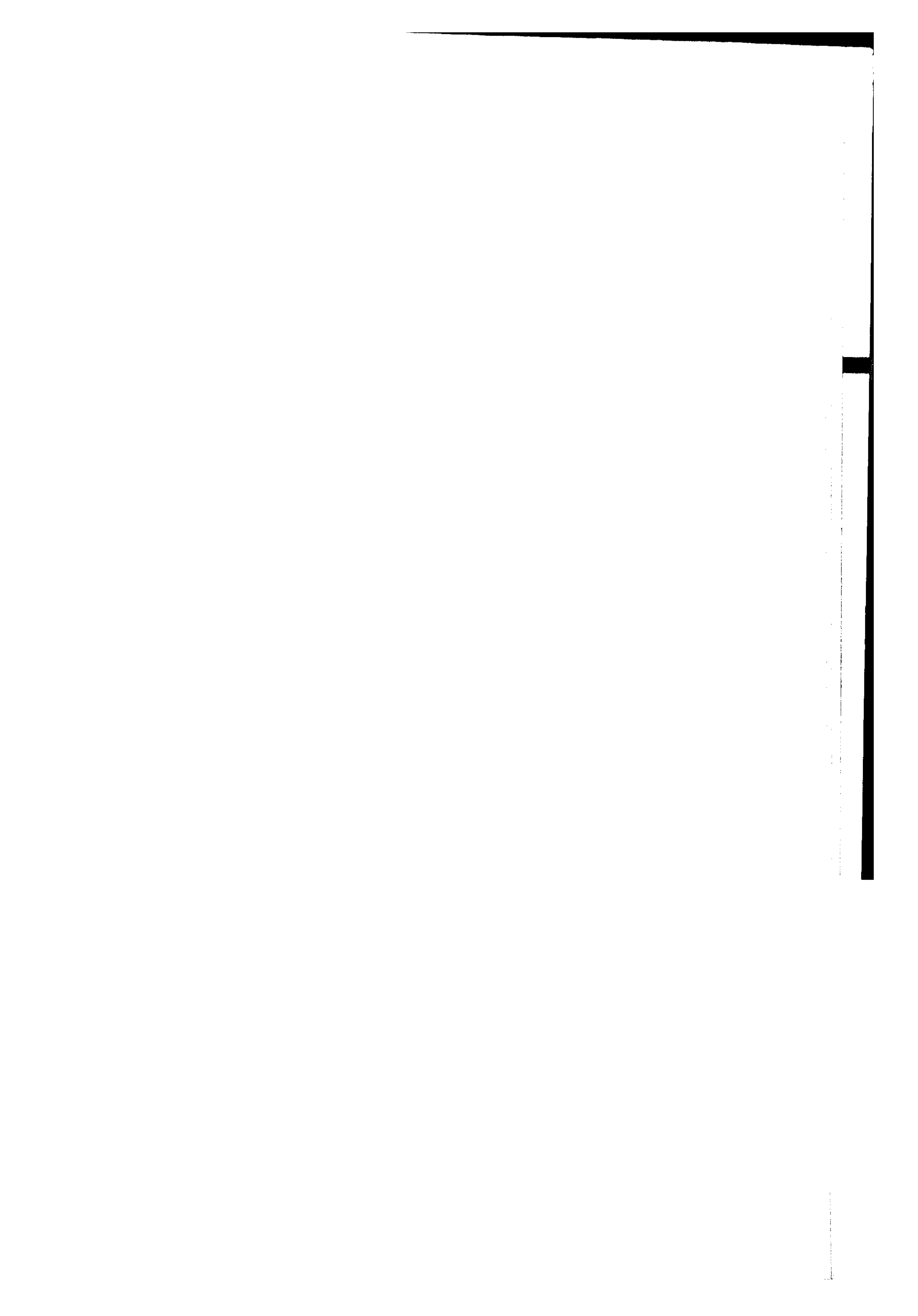
واستهدفت أخيراً (انظر خاتمة البحث) لفت الذهن إلى رؤية مستقبليّة لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة العربيّة السّعودية تتبلور في استشرافات مستوحاة من الواقع لمستقبل المجتمع السّعودي ، وفي « نقاط » يوصي بها البحث ، ويتطلّبها مستقبل تطبيق الشّرع في هذا المجتمع ، هدفها :

- مقاومة المؤثّرات المضادة لالتزام المجتمع السّعودي بإسلامه .

- تفعيل هذا التّطبيق للإسلام لتتساوق أبعاده الإيمانية الخلقية مع أبعاده القانونية السلطوية .

- إبراز هذا التّطبيق بصفته نموذجاً حياً لمسلك حضاريٍّ متفرد " وناجح " بين المسالك الحضارية المترنحة لدى غير المسلمين والمسالك المتخبطة المتعثرة في كثير من مجتمعات المسلمين، حتى يتحقّق للمجتمع السّعودي صاحب التّجربة التّواصل والاكتمال ، وحتى تستفيد المجتمعات الأخرى من هذه التّجربة لصالح أوطانها .

والله الموفق وصلّى الله وسلّم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .



التمهيـــــد

★ المبحث الأول:

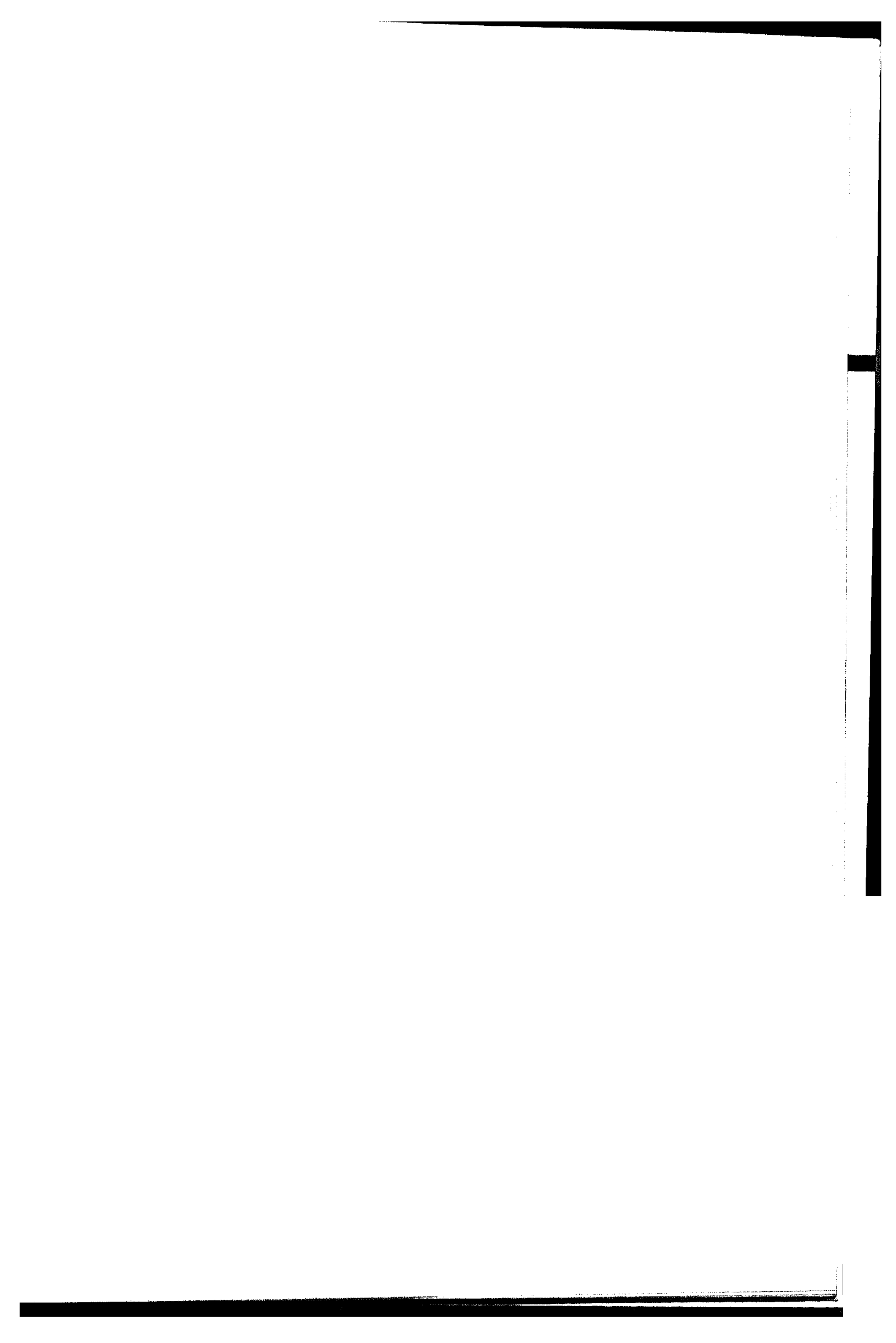
البناء الإسلامي للمجتمع .

★ المبحث الثاني:

مرتكزات دعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهاب تعيد التشكيل الإسلامي للحياة.

★ المبحث الثالث:

الملك عبد العزيز يقيم المملكة العربيّة السعوديّة « الإسلاميّة ».



المبحث الأوّل

البناء الإسلامي للمجتمع

الإنسان — بصفتيه : الفرديّة ، والاجتماعيّة - لا ينفك عن ثلاثة أمورٍ تمثل نزوعه الإنساني ، وهي على التّوالي :

- طموح يتسامى به نحو طلب الأفضل والتّعلّق بالسّعادة .
- ومنهج يرسمه لتحقيق ما استطاع من ذلك الطموح .
- وخطوات يقطعها عملياً وفق ذلك المنهج لتحقيق ذلك الطموح .

وقد حاولت البشريّة في دوراتها الحضاريّة الكثيرة ، وعهودها القديمة والحديثة تحقيق تلك الأمور الثلاثة معتمدةً على خبراتها وتجاربها المتراكمة ، وعلى فلسفاتها العقليّة ، وعلى التّقلّب بين الصّور المتناقضة من الحياة .

ولكن النتيجة كانت واحدة ؛ وهي الفشل إمّا كُلّياً ، أو جزئيّاً في تحقيق السّعادة التي تفلت من يديها كلّما تصوّرت أنّها اقتربت منها ، وهذا ناتجٌ عن فشلها في رسم المنهج السّليم للوصول إلى تلك السّعادة ؛ ممّا جعل خطواتها ضرباً في بيداء التّيه ، وجهوداً دون نتيجة .

والعلّة في هذا الفشل واضحةٌ ، وبسيطةٌ ، ولكنها عظيمةٌ ، من حيث اعتراف الإنسان بها من جهة ، وأخذه بمقتضاها من جهة أخرى .

إنّ العلّة هي : أنّ الإنسان عاجزٌ بفطرته عن تحقيق تلك المطالب الثلاثة بنفسه ، أيّ بعقله مستقلاً ، وبخبرته المحدودة ، وأنّه لا بدّ له لينجو من هذا الفشل من الاستعانة بالمَدَد الإلهي المتمثّل بالوحي المنزل من الله خالق الإنسان والكون والحياة على رسولِه المصطفى من النّاس .

فإذا اتخذ الإنسان هذا الوحي موجهاً لحركته وراسماً لأهدافه ، ثمّ شحذ قدراته العقليّة والتّجريبيَّة في إطار توجيهات هذا الوحي ، فإنّه سيصل - إن شاء الله - إلى تحقيق تلك المطالب في حياته الفرديّة والجماعيّة ، وسيرتقي إلى درجات مقاربة للنّموذج الأعلى للإنسانيّة السّامية التي نالت الكمال الإنساني في حدود ما تسمح به الطّاقة البشريّة .

وحتى تستبين الصورة الواقعيّة للفشل والنّجاح في حياة البشريّة في هذه الأمور الثّلاثة ، نشير إلى الفترة التّاريخيّة التي ظهر فيها دين الإسلام ببعثة محمّد بن عبد الله ﷺ بالنّسبة للأمم عامة وللعرب خاصةً .

ولكن قبل ذلك نورد تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكبرى ، وهو التقرير الذي يحمل الحقّ المطلق ؛ لأنّه منزّل من العليم الحكيم ، الذي خلق الإنسان وأودعه تلك النَّزعات الغريزيّة فيه ، وهو أعلم به - حتى من نفسه - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] ، يقول سبحانه في سورة طه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[2] .

ففي هذه الآيات بيّن - تعالى - بياناً واضحاً صورتين متقابلتين :

الأولى : اتِّباع هدى الله الذي أتى به الرّسل للنّاس ، وصورته القائمة الآن في الوجود الإنساني ، ومنذ بعثة محمّد ﷺ هي : القرآن الكريم والسنّة الثّابتة عن رسوله - ﷺ - . والمتّبع لهذا الهدى اتباعاً سليماً يحظى بمزيتين :

---

(١) الآية رقم (١٤) من سورة الملك .

(٢) الآيات (١٢٣-١٢٦) من سورة طه .

- مزيّة الاهتداء للحق علماً به ، واستجابةً له وتمثلاً به ، والنّجاة من الضّلال الذي يتمثّل في التيه الفكري، وعمى البصيرة والتشبث بنظريات وفلسفات وأديان فاسدة باطلة .
- ومزيّة نيل السّعادة ؛ أمناً نفسياً ، وحياةً طيّبةً في هذه الحياة، وفلاحاً في الحياة الآخرة .

الثّانية : الإعراض عن ذكر الله الذي بعث به رسوله : قرآناً وسنّةً لا يتعلّمه ولا يعمل به ، ومهما حاول التّعويض عمّا أعرض عنه من الوحي بالفلسفات والنّظريّات، وألوان الفنون، والنّظم الوضعيّة، فإنّه سيبقى رَهينَ النَّتيجتين التّاليتين :

- البؤس الدّنيوي والشّقاء النّفسي وتعاسة الحياة التي تلازمه أياً كان وضعه المادي جاهاً وثراءً وبروزاً فكرياً أو سياسياً أو غيره . وكل هذا تجمعه لفظتا ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ في الآية .

وقد يفهم فاهمٌ أنّ المعادلة قائمة بين إنتاج البشر كله و هدى الله المنزّل، وأنّه إذا كان الثّاني مصدر السّعادة لكونه الحق، فإنّ الأوّل -وهو إنتاج البشر- مصدر الشّقاء وأنّه باطل .

وهي معادلة غير صحيحة .

فالمعادلة هي بين اتباع هدى الله والإعراض عنه . أمّا جهود البشر فإنّ فيها خيراً وحقاً ، وهذا الخير والحقّ لا يضاد هدى الله أبداً؛ لأنّ الحقّ لا يضاد الحقّ، لكنّه حقٌّ جزئي في شؤون الحياة العمليّة، فإذا كان الذي يحمله متبعاً هدى الله فإنّ هذا الحقّ الذي اكتسبه بفكره أو تجربته ينفعه في تحقيق سعادته .

أما إذا كان حامل هذا الحق الجزئي في القانون أو النظريات النفسية أو الاجتماعية أو غيرها معرضاً عن هدى الله مُتَنَكِّباً شرعه، فإنّ نفعه له محدودٌ جداً بمصالح قريبة على حساب مصلحته الكبرى، في سعادته الدنيوية وفلاحه الأخروي، وهو شبيه بالذي يعالج جرحاً لميِّت، قد يوقف نزيفه أو يزيل صديده، ولكنه لن يعيد الحياة إليه.

- النتيجة الثانية للإعراض عن هدى الله هي: الخسار الماحق يوم القيامة.

وإذا كانت النتيجة الأولى تُفقد الإنسان قيمة حياته الدنيا، فإنّ النتيجة الثانية أخطر وأعظم، على الرغم من أنّ الناس لا يكترثون لها كثيراً، تناسياً لها واستغراقاً في دنياهم التي أصبحت مبلغ العلم، وأكبر الهم لديهم، وكأنها هي الحياة الوحيدة لهم.

إنّ الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]. وهي قريبة من الإنسان مهما امتدت حياته لأنّها تبدأ بموت الإنسان بعد عُمْر لا يتجاوز القرن لمن عُمِّرَ، ومن تجاوزها فهو في عداد الموتى وإن كان حياً، وكثيراً ما يَفْجَأُ الموت الإنسان في حادث مواصلات، أو مرض غير مُمْهِل، أو نحو ذلك، وهو ما يزال يخطط لمستقبل حياته الدّنيا، غافلاً عن آخرته التي صار إليها، تاركاً دنياه وخططه المستقبلية لها، والنتيجة يوم القيامة هي: ﴿ **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾[2] حيث يشعر بالهوان والمصير السيئ.

ولا مجال للاحتجاج أو حتى التساؤل من مثل: كيف أتحول من مُفكّر كبير، أو قائد عظيم، أو ثريٍّ يُشار إليه بالبنان، أو وجيه يتبعه الناس إلى هذه الحال المعاكسة؛ لأنّ معيار التقويم هناك يرتكز على «تعامل الإنسان مع وحي الله»

---

(١) الآية رقم (٦٤) من سورة العنكبوت.

(٢) الآية رقم (١٢٤) من سورة طه.

اتباعاً له ؛ ومن ثم فلاحاً ونجاة ، أو إعراضاً عنه ؛ ومن ثم عَمًى وخزياً وخساراً ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [1] . والحياة الآخرة حياة فردية يحاسب فيها كل شخص وحده : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [2] .

أما الحياة الدنيوية فإنَّ لها جانباً فردياً يتعلق بالشخص الفرد ، وجانباً جماعياً يتعلق بالمجتمع أو بالأمة ككلٍّ .

فكما أنّ الإنسان إذا أعرض عن هدى ربه وآثر الدنيا يعاني الشقاء والتعاسة وخبث الحياة ، حتى ولو كان مجتمعه أو أهله صالحين طَيِبيْ الحياة ، كذلك فإنّ المجتمع إذا لم يلتزم هدى الله في أهدافه وعلاقات أفراده ، وإذا تخلى عن أخلاقيات الإسلام وتواطأ أفراده على ذلك ، وتهاون علماؤه وقادته في هذا الشأن ، فإنّ المجتمع كله يصيبه البلاء والأدواء والفساد ، وينحلُّ حضارياً ، ويتراجع إلى الصورة الحيوانية لأفراده ، حيث لا يبقى للإنسانية معنًى فيه ، ومن ثم يفقد قيمته ، ويسقط من عين الله .

هذه نظرات في آيات سورة طه نتبعها ببعض النصوص التي تؤكد تقرير هذه الحقيقة العظمى وهي « أنّ السعادة في التزام منهج الله ، وأنّ الشقاء في الإعراض عنه » .

يقول سبحانه : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [3] ، ويقول سبحانه :
﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) الآية رقم (١٢٦) من سورة طه .

(٢) الآية رقم (٩٥) من سورة مريم .

(٣) الآية رقم (٩٧) من سورة النحل .

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١) ، ويقول - تبارك وتعالى - مبينا أنّ ما خالف وحيه من أنظمة وفلسفات ونظريات ما هو إلا ظنونٌ وأوهامٌ وأهواءٌ بشريةٌ مهما أُضفيَ عليها من الهالات العلمية والإنسانية وأمثالها : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٣) .

وبيّن الله - سبحانه - أنّ القسط المتمثل بالحق والعدل - وهما القيمتان اللتان لا تقوم حياةٌ إنسانيةٌ بدونهما - لا يتحققان إلا باجتماع أمرين ، هما :

- الوحي = الكتاب ، والسنة بحكم أمر الكتاب باتباعها .

- والعقل السليم = الميزان .

قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٤) .

وخلاصة ما يقرره القرآن في أمر هذه القضية : أنّ الإعراض عن وحي الله وتعاليم رسوله ﷺ ، وعدم الانتفاع بها في أي حضارةٍ أو مجتمعٍ بشريٍّ ، يؤدي إلى انقطاع الناس عن ربهم ، واختلال حياتهم ، وافتقادهم عوامل التوازن والاعتدال والاستقرار ، مما يسير بهذه الحضارة أو الأمة أو المجتمع إلى الانتحار والانهيار .

---

(١) الآيات (١-٣) من سورة العصر .
(٢) الآية رقم (١٢٠) من سورة البقرة .
(٣) الآية رقم (٢٣) من سورة النجم .
(٤) الآية رقم (٢٥) من سورة الحديد .

ولتوضيح ذلك واقعياً نسترجع تاريخ البشرية حين ظهر الإسلام ببعثة الرسول ﷺ .

فقد كانت تلك القرون التالية للرسالات التي كانت آخرها رسالة عيسى - عليه السلام - وحتى القرن السادس الميلادي قرون ظلامٍ حضاريٍّ وتقهقرٍ لإنسانية الإنسان، تتماثل في ذلك الأمم البدائية والمتمدنة . فالعقائد - وهي الأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان - مرتكزها الوثنية المتمثلة بتعدد الآلهة، من الأصنام والأوثان ومظاهر الطبيعة، كالكواكب والنور والظلام، وبعض الحيوانات، كالبقر، وبعض الأنبياء، والملائكة .

وكانت التصورات عن الآلهة عمادها القياس على الصورة البشرية أحياناً في أسوأ صورها الخلقية ، فقد كان رب الأرباب (جوبتر) لدى اليونان إلهاً في صورة شيطان، وكان حَقُوداً لَدوداً ، مشغولاً بشهوات الطعام، والجنس، دائم الغضب والكيد للآلهة الأخرى من حوله ، خاصةً إله الطب (أسقولاب) الذي يشفي الناس ، فيحرم (جوبتر) من جباية الضريبة التي يأخذها على أرواح الموتى . وكذلك (برومثيوس) إله المعرفة والصناعة ، الذي يُعَلِّمُ الناس معرفة استخدام النار في التصنيع، فيغنيهم عن رب الأرباب . والعبادات تحولت إلى طقوس شركيّة تُمَارَسُ لإرضاء الآلهة المزعومة ، وأحياناً لكيد هذه الآلهة ، كما لدى اليونان الّذين كانت بعض صور عبادتهم نوعاً من الرّقص ، الذي يُغنِّي فيه المُغَنِّي ممجِّداً العقل ، وداعياً الآلهة ألاَّ تتدخلَ في شؤون حياة الإنسان[1] .

ومثل ذلك سائر جوانب الحياة ، فقد تَغَلْغَلَ فيها الفساد حتى لم تعد إنسانيَّةً سويَّةً تتمثل المعروف الذي فطر الله عليه العباد وجاءت به الأديان .

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص ١٨١، ط٩، ١٣٩٦هـ.

ففي ظل غياب شريعة الله وعزل وحيه عن توجيه الحياة البشرية تحكمت الأهواءُ والشهواتُ الجنسيَّةُ والماديَّةُ في النفس الإنسانية ، وصارت النظم والحروب تقام من أجل تحقيق هذه الشهوات .

والمقاييس الخلقية والآداب والفنون وُضِعَتْ كُلُّها في ظل تحكّم هذه الشهوات ، فكانت وسيلةً مساعدةً على الانغماس فيها أكثر فأكثر . والحركة المضادّة لهذا الجموح الشهواني لدى الإنسانية ضَلّتْ هي الأخرى سواء السبيل ؛ لأنها لم تهتد بوحي الله ، فساقت الناس نحو الرهبانية المحاربة لِمُتَعِ الحياة حتى المباح منها ، بل والضروري ، وجعلت سبيل الحياة السَّوية وطَريق الفلاح هو اعتزال الحياة الدنيا ، ومقاومة الغرائز الإنسانية ، وحرمان النفس من المتطلبات الفطريَّة والشرعيَّة في الحياة الماديَّة ، فسحقت الإنسان ، وشَلّتْ وُجودَه الإنساني .

ومن صور الضلال التي لازمت البشرية في مسيرتها ، البعيدة عن هدى الله : الطَّبَقيَّةُ المقيتَةُ التي تنتهي إلى استعباد الناس ، وإلغاء كرامتهم ، وسحقهم تحت وَهْمِ رُبُوبيَّةَ حَفْنَة من رجال الدين المُقَدَّسين كما في المجتمع الهندي ، أو من رجال الحكم كما في إيران الكِسْرَوِيَّة ، أو من شعب ذي عرقٍ مُعيَّنٍ على الشعوب الأخرى ، كما فعل الرومان مع الشعوب من حولهم .

ولما كانت رسالة عيسى -عليه السلام- مُطَارَدَةً منذ إعلانه بها ، وكان الفاصل بينه وبين النبيِّ الخاتمِ محمَّد ﷺ ستة قرون تقريباً ، لم يبعث فيها نبيٌّ يَردُّ الناس نحو إنسانيتهم السوية ، فإنّ اختلال الحياة البشرية في غاياتها وطموحاتها ، وفي تنظيمها ، وفي حركتها العملية كان يزداد ويتفاقم حتى احْلَوْلَك الظلام على هذا الكوكب الأرضي ، سواء في شرقه الذي كان مهد

الديانات التي تلاشت أنوارها ، أو في غربه الذي عجزت فلسفاته عن إصلاحه .

يقول " روبرت بريفولت " : « لقد أطبق على أوربا ليلٌ حالكٌ من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، لقد كانت همجية ذلك العهد أشدَّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ؛ لأنّها كانت أشبه بجثَّة حَضَارة كبيرة قد تعفَّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضي عليَها بالزوَال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب »[1] .

والديانات التي كان يرجى منها هداية الإنسان ووقف فساده هي نفسها فسدت وصارت مَبَاءةً للضّلال والانحراف والاستغلال الشهواني ، « لقد أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين المتلاعبين ، ولعبة المُحَرِّفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعثَ أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مُهُودُ الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مَسْرَحَ الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالةً ، ولا للأمم دعوةً ، وأفلست في مَعنويَّاتها ، ونَضبَ مَعينُ حياتها لا تملك مَشْرَعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري »[2] .

ولقد كان الأمل في تلك القرون السابقة لبعثة محمد ﷺ غير منتظرٍ من الديانات القديمة ، بقدر ما هو مُؤَمَّلٌ من النصرانية بحكم جدتها من جهة ، وما تهيَّأ لها من أسباب التمكُّن في المجتمع الغربي ، وكثرة رجالها ، وزاعمي

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

التجديد فيها من جهة أخرى ، ولكنه أملٌ في غير مَأمَلٍ ؛ لأن هذه النصرانية نفسها قد غشيتها الغوَاشي التي أفسدت حقيقتها ، فلم تعد الديانة التوحيديّة التي جاء بها عيسى من ربه ، ولكنها دينٌ آخر بشريٌّ ، فلم تقدم أيّ غناء لحياة أتباعها فضلاً عن غيرهم إن لم تُسْهِم في إفساد هذه الحياة بأكثر مما هو موجودٌ ، وكما يقول " ليكي " : « إننا مضطرون إلى القول بأن المسيحيّة قد وجدت فرصةً كاملةً للاختبار ، ولكنها فشلت فيه ولم تنجح »[1] . حتى وقر في خلد الغربيين بعد انسلاخ القرون أنّ صلاح الحياة الذي يرجونه لن يكون في الالتجاء إلى الدين - النصراني الكنسي - بقدر ما هو في الانفلات منه ، والاعتماد على الذات الإنسانية بعيداً عن هدي الله .

المجتمع العربي قبل الإسلام :

لم يكن المجتمع العربي مُتميِّزاً عن المجتمعات الأخرى في ذلك الوقت ، لقد بَعُدَ عَهْدُهُ بالنبوّة الهادية ، فأصابه الانحطاط والتخلف دينياً ، وثقافياً ، وحضارياً .

كان الشرك هو المنهج الديني السائد ، فعلى الرغم من اعترافهم بأنّ الله هو وحده خالق الكون ومُدبِّره ، ومُصرِّفُ سُنَنه ، إلا أنّهم حين التوجّه بالتعبد لا يتّجهون إلى الله مباشرةً ، وإنّما يتّخذون من دونه أولياء يعبدونهم ، أو يتقرّبون إليهم ليقرِّبوهم إلى الله ، وتنوّعت آلهتهم التي يعبدونها ، فبعضهم عَبَدَ الملائكة ، وبعضهم عَبَدَ الجنّ ، وبعضهم عَبَدَ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ ، وبعضهم اتّخذ الأصنام والأوثان ، حتى كانوا يعبدون سائر أنواع الحجارة والتراب[2] .

---

(١) الإسلام تشكيلٌ جديدٌ للحضارة ، لمحمد تقي الأميني ، ترجمة مقتدي ياسين ، ص ٣١ ، الرياض ١٤٠٢هـ.

(٢) قال أبو رجاء العطاردي : « كنّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإن=

وشاعت فيهم أعرافٌ وتقاليدُ سيِّئة ، فكان شرب الخمر دَيْدَنَ حياتهم، حتى عده بعضهم فضيلةً لا يتخلّى عنها إلاّ اللئيمُ البخيلُ ، وكان انتهاب اللَّذَّات الجنسية إحدى أهدافهم الحياتية ، حتى قال طرفة عنها وعن الخمر :

ولولا ثلاث هُنَّ من شيمة الفتى ... وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهنَّ سبقي العاذلات بشربةٍ ... كميت متى ما تغل بالماء تُزبد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنةٍ تحت الخباء المعمد[1]

ومن تقاليدهم التي أغرموا بها القمار ، حتى إنّ الشخص يقامر على كل ماله وعلى زوجته وأولاده .

ومثل ذلك : وأد البنات بإنهاء حياتهن وهُنَّ صغيراتٌ ، إمَّا بدفنها حيةً أو وضعها أمام مَغَارة سباعٍ ونحو ذلك ، بغضاً للبنت ، أو خوفاً من عارها ، أو خشيةً من مؤونتها ، أو لزيادة بناته على الحدِّ الذي يقدره . . .

ومن أسوأ صور التخلّف الحضاري في المجتمع العربي قبل الإسلام : فقدانُهُ الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وقيام حياته على الفردية التي لا تتجاوز حدود القبيلة ، واعتماده النهب والسلب والغارات المتبادلة ، وشن الحروب لأتفه الأسباب ، فليس لهم -كما للأمم المحيطة بهم- نظامٌ سياسيٌّ جامعٌ ضابطٌ ، ولا قوانينُ رادعةٌ ، ولا مواثيقُ إنسانيةٌ تُحفَظُ بها الحقوقُ، وتُدْرأُ بها الشرورُ .

= لم نجد حجراً جمعنا حثوة من التّراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » . رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة ، ٥/ ١١٩ ، المطبعة الإسلامية ، تركيا .

(١) انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ١/ ١٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت .

نعم كان هناك لدى العرب كما لدى الأمم الأخرى تقاليدُ وأعرافٌ تضعها القبائل لأنفسها ، وكان هناك صورٌ من الأريحيَّة الإنسانيَّة لدى بعض الناس نابعة من المروءة والكرم وحب الخير ، وكان هناك بَعض ذوي البصائر المستنيرة التي تدرك فساد الحياة وبطلان الوثنية ، وهم المُسَمَّوْن بالحنفاء ، ولكن كل ذلك لم يكن قادراً على تحويل مجرى الحياة نحو الحق والصّلاح في جوانبها المختلفة المهترئة .

في هذه الأجواء العالميّة والعربيّة ، ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي في جزيرة العرب على يدي نبي الله محمّد ﷺ ، الذي قدّم للبشرية هداية الله لحياتها المنحرفة ، ورسالته لعلاج مشكلات الإنسانيَّة في كل الميادين ، وهي الهداية الكاملة التامة الباقية -دعوةً للبشرية- إلى زوال الدنيا .

بعثة محمّد ﷺ :

تتابعت قبل بعثة محمّد ﷺ رسالاتُ الله إلى الخلق من خلال أنبيائه الذين أرسلهم لتعريف الناس بالتصوّر الصحيح عن الوجود ، ومنهج الحركة السليم في الحياة ، ولكن هذه الرسالات بسبب أعدائها وبعض أتباعها حُرِّفت وبُدِّلت ، حتى لم تعد قادرةً على إمداد الإنسان بأسباب السعادة في التصوّر ، ومنهج التعبد ، والأخلاق والعمل ، فبعث الله محمّداً ﷺ في العرب الأميين ، الذين كانت قلوبهم أوعيةً مهيّأةً لاستيعاب الدين والتّفاعل معه بصفاء ، وحمله بإيمان مكين ، إذ لم تكن لديهم فلسفاتٌ ولا ثقافاتٌ نظريّةٌ تُشَوِّهُ حقيقة الدين إذا تَلَقَّوْها .

تلقّى النّبي ﷺ وحي ربه ، وبدأ دعوته فيمن حوله سراً أوّل الأمر ، ثم إعلاناً بعد ذلك ، وآمن به بعض الناس ، ولكن الوثنية ثارت ثائرتُها أمام هذه

الدّعوة التوحيدية التي تصادمها مصادمةً مباشرةً، فضايقوا الدّعوة، وحاربوا أتباعها، ثم هاجر الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة التي كانت قد انتشر فيها الإسلام، وسبقه إليها كثيرٌ من أتباعه هروباً من الاضطهاد، وطلباً لنصرة الدين الذي اعتنقوه.

في المدينة تَشكَّل المجتمع المسلم والدولة الإسلامية بقيادة الرّسول ﷺ حيث أقيمت فرائض الدين، وتكامَل تشريع العلاقات والمعاملات، وتحقق تطبيقها في مجتمع الصّحابة برعاية الرّسول ﷺ، حيث سيصبح هذا المجتمع بسمته ونظمه النموذج الأعلى لتمثل تعاليم الإسلام، ومن ثم القدوة للمجتمعات البشرية إلى قيام السّاعة.

وهكذا خلال الثلاث والعشرين سنةً، من بعثة الرسول ﷺ حتى وفاته من عام (٦١٠م) حتى (٦٣٢م) قدَّم الإسلام للبشرية الحائرة المتطلّعة نحو تجاوز أوضاعها الحضارية المتدهورة نموذجاً نظرياً وتطبيقياً للمجتمع الإنساني الأسمى:

- نظرياً من خلال تعاليم الوحي: القرآن المنزل من الله لفظاً ومعنًى، والسنّة المطهّرة الثابتة، التي تمثِّل جزءاً من الوحي وتبيِّن القرآن، وهما مصدران للحقيقة المطلقة في العقيدة، والتعبد، والأخلاق، وسائر شؤون حياة الإنسان، لا مجال لتوهّم إمكان الخطأ أو النّقص فيهما؛ لأنّهما من علم الله الحق الذي أنزل القرآن، وقال عنه: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[1].

- وتطبيقياً من خلال مجتمع الصّحابة الذين تلقّوا تلك التعاليم وكيّفوا حياتهم بها، ومجتمع الصّحابة مجتمعٌ بشريٌّ لا يحمل أفراده العِصْمَةَ من

---

(١) الآية رقم (٤٢) من سورة فصلت.

جهة، وحدود طاقتهم لا تتجاوز مستواها البشري في إطار الظّروف التي عاشوها من جهة أخرى، ولكن هذا المجتمع على الرّغم من ذلك يمثل الذّروة ؛ أي الصورة العلياً في تَمَثُّل الإسلام فهماً وعملاً لمبررات كثيرة من أبرزها :

- صحبتهم للرّسول ﷺ حيث تَرَبَّوا على يديه وهو يتلقّى الوحي من ربّه .
- وسلامة فطرهم؛ التي لم تَزِغْ بها الفلسفاتُ والأفكارُ المُشوَّهة .
- وسلامة منطقهم أي: لغتهم، حيث كانوا يتعاملون باللغة العربية التي جاء بها الوحي سليقةً ، فيَعُونَ ما يجيء به أعظم من وعي من تعلم اللّغة بعد عجمة أو لحن . . . إلى آخر المبرّرات التي امتاز بها الصَّحابة رضوان الله عليهم، وفقدها أو ضعفت لدى من جاء بعدهم[1] .

هذان النموذجان يمثلان الهداية الإلهية للبشرية حيث تنحصر الهداية بهما، فمن أراد السّعادة والفلاح فرداً أو مجتمعاً ، فلا مَناصَ له من التعويل عليهما وصبغ وجوده بتوجيهاتهما، ومن عزف عن الاستمداد منهما وحمل هدايتهما، فإنّه حتماً قد اختار طريق الفشل والشّقاء والخسار مهما اعتمد من مصادر المعرفة، حدساً، وعقلاً ، وذوقاً ، وغيرها، ومهما تَقَلَّبَ بين التجارب البشرية التي أخذت بها أم أخرى بعيداً عن هدي الله .

معالم التّشكيل الإسلامي للمجتمع :

*** إعادة الإنسان لفطرته السّوية :**

الإنسان ومن ثم المجتمع في أي عصرٍ ومكانٍ إذا انفلت من هدي الله

---

(١) انظر في هذا: مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، للمؤلف، ص ٤٣٩، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، دار إشبيليا، الرياض.

فسدت عقليّتُهُ، وانتكست إنسانيَّتُه، وانطمست فطرتُهُ، وتشوّهتْ بَديهياتُهُ، وسادت العبثية وجوده وحركته، وانقلبت قيمه إلى أضدادها معروفاً، ومنكراً.

ولهذا كانت الخطوة الأولى لدعوة هذا الإنسان نحو الإسلام هي إعادة الإنسان إلى وضعه الصّحيح بصفته مخلوقاً متميِّزاً مستقلاً له وظيفةٌ محدّدةٌ في هذه الحياة، وذلك ببعث فطرته السّوية بما أودعها خالقها من معاني التّوحيد، والقيم الخلقية، والنَّزعات الرّوحية التي بها تتبلور إنسانيَّةُ هذا الإنسان، وتميزه على المخلوقات المحيطة به في عالم الشّهادة.

وكان منهج الإسلام أن يزيل التشوُّهات التي حاقت بهذه الفطرة، وأن يخلصها من الارتهان لإملاءات ضالة تلقتها فيما سبق، فأصبحت حائلاً بينها وبين قبول الحق الجديد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[1]، وحينما تتجرّد الفطرة من هيمنة الأفكار والتّصورات الفاسدة، ويشرق نورها فإنّها تكون مؤهّلةً -بتوفيق الله- لطلب سعادتها وإدراك الحق في الطريق الموصل إليها: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[2].

وتكون جديرةً بحمل الأمانة العظمى التي حملها الله الإنسان: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[3].

---

(١) الآية رقم (١٧٠) من سورة البقرة.

(٢) الآية رقم (٤٦) من سورة سبأ.

(٣) الآية رقم (٧٢) من سورة الأحزاب.

*** العبوديّة والتّوحيد :**

« لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله » هذا هو عنوان الإسلام الكبير الذي تقوم عليه كل تعاليم الدين العقديّة والعباديّة والخلقيّة والتّشريعيّة .

الجـزء الأوّل من هذا العنوان « لا إله إلا الله » يعني إفـراد الله بأنواع التّوحيد الثلاثة دون شريك ، وهي توحيد الرّبوبيّة ، وتوحيد الألوهيّة ، وتوحيد الأسماء والصّفات .

والتوحيد هو القضيّة الكبرى لدين الإسلام منذ آدم - عليه السلام - إلى أن تقوم السّاعة ، فما أرسل الله رسولاً إلا دعا إلى التّوحيد ، وكافح الشّرك والوثنيّة .

ومن أبرز عناصر التّوحيد التي تمثّل المعالم لإسلاميَّة الفرد والمجتمع والأمة ، العناصر الثلاثة التالية :

- ألاَّ نبتغيَ غير الله ربّاً ، كما قال - سبحانه - في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [1] ؛ ممّا يعني إبطال الأرباب المزعومة أيّاً كانت ، واليقين بأن الله وحده هو الخالق الرّازق المدبّر ، الذي بيده الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآل ، وأنّ من سواه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره ، ويستلزم هذا اليقين الرّفض القاطع لعبوديّة غير الله وتأليهه ، وإفراد الله وحده بالعبادة والتذلّل والحبّ والخشية والرّجاء والتّوكّل والاستعانة .

ولهذا كان شعار المسلم دائماً هو « ربّنا الله » بهذا المعنى العظيم لها .

- ألاّ نتّخذ غير الله وليّاً كما قال - سبحانه - في السورة نفسها : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ

(١) الآية رقم (١٦٤) من سورة الأنعام .

اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾[1] .

ومقتضاه أن يخلص المسلم ولاءه لله تقديماً لأمره ، وحبّاً له ، ونصرةً لدينه ، مطهراً نفسه وحركته من الولاء لغير الله وحزبه ؛ لأنّ الولاء لأعداء الله محاربةٌ لله وخروجٌ على دينه : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾[2] . ولهذا كان الولاء لله ورسوله والمؤمنين ، والبَراء من الطواغيت والكفر وأهله أحد مبادئ التّميز الكبرى في الإسلام حتى قال النّاظم :

وما الدين إلاّ الحبّ والبغض والوَلاَ   كذاك البَرَا من كل غاوٍ وكافر

- ألاّ نجعلَ غير شرع الله لنا حكماً كما قال - سبحانه - أيضاً في سورة الأنعام : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[3] .

ومقتضى هذا العنصر أن يتّخذ المسلم فرداً ومجتمعاً شريعة الله التي بيّنتها تعاليم الكتاب والسّنة في كل ما قرّرته من تحليل وتحريم ، وصحّة وفساد ، ومعروف ومنكر - أن يتّخذها - المنهج الذي يحكمَ حياته في كلِّ جوانبها وأحوالها ، وأن يرد كلَّ تشريعٍ لم يأذن به الله ، ويخالف شريعته ، سواء كان عرفاً أو تقليداً ، أو قانوناً وضعياً ، أو نظريّةً اجتماعيّةً ، أو غير ذلك .

ولهذا فإنّ اتّخاذ شريعة غير شريعة الله خللٌ في توحيد الرّبوبيّة والألوهيّة ؛ لأنّه إشراكٌ لغير الله فيما هوَ من حقِّه - سبحانه - كما في تفسير الرّسول ﷺ لعدي بن حاتم قوله سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[4]

(١) الآية رقم (١٤) من سورة الأنعام .
(٢) الآية رقم (٢٨) من سورة آل عمران .
(٣) الآية رقم (١١٤) من سوة الأنعام .
(٤) الآية رقم (٣١) من سورة التوبة .

حينما قال عدي : إنّهم لم يعبدوهم فقال ﷺ : « بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا عليهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم »[1] .

ولكن ذلك لا يعني أنّ المجتمع المسلم لا يستفيد من الأنظمة والمناهج التي يصوغها البشر، وتنضجها التّجارب ، لكن استفادته منها تكون من خلال تحكيم الشّريعة فيها قبل اعتمادها ، فإن كانت لا تخالف الشريعة من جهة، وتحقق المصلحة الشرعية من جهة ثانية، فإنّ أخذها يتجاوز المباح إلى المطلوب الشّرعي .

والمراد أنّ الشريعة لا بدّ أن تكون هي المهيمنة على حركة المسلم كلها .

وهنا تأتي الجملة الثّانية في عنوان الإسلام وهي « محمّد رسول الله » فإنّ الإيمان بالله وتوحيده في الرّبوبية ، والإلهية ، والأسماء والصّفات، وإفراده بالحكم يقتضي أن نلتمس حكمه وشريعته من مصدرها الحق، وهو النّبي الذي تلقّى من الله هذه الشريعة وبلّغها الناس[2] .

وشهادة أنّ محمداً رسول الله تعني الإيمان بأنّه ﷺ نبيٌّ مرسلٌ من الله لخلقه بشرعه ودينه، وأنّه معصومٌ في تبليغ ما بلّغ من الدين، وأنّ كلّ ما جاء به حقٌّ واجب التّصديق والاتباع : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[4] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم، ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...﴾ الآية، ٢/ ٣٤٨، طبعة دار الفكر .

(٢) انظر في هذه العناصر : ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده، يوسف القرضاوي، ص ١٤، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة .

(٣) الآية رقم (٣٦) من سورة الأحزاب . (٤) الآية رقم (٦٥) من سورة النساء .

وهكذا بهاتين الجملتين وبهذا العنوان تقوم العبودية لله فيكون الدين الحق :

- ألاَّ نعبدَ إلا الله = لا إله إلا الله .

- وألاَّ نعبدَه إلا بما جاء به نبيه من شريعة = محمد رسول الله (١) .

هذه العبودية تمثِّل القيمة الإنسانية الكبرى ؛ لأنّها مرتكز وجود الإنسان في هذه الحياة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢)، ولهذا فإنّها تهيمن على القيم الإنسانية كلها ، فلا تتحقق قيمة تلك القيم في إسعاد الناس وإقامة إنسانيتهم السَّوية ونيلهم الفلاح الأخروي إلاَّ إذا انبثقت تلك القيم من قيمة العبودية ، فمثلاً :

الحق : هو الله سبحانه وتعالى وهو وحيه الذي جاء به رسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(٣)، وهو حكمته في خلقه وإبداعه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾(٤) .

والعدل : هو في أعلى صوره التوحيد الذي تحدثنا عنه ؛ لأنّ الشرك هو الظلم المبين كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٥)، وهو بعد ذلك شريعة الله في كل ما حكمت به بين العباد .

والخير : هو في صورته السامية المقبولة عند الله المرتفعة بمنزلة أهلها ، ذلك العمل الذي وُجِّهَ الوجهة الإنسانية وفق ما رسم الشرع ، طلباً لرضوان الله : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٦) .

---

(١) انظر : العبودية ، لابن تيمية ، ص ١٧٠ .

(٢) الآية رقم (٥٦) من سورة الذاريات .

(٣) الآية رقم (١٧٠) من سورة النساء .

(٤) الآية رقم (٣) من سورة التغابن .

(٥) الآية رقم (١٣) من سوة لقمان .

(٦) الآية رقم (١١٤) من سورة النساء .

وهكذا سائر القيم الخلقية الحضارية .

ولهذا تبدو منظومة القيم الإنسانية في المجتمع المسلم ذات سمت مُتميّز عن منظوماتها في المجتمعات الأخرى، وإن التقَتْ معها في عناوينَ القيم وبعض صورها التطبيقية، كالعدل، والخير، والجمال، وغيرها .

*** الإيمان بالغيب :**

الإيمان بالغيب هو الدرجة التي يرتقي إليها الإنسان فرداً أو مجتمعاً ليتجاوز الحياة الحيوانية التي يعيشها الذين لا يتعدى تفكيرهم ولا هَمُّهم ولا سعيهم الحدود المادية القريبة منهم .

وقد جعل الباري – سبحانه – الإيمان بالغيب السِّمَةَ الأولى من سمات المؤمنين في أوّل سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] .

والإيمان بالغيب لدى المسلم ليس مجرد اعتقاد فكريٍّ أو تصديق قلبيٍّ يبقى في طوايا النفس بعيداً عن اهتمامات الإنسان وتخطيطه للحياة وحركته فيها .

كلاَّ، إنّ هذا الإيمان يُؤثِّر في تصوُّر المسلم للوجود كله ، وفي حياة المجتمع من حيث خُطَطُه المستقبلية ، ونهوضه الحضاري[2] ، وعلاقاته الدولية .

إنّ البون شاسعٌ بين الذين يمارسون الأعمال الإنسانية إغاثةً وتبرُّعات وعطاءات مُنوَّعةً ليقتضوا بها مزيدَ ثراء ، أو عُلوَّ جاه، أو دعايةً لمشاريعهم ، وبين الذينَ يمارسونها استجابةً لأمر الله وطلباً لرضوانه .

---

(١) الآيات (١-٣) من سورة البقرة .

(٢) أقصد بالحضاري « الثقافي والمادي » .

والفرق كبير بين مجتمع ينظر إلى هذه الحياة بصفتها نهاية المطاف ، ومن ثم فرصته الوحيدة في الوجود ، فيرسم خُطَطَه ، ويُوحِّدُ جهده لاستيفاء مُتْعَته فيها دون رعاية لأيِّ اعتبار خارجها ، وبين المجتمع المسلم الذي يَعي أفرادُه أنّ الحياة الحقيقيةَ هي الحياة الآخرة ، وأنّ الدنيا دار مَمرٍّ ينبغي أن تكون مرحلة تأمين للمستقبل المتمثل بتلك الحياة الأخروية ، فقيمة الدنيا الاعتباريّة -لديهم- هو بهذا المقدار حسب توجيه الآية الكريمة : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾[1] .

فخُطَطُ هذا المجتمع وخدماته وإن تشابهت مع بعض خُطَط المجتمع المادي في أمور فَنِّيَّة كمّاً ونوعاً ، إلاّ أنّها في أهدافها وترتيب أولوياتها متميِّزةٌ عنها ؛ لأنّها محكومةٌ بهذا التصوّر المتميِّز للحياة .

والإيمان بالغيب يشمل كل أركان الإيمان الستة الواردة في الأحاديث الشريفة ، كحديث سؤال جبريل للنبي ﷺ عن مراتب الدِّين الذي جاء فيه حينما سأله عن الإيمان قوله ﷺ : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه** »[2] .

وعليه فالإيمان بالغيب يكون بما يلي :

* الإيمان بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

* الإيمان بالملائكة ؛ بما أخبر الله به عنهم من خصائصَ ووظائفَ .

* والإيمان بأنّ الله اصطفى من خلقه أشخاصاً ، وأمدّهم بقوة تمكِّنهم

---

(١) الآية رقم (٧٧) من سورة القصص .

(٢) حديث جبريل المشهور رواه مسلم وغيره ، انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ١/ ٣٦ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

من تلقّي وحيه ، وتبليغه للناس(١) ، وهم الرّسل، وآخرهم محمّد ﷺ .

* والإيمان بأنّ الله أنزل على رسله كتباً تحمل هدايته للناس ، وآخرها القرآن الكريم المنزل على خاتم الرسل محمد ﷺ والذي هيمن على الكتب السابقة ؛ ومن ثم انحصرت الهداية والشريعة فيما جاء به مع السنّة النبوية (٢) .

* والإيمان بقدر الله في الوجود ، حيث قدّر الأشياء والأحداث ، وأحاط بها علماً وكتابةً في اللوح المحفوظ ومشيئةً وخلقاً ، وأنّه ليس في العالم ما هو خارجٌ عن هذه المراتب الأربع ؛ لأنه لا ربّ في الوجود سوى الله سبحانه وتعالى .

* والإيمان باليوم الآخر بما فيه من بعثٍ ونشورٍ ، وعرضٍ على الله

---

(١) فقد كان الوحي ينزل على الرسول ﷺ وأصحابه محيطون به فيتلقاه واعيا كل ما يسمعه ، وأصحابه لا يدركون من ذلك إلا سماع دويّ كدويّ النحل عند رأسه ، أو رؤية ذلك في شخصه ﷺ .
وقد قال العلماء في الفرق بين الرؤيا الصالحة لغير الأنبياء والوحي إلى الأنبياء هو الفرق بين الاستعداد البشري العام لمطالعة شيء من الحقائق الغيبية في لمحات خاطفة وبين الاستعداد النبوي الخاص لمطالعة تلك الحقائق .
فضلاً عما يقارن الرؤيا من عوارض تسمح فيها لدخول الأوهام والوساوس ولمسات الشيطان خلافاً للوحي المقترن بعلم يقيني من الموحى إليه بأن ما ألقي إليه حق معصوم من عند الله فضلاً عن ذلك فقد ذكر بعض العلماء في تعليل غطٌ جبريل للنبي ﷺ عندما يرد الوحي إليه أنه « تمرينه على ما سيلاقيه من ثقل الوحي وشدائد النبوة » من كنوز السنة ، محمد عبد الله دراز ، ص ٢٣ .

(٢) وعليه فإن غيبية هذين الركنين (الرسل والكتب) إنّما هو في الإيمان بالخاصية الغيبية في كل منهما : الوحي إلى الرسل ، وإنزال الكتب من الله ، لا مجرد الاعتراف بالوجود الواقعي لهما ؛ شخص اسمه محمّد أو عيسى ، وكتب متداولة بين الناس ، وإن آمن بعظمة هؤلاء الأشخاص وهذه الكتب فإنه لا يعد مؤمناً ما لم يؤمن بالرسالة والإنزال . يقول ابن تيمية - رحمه الله - في رسالة الظاهر والباطن: «الإيمان بالله وبرسله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب فإن وصف الرسالة هو من المغيب» . الرسائل المنبرية ، ١/ ٢٣٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

وحساب ، ثمّ جنّة ونار ، وبأنّ المسؤوليّة الإنسانيّة أمام الله فرديّة ، حيث يحاسب الإنسان عن سيرة حياته الدنيويّة ، وما كسبه فيها من أعمال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1] .

وهناك أنواع أخرى من الغيبيات التي يجب الإيمان بها يقيناً ؛ لأنّ الله أخبرنا بها في وحيه ، كالجنّ والشياطين ، وبداية الوجود الإنساني خلقاً وتكريماً ، وأخبار الأمم الغابرة مع أنبيائها ، ونحو ذلك .

والإيمان بالغيب وفق المنهج الإسلامي يُوسِّعُ آفاق الوجود أمام المسلم ، فيشعرُ أنّ مداه أوسع في الزّمان والمكان ، من المحيط المادي الذي يدركه بحواسّه ، ومن ثمّ تكون حركته وحركة المجتمع المسلم حركةً استخلافيَّةً في هذه الحياة ، مرتبطةً بالله استمداداً منه واستعانةً به وتعبّداً له ، ومرتبطةً بالحياة الآخرة استعداداً لها ، وتهيّؤاً للقدوم عليها ، ومرتبطاً بعالم الغيب عموماً ارتباطَ رعايةٍ وأخذٍ بالحسبان في كلّ تطلّعاته الفكرية وانطلاقاته العمليّة .

منهاج الحياة :

على قاعدة التّوحيد ومن أجل تحقيق العبوديّة لله في جوانب الحياة الإنسانيّة كلها جاء الوحي -القرآن والسنّة- بمنهاجٍ تشريعيٍّ يُلبِّي الحاجات الفطريّة للوجود الإنساني روحياً ومادياً ، في ضمير الفرد ومحيط الجماعة ، في كل المجالات العباديّة والخلقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسِّياسيّة وغيرها .

بعضها جاءت أحكامه مُفَصَّلَةً مُحدَّدةً ، وهو المتعلّق بالجوانب الثابتة من

(١) الآيتان (٧-٨) من سورة الزلزلة .

وجود الإنسان وعلاقته وحركته ، كشعائر العبادة وأحكام الجرائم الكبرى ، والمقادير المحدّدة في المواريث والكفّارات ونحوها .

وبعضها وضع الوحي مبادئه العامة ، ورسم خطوطه الأساسية ، وفسح المجال للعقل والتجربة البشريّة أن يجدِّد في صوره بحسب تطوّره الحضاري وقدراته الماديّة والفكريّة ، كما في البيوع والإجارة والسِّياسة ونحوها ، على أن تبقى تلك الصّور المستحدثة مأطورةً بإطار الشريعة محكومةً بها ، وإليك نموذجاً من نظم الحياة في الإسلام :

(١) نظام العبادة :

كل أفعال المسلم ما دامت ملتزمةً بشرع الله ومطلوباً بها وجهه فهي عبادةٌ ، سواءٌ كانت صلةً بينه وبين الله كالصّلاة والدعاء ، أو بينه وبين الخلق كالمعاملات ، لكنَّ مصطلح العبادات غلب على الشَّعائر التَّعبديَّة التي ذكرت بعد الرّكن الأوّل من أركان الإسلام المتمثل بالشهادتين ، وهذه الأركان هي الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ ، وما ألحق بها من طهارةٍ وصدقاتٍ وعمرةٍ وسائر نوافلها[١] .

والعبادة الإسلاميّة بأسسها وأهدافها وآثارها وأركانها تمثل أعظم تميُّزٍ للمسلم -بعد الإيمان- عن البشر الآخرين .

ولا تنحصر العبادة بجانب فرديٍّ معزول عن الحياة الاجتماعيّة ، وإنّما تأخذ في الغالب طابعاً جماعياً واجتماعياً واضحاً ومؤثراً على حركة الحياة الاجتماعيّة بعمومها .

---

(١) في حديث جبريل المشهور قال جبريل : « أخبرني عن الإسلام ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » . صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ١/ ٣٦ .

* **فالصلاة المفروضة** خمس مرّات في الأربع وعشرين ساعةً إذا حان وقتها وقف المسلم فرداً وجماعةً لأدائها ، ولها تبنى المساجد ويعلن الأذان وبأدائها جماعةً تتوثق روح الألفة والمحبة والتعاون على الخير بين أفراد المجتمع ، فضلاً عمّا تحقّقه في نفس المُصلِّي نتيجة استسلامه لربِّه ومناجاته والشعور بمعيّته من سُموٍّ وإنسانيَّة وقوَّة قلب[1] .

وهناك صلاة الجمعة التي يُمثِّل يومها عيد الأسبوع في الإسلام ، وهي شعارٌ عظيمٌ للمجتمع الإسلامي بخطبتيها وركعتيها الجهريَّتَيْن وتجمّعها الأكبر ، ولأنّ المجتمع المسلم قائمٌ على توحيد الله بالعبادة ، فإنّه لا مجال لإقامة أي نوعٍ من المشاهد والمعابد سوى المساجد التي ينبغي أن تكون العبادة فيها لله وحده[2] ، فلا يُدفن فيها أحدٌ فتُجعل مزاراً لدعوة غير الله والتّوسّل به والطَّواف حوله ، وما هو موجودٌ في كثير من مجتمعات المسلمين اليوم من هذه المشاهد والمساجد القائمة على الأضرحة ممّا لم يأت به الإسلام ، بل هو من تأثير الأمم الوثنيّة على المسلمين .

والصّلاة -فرائضها وما شرع من سنن وذكر مصاحب لها - لا تستغرق من الوقت إلاَّ يسيراً يُمثِّل حالةَ توقف للمسلّم يقوّي فيه ارتباطه بربِّه ، ويتزود فيه بطاقة مُعينة على كَبَد الحياة ، والأصل أنّها تتمّ في جو جماعي -فرائض وجُمَعاً وأعياداً . . . - مما يقضي بتحديد أوقات أدائها بدقّة لِينطلق المسلم بعدها لشؤون حياته الأخرى[3] .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ الآية رقم (٤٥) من سورة العنكبوت .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ الآية رقم (١٨) من سورة الجن .

(٣) قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الآية رقم (١٠) من سورة الجمعة .

أمّا اعتزال النّاس للتّعبد الفردي ، والعزوف عن الحياة للتّفرغ لها ، أو كما هو مشاهد في بعض المجتمعات ، ينقطع أناس في المساجد والخلوات لتلاوة أوراد محدثة وممارسة طقوس تعبدية غير شرعية خلال أيام معينة أو مواسم محددة ، فإنّها بدعٌ محدثةٌ ليست من الدين ، ولم يمارسها الصّحابة وهم نموذج التّطبيق الأمثل للمنهاج الإسلامي .

* **الزّكاة** : حثّ الإسلام على الإنفاق والصّدقة على الفقراء والمحتاجين ، ولكنه لم يقف عند مجرد الحث على التبرّعات التطوّعية ، وإنّما أوجب على القادرين مادياً صرف جزء محدّد يزداد بزيادة الثراء في مصارف مُعيَّنة تُغطّي الاحتياجات الاجتماعية التيّ قدرهاَ الشّارع[1] .

والأموال التي تجب فيها الزّكاة هي الخمسة التالية :

- النّقدان (الذّهب والفضّة) وما يقوم مقامهما من العملات .
- الزّروع والثّمار .
- الرّكاز .
- عروض التجارة .
- بهيمة الأنعام السّائمة .

والزّكاة ليست من نوع الضّرائب التي تنظّمها الدول على الواردات ونحوها ، ولكنّها عبادةٌ مفروضةٌ من الله يكْفُرُ من جحد وجوبها ، ويُقاتَلُ من رفض أداءها[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآية رقم (٦٠) من سورة التوبة .

(٢) كما فعل أبو بكر – رضي الله عنه – مع مانعي الزكاة .

ومن أبرز أهداف الزّكاة : تطهير نفس المُزكّي من الشُّحّ ، وتنمية المال ببركة الإنفاق ، وهذا هو معنى الزّكاة لغةً[1] .

كما أنّها وسيلة من وسائل الضّمان الاجتماعي الذي يقي المجتمع المسلم من اختلال التوازن المادي بين أثرياء تتفاقم ثرواتُهم وشحُّهم ، وفقراء يزداد عوَزُهم وضَيَاعُهم ، وينمي فيهم مشاعر الرحمة والحنان وحبّ الخير المتبادل ، والتعاون لخير المجتمع بكلّ فئاته .

والدولة المسلمة هي المسؤولة عن جباية الزكاة وصرفها في مصارفها[2] .

* **الصِّيام** : الإسلام دينُ انضباطٍ في الحركة ، وضبطٍ للنّفس عن الانسياق وراء المغريات الشّهوانية التي توبقها .

والصّوم عبادةٌ تُمثّل ذروةً في هذا الانضباط ، حيث يكفُّ المسلم عن المباح له من الأكل والشُّرب والجماع نهاراً كاملاً لمدّة شهر في السّنة وجوباً عدا النّوافل ، ممّا يُربّيه على حجز نفسه عن الشّهوات المحرمة ، واللذّات الموقعة في الفسوق والعصيان ، ويجعله مرتبطاً بالله ، راغباً فيما عنده ، مؤثراً رضوانه على المُتَعِ الفانية التي جعلها عُبَّادُ الهوى غايتهم قائلين :

إنّما الدّنيا طعام وشرابٌ ومنامُ
فإذا فاتك هذا فعلى الدّنيا السّلامُ

ولأنّ الصِّيام محدّد الوقت والصِّفة ، فإنَّ شهرَهُ يُمثّل موسماً عبادياً للأمّة

---

(١) فالزكاة : الزكاء يعني الطّهر ، ويعني النّماء والزيادة ، والله تعالى يقول : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ الآية رقم (١٠٣) من سورة التوبة .

(٢) لأمر رسوله بقوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ الآية رقم (١٠٣) سورة التوبة ، ولفعل الرسول ﷺ ، ولموقف أبي بكر من مانعي الزكاة .

الإسلامية أجمع ، تقبل فيه على الصِّيام والقيام والذّكر وقراءة القرآن والمنافسة في سبل الخير، ويتغيّر فيه البرنامج اليومي ؛ وجبات ويقظةً ونوماً وحركةً عن سائر الأيام ، ولهذا تبدو آثارُهُ واضحةً في المجتمع المسْلم .

* **الحجّ** : لقاءٌ سنويٌّ جامعٌ مُحدَّدٌ الوقت والمكان والبرنامج ، يجب على كل مسلمٍ قادرٍ أن يشارك فيه مرّةً في عمره .

مكانه مهبط الوحي على محمّد ﷺ -مكّة المكرّمة - فيه إحرامٌ وطوافٌ حول الكعبة ، وسعيٌ بين الصّفا والمروة ، ووقوفٌ بعرفة يوم التّاسع من شهر ذي الحجة ، ومبيتٌ بمزدلفة ليلة العيد ، ورميٌ للجمار بمنى أيّام العيد ، ومبيتٌ بها في لياليها ، وحلقٌ للرّأس .

إنّ الحج تجريدٌ للتوحيد الذي هو قاعدة الإسلام كله حينما يعلن الحاج تلبيته : لبّيك اللّهمَّ لبَّيك لبَّيكَ لا شريك لك لبّيك ، إنّ الحمد والنِّعمة لك والملك لا شريك لك .

وهو تحقيقٌ للأخوّة الإسلامية حينما يتوحّد مئات الألوف من الحجيج في لباسهم وتلبيتهم وحركتهم ، لا فرق بين غنيٍّ وفقيرٍ ولا أميرٍ ومأمورٍ .

وهو إرواءٌ للنَّزعة الفطريَّة لدى الإنسان التي تهفو إلى مشاهد تتعبّد عندها ، فقد حقّق الإسلام للفطرة حضور هذه المشاعر مع الابتعاد به عن الشّرك بها أو حولها ، ممّا يقع فيه كثيرٌ من زُوَّار المشاهد الأخرى في العالم ؛ فالحاج وإن طاف حول الكعبة وقَبَّل الحجر الأسود ، والتزم ما بين الحجر والباب وصلّى خلف المقام ووقف حول جبل الرحمة ونحوها ، فإنّه في كل ذلك مُتَّجهٌ إلى الله وحده بالتّعبّد دون شريكٍ .

(٢) النِّظام الخلقي للمجتمع المسلم :

الإسلام دعوةٌ خلقيّةٌ تهدف إلى تزكية النّفس والسّمو بالعلاقات بين الناس نحو الكمال الإنساني[(١)] .

فمن أجل ذلك أرسى الإسلام نظاماً خلقياً متيناً :

- فمن جهة المعيار الخلقي أقام الإسلام الفضيلة على الشّعور الفطري لدى الإنسان في المعروف والمنكر ، وعلى ما قرّره الوحي من خيرٍ ينبغي أن يُفعل وشرٍّ ينبغي أن يجتنب .

ولكن الوحي -القرآن والسنّة- هو المعتمد ؛ لأنّ الشّعور الفطري قد يُلابسه من الأهواء ما يُشوِّهه .

- ومن جهة الالتزام الخلقي أناط الإسلام بإيمان المسلم بالله واليوم الآخر مهمّة ردعه عن المنكر ودفعه نحو المعروف ، وبما أنّ هذا الإيمان قد يضعف فلا يصبح قوّةً دافعةً نحو الفضيلة ، رادعةً عن الرذيلة ، أناط الله بالمجتمع المسلم كله من خلال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والنصيحة ونحوهما من صور الضّغط الاجتماعي هذه المهمّة تجاه من ضعف إيمانه ، فإن لم يبال بالمجتمع وضغطه فإنَّ مُهمّةَ أطره على الحق وحماية الفضيلة أن تنتهك من قبله تتعلّق بالدّولة من خلال ما شرعه الله من حدود ، وما خَوَّلَ للحاكم المسلم أن يتخذه من أسبابٍ لحماية المجتمع وصيانته من لَوْثَاتِ الفساد الخلقي .

والحق أنّ مهمّة الحاكم المسلم إزاء الأخلاق تتمثل بما يلي :

---

(١) قال ﷺ : « إنّما بعثت لأتّمم حسن الأخلاق » رواه مالك في الموطأ . وقال محقّق جامع الأصول : « للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن » ٤ / ٤ .

- نشر الفضيلة والدعوة إليها ، وتثقيف الناس بها من خلال التعليم والإعلام وغيرهما .
- تثبيتها في النفوس والحياة حتى تترسّخ في بِنْيَة المجتمع .
- حمايتها من الذبول والفساد من خلال جهد مشترك بين أفراد المجتمع بالرقابة اليقظة وبين الدولة بتطبيق التشريعاتً الحافظَة لسمت المجتمع خلقياً[1] .

(٢) النِّظام الاجتماعي :

وهو الذي يحكم العلاقات بين الزوجين والأولاد ووالديهم وذوي الرّحم، وهو ما يسمّى أحياناً بالنظام الأسري ، ويحكم العلاقات الثّنائية بين المسلمين عموماً ، بل بين المسلم وغير المسلم .

وفي هذا المجال رسَّخَ الإسلام عدداً من القيم الكبرى التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية ، كالعدل والإحسان ، والتكامل ، وحبّ الخير للغير ، والأخوّة ، والوحدة بين المسلمين والحقوق المتبادلة المحدّدة في أنواعها :

فبين الزّوجين -مَثَلاً- حقوقٌ خاصةٌ تختلف عن الحقوق بين الأولاد ووالديهم ، وعن الحقوق العامة بين سائر المسلمين وإن تداخلت في بعضها .

وزيادةً على القيم التي جعلها الشرع قاعدةً للعلاقات الاجتماعية هناك الآداب التكميلية التي تسمو بالتعامل الاجتماعي لدى المسلمين إلى درجة عالية من النُّبْلِ الإنساني والسُّمُوِّ الخلقي .

---

(١) انظر : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، للقرضاوي، ص ١٠٧ .

(٤) النِّظام الاقتصادي :

غاية الاقتصاد في الإسلام تحقيق العبوديّة لله وحده ، ولهذا لو تعارضت بعض الصور الاقتصادية مع العبوديّة فإنّ خيار المسلم الوحيد هو التخلّي عن تلك الصّور مهما كان مردودها المادّي ، والاستمساك بالعبوديّة .

والحركة الاقتصاديّة مسؤوليَّةٌ يتحمّلها المسلم أمام الله من جانبين :

- جانب الكسب .
- وجانب التصريف والإخراج .

وقد بيّن الشّارع المسالك المشروعة للكسب والإنفاق ، والمسالك المحرّمة حتى يتحمّل الإنسان مسؤوليّته على وضوحٍ وتبيُّنٍ للمنهج السّديد .

ومن ملامح نظام الإسلام الاقتصادي :

- إقرار الملكيّة الفرديّة المقيّدة بضوابط الشّريعة حينما يتجاوز صاحبها حدود الشرع كسبا أو صرفا .
- وكذلك اعتبار « الملكيّة العامة » للدولة ، وقد أعطى الإسلام الدولة المسلمة حقّ التدخل في ملكيّة الأفراد تحقيقاً لمقاصد الشّريعة .
- العمل هو الأساس في تحصيل المكاسب الماديّة، وهو قائمٌ على مبدأ الاستخلاف في الأرض، لاستثمار خيراتها في طاعة الله .
- رأس المال أساس أيضاً ، وقد دعا الإسلام للمحافظة عليه وإنمائه وأداء حقوقه، وعلى رأس المال المتمثّل بالملكيّة الفرديّة والعمل الإنساني -عليهما معاً- تقوم العمليّة الإنتاجيّة .

والخلاصة أنّ الاقتصاد في الإسلام :

- مرتبطٌ بالمنهاج الإسلامي الشّامل ، ومنطلقٌ من الأساس العقدي .

- وأنّه مجالٌ مفتوحٌ لتوليد صورٍ جديدةٍ تساوق الحالة المدنيَّة التي يعيشها الناس.
- لكنّه يبقى مأطوراً بالضّوابط التي جاءتْ بها تعاليم الوحي في كلّ صوره، وسائر حركته إنتاجاً وإخراجاً.

(٥) النظام السّياسي :

لما كان ضبطُ الحياة البشريّة وحركتها وفق المنهج الإنساني الرشيد من أهداف الإسلام التي جاء لتحقيقها، جاءت نصوصه التي توجّه إلى إقامة النّظام السياسي وبناء الدولة :

ومن ذلك قوله ﷺ : « إذا خرج ثلاثةٌ في سفرٍ فليُؤَمِّروا أحدهم »[١] « فأوجب -كما يقول ابن تيمية- تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السّفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع »[٢].

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[٣] ثم قال في الآية بعدها : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٤]، فبيّن واجب الحاكم في الأولى وواجب الرّعيّة في الثانية.

وقد أوجب الرّسول ﷺ انتماء المسلم إلى الدّولة الإسلاميّة والارتباط بها بالبيعة، قال ﷺ : « من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة ولا حجة له،

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٨) في الجهاد، قال محقق جامع الأصول - وهو عبد القادر الأرناؤوط -: إسناده حسنٌ، ٥/١٨، الطبعة الخامسة، ١٣٩٢هـ.
(٢) السياسة الشرعيَّة في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ص ١٦٩، دار الكتاب العربي.
(٣) الآية رقم (٥٨) من سورة النساء.
(٤) الآية رقم (٥٩) من سوة النساء.

ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهليَّةً »[1] فضلاً عن المقتضى المنطقي، حيث جاء الدّين بتشريعات في الجهاد، وإقامة الحدود ونحوها، ممّا لا يمكن إقامته إلاّ بنظامٍ سياسي، ودولةٍ تقوم بتنفيذه.

والنظام السياسي له جانبان:

- المقوّمات التي تمثّل القيم التي يتشكّل منها وينضبط بها.
- والأجهزة الآليّة التي تقوم على تلك القيم وتخدمها.

في الجانب الأوّل أرسى الإسلام للنظام السياسي عدداً من المقوّمات الشّاملة من أبرزها:

* **العقيدة**: فالدولة الإسلاميّة دولةٌ عقديّةٌ تقوم على توحيد الله، وتسعى لترسيخه في الحياة البشريّة، وتحقيق العبوديّة لله وحده، وجعل كلمته هي العليا.

* **التزام الشّريعة**: بالتقيّد بما جاء في القرآن الكريم والسّنة المطهّرة من أحكام وآداب من قبل الشّعب والسّلطة معاً برضًا وتسليم: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2] والعدول عن شريعة الله في الحكم خللٌ في إسلاميّة الدولة قد يصل إلى محق هذه الصفة، والحكم بتشريعات أخرى استبدالٌ للذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٨٥١).

(٢) الآية رقم (٦٥) من سورة النساء.

(٣) الآية رقم (٥٠) من سورة المائدة.

* **البيعة** : وهي ميثاقٌ بين عنصري الدولة :

- الشعب .

- والحاكم .

حيث يتعهّد الحاكم لأهل الحلّ والعقد ، ومن ثمّ للشعب بأن يحكم بالكتاب والسنة، وأن ينصح للمسلمين ، ويبايعه الناس على الطاعة والنصرة في المنشط والمكره إلاّ في معصية الله .

* **الشورى** : العمل التنفيذي للحاكم المسلم نوعان :

- نوع جاءت بشأنه أحكامٌ شرعيّةٌ نصيّةٌ، وهذه لا مجال فيها للشورى ؛ لأنه لا خِيَرَةَ للمسلم بعد حكم الله ، فالمَرَدُّ فيها إلى تعاليم الكتاب والسّنة مباشرةً ، فيما هو معلومٌ بالضرورة ممّا يدركه عموم الناس منها كالشعائر الكبرى، والقيم العليا ، ونحوها، وإلى هذه التعاليم من خلال اجتهاد علماء الشريعة في القضايا التي تحتاج إلى جهدٍ عقليٍّ يبذله الفقهاء للوصول إلى أحكامٍ شرعيّةٍ فيها .

- ونوع مبناه رعاية المصلحة العامة للأمة والمقاصد الشرعية الكليّة، كالتصرّفات السياسية الظرفيّة المتعلّقة بالحروب ، والمعاهدات والعلاقات والأنظمة التنفيذيّة الإداريّة والماليّة ونحوها ، وهذا النوع هو الذي تكون فيه الشورى من قِبَل الحاكم المسلم لأهل الحلّ والعقد، أو لذوي الاختصاص، أو لذوي الرّأي والمشورة ونحوهم .

وبهذا أمر الله نبيّه فقال : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(١).

(١) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران .

* **العدل** : هو القيمة التي بعث الله رسله لإقامتها في حياة الناس : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١) وقد أمر سبحانه بالحكم به : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(٢) .

ويكون العدل بتطبيق أحكام الشريعة الإسلاميّة ، ثمّ باعتماد القيم الإنسانيّة بالمساواة بين الناس، وإسناد المهمّات للمؤهّلين لها، وبحماية الناس من الظّلم وإزالته عنهم .

* **حماية الحقوق الإنسانيّة** : الحياة الإنسانيّة -فرديّةً واجتماعيّةً وحضاريّةً- قوامها هو نفوس الناس وعقولهم ، وعقائدهم وأخلاقهم وأموالهم .

ولحفظ هذه الحقوق جاءت الشريعة الإسلاميّة بحفظ الحياة والتملّك والتديّن والعفّة والعرض وكرامة الإنسان وفكره، ودرأتْ الإضرار بها والاعتداء عليها ، وجعلت هذا الاعتداء جريمةً يجازى فاعلها بالعقوبة الكافية قتلاً أو قطعاً لبعض الأعضاء ، أو جلداً أو غير ذلك ممّا جاءت به الشريعة وجعلتْ السّلطة هي المسؤول الأوّل عنها .

* **قيام السّلطة بوظائف الدّولة** : وهذه الوظائف استنبطها العلماء الباحثون في شؤون الحكم من الأدلّة الشّرعيّة ، وتطبيق الرّسول ﷺ وخلفائه الرّاشدين ، وممّا تستلزمه المصلحة الشّرعيّة .

ومن أبرز هذه المهمّات :

---

(١) الآية رقم (٢٥) من سورة الحديد.

(٢) الآية رقم (٥٨) من سورة النساء.

أ - حماية الإسلام في عقائده وأخلاقه وتنفيذه في شعائره وشرائعه ، ممّا يستلزم تربية الناس على الإيمان والأخلاق ، والتوجيه الإعلامي الملتزم بالفضيلة ، ومحاربة الانحرافات الفكريّة والسّلوكيّة .

ب - تحقيق الأمن وعدم الإخلال به من دعاة الفتن والفساد في الدّاخل ، ومن اعتداءات الأعداء من الخارج .

جـ - إقامة الحدود وردع أهل الظلم ، وحلّ المشكلات بقوّة الحكم ، وهي الوظيفة القضائيّة .

د - حفظ الاقتصاد وتنميته : سواء كان اقتصاد الدولة المسمى بـ(المال العام) في موارده ومصارفه ، أو اقتصاد مؤسسات الشعب وأفراده في البيوع والتأجير والعمل والإنتاج والتصنيع . . . إلخ .

هـ - تأهيل الناس وإعدادهم ؛ ليتوفّر منهم من يملك الأمانة والقوّة ، فيُولّى في وظائف الدّولة .

و - إعلاء كلمة الله في الأرض بالدّعوة إلى دين الله ونشر الإسلام بشتّى الوسائل وإقامة علم الجهاد في سبيل الله .

أمّا الجانب الثاني من النّظام السّياسي وهو « الأجهزة الآلية التي تقوم على تلك المقوّمات وتتمثّلها » فإنّ مجالها واسعٌ ؛ لأنّ الشريعة لم تحدّد نمطاً واحداً لمؤسسات الحكم وإجراءات تطبيقه ، إلاّ ما جاء في تلك المقوّمات من بيعة وشورى ، وخضوعٍ للشريعة ، واستهداف للمصلحة العامة ونحوها من القواعد العامة . فالتولية ، والبيعة ، والشورى ، والولايات التنفيذيّة والنيابيّة ، يمكن تحقيقها بأساليب مختلفة وصيغ تطبيقيّة تراعي في كلّ نمط منها ما يناسب أحوال الناس الاجتماعيّة والفكريّة والحضاريّة[1] .

(١) التنوع هنا هو في الصور الإجرائية للتطبيق أما مضامينها الكلية وضوابطها فقد استقرت في الفقه الإسلامي منذ قرون .

« إنّ الإسلام في كتابه وسنّته ألزمنا بمبادئ وقواعد عامة للحكم ، ولم يلزمنا بشكل معيّن من أشكال الحكم محدد الجزئيّات والتفصيلاتّ ، وكلّ نظامٍ يقوم على تلك المبادئ والأسس التي جاء بها الإسلام يعتبر نظاماً إسلاميّاً »[1] .

* * *

هذه هي معالم التشكيل الإسلامي للمجتمع :

- إعادة الإنسان لفطرته السّويّة .
- وتحقيق العبوديّة والتوحيد لله .
- والإيمان بالغيب .
- وإقامة الحياة على منهاج الله الذي شرعه في العبادات والأخلاق والاقتصاد والسّياسة ، وسائر جوانب الحياة الفرديّة والاجتماعيّة .

وقد تمثّل هذا التشكيل بأعلى صوره في مجتمع صحابة رسول الله ﷺ ممّا حقّق لهم فتوحات سريعةً كبيرةً ، ونقلةً حضاريّةً عجيبةً من الأميّة والسّذاجة والهمّ القريب والتخلّف في جوانب عديدة حينما كانوا في جاهليّتهم ، إلى أمّة علميّة مثقّفة ، يتجاوز همّها المصالح القريبة إلى المطالب الإنسانيّة الكبيرة في التحرير من عبوديّة العباد ، ومن الظلم ومن عبثيّة الحياة ، أمّةٍ خلقيّةٍ تُعلي الفضيلة ، وتقاوم الرّذيلة .

وعاشت الأجيال التالية للصحابة على هذا التراث المجيد ، ولكنّ هذه الأجيال لم تلتزم ذلك التشكيل التزام الصّحابة ، فصار يضعف هذا الالتزام قرناً بعد قرن بتأثير الأفكار المنحرفة ، والأديان الباطلة ، وتقاليد الأمم وثقافاتها على المسلمين ، حتى لم يعد لذلك التشكيل في صفائه وتكامله في كلّ جوانب الحياة

(١) نظام الإسلام - الحكم والدولة ، محمد المبارك ، ص٥٥ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، بيروت .

-بعد عشرة قرون من الرّسالة- وجودٌ إلاّ لدى أفرادٍ وفئاتٍ قليلةٍ من الناس .

وكان يظهر المصلحون والمجدّدون ليعودوا بالأمة سيرتها الأولى ، فيصلحون ما كتب الله لهم إصلاحه في مُحيطهم القريب ، وفي تلامذتهم ومن حولهم .

وكان من أبرز المصلحين الذين وُفِّقُوا في جهدهم الإصلاحي الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله تعالى .

المبحث الثاني

مرتكزات دعوة الشيخ محمد
ابن عبد الوهاب تعيد التشكيل الإسلامي للحياة

كان العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين « السابع عشر والثامن عشر الميلاديين » قد وصل -نتيجة ضعف صلته بالإسلام الذي كان به ظهوره الحضاري علمياً وخلقياً- إلى حالةٍ مؤسفةٍ من التخلّف والجهل وفوضى الحياة وضعف الهمم، وانحراف التصوّر الإسلامي، وقصور الوعي الدّيني عموماً، حتى أصبحت كثيرٌ من مجتمعاتهم كمّاً بشريّاً لا قيمة له في ذاته ، ولا أثر له في المجال الحضاري بصفته جزءاً من أمّة كانت صاحبةَ السّيادة الحضاريّة .

إنها حالة جعلت بعض الكفّار المتأمّلين لذلك الواقع يأسون لهذه الأمة، ويستنكرون انحدارها المريع .

ومن أشهر ذلك ما قاله "هوغارت " ومثله الكاتب الأمريكي "ستودارد" الذي قال بعد تصويره المشهور لحال المسلمين ملخّصاً: « وعلى الجملة فقد بُدِّل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرّسالة إلى الأرض في ذلك العصر، ورأى ما كان يدهى الإسلام لغضب وأطلق اللّعنة على من استحقّها من المسلمين، كما يلعن المرتدِّين وعبدة الأوثان »[1] .

وكانت الجزيرة العربيّة في ذلك الوقت تعاني ما تعانيه سائر مجتمعات

---

(١) في كتابه : حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وانظر بعض النقول في : محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي، ترجمة عبد العليم البستوي، ص ٣٢ - ٣٣، ١٤٠٤هـ.

المسلمين من تخلّف وجهل ، بل ربما زادت على كثير منها جهلاً بالدين ، واضطراباً في الأوضاع السّياسيّة ، حيث الاضطراب ومنطلق السّلب والنهب ، والصّراع على الزعامات ، حتى أحياناً في البلدة الواحدة التي لا يتجاوز سكّانها بضعة آلاف .

في هذه الآونة الحرجة من تاريخ المسلمين ، وُلد في إحدى قرى نجد وهي " العيينة " ابنٌ للقاضي فيها (عبد الوهّاب بن سليمان) الذي سمّى ولده « محمّداً » وذلك في سنة ١١١٥هـ .

شبّ هذا المولود متميّزاً بالذّكاء ، فحفظ القرآن قبل العاشرة من عمره ، ثمّ درس العلم الشّرعي في بلدته ، وسافر إلى مكّة والمدينة والبصرة والأحساء متزوّداً من العلم في كلّ مكانٍ يجده فيه .

أقبل على كُتُب المصلح السّلفي البارع شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكُتُب تلميذه ابن قيّم الجوزيّة وهي كتبٌ تتسم بشموليتها العلميَّة وبمنهجيّتها ، وسلفيّتها ، أي بردّها القضايا كلّها عقديّةً أو شرعيّةً إلى القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة ، فنهل منها بفهمٍ ووعيٍ .

وهكذا تشكّلت شخصيّته العلميّة الناضجة[١] ، حيث حفزها ذلك إلى أن تبدأ مسيرة حركيّة توجه الواقع البشري نحو المسلك الصحيح في الحياة في كافة جوانبها ، وهنا بدأتْ « دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب » في نجد في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، فقلبت الأحوال في الجزيرة العربيّة ، وامتدّ أثرها في العالم الإسلامي كلّه خلال ما تلا ذلك من قرونٍ حتى الآن .

---

(١) انظر : علماء نجد خلال ستة قرون ، لعبد الله البسام ، ١/ ٢٥ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـ .

دعوة متميّزة : خلال الأجيال التالية لظهور الإسلام على امتداد القرون، ظهرت دعواتٌ إصلاحيّةٌ تجديديّةٌ ، وبرز قادةٌ سياسيّون استهدفوا التغيير والإصلاح ، وتفاوتتْ نجاحاتُ هذه الدّعوات قوّةً وضعفاً .

لكن هذه الدّعوة التي بعثها « محمد بن عبد الوهاب في نجد » كان لها تميّزها الذي انعكس على تأثيرها .

* لقد وعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب حقيقة الخلل الذي أصاب المسلمين فسقطوا تاريخيّاً ، والذي تمكن في الجزيرة موطن العرب الذين بهم اعتزّ الإسلام في ظهوره الأوّل ؛ وردّ هذا الخلل إلى سببه الرّئيس ، وهو تخلي كثير منهم عن الإسلام في حقيقته الصحيحة التي جاء بها محمد ﷺ وحملها أصحابه، ممّا جعل تجاوز هذا الخلل لا يتحقّق إلاّ باتّقاء سببه ، وذلك بالعودة الصّادقة إلى الدّين .

وهو هنا يستعيد السّنة التاريخيّة التي نظّرها العالم المسلم عبد الرّحمن بن خلدون في القرن الثامن الهجري من خلال استقراء تاريخيٍّ لعلاقة العرب بالإسلام، حيث السّموّ والنظام والإنسانيّة والتفوّق الحضاري حين التزام الإسلام التزاماً إيمانياً دعوياً، في مقابل الهمجيّة وسقوط الهمّة والتراجع الإنساني والحضاري إذا تفلّتوا من الدين ؛ يقول ابن خلدون وهو يتحدّث في فصل : أنّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك :

« . . . وإنّما يصيرون إلى –سياسة الملك – بعد انقلاب طباعهم وتبدّلها بصبغة دينيّة تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم ، وتحملهم على دفاع النّاس بعضهم عن بعض كما ذكرناه ، واعتبر ذلك بدولتهم في الملّة لما شيّد لهم الدّين أمر السياسة بالشّريعة وأحكامها، المراعية لمصالح العمران ظاهراً

وباطناً . . عظم حينئذ ملكهم ، وقوي سلطانهم . . ثمّ إنّهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيالٌ نبذوا الدّين ، فنسوا السياسة ، ورجعوا إلى قفرهم ، وجهلوا شأن عصبيّتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة ، فتوحّشوا كما كانوا . . وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته».

وبعد ذكر بروزهم في القرون الإسلاميّة الأولى يقول : «لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدّين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة ، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة ، كما في المغرب لهذا العهد ، فلا يكون مآله وغايته إلاّ تخريب ما يستولون عليه من العمران»[1] .

هي إذن حقيقة تاريخيّة كبرى ، سنة من سنن الله الماضية : «أنّ الإنسان العربي جبلّةً وتاريخاً اجتماعيّاً وسياسياً لا يصلح بغير نبيٍّ، وأنّ تاريخه ينقسم قسمين واضحين لا لبس فيهما :

- القسم الذي ارتبط فيه هذا الإنسان العربي بالنبوّة وبصبغة دينيّة ، وهم في هذا القسم ليسوا مجرّد بشرٍ ، وإنّما هم ملائكة الدّنيا وصنّاع الحضارة وساسة الملك .

- والقسم الثاني حين ينفصل العرب عن النّبوّة وعن الدّين وعن الصّبغة الدّينيّة . . إنّهم ينحدرون فوراً من مستوى الملائكيّة والإنسانيّة العالية ، ليس إلى مستوى العقل ، أو العمل وفق المصلحة الدنيويّة أو قوانين الاجتماع الإنساني ، بل إلى مستوى البداوة والانحطاط ، حيث يكونون أقرب إلى «الحيوانيّة» يقاتل الواحد منهم أخاه ، ويخون الواحد منهم وطنه ، وتدور

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٥٢ ، الطبعة الأولى، دار القلم، سنة ١٩٧٨م.

بينهم حروبٌ على ناقة أربعين سنةً ، وينسون الأخطار المحدقة بهم من أعداء دينهم ووطنهم ، فيتقاتلون على حدودٍ وهميّةٍ صنعها لهم أعداؤهم . . . »[1] .

هذه السنة الربانيّة الجارية على العرب -كما يقول ابن خلدون- يراها المصلحون ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب عامة للأمة المسلمة ، حتى من العجم ، ومن هنا كانت استعدادتهم لقول الإمام مالك - رحمه الله- : « لا تصلح هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلها » ، ومن الوعي بها كان منطلق دعوته .

* أيضاً فقد وعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب -من وعيه بحقيقة الإسلام- ضرورة شمولية الدعوة لكل جوانب الحياة العقديّة والعبادية ، والخلقيّة والاجتماعيّة لتستكمل الشخصيّة الإسلاميّة سمتها ، رافضاً الصور التجزيئيّة للإسلام :

- التي أحالته إلى تصوّرات فكريّة جافّة عن الوجود ، كما في علم الكلام .
- وإلى تهويمات صوفيّة وجدانيّة منكفئة عن حركة الحياة لدى كثير من المتصوّفة .
- وإلى رسومٍ شكليّةٍ من السلوكيات خاويةٍ من الإيمان الدافق والأساس العقدي .
- وإلى عبادات شعائريّة محدودة يشعر المسلم بعدها بحريّته في الخضوع لغير الدين أعرافاً وتقاليد وأنظمةً لا صلة لها بالإسلام . . . إلخ الصور .

لهذا لم ينحصر الشيخ في فنٍّ شرعيٍّ متجاهلاً الفنون الأخرى، لم يكن مجرّد عالم كلام، ولا فقيهاً بالأحكام العمليّة التفصيليّة ، ولا مقتصراً على الوعظ بالعبوديّات النفسيّة القلبيّة حبّاً وخوفاً ورجاءً ونحوها ، وإنّما كان ذلك

---

(١) التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، عبد الحليم عويس، ص ١٣٤ .

كلّه ومؤلّفاته شاهد ذلك، وشخصيّة الحركة التي بعثها دليل ذلك .

* ومع هذه الشموليّة فقد وعى الشيخ أنّ الأساس والمرتكز هو العقيدة، فالعقيدة هي الطاقة الكهربائيّة التي لا قيمة للأسلاك ولا المصابيح ولا الأجهزة ما لم تستمدّ منها تلك الطّاقة التي تبثّ فيها الحياة، وتحقق منها الثمرة، ومن ثمّ تكون ديناً؛ أي مقبولةً عند الله تعالى[1] .

ولهذا كان أوّل كتاب ألّفه الشيخ هو " كتاب التوحيد " الذي قرّر فيه مسائل العقيدة المهمّة ، وكشف في ضوئها الانحراف الذي وقع فيه كثير من الناس في صورة ممارساتٍ شركيّةٍ وبدعيّةٍ يظنّونها من الإسلام وهي تضادّه .

ومن السّهل إدراك أثر هذا التميّز في نجاح دعوة الشّيخ من المقارنة بدعوات كثيرة لم تعط الجانب العقدي مقامه الأولى ، فكان لذلك أثره السّلبي في حركتها ، وشخصيات أتباعها .

* وعى الشيخ أنّه لا بدّ للدعوة من قوّة سياسيّة تتمثّل الدعوة ؛ ليقوم عليها نظامها السياسي؛ أي أنّ السياسة لدى هذه القوّة تندمج في الدعوة، لا أنّها تحمل الدعوة فقط أو تنصر دعاتها لمصلحة سياسيّة بحتة التقت السياسة مع الدعوة فيها في ظرفٍ معيّن، كما تفعل بعض الدّول حينما تريد مقاومة تيّار فكريٍّ أو حزبي معيّن، فتستعين بالاتجاه الإسلامي لمحاربته باسم محاربة الغزو الفكري الذي يمثّله ، لقد بحث الشيخ عن قوّةٍ سياسيّةٍ تصبح هي الدعوة[2] .

---

(١) قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ الآية رقم (٩٧) من سورة النحل.

(٢) قال الملك عبد العزيز مقرراً هذه الحقيقة: « البيت السعودي صاحب رسالة قبل أن يكون بيت ملك ». السعوديون والحل الإسلامي، محمد جلال كشك، ص ١١٥، الطبعة الثالثة.

* أدرك الشيخ تفرّد دعوته التي يدعو إليها، فهي تدعو إلى أعظم حقائق الوجود الإنساني « العبوديّة لله » الحقيقة التي بها -وحدها- سعادة الإنسانيّة، الحقيقة التي على أهميّتها هذه، فإنّ وجودها في حياة البشريّة عموماً قد تضاءل، وأصابها التشويه، وعتّمت عليها الضلالات لا عند العامة والجماهير، بل عند كثيرٍ من العلماء والقادة الفكريين.

هذا الإدراك ولّد لدى الشيخ، ومن ثمّ لدى أتباعه شعوراً بالتميّز والاستعلاء الذي يحفز إلى الانطلاق غير المتردّد أو المتعثّر أمام العوائق نحو تحقيق هذا الطّموح الجليل.

وهذه هي عقدة « التفوّق » التي لا بدّ منها لأيّ حركة تستهدف النهوض الحضاري في إطار تراثها وقيمها الخاصّة.

في ضوء هذا الوعي بهذه التميّزات وغيرها بدأ الشيخ دعوته إلى الإسلام وفق صورته الصحيحة، التي رسمتها تعاليم القرآن الكريم والسّنة المطهّرة، والتمس القوّة السياسيّة عام (١١٥٤هـ) في بلدة العيينة لدى أميرها ابن معمر، لكنّها لم تستطع الامتزاج بالدّين امتزاجاً لا رجعةَ فيه، فسهل انفصالها عنه نتيجة تهديد جاء ابن معمر من حاكم الأحساء سليمان بن محمد الخالدي بأن يتخلّى عن الدّعوة والداعية.

لقد حاول الشيخ أن يُمدَّ ابن معمر من الإيمان الواثق الذي يحمله بنجاح الدعوة وعلوّ شأن من يرفعها، حتى على حاكم " الأحساء " نفسه، لكنّه لم يستطع تثبيت قلبه، فأعلن للشيخ تخلّيه عنه، وضرورة خروج الشّيخ عن بلده[1].

---

(١) انظر: عنوان المجد، ١/ ٢٣.

هنا اتجه الشيخ - على قَدَرٍ - نحو الدرعية لتبدأ فصول حركة تاريخيّة امتدّتْ زماناً ومكاناً وما زالتْ .

كانت أسرة حاكم الدرعية وهو محمد بن سعود بن مقرن القريبة (زوجته وأخواه) تمتاز بالعقل والدين .

والعقل والدين هما القاعدتان اللّتان تقوم عليهما الحياة البشريّة فتفيض إنسانيّةً وعدلاً .

الدين بدليل أنّ أخوي الحاكم - وهما مشاري وثنيان - كان قد تبعا الدعوة قبل أن تأتي للدرعية .

والعقل الذي يمثّله موقف زوجة الحاكم محمد بن سعود في حثّها زوجها ألاّ يتردّدَ في استقبال الشيخ ودعمه ، وأنّه غنيمة ينبغي ألاّ يحرِمَ نفسه إيّاها وقد جاءت إليه .

ثمّ هما (العقل والدين) يتمثّلان في موقف الحاكم نفسه محمد بن سعود وهو يستقبل الشيخ ، ويعلن تبنّي دعوته لتصبح هي رسالة دولته التي ستمتدّ عبر القرون تتمثّلها ، وتدعو إليها ، وتجاهد في سبيلها وفي موقفه حينما استوعب الدّرس الإيمانيّ من الشّيخ برفعة من يعلي « لا إله إلاّ الله » ، حيث يشترط على الشيخ أن يظلّ مع دولته بعد النصر والتمكين ، ممّا يدلّ على ظنٍ غالب بالظّهور لا تهزّه المعوّقات الماديّة التي لا بدّ من وقوعها ، كما يدلّ على وعيه أن بقاء الدعوة مع الدولة ، ليس فقط سبباً في ظهورها ، بل وفي امتداد سيادتها وتماسك انطلاقتها الحضاريّة ، وأن تخلّيها عن الدعوة خطرٌ على وجودها وعاملٌ أكبر في فنائها[1] .

---

(١) وهي قضية لم يزل يعيها قادة الدولة السعودية المتتابعون، ويؤكّدونها في خطبهم وأعمالهم .

وبتعاهد الأمير محمّد بن سعود ، والشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب في الدّرعية عام (١١٥٧هـ) بدأت الحركة غير المتعثّرة لإعادة التشكيل الإسلامي للحياة، من خلال المرتكزات التالية :

المرتكز الأوّل : التوحيد

التوحيد هو غاية الوجود الإنساني ، ومن أجله بعث الله الرّسل وأنزل الكتب، وهو مضمون الشهادة « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » أوّل أركان الإسلام ومدخله .

هذا التوحيد هو الذي رسخه الرّسول محمّد ﷺ وبنى عليه شخصيّات أصحابه، مطهّراً قلوبهم وسلوكهم وجزيرتهم من كلّ ما يخالفه من شرك ووثنيّة ، وهو التوحيد الذي استهدفه الصحابة وتابعوهم بإحسان من فتوحاتهم لممالك الأرض[1]. لكنّ الأمّة الإسلاميّة صاحبة التوحيد جهل فئام من أبنائها بعد تطاول القرون حقيقة هذا التوحيد ، وانتشر فيهم الشّرك ، وعادت الوثنيّة في صورها المختلفة إلى حياتها ، حتى في الجزيرة العربيّة مهد التّوحيد .

وحينما بدأ الشّيخ دعوته وأدرك قيمة التوحيد في الإسلام من جهة ، وانحراف الواقع عنه من جهة أخرى ، جعله محور حركته ، وأعلن صراحةً هذه الحقيقة على الرّغم من صعوبتها على النّفوس، خاصّةً ممن يوصفون بالعلم الشّرعي حينما يدانون بجهلهم أكبر حقائق الدّين، لكن المداجاة في هذه المسألة لا سبيل إليها، بل السّبيل هو الصّراحة، قال الشيخ في رسالة بعث بها من

---

(١) حيث قال ربعي مجيباً "رستم" قائد الفرس في القادسية لما سأله عن سبب مجيئهم : « **الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . . .** ».

الدّرعية إلى أهل الرّياض ومنفوحة : « فمن زعم من علماء العارض أنّه عرف معنى « لا إله إلاّ الله » ، أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت ، أو زعم عن مشايخه أنّ أحداً عرف ذلك فقد كذب وافترى ، ولبس على الناس ، ومدح نفسه بما ليس فيه، وشاهد هذا أنّ عبد الله بن عيسى ما نعرف في علماء نجد ولا علماء العارض ولا غيره أجلّ منه ، وهذا كلامه واصلٌ إليكم »(١) .

وإذنْ فلا بدّ من تحقيق التوحيد في الواقع ، ومطاردة الشّرك والوثنيّة ، وهنا تأتي مشكلة المنهج لتحقيق التوحيد ، وهي مشكلةٌ خطيرةٌ؛ لأنّها كانت إحدى أكبر الأسباب التي أُفْسِدَ التوحيد من خلالها، لقد استبعد الشيخ مناهج علم الكلام والفلسفة في دراسة التوحيد، كما استبعد مناهج الفلسفة الصّوفيّة ؛ لأنّها كانت بشهادة التاريخ عامل انحراف بالتوحيد عن صورته الإسلاميّة .

ولم يبق إلاّ منهج السّلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، كالأئمّة الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهمٍ، وذلك بالاعتماد على نصوص القرآن والسنة، وفهم هذا السّلف الكريم بالأسلوب الفطري البسيط الذي تتبلور فيه الحقيقة جليّةً للعامي والمثقّف والعالم على السّواء.

ومن أبرز عناصر تقريره للتوحيد ما يلي :

* التوحيد ثلاثة أنواعٍ لا بدّ منها مجتمعةً :

---

(١) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، طُبع بجامعة الإمام، الرسائل الشخصيّة، رسالة رقم ٢٨، ص ١٨٧ ، وكلام ابن عيسى هو رسالة عامة وجهها للناس يقول فيها: « . . فالله الله عباد الله، لا تغترّوا بمن لا يعرف شهادة أن لا إله إلا الله وتلطّخ بالشّرك، وهو لا يشعر؛ فقد مضى أكثر حياتي ولم أعرف من أنواعه ما أعرفه اليوم، فلله الحمد على ما علمنا من دينه ». المرجع نفسه ص ١٩٣ .

- توحيد الله بأفعاله في الوجود خلقاً وتدبيراً وهدايةً ، وهو توحيد الرّبوبيّة .
- توحيد الله بأفعال العباد ونحوه صلاةً وصياماً ، وحبّاً وخوفاً، ورجاءً واستعانةً ، واستغاثةً ودعاءً . . . إلخ ، وهو توحيد الألوهيّة .
- توحيد الأسماء والصّفات، بالإقرار بما جاء في النصوص منها ودعاء الله بها .

* لا إله إلاّ الله كلمةٌ يردّدها الملايين ، لكن قيمتها لا تتحقّق إلاّ بوعي معناها والالتزام به ، ويكون ذلك بشروط سبعة هي عناصر معنى هذه الشهادة ، وهي :

- العلم ، ويقابله الجهل .
- الانقياد له ، ويقابله التَّرك .
- اليقين، ويقابله الشّكّ .
- الإخلاص، ويقابله الشّرك .
- القبول، ويناقضه الرّدّ .
- الصّدق، ويقابله الكذب .
- المحبّة، ويضادّها الكره والبغض والعداء .

* شهادة أنّ محمّداً رسول الله : لا تتحقّق إلاّ بمتابعة الرسول محمّد ﷺ في الاعتقادات والأقوال والأعمال ، ووزن جميع التصرّفات البشريّة بمنهجه ، فمقتضى هذه الشهادة « طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وألاّ يعبد الله إلا بما شرع » .

* الكفر بالطّواغيت : لا يتحقّق الإيمان الصّحيح بالله إلاّ بالكفر بكلّ طاغوت، سواء كان ممّن ادّعى الألوهيّة كاملةً ، أو ادّعى جزءاً منها، وقد ذكر

الشيخ خمسةً قال : إنّهم رؤوس الطواغيت ، وهم :
- إبليس .
- من عُبِدَ وهو راضٍ .
- من دعا الناس إلى عبادة نفسه .
- من ادّعى شيئاً من علم الغيب كاهناً أو عرّافاً أو غيره .
- من حكم بغير ما أنزل الله .

* البيان التفصيلي للمصطلحات الشرعيّة الكبرى في العقيدة :

- مثل مراتب الدّين : الإسلام والإيمان والإحسان .
- ومثل الكفر وأنواعه .
- والشّرك وأنواعه .
- والنفاق وأنواعه .

* نواقض الإسلام : إذ ينبغي للمسلم إذا أشاد بنيان توحيده أن يصونه من المؤثّرات التي تستهدف تشويهه وإفساده ، ومن أهمّها النواقض العشرة التالية :

- الشرك بالله في العبادة ، كالتوكّل على غيره ، والاستعانة به ، والذّبح له .
- جعل وسائط بينه وبين الله يدعوهم ويسألهم الشفاعة .
- اعتقاد أنّ المشركين أو الكفّار على حقٍّ في شركهم وكفرهم ، أو الشّكّ بأنّ ما هم عليه باطلٌ .
- أن يعتقد أنّ الأحكام التي شرعها البشر أكمل وأحسن من الأحكام التي شرعها الله ورسوله ﷺ .
- بغض شيء ممّا جاء به الرّسول ﷺ سواء كان من العقائد أو الأحكام .
- الاستهزاء بشيء من دين الرسول ﷺ ، أو بثواب الله وعقابه .
- السحر ، لما فيه من استعانة بالشياطين تؤدّي إلى عبادتهم .

- الولاء للمشركين ونصرتهم على المسلمين .
- اعتقاد أنّه لا يلزم جميع الناس اتّباع الرّسول محمّد ﷺ ، وأنّه يمكن لبعض الناس أن يجد لنفسه ديناً غير الدين الذي جاء به ﷺ .
- الإعراض عن دين الله الحقّ رغبةً عنه لا يتعلّمه ولا يعمل به[١] .

* سدّ الذرائع الشركيّة : كما أنّه ينبغي صيانة التوحيد من النواقض الخطيرة ، كذلك فإنّه ينبغي حياطته من الشّوائب الشركيّة التي تكون خفيةً أو مشتبهةً على بعض الناس أوّل الأمر ، لكنّها تتطوّر إلى شرك أكبر مخرجٍ عن الملّة ، كالرياء والسمعة في العبادات ، والحلف بغير الله ، وقول ما شاء الله وشئت ، والبناء على القبور وغيرها ممّا ذكره في كتاب التوحيد وغيره[٢] .

هذا هو التوحيد الذي جعله الشّيخ المحور الأوّل والمنطلق لحركته المتجهة لإصلاح حياة الناس .

وهذا التوحيد بتحريره القلوب من الخوف والطّمع والهلع من غير الله ، يحرّر حركة الناس بالتالي من كلّ العبوديّات لغير الله ، ولهذا كان طبيعيّاً أن تصطدم الدعوة فور إعلانها هذا المبدأ بكلّ القوى المستغلّة لجهل الإنسان ، ومن ثمّ سهولة التلاعب بمشاعره واستتباعه ، فاصطدمت بالطّرق الصّوفيّة ، وبالوثنيّات الضريحيّة ، وبالسياسات الجائرة ، وبمدعي العلم الدجالين فضلاً عن

---

(١) انظر في هذه المسائل رسائل الشيخ مثل : رسالة في معنى الطاغوت ، ورسالة " الأصول الثلاثة " ، ورسالة " نواقض الإسلام " في :
- مجموعة التوحيد ، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة .
- القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أخرجته جامعة الإمام ، طبع مطابع الرياض .

(٢) كل هذه المسائل مبثوثة في كتب الشيخ ورسائله ، رحمه الله .

الكهّان والعرّافين والمنجّمين[1] .

ولكنّها لوضوح إسلاميّة منطلقها أمام تهافت الدعوات المناقضة لها ، استطاعت أن تكسب القلوب ، وأن تجذب الفطر السّليمة وأن يعترف حتى الكفّار بانطباقها على الصّورة العقديّة التي جاء بها الرّسول ﷺ وتمثّلها الصّحابة .

مثل قول " يوركهارت " الذي التقى بالإمام سعود بن عبد العزيز عام (١٨١٠م) : « ما الوهابية إذا شئنا أن نصفها إلاّ الإسلام في طهارته الأولى » . وقال : « لكي نصف الدين الوهابي فإنّ ذلك يعني وصف العقيدة الإسلاميّة »[2] .

هذا المنطلق التوحيدي حقّق لهذه الدعوة ولحياة أتباعها صحة إسلاميّتها في الفكر والعبادة ومنهج الحياة العمليّة ، وحمى المجتمع السعودي بعد الانفتاح على المجتمع الحديث من الانجراف وراء الفلسفات والنظريات التي تفسّر الكون وترسم مناهج الحياة على أصول مناقضة للإسلام ، تحارب الدين صراحةً ، أو تجعله ثانوياً فردياً مبعداً عن الحياة الاجتماعيّة ، وهو ما أثر على كثيرٍ من مجتمعات المسلمين .

المرتكز الثّاني : العلميّة

ليس غريباً على دعوة تنادي بالعودة إلى الإسلام الصّحيح الذي دعا الإنسان ليقيم إيمانه بحقائقه العقديّة على فكر متجرّد من الأهواء ، مرتكز على القواعد الفطريّة التي لا تقوم معرفةٌ سليمةٌ في أي مجال إلاّ بالارتكاز عليها : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[3] .

---

(١) ولاريب أنه كان هناك علماء شرعيون يدركون صواب هذه الدعوة ويسعدهم ظهورها .

(٢) نقلاً من : السعوديون والحل الإسلامي ، ص ١٣٣ .

(٣) الآية رقم (٤٦) من سورة سبأ .

والذي يجعل العلم سابقاً للعمل وموجّهاً له : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[1] ليس غريباً أن تجعل العلم خطوتها الأولى في سير الحركة .

لقد ذكر الشيخ محمّد بن عبد الوهاب أنّ المنهج التّربوي لصياغة الشّخصية المسلمة صياغةً متكاملةً يتحقّق بخطواتٍ أربع وهي :

- العلم .
- ثمّ العمل بمقتضى هذا العلم .
- ثمّ الدّعوة إليه .
- ثمّ الصّبر على الأذى فيه والثّبات معه .

آخذاً هذه الخطوات من سورة العصر التي أقسم الله فيها أنّ الإنسان لا نجاة له من الخسران الدّنيوي والأخروي إلا بتحقّقه بأربع صفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[2] .

لربّما يقال ؛ لكن هذا العلم الذي جعله الخطوة الأولى في بناء الشّخصيّة الإسلاميّة محصورٌ بمعرفة محدودة هي المعرفة الشرعيّة فقط ، أمّا العلم كما هو في الاصطلاح المعاصر « المعارف الرّياضية والتّجريبية » فهو خارج هذا الإطار إن لم يكن حصر العلم بالمعرفة الشّرعيّة إيذاناً بنفيه أصلاً .

والإجابة عن هذا التّساؤل أنّ العلم المقصود لدى الشيخ وهو « العلم » إذا أطلق هكذا في التّراث الإسلامي كلّه هو المعرفة الشرعيّة ؛ أي هو « العقيدة والشّريعة » .

---

(١) الآية رقم (١٩) من سورة محمّد .

(٢) الآية رقم (٣) من سورة العصر .

فالعلم بها هو الأصل والمقدم والواجب العيني على كل مسلم فيما يسمّى « المعلوم من الدين بالضّرورة » في الاعتقاد أو العمل ، وهو الذي لا يقوم إسلام المرء إلا به .

أما المعارف الرياضية والتجريبية فإن موقعها في هذه الركيزة يتحدد من جانبين :

الأول : عقدي وهو أن المسلم يؤمن بأن الله هو الذي خلق الوجود المحيط به جماداً ونباتاً وحيواناً، وأنه جعل الإنسان خليفةً فيه يستعمره[1]، ويستثمر خيراته في مسكنه ومركبه وملبسه ومأكله وزينته[2].

ووجَّهَ الوحيُ المسلمَ إلى التفاعل مع هذا الكون بالتأمل والنظر للشعور بعظمة خالقه[3] وبالتمتع بخيراته للاستعانة بها على طاعة الله وشكره عليها.

الثاني : شرعي ، وهو أن ما تقتضيه المصلحة الشرعية في المجتمع المسلم يرتفع إلى مستوى الفرض الكفائي الذي يجب على المجتمع أن يهيّئ من يسد النقص فيه وإلا أثم المجتمع كله .

والمعارف التجريبية داخلة في هذه الفروض الكفائية ، فحاجة المجتمع المسلم إلى الطبيب والمهندس والزراعي والمتخصّصين بالفنون العسكرية والإعلامية ونحوها تجعل تلك المعارف مطالب شرعية قائمة .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ الآية رقم (٦١) من سورة هود .

(٢) قال تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ...﴾ الآيات (٥ ـ ٧) من سورة النحل .

(٣) قال سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الآيتان (٢٠ ، ٢١) من سورة الذاريات .

فالعلوم التجريبية إذن متضمنةٌ في « العلم الشرعي » بجانبيه العقدي والتشريعي وليست قسيماً كما يتصور المتأثرون بمنهج الفصل بين العلم والدين في أوربا التنويرية .

لقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعثاً علميّاً في الجزيرة العربية بعد أميَّة شديدة لا في مجال الكتابة والخط ، بل وفي مجال الثّقافة والفهم ، ولهذا كان من القضايا التي انتقد أعداء الدعوة فيها الشيخ وعدوه ثلمة في دينه وعلمه أنّه يدعو « للاجتهاد » والنظر في أقوال الفقهاء[1] .

والاجتهاد أحد الأسس الكبرى التي رفع الإسلام بها عقل المسلم ليتعامل مع الشّريعة تعاملاً قائماً على الوعي والفهم واستمداد الحكم الشّرعي من الشريعة الثابتة لأحواله المتغيّرة ، وهو الذي أعطى للفقه الإسلامي عظمته في الحضارة الإسلاميّة .

هذا الاجتهاد أصبح في السّاحة الثقافيّة التي خرج فيها الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب وصمةً تدين صاحبها ، ممّا يدلّ على أميّة الثقافة والتكلّس الفكري ، وأنّ دعوة الشيخ انتقلتْ به نقلةً كبيرةً لكنها متزنةٌ ، فهي لم تتنكّر للجهود الفقهيّة للأئمّة ومن بعدهم ، ولكنّها لم تستبدل أقوال بعضهم بشريعة الله المنزّلة ، إذ هي المقدّمة على أقوالهم لو حدث تعارضٌ .

المرتكز الثالث : الحركيّة

على الرّغم من إدراك الشيخ محمد بن عبد الوهاب البون الشاسع بين مطلبه الدعوي والواقع الذي هو ميدان دعوته والذي يصل إلى درجة التضادّ ،

---

(١) انظر : صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ، تأليف محمد بشير السهسواني ، ص ٤٧٤ ، الطبعة الثالثة .

إلاّ أنّه لم يقدّم دعوته بصفتها نظريّةً فلسفيّةً أو مذهبيّةً مثاليّةً في قالبٍ فكريٍّ يستهدف تغييراً شاملاً في الواقع .

فهي دعوةٌ رفضٍ للواقع الفاسد ، وبعثٌ لواقعٍ جديدٍ ، وتطبيقٌ لمنهجيّةٍ جديدةٍ في الحياة في مَسَارَيْهَا الفكري والعملي .

وقد تجلّت هذه الحركيّة في تعريفه للإيمان الذي رفض فيه تعريفات المتكلّمين ، التي تحصره في الدّائرة النظريّة ، وعاد به إلى المفهوم الإسلامي الأصيل، وهو مفهومٌ حركيٌّ شاملٌ لحركة الإنسان كلّها « الإيمان : اعتقادٌ بالجنان ، وقولٌ باللّسان ، وعملٌ بالجوارح والأركان ، يزيد بالطّاعة ، وينقص بالعصيان »[1] .

كما تجلّت الحركيّة في الأسلوب التربوي والتعليمي الذي اتّجه به إلى سائر طبقات الناس الناشئة والكبار والعلماء ، من خلال تدريسه المباشر ، ومن خلال تأليفه لتلك الرّسائل القصيرة الواضحة ، وأيضاً من الرسائل التي يناقش فيها العلماء، لا لمجرّد الجدل أو الخلاصات النظريّة ، وإنما للوصول إلى الحقّ والتزامه من قبل المحاور ، أو انكشاف عناده ورفضه الحقّ أمام أتباعه .

ومن أهمّ عناصر حركيّتها تبنّيها سلطة سياسية تقوم بها وتنشر منهجها بالتطبيق الدّاخلي والدعوة إلى الإسلام في المجال الخارجي .

المرتكز الرابع : الدولة

أخْذُ دعوة الشيخ بالفهم الشمولي للإسلام الذي هو به منهجٌ حاكمٌ على الحياة البشريّة في كلّ جوانبها الفرديّة والاجتماعيّة ومجالاتها المختلفة ،

---

(١) انظر : القسم الخامس من الرسائل الشخصيّة للشيخ، رسالة رقم (ص)، من مطبوعات أسبوع الشيخ .

وأخْذُها بالمنهج الحركي في التعامل مع الواقع ، يقضيان بضرورة وجود دولةٍ للدعوة تحقّق حركيّتها من خلال :

- نشر العلوم الشرعيّة والدعوة إلى الله .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- إقامة الحدود الشرعيّة ورعاية المصالح الشرعيّة العامة .
- السعى لإعلاء كلمة الله بالسبل الممكنة .

وقد تحقّق هذا المرتكز باتفاق الشيخ مع حاكم " الدرعية " محمد بن سعود كما سبق، ووعتْ هذه الدولة مسؤوليّتها الحركيّة ، فكانت دولة الإسلام ، وقامت بوظائفها ، وعلا أمرها بذلك ، فوحّدتْ معظم الجزيرة العربيّة ، وطهّرتها من الوثنيّة ، وأشاعتْ الأمن في ربوعها ، وأعادت الروح الإسلاميّة أخوّةً وبذلاً للمعروف ، وتعاوناً على الخير ، وممارسةً سليمةً لشعائر الدين ، وحساسيةً تجاه أيّ شائبة شرك ، وحرصاً على العلم الشرعي . . . إلخ .

ومّما يدلّ على قيمة هذا المرتكز ما كانت تؤول إليه الأوضاع في الجزيرة العربيّة مهد هذه الدّعوة حينما انتهت الدّولة السعوديّة الأولى - بعد تدمير إبراهيم باشا للدرعية عام ١٢٣٣هـ ، وكذلك الثانية - من فوضى وتعطيلٍ للحدود ، وصراع بين القبائل والزعماء ، وانفلات حبل الأمن وفتن شاملة تضيع معها المصالحُ الشّرعيّة والحقوق الإنسانيّة .

وخلاصة القول : أنّ الدعوة الإسلاميّة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد في القرن الثاني عشر الهجري ، وتبنّتها دولة الدرعية بقيادة محمّد بن سعود وأبنائه من بعده ، كانت تجديداً لأمر الإسلام، وإعادةً لتشكيل الحياة وفق منهج الإسلام بتأسيسٍ عقديٍّ سليمٍ ، وشموليّةٍ لنظم الحياة

كلّها بصورة قليلة أمثلتها في بلاد العرب بعد قرون الإسلام الأولى؛ قرون الصحابة والأئمة من بعدهم، وبهذا التشكيل برزتْ قيمة الجزيرة العربيّة مجتمعاً ودولةً، وتميّز حضورها عن سائر مجتمعات المسلمين، وأصبح هذا التشكيل الذي حملته وتحمّلته رسالةً مرتبطةً بها ارتباطاً عضوياً، مما يعني أنّ علوّ مقامها ونزوله مرهونٌ بحملها هذه الرسالة أو تخلّيها عنها .

وكان هذا حاضراً في وعي رجال الدولة السّعوديين، ولهذا حينما عادت الدولة السعوديّة الثانية بقيادة تركي بن عبد الله وابنه فيصل لم تكتف بملك مجرّد، وإنما أعادتْ الدعوة لتوجّه حركة الدولة والمجتمع، وليقوم العلم الشرعي بدوره في تأكيد ارتباط الحياة بشريعة الله، وقد برز في هذه الفترة حفيدُ الإمام (محمد بن عبد الوهاب) عبدُ الرحمن بن حسن، وابنه عبد اللطيف وعلماء آخرون سواهما .

المبحث الثالث

الملك عبد العزيز يقيم المملكة العربيّة السعوديّة « الإسلاميَّة »

اضمحلّت الدولة السعوديّة الثانية ، وعادت الجزيرة العربيّة إلى اضطرابها السياسي وفتنها المتنوّعة وإماراتها المتناحرة .

ودخل القرنان الرابع عشر الهجري والعشرون الميلادي ، وحدثتْ متغيّراتٌ دوليّةٌ كبيرةٌ تحيط بالجزيرة العربيّة ، وتستهدف الإسلام في الصميم ، وتنذر ملامحها بنكبات مصيريّة لمجتمعات المسلمين :

- الدولة العثمانيّة المهترئة تفسّخت تحت كيد العصابات المارقة والجماعات التي تمت تربيتها في الخارج .
- الغرب المتقدّم مدنياً على المسلمين صار يزداد تقدّماً في المجال العسكري - بالذات - ويزيد الهوّة الفاصلة بينه وبين المسلمين ، ويستثمرّ هذا التقدّم في السيطرة على هؤلاء المسلمين ، واستعباد مجتمعاتهم ، ومحاربة دينهم من خلال اقتسام تراث الدولة الفانية .
- العرب في حالة تيه واستخذاء أمام الغرب ، وانفعال بالظاهرة القوميّة الغربيّة اقتداءً، وبالقَوميّة التركيّة مضادّةً .
- انبهار المسلمين بالغرب وبالذات في نظرياتهم السياسية التي انطلقتْ من مبدأ إبعاد الدين عن السلطة والدولة ، والتي تبرز بصفتها وسيلةً لتحقيق الحريّة والعدالة والمساواة في مقابل الصورة المشوّهة للحكم عند المسلمين من أنه وسيلة الاستبداد أو أنَّ تبنِّي الدولة للدين يولّد الطائفيّة .
- شعورٌ عامٌ يدعمه سير الأحداث بأنه لا يوجد بصيصٌ من الأمل للإسلام وأهله يفلت به من المصير الذي يُدحرج إليه بجهلٍ من أهله، وشماتة وحقدٍ من أعدائه .

في ظلّ هذه الأوضاع ومقدّماتها في نهاية العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، ظهر شخصٌ - فردٌ - يرفع راية الحلّ الإسلامي ، ويتقدّم حركيّاً لتحقيق هذا الحلّ ، متحرّراً من عقد تلك المتغيّرات الرّهيبة .

هذا الشخص ليس من الحواضر الثقافيّة في العالم الإسلامي ، ولم يعش الأسلوب الغربي الذي أصبح المثل الأعلى - بل الممكن الوحيد - لكلّ نهضة وطالب نهضةٍ في روع كثيرٍ من المسلمين آنذاك ، إنه من " نجد " في وسطَ الجزيرة العربيّة .

من غراس الدعوة السلفيّة التي أشرقت في الجزيرة العربية ومن أحفاد رجال الدولة التي حملتْ هذه الدعوة وتمثّلتها " دولة آل سعود " إنّه : عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله ابن الإمام محمّد بن سعود القائم بالدعوة السلفيّة مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن عام ١٢٩٣هـ في الرياض ، وتعلّم القراءة والكتابة، وختم القرآن قراءةً ، ثمّ تلقّى بعض أصول العلم الشرعي على الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ ، خرج مع والده عبد الرحمن عام (١٣٠٨هـ) وعمره خمس عشرة سنةً بعد أن يئس والده من إعادة الملك السعودي في ظلّ أوضاعه الراهنة آنذاك ، عاش في البادية فترةً ، ثم استقرّ في الكويت منذ عام (١٣١٠هـ) .

وفي عام (١٣١٩هـ) جاء من الكويت فيما يقارب الستين من آل سعود والموالين لهم للوثبة التاريخيّة التي ستكون مفتاح باب التغيير في الجزيرة العربيّة وهي « فتح الرّياض » حيث تمّ فتحها بحركة بطوليّة ما تزال مثار دهشة الدارسين وإعجابهم .

فُتحت الرياض وأُعلِنَ المُلك فيها لعبد العزيز في ٥/ ١٠/ ١٣١٩هـ وانطلقت من الرياض بقيادة الملك عبد العزيز حركة التحرير والتوحيد ، ثمّ البناء والتشييد للمجتمع الكبير في الجزيرة العربيّة الذي سيصبح « المملكة العربيّة السعوديّة » ، حيث استطاع بتوفيق الله له أن ينقذ أجزاء هذه الجزيرة التي كانت تتبع " تركيا " مباشرةً كالأحساء ، أو بالتبعيّة كشمال المملكة والحجاز من نتيجة انهيارها الذي وقعتْ فيها البلدان العربيّة الأخرى ، حيث اقتسمها المستعمرون الغربيّون بصفتها تراثاً للدولة المنهارة .

لقد قامت في هذه الأجزاء التي وحّدها عبد العزيز دولةٌ حرّةٌ مستقلّةٌ صريحةٌ في إسلامها وعروبتها ، بين طوفان الدول التي إمّا أنها مستعمرةٌ للأعداء لا تملك حرّيّةً ولا استقلالاً ، وهي عامة الدول العربيّة بالذات ، أو أنها مولودٌ مشوّهٌ ، وهي دولة تركيا ، التي أعلنتْ خلع الإسلام في مهد الخلافة الإسلاميّة ومجتمع المسلمين .

لن أتحدّث عن المسيرة الجهاديّة لتوحيد الجزيرة ، وإنما سأقتصر على نقطتين علّهما تكفيان لإبراز تكوين الملك عبد العزيز لدولةٍ إسلاميّةٍ في العصر الحاضر .

النقطة الأولى : هي شخصيّة الملك عبد العزيز ؛ لأنّ الدولة التي أنشأها عبد العزيز كانت دولةَ شخصيّة أكثر منها دولة مؤسسات خلال عموم حياته ، فالتعرّف على شخصيّته يؤدّي إلى معرفة هذه الدولة .

النقطة الثانية : مقوّمات التكوين السياسي لدولة الملك عبد العزيز المتمثّلة ببناء الذاتيّة ، والشرعيّة ، وتحقيق الانصهار ، والمشاركة ، والتطوير المناسب .

النقطة الأولى : شخصيّة صانع الدولة الملك عبد العزيز رحمه الله

إنّ إيجاد دولة في قارة صحراويّة شاسعة الأرجاء ، متباعدة الأقاليم ، ثمّ بناء هذه الدولة اجتماعياً وسياسياً ودولياً من قبل شخصٍ ، دليلٌ على عظمة شخصيّته واستكمالها عناصر التفوّق الفطريّة والكسبيّة .

وهذه هي شخصيّة الملك عبد العزيز رحمه الله وبذلك شهد كلّ من لقيه وعاشره من الناس ، سواء كانوا من العامة أو من المثقفين أو السياسيين العرب أو الأجانب .

ففي الجانب الإيماني : استوعب -رحمه الله- دعوة التوحيد الغضّة ، وهي الدعوة التي تصوغ شخصيّة الإنسان وفق التعاليم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة ، فتجعلها شخصيّةً إسلاميّةً متكاملةً حيّةً إيجابيّةً نموذجها العملي شخصيّة الرّسول ﷺ وشخصيّات أصحابه من بعده .

ولم يكن هذا الإيمان مجرّد تلقين تلقّاه في الصغر ثمّ عفتْ عليه دراساته التالية وثقافته المتنامية ، فأصبح مجرّدَ حنينٍ إلى ذلك البرد الإيماني الذي نعم به فترةً مّا .

لقد كان الملك عبد العزيز ملازماً للعلم الشرعي في كلّ فترات حياته ، وكان له مجلسٌ بعد العشاء يتلى فيه فصولٌ من كتب مختلفة في الفقه والتفسير ، ومما يذكر خير الدين الزركلي أنه سمع في مجلسه تفسيرَ القرطبي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والآداب الشرعيّة لابن مفلح .

وكان حتّى في أسفاره وغزواته لا ينسى أن يستدعي بين الفينة والأخرى بعض العلماء المصاحبين له لاقتناص بعض الفوائد العلميّة ، ولقد تبلور هذا الإيمان العميق لدى الملك عبد العزيز في صفاء عقديٍّ جعله يطهّر بلاده من كلّ

البدع ، ويظلّ حسّاساً تجاه أيّ ثغرة شركيّة ولو كانت بسيطةً في عرف بعض الناس . في اجتماعه بالملك فيصل بنَ الحسينَ - ملك العراق - أراد فيصلٌ تأكيد أمرٍ، فقال : وحياة رأسك ، فنظر إليه عبد العزيز، وقال: قل : والله[1] .

كما تبلور في برنامجٍ تعبّديٍّ يتمثّل في أذكار وتهجّد وقراءة للقرآن وحرصٍ على الالتزام بسنن العبادات .

يقول الزركلي في الوجيز : « اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعةٍ فيقرأ سوراً من القرآن ، ويتعبّد ويتهجّد ، وكثيراً ما يسمع له نشيجٌ ، ويستمرّ إلى أن يؤذن الفجر، فيصلّي الصبح مع الجماعة ، ويسبّح ويقرأ وِردَ الصباح »[2] .

ولقد كان -رحمه الله- واعياً قيمة إيمانه ، واثقاً بأنّ قيمته فوق كلّ القيم الأخرى حتى ما يباهي به الغرب من فلسفات ونظريّات والمتأثرون بهم ، فلم يكن يشعر بالنقص أو يتخفّى بإيمانه واعتقاده ، وإنما كان يعلن أنّ إيمانه بالله هو قيمة وجوده، وهو سبب انتصاره، وأنّ ضياع العرب إنّما هو لتخلّيهم عن هذا الإيمان بصورته الناصعة ، وأنه سيظلّ ملتزماً بإيمانه ، داعياً إليه[3] .

وعندما تبجّح مرّةً عنده " فيلبي " ببعض قدرات الغرب العلميّة في العلوم التقنيّة قال -رحمه الله-: « لا شيء يفرق الإنسان عن الحيوان إلاّ الإيمان بالله والعالم الآخر؛ أمّا ما عدا ذلك فالإنسان والحيوان فيه سواءٌ »[4] .

---

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، خير الدين الزركلي ، ص ١٨٥ ، الطبعة الثامنة، ١٩٩٦م .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٣) قال في خطبة له : « أنا مبشّرٌ أدعو لدين الإسلام ولنشره بين الأقوام »، « أنا داعيةٌ لعقيدة السلف الصالح ، وهي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما جاء عن الخلفاء الراشدين . . . » إلخ . انظر: المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٦ .

كان يعلن إيمانيّة دولته واعتمادها على القرآن والسنة ويتابع شؤون هذه الدولة لتبقى ملتزمةً بتعاليم هذين المصدرين ، وهكذا لم تبق شخصيّته حاملاً لهذا الإيمان النّقيّ فحسب ، وإنما مفيضة هذا الإيمان على الدوائر المحيطة به ، والتي تتسع لتشمل دولته كلّها .

وفي الجانب الفكري : كان هناك ثلاثة عوامل تشكّلت منها شخصيّته الفكريّة :

أوّلها : ما يمتلكه من صفاء فطريٍّ ومن قوّة حدس تصل إلى حدّ العبقريّة التي أدركها كلّ من حاوره وجالسه ، فـ« ابن سعود -كما يقول برت فيش الوزير الأمريكي المفوّض- عبقريٌّ قويُّ الإرادة شديد الذكاء»[1] . وهذه منحةٌ إلهيّةٌ لا كسبيّة .

ثانيها : متابعاته العلميّة ، فهو محبٌّ للمعرفة ، طالب نهم للعلم ، يخصّص -كما سبق- أوقاتاً لقراءة أمهات الكتب في العلوم الشرعيّة والأدبيّة ، وقد واصل هذا المنهج إلى آخر حياته ، كما أنه كثيراً ما يثير في مجالسه قضايا يشعر بأنها تهمّه فكرياً أو واقعياً ، ويتعرّف الحكم الشرعي فيها ، أو الحلّ الأنسب لها .

ثالثاً : الخبرة الحياتيّة ، حيث عانى كلّ متناقضات الحياة وتقلّب في مختلف ظروفها ، وكان -كما تدلّ عليه تأملاته وكلماته- ذا وعيٍ بالأحداث واعتبارٍ بنتائجها ، ودراسةٍ لسننها .

هذه العوامل كونت من الملك عبد العزيز شخصيّةً فكريّةً تحتلّ مقام الأستاذيّة في مختلف الجوانب :

---

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالميّة ، ساعد العرابي الحارثي ، ص ١٥٧ ، ط٢ ، دار القمم للإعلام .

فالذي يسمع مناقشاته في القضايا الشرعيّة ، وخطبه المشتملة على الآيات والأحاديث الصحيحة والقضايا العقديّة والشرعيّة يجد أنه أمام عالمٍ شرعيٍّ لا حاكمٍ مشغولٍ بالسياسة والملك .

والذي يتأمل في كثرة الأمثال العربيّة في أحاديثه وبعض محاوراته مع أهل الفكر والأدب(١) ، وما تدل عليه من اختزان واستحضار للتراث الأدبي يقول كما قال عبد الله فيلبي : « إنّ جلالة الملكَ ابن سعود حاكمٌ مثقّفٌ لم يقدر للبلاد العربيّة أن تحظى بمثله في غير الشاذ النادر من المرات »(٢) .

ومن جوانب النفاذ الفكري في تعامله مع القضايا – التي لحظها كثيرٌ من الغربيين في تعاملهم معه – أنه يسلك مسلك التحليل واستيعاب أساس القضية وتقسيم الشيء إلى عناصر ، وكلّ عنصر إلى فروعٍ ، وهي دلالةٌ على قدرة فكريّة سامية يحتاج كثيرٌ من البالغين في العلم شأواً إلى المران عليها ، وإلزامَ أنفسهِم بها حتّى تكون بحوثهم علميةً منتجةً .

يقول " كنت وليمز " متحدّثاً عن عبد العزيز : « إنّ ابن سعود يُظهر مقدرةً عجيبةً في أحاديثه . . وهو إذا تكلّم تدفّق كالسيل ، يحبّ التحليلَ وردّ الشيء إلى أصله ، شديد الولع بتشريح المواضيع تشريحاً يدلّ على ذكاءٍ وفطنةٍ ولباقةٍ » (٣) .

وفي الموضع نفسه يقول البريطاني السير " ريد بولارد " : « محاورته –الملك عبد العزيز– مثيرةٌ للاهتمام ، وأقواله مناسبةٌ للمقام ، وكثيراً ما يقول :

---

(١) انظر شيئاً من ذلك في بعض محاورات الريحاني معه ، السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٧ .

(٢) الملك عبد العزيز – رؤية عالميّة ، ساعد الحارثي ، ص ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

إنّ الموضوع الذي يتناوله الحديث يقسَّم إلى ثلاثة أقسامٍ ، ثمّ يمضي في تقسيم كلّ قسمٍ إلى أقسامٍ فرعيّة أخرى ، وهكذا ، ولكنّ ذلك لم يؤثّر في منطقه القويم ، واستنتاجاته الصائبة »[1].

وحسبنا شاهداً - نموذجاً - على الوعي الفكري الذي سبق به الآخرين الموقف المتميّز الذي تبنّاه من الغرب بصفته حضارةً مشحونةً بالفلسفات والثقافات والمعارف التقنيّة والتجارب السياسية ، إذ لم يكنْ موقفه إهمالها جملةً وتفصيلاً ، أو ازدراءها لعدائها للإسلام ، أو الانبهار بها واتّخاذها قبلةً ، والتعويل عليها في إعادة الحياة لشعبه ، أو غير ذلك من المواقف الارتجاليّة التي أخذ بكلٍّ منها بعض المسلمين من فئة الحكام أو العلماء أو المثقّفين أو حتى العامة .

إنّ موقفه - رحمه الله - هو رفض فلسفاتها الملحدة ، ونظرياتها الضالة ، ويقينه بأنّ ما جاء به الإسلام من تصورٍ للوجود وتشريعٍ للحياة هو الحقّ ، وبه المصلحة ونهضة الأمة .

وهو في الوقت نفسه الاعتراف بأنّ ما حقّقه الغرب من إنجازٍ تكنولوجيٍّ جانب تفوّقٍ للغرب ينبغي على المسلمين أن يأخذوا به ، وينافسوا غيرهم في مضماره .

بل والاعتراف بأنّ لديهم في مجال تنظيم الحياة أفكاراً ومسالك اجتماعيّةً صحيحةً فيها مصالح الناس .

« إنّ الناس - يقول الملك عبد العزيز رحمه الله - الذين لا نشكّ أنّ الله عالمٌ بقلوبهم ، وأنهم أعداء بعضهم لبعضٍ كما قال تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[2] قد بلغوا بالشورى مراتبَ عاليةً في الدنيا ، ونحن المسلمين

---

(1) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية، ص ٢١٧ .

(2) الآية رقم (١٤) من سورة الحشر .

أمرنا الله بالمشورة ، والمشورة لها أساس وهو النصح بالتزام الحقّ »[1] .

لقد عانى في هذا المجال (التعامل مع الحضارة الغربيّة) في مجتمع كان منغلقاً على نفسه ، فلم يستجب لطلب التفاعل معها حتى من الزاوية الإيجابيّة .

كما عانى في موقفه الرافض لفلسفة الغرب الملحدة أو المخالفة لمنهج الإسلام في ظلّ عالم - يحيط به - واقعٍ تحت سيطرة الاستعمار الغربي ، وأغلب من يقوده فكريّاً من أبنائه أناسٌ خدعهم وهج تلك الحضارة ، فنفروا من دينهم ونفّروا الناس من كلّ ملتزمٍ بالدين محتمٍ بظلاله .

ولكنه للوضوح الفكري لديه للقضيّة (قضيّة الموقف من هذه الحضارة في ميزان الإسلام) كافح وغالب حتى أثبت في آخر الأمر ، وحتى بعد وفاته صواب منهجه وخطأ المناهج الأخرى .

وأما في الجانب السياسي : فإنّ مسيرة حياته كلّها موحّداً للجزيرة وبانياً للدولة ، وموطّداً دعائمها ، ومتّخذاً سبل التنمية التي ترقى بها ، كلّ ذلك في ظلّ أوضاعٍ محلّية وعالميّة غير مساعدة ، بل هي في الحقيقة معاكسةٌ لحركته ، ومع ذلك ينجح بتوفيق الله ويحقّق طموحاته .

- إنّ هذه المسيرة كافيةٌ للبرهنة على المهارة السياسيّة التي كان يتسم بها ، والتي يقيم عليها كلّ حساباته ، وخططه وعلاقاته سلماً وحرباً .

وإنّ في خطبه التي يوجّهها لشعبه لنصحهم والارتقاء بفكرهم ما يؤكّد هذه المهارة السياسيّة في نظرته للأمور :

في بيان الأسباب التي تكون مسامير في نعش الدولة واستقرارها ، وسبباً

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٣٧.

في ضياع الملك، يقول -رحمه الله-: « متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كلّ منهم على الآخر، فيمنح الأمير الرواتب، والعلماء يدلّسون ويتملقون ضاعتْ أمور الناس، وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى ».

ويؤكّد هذا المعنى ويقول في خطاب له: « لا يفسد الملك إلا الملوك وأحفادهم وخدّامهم والعلماء وأعوانهم، وإنّي والله لا أودُّ أن أكون منهم »[1].

وفي حديث له عن المسلمين واستخذائهم أمام الكفار، وتناحرهم فيما بينهم يبيّن أنّ المسلمين هم سبب بلاء أنفسهم، ويعدد عللهم يقول: « إنّ المسلمين متفرّقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنّة رسوله، ومن خطل الرأي الذهاب إلى أنّ الأجانب هم سبب هذه التفرقة وهذه المصائب.

إنّ سبب بلايانا من أنفسنا لا من جانب الأجانب، والله إنّي لا أخشى الأجانب بقدر ما أخشى المسلمين، إنّي أخاف من المسلمين أكثر مما أخاف من الأجانب، فالمسلمون هم بلاء أنفسهم، يأتي أجنبيٌّ إلى بلدٍ ما فيه المئات بل الألوف بل الملايين من المسلمين فيعمل عمله بمفرده، فهل يُعقل أنّ فرداً في مقدوره أن يؤثّر على ملايين من الناس إذا لم يكن له بين هذه الملايين أعوانٌ يساعدونه، ويمدّونه بآرائهم وأعمالهم..، هؤلاء الأعوان هم سبب بليّتنا ومصيبتنا.

أجل، إنّ هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم، إذاً فاللوم والعتاب

---

(١) يعلن محمد كشك بعد إيراد هذا الكلام بأنّ الملك عبد العزيز قد استوعب مقدّمة ابن خلدون التي ذكر أنّ الجيل الثالث هو الذي يبدّد الملك، وأقول: ربما يكون للملك اطّلاعٌ على المقدّمة ذاتها أو بنقلٍ عنها، ولكن ربما -وهو الأرجح- أنه أدرك ذلك بحسّه السياسي وحدسه التاريخي.

واقعٌ على المسلمين وحدهم لا على الأجانب »[1] . يتحدّث شكيب أرسلان أمير البيان العربي عن شخصيّة الملك عبد العزيز السياسيّة فيقول : « قرأت كثيراً من الأحاديث والأجوبة التي يفضي بها ابن سعود إلى بعض الصحافيين سواءً كانوا عرباً أو أجانب فلم أجد هذا الملك تهوّر مرّةً واحدةً في حديث، أو تكلّم بكلامٍ يؤخذ عليه، أو شرح بما يمكن الخصم أن يتخذه عليه حجّة، بل تجده إذا تكلّم في معنًى سياسيٍّ يصرّح بما يريد بدون مواربةٍ ، ولكنّه لا يجعل نفسه في قفصٍ »[2] .

إنّ رفضه إغراءات التدخّل في قضايا بلادٍ أخرى وضمّها إلى ملكه لطلب بعض أهل تلك البلاد وإن ساعدهم على مقاومة الاستعمار وحمل همّهم دوليّاً، وإنّ دعوته لتكون الحرب عام ١٩٤٨م حرباً شعبيّة يدعم فيها أهل فلسطين بالسلاح لا حرباً رسميّة تتحكّم فيها قراراتٌ دوليّةٌ، وإنّ علاجه للمشكلة القبليّة وتحويل الولاء منها إلى ولاءٍ للدين ثم الوطن ، مما قضى على منهج التناحر الداخلي إلى التعاون والبناء .

إن كل هذه المواقف وغيرها نتيجة لتلك الشخصيّة السّياسيّة التي تتعامل مع الأحداث بعمقٍ وبُعد نظرٍ قد يقصر عن استيعابه الكثيرون في وقته، لكن الأيام تثبت صحّته .

وبعد هذا فإنه قد توفّر في الملك عبد العزيز من الصّفات الإنسانيّة والقيم السّامية والخلال الشخصيّة الحميدة التي برزت في تعامله مع الآخرين ، ما جعل هؤلاء الناس يتحدّثون عن شخصيّته وكأنّه أسطورةٌ في عالمٍ عربيٍّ قلّ إنجابُه لذوي الهمم العبقرية والشخصيات المتفوّقة .

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٢٩ .

(٢) الملك عبد العزيز – رؤية عالمية ، ص ١٩٥ .

وإليك نماذج مختصرة قدر الإمكان لقليلٍ من الشّهادات الكثيرة عن تكامل شخصيّة الملك عبد العزيز التي وهبه الله خصائصها المتميّزة لتكون معينةً له في القيام بدوره التاريخي العظيم الذي قام به .

يقول الأستاذ عبد الوهاب عزام : « لَمَّا تشرفتُ بلقاء الملك عبد العزيز رأيتُ فيه مثلاً للعروبة في حالتها الفطرية ، تتجلّى فيه المعاني التي برزت في حياتهم، وأوّل هذه المعاني العزّة والثّقة بالنّفس وما ينطوي على ذلك من عقيدة في سموّ القوم الذين ينتسب إليهم ، فكل شيء في نظره هو دون المستوى الذي ترسّخه العروبة [لعل الأولى أن يقال : الإسلام] في خاطره ، والملك عبد العزيز في ذلك ككلِّ عربيٍّ لم تلوثه الحضارة الغربيّة يعتقد أن العزة لله ثم له ، فمعنى النقص المركب لا يخطر بباله» [1] .

ويقول أمين الرّيحاني الذي خبر زعماء العرب في عصر الملك عبد العزيز عن قربٍ ثم جالسه وعرفه : « إنّ ابن سعود كبيرٌ حقاً ؛ كبيرٌ في مصافحته وفي ابتسامته وفي كلامه وفي نظراته وفي ضربه الأرض بعصاه، يعرف نفسه ويثق بعد الله بنفسه "حنّا العرب" ، إن الرّجل فيه أكبر من السّلطان ، وقد ساد قومه ولاشك بالمكارم لا بالألقاب . إنه رجلٌ تجسمت فيه فضائل العرب إلى حدٍّ يندر في غيره من الملوك الذين زينتْ آثارهم شعرنا وتاريخنا »[2] .

هذه القيم الإيمانيّة والفكريّة والسياسيّة والشخصيّة التي اجتمعت في الملك عبد العزيز هي السرُّ الذي استطاع به -رحمه الله- بعد توفيق الله تحقيق ما حقق من نصر وتمكين وإنجاز يُعدُّ خياليًا بالمقاييس المعتادة في دنيا الناس ، وسرُّ هذه القيم في تحقيقها تلك الغايات السّامية هي : أنها جمعت لصاحبها

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

بين طلب رضا الله والإتيان بشرطه الذي شرطه على عباده لكي يحقق لهم النصر والتمكين، وبين الاستحواذ على قلوب الأمّة التي قام فيها مجاهداً وداعياً ؛ لأنه بقيمه تلك يمثل بالنسبة لهم صورة مثالية تهفو إليها نُفوسُهم ، وتُجِلُّهَا قُلوبُهم حتى وإن قصَّرَ الكثيرُ منهم عن السبق فيها .

يقول العقاد -رحمه الله- وهو يحلل سر اندماج الشّعب السّعودي في شخصية الملك عبد العزيز بل وكلّ مسلمٍ عرف عبد العزيز وجهوده : « بَطَلُ الأمّة من الأمم هو الرّجل الذي يستجمع في شخصه صفاتها ومزاياها على أتَمِّها وأوضحها وأقواها، فهو مرشَّحٌ بالفطرة لحكمها وقيادتها، وهو في هذه إنّما يحكمها بنفسها ، وبمحض إرادتها حين يحكمها بأبرز صفاتها وأقوى مزاياها . والملك عبد العزيز يجمع في شخصه تلك الصفات والمزايا التي اشتهرت بها أمّة العرب من قديم الزمان ، فيدين له رعاياه؛ لأنّهم يدينون لصفاتهم ومزاياهم »[1] .

فليس أحرى من الملك عبد العزيز بسجاياه تلك أن يقيم دولته المتفرّدة في القرن العشرين ، هذه الدولة التي تجمع أجلَّ خاصيتين ضعفتا في كثير من دولِ المسلمين بل عموم حياتهم قروناً طويلةً، وهما :

- الإسلاميّة بمعناها الشمولي لكل جوانب الحياة، وبمفهومها الأصفى المتمثل بالمنهج الذي سار عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام دون المناهج المبتدعة الأخرى .

- الأصالة العربية بما فيها من شيم الإباء والعزة والثّقة بالنّفس والحريّة والترفع عن الدنايا ، والمنافسة في بذل المعروف، وأهم شيءٍ في هذه

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية، ص ١١٩ .

الأصالة هو ركونها إلى الإسلام في طلب الظهور والنهضة دون الاستجداء من الآخرين، ممّا يفسد الحياة، ويُذيب هذه الأصالة حتى تنعكس تلك الشيم إلى أضدادها لدى الذين خَلَّفوا الإسلام وراء ظهورهم، وعَوَّلوا في طلب مَجْدِ عروبتهم على ما زادهم ذلاً ، وأفسد نفوسهم وحياتهم .

النقطة الثانية: مقومات التكوين السياسي لدولة الملك عبد العزيز رحمه الله

أقصد بهذه المقوّمات العناصر التي لا يمكن أن ينتج التكوين السياسي بناءً دولة متماسكة إلا بالوفاء بها بحيث إنّ الخَلَل فيها أو في بعضها يمثّل أزمةً تواجه بانيَ الدولة ، وقد تهزّ بناءها فيضطرب ، ولهذا يسمّي بعض أساتذة العلوم السّياسيّة هذه المقوّمات بـ« أزمات التطوّر السياسي » التي تواجه الأمة في بناء الدولة ، فتكون تحدّياً حقيقيّاً لها .

وإليك أهمّ هذه المقوّمات ومنهج الملك عبد العزيز -رحمه الله- في الوفاء بها لدولته وتوقّي أيّ أزمة في مجالها :

* **المقوِّم الأول: (الانتماء) :**

يراد بهذا المقوّم تحويل صور الانتماء المحدودة بالقبيلة أو الإقليم أو المصلحة الشخصيّة الفرديّة ، إلى صورة أوسع وأعمق إلى الانتماء للدولة ومنحها الولاء بما يتضمّنه من حبٍّ ونصرٍ وتضحيةٍ ومواقف فكريّةٍ وسلوكيّة .

ولا ريب أنّ الدولة التي لا تستطيع تحويل انتماء مواطنيها لها ، وغرس الولاء في نفوسهم لها ستخسر هيبتها واحترامها ، وسيعيش أفرادها حالة اغتراب أو بقاء على انتماءاتهم الطائفيّة أو الإقليمية أو القبليّة ، التي لا تلبث أن تثور نَعَرَاتُها عند أوهى الأحداث ، فينبعث الصّراع بين هذه القوى دون أيّ

اعتبارٍ للدولة كما يحدث الآن في بعض دول أفريقيا وغيرها .

لقد كانت الانتماءاتُ القبليّة والإقليميّة قائمةً قبل توحيد الملك عبد العزيز للمملكة، وكان يمكن أن تبقى نتيجة رسوخها في النفوس ، ولكنّه -رحمه الله- بحنكته السّياسيّة استطاع أن يرتقي بوعي شعبه الدّيني والحضاري ، وأن يبلور موقع الدولة وقيمة الحكم في المجتمع حتى حوّل تلك الانتماءات الجزئيّة إلى انتماء للدولة، وشعور بحقّها على الفرد يتجاوز الشعور الوطني الباهت إلى إيمانٍ بأن الانتماء إليها والولاء لها قيمةٌ تعبّديّةٌ يتديّن بها الشخص لله .

ولم تمارس الدولة مع تلك الانتماءات الجزئيّة معركة صراعٍ ومضادّةٍ ، لكنّها احتوتها في ظلّ دولةٍ تحتضن أفرادها احتضاناً .

قد تثار هنا مشكلة القطريّة ومدى تنافيها مع الوحدة القوميّة للعرب أو مع الانتماء للأمّة الإسلاميّة .

والحقّ أنّ هذا الإشكال غير وارد في تجربة المملكة ؛ لأنّ مفهوم الولاء للدولة لدى السعودي ليس مبنيّاً على فلسفة « المواطنة » الغربيّة ، ولكنّه مبنيٌّ على منهج الإسلام الذي يربط الفرد من الرّعيّة بحاكمه المسلم نصحاً وطاعةً له في المعروف وجهاداً معه ، والذي يجمع بين ولائه للأقربين في وطنه ، وولائه لإخوانه المسلمين في كلّ مكان حبّاً لهم ، وسعياً لنصرهم، وفرحاً بعلوّهم ، هذا فضلاً عن مقام المملكة الذي يستلزم من كلّ مسلمٍ - وليس فقط السعوديين - أيّاً كان موقعه أن يمنح ولاءه لها ويعتزّ بها ، فهي بلاد مهد الرّسالة والحرمين، وعلى أرضها تقوم في هذا العصر دولةٌ إسلاميّةٌ .

* المقوّم الثاني : (بناء الشرعيّة) :

الشرعيّة هي الأساس الذي يُبنى عليه المقوّم الأوّل ، وهو الانتماء والولاء للدولة ، فيكون ولاءً حقيقياً عميقاً ثابتاً ، وتتحقّق الشرعيّة بأن تستند السلطة إلى حجة مقنعة للشعب في صحّة مبدئها ، وإلى كفاءة موثوقة في أداء هذه السلطة من خلال شخصيّة قائدها أو مؤسّساتها ، وإلى توحيد مناط الشرعيّة ومن ثمّ الولاء ، ولا يتحقق هذا التوحيد إلا بأن تكون شرعيّة الدولة مهيمنةً على مناهج المؤسسات الأهليّة من نقاباتٍ وجمعيات ونوادٍ ونحوها .

ويتأكّد هذا الأمر في مجتمع الجزيرة العربيّة الذي هو بخلاف ما يتصوّره الكثيرون ، الذين يرون سهولة استتباع أفراده نتيجة الأميّة والفقر وكثرة الحروب آنذاك التي تجعل الغلبة بالسّيف – فقط – سبيلاً للسيطرة . . . إنّ مجتمع الجزيرة العربيّة بخلاف هذا التصوّر فهو بحكم فطريّته ، والمنهج الإسلامي الذي تقوم عليه حياته وطبيعته التساؤليّة الملحّة ، لا تنقاد نفسه إلا لسلطة يثق من خلال حساباته أنّ بها حفظ مصالحه ورعاية حقوقه الدينيّة والدّنيويّة ، ويمكن –هنا– أن نستشهد بتأملات الوالي التركي على عسير في أوائل القرن الرابع عشر الهجري سليمان شفيق باشا حيث يقول في مذكّراته : « إنّ من طبع البشر عامةً وسكان الجزيرة العربيّة خاصةً أن يقيموا وزناً عظيماً لمن كان صادقاً في قوله ، موثوقاً في عمله ، فإذا كان السّيف في بعض المواقف قاهراً فإنّ إصابة المحز في قولٍ وإصابة الغرض في التدبير كثيراً ما يكون ساحراً .

والناس لا يذعنون للضّرب والبطش فقط ، بل ينقادون أكثر لما فيه حفظ مصالحهم البشريّة المشروعة ، ولما يرجون أن يحيوا به حقوقهم الضّائعة .

والناس في الحياة البدويّة شديدو الإحساس دقيقو الشّعور ، وما من

بدويٍّ إلا وهو مدركٌ تمام الإدراك وواقفٌ تمام الوقوف على سياسة بلاده والمصالح الحقيقيّة لوطنه ، ومراقبٌ بعين اليقظة لما يبدو من حكّامه من أفعال وحركات ، فيحك الأوامر التي يتلقّاها بمحك الانتقاد والاختبار حتى يميّز بسرعة عظيمة مواطن الضعف والقوّة منها »[1] .

ويختم سليمان باشا تحليله بالنتيجة : « إنّ الأمراء الذين يجهلون هذه الحقائق في جزيرة العرب أو يهملون العمل بها تكون عاقبتهم الخذلان والفشل ، وأمّا الذين يدركون سرّ هذه الحقيقة المهمّة فما برحوا مؤيّدين بالنصر والتوفيق »[1] .

ومن هذه النقطة التي انتهى إليها سليمان شفيق باشا نمسك الخيط في الحديث عن الشرعيّة التي أقام عليها الملك عبد العزيز دولته ، فحالفه النصر والتوفيق دون الآخرين الذين كان نصيبهم الفشل والخذلان .

جعل الملك عبد العزيز عماد شرعيّة دولته قيامها على الإسلام :

- لا من خلال صياغات تأويليّة منحرفة للإسلام هدفها الانحراف بالدين عن غايته الصحيحة إلى أهداف ضالّة مصلحيّة ، أو كيديّة للإسلام وإن كانت باسمه ، إنما اعتمد الملك عبد العزيز الإسلام بصورته الصحيحة التي رسمتها تعاليم الكتاب والسّنة ، وفق نموذجه الأعلى الذي طبّقه الرّسول ﷺ وأصحابه من بعده[2] .

- ولا من خلال شعارات يُلوَّحُ بها ، أو موادّ تعلن في الدستور دون التزامٍ حقيقيٍّ بمنهج الإسلام .

---

(1) مذكرات سليمان باشا ، ص ٢٦ - ٢٧ ، الطبعة الأولى ، نشر نادي أبها الأدبي .

(2) من خطبة الملك عبد العزيز في المدينة المنوّرة : « إنّ خطّتي التي سرتُ ولا أزال أسير عليها هي إقامة الشريعة السمحة ، كما أنني أرى من واجبي ترقية الجزيرة العربيّة والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصافّ البلاد الناهضة مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف » . انظر : الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢١٥ .

إنّ الملك عبد العزيز يعلن أنّ منهجه هو تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهّرة ، ثمّ يتبنّى هذا الإعلان في ممارسته :

- على مستوى الدولة وأنظمتها ومؤسساتها لتكون مطبّقةً للشّريعة ، محقّقةً للمصالح العامة والخاصة .
- وعلى المستوى الشخصي للقيادة ومن يمثلها بأن يكونوا على سمت لا يخل بالمروءة ولا بالعدالة التزاماً بالعقيدة السليمة ، وإقامةً لشعائر الدين ، وترفّعاً عن الدنايا الخارقة لشرف التديّن والرجولة .

واعتماد الشريعة الإسلاميّة قاعدةً للحكم ومنهجاً ، كاف وحده في إكساب الدولة أقوى شرعيّة تملكها دولته ؛ لأنّ تصوّر المسلم العربيّ وبالذات الذين أحيتْ الدعوة السلفيّة في وعيهم مفهوم الإسلام الصحيح وشموليّته للحياة - تصوّره - للشريعة الإسلاميّة أنها سبيل الفلاح في الأخرى والنجاح في الدنيا ، وأنّ مصالحه في كل الشؤون الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعيّة متيقّنة التحقّق باعتماد هذه الشريعة يغنيه عن انتظار وعود أو بنود تؤكّد على رعاية الحريات والعدل والأمن وسائر الحقوق الإنسانيّة التي يتطلّع إليها الناس في ظلّ أيّ دولة .

ومع ذلك فقد كان الملك عبد العزيز يعلن رعايته لهذه الحقوق في خطبه ويعلنها سلوكه العملي السياسي والحياتي الذي يدرك بالنظر السّريع في هذا السلوك .

بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز وعفوه عن جميع المقاومين جاء عبد الحميد الخطيب وقال للملك مفسراً مقاومته مع الهاشميّين لحركة توحيد الجزيرة التي يقودها الملك عبد العزيز ، قال الخطيب : « إنّ الملك حسين عندما جاء

الحجاز حارب كلّ تجديد حتى إنه لم يسمح للناس بركوب السيارات ، وأبى عليهم استعمال ساعات اليد والأكل على الكراسي ، فقلنا : إذا كان هذا حظّ البلاد من الحسين فكيف حظّها من ابن سعود وهو الذي تربّى في الصحراء ، فلمّا شهدنا ولمسنا أعمال جلالتكم الباهرة وأخذكم بأسباب تقدّم البلاد وحضارتها ، هدانا عقلنا إلى خطأ تصوّرنا »[1] .

ولمتانة هذا الأساس لشرعيّة الدولة وهو « تطبيق الشريعة الإسلاميّة » وكونه ثابتاً ملازماً للدولة السعوديّة بما هي سعوديّة فإنّ هذه الشرعيّة لم تهتزّ بموت مؤسّسها ، ولا باستحداث المؤسسات التي تنظّم أو تنفّذ سياسات الدولة ؛ لأنّ الحاكم الأعلى الساري في كيان الدولة في كلّ تحوّلاتها باقٍ ثابتٌ وهو الشريعة الإسلاميّة .

ولا مجال في الدولة التي تتبنّى الشريعة الإسلاميّة مصدراً لشرعيّتها لوجود أحزاب أو قوًى ذات توجّهات انفصاليّة مفارقة ؛ لأنّ الحزب أو القوّة إمّا أن يتبنّى الشريعة منطلقاً ومنهجاً ، فلا يكون ثمّ تميّزٌ يقتضي التكتّل المستقلّ عن الدولة وبناء شرعيّة منفصلة عن شرعيّة الدولة ، أمّا الرّؤى ووجهات النظر ، ونقد التطبيق فإنّه متاحٌ من خلال مسالكه النظاميّة والشرعيّة ، سواء تمثّل في نصحٍ للمسؤول ، أو اقتراحٍ وتَبَنٍّ لمن هو في موقعٍ تنظيميٍّ أو قضائيٍّ أو تنفيذيٍّ يتيح له هذا الإسهام ، ولكنّه يبقى في كلّ الأحوال - فرداً أو أكثر - منضوياً تحت شرعيّة الدولة وشريعتها .

وإمّا أن تتبنّى القوّة أو الحزب أساساً لشرعيّته غير الشريعة الإسلاميّة من المبادئ الوضعيّة المخالفة لها ، فيكون هنا قد خرج على الإسلام قبل أن يخرج على الدولة .

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٢ .

وأخيراً فإنّه إذا كانت النظم الأخرى ترتكز على شرعيّة مصلحيّة متبادلة بينها وبين شعبها الذي يشعر بوجوب خضوعه لها أو التعاون معها لأنها ضمنتْ تحقيق رفاهيته وأمنه ، فإنه في الدولة التي تقوم شرعيّتها على تطبيق الشريعة الإسلاميّة يتجاوز شعور المواطن بوجوب طاعته ، وخضوعه للدولة الموقف النفعي « البراجماتي » إلى التديّن لله بتلك الطاعة والخضوع وطلب القربى من الله بها .

* المقوّم الثالث : (تحقيق الانصهار والاندماج الاجتماعي) :

في المقوّم الأول عرفنا أهميّة تحويل الولاءات الجزئيّة لتتوحّد في ولاء مشترك للدولة .

ولا ريب أنّ توحيد الولاء للدولة خاصة وأنه يرتكز على شرعيّة اعتمادها للإسلام الدين المشترك للجميع -لا ريب أنه- عاملٌ مهمٌّ في تحقيق الانصهار وألفة النفوس .

لكن الانصهار وإزالة التنافر الاجتماعي الذي ساد نفسيّة المجتمعات ذات الروح البدويّة ، والقضاء على الانفلات وعدم المبالاة بالآخرين تحتاج جهوداً عمليّةً مكثّفةً :

- تخفّف من الفوارق الاجتماعيّة .
- وتزيل التناقض في الممارسات الاجتماعيّة .
- وترسّخ قواعد المواطنة الصالحة الجامعة .

ولأجل تحقيق هذه الأهداف التي تحقّق بدورها الاندماج الاجتماعي بين أفراد الشعب بدواً وحضراً ، متعلّمين وأميّين تحت ظلّ القيادة الموجّهة - لأجل

ذلك- عمل الملك عبد العزيز بعد ما أسّس دولته مستعيناً بالعلماء وما لديه من إمكانات من خلال قنوات عدّة، من أبرزها :

١- تكثيف الإرشاد الديني الذي لا يقف عند حدّ بيان منهج أداء الشعائر التعبّديّة من صلاة وصوم وذكر ونحوها ، وإنما يبيّن منهج العلاقات في الإسلام بين المسلم والأطراف الأخرى : علاقته بحكومته وبوالديه وبذي رحمه وبإخوانه المسلمين جميعاً ، وبيان أنّ رعاية هذه العلاقة لها موقعها الأساس في الدين ، وأنّ الإخلال بها بإساءة علاقته بإخوانه وقطعه لهم فضلاً عن التعرّض لهم بالضّرر والإفساد يفسد على المسلم دينه ، ويضيّع عليه أجور عباداته[1] .

لقد كانت الدولة تبثّ الدعاة من مختلف المستويات لتحقيق هذه المهمّة إلى المدن والأرياف وتبعثهم في جولات على البوادي .

٢- تحضير البدو وإنشاء الهجر ، وهي إحدى الخطوات العجيبة التي سلكها الملك عبد العزيز ، وكانت وظلّت موضع درس وتحليل حتى الآن .

إنّ الملك عبد العزيز وهو بصدد إقامة دولة في هذه الجزيرة الشاسعة التي عماد أجزاء كثيرة منها البدو الرُّحَّل في مجاهلها على شكل قبائل متنافرة متناحرة عمادها السّلب والنهب والثأر والتمرّد ، والسمة العامة رقّة الدين ، والجهل وعدم الاستقرار ، وعدم الثبات على المواقف ، والكسل عن التزام صنائع ثابتة يكون بها قوام حياتهم ، فكّر في جمع شمل هذه القوى

(١) في الحديث : « أنّ النبيّ ﷺ سأل أصحابه : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إنّ المفلس من أمّتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيتْ حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحتْ عليه ، ثمّ طرح في النار » صحيح مسلم ، كتاب البرّ والصلة ٤/ ١٩٩٧ .

المبعثرة ، والطاقات غير المسدّدة ليتّجه بها اتّجاهاً منتجاً متناغم الحركة ، متوحّد الاتّجاه ، فكانت فكرة الهجر وتوطين البدو في أماكن مهيّأة بمواردها المائيّة ، ومساكنها الطينيّة التي تقام ، وإمكانات الإنتاج فيها بالزّراعة ، وأهمّ شيء فيها تعليم أمور الدين ، وتدريس القرآن والعلوم الشرعيّة ، وما يحتاجه الناشئ لتفاعله مع الحياة تفاعلاً إيجابيّاً بعد بلوغه ، وبهذه الحركة استطاع الملك عبد العزيز -كما تقول الموسوعة البريطانيّة - « أن يحوّل التطرّف الكامن في شعبه إلى أداة لخلق [أي تكون] مجتمعٍ غير قبلي ، أو ليصنع من المادة القبليّة تكتّلاً لأمّة شبه متجانسة العناصر »[1] .

٣- التعليم ، إحدى قنوات الانصهار التي وعى قيمها الكبرى الملك عبد العزيز في تحقيق نهضة ثقافيّة مدنيّة للدولة الناشئة ، ولقد عانى من كثيرٍ من الناس الذين ينفرون من التعليم بصورته النظاميّة التي لم يعتادوا عليها ، فضلاً عن أنّ الثقافة والمعرفة لم يكونا من العناصر المهمّة في وجاهة الشخصيّة وقيادتها للقبيلة أو الجماعة .

أنشأت الدولة مدارس التعليم الابتدائي والمتوسّط والثانوي ، ثمّ ما فوقها من مراحل ، وقد استطاع هذا التعليم نتيجة وحدة مناهجه التي ترتكز على سياسة تعليميّة واضحة الأهداف ثابتة الرّكائز ، أن يحقّق شاكلةً ثقافيّةً موحّدةً لدى شعب المملكة ناشئةً أو كباراً ، من خلال جهود محو الأميّة ، عماد هذه الشاكلة تعاليم القرآن والسنة ، والانفتاح المعرفي والحضاري على التراث الإنساني قديمه وحاضره لاستثمار إيجابيّاته في ضوء تلك التعاليم .

وهكذا انتفت في المجتمع السعودي الذي صاغه الملك عبد العزيز تلك

---

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية ، ص ٣٤٥ .

التناقضات الحادّة الواقعة في كثير من مجتمعات المسلمين بين تيّارات ثقافيّة متصارعة، أنتجها التعليم الذي تعدّدت مشاربه وتناقضت، سواء كان في المدارس الأجنبيّة التي انتشرتْ في بلاد المسلمين، أو من خلال ابتعاث الطلاب للدراسة في الغرب قبل أن تتشكّل لديهم أيديولوجيّةٌ ثقافيّةٌ راسخةٌ لا تخترقها السّهام الغازية .

وهكذا نتيجة نشر التعليم المرتكز على تلك السياسة، أصبحت الثقافة الإسلاميّة القائمة على اللغة العربيّة هي البنية الفكريّة لشعب هذا المجتمع، وهي الموجّه لحركته الحياتيّة - الرسميّة والاجتماعيّة - التي أصبحتْ بفضل هذه الثقافة متناغمةً متوحّدةً جامعةً للقلوب، تلتقي الأفكار والرّؤى والوجهات المتنوّعة في ميدانها الفسيح، الذي يقبل الإبداعات ويحتويها لتكون جزءاً عضويّاً في صرحها الشامخ .

فإذا حمل إنسانٌ رؤيةً مناقضةً لمبادئ هذه الثقافة سواء كان وافداً أو متأثراً بثقافة أخرى، فإنه يشعر تلقائيّاً بمنافرة ما يحمل للجوّ العام الذي تسوده هذه الثقافة الإسلاميّة، والتي يلتقي عليها أفراد مجتمعه، ممّا يجعله يتّقي إفشاء هذه الرؤية حذراً من النشازيّة التي سيبدو بها في المجتمع .

٤- المواصلات ووسائل الاتصال : اهتمّ الملك عبد العزيز باستثمار ما أنجزه العلم التقني الحديث في مجال الاتصال، لفوائده الكثيرة التي منها - ما يعنينا - وهو هنا تحقيق التقارب بين الناس، وبناء مفاهيم مشتركة، وتقاليد متماثلة مرتكزة على الشريعة والأصالة العربيّة .

لقد كان الناس في هذه الجزيرة الصّحراويّة المترامية الأطراف كأنهم في جزر منعزلة، يعيشون جموداً في تقاليدهم، وعزلةً عن الآخرين، مما يجعل كلّ مجموعةٍ : إقليمٍ، أو قبيلةٍ تشكّل شخصيّة أفرادها وفق صياغةٍ

منفصلة عن صياغات الأقاليم أو القبائل الأخرى، التي لا صلة لها بها إلا أحياناً بصراعٍ مكشوف، أو بلقاءات حذرة .

سعى الملك عبد العزيز لربط أجزاء المملكة بوسائل المواصلات الحديثة : سيارات وطائرات وسكّة حديد، وبأجهزة الاتصال والإعلام، وبالذات الهاتف والإذاعة، مما أسهم في تقارب الناس واندماجهم ببعضٍ وتوحيد همومهم .

وهكذا من خلال هذه القنوات – الإرشاد الديني، وتحضير البدو، والتعليم، ووسائل الاتصال والمواصلات – استطاعتْ دولة الملك عبد العزيز أن تحقّق لشعب الجزيرة العربيّة الذي وحّدته سياسياً وحدةً اجتماعيةً أزال فيها بقدر كبير عوامل التنافر والتناقض، حتى أصبح هذا المجتمع أمةً واحدةً واعيةً بكلّ أساسات وحدتها وألفتها داعمةً لهذه الأساسات في حركتها .

* المقوم الرابع : (تحقيق المشاركة) :

تفاعل الشعب مع همّ الدولة، وشعوره بواجبه تجاهها ومن ثمّ مشاركته في بناء الدولة من أهمّ عوامل استقرارها واتّساق حركة تكوّنها وسلامة سير تطويرها السياسي .

وتتحقّق من خلال :

- التعليم الذي ينتظم أفراد المجتمع في أوّل خيوط حركة التطوّر، ويهيّؤهم للمشاركة العطائيّة بعد التخرّج، ويكسبهم العلم الذي يؤهّلهم لهذه المشاركة الإيجابيّة .

- إتاحة الفرص للانتظام في سلك الدولة الوظيفي في المجال المناسب للشخص .

- المزج بين هدف الدولة والهدف الاجتماعي والشخصي دون انفصامٍ يجعل عمل الإنسان في الدولة مجرد حرفة استرزاقيّة ، كأنها ضريبةٌ يغرمها الإنسان وهو كاره لينصرف بعدها إلى عمله الخاص الذي يشعر فيه بذاته .

إنّ عمل المواطن في دولته المسلمة منطلقاً من إسلامه ، ومن ولائه لأمّته ودولته يجعل مشاركته أيّاً كانت مسؤولاً إدارياً ، أو معلماً أو قاضياً أو موظفاً . . . تنفيذاً للغاية العليا المشتركة بينه وبين الآخرين من حوله ، وهي تحقيق رسالة الدولة التي هي رسالته ، وهي إعلاء كلمة الله ورعاية المصالح ودرء المفاسد .

حتى العمل غير الرسمي (أي الحر) ليس منفصلاً عن غاية تطوير المجتمع ، بل هو منتظم في أهداف الدولة ، ولو ناقض أهدافها العليا فإنّ من حقها بل من واجبها أن تتدخّل لتقوّمه وفق تلك الأهداف .

في هذا الإطار قام الملك عبد العزيز حينما أشاد دولته بتحقيق المشاركة الشعبيّة الشاملة ، وانتظامها في ديناميكيّة الدّولة الناشئة بشكلٍ لم يعهد في الجزيرة العربية خلال القرون السّالفة .

- فقد فتحت المدارس ، ودفع الناس إلى التعليم ، وجعلت الشهادات سبباً للالتحاق بالعمل .
- ودعا -رحمه الله- القادرين على المشاركة المباشرة في ممارسة الإصلاح وبناء الدولة في مختلف الميادين ، سواءٌ كان العمل رسمياً أو تطوّعياً .

بعد دخول الملك عبد العزيز إلى مكة ، واجتماع العلماء والوجهاء به قال لهم : « إن مثل بلدكم يحتاج إلى اهتمامٍ زائدٍ في إدارة شؤونه ،

وعندنا مَثَلٌ يعرفه الناس جميعاً وهو : أن أهل مكة أدرى بشعابها . . . فما أرى لكم أحسن من أن تُلقى المسؤوليات على عواتقكم » . وطلب انتخاب مجموعة منهم وقال : « أريد رجالاً يعملون بصدق وعلم وإخلاص، فإذا اجتمع المُنتخبون وأشكل عليَّ أمرٌ من الأمور، رَجعتُ إليهم في حلّه، وعملت بمشورتهم، فتكون ذمتي سالمةً »[1] .

- وتلازمت حاجة المجتمع مع أفواج الخرّيجين الذين يجدون الفرص تنتظرهم في ميادين التدريس والقضاء والعسكرية ، والأعمال المهنية والإدارية في كلّ مجال ومكان .
- وأكبر عاملٍ لإيجابيّةِ مشاركَة المواطن لهذه الدولة هو التّناغم بين وعي المواطن الدينِي الذي يُنمِّيه التعليم والإرشاد ، وبين رسالة دولته الإسلامية، هذا التناغم حقق انسجاماً بين هموم الفرد وطموحاته وبين أهداف دولته .

بهذا المنهج السّوي استطاعت هذه الدولة الفتيّة أن تجعل مواطنيها لبنات في بنائها المتين ، وأن تعتمد على إسهاماتهم الإيجابية، مستغنيةً عن التّعويلَ على الأجانب عنها ، خاصة في المجالات الحسّاسة والأمنية .

* المقوم الخامس : (التطوير المناسب) :

تمثل عملية التطور مشكلةً للدول الناشئة ، وبالذات للمجتمعات الإسلامية :

- فهي دولٌ تحتاج إلى تطويرٍ شاملٍ ، لشمول التخلف كلّ مجالات حياتها .
- ثم إنها تحتاج إلى تطوّرٍ سريعٍ ؛ لأن تخلّفها كبيرٌ من جهة ، ولأن العالم

---

(1) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان، إبراهيم آل عبد المحسن، ص ٣/ ١٩ ، الطبعة الأولى، الرياض .

المعاصر « المتطور » يزداد تطوراً بشكلٍ سريع .

- والمشكل الأكبر أن نموذج حركة التطوّر الماثلة أمام العالم الإسلامي هو النموذج الغربي ، وهو نموذجٌ - على الرغم من كونه يقدم نفسه بصفته النّموذج المثاليّ القدوة لكل حركة تطوّرٍ - إلا أنه خاصٌّ إقليميّاً وثقافيّاً :

* إقليميّاً لأنّ موطنه وهو القارة الأوربية ذو طبيعة مختلفة عن طبيعة المجتمعات الإسلاميّة في كثيرٍ من المقوّمات الجغرافية والبشرية والمناخيّة .

* وثقافيّاً لأنّ حركة النهضة التنويريّة التي قامت في أوربا كانت إفرازاً لمشكلاتٍ تاريخيّةٍ خاصّةٍ بها سياسيّةٍ ودينيّةٍ وفكريّةٍ .

ولقد عانتْ المجتمعات الإسلاميّة من مشكلة التطوّر في تكوينها السياسي ، وحدثتْ أزماتٌ حادّةٌ ، وأقيمتْ مشاريع انتهت بالفشل ، واضطربت الأحوال في بعض الدول بسبب التخبّط في عملية التطوير التي أخذت بها هذه المجتمعات ، فلم يهضمها الناس ، ولا تفاعلوا معها ، ولم تحقق ما كان يؤمّل منها من تطوّرٍ كانت تُوعَدُ به الشّعوبُ ، بل إنها قادت - للأسف في بعض المجتمعاتٍ - إلى زيادة في التخلّف حينما حُطِّمت الأنساقُ التقليدية في المجتمع مِهَناً وحِرَفاً وتقاليدَ اجتماعيةً ، ولم تُوجد البدائل الإيجابية الناجحة في مجالاتَ التصنيعَ والزراعة والمؤسّسات المدنية والنظم الاجتماعية ، التي يشعر الناس بعدم تنافرها مع قِيَمِهم ، ووفائها بحاجاتهم ، وإغنائها إيّاهم عما تركوه ، وعن استجداء الآخرين .

أمّا في المجتمع السعودي بعد أن وحّده الملك عبد العزيز ، فإن مهمّة التطوير كانت ثقيلةً ماديّاً لربما أكثر من أغلب المجتمعات الإسلامية الأخرى ، فهي مهمّةٌ تستهدف البدءَ من الصِّفْر تقريباً ، وهو مجتمعٌ بدون موارد قبل

ظهور النّفط ، والمهيؤون من أبنائه لقيادة عملية التطوّر قليلٌ جداً .

ولكن ، بإزاء هذا الجانب المادي الثقيل جانبٌ آخر أهمّ ، أعطى لحركة التطوّر في هذا المجتمع عنصر تفوّقها ونجاحها .

يتمثل هذا الجانب في سلامة المسلك الحضاري الذي انتهجته قيادة هذا المجتمع في تطويره متمثّلاً بـ :

- جعل الشريعة الإسلاميّة مُوجِّهَ حركة التطوّر على هدي الحديث النبويّ :
« لا يكُنْ أحدكم إمّعةً يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنتُ ، وإنْ أساؤوا أسأتُ ، ولكن وَطِّنُوْا أنفسكم ، إنْ أحسن الناس أنْ تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم ، أو لا تظلموا »[1] .
- رعايتها لقيم المجتمع وحاجته ، والتدرّج المناسب الذي لا يُبطِّئُ حركة التطوّر في سيرها الذي تقتضيه المصلحة ، ولا يزيد في جرعاته بما يجعل المجتمع يشرق به ويختنق .

ولكنّ هذه الرعاية والتدرج لا تصل إلى درجة الانخذال أمام المواقف العاطفيّة ، سواءٌ تلك التي تتوجّس حذراً من كلّ جديد ، أو التي بعكسها تريد أن تندفع بحركة التطوّر بسرعةٍ تفقد المجتمع توازنَه فيضطرب .

وشواهد وعي الملك عبد العزيز -رحمه الله- بالمرتكزات السّليمة للتطوّر الشرعيّة والمصلحيّة والسننيّة ، واعتماده عليها ، في حركة التطوير ، وفي ردّ أصحاب تلك المواقف إليها ، ومحاكمتهم لها كثيرةٌ مشهورةٌ .

- جعل الإنسان هو مدار حركة التطور وتسخير كل مجالاتها الماديّة والفكريّة والاجتماعيّة والحضاريّة لخدمة هذا الإنسان حتى يحقق غاية

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر رقم [٢٠٠٨] وقال عنه : حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، قال محقّق جامع الأصول عبد القادر الأرناؤوط : « وهو حديثٌ حسنٌ » . ١١/ ٦٩٩ .

وجوده عبادةً لله ، وخلافةً في أرضه ، وعمراناً لكونه بما يرضيه تعالى .

- شموليّة التطوّر لكلّ المجالات لأنّ جوانب الحياة متشابكةٌ ، والاهتمام بجانب أو جوانب منها مع إهمال الجوانب الأخرى خللٌ كبيرٌ ، وقد سبّب في بعض الدّول التي أخذت به أزمات عسيرة .

لقد تواكبتْ جوانب النّهوض -في المملكة- في مختلف مرافق الحياة اقتصاديّةً وسياسيّةً واجتماعيّةً وتعليميّةً وإعلاميّةً . . . ممّا أعطاها متانةً وضماناً ضدّ الهزّات التي قد تعرض لبعض هذه الجوانب ، فتدعمها الجوانب الأخرى .

هذه هي أبرز مقوّمات التكوين السياسي التي حقّقها المجتمع السعودي الذي أشاد دولته الملك عبد العزيز بفضل اعتماده تعاليم القرآن والسّنة ، ثمّ حكمته في فقهه هذه التعاليم من جهةٍ ، ووعيه سنن الاجتماع البشري من جهةٍ ثانيةٍ ، وسداد تصوّره لمجتمعه ، وللعالم من حوله من جهة ثالثة .

- حقّق هذا المجتمع من خلال تلك المقوّمات - تماسك الدولة الناشئة وسلامة سيرها التطوّري من المعوّقات والإخفاقات القاتلة ، وانصراف جميع مواطنيها نحو الحركة الحضاريّة الإيجابيّة يعمر نفوسهم إيمانٌ راسخٌ بدينهم وشريعتهم ، وولاءٌ صادقٌ لدولتهم وأمتهم ، وتفاعلٌ واثقٌ مع الدول والأمم من حولهم .

* * *

في ختام هذا المبحث أرجو من خلال إيضاح تينك النقطتين :

- عناصر التفوّق، وجوانب العظمة في شخصيّة مؤسس الدولة الملك عبد العزيز، رحمه الله.
- ومقوّمات التكوين السياسي في تحقّقها الأمثل في مسيرة التطوير لبناء الدولة السعوديّة .

أرجو أن تكون قد تجلّت أسباب التميّز لهذه الدولة بين دول العالم ، والمقام المتفرّد لها ذاتيّاً وعالميّاً؛ حيث جمعتْ خصالاً عديدةً يندر اجتماعها في دولة في عصرنا الحاضر ، ومن أبرز هذه الخصال :

* تبنّيها الإسلام شعاراً في رايتها ، وتطبيقاً لشريعته في نظامها .
* حملها مهمّة الدعوة إلى الإسلام في العالم .
* إعلاؤها شأن اللغة العربيّة « لغة الوحي » بصفتها اللغة الوحيدة للدولة وتقريرها في كلّ مراحل التعليم .
* أخذها بأسباب الرقي المدني بثقةٍ ووعيٍ، ووضوح منهجها؛ مماجعلها تنجح في أشواط تطوّرها المتتابعة .
* شعورها بمسؤوليّتها الدوليّة :

- في الدفاع عن الإسلام وبيان وجهته في المحافل الدوليّة والتحفّظ على كلّ ما يعارضه .
- وخدمة المسلمين والدفاع عن حقوقهم دوليّاً .

* تعاونها المطلق مع المسلمين شعوباً ودولاً دون حساسيةٍ قوميّةٍ أو وطنيّةٍ فيما فيه خيرهم .
* تعاونها مع العالم كلّه لتحقيق العدل والصلاح وما فيه خير الإنسانيّة في

المنظّمات والمواثيق وغيرها .

* وتحوّلها واحة سلامٍ وأمنٍ ، وملتقى حبٍّ ووفاقٍ ، وجمعها -بنجاحٍ- بين الأصالة الأصيلةِ ، والمعاصرة الإيجابيّة .

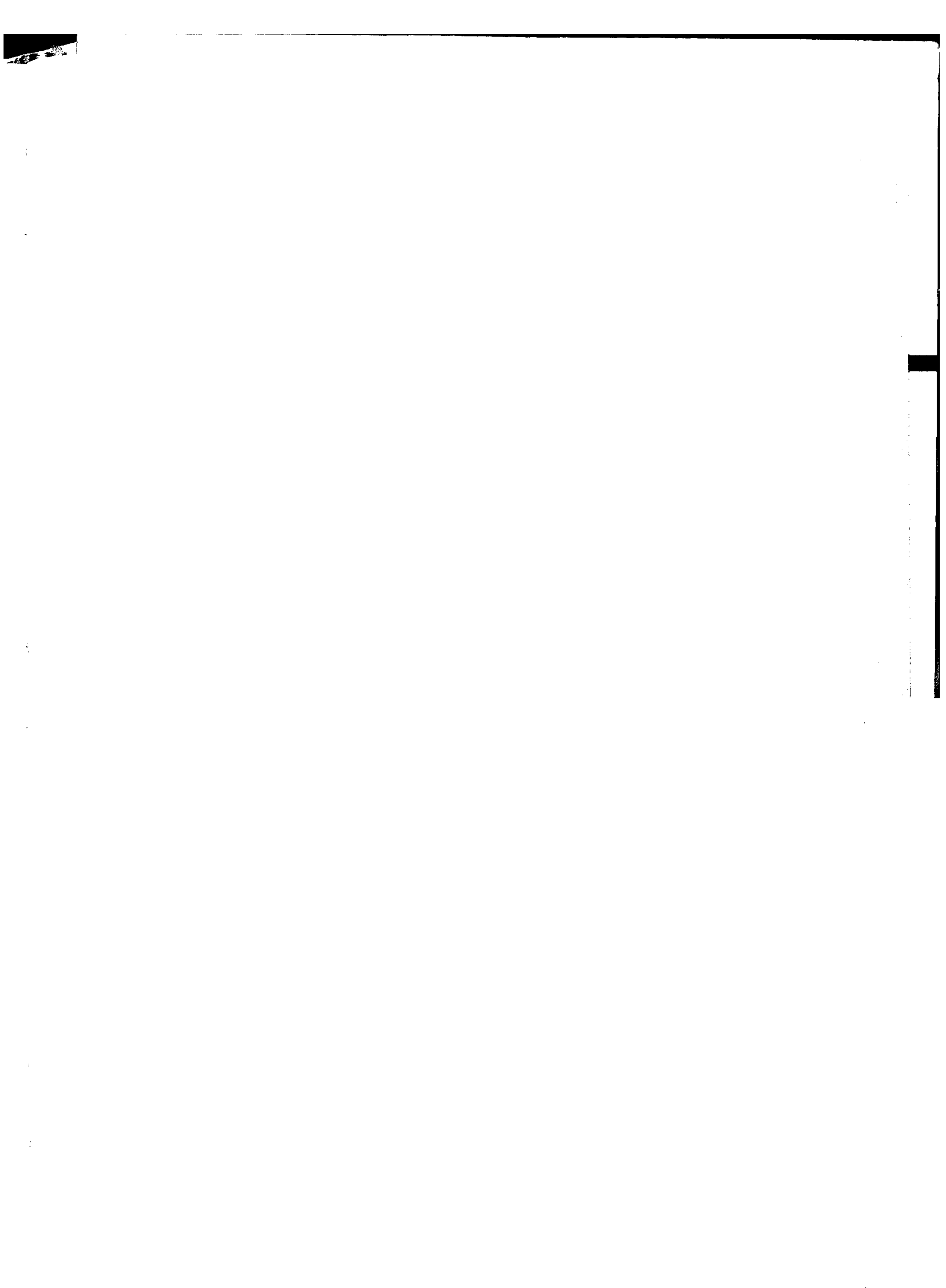
. . . إلى آخر السمات السامية التي تحلّتْ بها شخصيّتها نتيجة ارتكازها على النهج الإسلامي الصحيح أوّلاً ، وتوجّهها بحكمة الملك عبد العزيز ثانياً .

هذه هي الدولة التي أنشأها الملك عبد العزيز ورعاها طيلة عمره ، وظلّتْ بهذه الشخصيّة والسمات ، وما تزال موطن إعجابٍ لأناسٍ وحبٍّ وثناء من آخرين ، وحسد وبغض من غيرهم ، وكيدٍ وتربّصٍ أو عداءٍ صريحٍ من سواهم .

والله هو الحافظ وهو الوليّ الحميد ، ، ،

الباب الأول

تطبيق الشريعـــة الإسلامية
في المملكة العربية السعودية



مدخل

في مصطلح تطبيق الشريعة وفلسفته:

في قرون الضعف المتأخرة ضعف التزامُ المسلمين بدينهم، فانفرطت حياة كثير منهم -الاجتماعية- من أحكام الإسلام، وصارت تحكمها التقاليد والأعراف القبلية والرّيفيّة، وإن بقيت صورٌ من التدين مُتمثّلةً ببعض الشعائر التعبديّة والسّلوكيّة العُرفيّة، وحينما دخل الكفار المستعمرون بلاد المسلمين أزاحوا ما بقي من أحكام الشّريعة في تقاليد الناس وأنظمتهم، وجلبوا أنظمتهم وصِيَغَهم الثّقافيّةَ ليقطعوا الخيوط الباقية للمسلمين بإسلامهم.

وهَبَّ المسلمون في كلّ مجتمعٍ مستعمرٍ لجهاد مستعمريه، وسرتْ حَميَّةُ الإسلام بين المسلمين، فتعاونوا حتى رحل الاستعمار، ولكنَّ النباتاتِ الخبيثةَ التي زرعها من قوانين وثقافةٍ بقيت تحكم حياة المسلمين.

وكان من نتيجة ذلك أن قامت الدعوات الغيورة تدعو إلى «تطبيق شريعة الله» في حياة المسلمين، وتطهيرها من لَوَثَاتِ الاستعمار الباقية.

وفي مقابل هذه الدعوات ارتفعت صيحاتٌ ترفض هذه الدعوة، وتُخَوِّفُ من تطبيق الشريعة على مسيرة الحياة وحقوق الإنسان، وكان في كلٍّ من الدَّاعين لتطبيق الشريعة والرافضين له من تدفعهم العاطفةُ والانفعالُ بالجو المحيط أكثر ممّا يدفعه الوعي بحقيقة التطبيق وثمراته.

وكان من نتيجة ذلك أن اخْتُزِلَ تطبيقُ الشريعة في جانبٍ واحد من جوانبه المتعدّدة، وهو إقامة الحدود الشرعية لجرائم القتل والزنى والحرابة والسرقة ونحوها؛ فالذين يعارضون تطبيق الشريعة يُركِّزون على تشويه هذه الحدود،

وأنَّهَا تنافر الذَّوْقَ المعاصر الذي تقام عليه النظم وحقوق الإنسان في بلاد الغرب، والذين يدعون لتطبيق الشريعة -وربما رداً على الرّافضين - يَتركَّزُ حديثهم عن هذه الحدود وأثرها في الحياة وقَطعيَّتها في الدين .

وقد يتوسَّعون أكثر من الحدود ، لكن النظر يبقى محدوداً في بعض التطبيقات التي برزت فيها مناقضاتٌ للشريعة ، كالاقتصاد والإعلام ؛ لذا كان مُهمّاً بيانُ المعنى السليم لتطبيق الشريعة الذي سنعتمده مفهوماً تقوم عليه الدِراسة في هذا البحث .

التطبيق :

التطبيق كما يقول العالم اللّغوي ابن فارس في كتابه " معجم مقاييس اللّغة " : هو « وضع شيء مبسوط على مثله حتى يُغطّيَه » « وقولهم : طَبَّقَ الحق إذا أصابه من هذا ، ومعناه وافقه حتى صار ما أراده وفقاً للحقّ مطابقاً له »[1] .

ومن المعاني المُولَّدة المأخوذة من هذا المعنى « التطبيق : وهو إخضاع المسائل والقضايا لقاعدة علميّة أو قانونيّة أو نحوها »[2] .

ومن هذا التوليد تطبيق المذاهب والنّظريّات الشموليّة كالليبرالية ، والماركسيّة -ومثلها الأديان- حيث يُؤتى به مقابلاً لجانبها النّظري ، فالدين أو المذهب أو النّظريّة الشموليّة لها جانبها النظري ، وهو الأسس التي تقوم عليها ، والرؤية التي تطرحها في شؤون الحياة ، مُتمثّلةً في تعاليم مقدّسة لدى أصحابها ، منسوبة لله كما في بعض الأديان ، أو لفلاسفتها المؤسّسين لها كما في المذاهب .

(١) معجم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس ٣/ ٤٤٠ ، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ .

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٥٥ ، إصدار مجمع اللغة العربية بمصر ، طبعة المكتبة العلمية بطهران، إيران .

كما أنّ لها جانبها التطبيقي وهو تمثّلها في الواقع البشري اعتقاداً وفكراً وكذلك حركةً وسلوكاً.

الشريعة :

الشَّريعة في اللغة : هي مورد الماء الذي يُقصد للشرب ، وهي كذلك طريقة الحياة والمنهج الذي يسلكه الفرد أو المجتمع ، ووَضْعُ هذا المنهج هو التشريع للشريعة التي قد تكونُ شَريعةَ حقٍّ ، وهي شريعة الله التي بعث بها رسوله ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا** ﴾[1] أو شريعةً باطلةً ، وهي التي يضعها الناس مخالفةً لشرع الله : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾[2].

لكنّ الشريعة في اصطلاح المسلمين غلبت على ما شرعه الله دون ما سواه؛ فإذا أطلقت « الشريعة » هكذا فالمقصود بها شريعة الحق التي حملتها تعاليم القرآن والسنة .

إلا أنّ هناك خلافاً بين العلماء في المقصود بالشريعة الحقة ذاتها إذا أطلقت :

هل يراد بها الدين كله عقيدةً وعبادةً ونظامَ حياة ؟
أو هي مخصوصةٌ بالجانب العملي دونَ جانب الاعتقاد ؟

---

(١) الآية رقم (١٣) من سورة الشورى .

(٢) الآية رقم (٢١) من سورة الشورى .
ويقول ابن تيمية : « إنّ الشريعة مستعملة في كلام الناس على ثلاثة أنحاء : شرع مُنزَّلٌ وهو ما شرعه الله ورسوله، وشَرعٌ مُتأوَّلٌ وهو ما ساغ فيه الاجتهادُ ، وشَرعٌ مُبَدَّلٌ وهو البدع والضلال الذي يُضيفه الضّالون إلى الشرع . انظر : مجموع الفتاوى، ١٩/ ٣٠٨ ، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

أو هي مخصوصةٌ بالجانب العقدي وحده في مثل تصنيف الآجري[1] كتابه : « الشريعة » لقضايا الاعتقاد فقط ؟

المسألة اصطلاحيةٌ ، ولكل رأيٍ شواهدُه من النّصوص الشرعية .

لكن إذا قرنت الشريعة بالعقيدة كقولهم الإسلام عقيدة وشريعة فالمقصود الثاني ، وإذا تُحُدِّثَ عن شريعة الإسلام مفردةً فالأصل هو الرأي الأول .

يقول ابن تيمية متحدّثاً عن اصطلاحات المسلمين في فنون العلم المتعلّقة بالوحي : « من الناس من يسمّي العلم والاعتقاد والحكم والقول الخبري التَّابع « علم الأصول » أو « أصول الدين » أو « علم الكلام » أو « الفقه الأكبر » ونحو ذلك من الأسماء المتقاربة وإن اختلفت فيها المقاصد والاصطلاحات ، ويسمّي النوع الآخر « علم الفروع » أو « فروع الدين » و« علم الفقه » « والشريعة » ، وهذا اصطلاح كثيرٍ من المتفقّهة والمتكلّمة المتأخرين »[2] .

لكن ابن تيمية في مجال التأصيل يرى أن الشريعة شاملةٌ لأمور الدِّين كُلِّه «اسم الشَّريعة والشَّرْعُ و الشِّرْعَةُ ينتظم كل ما شرعه الله من العقائد والأعمال»[3] .

ومرادنا بالشريعة في هذا البحث هو مفهومها الشامل للهداية الإلهية التي حملتها تعاليم القرآن والسنة في مسائل الإيمان والعبادة والأخلاق والنُّظم الاجتماعية كلّها .

---

(١) هو محمد بن الحسين، فقيه شافعي، محدِّث، له تصانيف كثيرة، عاش في بغداد ثم في مكة الثلاثين سنة الأخيرة من عمره حيث توفي سنة ٣٦٠هـ فيها. انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، ٦/ ٩٧ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٩/ ٤٣١ .

(٣) المرجع السابق ١٩/ ٦٠٢ وانظر في هذا أيضاً : المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص٨٥٢ ، دار المعرفة ، بيروت .

وعلى ما سبق في :
- التطبيق .
- والشريعة .

يكون مرادنا بتطبيق الشريعة في المملكة العربية السعودية موضوع بحثنا هو : تَبَنِّيها الإسلام بصفته خيارها الوحيد في حياتها ونهضتها ، والتزامها بمبادئه العقديّة، وتَمَثُّلها لأحكامه العملية في جوانب الحياة ، ومختلف العلاقات .

وأقرب المفهومات المعاصرة توافقاً مع هذا المعنى هو « الإسلامية » التي توصف بها الحركات الدعويّة ، فيقال : الحركة الإسلامية ، وتوصف بها نظم الحياة ، فيقال -مثلا- : نظام الاقتصاد الإسلامي .

والإسلامية هنا تعنى الالتزام المبدئي والشمولي بالإسلام ، وجعله معْيَارَ التعامل مع ما سواه من الثقافات والنُّظم ، وهذا ما نقصده بتطبيق الشريعة الَذي يشمل :

- اعتماد التّصوّر الإسلامي للوجود والإنسان والحياة .
- إقامة التعليم على العلم الشرعي الذي يبني شخصية الناشئ إسلاميّاً .
- إشاعة الفضيلة وإعلاء منار الشعائر التعبديّة في المجتمع .
- اعتماد أحكام القرآن والسّنة بصفتها مصدر التشريع لنظم الدولة .
- التعامل الخارجي بناءً على هذا الأساس ، سواءٌ كان مع المسلمين أو مع غيرهم ، وسواءٌ كان تعاملاً ثنائيّاً ، أو دوليّاً عاماً؛ بالدعوة إلى الإسلام ، ودعم ما يحقق المصلحة الشرعية ، ويرعى الفضيلة ويقيم الحق والعدل ، والتحفّظ على ما يخالف الإسلام من مشاريع دوليّة .

العلاقة بين المنهج النظري والتطبيق الواقعي :

لابد ونحن بصدد بحث لا يُنَظِّرُ قضايا مثاليّة شأن الفلسفة النظريّة، ولا يقوم بمسحٍ اجتماعيٍّ يرصد حركةً بشريّةً لا ترتبط بمعايير علويّة عليها .

وإنما هو بحثٌ يدرس واقعاً بشرياً مُعيّناً من خلال تمثّله لمنهجٍ نظريٍّ محدّد، أي أننا أمام ما يلي :

- منهج نظري ، وهو تعاليم الوحي .
- وتطبيق واقعي لهذه التعاليم .
- وعلاقة بين المنهج وتطبيقه .

ولابد من معالجة هذه العلاقة قبل دراسة التطبيق وآثاره ؛ لأن هذه العلاقة مَوْطِنُ سوء فَهْمٍ لدى كثيرٍ من الناس ، يتراوح بين طرفين :

- التعالي على الواقع البشري القائم، وتَرَسُّمُ صورة خياليّة تنوب عن الواقع ليتمَّ في ضوئها رفض أيِّ واقعٍ لا ينطبق عليها تماماً .
- الاستغراق في الواقع القائم بخلفياته الثقيلة وإمكانات التغيير المحدودة فيه، مما يجعل رؤية أصحاب هذا الطريق للمنهج باهتةً لا ترى إلا مَعالمه العامة مكتفيةً بمجرد الانتساب إليه ، أو إعطائه جانباً محدوداً من الحياة .

إن العلاقة بين المنهج النظري والتطبيق الواقعي تُمثِّلُ مشكلةً فكريّةً عانت منها المجتمعاتُ المسلمةُ مُنْذُ أواخر عهد الخلفاء الراشدين ، نَظَّرَهَا أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله المشهور للّذي سأله : « لِمَ لا تكون كأبي بكرٍ وعُمَرَ؟ فقال : لأنهما حاكمان على مِثْلِي ، وأنا حاكمٌ على مِثْلِكَ » .

هي المسافة بين الإيمان المُطْلَق ودرجات مطلق الإيمان[1] .

هي بعبارةٍ معاصرةٍ : نسبية التطبيق البشري إزاء الكمال في تعاليم الوحي الإلهي .

سنتناول هذه المشكلة في ثلاث نقطٍ :

النقطة الأولى : العلاقة بين التعاليم والتطبيق

روى البزار وأحمد أنّ رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين مَتِيْنٌ فأوْغِلِ فيه برفقٍ ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »[2] .

فهنا يُشبِّه الرسول ﷺ الدين بما هو تعاليمُ عقديّةٌ وقيَميّةٌ وسلوكيّةٌ بالأرض الشديدة الصُّلْبة ، والتدين بما هو حركةٌ بشريةٌ بالسير على هذه الأرض على دابةٍ .

ثم يُوجِّه الرسول ﷺ إلى المنهج السَّليم في حركة الإنسان فوق هذه الأرض أي في تديّنه :

- ينبغي أن يُوغل ، والإيغالُ : هو السّير بشدّة وسرعة ، بلا تردّد ولا تكاسلٍ .

- ولكن ينبغي أن يكون رفيقاً في إيغاله ، والرِّفق ضدّ العنف ، فلا يَشدُّ على دابته لتسير على هذه الأرض الصُّلبة سيرها على الأرض اللَّيِّنَة ، ثم يختم الرسول ﷺ حديثه بذكر مثلٍ يُبيِّنُ نتيجة عدم الأخذ بأحد الأمرين : الإيغال

---

(١) الإيمان المطلق المستوفي كل عناصره وشعبه بحيث يناهز الكمال البشري ، ومطلق الإيمان هو الحد الذي يبقى به صاحبه مرتبطاً بحبل الإيمان مع وجود ثغرات تنزل به عن الصورة الأولى .

(٢) رواه الإمام أحمد بدون زيادة « فأوغل فيه برفق » في المسند ٣/ ١٩٩ ، والبزار – انظر : كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ١/ ٥٧ ، ط١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ، ١/ ٧٦ ، ط١ عن سند مسند أحمد : « رجاله موثقون إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنساً » . وعن سند البزار قال : « فيه يحيى بن المتوكل ، وهو كذَّاب » .

والرِّفق، وهو قوله ﷺ : « فإنّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . والمُنْبَتُّ هو المنقطع في السفر، ونتيجة هذا الانقطاع خسارة من جهتين : من جهة عدم تحقيقه ما نوى من سفرٍ، ومن جهة عدم توفيره دابَّته من عناء هذا السَّفر الخاسر.

أمَّا خسارته لعدم الإيغال فواضحٌ ، وأمَّا خسارته لعدم الرِّفق فإنّه بسبب تحميله الدابة فوق طاقتها، بتعنيفها لتكون على مستوى هذه الأرض القويَّة الصُّلبة، مع أنَّ قدرتَها دون الأرض ، لكن يمكن بالرِّفق والأخذ بالمستطاع أن تتجاوز الدّابةُ هذه الأرض ويحقق صاحبها غاية سفره .

ودلالة الحديث في موضوعنا واضحةٌ ، فإن تعاليم الدين تُمثِّلُ الكمالَ المطلق المستوفي للفضيلة كلِّها ، في العقائد والقيم والتّعبد والعلاقات الإنسانية، وكل ما يتعلّق بالوجود الإنساني فرديّاً أو جماعيّاً .

أما التديُّنُ - وهو الجهد الإنساني لتطبيق تلك التعاليم - فإنَّه نسبي يَرتقي في درجات متصاعدة نحو الكمال، لكنَّه لن يبلغ الكمال المطلق المُنَزَّهَ عن كل دنس؛ لأنه بَشري ، ولَو حاول الإنسان أن يحمل على نفسه ليتمثل ذلك الكمال مُغَالِباً بشريَّتَه ، وظروفه بالقفز عليها ، فإن النتيجة ستكون إرهاقاً لنفسه، واضطراباً في تَديُّنه ، ومن ثم انقطاعاً في سفره كما أخبر الرسول ﷺ .

وكما يكون ذلك للفرد فهو للمجموع كذلك ، أمَّةً أو دولةً ، بل هي أحرى بِتَدنِّي درجات النسبيَّة من الفرد .

ولهذا فما يسميه العلماء بـ« الإيمان المطلق » لا يراد به أنّ صاحبه حقّق درجة الكمال المطلق في الإيمان بمفهومه الشّامل للاعتقاد والقول والعمل ، وإنما المراد أنّه حقّق الدرجة العليا الممكنة بشريّاً من مطلوبات الشّرع ، وإلا فهو من

جـملة من يشـملهم حـديث الرّسـول ﷺ في قـوله : « كـلّ ابن آدم خطّاءٌ »[1] .
وهو كـما سبق يؤتى به مـقـابلاً لمن لديه مطلق الإيمان ، وهو وصفٌ يطلق -في هذا المجال- على المؤمن الموحِّد المقصِّر بارتكاب الصَّغائر أو المقترف لكبيرةٍ أو كبائر تنزل به إلى الدرجات الدّنَيا من الإيمان .

في ضـوء هذا المعيـار الذي يفـرّق بين الـدّين المطلق ، والتـديُّن النسـبي ، تقوم النّظرة المعتدلة في تقويمها للأفراد ، وللمجتمعات في تطبيقهم للإسلام .

وبه أيضاً ننظر إلى تاريخ أمتنا الإسلاميّة خلال قرونها المتتابعة فلا نهضمه حقّه ، ولا نُلْبسه فوق ما كان لابساً .

لقد أدّت النظرة التي لم تراعِ الفرق بين الدّين والتديّن إلى إساءةٍ لتاريخ الأمّة الإسلاميّة ، وإلى الإسلام ذاته .

أمّا إساءتها للتاريخ الإسلامي ، فلأنّها حينما ألغتْ نسبيّة التديّن البشري ، وطالبتْ هـذا التديّن بالارتفـاع إلى كـمال الدّيـن ، اختزلتْ تاريخ الإسلام في حقبة محدودة هي عهد الخلفاء الراشدين ، ولما رأى هؤلاء ما حدث في عهد عثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهمـا - من فتنٍ ، اختزلوه أكثر فحصروه في عـهـد الخليفتين الأوّلين أبي بكرٍ وعمرَ - رضيَ الله عنهـمـا - مع عـهـد الرّسـول ﷺ وعُدَّ ما بعد ذلك من تاريخِ القرون اللاحقة أجنبيّاً -أو يكاد- عن الإسلام مع ما فيه من فتوحاتٍ ، وعلومٍ شرعيّةٍ ، ونشرٍ لدين الله ، وإن كان فيه جوانب نقصٍ وتقصيرٍ .

---

(١) وتكملته : « وخير الخطّائين التوّابون » أخرجه الترمذي في باب صفة القيامة برقم [٢٥٠١]، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الفكر ، و رواه أيضاً أحمد ٣/ ١٩٨ ، وغيرهما ، قال محقّق جامع الأصول : « إسناده حسنٌ » ٢/ ٥١٥ .

وأمّا إساءتها للإسلام فلدى آخرين لم يستوعبوا أن يسمّى هذا التاريخ مسلماً وفيه نواقص وقصورٌ، فلم يبرزوا إلا جوانبه المضيئة، أمّا ما فيه من نقص حتى ولو كان بمعيار هذا العصر لا بمعيار عصرهم فتجاهلوه أو اعتذروا عنه بأنه غير صحيحٍ أو شذوذٌ لا اعتداد به.

وكلتا النظرتين مجافيتان للمنهج السّليم الذي لا ينفي إسلاميّة الشخص أو الأمة أو المجتمع لوجود قصور فيه عن التّمثّل الكامل للإسلام، بل يحكم بإسلاميّته ما دام متبنّياً للإسلام، قائماً على التوحيد وأسس الدّين، ويعذره فيما قصّر فيه نتيجة اجتهاد خاطئ، أو عجز وقصور طاقة، وما فيه من أخطاء سببها تقصيرٌ منه فإنها تحسَب عليه لا على الإسلام، وإن كانت لا تخرجه عن الإسلام.

من هذا المنظور سيكون حديثنا عن تطبيق الشريعة الإسلاميّة في المملكة العربيّة السعوديّة بصفتها حركةً تدفعها رغبةٌ صادقةٌ من المجتمع كلّه، قادةً وشعباً نحو التزام الإسلام في شؤون الحياة، ولكنا لا نزعم بأنها قد بلغت الكمال الذي تطابق به الدّين بصفته تعاليم موحاةً في القرآن والسّنة؛ إنّها توغل برفقٍ في دينها الذي اختارتْهُ منهجاً لحياتها، وسبيلاً لنهضتها.

النقطة الثانية: الفرق بين الصّحة النظريّة والتطبيق الواقعي

وهي مرتبطةٌ بالأولى لا تنفكّ عنها، لكنها ترتبط بالإمكان البشري لا في حدود طاقاته الناقصة بطبيعتها، وإنّما في ضوء ظروفه الزمانيّة والمكانيّة.

إنّ الإنسان -مثلاً- يعلم من خلال قراءته ودراسته أهميّة تربية الأولاد ومناهج التربية السّليمة، وقد يخطب على المنبر بأفصح بيان، منظّراً هذه المناهج، لكنّه في الجانب العملي -مع أولاده- قد لا يأخذ إلاّ بثُلث أو ربع ما

يُنظِّرُ ويدعو إليه ، لا تقصيراً منه وعزوفاً عن الحقّ الذي يدعو إليه ، ولكن ظروف بيته ، وعلاقته بأولاده ، وحالتهم الفكريّة والنفسيّة . . إلخ تقف به عن تطبيق كلّ المنهج الذي يؤمن به نظرياً .

وكلّ إنسان يدرك هذا الأمر من نفسه ؛ أقصد به اتّساع ووضوح المعرفة بالشيء بالنسبة لمحدوديّة إمكان تطبيقه .

والأمر في دائرة المجتمع ، والدّولة أوضح وأكبر منه في دائرة الفرد ، فإنّ تنوّع الظروف المحيطة ، وقسوة ضغطها من جهة ، وكثافة مجال التغيير وهم البشر المختلفون في نفسيّاتهم ورغباتهم ومستوياتهم الفكريّة . . إلخ من جهة ثانية ، يجعل الهوّة بين الجانب النظري وصورته التطبيقيّة أكبر ممّا هي في حياة الفرد ، والتقارب بينهما أكثر صعوبةً ، مما يقضي على مستهدف الإصلاح في المجتمع برعاية هذا الجانب في دعوته أوّلاً بأن يتدرّج فيها بمطالب إصلاحيّة « واقعيّة » ؛ أي قابلة للتطبيق في ضوء الظروف القائمة ، وثانياً بألا يفسّر عدم تمثّل المجتمع لمطالبه الإصلاحيّة ، أو حتى للصّور النظريّة المثاليّة التي يفترضها نموذجاً ينبغي أن يرتقي إليها المجتمع - لا يفسّر تأخّر المجتمع عن هذا التحقّق بأنه رفضٌ للأخذ بالحقّ واتّباع الأحسن - ما دام يعلن أو تدلّ الشواهد على رغبته في الخير ، وسوء الفهم لهذه النقطة ؛ أعني الفرق بين قدرة العلم وقدرة الفعل هو الذي يؤدّي إلى الإخلال بالمصالح الشرعيّة بعدم رعاية الأولويّات فيها .

روي أنّ عبد الملك ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز قال لأبيه يوماً : ما لك لا تنفّذ الأمور يا أبتي؟ فوالله ما أبالي لو أنّ القدور غلتْ بي وبك في الحقّ، فقال أبوه -رحمه الله- : « لا تعجل يا بُنيّ، فإنّ الله ذمّ الخمر في القرآن مرّتين، وحرّمها في الثالثة ، وإني أخاف أن أحمل الحقّ على الناس جملةً

فيردّوه جملةً وتكون فتنةٌ »[1] . لكن هذا كلّه لا ينتهي إلى أن يصبح ضغط الظروف الزمانيّة والمكانيّة حجّةً في رفض الإسلام ، والتّلكّؤ عن العمل بشريعته .

النقطة الثالثة : التبنّي المبدئي والنقص التطبيقي

هذه النقطة واضحةٌ في شخصيّة الفرد ، فشخصٌ آمن بالإسلام ديناً وبالله ربّاً وبمحمّد رسولاً ، ولكن التزامه بالإسلام في أعماله ناقصٌ يختلف تماماً عن شخصٍ يرفض الإسلام وإن كانت له أعمالٌ إنسانيّةٌ فاضلةٌ ، فهذا لا تنفعه عند الله يومَ القيامة ؛ لأنَّ أوّل شروط القبول هو الإيمان .

أمّا المؤمن فإن هذا النقص وإن لم يمحق إيمانه ألبتَّةَ فإنّه – إذا كان نتيجة تقصيرٍ منه– يضره ويُشوِّهُ صفاء إيمانه ، لكن تبقى له صفة الإسلام والإيمان ولا يخرجُ منهما إلا بكفرٍ صراحٍ يخرم به اعتقاده وإيمانه ، لا في نقص التطبيق فيما دون ذلك .

وعلى الفرد يقاس المجتمع والدولة .

وخلاصة القول في هذه النقط الثلاث من حيث صلتها بموضوعنا « تطبيق الشريعة في المملكة » :

أن المملكة العربيّة السعوديّة دولةٌ تتبنَّى الإسلام مبدئيّاً بصفته دينها ، ومَنهجَ حكمها ، ورسالتها الدعويّة ، وأنّه على هذا التَّبنِّي يقوم تطبيقُها للشريعة في نظمها المختلفة ، و لكنَّا مع ذلك وإن تعالى شكرنا لله على أنّنا المجتمع

---

(١) انظر : الموافقات في أصول الشريعة ، أبو إسحاق الشاطبي ، ٢/ ٩٣ ، ٩٤ ، تحقيق عبد الله دراز ، المكتبة التجاريّة بمصر .

الذي تبنّى الإسلام وعمل لتطبيقه في ظلِّ متغيِّرات وظروف دوليّة وحضاريَّة معاكسة، إلا أنَّنا لا نزعم أن تطبيقنا يُمثِّل الكمال المُطلق المعادل لتلك التعاليم القدسيّة المنزَّهة عن الخطأ والنّقص، ومن ثَمَّ لا ندّعي له العصمة.

إنَّ هذا التطبيق جهدٌ بشريٌّ، يعتريه النقص - في بعض أو كثير من مفرداته - في اجتهاد مُطبِّقه أو ضعفه، أو نتيجة ضغط الظروف المحيطة به، أو غير ذلك من العوارض التي كما تَحدثُ للمرء في بيته مع أولاده تَحدث بالأولى لمجتمع كبير ودولة تتحرّك في ظلِّ أوضاعٍ عصريّة ودوليّة لها رياحها غير المواتية، بل لها ضغوطها المعاندة لهذا التوجّه.

ومع ذلك فنحن في المملكة العربية السّعوديَّة نفخر بأنَّنا:

- الدولةُ التي تبنَّتْ التوجُّهَ الإسلامي منذ نشأتها في القرن العشرين.
- وأنّها تسعى لمداخلة العصر واستثمار مُنجزاته من منطلق الدِّين وقواعده.

خلافاً لدول كثيرة تَنكَّبت التوجُّهَ الإسلامي في نشأتها بعد رحيل الاستعمار، وتبنَّتْ بعض توجُّهَات العصر، ثم أرادت -أو أراد بعضها على الأقل- العود إلى التوجُّه الإسلامي.

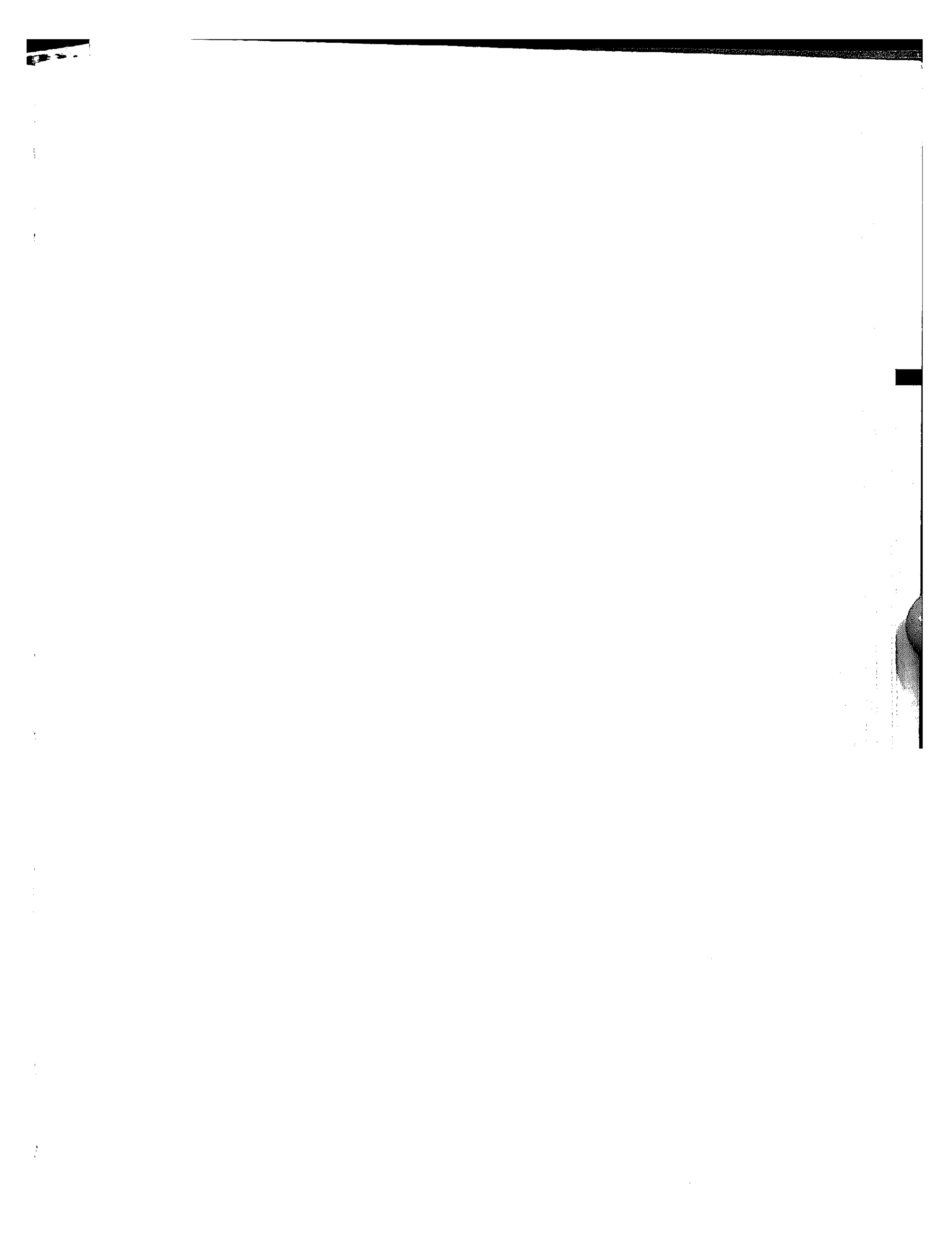
- وأن هذا التبنِّي للتوجُّه الإسلامي والتطبيق لشريعته ليس مجرد رغبة قائد فرد صالح، ولا نتيجةَ ضغوط شعبيَّة على حاكم لا يهمُّهُ إلا ما يحفظ عرشه دون إيمان منه بهذا التوجّه. كلا إنّما هو تطبيقٌ نابعٌ من إيمان مشترك بين القيادة والشّعب، بأنَّ الإسلام عقيدةً وشريعةً هو الخيار الوحيد لهذا المجتمع، وأنَّ به وحده أصالتَه وتماسكَهُ ونهوضَهُ الحضاري، وتحرُّرَه من السّقوط في التبعيَّة والتَّسول على موائد البشر.

- وأن حركة التطبيق لشريعة الإسلام متواصلةٌ ، وإذا حدث بسبب تحولات العصر السَّريعة جوانبُ نقص في التطبيق فإنَّ الهَمَّ المشترك بين القيادة والعلماء يظلُّ حافزاً نحو تلافي النَّقصِ واستكمال دثار الشَّريعة السَّابغ .

هذا التطبيق للشَّريعة الإسلاميَّة في المجتمع السّعودي في هذا العصر - وفي حدوده البشريَّة المتأثِّرة بما حولها وفق ما بَيَّنَّا - هو مجال حديثنا في هذا الباب، وقد أثمر آثاراً كثيرةً ستكون مجال الحديث في الباب الثاني ، والله الموفق .

الفصل الأول

العناصر النظرية لتطبيق الشريعة الإسلامية
في المملكة العربية السعودية



المبحث الأول

المنهـج السَّلفـي

كل دولة أو حركة أو حضارة إنسانية، تنبثق من مفهومٍ للوجود والإنسان والحياة ثم ترتكّز عليه فيِ صيرورتها الزمنية .

والسعـودية – دولةً ومجتمعاً – يمثل المنهج السَّلفي المأثور عن صحابة رسول الله ﷺ ومن التزم هديهم الأساس العقدي الذي تقوم عليه، ويجري في عروقها، ويُوجِّه مسيرتها .

كان يمكن أن نقول: إنَّ الإسلام هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع السّعودي ولكن لفظة « الإسلام » لم تبق في عصرنا الحاضر على مفهومها المحدّد المتعيّن لدى الناس بالتزام تعاليم الكتاب والسنّة التزاماً سليماً ، وإنّما تعدّدتْ مفهوماتها خاصّةً عندما تطلق وصفاً للدّول .

- فهناك إطلاقٌ يتعلّق بالدولة من حيث موقعها في الخريطة الثّقافيّة الدّينيّة، فكما يقال : فرنسا دولةٌ مسيحيّةٌ يقال : مصر أو إندونيسيا دولةٌ إسلاميّةٌ ، فالنسبة هنا نسبةٌ إلى الحضارة الإسلاميّة بصرف النظر عن نموذج الحكم ونظامه وأصول السّكان .
- وإطلاقٌ آخر يتعلّق بالدّولة بصفتها داعمةً للجانب العبادي والدَّعوي من الدّين ، برعاية أماكن العبادة، ونشر العلم الشّرعي ، وتأييد الفضيلة والدّعوة إليها ، دون اهتمام برعاية المصالح الدّنيويّة الإنسانيّة والاقتصاديّة ونحوها وفق التوجّهات الدِّينيّة .
- وإطلاقٌ ثالثٌ يتعلّق بالدّولة من حيث هي نظام حكمٍ يقوم على تعاليم الإسلام في دستوره وقوانينه وعلاقاته ، فيقال : دولةٌ إسلاميّةٌ، كما يقال :

دولةٌ اشتراكيّةٌ، أو بَعثيّةٌ؛ أي أنها تستمدّ برنامجها السّياسي والاجتماعي من منهج الإسلام، كما تستمدّ تلك من الفلسفة الاشتراكيّة أو البعثيّة[1].

وهذا الإطلاق الثالث هو المفهوم الذي تتبنّاه الحركات الإسلاميّة المنادية بالحلّ الإسلامي وبناء الدولة الإسلاميّة في هذا العصر، ولكنّه بدوره مفهومٌ حمّالُ أوجه، وبالذّات بالنسبة للأساس العقدي الذي ستجعله فلسفة الحكم ومُوَجِّهه، خاصةً وأنّ هذه الحركات تركن -من خلال مفكّريها- إلى خلفيّاتٍ عقديّة مختلفةٍ من تراث الفرق السّابقة.

لهذا كان لا بدّ من تحديد الوجهة العقديّة للمجتمع السّعودي، المتمثّلة بالمنهج السّلفي، الذي يمثّل أقرب الصّور التطبيقيّة للإسلام النموذج، إسلام الرسول ﷺ وأصحابه في مختلف جوانب الحياة.

حقيقة المنهج السّلفي:

بُعثَ الرّسول بدين أوحاه إليه ربُّهُ، يقدّمُ تصوّراً عن الوجود والكون والإنسانَ والحياة، متميّزاً عن التصوّرات الشائعة في وقته، والمحدودة بإطارات ضيّقة متخلّفة، قدّم هذا التصوّر بمنطق فطريٍّ يَتَغَلْغَلُ في أعماق النفس الإنسانيّةَ، ولا يجِد العقلُ السّليمُ بُدّاً من الخضوع له والتجاوب معه، فاستطاع ﷺ بهذا التصوّر والمنطق القرآني أن يعيد تشكيل الحياة لأولئك العرب من حياة الوثنيّة إلى التوحيد، ومن الغفلة عن الله إلى عبوديّته وطلب رضاه،

---

(١) انظر: نقد السياسة – الدولة والدين، برهان غليون، ص ٣٥٢، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، بيروت.

ومن دنيويَّة شهوانيّة تنكر قيام حياة أخرى إلى إيمانيَّة إنسانيَّة تتحرَّك في الدنيا وهمها وغايتها الأخرى، ولإقامة هذا الإيمان وتحقيق الحركة به جاء ﷺ بمنهج كامل يشتمل على قضايا عقديَّة يقيم المسلم من خلالها تصوراً كاملاً واضحاً عن الوجود والكون والإنسان والحياة، وعلى قضايا عمليَّة يضبط بها مسيرة حياته لتكون منتجةً ومتَّجهةً نحو غايتها الصّحيحة .

وبهذه القضايا العقديَّة والعمليَّة تشكَّلت شخصية المسلمين الذين ربَّاهم الرسول ﷺ فرديّاً ، وجماعيّاً ، ومنهم أخذَ الجيلُ اللاحق فالتابعون لهم بإحسانٍ بعدهم .

لكن الأحداث التي مرَّت بالمسلمين في أواخر عهد الخلفاء الرَّاشدين ، وانفتاح المسلمين على الأمم الأخرى ، ومن ثم دخول الثقافات الفلسفيَّة والإشراقيَّة شَوَّه هذا التشكيل المتلألئ بأنوار الوحي الإلهي ، بل أحدث تشكيلات أخرى بإزائه ؛ أي مناهج عقديَّة لكلٍّ منها تصوُّره الخاص فيما يتعلق بالذات الإلهيَّة وصفاتها، ومنزلة الوحي بالنسبة للفكر البشري ، وإطلاق الأوصاف الشَّرعيَّة إيماناً وإسلاماً وكفراً على الناس ، ومشكلات الحكم والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر . . . إلخ . لكن الذي يجمعها - على الرغم من اختلافها فيما بينها - في مقابل ذلك المنهج الأول الذي تَشكَّلت وفْقَه الحياة الإسلاميَّةُ لدى صحابة رسول ﷺ وهو « المنهج السلفي »[1] كونها محدثةً بعده، وخروجاً عليه، وتحكيماً للرؤية البشريّة فيه ، وقد أطلق على هذه المناهج نظراً لما يجمعها اسم « منهج الخلف » مقابلاً لمنهج السَّلف ذاك .

---

(١) السَّلفُ في اللغة يعني التقدم ، وفي إطار الأمة المحمدية فإن صحابة رسول ﷺ هم مُتقدِّموها ، فهم السلف ، ولمَّا كان تقدُّمُهم إنما تبلور ليس في التقدم الزمني فقط ، وإنما في منهج الحياة الذي أخذوه من رسولهم ﷺ مقابل المناهج الأخرى فإن من أخذ بمنهجهم يكون سلفياً .

وعليه فالمنهج السَّلفي هو : « المنهج المُقدِّمُ للنصوص الشّرعيَّة على البدائل الأخرى فكراً أو ذوقاً أو غيرها ، المُعبِّرُ عن هدي الرسول ﷺ وهدي أصحابه علماً وعملاً، الرَّافض للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع »[1] .

ولعله استبان مما مرَّ أنَّ هذا المنهج ليس واحداً من المناهج العقديَّة الحادثة في تاريخ الإسلام كالخوارج والمرجئة والقدرية ، ثم المعتزلة والفلاسفة والإشراقيِّين ونحوهم، ولكنّه منهجٌ متميِّزٌ عنها كلّها مضموناً، واستمداداً، فهو يقف بإزائها كلها متفرداً .

ولتميز استمداده رجوعاً إلى تعاليم القرآن وهدي الرسول ﷺ وأصحابه .

خلافاً لتلك المناهج التي تعول على الفكر البشري تراثاً فلسفياً ، أو رأياً فطيرًا

فإنه -أي المنهج السَّلَفي- هو الأصدق في تمثيله لحقيقة الإسلام الذي رضيه الله - تعالى - ديناً كاملاً يتعبَّد به الناس له فيقبل منهم ويرضى عنهم، ويمنحهم النجاح في الدُّنيا ، والفلاح في الأخرى ، وهو من ثم المنهج الذي لا تصدق دولةٌ أو حركةٌ في دعوى إسلاميَّتِها إلا بأخذها به ودعوتها إليه .

معالم المنهج السلفي :

لن أستقصيَ جوانب هذا المنهج في مختلف جوانب الدين ، فهي كثيرةٌ ومُتشعِّبةٌ ولا ضرورة لها هنا[2]، ولكنِّي سأقتصر على إبراز المعالم التي يتبلورُ بها هذا المنهج بصفته قاعدةً متميِّزةً لإقامة الحياة الإسلامية ؛ فرديَّةً واجتماعيَّةً؛ وذلك على النحو التالي :

---

(١) السلفية وقضايا العصر ، للمؤلِّف، ص ٤٩ ، الطبعة الأولى ،١٤١٨هـ، دار إشبيليا، الرياض .

(٢) فضلاً عمَّا سبق في التشكيل الإسلامي للمجتمع في البحث الأوَّل من التمهيد .

١- مرجعية القرآن والسنة : هذا هو المعلم المنهجي الكبير الذي فارق به المنهج السَّلَفي المناهج الأخرى عقديَّةً وفكريَّةً وسياسيَّةً .

فالسَّلَف يجعلون الوحي قرآناً وسنةً صحيحة المرجع الوحيد الذي يستمدُّونَ منه عقيدتهم ، ويستنبطون منه أحكام حياتهم ، ويضبطون به فكرهم ، وهو يتحرك في الميدان الحضاري معتقدين أنَّ ما جاء به هذا المصدر من أمور قطعيَّة حقٌّ لا ريب فيه، وأنهما مُنَزَّهان عن الخطأ والنقص، غير متأثرين بتغيُّر الزَّمان أو المكان ، خلافاً للمصادر للأخرى عقليَّةً أو حدسيّةً أو كشفيَّة .

والعصمة في هذا المنهج منفيَّةٌ عن كلِّ من سوى رسول الله ﷺ من البشر مهما كان مقامه في العلم أو الدين، مما يعني ضرورة الرَّدِّ دائماً ومن كلِّ أحد إلى هذين المصدرين الجليلين : الكتاب والسنة .

ولكنَّ توحيدهم لهذه المرجعيَّة لا يعني تنكُّرهم للتراث الإنساني السَّليم النافع فضلاً عن تراث أهل الإسلام ، الذين فهموه حقّاً ، وطبَّقوه صدقاً، ابتداءً من صحابة رسول الله ﷺ ثم من تبعهم ، فهم يعظِّمون هذا التّراث ، ويُعوِّلون عليه، ويعدون أنفسهم امتداداً تاريخيّاً لأصحابه، ولكن تبقى مَرجعيَّتُهم العليا هي الكتاب والسّنة .

وبالتزام هذا المعلم تختفي ظاهرة التعصّب المقيت للآراء الخاصة والوجهات الذاتيَّة ، والتي تسبب التفرق والتناحر بين الناس؛ لأنّ الاتفاق من الجميع على ردِّ التنازع إلى مرجعيَّة واحدة واضحة يطهِّر السَّاحةَ الثقافيَّة من تلك الأدواء ، كما أنّ توحيدهم لهذه المرجعيَّة لا يعني تنكُّرهم للعقل ، كلا إنَّ العقل مصدرٌ من مصادر العلم في المنهج السَّلَفي، فهو الذي يتعرَّف الأحكامَ الشرعيَّةَ من خلال مَسَالكه المشروعة قياساً وإعمالاً

للقواعد الشرعيَّة ونحوها ، وهو مصدر لبعض المجالات المعرفية ، إذ به تُعرفُ سُنَنُ الله في هذا الوجود ، غير أنَّ المنهج السلفي يجعل العقل مصدراً تالياً للوحي من جهة ، ثم إنَّ العقل يسير في إطار الضوابط التي وضعها له الوحي من الجهة الأخرى .

٢- الأخذ بالإسلام بخارطته الكاملة ، وفق مراتبه المفصَّلة التي نَظَّرَها حديث جبريل المشهور حينما سأل الرَّسولَ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فأجاب موضِّحاً أركان كلٍّ منها(١) ، ويعتمدون كلَّ ما جاءت به الشريعة من شعب ومقتضيات لهذه الأصول الثَّلاثة .

٣- التوحيد : وهذا هو المعلم الموضوعي الكبير -أيضاً- للمنهج السَّلَفي ، ولهذا كان مَدَارَ جهودهم المتواصلة تاريخيّاً ، وكان منطلق حركاتهم التجديديَّة ، ومن ثم بَلْوَرُوهُ بصورةٍ واضحةٍ مفصَّلةٍ .

التوحيد عند السلف ثلاثة أنواع :

* اعتقاد أنّ الله هو الذي أبدع هذا الوجود كلَّه ، وأنه خلقه لحكمة ، وأنَّه يُدبِّرُه ويُصرِّفه كيف يشاء ، وأنَّه ليس له شريكٌ في الوجود معه ، أو من دونه ، وهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة .

* اعتقاد أنَّ الله هو وحده مُستحقُّ العبادة ، الذي ينبغي أن تتَّجه له القلوب بالتقديس والدعاء والحب والخوف والرَّجاء والتوكّل والاستغاثة ، وأن من سواه كلّهم عبيدٌ خاضعون له سواء كانوا ملائكةً أو رُسُلاً أو مَنْ دونهم لا يشاركونه في شيء من ألوهيَّته تعالى ، وهذا هو توحيد الألوهية ، أو توحيد العبادة الذي ركز عليه السَّلَف ، وفيه أَلَّفَ الإمام محمد بن عبد الوهاب كتاب « التوحيد » .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، ص ١/ ٣٦ .

* اعتقاد أنَّ كلَّ ما ذكره القرآن أو الرسول ﷺ من أسماء الله وصفاته حقٌّ لا ريب فيه، نعتقده كما جاء من الله دون أن نحرفه وَفْقَ تصوُّراتنا القاصرة، معتقدين في الوقت نفسه أنَّه - سبحانه - ليس كمثله شيءٌ.

بهذا التوحيد يُحررُ السَّلَف أنفسهم، ويسعون لتحرير الناس من العبوديَّات الزائفة التي خنقتْ حريَّة الإنسان، وعبَّدَته لبشرٍ مثله أو أقلَّ منه:

سواءٌ كان ذلك عن طريق كهنوتيّة يجعل أصحابها أنفسهم وسائط بينهم وبين الله، فيتوسَّلُ بهم الناس ويعبدونهم.

أو عن طريق التحكُّم الطَّاغوتي بمصائر الناس وحركة حياتهم بتسييرها وفق أهوائهم ورغباتهم، وتحقيقاً لمصالحهم الخاصة: إمَّا بفصلها عن الله كلياً، أو بالتألُّه عليها في الجوانب الاجتماعية من خلال العلمنة التي تشطر الذَّاتَ الإنسانيةَ شطرين:

- شطره الفردي وهذا يتركونه لمزاجه الديني أو الفني ونحوهما.

- وشطره الاجتماعي الذي يفرضون عليه أن يعبدهم من خلاله بالتزام الأنظمة والقوانين التي شرعوها خارج إذن الله.

٤- يقابل التوحيد في الإسلام الشرك، وهو الخطر الماحق مما جعل التاريخ البشري صراعاً بينه وبين التوحيد.

والشِّرك وفق المنهج السَّلَفي هو كما قرَّرَ الوحي نوعان:

- شركٌ مُدَمِّرٌ للتوحيد تماماً، ولذا يخرج صاحبه من الإيمان سواءٌ اعتقد أنَّ لله شريكاً في الملك، أو وَحَّدَ الله في ملكه وأمره، ولكنَّه أشرك في صرف شيءٍ من أنواع العبادة لسواه.

وهذا الشرك لا يُغفَر لصاحبه إذا مات عليه، وإنما يُخلَّدُ في النار: ﴿إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1].

- شرك أصغر من السّابق، ورغم خطورته إلا أنّه لا يخرج من الإيمان، ولكنّه دليلٌ على ضعف هذا الإيمان ونقصه، كالرِّياء اليسير في العبادة.

٥- الدين والإيمان في المنهج السَّلَفي: اعتقادٌ بالقلب وإعلامٌ باللِّسَانِ وعملٌ وتطبيقٌ بالأعضاء مجتمعةً مع بعضها، وهذا الإيمان يزيد وينقص.

ولكن هذا الإيمان لدى السَّلَف أصلٌ وفروعٌ، فإذا انحسر الأصلُ بإنكار وجود الله أو اعتقاد أنَّ معه إلهاً آخر، أو التكذيب برسالة محمد ﷺ ونحوها فقد بطل الإيمان تماماً.

أمَّا الفروع المشتملة على الأعمال، فإنَّ نقصَ شيءٍ منها لا يزيل الإيمان تماماً وإنْ أخلَّ به، ولهذا لا يُكَفِّرُ السَّلَفُ أحداً من المسلِمين بفعل المعصية، ولا يقولون بخلوده في النار حتى ولو مات دون توبةٍ منها.

٦- الولاء في «المنهج السَّلَفي» ديني؛ فهو ابتداءً للحقِّ وحده، ومن ثَمَّ لكلِّ من التزم هذا الحقَّ وعمل به، وعلى هذا المنطلق تذوب حزبيَّاتُ العرق والعصبية والإقليم، ويكون الإيمان والعمل الصالح والتقوى هي معيار الولاء حبّاً ومظاهرةً وغير ذلك، وكلما زاد الإنسان من هذه الجوانب زاد توليه، وكلما نقصت ضعف الولاء له، فإذا انسلخ منها وتحوّل عدوّاً لله ودينه انقلب ذلك الولاء براءً وبغضاً.

ومن هذا المنطلق حاز الرّسول ﷺ قمّة الحبّ والولاء عندهم؛ لأنه النموذج في الدّين وبعده أصحابه رضوان الله عليهم، وفي مقدّمتهم خلفاؤه الأربعة الراشدون وآله من زوجاتٍ وبناتٍ وأقربين، ممّن التزم

---

(١) الآية رقم (٤٨) من سورة النساء.

هديه يحبّونهم ويوالونهم ، ويرفضون الإساءة إلى أحد منهم .

لكنّ منطق هذا الولاء لا يعني إلغاء الحقوق الولائيّة لدى الإنسان لأقاربه ولوطنه ونحو ذلك ، ولكنّها تأتي تاليةً لولائه لدينه وخاضعةً له .

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وما يميّز المنهج السّلفي في هذا المجال أنّه تطبيقيّاً متلازمٌ مع أصلٍ شرعيٍّ وهو الحفاظ على الجماعة وتوقّي حدوث مفاسد أعظم من المصالح المرتجاة .

ولهذا اقترن هذا المعلم بالعلاقة بالحكّام ، فإذا كانت بعض الفرق قد اتّخذْته وسيلةً لنشر الفوضى في المجتمع المسلم ، وسهلت من خلاله الإخلال بالأمن بالثورات المتواصلة على الحكّام إذا ارتكبوا منكراً بحجّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فإنّ المنهج السّلفي يقرّر هنا أنّ وجوبه قائمٌ ، ولكنّه في إطار مسالك منتجة محقّقة للمصالح الشّرعيّة ، وأنه لا يعني الخروج على الإمام المسلم إذا حدث منه فسوقٌ أو التنفير منه ، بل المنهج السّليم هو التعاون معه على الحقّ من تطبيقٍ للشريعة ، وجهادٍ في سبيل الله ، والصّلاة خلفه .

أمّا ما يمارسه من منكرٍ فلا يجوز مشاركته فيه ، بل يجب نصحه بحسب القدرة ، وبالوسائل القائمة على المصلحة الشّرعيّة .

٨- عبوديّة المسلم لله – تعالى – تتضمّن مهمّةً أناطها الله بالإنسان ، وهي الخلافة في هذه الأرض ، فالإنسان مستخلفٌ فيها ، مسخّرةٌ له مخلوقاتها جماداً ونباتاً وحيواناً ، فهو في جمعه بين العبوديّة لخالقه والسّيادة الاستخلافيّة على الكون من حوله يستطيع تحقيق وجوده الإنساني الأسمى فرديّاً وحضاريّاً .

٩- العبوديّة لله – تعالى – التي تقتضي التعويل عليه – تعالى – دعاءً واستعانةً

وتوكّلاً لا تعني إبطال السّببيّة في حركة الكون والحياة الإنسانيّة .

فالمؤمن وفق هذا المنهج يؤمن بهيمنة الله على الكون، ويعلم أنّ في الوجود نواميس أو أسباباً أجرى الله حركته على أساسها ؛ فلا هي مستقلّةٌ بنفسها كما يقول الماديّون ، ولا هي منكرةٌ كما يتصوّر من يجعل القول بها شركاً بالله باعتقاد مؤثّر غيره سبحانه .

المؤمن يتعامل مع الأسباب ، فيعالج المرض، ويطلب الرّزق، مع يقينه أنّ الله هو الشّافي والرّازق ، وأنه لا تناقض بين الأمرين .

١٠- الوسطيّة والاعتدال : لَمَّا كان الإسلام دين الوسط والاعتدال كان الملتزمون هديه هم الوسط المعتدل بين المنحرفين عنه ، الذين لا محيد لهم عن أن يكون انحرافهم إلى جانب التّفريط ، أو إلى جانب الإفراط .

ولالتزام المنهج السّلفي هدي الإسلام ظلّ هذا المنهج قائماً على معيار الوسطيّة والاعتدال بين صور التطرّف التي تتكاثف على مرّ القرون، ولهذا لا تجد قضيّةً من القضايا العقديّة التي اختلفت فيها فرق الأمة إلا والسّلف الصّالح فيها وسطٌ بين طائفتين أخذ كلٌّ منهما بطرفٍ مقابلٍ للآخر، فمثلاً:

- في الإيمان، هم وسطٌ بين جعْل الأعمال أصلاً في الإيمان يكفر من أخلَّ بشيءٍ منها ، ومن نفى قيمة الأعمال في الإيمان تماماً .
- وهم وسطٌ في صفات الله - تعالى - بين من عطّلها من حقائقها ، ومن شَبَّهها بصفات الخلق.
- وفي الأسباب، هم وسطٌ بين من يجعلونها مؤثّرةً بالاستقلال عن الله، ومن ينكرونها تماماً .
- وفي صحابة رسول الله ﷺ بين من ينكر فضلهم ويزدريهم ويبغضهم،

ومن يغلو في بعضهم إلى درجة تأليههم وعبادتهم ، وهكذا . . .

١١ - المنهج السّلفي نتيجةً لالتزامه الكتاب والسّنة - وبالذات في مفهوم الإيمان- يرتبط فيه العلم بالعمل دون انفكاك ، ولهذا كانت حضارة الإسلام التي ازدهرتْ على أيدي رجال هذا المنهج حضارةً علميّةً خلقيّةً ، وهو في هذا المعلم وسطٌ بين منهج النظريّين من الفلاسفة وأهل الكلام المستغرقين في جدلهم ونظريّاتهم التجريديّة عن الممارسة العمليّة ، ومنهج بعض الزُّهّاد والصّوفيّة الذين اهتمّوا بالجانب التعبُّدي مع إهمال الجانب العلمي ، فكثر فيهم الضّلال والبدع .

١٢ - المنهج السّلفي يُربِّي أتباعه على أن يكونوا خير الناس لخلق الله ، يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويرحمون عباد الله ، ويحرصون على اجتماع كلمة المسلمين وتآلفهم على تعاليم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وهم أبعد الناس عن تكفير الآخرين من مخالفيهم في اجتهاد أو في فهم خاطئ ، يرحمون خلق الله ويدعونهم إلى الكلمة السّواء والمنطق الحقّ الذي تقرّره النصوص الشّرعيّة ، معلنين تخلّيهم عن كلّ رأي أو وجهة يثبت لهم أحدٌ من مخالفيهم مخالفتها لهذه النصوص ، وكلّ هذا خلافَ ما عليه عامّة الفرق التي تكفّر غيرها ، وتتهجّم على مخالفيها ، وتتعصّب لآرائها بغير هُدًى ولا بيان .

١٣ - الأخذ الشّمولي لدين الإسلام في عقيدته وعباداته ومنهجه الخلقي ونظمه الاجتماعيّة في السّياسة والاقتصاد والتعليم وسائر جوانب الحياة اتّباعاً لقوله - سبحانه - لنبيّه ﷺ : ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ**﴾[1] ، ومن هذا المنطلق جاء

---

(١) الآيتان (١٦٢-١٦٣) من سورة الأنعام .

تعريف ابن تيمية للعبادة، ذلك التعريف الذي لا يحصرها بالشعائر التعبّديَّة ويخرج ما سواها ، وإنما يغطّي بها كلّ حركات الإنسان في حياته، قال رحمه الله : « العبادة اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالصّلاة والزكاة . . وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد . . . وكلّ ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادةٌ »(١).

وهذا خلاف ما سلكته الفرق الأخرى التي جزّأت الإسلام فأخذ كلّ منها جزءاً ضخَّمَهُ حتى جعله الإسلام كلّه، وأهمل الأجزاء الأخرى الباقية، فقد جعله المتكلّمون فلسفةً فكريّةً في الوجود والمعرفة معزولةً عن الجانب العملي ، وجعله بعض الصّوفيّة حالات وجد وفناء في الحبّ الإلهي حتى أضاعوا شعائره الكبرى، وقصّره أناسٌ على العبادات الشعائريّة صلاةً وصياماً وحجّاً، وأخرجوا نظمه الاجتماعيّة . . . إلخ .

هذه بعض معالم المنهج السّلفي ؛ قواعد موضوعيّة ، أو مسالك فكريّة ، أو خصائص للمنهج وأهله اقتصرتُ منها على ما يشكل صورةً موجزةً عن هذا المنهج تتميّز عن المناهج الأخرى قديمةً أو حديثةً(٢) .

وكما أكدت في التمهيد أؤكّد هنا ثانيةً أنّ « الإسلاميّة » سواءٌ كانت إسلاميّة الحياة الفرديّة ، أو الاجتماعيّة ، أو إسلاميّة النهوض الحضاري للأمّة الذي

---

(١) العبوديّة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٣٨، ٧٣ ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٢هـ.

(٢) ينظر في هذا المجال :
- قواعد المنهج السّلفي ، لمصطفى حلمي .
- معالم الانطلاقة الكبرى ، لمحمّد عبد الهادي المصري .
- السّلفيّة وقضايا العصر ، للمؤلف .

تتلهّف عليه منذ وقت بعيد، هذه الإسلاميّة لا يمكن أن تتحقّق إلا بالأخذ بهذا المنهج وحده ، لسببٍ بسيطٍ وواضحٍ ، وهو أنّه المنهج الذي يمثّل الإسلام نفسه دون المناهج الأخرى الّتي تمثّل رؤيةً زمنيّةً لأصحابها متأثّرةً بظروف عصورهم الفكريّة والحضاريّة حتى وإن ربطتْ -بوجهٍ مّا- بالإسلام بعد ذلك .

وهذا هو ما وعاه المصلحون المجدّدون في الأمّة ، فجعلوا هذا المنهج السّلفي منطلقهم الواثق في تجديدهم أمر الدّين ، وبعثهم الأمّة بعد خمودها .

المنهج السّلفي قاعدة الوجود والحركة للمملكة العربيّة السعوديّة:

على المنهج السّلفي قامت حركة الملك عبد العزيز ، وتأسست المملكة العربيّة السعوديّة رافضةً الواقع المنحرف عن المنهج السّليم الذي سار عليه سلف الأمة ، وحقّقوا به إسلاميّة الحياة ، والظهور العالمي والحضارة الزّاهرة :

- فلم تستسلم المملكة للواقع بمخلّفات عصور الانحطاط أمام فورة الحضارة الغازية .
- ولم ترفض التراث ؛ تراث أمتها الذي به ظهرتْ ، لم تنظر إليه بصفته ماضياً متخلّفاً ، لن تحقّق تقدّمها إلا بالقطيعة معه ، والاندراج في تيّار العصرنة الذي تقوده ثقافةٌ مغايرةٌ لثقافة هذه الأمّة .

لقد اتّخذتْ المملكة موقف الرّيادة الناجح ؛ فاعتمدت المنهج السّلفي منطلقاً ؛ به حاكمت تاريخها السّابق ، وبه أيضاً تفاعلتْ مع حاضرها الخاص ، والحاضر من حولها بكلّ معطياته ، وبه كذلك تحرّكت خطواتها نحو مستقبلٍ نهضويٍّ واثقٍ .

إنّ كلّ عناصر التفوّق التي حقّقتها المملكة في خططها التنمويّة وتطوّراتها

المتنوّعة ، والتي أخفقتْ فيها دولٌ أخرى ناتجٌ عن التزام المملكة هذا المنهج السّلفي بكلّ أصالته وحيويّته .

وجميع ما في هذا الباب من جوانب تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة ، هو الثمرة اليانعة لجذور هذا المنهج المنغرسة في تربة هذا المجتمع ؛ في نفوس قادته وعلمائه ، وسائر مواطنيه .

وإليك بعضاً من تجلّيات المنهج السّلفي في المملكة العربيّة السّعوديّة :

(١) الوعي الحيوي بالمنهج :

لم يكن المنهج السلفي في المجتمع الذي نتحدث منذ حركة الشيخين محمد ابن عبد الوهاب ومحمد بن سعود -رحمهما الله - وحتى دولة الملك عبد العزيز مجرّد شعارٍ يعلنه سياسيٌّ لكسب الجماهير لصفّه دون وعيٍ بحقيقته فضلاً عن التزام تبعاته ، كما أنّه ليس دعوةً ينجرف معها أناسٌ بعواطفهم دون استيعابٍ لمحتوياتها -إن كان لها محتوياتٌ عقديّةٌ أو سياسيّةٌ - كما هو الشأن في كثيرٍ من الدعوات المعاصرة المستحدثة في البيئة الإسلاميّة ، يتحمّس لها أناسٌ فإذا سئلوا عن حقيقتها وأهدافها ومضامينها ونحو ذلك تلجلجوا وحارت الكلمات في شفاههم ، أو أكثروا من رصف الكلمات يميناً ويساراً ، دون أن يحصّل منه السّامع أيّ مضمون محدّد في الموضوع . إن المنهج الذي اعتمده هذا المجتمع منهاجا له سواء لدى علمائه أو قادته أو كثير من شعبه واضح المعالم والمقاصد والقيمة الوجودية لاتباعه بدرجات متفاوتة لكنها موجودة .

وخُطَب هؤلاء القادة جليّةٌ في ذلك ، فهي تؤكّد على أنّ هذا المنهج هو حقيقة الدّين الذي رضيه الله لعباده ، وأنّه المسلك الذي جاهد رسول الله ﷺ وصحابته لترسيخه في الحياة البشريّة ، وأنّه الدّعوة التي قام بها الإمام محمّد بن

عبد الوهاب في الجزيرة العربيّة ، وآزره الإمام محمد بن سعود، فطهَّرتْ الجزيرة من أوضار الشّرك ، وعادتْ بها إلى نصاعتها المشرقة بالإيمان والهدى ، وأنّ تماسك المجتمع السعودي الحاضر وأفضليّته ، إنما تكمن بحمل هذا المنهج وتَمثُّله والدعوة إليه .

وهاهي مقاطع موجزةٌ تكشف الوعي الحيَّ بهذا المنهج :

يقول الملك عبد العزيز : « هذه عقيدة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- الذي أظهر الله به الدين بعد ما وهنتْ أركانه بين العالمين في مراسلاته ومناصحاته ودعوته الخلق إلى دين الله ورسوله »[1] .

ويقول موضّحاً شيئاً من مضمون هذا المنهج أمام الحجّاج عام ١٣٦٣هـ: « أمّا العبادة فلا تصرف إلا لله وحده، لا لملك مقرَّب ، ولا لنبيٍّ مرسلٍ ، ولا تخفى عليكم الآية الكريمة : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] ومعنى : « يعبدون » يُوحِّدون ، فالتوحيد خاصٌّ بالله تعالى ، والعبادة لا تصرف إلا لله ، والرّجاء والخوف والأمل كلّه بالله ولله ، وما بُعثَ محمّدٌ ولا أُرسِلَ الرُّسُلُ ، ولا جاهد المجاهدون إلاّ لتوحيد الله تعالى »[3] .

وتمضي العقود ويتتابع القادة وتسير تحوّلات الحياة في المجتمع ومن حوله قدماً ، ويظلّ الوعي بهذا المنهج حاضراً في منطق الدّولة ، يقول خادم الحرمين الشّريفين الملك فهد عام (١٤٠٢هـ) : « إنّ الرّسالة الإسلاميّة هي أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نتّبع ما أنزله على رسوله الكريم في كتابه الذي لا يأتيه

---

(١) الدرر السنيّة في الأجوبة النجديَّة، عبد الرحمن بن قاسم ، ٧/ ٣٠٥ ، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت .

(٢) الآية رقم (٥٦) من سورة الذاريات .

(٣) جريدة أمّ القرى ، العدد ٩٨٩ ، في ٦/ ١٢/ ١٣٦٤هـ .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن نسير على هدي سنن نبيّه الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

هذه الرّسالة السّماويّة جاءتْ تصحيحاً لمسار الإنسانيّة إلى ما فيه صلاح أمرها ، كما أنها تحضّ المؤمنين على التعاون والتضامن وإنكار الذّات ونبذ الخلافات ، وحثّهم على توحيد الكلمة وضمّ الصّفوف في تماسكٍ وتعاضدٍ» [1] .

(٢) الإعلان الصّريح بهذا المنهج :

كان من آثار الإبهار الذي مارسه الفكر الغربي على الأمم الأخرى -ومنها المسلمون- بنظمه وقيمه ونظريّاته ، وأيضاً من آثار جهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم شعورٌ انهزاميٌّ يجعل هذا المسلم يتخلّى عمّا شوّهه الأعداء من دينه ، ويعتذر عنه أو على الأقلّ يتخفّى به ويخجل من الظهور به .

لكنا نجد الأمر خلاف هذا لدى الذين وعوا دينهم ، وعرفوا قيمته ، وربطوا وجودهم به ربطاً سببيّاً ، إذ يعلنون منهجهم وينادون به ، ويؤكّدون التزامهم لمقتضياته .

يقول الملك عبد العزيز : « أنا داعيةٌ إلى عقيدة السّلف الصّالح »[2] .

ويقول : « كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، إنّي والله وبالله أقدّم دمي ودم أولادي وكلّ آل سعود فداء لهذه الكلمة لا أضنّ بها »[3] .

ولخادم الحرمين الشريفين : « عقيدتنا هي القاعدة الأساسيّة التي تنطلق

---

(١) كلمات منتقاة من خطب خادم الحرمين الشريفين ١/ ٦٦ ، إعداد عبد الرحمن الرويشد ، دار الشبل ، الرياض ١٤١٦هـ .

(٢) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢١٦ .

(٣) الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، محمد الشثري ، ١/ ٦٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ .

منها المملكة العربيّة السعوديّة في تصرّفاتها العامة ، وفي تصرّفات الفرد »[1] .

كما تجلّى هذا الإعلان الصّريح في المواقف التي يقفها قادة المجتمع ، وحتى من دونهم في حالات يمكن التنازل فيها للمجاملة ، ولكن حيوية الوعي بهذا المنهج يدفع حامله تلقائيّاً لاتّخاذ الموقف المتّسق مع هذا المنهج[2] .

ويتجلّى هذا الإعلان في إعلاء شعار هذا المنهج في راية المملكة المرفوعة في كلّ بقاع العالم، وهو « لا إله إلا الله » ورفض تنكيسه؛ لأنّه يحمل هذا الشعار الأعلى دائماً .

كما يتجلى فيما يتعهد به المتخرجون في بعض الكليات وهم ينقلون إلى ميدان العمل :

- الإخلاص لدينهم ثمّ لمليكهم ووطنهم .
- طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله .

وفي خطط التنمية المتتابعة يجعل أوّل هدفٍ من أهدافها :

" المحافظة على القيم الإسلاميّة وتطبيق شريعة الله وترسيخها ونشرها " [3] .

(٣) الحكم بما أنزل الله:

الحكم بما أنزل الله هو البرهان الأكبر على فهم المنهج السّلفي والتزامه :

---

(١) كلمات منتقاة من خطب خادم الحرمين الشّريفين ١/ ١٣٧ .

(٢) سبق ذكر إنكار الملك عبد العزيز على حاكم العراق القسم بحياته ، ومثلها حينما قال شاعرٌ أمامه : أنت أملنا وفيك الرّجاء ، فقال : تخسأ تَخسأ، عَلِّمْهُ يا فلان التوحيد، وذكر الأستاذ عبد العزيز الغزي أنّ الملك فهداً ردّ عليه مرّةً وهو يخاطبه قائلاً : أملنا في الله وفيك أو كلمة نحوها، فقال : قل: ثمّ فيك . . . . إلخ .

(٣) انظر : إستراتيجيّة خطة التنمية الرابعة ١٤٠٥- ١٤١٠هـ، ص ١ ، وزارة التخطيط، المملكة العربيّة السعوديّة .

- لأنّ إخلاص العبادة لله الذي هو قاعدة المنهج السّلفي، كما أنّه لا يتحقّق إلا بإفراد الله بالعبادة واجتناب الطاغوت في الحبّ والولاء والدّعاء والاستغاثة ونحوها، كذلك لا يتحقّق هذا الإخلاص إلا بالحكم بشريعة الله ونبذ كلّ شريعة سواه؛ لأنّ ما يخالف شريعة الله حُكم طاغوت، والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً﴾(١).

- ولأنّ الإيمان -وفق المنهج السّلفي- لا ينحصر بالقول والاعتقاد وإنّما يدخل فيه العمل وفق شريعة الله.

- ولأنّ اعتقاد شموليّة الدِّين لكلّ شؤون الحياة لا يتحقّق إلا بالحكم بشريعة الله في كلّ هذه الشّؤون.

والحقّ أنّ الإيمان بما هو اعتقادٌ والحكم بالشّرع وجهان لعملة واحدة لا نجاح لأيٍّ منهما إلا بالآخر، ولهذا فشلتْ تجاربُ لتطبيق الشّريعةَ في بعضَ الدّول، بل وأصبحت مجال شماتة الأعداء؛ لأنّها لم تقم على إيمان واعٍ ملتزمٍ بهذا المنهج الأساس لعمليّة التطبيق، ولعلّ هذا أيضاً من عوامل ما حقّقه تطبيقُ الشّريعة في المملكة من نجاحٍ، حيث انبثق هذا التّطبيق من التزام المنهج السّلفي بوعيٍ وإيمانٍ.

حينما اتّجه الملك عبد العزيز إلى الحجاز عام (١٣٤٣هـ) حدّد موقفه: «إنّي مسافرٌ إلى مكّة لا للتّسلُّط عليها، بل لرفع الظّلم والمغارم التي أرهقتْ كاهل عباد الله، إنِّي مسافرٌ إلى حرم الله لبسط أحكام الشّريعة وتأييدها، فلن يكون هناك بعد اليوم سلطانٌ إلا للشَّرع»(٢).

(١) الآية رقم (٦٠) من سورة النساء.

(٢) حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، راجع لطفي جمعة، ص ٨٣، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

ويقرِّرُ : « لقد عاهدتُ الله على الدّعوة لكلمة التوحيد وتحكيم الشريعة في الدَّقيق والجليل »[1] .

ولهذا أزال - رحمه الله - جميع القوانين السّائدة والأحكام القبليّة ، وحصر التحاكم بشريعة الله وحدها . . « . . وأمّا القوانين فإن كان موجوداً منها شيءٌ فيُزال فوراً ، ولا يحكم إلا بالشّرع المطهَّر »[2] .

ولقوّة إيمانه بالمنهج فإنّ العوائق التي عاقت الآخرين وما تزال عن الرّجوع إلى شرع الله لم تُعقْهُ ، فلم يتعلَّل بـ« عدم وجود فقه تفصيليٍّ يسيّر به شؤون المملكة »[3]، ولا بعدم تأهيل القضاة الكافين لسدّ الحاجة ، ولا بصعوبة المواءمة بين التّغيّرات التي تقبل عليها المملكة والأحكام الشّرعيّة التي وضعتْ خلال قرون سلفتْ ، ولا توجّس من ردود أفعال تؤثِّرُ على استقرار حكمه داخليّةً أو خارجيّةً ، لقد تجاوز - بقوّة إيمانه أنّه لا خيرة له وقد مكّنه الله في هذه البلاد إلا تحكيم شرع ربّه - كلّ العوائق ، وأعلن التطبيق وحقّقه ، وبسطت الشّريعة ظلالها الوارفة على حياة المجتمع السّعودي ، وهي بلا شكّ في منتصف القرن الرّابع عشر وما قبله حياةٌ بسيطةٌ ، جزئيّة الأحداث ، ثمّ بدأت التحوّلات وتعقّدت الحياة في جوانبها المختلفة ، وطرأت أحوالٌ مستجدّةٌ تماماً على المجتمع ممّا اقتضى المتابعة الجادّة باستحداث الأنظمة ووضع الخطط في مجالات الحياة المختلفة ، وفي هذا سعت الدّولة جاهدةً أن تنضوي كلّ النظم والخُطَط تحت أحكام الشّريعة ، وإبطال كلّ ما خالفها ارتكازاً على الوعي بذلك المنهج ، والإيمان به ، وهكذا ظلّ ويظلّ «الكتاب والسّنة هما الأصلان العظيمان

(١) من خطبة . صحيفة أمّ القرى ، عدد [٢٢٨] .
(٢) فتوى أصدرها العلماء في (٨/ ٨/ ١٣٤٥هـ) بحَثٍّ من الملك عبد العزيز ، الدرر السنيّة ٥/ ٣١٩ .
(٣) الملك عبد العزيز والمملكة العربيّة السعوديّة، عَبد الله التركي ، ص ٤٢ ، بدون دار الطبع .

من أصول الإسلام اللذان بهما نهتدي ، وعليهما نسير ، ولهما نحتكم . . عليهما بُنيت الشّريعة السّمحة ، التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بالعمل بها ، والمحافظة على ذلك في أمور دينه ودنياه»[1] .

(٤) إزالة مظاهر الشّرك :

من مقتضيات المنهج السّلفي المبادرة إلى إزالة كلّ مشاهد العبادة لغير الله، وتطهير الأرض من المشاهد الشّركيّة والمزارات الوثنيّة إذا مكَّنَ الله لعباده ، اقتداءً بالرّسول ﷺ في تكسيره الأصنام ، وإزالته الأوثان ، وقد قامت الدّول السّعوديّة في دورتيها الأوليين بتطهير ما استطاعتْ تطهيره من أرض الجزيرة العربيّة ، ثمّ أكمل المهمّة مؤسّس الدولة السّعوديّة الثالثة الملك عبد العزيز ، حيث حارب كلّ الخرافات الوثنيّة ، وأزال ما كان باقياً من المشاهد وقبَب الأضرحة : « ومن ذلك : هدم صنم « ذيْ الخلصة » في منطقة « تبالة » قَرب « بيشة » حيث هدم بواسطة عامل الملك على تلك الناحية عبد العزيز بن إبراهيم ، ونكل بسدنتها ، وتوعَّدهم بالقتل إذا عادوا لبنائها »[2] .

(٥) التربية العقديّة :

إنّ تطبيق الشّريعة وإسلاميّة الحياة لا تتحقّق فقط بأن تحتكم الدّولة بأنظمتها العامة وممارستها القضائيّة للشرع ، فهذا هو الغطاء الظاهري لحياة المجتمع ، أمّا العُمق فيتمثّلُ بالتزام المجتمع - أفراده- بسمت الإسلام في العبادة والأخلاق والعلاقات والمعاملات، ولن يتحقّق هذا السَّمتُ منبثقاً من التزامٍ داخليٍّ، لا إلزامٍ خارجيٍّ إلا بغرس العقيدة الصّحيحة الحيّة في نفوس

(١) من كلمة لخادم الحرمين الشريفين في (١١/ ٤/ ١٤٠٤هـ)، كلماتٌ منتقاةٌ ، ١/ ١٠٥ .

(٢) الدعوة في عهد الملك عبد العزيز، محمد الشثري ، ١/ ٢٧٧ . ومثل هذا القبر المقبَّب على القبر المزعوم لـ« حواء » في جدّة . انظر : المرجع نفسه، ١/ ٢٧١ .

هؤلاء الناس ؛ لذلك بادر الملك عبد العزيز إلى إنجاز هذه المهمّة من خلال أنواعٍ من السُّبُل :

- منها مشروع « الهجر »[1] الذي قصد منه توطين أهل البادية في مواقع ثابتة من أجل تربيتهم على العقيدة الصّحيحة والأخلاق الإسلاميّة التي تطهّرهم من الصفات السّائدة في حياة البادية ، كالجفاء واستباحة النهب والحميّة الجاهليّة ، وإهمال العبادات ونحوها .

وقد بعث الملك عبد العزيز المعلّمين لساكني هذه الهجر ، فتعلّموا العقيدة ، وقرأ طلاب العلم عليهم الفقه والسّيرة النبويّة ، حتى حدث تحوّلٌ جذريٌّ في حياة كثير منهم نحو الولاء لدين الله ، والغيرة على محارمه ، ولهذا كانوا خير عونٍ للملك عبد العزيز في استكمال حركة توحيد ما يمكن من أقاليم الجزيرة ، يدفعهم الإيمان والرّغبة في بذل النفس والجهد لتطهير هذه الجزيرة من أوضار الشّرك ، ولكن نقص الوعي « السّياسي والحضاري » لدى بعضهم جعلهم يتّخذون مواقف مضادّةً لمصلحة الدولة الناشئة ، رفضاً لبعض المستجدّات التقنيّة ، وتهديداً للأمن ، مما حتّم الصّدام بين بعضهم والملك عبد العزيز ، وبالذات في موقعة السّبلة سنة (١٣٤٧هـ) .

ولكنّ أثر هذه الهجَر الديني والثقافي بقي خيراً على الناس ، وبالذات أهل البادية ، وعُدَّتْ هذه الهجَر من الإنجازات التربويّة « لعبقريّة » الملك عبد العزيز [2] .

---

(١) جمع هجرة ، وهي مكان تجمّع قبيلة أو مجموعة قبائل يكون على مورد ماء لتعلّم الدين ، والاستعاضة عن السّلب والنهب بالزّراعة ونحوها ، ومن أشهر الهجر : هجرة الأرطاوية ، والغطغط .

(٢) انظر البحث الطويل عن فكرة الهجر وتصوّرات الكتّاب عنها في « السعوديون والحلّ الإسلامي » لمحمّد جلال كشك ، ص ٥٥١ وما بعدها .

- ومنها : الدروس العلميّة التي يقوم بها العلماء في المساجد في مختلف العلوم الشّرعيّة، وقد تكون عامةً لكل فئات المجتمع ، أو خاصةً بالفئة المثقّفة من طلاب العلم الشّرعي .

والدّروس العلميّة « الشّرعيّة » من أهمّ المسالك التربويّة التي سلكتها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدولة السّعوديّة الأولى ابتداءً من دروسه في مسجد الدّرعية ، ثم المساجد في المدن التي تستولي عليها الدولة . . « فحينما دخل الإمام سعود بن عبد العزيز الأحساء سنة ١٢١٠هـ أقام -كما يؤرّخ ابن بشر- قريباً من شهر ، ورتَّبَ أئمّة المساجد ، وأمرهم بالمواظبة على الصلوات وإقامة الجُمَع والجمَاعات . . . ورتَّبَ الدروس وجعل فيهم رجالاً علماء يعلّمونهم التوحيد ويذاكرونهم ، ويعلّمونهم أصول الإسلام »[1] .

ولقد أدرك الملك عبد العزيز ومعه العلماءُ بعد قيام الدولة أهميّة هذه الدروس - خاصّةً وأنّ التعليم النظامي لم يكن قد انتشر بعدُ - لهذا اهتمّ بإحيائها واتّخاذ ما يحقّق إنتاجيّتها المنشودة .

هناك نماذج لخطابات من الملك عبد العزيز يوجّه فيها مشائخ نحو بعض الأماكن من أجل الصّلاة فيهم وتعليمهم أمور الدين : « استقم عندهم تصلّي بهم وتعلّمهم قراءة القرآن ، وتعلّمهم أمور دينهم »[2] .

وانتشرت الدّروس العلميّة في المساجد ، خاصةً المساجد الكبرى في المدن التي كان العلماء الفطاحل يجلسون فيها للتدريس ، مثل الشيخ عبد الله ابن حسن آل الشّيخ ، والشيخ سعد بن عتيق ، وغيرهم .

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد -عثمان بن بشر ١٢٩/١ ، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

(٢) انظر : من وثائق الملك عبد العزيز -المهرجان الوطني للتراث (٧٧-٩١) ، سنة ١٤٠١هـ، الحرس الوطني . ومعنى استقم : أقم عندهم إقامةً ثابتةً .

أما الحَرَمان الشّريفان فقد خُصَّا بعناية أكبر ، ووضعتْ لهما تنظيماتٌ خاصّةٌ لتكثيف الدروس فيهما ، والتنظيم الإداري ، وضبط الوجهة التي ينبغي أن تستقيم عليها مضامين هذه الدروس .

فمثلاً جاء من ضمن النظام الذي أمر به الملك عبد العزيز عام (١٣٤٥هـ) بشأن دروس الحرم المكي :

- « أن تشتمل على بيان أصول العقائد ومباحث الصّفات وفق مذهب السّلف ، وكشف أنواع البدع التي شوّهتْ سمعة الدّين الحنيف ، وأنواع الخرافات التي أخرت المسلمين ، وهبطتْ بهم إلى الحضيض .
- وقراءة فقه المذاهب الأربعة والعلوم العربيّة بكرةً وأصيلاً ، ودروس التوحيد والتفسير والحديث والوعظ بين العشاءين »[١] .

يضاف إلى الدروس العلميّة قراءاتٌ متواصلةٌ في المساجد أو دور العلم بعد صلاة العصر وبين العشاءين ، وبين الأذان والإقامة لصلاة العشاء في كتب السّيرة النبويّة ، والترغيب والترهيب ، ورياض الصّالحين وتفسير ابن كثير ونحوها .

وما تزال الدروس العلميّة قائمةً في المملكة وفي الحرمين ، وفي المساجد ، وفي المدن والقرى ، وأحياناً في بيوت المشائخ تؤدّي دورها البنَائي للعقيدة والثّقافة الإسلاميّة .

- ومن أوسع سبل التربية العقديّة في المملكة العربيّة السعودية « التعليم » وسيأتي الحديث عنه لاحقاً ، لكنّا نشير إلى أنّ هذا التعليم في مختلف مراحله ، وبالذات المراحل الابتدائيّة والمتوسّطة والثانويّة تعليمٌ عقدي

---

(١) انظر : الملك عبد العزيز والتعليم ، بدر الدين أبو راس ، ص ١٣٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، مكتبة العبيكان ، الرياض .

يزرع في عقل الناشئ العقيدة الصّحيحة وفق المنهج السَّلَفي في مختلف الجوانب ، وخاصّةً مادّة التوحيد التي تعتمد غالباً على رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المرحلة الابتدائيّة ، وعلى كتاب « التوحيد » في المرحلة المتوسّطة ، مع نفي كلّ شائبة شركٍ أو إلحادٍ يمكن أن تندسّ إلى بعض المناهج المستحدثة .

- ومن سبل البناء العقدي : حماية المجتمع ككلٍّ من الانحراف العقدي وإيصاد الأبواب عن التسرّبات الشّركيّة والبدعيّة من خلال التأثير الثقافي لفاسدي العقيدة أو الكفّار .

وفي هذا المجال وضعت أنظمةٌ للجمارك والإعلام لمنع الكتب والنشرات المخلّة بالعقيدة ، المصادمة للإسلام ، فضلاً عن متابعة من يمارسون عمليّة التثقيف في المجتمع ، سواءٌ كانوا من المدرِّسين المتعاقَد معهم ، أو من الوعّاظ في المساجد وأمثالهم ؛ لئلاّ يصادموا عقيدة المجتمع ، ويبثّوا شيئاً من الضّلال الشّائع في مجتمعاتهم التي قدموا منها .

(٦) نشر السّلفيّة علميّاً :

تدرك المملكة منذ إنشائها أنها حاملةُ رسالةِ المنهج السَّلَفي في العالم ؛ ولهذا اتّجهتْ جهودها بعد استقرار المملكة لنشرِ هذا المنهج ، وتأكيد وجوده العلمي في البلاد الإسلاميّة من خلال ثلاث طرقٍ :

الأوّل : دعوة المسلمين لهذا المنهج عن طريق الإعلام المباشر ، وأهمّه في عهد الملك عبد العزيز خطبه التي يلقيها في الحجّاج ، حيث كان مأدبةً كبيرةً يدعى إليها كثيرٌ من كبار الحجّاج وقادة الدّول .

الثانــي: بعث العلماء لنشر هذه الدعوة في الأماكن المتاح فيها للدعوة مجالٌ ،

وكذلك التعاون مع علماء الأقطار الأخرى ممن يحملون هذا المنهج ، ويسعون لنشره وتأييدهم ماديّاً ومعنوياً ، وقد كانت للملك عبد العزيز ولعلماء المملكة صلاتٌ بعديد من العلماء في العالم العربي والهند وغيرها ، مثل : الشيخ رشيد رضا ، والشيخ محمّد حامد الفقي في مصر ، والشيخ محمد بهجت البيطار في الشام وغيرهم .

الثالث : بعث التراث الإسلامي السَّلَفي بطبع كتبه ونشرها ، وبالذات كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله[١] .

وما تزال صور هذا النشاط إرسالاً للعلماء والمدرِّسين والدّعاة ، ونشراً للكتب العلميّة السَّلَفيّة ، وإقامةً للدّورات الشّرعيّة يسهم فيها المجتمع السّعودي شعبيّاً ورسميّاً في مختلف أرجاء المعمورة .

(٧) ولعلّ من أبرز تجلّيات هذا المنهج في حركة المجتمع السّعودي ودلائل تأصّله فيه : **الإصرار الواثق على التأكيد من خلال التجربة الحيّة - لا من خلال التنظير الفكري - على إمكانيّة استيعاب التقدّم المدني مع التزام العقيدة السَّلَفيّة** ، بل على أنّ هذا الالتزام هو السبيل لامتلاك هذا التقدّم امتلاكاً حرّاً لصالح الإنسان .

وهذا خلاف ما يعتقده الممسوخون من أبناء هذه الأمّة من أنّه لتحقيق التقدّم المادّي في المجتمع المسلم لا بُدَّ من تغيير عقائده نحو عقائد مادّيّة ، وسيأتي الحديث عن هذا في الآثار إن شاء الله .

وخلاصة القول في هذا المبحث : أنّ المنهج السَّلَفي بما هو منظومةٌ من الأصول العقديّة والمنهجيّة والقيميّة المستمدّة من القرآن الكريم وسنّة الرّسول محمّد ﷺ وهدي أصحابه ، هو المرجعيّة التراثيّة التي يركن إليها المجتمع

---

(١) انظر في هذا : الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، الشثري ، ١/ ٤٢٤ .

السعودي دولةً وشعباً ، وهو المذهبيّة الموجّهة للأداء البشري فيه فرداً ومجتمعاً، وهو الرّسالة التي يحملها للناس كلّهم مسلمين وكفّارٍ .

« إنّ عقيدتنا هي القاعدة الأساسيّة التي تنطلق منها المملكة العربيّة السعوديّة في تصرّفاتها العامة وفي تصرّفات الفرد »(١) .

(١) كلمات منتقاة من خطب خادم الحرمين الشريفين ، ١/ ١٣٧ .

المبحث الثاني

العلـــم

كان العرب أمةً أميّةً تحيط بها أممٌ لها ثقافاتٌ وفلسفاتٌ دينيّةٌ وعقليّةٌ وباطنيّةٌ ، ولمّا بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ بدين الإسلام الذي يحمل العلم الحقّ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[1] ، والذي يرفع قيمة الإنسان بقدر علمه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] . وهو ارتفاعٌ وتميّزٌ بالعلم للفرد والجماعة مثلما هو ارتفاعٌ وتميّزٌ للأمّة والحضارة - لما بعث الله محمداً بهذا الدين - تحوّلت الأمة العربيّة من الأميّة إلى أمة علمٍ يتبلورُ علمها في حضارة ارتقتْ بالحياة البشريّة في كلّ مجالاتها إلى آفاقٍ إنسانيّةٍ عليا ما وصلت ولم تصل إليها حضارةٌ أخرى .

لقد كان العلم هو قائد هذه الحضارة ، وموجّه حركة الإنسانيّة في مسارها الشّامل ، وحينما تقهقر هذا العلم اضمحلّتْ هذه الحضارة وانحسرتْ .

ومن جانب آخر فإنّ « العلم » هو الجواد السّابق في الحضارة الغربيّة المعاصرة ، على الرّغم من الاختلاف الجذري بين العلمين ؛ في الحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربيّة .

وقد دخل العلم بمفهومه الغربي الحديث غير المتّسق مع الإسلام على المسلمين ، فأفسد في حياة المسلمين المنفعلين بمفهومه هذا على حساب المفهوم الحقيقي له في الإسلام .

---

(١) الآية رقم (٦١) من سورة آل عمران .

(٢) الآية رقم (١١) من سورة المجادلة .

وأشير في هذا المبحث إلى نقاطٍ هي :

- مفهوم العلم في الإسلام ومنطلقاته ومجالاته .
- مفهوم العلم في الفكر الغربي وتأثيراته على المسلمين .
- فلسفة العلم في المملكة بصفتها فلسفةً متميّزةً في هذا العصر بارتكازها على الرّؤية الإسلاميّة .

النقطة الأولى : مفهوم العلم في الإسلام

يقول الرّاغب الأصفهاني محدّداً مفهوم العلم من خلال استقرائه لآيات القرآن الحكيم : « العلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك ضربان : إدراك ذات الشيء ، والحكم على الشّيء بإثبات شيءٍ هو موجودٌ له ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه »(١) .

وذلك يعني أنّ العلم ليس محصوراً بمصدر واحد ، ولا مجال معيّن دون غيره ، فمتى ما ارتقتْ المعرفة إلى مستوى الحقيقةً أصبحَتْ علماً في أيّ مجّال ، ومن أيّ مصدر يمكن أن تتحقّق به تلك المعرفة : « فيشمل العلم جميع أنواع المعارف سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات والمنطق ، أم كان الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطبّ والكيمياء والفيزياء والفلك ، أم كان الذّوق والعاطفة كالأدب ، أم السماع جيلاً بعد جيلٍ كاللغة ، أم الوحي والنبوّة والنقل عن مصدر الوحي في علوم الدين من العقيدة والتفسير والحديث والفقه »(٢) .

ولكنّ الإسلام بما هو دينٌ معياريٌّ حاكمٌ يُقَسِّمُ « العلم » من حيث ما يحقّقه من مصلحةٍ شرعيّةٍ ونفعٍ بشريٍّ قسمين :

(١) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصبهاني ، ص ٣٤٣ ، مصدر سابق .
(٢) الإسلام والفكر العلمي ، محمد المبارك ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت .

(النوع الأوّل) : علمٌ مذمومٌ

صرف الله المسلمين عن الأخذ به وسلوك طريقه لما يثمره في نفس صاحبه ، وفي الحياة البشريّة من مفاسد وأضرار؛ وذلك مثل علم السِّحر الذي بيَّنَ اللهُ في سورة البقرة في قصّة هاروت وماروت ما ينتجه من فتن وأضرار ، وأنه صنعة الشياطين : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ (١) .

ومثل علم التشريع لحياة البشر بمعزل عن شريعة الله ؛ لأنّ التشريع لله وحده ، فكان التشريع من دونه اعتداءً على حقّه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾(٢) وسواءٌ كان هذا التشريع في أمور العبادة والأخلاق ، أو كان وهو أخطر وأعظم في أمور العقيدة والإيمان ، حيث نهى الرّسول ﷺ عن التفكير في ذات الله ، ومن ثَمَّ وضع تصوّرات عقليّة عن ذاته وصفاته ، أو عن سائر الغيبيّات خارج ما أخبر به الله في وحيه إلى رسوله ، يقول ﷺ : « تفكّروا في آلاء الله ، ولا تفكّروا في ذاته ، فتهلكوا »(٣) .

ولقد صان المسلمون الأوّلون عقولهم عن تقحّم هذه المجالات المنهيّ عن الخوض فيها ، فوفّروا طاقاتهم في المجالات المحمودة المنتجة ، أمّا الذين أغراهم بريقها فدخلوها وركضوا بخيلهم في ميادينها ، فقد كانت نتيجتهم الضّلال والتّيه وتعويق حضارة الأمّة عن ارتقائها ، وقد ندم كثيرٌ منهم وعلموا بالغبن الذي أوقعوا أنفسهم فيه ، كما حصل لكثيرٍ من علماء الكلام وعلوم السِّحر والطلّسمات ، واعترفوا بخطورة ما فعلوا .

---

(١) الآية رقم (١٠٢) من سورة البقرة .

(٢) الآية رقم (٢١) من سورة الشورى .

(٣) رواه البيهقي في الشعب ، وأبو نعيم في الحلية ، وهو حديثٌ صحيحٌ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم [١٧٨٨] ، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي .

النّوع الثانــي : العلم المحمود وهو العلم الذي يتوافر فيه :

- الانضباط بهدي الإسلام غايةً ومنهجاً .
- رعاية المقاصد الشّرعيّة تحصيلاً للمصالح ودرءاً للمفاسد .
- إبراز ما أودعه الله في آياته : القرآنيّة، والتشريعيّة، والكونيّة من منافع وهدايات للناس.

ولهذا فإنّ أبرز مجالات العلم المحمود هي :

المجال الأوّل : علوم الوحي

التي تتحقّق بالاستمداد منه فيما يتعلّق بمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، ومعرفة حقيقة الإنسان وحكمة وجوده، وهذه الحياة وموقع الإنسان فيها ، وتعرّف منهج عبادة الله ، والخلافة في أرضه ، والعلم بالحياة الآخرة ، ومسؤوليّة الإنسان فيها، وهذا ما يتجلّى في مَيدانَيْ :

- العقيدة مما يتعلّق بالإلهيّات والنبوّات والسّمعيّات مستمدّةً من الوحي ، حيث يكون دور العقل فيها أن يتلقى ويفهم .
- الشّريعة، وهي المتضمّنة تحديد ما للنفس وما عليها لله أو لخلقه، والعلم بها يسمّى علم « الفقه » وفيه يقوم العقل المؤهّل بالاجتهاد لاستنباط الأحكام الشّرعيّة لكلّ مستجدّات الحياة .

ولأنّ الإسلام جاء ديناً إنسانيّاً يهدف إلى الارتقاء بهذا الكائن وحفظ حقوقه ، وضبط سلوكه في مدرجٍ سامٍ ، فقد كان « الفقه » هو علم الحضارة الإسلاميّة الذي برزتْ به بصفتها حضارةً إنسانيّةً خلقيّةً ، حيث تتابع عمالقة الفقه ابتداءً من عهد الصّحابة فمن بعدهم في كلّ إقليمٍ وبلدةٍ من بلدان الدّولة

الإسلاميّة التي تزداد اتّساعاً تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] .

المجال الثاني للعلم المحمود هو العلوم العقليّة

التي يعتمد فيها العقل على مبادئه الضرورية ليولِّد منها طرائق استدلاليَّةً ، ومعارف حسابيَّةً وهندسيَّةً ونحوها ، مما يوظِّفه الإنسان والمجتمع في تحقيق مصالحه الدُّنيويَّة والدِّينيَّة .

المجال الثالث : علم الكون

وهو العلم الذي يحقق الإنسان عمليّاً من خلاله خلافته في الأرض بمزاولته للمهَن الفنية في مواد هذا الكون المختلفة جماداً ونباتاً وحيواناً من أجل تأمين مطالبه الغذائيَّة ، أو قوَّته العسكريَّة أو علاج أمراضه أو لباسه وسكنه ، ونحو ذلك من المطالب الشرعَيَة التي أمر الله ورسوله بها : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[2] وقول ﷺ : « تداوَوْا ، ولا تَداوَوْا بحرام »[3] .

المجال الرّابع : الحياة الإنسانيّة

حيث وجّه الإسلام للنظر في سنن الله التي أجرى عليها حياة الناس الفرديَّة والاجتماعيَّة ، وهي سننٌ ماضيةٌ لا تغيير فيها ولا تبديل : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[4] . ومعرفة الإنسان بها تجعله

---

(١) الآية رقم (١٢٢) من سورة التوبة .

(٢) الآية رقم (٦٠) من سورة الأنفال .

(٣) رواه أبو داود ، وروى مسلم في صحيحة قول ﷺ : « إنَّ لكل داء دواءً ، فإذا أصيب دواءُ الداء بَرَأَ بإذن الله تعالى » . انظر : صحيح مسلم ، ٤/١٧٢٩ ، ومسند الإمام أحمد ، ٤/٧ .

(٤) الآية رقم (٦٢) من سورة الأحزاب .

يستثمرها في حياته الشخصيّة والاجتماعيّة ويتقي مصادمتها من أجل حياةٍ إنسانيّةٍ سعيدةٍ [1].

هذه هي مجالات العلم المشروع في الإسلام، وعلى الرغم من تساويها في الحكم الطّلبي لها شرعاً بصفتها فروضاً كفائيّةً [2] يجب على الأمّة أن يكون في كلٍّ منها ما تتحقّق به المصالح الشّرعيَّة للمسلمين والإسلام، وإلا أثمت الأمّة كلّها -على الرّغم من ذلك- فإنّها ليستْ على مستوى واحد في قيمتها العلميّة والشرعيَّة، فالعلم المستمدّ من الوحي -عقيدةً أو تشريعاً- هو الأصل المقدّم على غيره من العلوم:

- لعظمة مصدره، وهو وحي الله لا عقل البشر.
- ولمنزلة موضوعه، وهو تحديد وجهة الإنسان وغايته ومنهج حركته السّليم في هذه الحياة.

ولهذا كان هذا العلم -وهو المسمَّى اصطلاحاً بالعلم الشرعي- هو العلم الأوّل في الحضارة الإسلاميّة، وهو الذي أخذ صفة العلم إذا أطلقتْ، فإذا قيل مثلاً: فلانٌ يطلب العلم، أو فلانٌ عالمٌ؛ فإنّ المقصود تحديداً العلم الشّرعي دون غيره، وهو الذي يتّجه إليه حديث الرّسول ﷺ: « طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ » [3].

---

(1) انظر: المدخل للتفسير الموضوعي، لعبد الستار سعيد، ص ٢١٧، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، مصر.

(2) باستثناء المعلوم من الدِّين بالضرورة فهو واجبٌ عيناً.

(3) رواه ابن ماجه، وقال المزني: « روي هذا الحديث من طرق تبلغ رتبة الحسن ». انظر: شرح السنة، للبغوي، ١/ ٢٩٠. قال الشيخ الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزي ١/ ٦٧: « اعلم أن السيوطي جمع طرق الحديث حتى أوصلها إلى الخمسين، وحكم من أجلها على الحديث بالصحة، وحكى الصرامي صحته عن بعض الأئمة، وحسنه غير واحد ».

ولكنّ هذه الأولويَّة للعلم الشرعي على العلوم العقليّة والكونيّة والاجتماعيّة لا تنفي علميَّةَ تلك العلوم إذا استندتْ على منهجٍ سليم، ولا تنكر كونها علوماً مطلوبةً شرعيّاً وإنسانيّاً كما فعل الغربيّون في فَوْرَةِ حماستهم للعلم المادِّي التجريبي بإنكار العلم في أيّ مجال ومن أيّ مصدر سواه، وحصروا « العلم » به -كما سيأتي-؛ ولذا كان من السّذاجة أن يطالب أناسٌ الدّاعين إلى الإسلام في هذا العصر « بأن يتوقّفوا -في طلبهم العلم- عند القرآن والحديث » ؛ لأنهم كما يتصوّر هؤلاء « يعتبرون أن لا وجودَ لعلمٍ إسلاميٍّ غير علم الشّريعة »[1].

لا ريب أنّ هذا التصورُّ ناتجٌ عن تشوّه مفهوم العلم ومجالاته في الإسلام لدى هؤلاء .

منطلقات العلم في الإسلام :

يتميَّز العلم الإسلامي بمنطلقات خاصة تجعله يسير في مسلك متميّز عن مسالك المعرفة لدى الأمم الأخرى حتّى وإن تداخلتْ معه في بعض الجوانب، ومن أهمّ هذه المنطلقات :

- **الوحدانيّة** ، فهو ينطلق من التوحيد متعاملاً مع الأشياء والأحداث بصفتها مخلوقةً لخالق واحد ، وجاريةً بأمره ، وخاضعةً لسلطانه ، وأنها مخلوقةٌ بحكمة وعدلٍ وتقديرٍ ، فلا فوضى في حركة الكون ، ولا عبث في وجوده .

كما أنّ العلم الإسلامي ينطلق من الوحدانيّة في توجيهه الحياة البشريّة لتقوم على هذا التوحيد في العبوديّة لله وحده، والخلافة في أرضه ، محارباً

(١) الصحوة الإسلاميّة وهموم الوطن العربي، من كلامٍ لهشام جعيط، مجموعة مؤلفين، تحرير سعد الدين إبراهيم، ص ٢٨٧ ، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، عمان .

الجهل والخرافة والشّرك والإلحاد .

لذا فإنّ المسلم كلّما ازداد علماً زاد بالله إيماناً ، وله تعظيماً وخشيةً وحبّاً وخضوعاً كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

- **الشّمُوليّةُ مع أولويّة العلم الشّرعي** ، كما سبق أنّ العلم في الإسلام شاملٌ لعديد المجالات فهناك -كما يقول علماؤنا السابقون- علم الأديان وعلم اللّسان وعلم الأبدان وعلم العمران ، وكلّها فروضٌ كفائيّةٌ[2] إلا أنَّ علم الدين « العقيدة والشريعة » هو المقدّم، وهو مرتكز العلوم كلّها في الإسلام ، ولهذا قسَّمَ العلماء العلم قسمين :

- علم المقاصد ، وهو علم العقيدة والشّريعة .
- وعلم الوسائل ، وهو ما سواها من فنون العلم .

وأخذاً بهذا المنطلق كان العلماء في كلّ فنون العلم في الحضارة الإسلاميّة علماء شرعيّين ، أو لديهم نصيبٌ كاف من العلم الشَّرعي ، كما أنَّ الوعيَ بهذا المنطلق لدى جيل الصّحوة الإسلاميّة المعاصرة دفع المتخصّصين منهم في العلوم الكونيّة والاجتماعيّة إلى طلب العلم الشَّرعي من كتبه وعلمائه .

- **الهدفيّة العمليّة** ، العلم الإسلامي أيّاً كان مجاله له غايةٌ عمليّةٌ هي تحقيق إنسانيّة الإنسان في هذه الحياة بأن يكون عبداً لله ، خليفةً صالحاً في هذه الأرض يعمرها بطاعة ربِّه .

فإذا انقطع العلم عن هذه الغاية فقد قيمته ، وخرج عن صبغته الإسلاميّة ،

---

(١) الآية رقم (٢٨) من سورة فاطر .

(٢) هناك ما يسمى المعلوم من الدين بالضرورة، وهو ما لا يقوم دين مسلم إلا به فهذا من علم الشريعة، فرض عين لا يسع مسلما جهلُه .

وقد فسَّرَ العلماء قوله ﷺ : « اللهمَّ إنِّيْ أعوذ بك من علمٍ لا ينفع »[1] بأنّه العلم الذي لا عمل تحته .

- **الموضوعيّة** : الحقّ هو مدار العلم في الإسلام طلباً له وحملاً ، ودعوةً إليه حتى في المجالات الدينيّة والقيميّة ، فهو إذا دعا الآخرين إلى دينه وقيمه لا يدعوهم إليها لأنها دينه وقيمه، ولكن لأنها الحقّ ، وحينما يرفض ما لدى الآخرين من عقائد وقيم فلأنها لا تمثّلُ الحقيقة ، ولا تركن إلى أساس علميٍّ : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[2] ﴿ **هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴾[3]. ولهذا يتعامل العالم المسلم دائماً بثقة من أنّ حقائقه العلميّة التي جاء بها الوحي موافقةٌ لكلّ حقٍّ تأتي به المعرفة البشّريّة ، وأنّ أيَّ نظريّة أو فكرة تخالف هذه الحقائق باطلةٌ تلقائيّاً وإن بقيتْ لدى أصحابها فترةً من الزمن غير مكشوفة العَوَرِ .

العلم في الفكر المعاصر :

مشكلة « العلم » في الثقافة الغربيَّةِ الحديثة تُعَدُّ مأساةً بشرية في أصلها وردِّ فعلها .

لقد كانت الدِّيانةُ الكنسيَّةُ التي سادت أوربَّا في عصورها الوسطى تنكر أيَّ « علمٍ » خارج دائرة مؤسّساتها وكتبها المُقدَّسة لديها ، وتحارب أي تفكير يخرج عن حدود ما تُلَقِّنه لأتباعها من معلومات عن الوجود والحياة ، ونظرياتٍ فلكيَّةٍ وجغرافيَّةٍ وأحيائيَّةٍ ضمتها إلى كتبها من الفكر اليوناني ، لكن

(١) صحيح مسلم ، ٤/ ٢٠٨٨ .

(٢) الآية رقم (١١١) من سورة البقرة .

(٣) الآية رقم (١٥) من سورة الكهف

النَّاس كسروا هذا الطوق ومارسوا التفكير خارجها واستطاع بعضهم أن يتوصَّل إلى نظريات عن الكون والأرض والناس تخالف ما تقول به كتب الكنيسة، وقد ثارت ثائرتها وحاربت هؤلاء المفكِّرين ووصمتْ فكرهم بأنَّه هرطقةٌ وتجديفٌ؛ لأن « العلم » محصورٌ بما تقوله الكتب المقدسة، ولكن أولئك المُفكرين واصلوا جهودهم، واستطاعوا أن يُقدِّموا من المعارف القائمة على الاستقراء والتجارب ما أثمر تطبيقات عمليَّةً في حياة الناس، مما جعل هؤلاء الناس يتشبثون بهذا « العلم المادي التجريبي »، ويثقون به أكثر من « علم الكنيسة » .

وتطور الأمر إلى سحب البساط من الكنيسة تماماً في المجال المعرفي، فلم يَعُدْ لتعاليمها أيَّةُ قيمة علميَّة، وانحصر العلم في فكر أوربا الحديثة في المعارف الماديَّة المنتجة من خلالَ المنهجَ التجريبي، وألحقت بها العلوم الإنسانية من خلال المنهج ذاته، وجُعِلَ مقابلاً للدِّين - التعاليم المنسوبة للوحي - فقيل :

العلم والدين :

والعلم هنا ليس مجرد اصطلاحٍ ظرفيٍّ، وإنما هو موقفٌ محدَّدٌ، فمعنى كون العلم : هو معرفة الظواهر المادية، ولا طريق له إلا التجربة، أنَّ ما سواهُ من فكر فلسفيٍّ نابع من العقل، أو اعتقاد دينيٍّ نابعٍ من الوحي الإلهي ساقطُ القيمةِ لا يعد علماً، ومن ثم فلا مجال لمساواته بها فضلاً عن تقديمه، ولا ينبغي أن تقام عليه -أي الوحي أو العقل النظري- الحياة البشرية فكراً ولا حركةً، وأقصى ما يُفسح له من مجال أن تُعَدَّ تعاليمُ الوحي كالفنِّ الشِّعري والرّوائي يمنحها الإنسان شيئاً من عواطفه وإن كان يتصور بطلانها وخياليَّتها .

وفق هذه الرؤية تبلورت النَّظرياتُ التربويَّةُ وقامت المؤسساتُ التعليميَّةُ بإشاعة هذا العلم بمنهجه التجريبي، وجرِّ الحياة لتكون تبعاً له، ولأن مجاله

المادة فقد صبغ الحياة بالصِّبغة المادية اهتماماً وطلباً وتنافساً ، حتى تحولت المادية لدى كثير من الغربيِّين إلى ديانةٍ لها ما للدين من طقوسٍ وإخلاصٍ وجهودٍ وجهادٍ[1].

هذا هو العلم بمفهومه الغربي وموقعه البارز في حياتهم ، ولقد تأثَّر كثيرٌ من المسلمين بهذا المسار الخاطئ للفكر الأوربيّ في شأن العلم، ولم يبق هذا التأثُّرُ في نطاق التصوُّرات الفرديّة، ولكنّه لابس حياة هؤلاء حتى قامت مؤسَّساتهم التعليميّة على محاربة الفكر الدِّيني ، والإيمان بالغيب ، وعدِّه من معوِّقات العقل وهادمات المنهج العلمي ، وانشطر التعليم إلى ديني، دور خرّيجيه الوعظ وإمامة المساجد ، وآخر « علمي »، دور أصحابه قيادة الحياة وصناعة السَّعادة لها من خلال ثمرات هذا العلم تخطيطاً وتنظيماً، ولكن للأسف لم يكن هذا الاتجاه نحو « العلم » بمفهومه المعاصر عند هؤلاء المتأثّرين أصيلاً يهدف إلى الانخراط في العمل العلمي ، وتطوير التجربة وفق حاجات المجتمع العربي والإسلامي أي المشاركة الإبداعيّة فيه ، وإنّما كان مجرّد تقليدٍ واستهواء مما يعيشه المجتمع الغربي ، فكان الهدف لدى هؤلاء هو النقلَ والترجمةَ والاستهلاك الفكري لما عند الغرب، والتعصّب له ضدَّ ما في ثقافة المجتمع من طرائق منهجيّة، أو حتى إمكانات بعث علميٍّ ، فكان صنيعها إساءةً للمجتمع وللعلم معاً ، إنها كما يقول برهانُ غليون : « جعلت من العلم معرفةً لاهوتيّةً مقدّسةً مفصولةً عن الواقع الذي استمدَّتْ منه ، وعن

---

(١) يقول محمد أسد مصوِّراً الماديّة الغربيّة : « إنّ رجل أوربا لا يعرف إلا ديناً واحداً، وهو عبادة الرُّقي المادّي والاعتقاد بأنّه لا غاية في الحياة إلا أن يجعلها حرّةً طليقةً من قيود الطّبيعة ، أمَّا كنائس هذا الدين فهي المصانع الضّخمة ودور السينما والمختبرات الكيماويّة ودور الرَّقص ، وأمَّا كَهَنَتُها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثّلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة » . الإسلام على مفترق الطّرق ، لمحمد أسد، ترجمة عمر فروخ، ص ٤٤-٤٥ ، الطبعة السابعة، ١٩٧٤م .

المجتمع الذي ظهرتْ فيه ، وعن الذات التي أنشأته ، وعن المطّلب الذي وضع له »[1] .

وطبيعي أن يؤدِّي هذا المسلك إلى عكس ما كان يؤمل منه من تنمية ورقيٍ مدنيٍّ ، فقد حُطِّمت الصناعات التقليديّة ، وطرائق التنمية الزراعيّة والحيوانيّة ، ولم توجد بدائل علميّةٌ معاصرةٌ تزيد الأوضاع تحسيناً ، والمجتمعات تقدّماً ، وإنما بقيت هذه المجتمعات في أوضاعها المتخلّفة إن لم تزد تخلُّفاً وفقراً ، وتراجعاً في الإنتاج والتوازن المادّي .

فلسفة العلم في المملكة العربيّة السعودية:

لقد كان من أهمّ الأسباب التي دفعت المتأثِّرين بحركة التنوير الغربيّة -في مجال العلم المادي- نحو التعصّب لهذا العلم ومنهجيّته والنفور من الدين وعلومه أنّ مجتمعاتهم التي نشؤوا بها كانت تفقد التصوُّرَ الصحيح السَّليم للعلم في الإسلام بسبب المؤثِّرات الصُّوفيّة التي تتنكَّر للمعرفة العقليَّة ، والاهتمام بحاجات الإنسان الدنيويَّة والمؤثِّرات الجبريَّة المنكرة للأسباب التي يقوم عليها بنيان العلم المادّي الإنساني .

أما المجتمع السّعودي فإنّه بارتكازه على المنهج السَّلفي قد استعاد المفهوم الإسلامي للعلم بشموليّته وأصالته الشّرعيّة ، وعلى هذا المفهوم بنت المملكة سياستها الثقافيّة ومناهجها التعليميّة .

- فقد جعلت العلم الشّرعي قاعدة العلوم في كلّ التخصصات من حيث :

---

(١) اغتيال العقل ، لبرهان غليون ، ص ٢١٠ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٠م ، مكتبة مدبولي .

* تقرير المواد الشرعيّة قرآناً وسنةً وعقيدةً وفقهاً في المراحل الأولى والمتوسّطة والثانويّة .
* تقرير مادة « الثقافة الإسلاميّة » التي تقدّم التصوّر الشمولي للإسلام ، وتبرز عناصر تميّز المسلم ، وتنقد الفكر المعاصر لكشف صحيحه من خاطئه -تقريرها- في المرحلة الثانويّة والدراسات الجامعيّة في كلّ تخصصاتها .
* تنقية المناهج من كلّ ما يخالف حقائق الكتاب والسنة عن الكون أو الإنسان أو الحياة أو غير ذلك .

- كذلك فقد أخذ العلم الشرعي أولويّته على العلوم الأخرى ، لا من حيث هو قاعدة بناء شخصيّة المسلم -كما سبق- ، بل من حيث هو تخصُّصٌ علمي له مجالات تطبيق لا يمكن للتخصصات الأخرى أن تنوب عنه فيه .

وإذا كانت الدولة تؤكّد في كلّ خططها وإعلان قادتها على أنّ بناء الإنسان هو غايتها الأولى فإنّ أولويَّةَ العلم الشرعي تحقق هذا البناء بإعلاء كرامة الإنسان ودفعه لطلب العلم ، ورفع إيجابيّته في الحركة الاستخلافيّة في هذا الكون واستثمار ما تقدّمه العلوم الماديّة من تسهيلات عمرانيّة ومدنيّة .

وقدَ تجلَّتَ هذه الأولويَّة للعلم الشرعي في المملكة بدعم طلب العلم الشَّرعي ، وتحويله من دروس خاصَّة في المساجد محدود عدد طلابها فضلاً عن عدم الانتظام الإلزامي لهذه الدروس إلى دروس منظّمة في مؤسسات تعليميَّة -دار التوحيد ، المعاهد العلميّة . . . - ثم جامعات تشتمل على مختلف التخصصات الشَّرعيَّة ، كما تجلَّت هذه الأولويَّة بتطوير مجالات التطبيق للمؤهَّلين شرعيّاً قضاءً وإفتاءً وتدريساً وغيره .

- الاحتفاظ بمصطلح « العلم » للعلوم الشرعيّة ، دون إنكار لوصف المعارف المادّية -الكيمياء ، الفيزياء ، الأحياء - بالعلم ؛ ولهذا أُطلق على المعاهد التي تدرس العلوم الشّرعيّة « المعاهد العلميّة » ، كما أنّ التخصّص الذي يدرس المعارف المادّية في المرحلة الثانويّة يطلق عليه « القسم العلمي » ، وهذا خلاف ما عليه غالبيّة المجتمعات الإسلاميّة ، حيث تسمّى المدارس والمعاهد ذات الصبغة الشرعيّة بالمدارس والمعاهد الدينيّة .

- دعم العلوم العقليَّة والتقنية بصفتها فروضاً كفائيَّة ، ووسائل لتحقيق المقاصد الشرعيّة .

- ربط العلم التقني بغاياته الشرعيّة من حيث :

* توظيف نتائج هذا العلم لتحقيق مصالح المجتمع تطبيقاً لشرع الله بإغناء المجتمع بأبنائه المسلمين ، واستثمار تطوّراته في الارتقاء بأداء الدولة في التنمية وحفظ الأمن ونحو ذلك .
* جعل العمل بهذا العلم عبادةً لله ، بحيث يمارس الطبيب والمهندس وأمثالهما عمله بهذه الروح ، ويحسُّ أنه متسقٌ مع دينه ، ومن ثم مع مجتمعه ودولته .

- رعاية الاتساق بين التقني والشرعي ، بحيث يؤدِّي كلّ منهما دوره دون تنقُّصٍ للآخر ، وأن يخدم كلٌّ منهما صاحبه ، فالتقني يدعم حركة الاجتهاد في المجال الشرعي ، والشرعي يدعم حركة الإبداع في المجال التقني ؛ من أجل بلورة مسالك علميّة ناجحة في تطوير المجتمع ، أو على تحديد مواقف صحيحة تجاه مستجدّات العصر ، وأجلى ما يتبلور فيه هذا الاتساق بين المتخصّص بالعلوم العصريّة والمتخصِّص بالعلوم الشرعيّة في المملكة في « مجمع الفقه الإسلامي » .

- نفي الفكر الفلسفي بصفته فكراً مستقلاً يعالج قضايا الميتافيزيقا والقيم ، سواءٌ كان مثاليّاً أو ماديّاً ؛ لأنّ العلمين الشرعي والتقني كافيان في سدّ حاجة المسلم فرداً وجماعةً ، وتحقيق إنسانيّته وسموّه ؛ ولهذا لا تدرس الفلسفة بمناهجها التخيّليّة في المملكة .

أمَّا العلوم الاجتماعيّة فقد كانت اهتماماتها في الحضارة الإسلاميّة متضمَّنَةً في العلم الشرعي ، لكنها في العصر الحاضر دخلت إلى البيئة الإسلاميّة بمنهجها وبنيتها الغربيّة ، وهي منهجيَّةٌ قائمةٌ على الوصفيّة والنسبيّة ، واتساقاً مع الخطّ الإسلامي الذي تسير عليه المملكة قامت الجهود لتأصيل هذه العلوم إسلاميّاً لتكون علوماً معياريَّةً تنظر إلى الواقع المتغيِّر من خلال موازين الشرع الثابتة .

وإذا أردنا الإشارة إلى بعض الشواهد التطبيقيَّة لفلسفة العلم الأصيلة في المملكة فإننا نذكر بإيجازٍ :

- سياسة التعليم التي بلورتْ هذه الفلسفة إسلاميّاً ، ومن ثم بنتْ عليها حركة التعليم في المملكة في كلّ مراحلها ، وسيأتي الحديث عنها .
- مجمع الفقه الإسلامي كما سبق .
- تخصصات تأصيل العلوم إسلاميّاً في أقسامٍ جامعيّةٍ ودراساتٍ عليا كالاقتصاد والإعلام والتربية . . . إلخ .
- هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسّنة التي تهدف إلى حماية القرآن والسنة من تلاعب التأويل الفاسد من جهة ، وإلى بيان عظمتهما فيما أخبرا عنه من حقائق تكشفتْ حديثاً من جهة أُخرى .
- جائزة الملك فيصل العالميّة ، وهيَ جائزةٌ إسلاميّةٌ في غايتها ومنهجها ، وكما وُضعت جائزةٌ للدراسات الإسلاميّة شرعيَّةً أو تاريخيّةً ، كذلك

وُضعتْ جائزةٌ للعلوم البحتة مفتوحةً للمسلم وغير المسلم ممن يقدّم خدمةً للإنسانيَّة .

- تكثيف الدراسات العليا والتخصصات للتخفيف من الابتعاث والسعي لحماية المبتعثين من الفساد الفكري، ومن أبرز الجهود في ذلك « دورة المبتعثين » التي تقام سنوياً لتثقيف المُبْتَعَث السعودي شرعيّاً ووطنيّاً .

المبحث الثالث

القيـــم والتــراث

« القيم » و « التراث » مصطلحان يمثلان مشكلتين في الأزمة المعاصرة التي يعاني منها كثيرٌ من المسلمين على المستوى الفكري والعملي، وسأتناول القيم أوّلاً ثم التراث .

أولاً : القِيَمُ

القيم هي : الصفات التي تتميَّز بها الحياة الإنسانيّة عن الحياة الحيوانيّة، بحيث لا تتحقّق كرامة الإنسان إلا بها ، ولا يتحقق التماسك الاجتماعي إلا باعتمادها .

ومفهومنا للقيم -هنا- لا يقف عند الأساسية منها كالحق والخير والعدل والوفاء ونحوها، وإنما يشملها مع القيم الاجتماعيّة التي تتمثّل في تقاليد وأعرافٍ إنسانيّةٍ ساميةٍ معتبرةٍ شرعاً .

حينما بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ بالإسلام ، كان عند العرب كما عند غيرهم قيمٌ وأعرافٌ وتقاليد بعضها متولّدٌ من ظروف اجتماعيّة، وآخر نابعٌ من الفطرة الإنسانيّة والأريحيّة في النفوس الزكيّة ؛ ولهذا اختلط فيها الحق بالباطل فهذّبها الإسلام؛ زكّى بعضها، وأيده، وأخبر أنّ الإسلام يحثُّ عليه[1]،

(١) حينما ذكرت سفانة بنت حاتم الطائي لرسول الله ﷺ صنيع أبيها - وهو جاهلي مات كافراً - مثل : إقراء الضيف ، وإغاثة الملهوف ، والإعانة على النوائب . إلخ قال ﷺ فيما رواه البيهقي : « هذه صفة المسلمين حقاً » . قال ابن الأثير في البداية والنهاية ٥/ ٦٧ : « هذا حديث حسن، غريب الإسناد » الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، مكتبة المعارف، بيروت.

وعدَّل بعضها لتتسق مع المنهج الإسلامي[1] ، وألغى بعضها نهائياً لمصادمته منهج الإسلام حقّاً وعدلاً[2]، كما أضاف إليها قيماً جديدةً في قضايا العلم والتديّن والرّجولة والشورى والعمليّة واطّرح الخرافة والدجل والولاء والبراء . . . إلخ من القيم التي يتشكّل منها جميعاً سمت المؤمن والمجتمع المسلم المتميِّز عن سائر المجتمعات .

ولقد أحدثتْ هذه القيم في شخصيّة العربي نقلةً عجيبةً نحو الحركة الإيجابيّة في العلم والدعوة للحقِّ والبناء الحضاري الذي نعيش على تراثه في عصرنا الحاضر .

ولكنّ كثيراً من هذه القيم ضعف في عصور التخلّف عند المسلمين ، وعادتْ بعض القيم الجاهليّة فضلاً عمّا ورثوه من الأمم الأخرى من انعزاليّة صوفيّة ، وسلبيّة تواكليّة ، وتجاهلٍ للمصالح العامة ؛ ولهذا حدث فراغٌ قيميٌّ في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين حتى أطلّتْ عليهم أوربا بقيمها وتقاليدها .

وشأن أوربا الحديثة مع القيم أنه نتيجةً لشيوع الفلسفات الماديّة الملحدة والنفعيّة، دُمِّرت القيم الإنسانيّة تدميراً هائلاً من خلال تحطيم مصادرها الأصليّة، التي من أبرزها « الدين » الذي حاربته هذه الفلسفات حتى خرج من دائرة التأثير، وانحسرتْ توجيهاته الخلقيّة والقيميّة ، وحلّتْ مقامه الفنون التي توجِّهها الشهوات الخسيسة ، والمطامع الأنانيّةُ لتكون هذه الفنون هي التي

(١) كان من مقولات الجاهليّة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » أي أنّ عاطفة القرابة ينبغي أن تحملك على إعانته حتى وإن كان ظالماً معتدياً ، فعدَّل الإسلام في مضمونها مع بقاء لفظها، فصارت الأخوة هنا أخوة الإسلام ، ونصره إذا ظلم بردعه عن الظلم .

(٢) كحميّة الجاهليّة التي حاربها الإسلام ،وقال ﷺ : « قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب » رواه الترمذي، وهو آخر حديث في سننه، ٥/ ٣٩١، وقال عنه : « حديث حسن » .

ترسم القيم العمليّة التي ينبغي أن يسير عليها الناس ، معتبرةً القيم الدينيّة مثاليّةً ورجعيّةً لا يليق بإنسان هذا العصر أن يتشبّثَ بشيءٍ منها .

ومن مصادرها أيضاً : « الفطرة الإنسانيّة » حيث حطَّمتها نظريّةُ التطوّر العضوي « الداروينيّة » ، وأجهزتْ عليها الفلسفة الوجوديّة الملحدة ، التي تنكر أيّ ماهيّة إنسانيّة للإنسان ، مساويةً إيّاه بالحيوان ، منكرةً عليه تلك القيم التي يلتزمها بحجّة أنّها قيودٌ وكوابح تعوق حريَّة الإنسان وانطلاقته الشهوانيّة ، ينبغي أن يحطِّمها .

ونتيجةً لسيطرة الروح « البراجماتيّة » المتركِّزة في المصلحة الماديّة الشخصيّة ، فقد نشأت قيمٌ قد تشبه في ظاهرها القيم الدينيّة والإنسانيّة ، ولكنها في الحقيقة قيمٌ خادعةٌ هدفها ودافعها هذه المصلحة الماديّة ، واستغلال الناس باجتذابهم بهذه القيم ، حتى سميت بـ « الأخلاق التجاريّة » ؛ ولهذا تقع المتناقضات في مسالك هؤلاء ، حيث ينكشف ذلك الملتزم بالصدق والوفاء بتعهُّده في معاملات معيّنة عن مجرمٍ كبير يمارس التزوير والسَّرقات الكبرى ، وتتكشَّف الشركة المشهورة بسلامة منتجاتها وحسن التعامل مع زبائنها عن أعمال غشٍّ وخداعٍ خطيرة تذهب ضحيتها نفوس الناس ، حتى « العلم » تلك القيمة الكبرى المتغنَّى بها أصبح كما يقول ماسلو : « سلعة تكنولوجيا يمكن لأيّ شخص أن يشتريها لأيّ غرضٍ ، وأصبح العلماء مرتزقةً يتكسَّبون بهذا العلم في أيٍّ مكانٍ »(١) .

ولكن هذا لا يعني إجداب الحياة الغربيَّة تماماً ، فما تزال بقايا القيم الإنسانية لدى أفرادٍ كما لدى جماعاتٍ تحبُّ الخير لذاته ، وتطلب المعروف

(١) مجلّة الأمة ، العدد [٢] ، ص ١٨ ، ترجمة ماجد عرسان عليان .

بدافع إنسانيٍّ، وتنأى بنفسها عن منكرات الأخلاق بحفز الضَّمير، ولهذا نرى صوراً من احترام الآخر، ومن الجدِّيَّة في العمل، وعقلانيَّة الحركة والجهود الإغاثيَّة للمنكوبين ونحوها من شواهد وجود قيمٍ إنسانيَّةٍ لدى الغرب.

وقد يدفع استشراء الفساد في الحياة، واضطراب الأحوال إلى بعث بعض القيم والتشبث بها، فقد حفزت الحروب الطَّاحنة في أوربا في هذا العصر إلى إخراج بعض المواثيق المهمَّة والتشبث بها، مثل: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المتضمِّن لكثيرٍ من القيم الإنسانيَّة الكبرى، التي تتعطش البشرية المنكودة في هذا العصر إلى تطبيقها.

بهذه الصُّورة المزدوجة برزت أوربا أمام المسلمين في عصرهم الحديث، فتعاملوا مع القيم من خلال هاتين المفرزتين:

- عصور التخلف عند المسلمين التي تهدمت فيها كثيرٌ من القيم، وشاع فيها الدَّجَلُ والسَّلبيَّةُ وضعف الهمَمِ.
- والثقافة الغربية التي قذفت إلى هذه الأمة بأسوأ منتجاتها في التصورات والقيم والتقاليد من خلال هيمنتها الاستعمارية، وبعض المبتَعَثين من أبناء المسلمين، الذين زاغت أبصارهم فاستلبوا لها، والمقصود أنَّ القيم والتقاليد في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين لم تعد على صورتها الوضيئة، التي شكل الإسلامُ والفطرة الأصيلة سمتها، لقد شاعت تقاليد وقيمٌ وأعرافٌ فاسدةٌ يؤكِّدها الإعلام بمختلف وسائله، وتعزِّزُها كثيرٌ من القوانين في بلاد المسلمين، وإليك نماذج يسيرة من الواقع:
- ضعف التديُّن لدى كثيرٍ من النَّاس حتى أصبحوا لا دينيِّين في تَصوُّراتهم وأعمالهم اليوميَّة.

- موت الأريحية والرُّجُولة التي كانت مظهر إنسانية العربي قبل الإسلام وبعده .
- ذوبان العائلة وحدوث التقاطع بين ذوي الرحم ، والتبرم من الآخرين حتى ولو كانوا آباء أو أبناء أو إخوةً .
- استرجال المرأة وفقدان الرَّجل قوامته الشرعيَّة ورجولته عليها .
- ذهاب الحياء وقتل العفاف ، وشيوع الفواحش التي تحميها القوانين وتسهل للناس مُوَاقعتها .
- الحقد الطبقي والعنصرية العرقية واللَّونيَّة .
- الوطنية الضَّيِّقة التي تتحول إلى حميَّة جاهليَّة تخنق الآخرين .
- اصطباغ الحياة بالنِّفاق والأنانية المفرطة .
- إهانة شعائر الدِّين وأهله .

إلى غير ذلك من القيم والتقاليد التي لم تعد في كثير من مجتمعات المسلمين شذوذات فرديّةً أو حتى تأثُّرات اجتماعيَّةً ، وإنما هي توجُّهٌ مقصودٌ يدفع الناسَ إليه مفكرون في كتَّاباتهم، وإعلامٌ في وسائله ، وأنظمةٌ في قوانينها .

القِيَمُ في المجتمع السعودي :

المجتمع السعودي كغيره من مجتمعات المسلمين ورث التقاليد والأعراف التي خلَّفتها عصور الضَّعف عند المسلمين ، كالاتكاليَّة والخرافيَّة والسَّلب والنَّهب والتناحر لأوهى الأسباب، وفقدان الطموح . . . إلخ ، ولكنّ الدعوة الإسلامية فيه بما بعثتْ من منهجٍ سلفيٍّ يجعل تعاليم القرآن والسنة مصدرَ التَّوجيه الأول لعقل الإنسان وحركته، استعادت قدراً عظيماً من السَّمْت الإسلامي والمسلك الإنساني لأتباعها في حياتهم الفردية والاجتماعية، وإنَ

كان هذا السَّمْتُ لم يتجذَّرْ في مجتمع الجزيرة بالشكل المفترض، فقد كان يهتزُّ كُلَّما ضعفت الدولة وخَفَّ توجيه الدَّعوة ، كما حدث بعد سقوط الدولة السعودية الأولى والثانية ، حيث يعود السَّلب والنَّهب والأعراف القبلية وروح البداوة والجفاء .

وحينما أقام الملك عبد العزيز الدَّولة السّعودية الثالثة ، وفي وجدانه أن يجعل منها مجتمعاً متماسكاً مُتحضِّراً ، وذلك لا يتحقق إلا من خلال نسيج القيم الصَّالحة والمبادئ الإنسانية التي دعمتها الشَّريعةُ ؛ لذا كان من أبرز اهتماماته الارتقاء بسمت مجتمعه إلى المستوى القيمي الذي يكون به ممثِّلاً للإسلام بحسب الممكن بشريّاً وظرفيًا، والذي تكون به المملكة على مستوى الصُّمُود أمام الخضات التي اهتزَّت بسببها مجتمعاتٌ كثيرةٌ أمام ما تقذف به الحضارة الغربيَّة من قيم وثقافة ، ولقد وجد الملك عبد العزيز العون والتجاوب الحيَّ من العلماء ومن شعبه الوَاعي بجلال العمل الذي يقوم به .

وكانت الثمرة وجود مجتمع متميِّز بقِيَمه الإسلامية ، وتقاليده العربيَّة المنبثقة من الفطرة الإنسانية في ظلِّ انحسارٍ لعَامَّة هذه القيم .

إنّ الناظر في هذا المجتمع خاصّةً قبل طوفان العمالة الوافد ، أي حينما كان المجتمع يعكس صورة السّعودي من خلال أفراده ، يجد لوحةً متماسكةَ الخطوط من القيم والتقاليد النبيلة السَّامية التي ما تزال عامرةً بفضل الله .

- فالتديّن سمةٌ عامةٌ للمجتمع على المستويَيْن الرَّسمي والشعبي في تجلِّيات عديدة، حرصاً على الفروض الدِّينيَّة ، وبالذات صلاة الجماعة ، وسؤالاً عن أحكام الدّين، واستتاراً بالمعصية، ونفوراً من أهل الفسق المبغضين للدين، وتعاوناً على إقامة المعروف وتقليل المنكرات ، والشعور بمخاطر الفساد والإلحاد .

- وهناك قيمةٌ أخرى يمكن تسميتها « العقلانيّة الشّرعيّة » ، وتتمثّل في الحرص على الثقافة الشّرعيّة ، والوعي الشّمولي للإسلام ، واحترام العلم والعلماء ، ورفض الخرافة والدَّجَل كهانةً وعرافةً وسحراً . . إلخ .
- الرّوح العمليّة حبّاً للعمل واندفاعاً في سبيله ، واستهجاناً للقعود والكسل ، واعتباره خللاً في شخصيّة صاحبه .
- الرّجولة : وهي شعور الرَّجل بكرامته ؛ أي مسؤوليته الإنسانية في علاقاته ؛ في علاقته بالمرأة إحسانا للقوامة عليها وطيبا في العشرة معها وتحملا لجوانب الضعف فيها وكذلك مع الأقارب بالتواصل معهم ، والشعور برابطة الرَّحِم حتى ولو أثرى الإنسان ، أو علا منصبه ، فمن العيب في حسِّ المجتمع ذلك التقاطع العائلي الواقع في مجتمعات أخرى بين ذَوي الرَّحِم ، أو حتى بين الآباء والأبناء والإخوة مع بعضهم .
- الخيريّة التي تبعث على التعامل بالحبّ مع الآخرين ، ونسيان الإساءة بعد مضيِّ وقتها ، وقد ضرب الملك عبد العزيز -رحمه الله- المثل الرَّائع حينما أصبح أعداؤه الذين حاربهم وحاربوه من أكابر جلسائه ، وأخصِّ أصفيائه ، وكان هذا الموقف مبنيّاً على قيمة خيريّة أخرى هي : أنّ إكرام الشّخص « الكريم » يأسره عن أيِّ فساد أو غدر [1] .

ومن هذه الروح الخيريّة : إفاضة الخير بالصّدقات والتبرّعات في

(١) على حدّ قول المتنبّي :

إذَا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإنْ أنْتَ أكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

حيث سئل الملك عبد العزيز : كيف تُمكّن لهؤلاء - أناس كانوا ضده ثم أصبحوا معه - من السلاح يحاربون معك وهم أعداؤك الذين كانوا حرباً عليك ؟ قال :

« لم أتركهم يحاربون بجانب إخواني وأبنائي وعشيرتي إلا بعد أن وثقتُ أنّ إخلاصهم لي يشابه إخلاصكم ، ولا يختلف عن إخلاص أيّ واحد من إخواني وأبنائي » . انظر : صور من حياة عبد العزيز ، طلال بن عبد العزيز ، ص ٩٧ ، إعداد كمال كيلاني ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ ، الرياض .

الصَّالح العام ، كبناء المساجد ، ونشر العلم ، وفي المسالك الخاصّة للمحتاجين .

- الحياء والحشمة وحفاظ المرأة على عفافها من أدناس الفُحش والرّذيلة ، حيث بقيتْ هذه الأدناس التي أصبحتْ وضعاً طبيعيّاً في كثير من المجتمعات المعاصرة صوراً مستقذرةً في هذا المجتمع ، سواءٌ كانت زناً ، أو صداقةً بين الرجل والمرأة الأجنبيّة عنه ، أو اختلاطاً مريباً ، أو سفراً للمرأة بدون محرمٍ ونحو ذلك .
- المشاعر النافرة من الخبائث المتقذر منها خمراً وخنزيراً واحتضاناً للكلاب ونحوها .
- شيوع الآداب الشَّرعيّة في حركة الناس وتعاملهم في أكلهم ولباسهم وتحيّتهم ، واحترام الكبير فيهم . . .

هذه نماذج لمفردات من القيم والتقاليد ذات الصّبغة الشرعيّة والأصالة الفطريّة التي تمثِّل قوام المجتمع السُّعودي المعاصر ، ولا ريب أنّ في مجتمعات المسلمين من هذه المفردات نماذج تقلّ أو تكثر ، لكن أهمّ ما يتفرّد به المجتمع السّعودي أنّ هذه القيم تُمثِّل توجُّهَهُ العام من جهة ، وأنّ النظام الحاكم -من جهةٍ أخرى وأهمّ- يتبنَّى تثبيتها وحمايتها في المجتمعِ :

- تثبيتها بالدعوة إليها ، وتضمينها مناهج التعليم الدراسيّة ، وتشجيع الناس على ممارستها ، وتقديرهم لأهلها .
- وحمايتها من خلال وضع النظم الحافظة لها ، كمنع الاختلاط في التعليم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن خلال ردع من يخترقها ويستهتر بها .

وهذه النقطة - أعني دور الدولة في رعاية القيم وحمايتها وكونها التوجُّه

العام - هي التي يعنينا إبرازها ؛ لأنّها تبقي صمام الأمان للمجتمع ، وإلا فالاختراقات الفرديّة لهذه القيم موجودةٌ ، وقد وضحت بتأثير الطّفرة الماديّة التي حدثتْ قبل عقدين من السِّنين ، وما صاحبها من امتزاجٍ بالشُّعوب الأخرى بالسَّفر إلى الخارج أو عن طريق العمالة الكثيفة الوافدة فضلاً عمَّا تنقله وسائل الإعلام من صورٍ حياتيّةٍ ممثّلة أو حقيقيّة لا تقيم وزناً لتلك القيم .

ولكنّ الإيمان والقناعة لدى العلماء ورجال الدولة - ولدى عامة شعب المملكة المؤمن - بأنّ هذه القيم تمثِّل جزءاً من شخصيّتها الإسلامية التي تفخر بها أمام المجتمعات الأخرى ، بل تمثِّل أساساً من أسس بنائها الحضاري ، الذي يعطي الأولويَّة للإنساني على الماديِّ ، هذا الإيمان وهذه القناعة هو الحافز على التزام الدولة برعاية هذه القيم ، وتضمين كلّ خطّة أن تطبّق بنودها في « إطار القيم الإسلاميّة » و « تقاليد المجتمع السعودي الأصيلة » .

وقد أخبر الرَّسول ﷺ في أحاديث كثيرة أنّ وقوع المعاصي الفرديّة وخاصّةً إذا استتر بها أصحابها لا يسحب البلاء على المجتمع ويمحق إنسانيّته ، ويجلب غضب الله عليه ، وإنّما يحدث ذلك إذا تواطأ المجتمع على انتهاك القيم ، وهتْك الحرمات ، وأُعلنتْ الرَّذيلة ، وأُقرَّت من السُّلطة الاجتماعيّة ، وحُوربَتْ القيم الفاضلة إعلاماً وقانوناً ، فهاهنا -والعياذ بالله- يحيق مقت الله بالأمة ، وتُمْسَخُ شخصيّة المجتمع الإنسانيّة ، ويصبح مهبطاً لعقوبات الله المعنويّة والماديّة ، وينحدر حضارياً .

ومن ذلك حديث السَّفينة المشهور : « مَثَلُ القائمِ في حُدُود الله والواقع فيها كمثل قومٍ اسْتَهَمُوْا في سفينة ، فكان بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا مَرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خَرَقنا في

نصيبنا خرقاً فلم نؤذ مَنْ فوقنا ، قال ﷺ : فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا علَى أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً »[1] . وكذلك قوله ﷺ فيما رواه ابن ماجه : « لم تظهر الفاحشة في قومٍ حتى يُعلنوا بها إلا فَشَا فيهم الطّاعونُ والأوجاع التي لم تكنْ مضتْ في أسلافهم »[2] .

وأخبر الرّسول ﷺ أنّ بني إسرائيل حينما بدأ فيهم الانحراف والوقوع في المعاصي كان أولو الأمر من العلماء ينهونهم وينكرون عليهم ، ولما شاعت المنكرات حتى استمرأ وجودها العلماء أنفسهم ، فكانوا يجالسون أهلها ، ويؤاكلونهم ويشاربونهم دلالةً على الرّضا عنهم ، عند ذلك « ضرب الله قلوب بعضهم ببعضٍ ولعنهم »[3] .

والمقصود أنّ الموقف الإيجابي من السُّلطة الحاكمة والسُّلطة العلميّة في مجال الحفاظ على القيم السّامية التي بها حياة المجتمع ميزةٌ كبرى للمملكة العربيّة السعوديّة تتفرَّد بها بين مجتمعات الأرض ، وأنّ الاختراق الشّاذَّ لشيءٍ من أفراد هذه القيم - وإن كان من واجب السُّلطة درؤه ووقاية المجتمع من تلويثه - إلا أنّه لا يستطيع تذويب هذه القيم وإسقاط المجتمع في هوَّة التحلُّل والفوضى الخلقيّة ، ما دام توجّه السّلطة والعلماء وعامة الشعب رافضاً ومقاوماً لهذا التذويب .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الشركة ، الباب السادس ، ٣/ ١١١ .

(٢) سنن ابن ماجه بتحقيق محمد مصطفى الأعظمي ، ٢/ ٣٨٥ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ . ونقل المحقق قول البوصيري : « هذا حديث صالح للعمل به » .

(٣) من حديث رواه الترمذي في سننه رقم (٣٠٥٠) ، باب تفسير سورة المائدة من أبواب تفسير القرآن ، وحسّنه .

ثانياً : التُّرَاثُ

التُّـراثُ هو حسب الاصطلاح المعـاصـر : الآثار التي خلفهـا السَّابقـون للاحقين في المجالات الثقافيّة والمدنيّة في وجوه الحياة المختلفة ، وفي العالم العربي يتداخل وصفا « الإسلامي » و « العربي » للتراث الخاص بالأمة العربيّة .

وقد عانى المسلمون في عامة مجتمعاتهم مشكلةً مع التراث (تراثهم) في بناء وجودهم في العصر الحديث .

والسَّبب الأساس في إحداث هذه المشكلة هو الغرب استشراقاً واستعماراً بالدرجة الأولى ، ووجوداً حضاريّاً سائداً بعد ذلك .

لقـد سعى الغرب الاستشـراقي والاستعـماري إلى تحطيم تراث الأمـة وتشـويه صـورته في عـقـول أبنائه ، وألقى في روعـهـم أنّه لا يمكن الجـمع بين التمسُّك بهذا التراث وامتلاك الحداثة الحضـاريّة ، وحينما استعمر كثيراً من البلاد الإسلاميّة جعل لغاته هي اللغة الرَّسميّة للدولة ، وأمات لغاتها الأصليّة حتى سعى في بعض الدول لجعل لغتـه هي لغـة الحـديث والمفـاهمـة ، واهتمَّ بالدراسات المَعْنيَّة بتاريخه وحضـارته ونظمه على حساب الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة ، وَنَقَل إلى البلاد المستعمرة نظمه الإداريّة والقانونيّة ، وحارب النظم الوطنيّة ، سواءٌ كانت الشريعة أو الأعراف السَّائدة أو كليهـمـا ، كمـا أنّه حارب تطوير النظم التعليميّة الموروثة واضعاً بجانبها نظمه التعليميّة في منافسةٍ ، منحازاً فيها للثانية على حساب الأولى لتذوب وتموت [1] .

نتيجـةً لهذا ولعزل أبناء المسلمين عن تراثهم ، تحوَّل هؤلاء الأبناء حتى بعد رحيل الاستعمار إلى جنودٍ يحاربون تراثهم وهم لم يعرفوه ، ويمجِّدون

(١) انظر : في معركة التراث ، لعون الشريف قاسم ، ص ٥٧ ، ١٤٠٠هـ ، دار العلم ، بيروت .

الحداثة الأوربيَّة في كلّ مجالات الحياة دون أيّ جهود إبداعيّة تشارك في تكييفها مع بيئتهم ، وأنَّى لهم هذه القدرة الإبداعيّة وقد ظلّوا تلاميذ في دراستهم وفي تدريسهم ، وفي نقلهم وترجماتهم لتلك الحضارة، وقد يفيق بعضهم بعد فترة الشباب بدافع الحنين الداخلي لأمته ، ويشعر بمنطق فلسفيٍّ أنّ الهويّة للفرد وللأمّة لا تتشكَّل إلا من خلال تراثها ولات ساعة جهدٍ يفيد ، فلا هو بعارفٍ بتراثه، ولا بمستطيع التحرُّر من الحالة التغريبيّة التي بنى وجوده عليها[(١)] .

وحينما حاول بعضهم صادقاً التعاملَ مع التراث وجدوا أنّه قد أقيم بينهم وبينه حاجزٌ يصدمهم عن التفاعل معه والعيش في رحابه ، ووجدوا أنّ دراساتهم القانونيّة والإداريّة جعلتهم يعيشون لغةً ومصطلحات ومناهجَ غريبةً تماماً عن مصطلحات ومناهج تراثهم العلمي في الشَّريعة والنظم[(٢)]، ووجدوا أنّ أنماط الحياة الأصيلَة في تراثهم ؛ وازعاً ذاتيّاً عن المحارم، وحشمةً وعلاقات أخويّة ونحوها انسحقتْ تحتِ أنماط الحياة الوافدة المضادَّة لها .

أمَّا أبرز صور التفاعل مع التراث للمتأثّرين بالتغريب فإنّها :

- صورة الانتقاء السَّيِّئ لجوانب من التراث ، أملى اختيارَها التوجيهُ

---

(١) يوجد كثيرٌ من هذا النمط ، ولعلّ من أبرزهم فلسفةً لهذا الموقف : الدكتور زكي نجيب محمود، الذي ذكر في كتابه " تجديد الفكر العربي " : « لم تكن قد أتيحتْ لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصةٌ طويلةُ الأمد، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحدٌ من ألوف المثقفين العرب الذين فتحتْ عيونهم على فكر أوربي -قديم أو جديد- حتى سبقتْ إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكرَ سواه؛ لأنَّ عيونهم لم تفتح على غيره » ص ٥، الطبعة السادسة، ١٤٠٠هـ، دار الشروق .

(٢) لعلّ قصّة عبد القادر عودة حينما أراد بحث القضايا الجنائيّة في الفقه الإسلامي فتعب، ولم يفهم حقّ الفهم، حتى أجهد نفسه، وعاد يتعرَّف مناهج الأصوليين والفقهاء في دراسة المسائل، حتى لانتْ له صعابها، مثالٌ على ذلك . انظر : التشريع الجنائي الإسلامي ، لعبد القادر عودة، ١/ ٩-١٠ ، دار الكتاب العربي، بيروت .

الاستشراقي ، ومن ثمَّ الفكر الاستغرابي عند المسلمين ، فأساؤوا إلى مجتمعاتهم وأمتهم بهذه الاختيارات .

ففي فورة الوطنيَّات الضَّيِّقة اتجه عديدٌ من الأفراد والأحزاب لبعث التراث الفرعوني والأشوري والفينيقي والبربري لبناء حاضرِ المجتمعات المسلمة ، التي وجدتْ هذه الحضارات في أرضها .

وفي فورة الاشتراكيات العربيّة أبرزتْ حركات الرَّفض التي خرجتْ على المسلمين في التاريخ الإسلامي ، مثل حركة الزنج والقرامطة والحشَّاشين وغيرها .

أو انحصر الاهتمام بالتراث بجوانبه الشَّكليّة العمرانيّة والفنيّة والفلكلوريّة دون قضايا التصوّر والنظم ونحوها من أساسيات الوجود الإنساني ومشكّلات ثقافته .

- الصورة الثانية : تتمَثَّل في تكييف التراث ليكون خادماً للحاضر ، أي صياغة التراث صياغةً جديدةً حتى ولو ناقضتْ حقيقة التراث من أجل تأييد أفكار معاصرة ، أو تحسين أوضاعٍ قائمة[1] .

هذه الحَالة التي تَمثَّلتْ في أزمة تعاملٍ مع تَراث الأمّة لم تكنْ محصورةً بنخبة مثقَّفة تتطارحها في كتابات فكريَّة وصحف متخصّصة ، وإنما هي أزمةٌ مُخَيِّمةٌ عانى منها عموم المسلمين أَحزاباً وحكومات ونَاشئةً مُبَلْبَلَةَ الفكر ، ممزَّقةَ الوجدان بين تراثها وحاضر غيرها اللذين يَهزَّان بتناقضهما أعماق هذا الوجدان .

(١) يمكن الإشارة إلى منهج الدكتور الجابري في كتابه : نحن والتراث ، ص ١١ ، ٦٢ ، وإلى الدكتور زكي نجيب محمود سالف الذكر في كتابه نفسه .

المملكة العربيّة السعوديّة والتراث :

لمعرفة موقف المملكة علماء وقادة من التراث وفق المنهجية التي تتعامل معها مع سائر القضايا ينبغي أن نتبين أن التراث يتمثل في خطوط عديدة، أبرزها :

- تعاليم الوحي المتمثّل بالقرآن الكريم والسنة الثابتة عن الرّسول ﷺ .
- العلوم التي انبثقتْ من الوحي وتطوَّرتْ في إطاره مثل علم الفقه .
- الفكر الفلسفي والكلامي « علم الكلام » .
- الفكر الباطني الغنوصي .
- القيم الاجتماعيّة أعرافاً وتقاليد .

ولا ريب أنّ هذه الخطوط فكراً وقيماً تمثّلُ كمّاً كبيراً يحمل من التناقض والزمنيّة الشيء الكثير ، مما يُحتِّمُ عمليّة الانتقاء ، وهنا تأتي مسألة فرز هذا التراث إلى نمطين :

الأوّل : ما يُشكِّلُ شخصيّتنا وهويّتنا ، ويحدد معيار انتقائنا .

الثاني: ما نتحكّم فيه نحن بواسطة ذلك المعيار .

والنتيجة المنطقيّة لتحديد النمط الأوّل من خطوط التراث السَّابقة لدى ابن المملكة ، بل لدى كلّ مسلم هي : أنّ الخطَّ الأوّل المتمثّل بتعاليم الكتاب والسنة هو الجانب الذي يحدّد من التراث[1] -بالدرجة الأولى- هويّتنا ومعيارنا.

وإذا ضممنا إلى هذه التعاليم أصدق تمثيلٍ بشريٍّ لها فهماً وتطبيقاً وهو

---

(١) هل الوحي يُعَدُّ تراثاً أو لا يُعَدُّ فيُحصر التراث في الإنتاج البشري ؟ خلافٌ بين الباحثين، وهو لفظي في الأغلب ؛ لأنّ مُدْخليْ الوحي في التراث يجعلونه متميّزاً عن التراث البشري بتنزّهه عن النقص والخطأ . انظر : السّلَفيّة وقضايا العصر ، للمؤلّف ، ص ٣٢٠، مصدر سابق .

تطبيق الرَّسول ﷺ وأصحابه ، وهو التمثيل الذي توجّهنا إليه التعاليم نفسها : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ويقول الرّسول ﷺ : « عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين ، تمسّكوا بها »[2]، ويقول أيضاً عن وصف الجماعة التي تكون عبر الأزمان أقرب الناس للحقّ هي : « ما كانت على مثل ما أنا عليه وأصحابي » .

بهذه التعاليم وبذلك التمثيل المزكّى منها يتحقّق النمط الأول الذي به ، وبه وحده تتحدَّدُ الشخصيّة الحقيقيّة للمملكة العربية السعوديّة وهويّتها ، ليس لأنها لم تعرف تراثاً مجيداً منذ تشكّل عنصرها العربي الحضاري مع إسماعيل وأبيه إبراهيم اللذين أشادا - عليهما السلام - منارَ التوحيد في هذه الجزيرة ، وبَنَيَا البيت الذي سيظلُّ مثابةً للناس وأمناً ، والذي تمثل خدمتها له ورعايتها للملايين الهاوية إليه ورفادتها إحدى مفاخرها ، ولا لأنّ فيها ظهرتْ الرسالة الخاتمة للبشريّة كافةً ؛ حيث من هذه الديار من مكة المكرمة كان إشعاع الهداية الإلهيّة للأرض كلّها ، وإليها - إلى طيبة الطيِّبة فيها - يأرز الإيمان[3]، وبها مسجد الرسول ﷺ ومثواه ، بلْ لهذه الأساسيّات كلّها ، ولأنّ هذه المملكة وريثة الدّعوة التي أبرزتْ بشكلٍ جادٍّ وعمليٍّ هذا النمط المتميّز من التراث في وقت كان هو النمط المتراجع في كثيرٍ من ساحات الفكر والعمل في المجتمعات الإسلاميّة .

لهذا أصبح هذا النمط لصيقاً بهذه الدولة حتى صار أبرز معالم شخصيّتها التي لا تنفكُّ عنها .

---

(١) الآية رقم (٢١) من سورة الأحزاب .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة برقم ٤٦٠٧ في ٤/ ٢٠١ ، والترمذي في سننه ، كتاب العلم ٤/ ١٥٠ ، وقال عنه : « حديث حسن صحيح » .

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل المدينة ، ومسلم كذلك في صحيحه في كتاب الإيمان . انظر : جامع الأصول ، ٩/ ٣٣٣ .

بهذا النمط = المعيار= المنهج السَّلفي انفتحتْ المملكة على التراث ، لا الإسلامي فقط ، بل الإنساني كلّه ، وتعاملتْ معه طامعة من خلال هذا المنهج أن تكون مواقفها سليمة وتعاملها مع القضايا إيجابيا .

ولاريب أن اتخاد هذا الأسلوب في التعامل مع التراث يجعله قوة للنفس، وثقة في الحركة، وعبرة بالأحداث، وأنه يساعد بقدر كبير على تجاوز جوانب القصور التي يقع فيها من لم يأخذ به فرداً أو مجتمعا .

إنه منهج التوازن في التعامل مع خطوط التراث المتعدِّدة لا بالنفي الكُلِّي والقطيعة الشاملة، ولا بالتعصُّب الآبائي غير الواعي، ولا بالانتقاء العشوائي المتخبِّط، وإنما بالمعيار الذي يفرز السَّليم من غيره؛ ليستثمر الأوّل، ويتَّقيَ آفة الآخر.

والمتأمل في مواقف الملك عبد العزيز من قضايا السياسة أو غيرها يجد أنه سعى للتوازن بين النظرات الآخذة بطرف من هنا أو هناك :

مثلاً القوميّة : مصطلح استخدم حديثاً في البلاد الشرقيّة العربيّة لاتجاه يسعى لتشكيل شخصيّة عربيّة منفصلة عن الشخصيّة التركيّة ، ولا يكون هذاً الانفصال إلا باستبعاد الجامع بينهما وهو الإسلام ، فكانت لدى هؤلاء مضادّةً للإسلام، مما حفزَ المقابلين لهم لرفض هذا الاتجاه، ومن ثمَّ إنكار أيّ خصائص قوميّة للعرب، حتى أصبحتْ لفظة القوم والقوميّة تثير حساسيةً وتساؤلاً لدى الناس ، لكن الملك عبد العزيز كان يقول واثقاً من نفسه والتزامه الديني : « الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا وعروبتنا وقوميّتنا »[1] .

---

(١) السّعوديون والحلُّ الإسلامي ، ص ٣٣، مصدر سابق .

لقد أصبح هذا المنهج في التعامل مع التراث الإنساني كلّه لا مجرّد مسلك قيادي للحكّام أو العلماء ، وإنما وعياً عاماً في المجتمع ، تَرَبَّى عليه دراسةً وتربيةً دينيّةً حتى صار الناشئ بحدسه الفطري والدِّيني لا يجد حساسيةً من الإعجاب بخصلة الكرم ، التي تعرض له من خلال شخصيّة حاتم الطّائي ، الذي مات قبل الإسلام ، ولا من الحديث عن الاختراعات المفيدة للبشريّة من قبل أديسون الغربي الكافر ، ولكنّه ينزعج ويرفض -مثلاً- تهجُّم أبي بكر الرازي على النبوّة والأنبياء، وينكر الدّعوة المجونيَّة المنسوبة إلى عمر الخيام ، ويمقت حركة القرامطة التي شَوَّهتْ الإسلام وأساءتْ لمقدّساته وأهله . . . إلخ .

وعلى هذا المنهج المعياري أيضاً تكَوَّن لدى الإنسان جدِّيَّةٌ فكريَّةٌ ونفسيَّةٌ في التعامل مع التراث ، تنظر إليه من الزاوية العقديّة الفكريّة ، ولأنّ الإسلام -الوحي الإلهي- قد أمدَّ هذا الإنسان بالغناء الوافي في هذا المجال، مما يجعله ينظر إلى كلّ جديدٍ بشريٍّ تراثيٍّ أو غيره بصفته ثانوياً تابعاً .

لذا فإنه لا تدهشه هذه المكتشفات التراثيّة بالصّورة التي توجد لدى غيرها .

أيضاً فإنّ مما يُشَار إليه أنه إذا تحدث حاكمٌ أو عالمٌ عن « تراثنا » أو « تاريخنا المجيد » أو « أسلافنا العظماء » أو « ما ورثناه عن أجدادنا » أو نحو ذلك من العبارات ، فإنّ المقصود بهذا التراث ما ذكرنا من المنهج الذي سار عليه صحابة رسول الله ﷺ مرتكزاً على تعاليم الكتاب والسنة ، والذي حمله بعدهم العلماء والمصلحون والولاة من أهل السنة ، الذين خدموا الإسلام وجاهدوا في سبيله ، ونشروا دعوته على مَرِّ القرون ، ولا يدخل في ذلك الأفكار الشَّاذَّةُ عن الإسلام ،

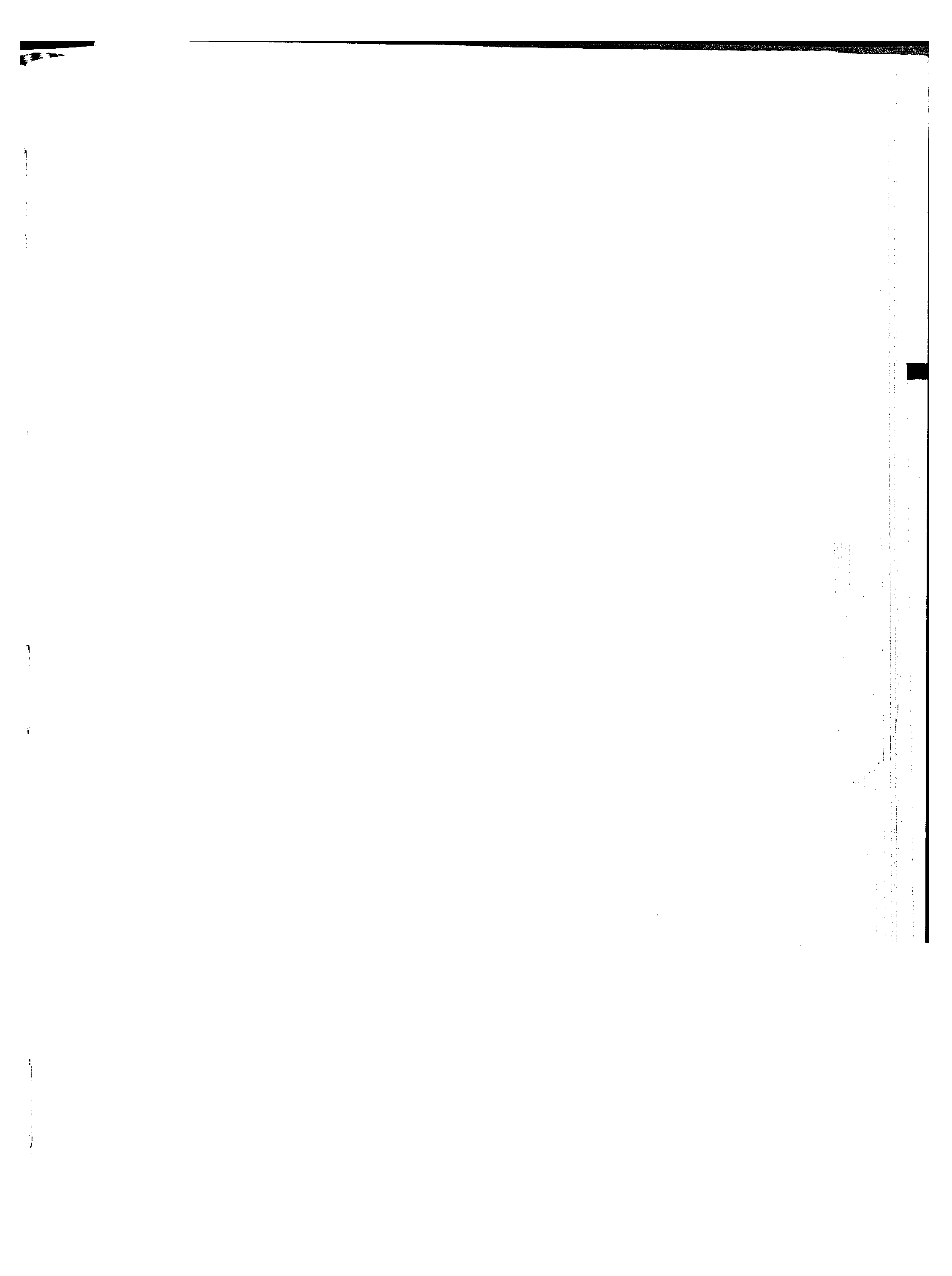
ولا الحركات والاتّجاهات التي خرجتْ على الدين وجماعة المسلمين ، وأعاقتْ حركة الجهاد والفتوحات ، فكلّها ندوبٌ في تاريخنا الإسلامي[1].

---

(١) وهكذا تبتدئ من تعاليم الوحي لتسير حركة التراث ، أو تنظر في التراث لترتد إليها . . . في حديث لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد للحجاج عام (١٤٠٦هـ) يتحدَّث عن واقع الأمة ثم يعرج على التّراث لاستلهام العبرة منه يقول : « إنَّ تاريخ هذه الأمة الإسلاميّة العظيمة حافلٌ بأروع القصص ، وزاخرٌ بالأمجاد والانتصارات ، ولو عُدْنَا إلى سيرة الآباء والأجداد وتتبَّعنا مسيرة قادتنا الأشاوس منذ فجر الإسلام ، لعرفنا أسباب ما نحن عليه اليوم من الفرقة والضياع ، فالنصر على أعدائنا – يا إخوة الإيمان – لا يكتب لنا إلا إذا نحن نصرنا الله ، وذاك هو وعد الله في قوله تعالى : ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ الآية رقم (٧) من سورة محمد ». انظر : كلمات منتقاة ، ص ١٩٧ . مصدر سابق .

الفصل الثاني

العناصر العمليّة لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة العربيّة السعوديّة



المبحث الأوّل

النظام الأساسي للحكم

لكل أمة نمط حياتها الخاص بها، الذي به يكون تميزها عن غيرها من الأمم والمجتمعات؛ يتمثل هذا النمط في تصورات وقيم وأعراف وتقاليد في التعامل والحركة، فإذا قامت في هذا المجتمع دولة « حكومة » منبثقة منه، فإنها في الغالب تصوِّر قواعد نظامها الحاكم لأدائها وتعاملها من ذلك النمط الخاص، هذه القواعد للنظام الحاكم هي ما يطلق عليه في العصر الحديث « الدستور ». فالدستور هو « مجموع القواعد الأساسيّة التي تقرِّرُ نظام الحكم للدولة وسلطة الحكومة ... كما تبيّن حقوق الأفراد وواجباتهم »(١).

والدستور هو أعلى الأنظمة مقاماً، سواء كان عرفيّاً أو مدوّناً؛ ولهذا في حالة تعارض نصوصه مع القوانين العادية تكون الغلبة للدستور.

والدساتير نوعان:

- نوعٌ عرفيٌّ يحكم المنهج السِّياسي في مجتمعٍ مَّا من خلال أعراف المجتمع وقناعاته الرَّاسخة المنبثقة من تقاليد متوارثة، أو مذهبيّة فكريَّة أو دين.
- النوع الثاني: الدستور المكتوب المُسَطَّر على هيئة موادّ مُسَلْسَلَة ومُفَرَّعَة.

وغالباً ما يكون الثاني تقريراً وإبرازاً للقانون العرفي غير المدوَّن كنوعٍ من التطوير والضبط في مراحل متقدّمة من الدولة.

وعلى الرغم من وحدة الفطرة بين البشر ووجود القيم الإنسانيّة المشتركة، إلا أنهم نتيجةً لعدم الوقوف مع فطرهم، والخروج على هدايات الأنبياء التي

---

(١) القاموس السياسي، لأحمد عطية الله، ص ٥٢١، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م.

تتابعتْ لتردَّهم إلى هذه الفطر ، وترسم لهم المنهاج المستقيم ، فقد تباينتْ دساتيرهم على مرّ العصور .

وفي العصر الحديث سادتْ وجهتان كبيرتان بنَتْ كثيرٌ من الدول على واحدة منهما دستورها ؛ هاتان الوجهتان هما :

- الاتجاه اللِّيبرالي الذي يتبدَّى في « الشكل الديمقراطي الحرّ للدولة » يرتكز « على الإرادة الشعبيّة وإنكار الإرادة الإلهيَّة، ووسائل هذا النظام الديمقراطي الحرّ مُعَدَّةٌ ومهيَّأةٌ على أساس إعلاء السُّلطة الشعبيَّة كمصدر للتشريع ، وأنّ الشعب هو وحده مصدر السُّلطات»[1] .
- الاتجاه الاشتراكي ، ويقوم هذا الاتجاه على مذهبيّة عليا تسيطر على المجتمع، ومنها وعلى أساسها تنبثق الاشتراكيّة للدولة والقوانين .

ومع أنَّ المذهبيَّات الاشتراكيَّة متفاوتةٌ من الشُّيوعيّة يساراً إلى الاشتراكيَّات المختلفة يميناً، إلا أنَّ المظلَّة العامة التي تستوحيها الاشتراكيّة عموماً هي : المذهبيّة الماديَّة التي تفسِّر الوجود تفسيراً مادياً ، وتجعل حركة التاريخ بما فيه من ثقافة ودين ونظم مجرَّد انعكاسات للتحوّلات الماديّة فيه مما يجعل المادّة ممثَّلةً في العامل الاقتصادي هي الإله المتحكِّمُ في الوجود بما فيه الإنسان[2] .

وهاتان الوجهتان تمثلان فلسفتين مناقضتين للإسلام في أصل مبدأيهما، حتى ولو اتفقتا معه في بعض الجزئيات .

فاللِّيبراليّة القائمة على جعل الشعب مصدر التشريع تناقض مبدأ التوحيد الذي يقضي بأن يكون مرجع الحكم والشّريعة وحي الله المتمثِّل بما جاء به

(١) مصنَّفة النظم الإسلاميّة ، لمصطفى كمال وصفي ، ص ١٦٣ ، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

رسوله ﷺ من قرآن وسنّة : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[1] .

والاشتراكيَّة القائمة على فلسفة تنكر وجود الله كما في الشيوعيَّة ، أو لا تنكره ، ولكنّها ترفض الإيمان بألوهيّته والانصياع لشرعه ، وتحارب الجانب الرُّوحي والعبادي الذي أعلى شأنه مناقضةٌ للإسلام ، الذي عماده الإيمان بالله وحده ، وإخلاص العبوديّة له ، والتَّحاكمُ إلى شريعته ، وعدم التشريع شيئاً من دونه .

لقد توزَّعتْ عامة دول العالم على هذين الاتجاهين في القرن العشرين ، وإن كانت الرِّيحُ الآن لصالح الاتّجاه اللِّيبرالي بعد سقوط الشُّيوعيّة .

أما العالم الإسلامي الذي بُلِيَ بالاستعمار وذوي التوجّه التغريبي من أبناء المسلمين ، فقد جاءتْ دساتير دوله « متأثِّرةً بخليطٍ من مبادئ النظامين : اللِّيبرالي والاشتراكي »[2] .

ولا مراء أنّه بُذلتْ جهودٌ في كثيرٍ من دول العالم الإسلامي خاصّةً بعد مرحلة الاستعمار لتقريب هذه الدول نحوَ الإسلام من قبل العلماء وذوي الغيرة الدِّينيّة ، مفكِّرين أو مسؤولين في سلطات بلادهم ، ولكنّ أغلبها لم يستطع التخلّص من الانحراف الناتج عن التبعيّةَ لأحد ذينك النظامين : اللِّيبرالي والاشتراكي ، حتى جمعت بعض الدساتير المتناقضات ، كالنصّ في أولى موادّ الدستور : أنّ الشريعة الإسلاميّة المصدر الأساس للتشريع ، أو مصدرٌ أساسٌ ، ثم في حقوق الشعب بجعلهم مصدر التشريع من خلال ممثِّليهم[3] .

---

(١) الآية رقم (٦٥) من سورة النساء .

(٢) مصنفة النظم الإسلامية : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، الصفحة نفسها وما بعدها .

بين هذه الأنماط المختلفة جاء النظام السّعودي في الحكم متميّزاً في دستوره غير المُدَوَّن، متميِّزاً في نوعه، ومتفرّداً بإسلاميّته، يقول الملك عبد العزيز : « عليَّ جعل الحكم في هذه الديار بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ لا يد طائلة عليكم اليوم، فكتاب الله فوق الجميع »[1].

ويقول أيضاً : « دستوري وقانوني ونظامي وشعاري دين محمّد ﷺ، فإمَّا حياةٌ سعيدةٌ على ذلك ، وإمَّا مَوتةٌ سعيدةٌ »[2].

هذا هو الاتجاه المحدد الذي عليه ترتكز قواعد النظام العام للدَّولة السعوديَّة ومن ثمّ سائر نظمها، استمدادٌ من تعاليم القرآن والسّنَّة، وخضوعٌ لهما من قبل السُّلطة وإخضاعُ حركة المجتمع لهما.

والفرق كبيرٌ بين هذا الاتجاه وتلك الاتجاهات الوضعيّة :

– « أنّ التشريع هنا آت من الله ورسوله المعصوم، أمَّا الدساتير العرفيّة والفلسفيّة فهي خليطٌ من آراء الناس –أو قلَّة من الناس– وفي آراء الناس من الهوى والضعف والانحياز النفعي والمؤثِّرات التربويَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة والمذهبيَّة والعرقيَّة ما يجعل الدستور « صياغةً فنيَّةً » لهذا الخليط .

– أنّ الأحكام الشرعيَّة التي يكلَّف الحاكم تنفيذها لا تبدَّل ولا تنقض، وفي ذلك من الاستقرار وضمان المصالح ما فيه .

– أنّ الوفاء للبيعة مرتبطٌ بالعقيدة والإيمان .

– أنّ الإلزام والالتزام –استجابةً وتنفيذاً– طاعةٌ لله وقربى إليه »[3].

---

(١) من شيم الملك عبد العزيز، فهد المارك، ٣/ ١٢٢، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

(٢) الملك الراشد ، عبد المنعم الغلامي، ص ٣٨٢، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ، الرياض .

(٣) الملك عبد العزيز والمملكة العربيّة السعوديّة ، بتصرفٍ يسيرٍ ، ص ٦٩ ، مصدر سابق .

. . . إلى آخر الفروق المباينة بين هذا الاتجاه وما يقوم عليه من دستورٍ وقوانين وغيره من الاتجاهات .

وهناك فارقٌ واقعيٌّ بين الاتجاه المتبنِّي للشريعة، المتمثِّل في النظام السّعودي والنظم التي تبنَّتْ مذهبيَّات أخرى أقامتْ عليها دساتيرها، وحملتْ عليها شعوبها المسلمة .

فالإسلام بقيمه وشريعته هو قاعدة الهويَّة، ومنبع التصوُّرات والأخلاق في المجتمعات المسلمة، والمنطق السَّليم هو أن تكون الدولة خادمةً لهويَّة الناس، مرتكزةً على مسارها القِيَميِّ السَّليم، لا أن تحيل نفسها إلى إله يفرض على الناس ديناً محدثاً غير دينهم، ولهذا كان الخلفاء الراشدون يعلنونَ أنّهم متَّبعون غير مبتدعين، وتعاقبت الدول الأمويَّة والعبَّاسيّة . . . تعلن حملها للشريعة، وخدمتها لأهلها ودينهم .

وفي القرن العشرين ظهرتْ في العالم الإسلامي دولٌ جعلتْ من سلطتها إلهاً مشرِّعاً، ومرجعاً لتحديد القيم والهويَّة، وحاربتْ في سبيل ذلك دين الشُّعوب وقيمها الإسلاميَّة، التي كان المفترض أن تكون خادمةً لها، فكانت النتيجة سيِّئةً للغاية، فالدول نفسها حاق بها الاضطراب والتذبذب، والشعور بالصِّراع الجذري مع شعوبها، والالتهاء بذلك عن الجهود البنائيَّة، فضلاً عن الضياع، حيث لم تصبح وفق مذهبيَّتها التي اختارتها، ولم تحسن العودة إلى مذهبيَّتها الإسلاميَّة المتروكة .

أمَّا الشّعب فقد تاه هو الآخر بين تراث عريق يشعر بتجذُّره في أعماقه، وقيَم يوقن بسموِّها فوق كلِّ القيم، وبين وجهةٍ مناقضة لهذا التراث والقيم مفروضة عليه، فأصبح إمَّا مُتوزِّع النفس، شقيَّ الرُّوح بين هذين المتناقضين،

أو مهووساً بهذه المذهبيَّة الجديدة التي شطتْ به بعيداً عن دينه وأصالته ، فأصابه الاغتراب ، ووقع في معسكر الحرب لدينه وأمته ، أو متشبِّثاً بدينه وقيمه يعيش تحت ظلِّ نظامٍ ، يشعر أنه عدوٌّ له ولدينه ، مما يؤدّي به إلى اعتزال الحياة ، أو إلى النقمة على النظام ، ومن ثمّ الصِّراع معه .

أما الدولة السعوديَّة فإنها بتبنِّيها للشريعة الإسلاميّة مُرتكَزاً للحكم ، وللقيم الإسلاميّة قاعدةً للعلاقات بين أطرافها ، قد وَقَتْ نفسها -دولةً وشعباً- كلّ تلك الشرور ، حيث تتحوّل تلك النتائج السَّلبيَّة إلى ثمراتٍ إيجابيَّة :

- للدولة ؛ استقراراً ، وحسن علاقةٍ بالشعب ، وتوجُّهاً واثقاً نحو البناء النهضوي للمجتمع .
- وللشعب ثقةً وصدقَ ولاء لدولته ، وتفاعلاً إيجابيّاً معها في مشاريعها التنمويَّة المرتكزة على قيمه ودينه ، وأمناً نفسيّاً ، وسعادةً روحيَّةً ، وأخوَّةً إيمانيّةً تزداد بزيادة تأصُّل هذه القيم والشَّريعة في حياته ، حيث التعاون بينه وبين دولته على تحقيق هذا التأصُّل .

حينما نقول : إنّ النظام الأساسي للحكم في المملكة قام على شريعة الإسلام فإنّا لا نقصد الجانب التشريعي العملي فقط ، وإنّما منهج الإسلام بشموله هو القاعدة الكليَّة التي منها انبثقتْ النظم الرئيسة للدولة ، وتتلخَّص هذه القاعدة أو المنهج « في إقامة المملكة العربيّة السعودية -منذ أنشأها الملك عبد العزيز- على **الركائز التالية :**

أولاً : عقيدة التوحيد التي تجعل الناس يخلصون العبادة لله وحده لا شريك له ، ويعيشون أعزَّةً مكرَّمين .

ثانياً : شريعة الإسلام التي تحفظ الحقوق والدماء ، وتنظّم العلاقة بين الحاكم

والمحكوم، وتضبط التعامل بين أفراد المجتمع وتصون الأمن العام .

ثالثـــاً: حمل الدعوة الإسلاميّة ونشرها، حيث إنّ الدعوة إلى الله من أعظم وظائف الدولة الإسلاميّة وأهمّها .

رابعـــاً: إيجاد « بيئة عامة » صحيّة صالحة مجرّدة من المنكرات والانحرافات، تعين النّاس على الاستقامة والصّلاح ، وهذه المهمّة منوطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

خامساً: تحقيق « الوحدة » الإيمانيّة التي هي أساس الوحدة السياسيّة والاجتماعيَّة والجغرافيَّة .

سادساً: الأخذ بأسباب التقدّم وتحقيق « النهضة الشاملة » التي تيسِّر حياة الناس ومعاشهم ، وتراعي مصالحهم في ضوء هدي الإسلام ومقاييسه .

سابعاً: تحقيق « الشورى » التي أمر الإسلام بها ومدح من يأخذها إذْ جعلها من صفات المؤمنين .

ثامناً: أن يظلَّ الحرمان الشريفان مطهَّرين للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود -كما أرادهما الله - بَعيدَيْنِ عن كلّ ما يحول دون أداء الحجّ والعمرة والعبادة على الوجه الصحيح ، وأن تؤدي المملكة هذه المهمّة قياماً بحقّ الله ، وخدمةً للأمة الإسلاميّة .

تاسعاً: الدفاع عن الدين والمقدَّسات . . الوطن والمواطنين والدولة »[1] .

هذه الأصول ارتكزتْ عليها حركة التوحيد منذ باشرها الملك عبد العزيز، وصارتْ الموجِّه لحركة الدولة والضابط لتنظيماتها المتطوّرة بتطوّر المجتمع وعلاقاته ، وانطلاقاً من هذه الأصول صدرت التعليمات الأساسيَّة للمملكة الحجازيّة قبل صدور الاسم الشامل المملكة العربية السعودية - صدرتْ هذه

(١) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، من خطابِ خادم الحرمين الشريفين بمناسبة إصدارها ، ص ٤ .

التعليمات - بأمر ملكي بتاريخ ٢١/ ٢/ ١٣٤٥هـ وهي التعليمات التي تمثِّل قواعد النظام العام للدولة الجديدة.

تكوَّنت هذه التعليمات من أقسام تسعة؛ حددت شكل الدولة وعاصمتها ولغتها، ومنهج إدارتها ومصادر أحكامها والقواعد العامة لأمور المعارف والأوقاف والماليّة والعسكريّة والداخليّة والخارجيّة.. إلخ.

ومن أبرز مواد هذه التعليمات التي تعلن إسلاميّة الدولة في مجال الحكم:

- الدولة العربيّة الحجازيّة دولةٌ ملكيّةٌ شوريّةٌ إسلاميّةٌ مستقلّةٌ في داخليّتها وخارجيّتها.
- إدارة المملكة جميعها بيد الملك عبد العزيز بن عبد الرّحمن آل سعود، وهو مقيَّدٌ بأحكام الشرع الشريف.
- الأحكام تكون دوماً في المملكة الحجازيّة مطبَّقةً على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسّلام، وما كان عليه السَّلف الصالح[١].

وقد أصدر الملك عبد العزيز -رحمه الله- في عام ١٣٧٢هـ أمره بتأسيس مجلس الوزراء[٢].

وفي عام ١٣٧٧هـ في ٢٢/ ١٠ صدر نظام مجلس الوزراء بمرسوم ملكي موضّحاً شكل الدولة وسلطاتها وتوزيع هذه السلطات، فهو مكمِّلٌ لتلك التنظيمات بحسب ما تطوَّرتْ إليه البلاد[٣].

---

(١) التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية، صحيفة أم القرى في العدد [٩٠-٩١] تاريخ ٢٥/ ٢/ ١٣٤٥هـ.

(٢) انظر: أنظمة الحكم والشورى والمناطق، ص ٤.

(٣) انظر تطبيق الشريعة الإسلامية في العصر الحاضر ومعوقاته، د. عبد الله الزايدي.

وفي عام ١٤١٢هـ صدر النظام الأساسي للحكم مرتكزاً على تلك الأصول الراسخة، مثبتاً لما كان قائماً في الواقع من صيغٍ عمليّة تتخذ من الشرع موجهها :

« إنّ عماد النظام الأساسي ومصدره هو الشريعة الإسلاميّة ، حيث اهتدى هذا النظام بشريعة الإسلام في تحديد طبيعة الدولة ومقاصدها ومسؤوليّاتها، وتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والتي تقوم على الأخوّة والتناصح والموالاة والتعاون .

إنّ العلاقة بين المواطنين وولاة أمرهم في هذه البلاد قامت على أسس راسخة وتقاليد عريقة من الحبّ والتراحم والعدل والاحترام المتبادل والولاء النابع من قناعات حرّة عميقة في وجدان أبناء هذه البلاد عبر الأجيال المتعاقبة ، فلا فرق بين حاكمٍ ومحكومٍ ، فالكلّ سواسيةٌ أمام شرع الله ، والكلّ سواسيةٌ في حبِّ هذا الوطن والحرص على سلامته ووحدته وعزّته وتقدّمه ، ووليّ الأمر له حقوقٌ وعليه واجباتٌ . . والعلاقة بين الحاكم والمحكوم محكومةٌ أوّلاً وأخيراً بشرع الله كما جاء به كتابه الكريم وسنة نبيّه ﷺ .

والنظام الأساسي للحكم استلهم هذه المبادئ وهدف إلى تعميقها في العلاقة بين الحاكم والمحكوم مع التزامٍ بكلّ ما جاء به ديننا الحنيف في هذا الصَّدد »[1].

وهذه ملتقطاتٌ من موادِّ النظام الأساسي للحكم تعكس إسلاميَّة هذا النظام وفق المنهج السلفي الملتزم بتعاليم الكتاب والسُّنة وقد اشتمل هذا النظام على تسعة أبواب على النحو التالي :

---

(١) من كلمة خادم الحرمين الشريفين بمناسبة إصدار أنظمة الحكم والشورى والمناطق . أنظمة الحكم والشورى والمناطق، ص ٥ .

١- المبادئ العامة .
٢- نظام الحكم .
٣- مُقوِّمات المجتمع السَّعودي .
٤- المبادئ الاقتصادية .
٥- الحقوق والواجبات .
٦- سلطة الدولة .
٧- الشؤون المالية .
٨- أجهزة الرِّقابة .
٩- أحكام عامة .

ومن مواد هذه الأبواب :

١- المادة الأولى :

المملكة العربية السّعودية دولةٌ عربيّةٌ إسلاميّةٌ ذات سيادة تامَّة ، دينُها الإسلام، ودُستورُها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ولُغتُها هي اللغة العربيَّة .

٢- المادة السادسة :

يبايع المواطنون الملك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعلى السمع والطّاعة في اليسر والعسر ، والمَنْشَط والمَكْرَه .

٣- المادة السابعة :

يستمدُّ الحكم في المملكة العربية السعودية سلطته من كتاب الله و سنة رسوله ﷺ ، وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدَّولة .

٤- المادة الثامنة :

يقوم الحكم في المملكة العربية السعودية على أساس العدل والشُّورى

والمساواة وفق الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ .

٥- المادة التاسعة :

الأسرة هي نواة المجتمع السّعودي ويربى أفرادها على أساس العقيدة الإسلاميَّة وما تقتضيه من الولاء والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر . . .

٦- المادة الثالثة والعشرون :

تحمي الدولة عقيدة الإسلام وتُطبِّق شريعته، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدَّعوة إلى الله .

٧- المادة السادسة والعشرون :

تحمي الدَّولة حقوق الإنسان وفق الشَّريعة الإسلاميَّة .

٨- المادة الخامسة والأربعون :

مصدر الإفتاء في المملكة العربيَّة السّعوديَّة كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ .

٩- المادة السادسة والأربعون :

القضاء سلطةٌ مستقلَّةٌ . . . ولا سلطان على القُضاة في قضائهم بغير سلطان الشريعة الإسلاميَّة .

١٠- المادة الثامنة والأربعون :

تُطبِّق المحاكم على القضايا المعروضة أمامها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وفقاً لما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة ، وما يصدره وليُّ الأمر من أنظمةٍ لا تتعارض مع الكتاب والسنة .

١١- المادة الخامسة والخمسون :

يقوم الملك بسياسة الأمَّة سياسةً شرعيَّةً طبقاً لأحكام الإسلام، ويشرف على تطبيق الشريعة الإسلاميةَ والأنظمة . . .

١٢- المادة السابعة والستون :

تختصُّ السُّلطةُ التَّنظيميَّةُ بوضع الأنظمة واللوائح فيما يحققُّ المصلحة أو يرفع المفسدة في شؤون الدَّولة وفقاً لقواعد الشَّريعة الإسلامية . . .

هذه بعض المواد البارز فيها النَّص على اعتماد الشَّريعة الإسلاميَّة وتعاليم القرآن وسُنَّة الرَّسول ﷺ، وسائر المواد مأطورةٌ بهذا الإطار ، خادمةٌ لهذه الوجهة وإن لم ينص على ذكر الشريعة والقرآن والسنة ، ولكنها محكومةٌ بالموادِّ المقارنة بشكلٍ منطقيٍّ ، فمثلاً :

المادة الثانية عشرة :

تعزيز الوحدة الوطنيَّة واجبٌ ، وتمنع الدَّولةُ كلَّ ما يُؤدِّي إلى الفرقة والفتنة والانقسام .

والمادة الثانية والعشرون :

يتم تحقيق التَّنمية الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وفق خطَّة علميَّة عادلة .

ونحوهما من المواد تحكمها المواد التي ربطت حركة الدَّولة بالشريعة الإسلامية ، فلو -مثلاً- أقيمت « الوحدة الوطنية » في المادة الأولى من هاتين المادتين على نزعة من النزَّعات العنصرية لناقضت الموادَّ السَّابقةَ كلَّها ابتداءً بالمادَّة الأولى .

والخطَّة العلميَّة للتنمية الاقتصادية لا تستطيع أن تخرج عن تلك المواد التي تجعل الشَّريعةَ وفق المنهاج المالي فيها موجّه كلِّ صُوَرِ التَّنمية .

أو أنَّ تلك المواد -التي لم تنص على الشَّريعة - هي تفصيلٌ لتطبيق هذه الشريعة مثل :

المادة الثانية :

عِيدَا الدَّولة هما عيدا الفطر والأضحى ، وتقويمها هو التَّقويم الهجري .

و المادة الحادية عشرة :

يقوم المجتمع السّعودي على أساس من اعتصام أفراده بحبل الله تعالى ، وتعاونهم على البرِّ والتَّقوى ، والتكافل فيما بينهم ، وعدم تَفرُّقهم .

والمادة الحادية والعشرون :

تُجبَى الزَّكاةُ وتنفق في مصارفها الشَّرعيَّة .

والمادة الرابعة والعشرون :

تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشَّريفين وخدمتهما ، وتوفر الأمن والرِّعاية لقاصديهما بما يُمكِّنُ من أداء الحج والعمرة والزيارة بيُسر وسهولة ، ونحوها من المواد التي تمثل تحديداً لبعض المناطات التي تقوم بها الدَّولة في تحقيق مطالب الشَّريعة الإسلاميَّة ، ومثل ذلك المواد المتعلقة بتحقيق المصالح الشَّرعيَّة للوطن والشعب في حفظ كلياته الخمس ، ديناً ونفساً وعقلاً ونسلاً ومالاً كالمواد المتعلِّقة بالتعليم والصِّحَّة والخدمات الإعلاميَّة والاتصاليَّة ونحوها .

والحق أن هيمنة « النظام الأساسي للحكم » على منهج الدَّولة ومسيرة الحياة في المجتمع السّعودي قبل أن يُدوَّنَ ، وبعد ما أصدر في عام ١٤١٢هـ يُمثِّل أعلى مفاخر هذا البلد وأهمّ مؤهِّلاته للسَّبق في تحقيق الإسلاميّة في هذا العصر ، وكونه رائد المجتمعات المسلمة في القياد الحضاري للأمّة الإسلاميّة على منهج الإسلام .

إنّ كثيراً من المجتمعات الإسلاميّة على الرُّغم من عشرات السِّنين بعد رحيل الاستعمار ، والجهود المضنية للعلماء والدُّعاة والمجالس النيابيَّة ونحوها لم تستطع أن تتقدَّمَ نحو مثل هذا النِّظام إلا خطوات قليلةً متعثِّرةً لا تريح مشاعر المؤمن ، ولا تضبط جهة المجتمع نحو دينه ؛ لأنَّ هذه الخطوات المتمثِّلة في مادّةٍ أو مادَّتين تشير إلى الإسلام بصفته دين الدَّولة ، أو مصدراً من مصادر

التشريع ، تكون محاطةً بموادَّ تصادرها من مذاهب معاصرة مخالفة لها ، حتى إنّ المرء يجد واضحاً كما يقول مصطفى وصفي : « التضارُب في المبادئ التي ذكرتها دساتير الدول الإسلاميّة والوسائل المتعارضة التي اتَّخذتها ، والتي تُشْعِرُ بأنّ هذه الدول تائهةٌ في بحرٍ متلاطمٍ من النظم الحديثة لا تعرف موضع الإسلام منها »[1].

بل إنّ كثيراً من الصِّيغ النظريّة التي صاغها باحثون إسلاميُّون لدساتير إسلاميّة ، لم تستطع على الرَّغم من المهارة الفكريّة ، والغيرة الصادقة لدى واضعيها أن تحقِّق ضابطيَّة الصِّياغة التي وُضع بها النظام الأساسي للحكم ، من حيث تحديد الصّورة الإسلاميّة التي تقوم على الكتاب والسّنة[2]، وهي منهج السَّلف الصَّالح الذي سلكه صحابة رسول الله ﷺ وتابعوهم والأئمة من بعدهم .

ومن حيث تكثيف الألفاظ الشَّرعيَّة في موادّ هذا النظام ، وهي ألفاظٌ منضبطةُ المدلولات ، لا يسهل التلاعب بها ككثيرٍ من الألفاظ الفكريّة المعاصرة ذات الأوجه المتعدّدة ، والتي غالباً ما تصاغ بها تلك الدَّساتير .

وجانبٌ مهمٌّ لا بدَّ من الإشارة إليه ، وهو : أنّ موادَّ « النظام الأساسي للحكم » قد غطَّتْ ما تسمَّى بـ « أسس الحكم في الإسلام » أو « قواعد النظام السياسي فيه » ، وهي الأسس التي استخلصها العلماء من استقرائهم لنصوص الشَّريعة ومقاصدها ، وسيرة السَّلف الكرام ، وهي المتمثِّلة -بشكلٍ موسَّعٍ على اختلافٍ بين العلماء في عددها وصياغتها- فيما يلي :

---

(١) مصنَّفة النظم الإسلاميّة ، ص ١٣٠ ، مصدر سابق .

(٢) عامة الفرق المنتسبة للإسلام تعلن ولاءها للقرآن والسنة بشكلٍ مجملٍ ، لكن مبادئ الفرقة أو الاتجاه ومنهجه الفكري هو الذي يكشف حقيقة هذا الولاء الذي يكون ضعيفاً أو ناقصاً ، أو حتى مُزَيَّفاً لدى بعضٍ من هذه الفرق .

١- الدولة الإسلاميّة دولة إيمان ، والانتماء إليها انتماءٌ للشريعة التي تطبِّقها ، وليست انتماءً جنسيّاً أو قوميّاً فقط . (انظر مثلاً : المادة ١) .

٢- العلاقة بين الناس علاقة كرامة آدميّة ، وعلاقة أخوّة بين المسلمين (انظر مثلاً : المادتين ١١ ، ٢١) .

٣- الناس كلّهم مستخلفون ، والدولة مهمّتها تنظيم حركة هذه الخلافة العامة . (انظر مثلاً المادتين ٢١ ، ٣١) .

٤- تعيين الحاكم ومبايعته على الحكم بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ والنصح للمسلمين . (انظر : المادة ٥٦) .

٥- الحاكم ليس مشرِّعاً ولكنّه منفِّذٌ لشريعة الله ، حيث تقام الدولة كلّها على قواعد التشريع الذي جاء به الإسلام . (المادتان ٧ ، ٨) .

٦- الطاعة للحاكم ، وتكون في حدود الشريعة . (المادتان ٦ ، ٩) .

٧- الشورى وفق صيغة تحقق المقاصد الشرعية منها . (المادتان ٦٨ ، ٦٩) .

٨- النصح لوليِّ الأمر وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بالأساليب الشرعيّة (المادة ٤٣) .

٩- الالتزام بالقيم الأساسيّة كالمساواة والعدل وحفظ الكليات الخمس والحقوق الإنسانيّة [١] . (مواد الأبواب ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨) [٢] .

ولو نظرنا من زاوية ثانية – وأنا هنا أسجِّل تداعياً قام في ذهني ولا أهدف

---

(١) من الكتب التي تناولت هذه الأسس أو بعضها : " الأحكام السلطانيّة " ، لأبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، و" الأحكام السلطانيّة " ، لأبي يعلى الفراء ، (ت: ٤٥٨هـ)، وابن حزم في " الفصل " وابن تيمية في " السياسة الشرعيّة " ، ومن أركز البحوث المعاصرة لهذه الأسس : " نظام الإسلام – الحكم والدولة " ، لمحمد المبارك .

(٢) الإشارة إلى المواد لمجرّد التمثيل ، وإلا فهي متكاملة فيما بينها ، كما أنّ الأسس المذكورة مترابطة فيما بينها .

إلى المزاوجة بين النظامين الديمقراطي والإسلامي ؛ فلكلٍّ منهما فلسفته الخاصة - لو نظرنا إلى النظام الديمقراطي لوجدنا أنه يعتمد على الشعب الذي انبثقتْ منه الدولة ، ولا شكَّ أنّ الأساس الذي سيدعم الناسُ شخصاً أو حزباً أو حكومةً عليه هو قيم هذا الشعب ومصالحه ، فالشخص أو الحزب أو الحكومة التي تتبنَّى هذه القيم والمصالح وتقوم بها ، هي الممثِّلة الحقيقيّة للشعب .

لو نظرنا في ضوء هذا المعيار -كما قلتُ هي مجرّد مقاربة - للمجتمع السعودي الملتزم بإسلامه ، وللدولة وفق نظامها الأساسي للحكْم لوجدنا أنها حقاً دولة الشعب، وأنها قد حقّقت هذا الأساس الديمقراطي ، لوفاء نظامها بأهمِّ وأشمل مطلب للشعب، وهو تمثُّلُ الدين، ورعاية القيم ، وهو المطلب الذي يشعر المسلم أنّ الوفاء له وبه يحقق له كلّ مصالحه ، ويحفظ له كلّ حقوقه .

ويتجلَّى هذا بالمقارنة بدول أخرى تنسب نفسها للديمقراطيّة ، ولكنها في مسارها السّياسي لا تقف موقفاً سلبيّاً من قيم الناس فحسب ، بل ترفضها وتقاومها ، مما يجعلها في صراعٍ مع الناس أنفسهم .

« إنّ العلمانيّة -الكلام هنا لبرهان غليون في كتابه " الدولة والدين " - التي تجعل هدفها محاربة الدين ، لا تخطئ في تعيينها للهدف فقط ، ولكنها تقود إلى عكس غاياتها أيضاً، إنّها لا تتجاهل الحاجة الهائلة والطَّلب الشعبي الكبير على الإسلام كمصدرٍ للقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة ، وتسيء فهم دوره فحسب ، ولكنّها بتخلِّيها عنْ دورها في مساعدة الشعور الدِّيني الجديد على التعبير السَّليم والصادق عن نفسه ، تدفع بالفكر الإسلامي أكثر فأكثر نحو الاضطراب والقلق . . » (١) .

(١) نقد السياسة، الدولة والدين ، لبرهان غليون ، ٤٤٥ ، مصدر سابق .

المبحث الثاني

مجلس الشــورى

الشورى أساسٌ مهمٌّ من أسس الحكم في الإسلام، وهي -كما يقول ابن عطية-: « من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام »[1].

وقال ابن العربي: « الشورى ألفةٌ للجماعة، ومسبارٌ للعقول، وسببٌ إلى الصَّواب، وما تشاور قومٌ قطٌّ إلا هُدُوا »[2].

وبالشورى -مع الأسس الأخرى- تتحقّق إسلاميّة النظام السّياسي، ويقوم بوظائفه في تحقيق المصالح الشَّرعيَّة.

وقاعديَّة الشورى في الإسلام تستند إلى ما ورد من نصوص شرعيَّة تلزم بها الأمَّة وتجعلها من صفاتهم الأساسيّة، وما ورد من تطبيقاتٍ للشورى من قبل الرَّسول ﷺ ثم أصحابه من بعده.

فمن النصوص قوله - سبحانه - في سورة الشورى، وهو يُعدِّد صفات المؤمنين: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[3].

وفي سورة آل عمران يأمر الله نبيَّه المعصوم أن يشاور أصحابه؛ يقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، لأبي الوليد القرطبي ٤/٢٤٩، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ.

(٢) المصدر السابق، ١٦/٣٧.

(٣) الآيات (٣٦-٣٩) من سورة الشورى.

حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

أمَّا التطبيق فقد جاء في السنة ذكر وقائع كثيرة استشار الرَّسول ﷺ فيها أصحابه، حتى قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: «لم يكن أحدٌ أكثر مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ»[2]. وكذلك أصحابه من بعده، وقد ذكر الحافظ ابن حجر نماذج منها، يحسن نقلها هنا، يقول ابن حجر -رحمه الله-: «وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: «كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظرَ في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنَّة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السُّنة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم، وإنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك، وتقدَّم قريباً أنّ القرَّاء كانوا أصحاب مجلس عمر ومشاورته، ومشاورة عمر الصحابة في حدِّ الخمر تقدَّمتْ في «كتاب الحدود»، ومشاورة عمر الصحابة في إملاص المرأة تقدَّمت في «الديات»، ومشاورة عمر في قتال الفرس تقدَّمت في «الجهاد»، ومشاورة عمر المهاجرين والأنصار ثم قريشاً لـمَّا أرادوا دخول الشام وبلغه أنّ الطاعون وقع بها، وقد مضى مطوَّلاً مع شرحه في «كتاب الطّب».

ورُوِّينا في القطعيات من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازمٍ قال: جاء رجلٌ إلى معاوية فسأله عن مسألة، فقال: سَلْ عنها عليّاً، قال: ولقد شهدتُ عمر أشكل عليه شيءٌ، فقال: هاهنا عليٌّ. وفي كتاب النوادر للحميدي والطبقات لمحمد بن سعد من رواية سعيد بن المسيب قال:

---

(١) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجهاد عن أبي هريرة، ولم يذكر الترمذي عنه شيئاً، ٤/ ١٢٩.

كان عمر يتعوّذُ بالله من معضلة ليس لها أبو حسنٍ يعني عليَّ بن أبي طالب، ومشاورة عثمان رضي الله عنه الصحابة أوّلَ ما استخلف فيما يفعل بعبيد الله بن عمر لمَّا قتل الهرمزان وغيره ظنّاً منه أنّ لهم في قتل أبيه مدخلاً، وهي عند ابن سعد وغيره بسند حسن، ومشاورته الصَّحابة في جمع الناس على مصحف واحد، أخرجها ابن أبي داود في كتاب "المصاحف" من طرق عن علي رضي الله عنه منها قوله: « ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منَّا » وسنده حسن»[1].

فالشورى مُورستْ عملياً لدى الرسول ﷺ وخلفائه من بعده في قضايا كلِّيّة كالخلافة، وقضايا جزئيَّة، وعلى نطاق محدود من الخاصَّة، وعلى نطاق واسع من الناس، ولم تبق تشريعاً نظرياً في الإسلام، كما يوحي بذلك بعض الكُتَّاب الذين يجعلون التطبيقَ المؤسِّسي لها كما هو الشَّأن في المجالس في الأنظمة الديمقراطيَّة مقابلاً لصورتها المثاليَّة.

يقول أحدهم: « إنّ أهمَّ فشلٍ عاناه تاريخنا هو أنَّ الشورى ظلَّتْ قيمةً أخلاقيَّةً عليا، ولم تتحوَّل إلى مؤسسة سياسيَّة »[2]. إنَّ الشورى المشروعة في الإسلام ليستْ مُوصَّفةً على شكل تطبيقيٍّ واحد لا يتحقّق تنفيذها إلا من خلاله، لقد جاءتْ في الآيتين: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3] ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[4] مفتوحةً للتطبيق في أيّة صورة تحقّق المصالح الشَّرعيَّة، وتكون شورى حقيقيَّةً، وممارسات الرّسول ﷺ وكذلك خلفاؤه صورٌ

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني ١٣/ ٣٤٣ - ٣٤٢، طبع المطبعة السلفية.

(٢) راشد الغنوشي، نظرات حول الديمقراطية في المغرب العربي، مجلة الإنسان، العدد الأول، مارس سنة ١٩٩٠م.

(٣) الآية رقم (٣٨) من سورة الشورى.

(٤) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران.

تطبيقيَّةٌ لهذه الشورى، أي تنزيلٌ عمليٌّ لتلك القيم العليا، وقد أخذتْ في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه صورةً شبه مؤسَّسيَّة، حيث برز مجموعةٌ جعلهم عمر، مجلس شوراه، يرجع إليهم في كلِّ ما يحزبه من أمرٍ[1].

ولكن مع هذا كلِّه فإنّه لم يعرف خلال تاريخ المسلمين كلّه -كما يقول الدكتور مصطفى وصفي- « أنّ هيئةً منتظمةً تعيَّنتْ لذلك، ولم نعثر على مرِّ الأيام على كيانٍ منظَّمٍ على الأساس الصَّحيح باسم هيئة الشورى أو جماعة الشورى أو ما يشبه ذلك »[2].

وإذا سلَّمنا بهذا فإنَّا نستطيع أن نقول: إنَّ التنظيم التطبيقي الإسلامي للشورى -على مستوى الدولة- في المملكة العربيّة السّعوديّة في مجلسه الأوّل الذي أمر بتشكيله الملك عبد العزيز عام ١٣٤٣هـ، ثمّ في مجلسه المطوَّر الذي صدر نظامه عام ١٤١٢هـ هو أبرز الصّور التنظيميّة لتحقيق الشورى وفق أُطُرٍ محدَّدة لأعضائه ومجالات عمله ومنهج أدائه ونحو ذلك من قواعد مبنية على المأثور عن الصحابة وتابعيهم في هذا المجال.

لقد كان الملك عبد العزيز -رحمه الله- واعياً قيمة الشورى إسلامياً وواقعياً، مما جعله ينصُّ في تحديد ماهيّة دولته على أنها كما سبق في ذكر بعض مواد دستور عام ١٣٤٥هـ: « دولةٌ ملكيّةٌ شوريَّةٌ إسلاميَّةٌ مستقلَّةٌ في داخليَّتها وخارجيَّتها ».

ولهذا فإنه على إثر وصول الملك عبد العزيز إلى مكة المكرّمة عام ١٣٤٣هـ طلب تعيين أشخاصٍ يمثّلون مجلساً للنظر في مصالح الدولة، وتقديم المشورة

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١٣/ ٢٤٣، مصدر سابق.

(٢) مصنّفة النظم الإسلاميّة، ص ٢٤٦، مصدر سابق.

في أمور المجتمع ، وكان من كلمته التي قالها في هذا الصَّدد : « بعض الحكومات تجعل لها مجالس للاستشارة ، ولكن كثيراً من تلك المجالس تكون وهميَّةً أكثر منها حقيقيَّةً ، تُشكَّل ليقال : إنّ هناك مجالس وهيئات ، ويكون العمل بيد شخص واحد ، وينسب للمجموع ، أمَّا أنا فلا أريد هذا المجلس أشكالاً وهميَّةً ، وإنما أريد شكلاً حقيقياً يجتمع فيه رجالٌ حقيقيُّون ، يعملون جهدهم في تحرِّي المصلحة العامة ، لا أريد أوهاماً ، وإنما أريد حقائق . . . »[1] .

وقد سُمِّي هذا المجلس بـ « المجلس الأهلي » ، وفي عام ١٣٤٦هـ صدر مرسومٌ ملكيٌّ في التاسع من المحرّم بتعديل القسم الخاص بمجلس الشورى من التعليمات الأساسيَّة ، حيث حدَّد نظام « مجلس الشورى » رئاسته وأعضاءه ومدَّة العضويَّة ومواصفات الأعضاء والأعمال المناطة به ولجانه وغير ذلك في (١٥) مادةً ، وتشكَّل في عام ١٣٤٧هـ « مجلس الشورى » وفق نظامٍ معدَّلٍ[2] .

وتواصلت التعديلات التي تقتضيها التطورات والمستجدَّات لمواد المجلس .

وفي عام ١٤١٢هـ أصدر خادم الحرمين الشريفين أمراً ملكيّاً بنظام مجلس الشورى مع نظامَيْ الحكم والمناطق .

ومع أنّ الشورى ليستْ محصورةً بمجلس يسمَّى « مجلس الشورى » ، إذ اللجان والهيئات الاستشاريَّة ونحوها داخلةٌ في تحقيق المطلوب الشرعي من الشورى إذا التزمتْ منهج الإسلام ، إلا أننا سنحصر الحديث هنا بمجلس الشورى الذي صدر بالأمر الملكي في ٢٧/ ٨/ ١٤١٢هـ لننظر فيه في ضوء الرؤية الإسلاميّة التي رصدها العلماء المسلمون ، من خلال استقرائهم

(١) البلاد العربيَّة السعوديَّة ، لفؤاد حمزة ، ص ٩٩ ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٨هـ ، الرياض .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

للنصوص الشرعيّة ، وتطبيقات الخلفاء الراشدين والمقاصد الشرعيَّة .

الأساس النظري :

الفلسفة التي تقوم عليها المجالس النيابيّة في النظم الديمقراطيَّة هي تحقيق تمثيل الشعب-صاحب السلطة والتشريع- في مؤسَّسةٍ تستطيع من خلال أعضائها القيام بدور الشعب السُّلطوي والتشريعي .

أمَّا في الإسلام فإنّ الأساس الشرعي للشورى بصفتها ممارسةً واقعيَّةً من المسلمين هو الاستجابة لأمر الله تعالى ، والاقتداء برسوله ﷺ ، وكذلك إعانة الحاكم على تطبيق تعاليم القرآن والسنة ، وإقامة المصالح الشرعيَّة في الحياة .

ثم تأتي بعد ذلك الغايات التي يذكرها العلماء للشورى في حياة المجتمع المسلم ، مثل :

- تحقيق الألفة بين الحاكم ورعيَّته ، وزوال الوحشة حينما يقوم العمل المشترك بينه وبين أناسٍ منهم .
- تكريم صفوة المجتمع في العلم والجاه والفضل والشرف بمشاركتهم في بناء الدولة ، مما ينعكس على الدولة ذاتها ، فتصبح دولة علم وشرف .
- بناء مواقف الدولة على قرارات صائبة -في الغالب- نتيجة تداول الرأي ومناقشته بين كوكبةٍ من العلماء وذوي الخبرة والكفاءة . . .إلخ[1] .

لكن يبقى عنصر الامتثال للشريعة ، واستهداف تطبيقها على الوجه الأكمل هما القاعدة التي تقوم عليها ممارسة الشورى .

في هذا المجال نصَّ نظام « مجلس الشورى » على ما يلي :

---

(١) انظر : مصنفة النظم الإسلاميّة ، ص ٢٤٧ ، مصدر سابق . وكذلك : الشورى ، لعبد الله قادري ، ص ١٤٨ ، ١٤٠٦هـ ، دار المجتمع .

المادّة الأولى : عملاً بقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2] واقتداءً برسوله ﷺ في مشاورة أصحابه ، وحثّ الأمة على التشاور .

ينشأ مجلس الشورى ويمارس المهام المنوطة به وفقاً لهذا النظام والنظام الأساسي للحكم ، ملتزماً بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، محافظاً على روابط الأخوّة والتعاون على البرّ والتقوى .

المادّة الثانية : يقوم مجلس الشورى على الاعتصام بحبل الله والالتزام بمصادر التشريع الإسلامي ، ويحرص أعضاء المجلس على خدمة الصّالح العام ، والحفاظ على وحدة الجماعة وكيان الدولة ومصالح الأمة[3] .

مجالات الشورى :

تساءل العلماء عمَّا أسموه « محلّ الشورى » في أي جانبٍ من جوانب الحياة تكون ؟

وبدايةً يتفق العلماء على أنه لا مجال للشورى فيما وردتْ فيها أحكامٌ شرعيَّةٌ ، ثم بعد ذلك قال بعضهم :

- إنّها تكون في الشؤون الدنيويَّة فقط ، كالمعاهدات وقضايا الحرب والجهاد والصناعة والزراعة .

---

(١) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران .

(٢) الآية رقم (٣٨) من سورة الشورى .

(٣) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، ص ٢١ .

- وقال آخرون : إنَّ الشورى تعمُّ أمور الدنيا والدين فيما لم يتحدّدْ حكمه بالشريعة، بحيث ينظر فيه أهل الشورى معتمدين على مقاصد الشريعة وقواعدها ، مجتهدين في معرفة الأقرب إليها .

يقول أبو الحسن الماوردي -رحمه الله-: « . . فأمَّا غير رسول الله ﷺ من صحابته ومن بعدهم من سائر أمته ، فمشورتهم تعمُّ مصالح الدنيا وأحكام الدين، فما اختصَّ منها بالدنيا ندب إليه عقلاً، وما اختصَّ منها بالدين ندب إليه شرعاً »[1] .

لكن ينبغي أن نعلم أنّ مجال عمل مجلس الشورى ليس إصدار أحكام اجتهاديَّة « إفتاءً أو قضاءً » ، وإنما تحقيق المصالح المرسلة التي لم يرد بشأنها في الشرع اعتبارٌ أو إلغاءٌ ، إلا إذا كان مجلس الشورى مجمعاً للعلماء المجتهدين .

هناك أيضاً جانبٌ يؤكِّدُ عليه العلماء بشأن مجال مجلس الشورى، وهو أن تقع الشورى قبل العزم على الأمر من قبل الإمام ، فإذا تحدَّدَ الموقف وأعلنه الحاكم انقطعتْ الشورى، ولم يقبل إعادة المداولات ، ومن ثم نقض الموقف لما فيه من التردُّد واضطراب التصرُّفات ، يقول البخاري -رحمه الله- : « المشاورة تكون قبل العزم والتبيُّن لقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ »[2] .

في نظام « مجلس الشورى » مما يتعلَّق بمجالات الشورى :

المادة الخامسة عشرة :

يبدي مجلس الشورى الرَّأي في السياسات العامة للدولة التي تحال إليه من رئيس مجلس الوزراء ، وله على وجه الخصوص :

---

(١) أدب القاضي، لأبي الحسن الماوردي، ١/ ٢٦٠، تحقيق محيي هلال السرحان، ١٣٩١هـ، بغداد.
(٢) الآية رقم (١٥٩) من سورة آل عمران . وانظر هذا القول في : صحيح البخاري، ٨/ ١٦٢ .

- مناقشة الخطة العامة للتنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، وإبداء الرّأي .
- دراسة الأنظمة واللوائح والمعاهدات والاتفاقات الدوليَّة والامتيازات ، واقتراح ما يراه بشأنها .
- تفسير الأنظمة .
- مناقشة التقارير السنويَّة التي تقدِّمها الوزارات والأجهزة الحكوميَّة الأخرى واقتراح ما يراه حيالها .

المادة الثالثة والعشرون :

لكلّ أعضاء مجلس الشورى حقٌّ اقتراح مشروع نظامٍ جديدٍ أو تعديل نظامٍ نافذ ، وعرضه على رئيس مجلس الشورى ، وعلى رئيس مجلس الشورى رفع الاقتراح إلى الملك(١) .

أهل الشورى :

أمر الله - سبحانه - الحاكم بمشاورة المؤمنين ، فإذا أراد هذا الحاكم التزاماً بأمر الله اصطفاء بطانة يستشيرها في أمور الدولة أو أنشأ مجلساً للشورى ، فما الصفات التي ينبغي أن يراعيها الحاكم لتكون شروطاً في عضويَّة مجلس الشورى ؟

ذكر العلماء في هذا الصَّدد صفاتٍ رأوْا ضرورتها للمستشار ، وهي :

- الدين والعدالة ، بأن يكون العضو مستقيماً على الصراط الحقِّ غير متَّهمٍ في صلاحه ، ولا مشتهراً بالفحش والتحلّل من الدِّين .

---

(١) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

- العلم، بأن يكون على قدر -على الأقلّ- كاف من المعرفة الشرعيّة مع الوعي بثقافة الواقع في مجالاتها السياسيَّة والاقتصاديَّة وعلومها البحتة .
- الحكمة في النظر والتصرّف، مما ينفي صفات الحمق وضيق الأفق وقصر النظر والطيش وأحاديّة الرؤية ونحوها من مضادَّات الحكمة .
- الخبرة، وهي مقارنةٌ للعلم، لكنها تعني أنّ صاحبها قد عايش الأحوال الواقعيَّة للمجتمع الذي يستشار في أموره .

وقد استدلّ العلماء على هذه الشروط بأدلّة منوَّعة، مثل : أنّ الله أمر رسوله ﷺ بمشاورة المؤمنين، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾[1] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[2] وغيرها من النصوص[3].

وقد جاء في نظام مجلس الشورى في هذا الجانب في المادة الرابعة :

يشترط في عضو مجلس الشورى ما يلي :

- أن يكون سعودي الجنسيّة بالأصل والمنشأ .
- أن يكون من المشهود لهم بالصَّلاح والكفاءة .
- ألا يقلَّ عمره عن ثلاثين سنةً .

كما أنّ المادة الحادية عشرة حدَّدَتْ القَسَمَ الذي يؤدِّيه عضو مجلس الشورى أمام الملك بالصيغة التالية : « أُقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً لديني، ثم لمليكي وبلادي، وألا أبوح بسرٍّ من أسرار الدَّولة، وأن أحافظ على

(١) الآية رقم (١١٨) من سورة آل عمران .

(٢) الآية رقم (٢٦) من سورة القصص .

(٣) انظر : الشورى، ص ٣٦، مصدر سابق .

مصالحها وأنظمتها، وأن أؤدِّيَ أعمالي بالصِّدق والأمانة والإخلاص والعدل »[1] .

نتيجة الشورى إعلامٌ أم إلزام ؟

إذا بحث أهل الشورى في قضيّة معيّنة ، ثم انتهوا إلى رأي محدَّد إزاءها رفعوه إلى الحاكم، فما الموقف الشرعي الذي ينبغي للإمام أن يتخذه إزاء هذا الرَّأي ؟ هل هو مُلزمٌ بالأخذ به ولو خالف ما يراه هو في هذه القضيَّة ، أو أنه مخيَّرٌ بأن يأخذ رأي أهل شوراه ، أو رأيه ؟

بحث العلماء هذه القضيَّة مستندين إلى وقائع الشورى التي جرتْ في عهد الرسول ﷺ وعهد صاحبيه من بعده .

* بعضهم يرى أنَّ الشورى مُعلمةٌ فقط ، سواءٌ أولئك الذين يتصوَّرون الحاكم مجتهداً مما لا يجيز له تقليد غيره خلاف ما أدَّاه إليه اجتهاده ، أو الذين ينظرون للحاكم المسلم نظرةً واقعيَّةً وفق نماذجه في عامة العصور الإسلاميَّة ، ومن هؤلاء : الطبري رحمه الله، ومن المعاصرين : أبوالأعلى المودودي ، ومحمد يوسف موسى ، وعبد الكريم زيدان[2] .

يرى أصحاب هذه الوجهة أنّ الإمام هو المسؤول أمام الله - تعالى - ثم أمام مجتمع المسلمين عن تصرُّفاته في ولايتهم ، والمفترض أنه يعي أبعاداً ومقتضياتٍ أشمل مما يعيه هؤلاء المستشارون، ويدعم وجهتهم كثيرٌ من الوقائع

---

(١) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، ص٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٧/ ٣٤٦، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر . ونظام الحكم في الإسلام، لمحمد يوسف موسى ، ١٨٠ ، الطبعة الثانية القاهرة . ونظريَّة الإسلام وهديه في السياسة، للمودودي ، ص ٥٩ ، مؤسسة الرسالة، ١٣٨٣هـ، بيروت . ومجموعة بحوث فقهيّة ، لعبد الكريم زيدان، ص ١٠٦-١٠٨ ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة القدس .

التي أخذ فيها الرسول ﷺ وأصحابه ، وبالذات أبو بكرٍ الصدِّيق- رضي الله عنه - باجتهادهم الخاص أمام الرُّؤى المخالفة .

* وآخرون يرون أنّ الشورى مُلزمةٌ ، فما قرَّرَتْه هيئة الشورى يجب على الحاكم أن يلتزم به ولو كان رأيه خلافه، وقد أخذ بهذا الرَّأي كثيرٌ من المفكِّرين الإسلاميِّين المعاصرين، كمحمّد عبده ، ورشيد رضا ، وعبد القادر عودة [1].

يقول هؤلاء : إنّ الرسول ﷺ لا يكاد يخرج عن آراء أصحابه حين المشورة، وما رفض فيه رأي أصحابه فإنما كان لوحيٍ أتاه .

* بين هذين الرَّأيين رأيٌ يحاول التوفيق بين الوجهتين ، يبرزه عبد الكريم زيدان الذي يرى -كما ذكرتُ- أنّ الشورى معلمةٌ لا ملزمةٌ يقول : « إنّ الأخذ برأي رئيس الدولة مطلقاً قويٌّ شديدٌ من الناحية النظريَّة ، ولكن لضرورات الواقع وتغيُّر النفوس ورقَّة الدين وضعف الإيمان، وندرة الأكفاء الملهمين، كلّ هذا يقتضينا أن نلزم رئيسَ الدولة برأي الأغلبيَّة »[2].

ولتفادي سوء العلاقة بين أهل الشورى ومن ثمَّ الرَّعيّة وبين الحاكم يطرح ثلاثة شروطٍ في هذا المجال :

أوّلها : أن يُجعل لوليِّ الأمر الحق في إحالة الأمر المختلف فيه إلى هيئة تحكيمٍ يتفقون عليها .

الثاني : أن يكون له الحق في إجراء استفتاءٍ عامٍ إذا لم يقتنع برأي هيئة التحكيم ،

---

(١) انظر : تفسير المنار ٤/ ٢٠٥، الطبعة الأولى ، ١٣٣٨هـ . والتشريع الجنائي الإسلامي ، لعبد القادر عودة ، ١/ ٣٨، مصدر سابق .

(٢) مجموعة بحوث فقهية ، ص ١٠٦-١٠٨ ، مصدر سابق .

فإن أيّده الاستفتاء نفذ رأيه ، وإن أيد رأي أهل الشورى التزم به .

الثالث : أن يعطى حرية الرّأي للذي يراه في الأمور الاستثنائيَّة العاجلة ، كحالة الحرب أو حدوث خطرٍ داهمٍ يهدِّد سلامة البلاد دون تقيُّدٍ برأي غيره (١) .

هذا غاية ما جاء في نتيجة الشورى وعلاقة الحاكم المسلم بها ، وقد قعَّدَ نظام « مجلس الشورى » هذه القضيَّة على الصورة التالية :

المادة السابعة عشرة :

ترفع قرارات مجلس الشورى إلى رئيس مجلس الوزراء ، ويحيلها إلى مجلس الوزراء للنظر فيها ، فإن اتفقتْ وجهات نظر المجلسين صدرتْ بعد موافقة الملك عليها ، وإن تباينتْ وجهات النظر فللملك إقرار ما يراه (٢) .

هذه معالم إسلاميّة مجلس الشورى في صورته الأخيرة الصادر نظامها في عام ١٤١٢هـ في أساس فلسفته ومجالات عمله ، وأعضائه وعلاقة الحاكم بقراراته .

ولما كانت أغلب هذه الجوانب تقوم على اجتهادات العلماء ، فإنّ القابليَّة لتطويره قائمةٌ ، بل ووجود مجالس شورى لها أنظمةٌ تختلف عنه ، ولا يخرجها ذلك عن إسلاميّتها لا تثريب فيه .

لكن يمكن الإشارة هنا إلى ما يقابل -عادةً- مجلس الشورى من مجالس تقوم في النظم الديمقراطيّة على الفلسفة الخاصة بتلك النظم :

- فالشورى في الدولة المسلمة بأيّ صورة تمثَّلتْ هي قبل كلّ شيءٍ تَعَبُّدٌ يتديَّن به الحاكم إلى ربّه في تنظيمه ، ويتديَّن به عضو الشورى في ممارسته

(١) انظر : مجموعة بحوث فقهية ، ص١٠٨ ، وقد مال إلى هذا الرأي القادري في " الشورى " ص١٠٤ .

(٢) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، ص ٢٢ ، وينبغي أن نعي أنّ مجلس الوزراء يمثّل من المنظور الشرعي هيئةً شوريَّةً للإمام .

التي يسعى من خلالها لتحقيق المصالح الشرعيَّة، أمَّا في النظم الأخرى فلا اعتبار لهذا الأمر أساساً .

- وفي الشورى الإسلاميَّة يخضع الحاكم وأعضاء المجلس لسلطة الكتاب والسنة، فما قرَّراه من العقائد والقيم والأحكام لا مجال لمناقشته فضلاً عن تبنّي وجهة تناقضه خلافاً لتلك النظم .
- شرط العدالة، أو الصَّلاح، أو الأمانة ونحوها من الشروط تأخذ في الإسلام مفهوماً محدّداً، عماده التزام العضو بدين الإسلام في عقيدته وعباداته وقيمه، وشعوره بمسؤوليّته أمام الله قبل أن تكون أمام الحاكم أو أمام الشعب، وهذا خلاف تلك النظم التي لا تدخل في حسابها هذا الشرط، بل إنها في النظم العلمانيَّة فضلاً عن الملحدة تستبعده بصفته مؤثّراً في حركة المجلس الذي هو دنيويٌّ بحتٌ لا علاقة له بالدين، تبعاً لفلسفة فصْل الدين عن نظام الدولة .

ولهذا فإنّ أعضاء المجلس يمثّلون النخبة العلمانيَّة القادرة على إدارة حركة الحياة الاجتماعيّة .

أمَّا في مجلس الشورى الإسلامي فإنّ النخبة دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ معاً، فالمتخصِّصون بالجوانب المدنيَّة يجمعون بين فكرهم التخصّصي من جانبٍ، وعلمهم الشرعي وتديُّنهم من جانبٍ آخر .

ووجود المتخصِّصين الشرعيِّين مع المتخصَّصين في الأمور المدنيَّة[1] يجعل

(١) المتخصصون الشرعيون: هم أصحاب فنون العلم المتعلقة بالوحي مباشرة تفسيراً وسنة وعقيدة وفقها. . ، والمتخصصون في الأمور المدنية: هم أصحاب المعارف التقنية ونحوها .
وإن كانت تخصصات كلا الفريقين إذا انضبطت بهدي الوحي تعد شرعية بالمعنى المعياري للفظة « شرعي » .

المجلس دينيّاً ودنيويّاً[1].

وشرط العدالة أو الصَّلاح قائمٌ أيّاً كان الطريق الذي يصل من خلاله الشخص إلى عضويَّة المجلس، سواءٌ كان تعيين الحاكم فتكون مسؤوليّته، أو كان الانتخاب[2] فيلزم المجتمع كلّه أن يعتبر هذا الشرط فيمن يرشّحه، وعلى الحاكم تفادي أن يصل الفُسَّاق والمجرمون إلى المجلس بسنِّ الأنظمة التي تكفل هذا.

حينما طلب الملك عبد العزيز -رحمه الله- انتخاب أعضاء المجلس الأهلي في مكة عام ١٣٤٣هـ ركَّز على هذه النقطة وأوصى بانتخاب ذوي الصِّدق والإخلاص، قال-رحمه الله-: «أريد من الهيئة التي ستجتمع لانتخاب الأشخاص المطلوبين أن يتحرَّوا المصلحة العامة ويقدِّموها على كلّ شيء، فينتخبوا أهل الجدارة واللِّياقة.. ويكونون من أهل الغيرة والحميَّة والتقوى»[3].

فضلاً عن هذا فإنَّ مما يميِّز الشورى في الإسلام أنّه بعد أن تعتمد الدولة من خلال الحاكم موقفاً معيّناً بعد التشاور، فإنّ الجميع يتضامنون مع هذا الموقف حتى ولو كانوا إبَّان المداولات يرون وجهةً مقابلةً؛ لأنّ المصلحة الشرعيَّة تعيَّنت الآن في وحدة الصَّفِّ وجمع الشمل مع الإمام، خلافاً لأسلوب المعاندة والتربُّص وتأليب الجماهير ضدَّه في الصحف وغيرها، مِمَّا هو قائمٌ في كثيرٍ من تلك النظم.

---

(١) يقول برهان غليون: «كانت التربية الدِّينيَّة -في المجتمع الإسلامي- جزءاً من التربية المدنيَّة مثلما كان العلم المدني عبادةً دينيَّةً، فأصبح التكوين واحداً للأفراد جميعاً دينياً ومدنيّاً معاً، دون تناقض أو تعارض، وأصبح من الممكن تكوين نخبة واحدة وموحّدة دينيّة مدنيّة تتعاون الأطراف المتنوِّعة فيها كل حَسب علمه واختصاصه في تحقيقِ سلطةٍ عامَّةٍ موحَّدةٍ». انظر كتابه: نقد السياسة - الدولة والدين، ص٢٩٤.

(٢) الانتخابات قضية سياسية تختلف الآراء لدى الباحثين في السياسة الشرعية حول شرعية أنماطها المتعددة، لكن إذا تم الانتخاب وفق وجهة القائلين بها فيلزم ما ذكر.

(٣) البلاد العربيّة السعودية، لفؤاد حمزة، ص ٩٩. مصدر سابق.

المبحث الثالث

القضـــاء

القضاء في اللغة : إمضاء الشيء وإحكامه ، أو إتمامه .

وهو في الاصطلاح : إصدار حكمٍ شرعيٍّ في قضيَّة خاصّة ، وإلزام المصدر عليه به(1) .

وتتمثَّل ضرورة القضاء وأهميّته في حياة البشر أنّ الإنسان بغريزته يسعى إلى إشباع رغباته بكلّ السُّبُل ، فإذا كانت حقوقه الخاصَّة لا تكفي لإشباع رغباته فقد يتعدَّى إلى الاعتداء على حقوق الآخرين ، وقد يظن لقصور خاطئ أن هذا حق له بينما يرى خصمه أنه حقه هو ، فيقوم النزاع بين الناس ، ومن ثمَّ الصراع والقتال ، فتفسد الحياة .

لذا كان لا بدّ من وجود شريعة ونظامٍ به تتَّضح الحدود ، وتتميَّز الحقوق ، وتعرف الواجبات حتى يلتزم بها الناس ، ويقفون عندها ، فتستقر الحياة ، ويسود الأمن .

لكن وجود النظام وحده لا يكفي في ضبط حياة الناس وردّ العدوان ، إذ لا بدَّ من قوّة تقوم على تطبيقه وإعمال قواعده ، فإذا تجاوز فردٌ أو أكثر منهج الشريعة في العدل تجاه فرد أو مجموعة ، قامت هذه القوَّة بتحديد ما يردُّ هذا المعتدي عن عدوانه ، وهذه هي سلطة القضاء(2) .

---

(1) انظر : نظام القضاء في الإسلام ، مجموعة مؤلفين ، ص ٧ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤هـ .

(2) انظر : إجراءات التقاضي والتنفيذ ، لمحمود محمد هاشم ، ص ١ ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٩هـ .

إنّ القضاء أمرٌ لازمٌ لقيام الأمم وسعادتها وحياتها حياةً طيِّبةً ، ولنصرة المظلوم وقمع الظالم ، وقطع الخصومات وأداء الحقوق إلى مستحقِّيها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والضَّرب على أيدي المفسدين العابثين ؛ كي يسود النظام في المجتمع ، فيأمن الفرد على نفسه وماله ، وعلى عرضه وحريَّته ، ومن ثمَّ يزيد الإنتاج فتنهض البلدان ويتحقق العمران ، ويتفرَّغ الناس لمصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة[1] .

ولهذا كان مقامه السُّلطوي تالياً للسلطة التشريعيَّة التي تسمى في الدولة الإسلاميَّة « السُّلطة التنظيميَّة »[2] ، والسُّلطة التنفيذيَّة تابعةٌ له .

والقضاء هو أبرز مجالات تطبيق الشريعة الإسلاميَّة في نظام الدولة ، حتى إنّ الذهن يتَّجه إليه مباشرةً حينما يقال عن دولةٍ إنها تطبّق الشريعة ، أو تعلن نيَّتها تطبيق الشريعة الإسلاميَّة .

وليس غريباً هذا إذا تصوَّرنا المساحة الواسعة لأعمال المحاكم القضائيَّة التي من أبرز تعلّقاتها :

- الفصل بين المتخاصمين إمَّا بصلحٍ عن تراضٍ ، أو بإجبارٍ على حكمٍ نافذ .
- قمع الظالمين وإنصاف المظلومين ، وإيصال الحقوق إلى ذويها .
- وصايا الأموات .
- النَّظر في شؤون الأوقاف .

---

(١) انظر : نظام القضاء في الإسلام ، لجمال المرصفاوي ، ص ٩ .

(٢) ليس في الإسلام سلطة تشريعية تضع خطة الحياة استقلالا عن هدى الله؛ فواضع الشريعة هو الله . إنما هناك علماء مجتهدون قد يضمهم مجلس أو مجمع أولا يضمهم ، يجتهدون في بيان الأحكام الشرعية وفق نصوص الشريعة وقواعدها بما يتضمنه الحكم من صفة وشروط وعوارض وهم المقصودون هنا ، والقضاء دوره تطبيق هذه الأحكام على الآحاد الواقعية في الحياة .

- الحجر على السُّفهاء .
- المواريث .
- شؤون الأيتام والمجانين وإقامة الأوصياء لحفظ أموالهم .
- الحدود الشرعيَّة والتعازير .
- الجراحات والدِّماء .
- عقود الأنكحة .
- إثباتات الأراضي ومنع التعدِّي على الطرقات والأفنية العامة[1] .

. . . إلخ الأعمال التي لا يتمُّ التنفيذ العملي لها من قبل وليِّ الأمر أو الجهة التنفيذيَّة إلا من خلال قضاء المحاكم فيها .

وكما أوضحنا وجه قيام النظام الأساسي للحكم ، وكذلك مجلس الشورى على الإسلام فإنّنا هنا سنتناول القضاء بصفته أبرز العناصر العمليَّة لتطبيق الشريعة الإسلاميّة .

القضاء قبل إقامة الملك عبد العزيز للدولة السعوديَّة :

لم يكن القضاء في نجد والحجاز وسائر المناطق يسير على سننٍ واحد .

ففي نجد كان في المدن قضاةٌ يأتي إليهم المتخاصمون في بيوتهم أو في المسجد ، فيقضي بينهم القاضي ، فإن رضي الخصمان بالحكم نفّذ ، وإلا ترافعا إلى أمير البلدة ، فنفَّذ حكم القاضي أو ما يراه .

أمَّا البادية فكان لديهم ما يسمَّى بـ « العارفة » وهو شخصٌ مشهورٌ بالحكمة ومعرفة الأعراف القبليَّة ، يطلبون حكمه فيقضي بينهم ، وأحكامه مزيجٌ من الأعراف والعادات والشَّرع .

---

(١) انظر : نظام القضاء في الإسلام ، لأحمد المبارك ، ص ١٧٠ .

أمَّا في الحجاز فقد نال القضاء شيء من التنظيم بحكم تبعيّته للدولة العثمانيَّة ، التي تطوَّر فيها القضاء من حيث ترتيب المحاكم وسير الإجراءات ونحو ذلك .

وكان القضاة يحكمون وفق أحد المذاهب الفقهيَّة الأربعة مما كان عاملاً في اضطراب شؤون القضاء، وتنافر الأحكام وتعليق صدور بعضها لطلب بعض الخصوم التحوّل للتقاضي وفق مذهب آخر .

وحينما انفصل الأشراف عن الدولة العثمانيَّة أصدر الشريف حسين قراراً بإلغاء الأنظمة العثمانيَّة والرجوع إلى النظام القبلي « نظام العشائر » الذي عماده العرف[1] .

نظرة الملك عبد العزيز إلى القضاء :

كان الملك عبد العزيز يدرك الهجوم الشرس على القضاء الإسلامي وتطبيق الحدود الشرعيَّة ، من قبل الغرب وأتباعهم ، ويعي غمرة الافتتان بالقوانين الغربيّة لدى كثير من المسلمين، وتصوّرهم أنّ بها تحقيق رقي المجتمع والنهوض الحضاري، ولكنّه -رحمه الله- كان راسخ الاعتقاد بأنه لا خيرة له في التخلّي عن منهج الله إلى أيِّ منهجٍ سواه ، وكان إيمانه بدينه يمدّه بالثقة التامة بأنّ الحقَّ والعدل والتمكين وسعادة الحياة لن يكون إلا بتطبيق شريعة الله في الحياة ، وإقامة الحدود الشرعيَّة مهما طَبَّلَ المفتونون بالقوانين الوضعيَّة .

لهذا كان واضحاً لدى الملك عبد العزيز نفسه ولدى رجاله ولدى الآخرين الذين يستقبلونه فاتحاً لمدنهم -كان واضحاً لدى الجميع- أنّ حكم

---

(1) انظر : البلاد العربيّة السعودية ، ص ١٩٦ ، مصدر سابق . والوجيز ، للزركلي ، ص ١٠٠ ، مصدر سابق .

الملك عبد العزيز يعني جعل الشريعة هي السُّلطان الحاكم على الحياة .

وحينما أراد السَّفر إلى مكَّة في أوَّل عام ١٣٣٤هـ قال : « إني مسافرٌ إلى مكّة لا للتَّسلُّط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقتْ كاهل عباد الله ، إنّي مسافرٌ إلى حرم الله لبسْط أحكام الشريعة وتأييدها ، فلن يكون هناك بعد اليوم سلطانٌ إلا للشرع »[١] .

وكان مما بادر إلى عمله :

- أصدر أمراً عام ١٣٤٥هـ يقضي بتوحيد النظام القضائي وجعله على أساس الفقه الحنبلي ؛ لأنه رأى أنّ المصلحة في جعل الأساليب الفقهيَّة واحدة دفعاً لمضارِّ تضارب الأحكام وتعدّد المراجع[٢] .
- وزيادةً في ضبط حركة القضاء أصدر بمشورة العلماء أمراً آخر عين بموجبه المراجع الفقهيَّة المعتمدة التي على قضاة المحاكم أن يسيروا في نطاقها ، بحيث يعلم المتقاضون والقضاة الحدود الفقهيَّة التي يجب عليهم أن يقفوا عندها ، وقد ذكر الأستاذ فؤاد حمزة ستة كتب ، هي :

- الإقناع ، للشيخ موسى الحجاوي .
- شرح المنتهى ، للبهوتي .
- كشاف القناع عن متن الإقناع ، للبهوتي .
- المغني ، لابن قدامة .
- منتهى الإرادات ، للفتوحي .
- الشرح الكبير ، لعبد الرحمن بن قدامة[٣] .

---

(١) حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز ، ص ٨٣، مصدر سابق .
(٢) البلاد العربية السعوديّة ، ص ١٩٧ .
(٣) المصدر السابق.

وقـد أوكل لمجلس الشـورى الذي أنشئ أول تشكيل له في مكة عـام ١٣٤٣هـ مهمّة تحويل المحاكم في الحجاز إلى صورة تحقق الحكم بالشريعة ، وتحقيق المصلحة المناط بها .

« كان على الملك عبد العزيز أن يسعى جاهداً لتحقيق التَّوافق بين الأنظمة القضائية الموجودة وإعادة صياغتها وفق بنود الشَّريعة ، فأوكل هذه المهمَّة إلى مجلس الشورى ، والذي كان من أهمِّ اختصاصاته النَّظر في نظام المحاكم وترتيبها بصورة تضمن تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة تطبيقاً لا يجعل مجالاً للهوى »[1] .

وفي عام ١٣٤٥هـ في ٨ شعبان أصدر العلماء فتوى جاء فيها : « وأمَّا القوانين فإنْ كان موجوداً منها شيءٌ في الحجاز فيزال فوراً ، ولا يحكم إلا بالشَّرع المُطهَّر »[2] .

تنظيم القضاء في المملكة:

من هذا المنطلق ؛ منطلق توحيد القضاء في مُستمدِّه الذي يستمدُّ منه أحكامه في الدولة السّعودية في كل مناطقها ، بدأت تصدر القرارات والأنظمة التي تحدِّد هياكل المحاكم القضائية ، وترسم منهج عمل القضاة ، واختصاصات كلٍّ منهم بما يحقق العدل ويحفظ الحقوق ، ويحقق إنجاز المعاملات بأسرع ما يمكن ، ومما صدر في هذا الشأن :

١- نظام تشكيلات المحاكم في ٢/ ٢/ ١٣٤٦هـ .
٢- نظام سير المحاكمات الشَّرعيَّة لسنة ١٣٥٠هـ .
٣- نظام المرافعات الشَّرعيَّة لسنة ١٣٥٥هـ ، وقد ألغي بتنظيم الأعمال

---

(١) جريدة أم القرى ، العدد رقم [٣٢] في ١٦/ ١/ ١٣٤٤ هـ .
(٢) الدّرر السَّنية ، ٥/ ٣١٩ ، مصدر سابق .

الإداريَّة في الدوائر الشَّرعيَّة لسنة ١٣٧٢هـ .

٤- نظام تركيز مسؤوليَّات القضاء الشَّرعي لسنة ١٣٥٧هـ، وجرى تعديله بنظام تركيز مسؤوليَّات القضاء الشَّرعي لسنة ١٣٧٢هـ .

٥- نظام القضاء الصَّادر بالمرسوم الملكي رقم (٤٦) في ١٤/ ٧/ ١٣٩٥هـ .

وقد استوعب هذا النِّظام كلَّ النُّظُم السَّابقة عليه في مجال القضاء، وأضاف كثيراً من الموادِّ الجديدة التي طَوَّرتْ المحاكم في جوانبها الإدارية والفنيَّة، وقعَّدتْ المتعارف عليه في مواد نظاميَّة راسخة، ومن أهمِّ ذلك ما نصت عليه المادة الأولى من هذا النِّظام من أنَّ القُضَاةَ مستقلُّون، لا سلطان عليهم في قضائهم لغير أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة والأنظمة المرعيَّة، وليس لأحدٍ التَّدخل في القضاء .

ومثل هذا أنَّه جعل مرجع القُضاة في التعيين والترقية والنقل والتأديب وغيرها إلى مجلس القضاء الأعلى .

الحكم بالشريعة واعتماد المذهب الحنبلي :

قد يرد تساؤلٌ عن التزام المملكة في قضائها بالمذهب الحنبلي، حيث تنصُّ الكتب التي تناولت القضاء في المملكة على أنَّ المعتمد هو هذا المذهب، فيتصوَّرُ هؤلاء ما حدث في بعض العصور الإسلاميَّة حينما جعلت بعض المذاهب أشبه بالأديان المستقلَّة، وحُورِبَتْ المذاهب الأخرى من قبل بعض الولاة وعلمائهم .

والواقع أنَّ المملكة تأخذ بالنَّهج الذي تَبَنَّتْهُ الدعوة السلفية، فهي تؤمن بأنَّ الحاكم والشَّرع هو ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن المذاهب الفقهيَّة هي اجتهاداتٌ قال بأصل كلٍّ منها إمامٌ من أئمة العلم، ثم تتابع على كلٍّ

واحد فطاحلُ من العلماء حتى أصبحتْ بل أصبح كلٌّ واحد منها يحتوي على اجتهادات شاملة لعامَّة قضايا الحياة العملية : عبادات ومعاملات وجنايات وغيرها ، فالآخذ بواحد منها آخذٌ باجتهاد مَحَّصَهُ العلماء بالدَّليل والتعليل ، على أنه ينبغي أن يجعل الحق هدفه ، فلو كان على مستوى النَّظر في الأدلَّة ، ورأى أنَّ الدليل الشَّرعي يقول بخلاف ما عليه المذهب فيأخذ بالدَّليل دون المذهب ، وقد كان الإمام محمد بن عبد الوهَّاب على المذهب الحنبلي ؛ لأنه من أوفر المذاهب في الاستدلال للمسائل ، وأكثرها اعتماداً على النُّصوص ؛ لأن الإمام أحمد -رحمه الله- من كبار المحدثين ، فضلاً عن كونه فقيهاً .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب : « وأما مذهبنا فمذهب الإمام أحمد ابن حنبل إمام السُّنَّة في الفروع ، ولا نَدَّعي الاجتهاد ، وإذا بانت لنا سنَّةٌ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ عملنا بها ، ولا نقدم عليها قول أحد كائناً من كان»[1] .

هذا هو المنهج .

وجديرٌ بالذكر هنا أنه حينما بدأت المحاكم تتشكَّل وفق صورتها الجديدة ، أعلن الملك عبد العزيز في خطابه الافتتاحي للجمعيَّة العموميَّة في مكّة أنّ المحاكم تحكم بالشرع وفق أيِّ مذهب يقول : « وأمَّا المذهب الذي تقضي به فليس مقيَّداً بمذهب مخصوص ، بل تقضي على حسب ما يظهر لها من أيِّ المذاهب كان ، لا فرق بين مذهب وآخر »[2] .

لكن استهداف انتظام الأحكام وعدم الاضطراب بين القضاة ، ولتسهيل تصوّر الناس للأحكام التي ستقضى بحقِّهم ، هذا وغيره جعل الهيئة القضائيَّة تقيِّد في قرارها رقم [٣] في ٧/ ١/ ١٣٤٧هـ مسيرة القضاء بأن يكون على

---

(١) محمد بن عبد الوهاب ، لمسعود الندوي ، ص ١٤٨ ، مصدر سابق .
(٢) صحيفة أم القرى ٧/ ٢/ ١٣٤٦هـ ، الصفحة الأولى .

المفتى به من مذهب الإمام أحمد ، يقول القرار محدِّداً ومعلِّلاً : « يكون مجرى القضاء في جميع المحاكم منطبقاً على المُفْتَى به من مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، نظراً لسهولة مراجعة كتبه ، والتزام المؤلِّفين على مذهبه ذكر الأدلَّة إثر مسائله » .

ثم فتح القرار نفسه للقضاء مجال الرجوع إلى المذاهب الأخرى حين يرون أنَّ في قضيَّة من القضايا ما هو في المذاهب الأخرى أيسر وأكثر تحقيقاً للمصلحة ، جاءَ في القرار : « وإذا صار جريان المحاكم على التطبيق على المُفْتَى به من المذهب المذكور ، ووجد القضاة في تطبيقها على مسألة من مسائله مشقَّةً ومخالفةً لمصلحة العموم ، يجري البحث والنظر فيها من باقي المذاهب مراعاةً لما ذُكر »[1] .

كما أنّه أيضاً : « استثنى من تطبيق المذهب الحنبلي الأحكام المتعلِّقة بالمساقاة وإجارة النخيل، ومسائل الإرث والأوقاف، فيحكم فيها على مذهب أهل البلد التي فيها الدعوى »[2] .

وعلى هذا فإنَّ الشريعة الإسلاميَّة المتمثِّلة بتعاليم الكتاب والسّنة ، هي مصدر الأحكام القضائيَّة في محاكم المملكة العربيَّة السّعوديَّة ، سواءٌ تعرَّفها القاضي من خلال اجتهادات علماء الحنابلة أو غيرهم من علماء الأمة في المذاهب الأخرى ؛ لأنّ هذه الاجتهادات بالنسبة للقاضي تقارب الأبحاث التمهيديَّة التي يستنبط فيها هؤلاء العلماء الأحكام الشَّرعيَّة ، سواءٌ كانت مصرَّحاً بها في النصوص، أو غير مصرَّح بها مما يتوصَّلون إليه من خلال أدلّة القياس والمصالح المرسلة ونحوها، فإذا نظر القاضي فيها وفي أدلَّتها قام بتطبيقها على

---

(١) مجموعة النظم، قسم القضاء الشرعي، معهد الإدارة العامة ، ص ١١ .

(٢) صدر بالإرادة السنية في ١٣/ ٧/ ١٣٥٧هـ. التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية ، لسعود الدريب ، ٣١٤، الطبعة الأولى، الرياض.

الوقائع الماثلة بين يديه ، ليحقّق ربط الحياة البشريَّة المتجدِّدة في أحداثها وشؤونها بالشَّريعة الإسلاميَّة .

اللِّجان والهيئات القضائيَّة :

نظراً لتعدّد القضايا المرتبطة ببعض الجهات من حيث مهامُّها المرتبطة بالمجتمع ، أنشئتْ جهاتٌ قضائيَّةٌ شتى ، من أهمِّها :

١- ديوان المظالم .
٢- لجنة قضايا التزوير .
٣- هيئة قضايا الرِّشوة .
٤- هيئة محاكمة الوزراء .
٥- هيئة تسوية المنازعات التجاريَّة .
٦- اللجنة المركزيَّة لقضايا الفساد .
٧- اللجنة العليا للمنازعات العمَّاليّة .
٨- المجالس التأديبيَّة للموظَّفين العموميين .
٩- المجالس التأديبيَّة للعسكريّين[1] .

بعضها له صفة العموم والعمل الدائم ، وبعضها له طبيعةٌ خاصَّةٌ ، كالمجالس التأديبيَّة .

هذه الهيئات ليستْ حديثةَ العهد ، فقد بدأتْ منذ منتصف القرن الهجري الماضي حينما صدر نظام المحكمة التجاريَّة في ١٥/ ١/ ١٣٥٠هـ ، حيث أوكل إلى « المجلس التجاري » مهمَّة تطبيق النظام ، والفصل في المنازعات التجاريَّة على ضوئه ، فكان هذا المجلس أوّل جهةٍ قضائيَّةٍ تقام إلى جانب

(١) الأصالة والمعاصرة - المعادلة السعودية ، فؤاد فارسي ، ص ٥٩ ، دار الأصفهاني بجدة .

المحاكم الشَّرعيَّة ، وقد تغيَّر اسم هذه الجهة أكثر من مرَّةٍ آخرها اسم « هيئة حسم المنازعات التجاريَّة »[1] .

ولقد أثار وجود هذه الهيئات القضائيَّة تساؤلات حول شرعيَّة إقامة مثل هذه الهيئات بإزاء المحاكم الشَّرعيَّة ، وهي تساؤلاتٌ تشير إليها كثيرٌ من الكتب التي تناولتها بالدراسة ، حيث يبرز الإشكال الأوّل في أنّ إقامة شيءٍ منها انتزاعٌ لشيءٍ من اختصاص القضاء العام ، ومعالجة بعض مهامِّه خارج محاكمه الشَّرعيَّة : « إذْ لا يكاد يصدر نظامٌ إلا ونصَّ فيه على تشكيل لجنة أو هيئة لتتولَّى الحكم وتطبيق عقوبات مخالفته ، وهذا شيءٌ ملفتٌ للنظر ، حيث خرجتْ كثيرٌ من القضايا والمنازعات عن ولاية المحاكم العامة ، وهذا مما يقلِّص سلطة القضاء ، ويفقده وظيفته في حلِّ جميع الخلافات والمنازعات »[2] .

والحقّ أنَّ هناك إشكالين في إقامة هذه الهيئات :

الأوّل : نزع بعض مهمَّات المحاكم إلى هيئات أخرى في جهاتٍ مستقلَّةٍ عن المحاكم ، وهذا ما ذكر في النقل السابقِ .

الثاني : ما يتعلَّق بمدى التزام هذه الهيئات في أحكامها بالشريعة الإسلاميَّة .

وفي تصوُّري أنّ الإشكال الثاني -على الرغم من الأسبقيَّة الزمنيَّة على الأقلّ للإشكال الأول- هو الأهمُّ شرعيّاً ، خاصَّةً إذا علمنا أنَّ عموميّة عمل القاضي ليستْ لازمةً ، بمعنى أنه يجوز شرعاً تخصيص عمل قاضٍ أو قضاة معيَّنين بنوعٍ معيَّنٍ من القضايا ، وبمكان محدَّد ، وبزمان ، أو تخصيصه بأشخاصٍ معيَّنين ، أو بنصابٍ معيَّنٍ من القضايا . . . إلخ .

---

(١) انظر : تطبيق الشريعة الإسلاميّة في العصر الحاضر ، للدكتور الزايدي، ١/ ٢٩٦ .

(٢) التنظيم القضائي في المملكة، لسعود الدريب ، ص ٤٦١ ، مصدر سابق .

« فالولايات كلها تنبع من الإمام ، وهو يفوِّض فيها ، ومن هنا كان أمر تحديد ما يدخل في اختصاص القاضي ، ويندرج تحت ولايته متروكاً للإمام ، يحدِّده بما فيه المصلحة تبعاً لحاجات الناس وأعرافهم كما نصَّ على ذلك الفقهاء »[1] .

وعلى هذا فالتَّساؤلُ الأهمُّ هو أنَّ هذه الهيئات القضائيَّة هل هي ملزمةٌ بما لا يخالف الشَّريعة ؟ هل القائمون عليها من المؤهَّلين لإصدار أحكامٍ شرعيَّةٍ في قضاياها ؟؟ لننظر في بعضها :

* **ديوان المظالم** : أنشئ هذا الديوان في عام ١٣٧٤هـ بصفته هيئةً قضائيَّةً مستقلَّةً ، وهو كما نصَّتْ المادة الأولى من نظامه الصَّادر في ١٧/ ٧/ ١٤٠٢هـ : « هيئةٌ قضائيَّةٌ إداريَّةٌ مستقلَّةٌ ، ترتبط مباشرةً بالملك ، ومقرُّه الرياض ، ويمكن بقرارٍ من رئيسه إنشاء فروعٍ له أخرى حسب الحاجة » تتمثَّل صلاحياته في :

- الدعاوى المتعلِّقة بالحقوق المقرَّرَة في نظم الخدمات المدنيَّة والتقاعد لموظَّفي ومستخدمي الدولة .
- دعاوى التعويض الموجّهة من ذوي الشَّأن في المنازعات المتعلِّقة بالعقود التي تكون الحكومة أو أحد الأشخاص المعنويَّة طرفاً فيها .
- الدعاوى التأديبيَّة التي تُرفع من هيئة الرقابة والتحقيق .
- الدعاوى الجزائيَّة الموجَّهة ضدَّ المتَّهَمين بارتكاب جرائم التَّزوير المنصوص عليها نظاماً .
- طلبات تنفيذ الأحكام الأجنبيَّة .
- الدعاوى التي من اختصاص الديوان بموجب نصوصٍ نظاميَّةٍ خاصَّةٍ[2] .

---

(١) نظام القضاء في الإسلام ، لجمال المرصفاوي ، ص ٧٧ ، مصدر سابق .

(٢) نظام ديوان المظالم ، إصدار الأمانة العامة لمجلس الوزراء ، ص ١ ، ٢ .

أمّا ما يتعلّق بالقضاة الذين ينظرون في القضايا المقدَّمة إليه، ويحكمون فيها، فقد اشترط نظامه في المادة الحادية عشرة: « أن يكون -القاضي المعيَّن في الديوان- حاصلاً على شهادة من إحدى كلّيات الشريعة في المملكة العربية السعوديَّة، أو شهادةٍ جامعيَّةٍ معَادلة »(١).

* لجان تسوية خلافات العمل: سواءٌ كانت ابتدائيَّةً أو عليا، وهي تابعةٌ لنظام العمل والعُمَّال، جاء في نظامها فيما يتعلَّق بمدى التزامها بالشريعة في المادة [١٧٣].

« تؤلَّف بقرار من مجلس الوزراء في كلٍّ مكتب من مكاتب العمل الرَّئيسيّة والفرعيّة في المملكة اللجانُ الابتدائيّة لتسويةِ الخلافات بناءً على ترشيح وزير العمل، وتُشكَّل كلُّ لجنة من ثلاثة أعضاء من أصحاب الخبرة في القضايا الحقوقيَّة، ويجب أن يكون الرئيس من حمَلة الإجازة في الشريعة، كما يجب أن يكون واحدٌ على الأقلِّ من العضوين الآخرين من حمَلة الإجازة في الشريعة أو الحقوق »(٢).

* **هيئة حسم المنازعات التجاريَّة**: من الأمور التي اتخذتْ من أجل ضمان عدم تطبيق أنظمة تخالف الشريعة الإسلاميَّة تعيين قضاة شرعيِّين فيها، حيث « أصبحتْ كلّ هيئةٍ من هيئات حسم المنازعات التجاريَّة تتكوَّن في الوقت الحاضر من عضوين منَ القضاة العاملين في المحاكم الشّرعيَّة، ومستشار قانوني، وتعقد جلساتها في المساء »(٣).

---

(١) نظام ديوان المظالم، ص ٦.

(٢) نظام العمل والعمال، وزارة الماليّة والاقتصاد الوطني، ط٣، ١٤٠١هـ.

(٣) التنظيم القضائي، لسعود الدريب، ص ٤٦٤، مصدر سابق.

* **هناك عـديدٌ من اللِّجـان المـشكَّلة لقـضـايا الغشِّ التـجـاري والمعـاييـر والمقاييس، وشؤون التموين ونحوها** ، وهي «ما يمكن اعتبارها من سلطة المحتسب في الفقه الإسلامي »[1] .

من خلال هذه الإشارة إلى بعض الهيئات القضائيَّة المقامة خارج المحاكم الشَّرعيَّة ، نرى أنَّ الأنظمة تقيِّدها بالشريعة الإسلاميَّة في سير أعمالها القضائيَّة من خلال تعيين القضاة الشَّرعيِّين للعمل فيها .

هذا فضلاً عن حاكميَّة النظام الأساسي الذي يلزم بجعل الشريعة الإسلاميَّة مهيمنةً على كلّ حركة الدولة ، وأولها الأنظمة القضائيَّة ، سواءٌ كانت داخل المحاكم أو خارجها ؛ مما يعني بطلان أيّ تنظيمٍ قضائيٍّ مخالفٍ للشريعة أيّاً كان موقعه في مؤسسات الدولة .

ولكن مع هذا كلّه فإنّ تعدُّد الهيئات القضائيَّة وإن لم يكن مشكلةً نظريَّةً إذا التزمت الهيئات حكم الشَّريعة ، إلا أنَّه يُخشى من أن يؤدِّي إلى ضعف هيبة القضاء، وتعامل الناس مع الأنظمة الصَّادرة من تلك الهيئات تعاملاً قانونيّاً بحتاً، لا يشعرون فيه بتلك الرُّوح التي يشعر بها المسلم حينما يتلقَّى حُكم القاضي الشرعي في المحكمة عليه ؛ لأنه -هنا- يشعر أنه يتلقَّى حكم الشَّريعة، حتى أصبحت الشَّريعةُ لدى النَّاس مطابقةً للقضاء ، فيقولون : « نجلس شرعاً » « الشرع يدعوك » . . . إلخ .

لهذا نظر إليه ذَوُو الحكمة والعلم على أنَّه -كما يقول سعود الدّريب- « بادرةٌ خطيرةٌ في تعدُّد جهات القضاء ، والإخلال بوحدته ؛ ولهذا فقد ناشد المسؤولون عن القضاء العام « الشَّرعي » أولي الأمر وَضْعَ حدٍّ للتَّوسُّع في هذا

(١) تطبيق الشريعة الإسلاميّة ، للدكتور الزايدي ، ص٣٠٠ .

المجال ، ومعالجة الوضع القائم بما يلم شمل القضاء ، ويعيد إليه وحدته التَّامَّة»[1] وقد استجابتْ الدَّولة انطلاقاً من التزامها الشَّرعي بالإسلام وحماية جنابه من المؤثِّرات السَّلبية عليه ، فصدر في ١٤/ ٩/ ١٤٠١هـ قرارُ مجلس الوزراء رقم [١٦٧] قاضياً بتوحيد مهامٍّ الهيئات المتعددة في جهةٍ واحدةٍ تحت وزارة العدل .

جاء في القرار :

- إنشاء محاكم متخصِّصة تفصل في المنازعات التجاريَّة والعمَّاليَّة والمروريَّة طبقاً للأنظمة والتعليماتً التي أصدرها وليُّ الأمر بما لا يتعارض مع نصٍّ من الكتاب أو السنة أو الإجماع .
- يتم اختيار القضاة الذين يُكَلَّفون بالعمل في المحاكم التجاريَّة والعماليَّة والمروريَّة خلال ساعات الدوام الرَّسمي من بين القضاة العاملين في المحاكم .
- يُخصَّص في محكمَتَيْ التمييز بالرِّياض ومكَّةَ دائرتان لتمييز الأحكام الصَّادرة من المحاكم التجاريَّةِ والعُمَّاليَّةِ والمروريَّةِ .
- تدرَّس الأنظمة السّعودية في المعهد العالي للقضاء وفي كليَّات الشَّريعة
- تُشكَّلُ لجنةٌ من وزارة الدَّاخلية ووزارة العدل ووزارة التخطيط ووزارة العمل والشؤون الاجتماعيَّة ، ووزارة المالية والاقتصاد الوطني ، والديوان العام للخدمة المدنيَّة وشعبة الخبراء ، لتكون تحت إشراف وزير العدل باقتراح ما يلزم لتنفيذ ما ورد في هذا القرار من قواعد تنظيميَّةٍ

(١) التنظيم القضائي ، ص ٥٣٦ ، مصدر سابق .

وإجراءات قضائيَّة [1] .

ولا ريب أن هذا القرار المشكور من مجلس الوزراء يعالج تلك الثَّغْرَة المشار إليها في تعدد الأنظمة ، والأمل معقودٌ -بعد الله- بمعالي وزير العدل الكريم أن يُفَعِّلَ دور اللَّجنة المُوصَى بتشكيلها لتستكمل تلك الجوانب تطبيقها العملي ، ولتتبع الأنظمة المنقولة في مختلف الشُّؤون التجاريَّة والعماليَّة والمروريَّة لتعديلها وَفْقَ أحكام الشَّريعة ومقاصدها العامة .

ونختم هذا المبحث بمسألة تُثَارُ أمام المادة الأولى من نظام القضاء ، القاضية بأنَّ « القضاة مستقلُّونَ لا سلطان عليها في قضائهم لغير أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة والأنظمة المَرْعيَّة ، وليس لأحدٍ التَّدخُّل في القضاء » .

تتعلق المسألة برفع الأحكام القضائية المتعلقة بجرائم الحدود والقصاص إلى الملك لتصديقها ، وأنَّ ذلك قد يُفهم منه عدم استقلال القضاء ، وقد نقل الدكتور الزايدي إجابةَ رئيس مجلس القضاء الأعلى الشَّيخ صالح اللَّحيدان على هذه المسألة ، وهي قوله : « رفع الأحكام القضائية إلى الملك لتصديقه عليها لا يعني ذلك أنَّ من حق الملك أن يُلْغيَ بعض الأحكام أو يُخفِّفَها ، إنما ترفع إليه لإبلاغه لإصدار أمره بإنفاذ ما تقرر شرعاً إلى الجهة التَّنفيذيَّة المختصَّة ، فليس من حق أي أحد كائناً من كان إذا اكتسب الحكم صبغتَهُ الشَّرعيَّةَ في القصاص والحدِّ أن يخفِّفَه أو يُلْغِيَ مفعوله ، إنما مهمَّة وليِّ الأمر إنفاذه »[2] .

وخلاصة القول في هذا المبحث أنَّ القضاء يمثل أبرز مظاهر تطبيق الشريعة

---

(١) التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية ، لحسن آل الشيخ ، ص ٣، الطبعة الأولى، جدة ، ١٤٠٤هـ.

(٢) تطبيق الشريعة الإسلامية في العصر الحاضر ، للزايدي ١/ ٢٩٤ .

الإسلاميَّة ، وأنَّ المملكة العربيَّة السّعوديَّة منذ نشأت وما تزال تمنح ولاءها الكامل لهذا المظهر ، وتسعى لإعلاء منار الشَّريعة في مجال القضاء ، وتصدر القرارات التي تتابع جوانب التَّطور في مجالات الحياة المدنيَّة من أجل احتوائها تحت ظلال الشَّريعة الإسلاميَّة ، وهي بهذا تتفَرَّدُ بين دول العالم في هذا العصر .

المبحث الرَّابع

التَّعليـــــم

بناء شخصيَّة الفرد في مجتمعٍ أو أمَّة بالعلم النافع في إقامة الحياة بما يُحقِّق السَّعادة الفرديَّةَ والاجتماعيَّةَ، سواء سُمِّيَ هذا البناء تربيةً أو تعليماً -وهما لدينا متداخلان، ذكرُ أحدهما يعني الآخر- من أهمِّ إن لم يكن أهمَّ عناصر وجود الأمم الذي من خلاله تعلو أو تهبط حضاريّاً.

« لذا نجد أنَّ الأمم تفزع إلى التربيَّة والتعليم كلما شعرتْ بالتَّفسُّخ أو فقدان المناعة أمام غيرها، أو التراجع الحضاري أو غير ذلك من الأعراض التي تَدلُّ على تناقص الحيويَّة الثقافيَّة عندها »(١) .

بل إنك لو نظرت -كما يقول الدكتور فاخر عقل- في الحياة الإنسانية على ظهر هذه البسيطة لوجدتَ أنَّ العمليَّة التَّربويَّة هي أهم ما في هذه الحياة، فيها يُهيِّئ المجتمع أجياله الصَّاعدة لحياتهم المقبلة، وبها أيضاً ينقل إليهم تراثه ومعارفه، وبها كذلك يضمن استمرار قيَمه ومُثُله من جهة، كما يضمن تَقدُّمه من جهة أخرى، والحقُّ أنَّ التربية مسؤولةٌ عن كلِّ ما يصيب المجتمع من عِللٍ وأدْوَاءٍ، أو ما يتحقَّق له من نهضةٍ ورفعة(٢)، هذا بشكلٍ عامٍ.

أمَّا في الإسلام فإنَّ العلم النافع وتطبيقه هو السَّبيل لتحقيق الحياة الإنسانية والظهور الحضاري، فالتعليم في المنظور الإسلامي من أهمِّ وأوَّل الضَّروريات التي بها تحفظ الكليات الخمس، التي جاء الإسلام بحفظها، وهي:

---

(١) بحوث الملتقى الإسلامي الأول لدول آسيا، بحث الأساس الثقافي للتربية الإسلامية، للمؤلف، ص ٢٩، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٦هـ.

(٢) الموجز في تاريخ التربية، لجورج شهلا، من مقدمة فاخر عقل، ص ٩، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

والرَّسول ﷺ إنما بُعث مُعلِّماً[1] ، وقد أخبر ربُّنا - سبحانه - أنه أرسل رسوله للتعليم والتربية على المنهج السَّوي فقال سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [2] .

- فتلاوة الآيات على الصحابة .
- وتزكيتهم نفسيّاً وعقليّاً وجسميّاً .
- وتعليمهم الكتاب .
- وتعليمهم الحكمة .

كلها عناصر تعليمٍ تربويٍّ استطاع به النبي ﷺ تكوين جيل نموذجيٍّ في كلّ جوانب إنسانيَّته لم يصل إلى مستواه أيُّ جيل تالٍ على الرَّغم من توسع الثقافة ، وتهيُّؤ الإمكانات ، لقد قال عنه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وقد شهده وعاين الجيل التالي له « . . . . أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أبرَّ الأمَّة قلوباً ، وأعمقَها علماً ، وأقلَّها تكلفاً »[3] .

وهنا نتساءل ما كُنْهُ التعليم أو التربية في الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ والذي سيرتبط به قدر الأمَّة المنتسبة إلى الإسلام عبر التاريخ تحققاً لإسلاميَّتها ، ومن ثم عُلوُّها بالأخذ به ، وخللاً في تديُّنِها ، ومن ثم فسادٌ لأحوالها بعُزوفها عنه ؟

---

(١) روى ابن ماجه بإسناد ضعيف عنه ﷺ « إنما بعثت معلماً » . سنن ابن ماجه ، تحقيق الأعظمي ، ١/ ٤٩ .

(٢) الآية رقم (٢) من سورة الجمعة .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق التركي والأرناؤوط ، ٢/ ٤٦ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ.

إن أهم الأهداف التي ينبغي أن يقوم بها التعليم الإسلامي كما توجه إليه نصوص القرآن والسنة هي :

١- رعاية الفطرة الإنسانيَّة السَّامية لتبقى مُشعَّةً بما فيها من حقٍّ وتوحيد، وذلك بتعريف الإنسان بخالقه ، وخاصية العلاقة بين الخالق والمخلوق على أساس ربانيَّة الخالق وإلهيته تعالى ، وعبوديَّة الإنسان له عبوديَّةً شاملةً لسلوك الإنسان واتجاهه - نيَّته- .

٢- تقويم سُلوك الإنسان في علاقاته بمن حوله من النَّاس على اختلاف نوعيَّة صلتهم به، حتى تنسجم مع المنهج الإسلامي في صورتها الظاهرة ووجهتها الباطنة .

٣- توجيه الإنسان إلى تحقيق الاستخلاف في الأرض، ومواجهة متطلبات حياته المادية، سيراً في الأرض ، وتعلُّماً لصنائعها، واستثماراً لخيراتها فيما يرضي الله سبحانه .

٤- تحقيق الولاء للأمة المسلمة وتوجيه الفرد ليكون لَبِنَةً في بنيانها الشَّامخ القائم على روابط العلاقات الاجتماعيَّة التي شرعها الإسلام، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

---

(١) الآيات (٧٢-٧٤) سورة الأنفال .

فهي إيمانٌ بالله وهجرةٌ في سبيل هذا الإيمان لتحقيق الاجتماع الإيماني، وجهادٌ في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة منار العدل، وتكافلٌ اجتماعي يتمثّل في الرّفد المادّي والنصرة الحربيَّة .

٥- تكوين الروح الدَّعويَّة لحمل رسالة الإسلام وإقامة الشهادة على النّاس كلّهم أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وكشفاً لمكايد الشَّيطان المضلَّة لبني آدم[١] .

باتجاه هذه الأهداف كان تعليم الرسول ﷺ لأصحابه، وكان تعليم صحابته - رضوان الله عليهم - للأمَّة، حيث بعث الخلفاء الراشدون الفقهاء من الصحابة لتعليم الناس في البلاد المفتوحة ، وحينما نسخ عثمان المصاحف أرسل إلى كلِّ مصرٍ نسخةً منه .

وإذا كان التعليم العام مرتكزاً على تعليم القرآن والسنة وبناء العقيدة والشريعة في حياة الناس ، فإنَّ الخلفاء ومن جاء بعدهم اهتمُّوا بتعليم ما يحتاجه الناشئة في حياتهم من علوم اللغة والمهارات، كما في الأثر المشتهر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي كتب به إلى ساكني الأمصار : « أمَّا بعد : فعلِّموا أولادكم السِّباحة والفروسيَّة ، وروَوهم ما سار من المثل وحسُنَ من الشعر »[٢]. وكما بدأ اللحن يشيع بسبب كثرة العجم في الإسلام صاروا يُعلِّمون العربيَّة لأولادهم .

وهكذا صارتْ تتوسَّع العلوم وتتنوَّع التخصُّصات في العصر الأموي فالعبَّاسي . لكنَّها ترتكز جميعها على قاعدةٍ من العلم الشرعي الذي يحقِّق

---

(١) انظر : تطوّر مفهوم النظريَّة التربويَّة الإسلاميَّة، لماجد الكيلاني، ص ٣٤، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٦٨ ، وقد أرجعها لكتاب " البيان والتبيين " .

لصاحبه أساساً عقدياً متيناً ، وقاعدةً شرعيَّةً توجِّه سلوكه في حياته العلميَّة توجيهاً سليماً .

ولكنَّ ذلك المنهج التربوي الذي كان روح الفتوحات الإسلاميَّة وأساس الحضارة الإسلاميَّة الجامعة بين العلميَّة والخلقيَّة ، لم يلبثْ أن ضعف واختلَّ بفعل عوامل كثيرة ، وآل أمره إلى حالة لا تنفع طالب العلم ذاته ، ولا مجتمعه بتحويله إلى عنصرٍ إيجابيٍّ يرتقي بمجتمعه في تحقيق إسلاميّته وإنسانيّته ومدنيَّته .

يقول محمد المبارك واصفاً : « لقد آل الأمر بالنظام التعليمي الموروث إلى الجمود والتقليد ، وضعف ملكة النقد والمناقشة والتفكير الجزئي ، والبعد عن قضايا الحياة العمليَّة ومشكلاتها ، وعن آفاق الثقافة الواسعة ، وعن تطوُّر الثقافة ، بل حتى عن التفكير في قضايا العالم الإسلامي »(1) .

وعلى الرغم من ظهور حركات تجديديَّة لهذا النظام في مواقع مختلفة من العالم الإسلامي ، إلا أنَّ هذا النظام ظلَّ سائداً في عامَّة مجتمعات المسلمين ، حتى دخلت **نظم التعليم الحديثة** المجلوبة من أوربا إلى هذه المجتمعات ، والمشتملة على :

- العلوم الرّياضيَّة والطبيعيَّة ، وما بني عليها من تطبيقات وصناعات .

- والعلوم الإنسانيَّة المشتملة على الأدب والتاريخ والفلسفة والحقوق والاقتصاد ، وتتضمَّن هذه العلوم إلى جانب بعض الحقائق العلميَّة والآداب الإنسانيَّة الصحيحة مفاهيم وفلسفات منحرفةً ، وتقديماً للمصالح الشخصيَّة والعاطفيَّة على المبادئ والقيم الخُلقيَّة ، مما كان نتيجةً

(1) بين الثقافتين الغربيَّة والإسلاميَّة ، لمحمد المبارك ، ص ٣٦-٤٧ ، ١٤٠٠هـ.

لصراع هذا التعليم مع الديانة النصرانيَّة الكنسيَّة في أوائل عصور النهضة الأوربيَّة .

ولكنه -لا شكَّ- نظامٌ تعليميٌّ يغري المتعلِّم بما يفتحه له من آفاق الحريَّة الفكريَّة والإبداع ، وما يحيطه به من أجواء تتسم بالفاعليَّة الفكريَّة التي تشحذ همَّته بالمنافسة والمناقشة ، وتقدير النتائج العمليَّة لجهده .

لقد التقى هذان النظامان التعليميَّان في عامة مجتمعات المسلمين :

- النظام التعليمي الموروث .
- ونظام التعليم الغربي المنقول .

فأحدث ذلك مشكلةً كبرى في حياة المسلمين .

- ففي بعض البلاد قام النظامان متجاورين لكلٍّ منهما سماته الخاصة :

انكماشاً وتشبُّثاً بما كان للأوّل .

وحيويَّةً وضلالاً للثاني .

وغالباً ما تتولَّى الدولة الثاني وتدعمه ، ويبقى الأوّل أهليّاً متناقصاً .

- وفي بعض الدول حاول المسؤولون دمج التعليمين ببعضهما ، ولكن هذا الدَّمج يكون في الغالب « تغليباً للنظام الحديث على ما فيه من صبغة غير إسلاميَّة »[1] .

ولهذا تقوم الآن دعواتٌ كثيرةٌ جادَّةٌ تستهدف تجاوز الوضع الخطير لمشكلة التعليم في البلاد الإسلاميَّة ، بعد أن تبيَّنتْ ثمار هذا التعليم الخطيرة في حياة الأمة بين :

- تعليمٍ تقليديٍّ يخرج أناساً بعيدين عن واقع أمتهم وهمومها ، وهو على

(١) بين الثقافتين الغربية والإسلامية ، ص ٥٠ .

كلِّ حالٍ في طريقه إلى الانحسار النهائي .

- وتعليمٍ حديثٍ أخرج أناساً أصبحوا عوامل إفساد وتدمير في حياة أمتهم .

« إنّ واقع الأمة الإسلاميَّة المرير ثمرةٌ لخللٍ تنطوي عليه ثقافةٌ منهزمةٌ أمام الغرب من متناقضات أثمرتْ أناساً يحاربون دينهم ولغتهم ، وينسلخون من أمَّتهم ، وأثمرتْ تحطيماً للمقوِّمات في المجتمع الإسلامي ، دون أن تقيم بديلاً عنها مقوِّمات تنهض بالأمة ، وتربيةً تائهةً تخرج منظرين في مجال الفكر لقيم نهضويَّة هم أوّل المخالفين لها والمتاجرين بها ، وتبني فكر الإنسان على ما يصادم فطرته وهويَّة مجتمعه كرفض الغيبيَّات ، والأخذ بالنظريَّات المصادمة لحقائق الوحي ، ولهذا أثمرتْ مثقَّفين يمثِّلون تيهها ، يعيشون في أمتهم الإسلاميَّة ولكنهم لا ينتمون إليها ، ويحظون منها بمواقع القيادة ولكنهم لا يدينون بالولاء لها ولا لثقافتها ، فهم إمَّا غير منتمين أصلاً ، أو أنهم ينزعون إلى أيديولوجيات خارج إطار أمَّتهم قد تكون حيَّةً أو ميِّتةً »[1] .

ولم يحل المشكلة لجوء القادرين من الناس إلى مدارس خاصَّة أو جماعات دينيَّة ، مما جعل الدعوات المذكورة تسعى للإصلاح الجذري لهذه المشكلة بالمطالبة بإعادة تأسيس الحركة العلميَّة في كلِّ مجالاتها ، على الأصول الإسلاميَّة -العقديَّة والشرعيَّة- هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحويل النظام الحديث إلى نظامٍ إسلاميٍّ في فلسفته التربويَّة وأهدافه ومناهجه ، ومحتويات موادِّه ، وهو ما اشتهر باسم « أسلمة العلوم » أو « تأصيل العلوم إسلاميّاً » .

(١) بحوث الملتقى الإسلامي الأول لدول آسيا ، بحث الأساس الثقافي للتربية الإسلاميَّة ، ص ٤٠ ، مصدر سابق .

المملكة العربيَّة السعوديَّة والتعليم:

كانت الدعوة الإسلامية في المجتمع السعودي انطلاقاً من سلفيَّتها التي نظَّرها في الجانب المنهجي « التعليمي » شيخ الإسلام ابن تيمية قد أحدثتْ تغيُّراً في المسلك التعليمي الموروث بردِّ العلوم وتأسيسها على تعاليم القرآن والسنة، وجعل هذه التعاليم هي الحاكمة على كلِّ التراث اللاحق عقديّاً أو فقهيّاً، وتكامل العلوم النقليَّة مع العلوم العقليَّة في كونهما معاً علوماً شرعيَّةً ما دامتْ ملتزمةً بالأسس والغايات الإسلاميَّة[1]، ورفض التنكُّر للعلوم الطبيعيَّة حتى ولو استُمِدَّتْ من الكفّار[2].

وعلى الرغم من الأوضاع الاجتماعيَّة والسياسيَّة التي من شأنها أن تعوق الحركة العلميَّة في الدولة السعوديَّة الأولى، ثم تبعاً لها الثانية كتوحيد المناطق وإقامة الأمن، ثم مصارعة القوَّة التي استهدفتْ تلك الدولة وأسقطتها على الرغم من ذلك، فقد أثمرتْ هذه الدعوة حركةً علميَّةً متميِّزةً في المجال الشرعي واللغوي.

أمَّا المجال التَّقني فلم تكن الدولة السعوديَّة قد احتكَّتْ بالحضارة الغربيَّة بعدُ، ومع ذلك فإنَّا نستطيع أن نقول: إنّ العقل الذي بعثته هذه الحركة كان قابلاً للإثمار في هذا المجال لو تواصلتْ الدولة السعوديَّة[3].

---

(١) يقول ابن تيمية: « .. وعلى هذا فتكون العلوم الشرعيَّة قسمين: عقليَّةً وسمعيَّةً .. وقد تبيَّن بهذا أنّ كلَّ علمٍ عقليٍّ أمر به الشرع أو دلَّ الشرع عليه فهو شرعيٌّ أيضاً ». مجموع الفتاوى، ١٩/ ٢٣٣.

(٢) قال ابن تيمية: « ومن بدع المتكلّمين ردّهم ما صحّ من الفلسفة في علم الفلك والحساب ... » وقد سبق ذكره.

(٣) ينقل كشك عن مؤلف " لمع الشهاب ": « أن صناعة السلاح والبارود ظهرتْ مع الحركة في نجد، وازدهرتْ .. ووصف سلاحهم بأنه لطيف الصنعة، سريع الرَّمي، قليل الخطأ، بعيد الرّمية، خفيف المحمل ... وبارودهم أطيب بارود، فلا يحتاج أهل نجد إلى جلب البارود لهم من ملكٍ آخر ». السعوديون والحل الإسلامي، ص ١٤٥، مصدر سابق.

ولأنّ دعوة الشيخ إصلاحيَّةٌ شاملةٌ لا تستهدف فئةً فكريَّةً محدودةً ، فقد بعثتْ حركةً ثقافيَّةً عاليةً في المجال الديني ، وقضتْ على نسبة كبيرة من الأميَّة الفكريَّة في المُدن والقرى ، بل وفي البوادي التي كانت الحركة تبعث إليها معلِّمين يتتبَّعون تجمُّعات أهل البادية لتعليمهم العقيدة والعبادات والسلوك الإسلامي الصحيح .

وحينما فتح الملك عبد العزيز « الرياض » عام ١٣١٩هـ كان بحكم ثقافته الإسلاميَّة ، ومنهجه السَّلفي ، ووعيه بالواقع المحلِّي والعالمي الذي عايش تأثيراته في الخليج ، مقتنعاً بأنّ العلم هو المرتكز الذي يقوم عليه بنيان الدولة شامخاً راسخاً ؛ لأنّ صلاح الدين والدنيا معاً لا يتحقَّقان إلا بالعلم .

لهذا جعل التعليم موازياً لحركته الجهاديَّة في توحيد الجزيرة العربيَّة ، وعلى الرغم من الجهد الذي يحتاجه هذا التعليم ، إذْ إنَّ " نجداً " التي تسلَّمها عبد العزيز : «قد اندثرتْ مدارسها ومجامعها ، وسادها التفرُّق والتفتُّتُ ، وتبدَّدتْ مع الخلافات الداخليَّة نشوة الحركة العلميَّة القديمة التي ارتبطتْ ببناء الدولة السعوديَّة .

ولم يكن التعليم في هذه المرحلة إلا امتداداً ضعيفاً للحركة القديمة بفضل ما بقي من علماء المُدُن الهامَّة »[(١)] .

كانت هناك كتاتيب لتعليم القرآن الكريم في " نجد " في المدن وبعض القرى ، أمَّا البادية فلا أثر للتعليم عندهم .

أمَّا " الحجاز " فقد كان فيه إضافةً إلى الكتاتيب ، تدريسٌ في الحرمين الشريفين ، وإن كانت قد ساءتْ حال هذا التدريس في أواخر العهد الهاشمي[(٢)] .

---

(١) الملك عبد العزيز والتعليم ، لبدر الدين أبو راس ، ص ٦٦ ، مصدر سابق .

(٢) انظر : التعليم في مكة والمدينة ، لمحمد الشامخ ص ١٠٣ ، ١٩٧٣م ، والمصدر السابق ، ص ٩٠ .

أيضاً كان فيه بعض المدارس الأهليَّة الخاصَّة ببعض الجاليات ، ومدارس حكوميَّةٌ محدودةٌ .

أمَّا في " عسير " فقد أنشئتْ مدرسةٌ تركيَّةٌ لتتريك الناشئة .

وفي " الأحساء " فتح العثمانيُّون ثلاث مدارس حكوميَّةً في « الهفوف »[1] .

لقد اتجه الملك عبد العزيز في التعليم اتِّجاهين :

الأوّل : تمثَّل في التعليم العام بدعم الكتاتيب القائمة وتوسيعها ، وتكثير حلقات العلم في المساجد ، وبالذات في المُدُن ، وبإرسال طلاب العلم في جولات تثقيفيَّة للباديَّة لتعليمهم أمور دينهم ، كما أنشأ الملك عبد العزيز « نظام الهجر » وهو نظامٌ تعليميٌّ تربويٌّ يتمثَّل في توطين البادية في مواقع فيها مياه يُبنى بها مسجدٌ ومحلات استقرار ، ويكون المسجد مركزاً لإقامة صلواتهم ، وتعليمهم أمور دينهم ، ونفي الجهل عنهم ، والقضاء في مشكلاتهم .

ومن ذلك أيضاً إرسال العلماء لا في جولات قصيرة محدودة ، وإنما في مهمَّات مستمرَّة تمتدُّ سنوات ، حيث يقوم العالم بحركة علميَّة قضائيَّة دعويَّة تغطِّي المساحة التي تستطيعها قدراته ، ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذه المهمَّات :

- الشيخ/ عبد الله بن حسن آل الشيخ ، بعثه إلى هجرة الأرطاوية .
- فيصل بن عبد العزيز المبارك ، تنقَّل بين عدَّة أماكن كان آخرها " الجوف " حيث ظلَّ فيه بقيَّة حياته قاضياً ومدرِّساً .
- عبد العزيز بن محمد الشثري ، الذي عيَّنه الملك عبد العزيز عند

---

(١) انظر : الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، ١/ ٢٢٧ ، وما بعدها ، مصدر سابق .

قبائل قحطان المهاجرة في وادي " الرّين " قاضياً ومفتياً ، ومعلِّماً وواعظاً سنين طويلةً .

- عبد الله بن محمد القرعاوي ، الذي توجَّه إلى جنوب المملكة منذ عام ١٣٥٧هـ، وظلّ متنقِّلاً فاتحاً للمدارس ، مربِّياً للمعلِّمين حتى بلغتْ المدارس التي فتحها عام ١٣٧٦هـ (٢٨٠٠) مدرسةً ، وتجاوز الطلاب خمسةً وسبعين ألفاً ، منهم خمسة عشر ألف تلميذة . وقد ضمَّتْ هذه المدارس لوزارة المعارف عام ١٣٧٩هـ[1] .

الثاني : إنشاء التعليم النظامي القائم على المنهج السَّلفي والمرتبط بالمصالح الشَّرعيَّة للفرد والوطن والأمة .

وفي هذا السَّبيل أنشئتْ « مديريَّة المعارف » في عام ١٣٤٤هـ التي تحوَّلتْ في عام ١٣٧٣هـ إلى وزارة المعارف التي رأسها الأمير فهد ابن عبد العزيز (خادم الحرمين الشريفين الآن) كما رأس المجلس الأعلى السعودي للتعليم وهو أعلى سلطة تعليميَّة في المملكة[2] .

وفي ظلِّ هذا المسلك (التعليم النظامي) برزتْ مؤسساتٌ علميَّةٌ منوَّعةٌ لتلبية الحاجة الحضاريَّة للمجتمع السعودي ، من أبرزها :

- المعهد العلمي السعودي في مكّة المكرّمة عام ١٣٤٤هـ .
- مدرسة الأمراء عام ١٣٥٤هـ .
- مدرسة تحضير البعثات عام ١٣٥٥هـ .
- دار التوحيد بالطائف عام ١٣٦٤هـ .
- ثم كليّة الشريعة بمكة ، فمعهد الرياض العلمي ، فكليَّة الشريعة بالرياض .

---

(١) انظر : الباب الثالث : رجال العلم والدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، ص٥٩١ من كتاب " الدعوة في عهد الملك عبد العزيز " .

(٢) الأصالة والمعاصرة ، للفارسي ، ص ٣٦١، مصدر سابق .

ولما كان التعليم مدعوماً من الدولة مادياً بمجانيّته وصرف مكافآت لبعض مراحله، ومعنوياً بتشجيعه ، وتقدير صاحبه وظيفياً وجاهياً فضلاً عما في شعور المسلم من قيمة شرعيَّة للعلم وطلبه -لهذا- انطلقتْ نهضةٌ تعليميَّةٌ ممتدَّةٌ أفقياً لكلّ فئات الشعب ، ورأسياً في مراحل التعليم المختلفة ، حتى قفزتْ الأرقام بصور كبيرة .

وتراجعت الأمية التي كانت هي السائدة بنسبة كبيرة قياساً بزمنها وصارت المملكة من أعلى المجتمعات الإسلاميَّة في مستوى الثقافة الدينيَّة المؤسسة على تعاليم القرآن والسنة .

ولما كان هدفنا الحديث -فقط- عن إسلاميَّة التعليم في المملكة ، فإنَّا نعود لنقرِّر أنَّ اعتماد الدولة ممثَّلةً في مجلس التعليم الأعلى ووزارة المعارف على قاعدتها الرِّساليَّة المتمثِّلة بالمنهج السَّلفي في نظرته المتميِّزة للعلم والتعليم الذي أشرنا إلى بعض عناصره، جعلها تجمع بين الأصالة الحقيقيَّة مع المعاصرة الواعية، وبالتالي تنتج تلك المأثرة الفريدة التي ستظلّ مناط فخر المملكة العربية السعوديَّة، ودليلاً على صفاء إسلاميَّة المنهج الذي تعلنه ، وبرهاناً على أنّ وراء هذه المأثرة رجالاً يجمعون بين الرُّسوخ في العلم الشرعي والفقه بالواقع الفكري والحضاري المعاصر .

ستظلّ بها المملكة قدوةً في نظام التعليم لأيِّ دولة أو مؤسّسة إسلاميَّة تريد تحقيق إسلاميَّة وصلاح منهجها التعليمي، وتجاوز الثغرات التي تطبع عامة النظم التعليميَّة الموروثة أو الحديثة الوافدة .

هذه المأثرة الجليلة تتمثَّل في « سياسة التعليم في المملكة العربيَّة السعوديَّة » التي تمَّ اعتمادها بقرار مجلس الوزراء رقم [٧٧٩] في ١٦-١٧/ ٩/ ١٣٨٩هـ .

هذه السياسة التي استطاعتْ بصياغتها المحكمة ، وأسلوبها المركَّز الواضح ، أن تجتاز بالتعليم السعودي جوانب الضعف ، وأحاديَّة النظرة والانكماش ، ورتابة الفكر ، وغيرها من سمات التعليم التقليدي في مجتمعات المسلمين إلى عهد قريب ، وأن تؤسّسه على الحقائق التي ازدراها آخرون فتاهوا وعادوا يهتمُّون بها لإدراكهم خطورة التخلِّي عنها .

فمثلاً : اليابان الحديثة ، اعتمدتْ -كما يقول " برتراند رسل "- النزعة التي تغلب على جميع الدول العظمى : « نزعة جعل العظمة الوطنيَّة الهدف الأسمى للتربية»[1] . هذه النزعة أذكتها الدولة من خلال جعل الديانة (الشنتو) أساساً يعتمده رجل الفكر كما يعتمده رجل السياسة فضلاً عن رجل الدين ، ورغم أنها ديانةٌ وثنيَّةٌ إلا أنه : « لا يصح أن يتشكَّك فيها حتى الأساتذة الجامعيُّون . . »[2] .

لكنَّ مُفكِّري التغريب في العالم الإسلامي عكسوا القضيَّة ، فجعلوا استبعاد الدين والتشكيك في عقائده من مطلوبات المنهج التعليمي .

أمَّا السياسة التعليميَّة فقد بنتْ التعليم في المملكة على الإسلام عقيدةً وشريعةً علماً به وتطبيقاً له وولاءً لمنهجه .

ومثل ذلك أيضاً الأخلاق حيث فُصلَتْ في المناهج المستغربة عن التعليم ، وعُدَّتْ من المؤثّرات السَّلبيَّة على حريَّة الفَكر وموضوعيَّة التعلُّم ، ولكن الآثار السيِّئة لهذا الفصل جعلتْ العقلاء يتراجعون موقنين « أنّ العلم هو أحد مظاهر العبقريَّة الإنسانيَّة ، إلا أنَّ المشكلة هي في انفصاله عن الاتجاه الإنساني والقيم

---

(١) في التربية ، برتراند رسل ، ترجمة سمير عبده ، ص ٤٠ ، ١٩٦٤م.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١ .

الأساسيَّة لحياة البشر ، وهذا أمرٌ يتطلَّب تحديد مفهوم جديد للعلم ، مفهومٍ يُنَسِّق بين التقدُّم في مجالات العلوم والعلوم الاجتماعيَّة سواءً »[1] .

أمَّا سياستنا التعليميَّة فإنّ القيم الخلقيَّة هي عمادها بعد الأساس العقدي ، ولهذا فإنَّ من عجيب أمر بعض المفكِّرين العرب أن مواضع نقدهم في هذه السياسة هي عناصر أصالتها إسلاميّاً وحضاريّاً ، مثل :

- تأكيد الإيمان بالغيبيَّات .
- جعل العقيدة الدينيَّة محور الحركة الفكريَّة والعلميَّة .
- جعل القيم الخلقيَّة ضوابط تعليميَّةً . . . إلخ .

ولأنّ هذه السياسة معبِّرةٌ عن نفسها من حيث تحقيق الإسلاميَّة في ركائزها وغايتها وأهدافها فإنّي أثبتها هنا دون حاجة لتعليق في ثناياها :

«١- السياسة التعليميَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة تنبثق من الإسلام الذي تدين به الأمَّة عقيدةً وعبادةً وخلقاً وشريعةً وحكماً ونظاماً متكاملاً للحياة ، وهي جزءٌ أساسيٌّ من السياسة العامة للدولة .

الأسس العامة التي يقوم عليها التعليم في المملكة:

٢- الإيمان بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً .

٣- التصوُّر الإسلامي الكامل للكون والإنسان والحياة ، وأنَّ الوجود كله خاضعٌ لما سنَّه الله تعالى ؛ ليقوم كل مخلوقٍ بوظيفته دون خللٍ أو اضطراب .

٤- الحياة الدنيا مرحلة إنتاجٍ وعملٍ ، يستثمر فيها المسلم طاقاته عن إيمانٍ

---

(١) تقرير المستشارين بشأن المشكلات العالميَّة الكبرى في منظمة اليونسكو ، عن تطوُّر مفهوم التربية الإسلاميَّة ، للكيلاني ، ص ٢٢٥ .

وهدي للحياة الأبديَّة الخالدة في الدار الآخرة، فاليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ.

٥- الرّسالة المحمَّديَّة هي المنهج الأقوم للحياة الفاضلة التي تحقق السعادة لبني الإنسان، وتنقذ البشريَّة ممَّا تردَّتْ فيه من فساد وشقاء.

٦- المثل العليا التي جاء بها الإسلام لقيام حضارة إنسانيَّة رشيدة بنَّاءة تهتدي برسالة محمَّد ﷺ لتحقيق العزَّة في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

٧- الإيمان بالكرامة الإنسانيَّة التي قرَّرها القرآن الكريم، وأناط بها القيام بأمانة الله في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1].

٨- فرص النُّموِّ مهيَّأةٌ أمام الطالب للمساهمة في تنمية المجتمع الذي يعيش فيه، ومن ثمَّ الإفادة من هذه التنمية التي شارك فيها.

٩- تقرير حقّ الفتاة في التعليم بما يلائم فطرتها، ويعدها لمهمَّتها في الحياة، على أن يتمَّ هذا بحشمة ووقار، وفي ضوء شريعة الإسلام، فإن النساء شقائق الرجال.

١٠- طلب العلم فرضٌ على كلّ فرد بحكم الإسلام، ونشره وتيسيره في المراحل المختلفة واجبٌ على الدولة بقدر وسعها وإمكانيَّاتها.

١١- العلوم الدينيَّة أساسيَّةٌ في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي بفروعه، والثقافة الإسلاميَّة مادَّةٌ أساسيَّةٌ في جميع سنوات التعليم العالي.

١٢- توجيه العلوم والمعارف بمختلف أنواعها وموادِّها منهجاً وتأليفاً وتدريساً وجهةً إسلاميّةً في معالجة قضاياها والحكم على نظريَّاتها

---

(١) الآية رقم (٧٠) من سورة الإسراء.

وطرق استثمارها ، حتى تكون منبثقةً من الإسلام ، متناسقةً مع التفكير الإسلامي السَّديد .

١٣- الاستفادة من جميع أنواع المعارف الإنسانيَّة النافعة على ضوء الإسلام ، للنهوض بالأمة ورفع مستوى حياتها ، فالحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها .

١٤- التناسق المنسجم مع العلم والمنهجيَّة التطبيقيَّة « التقنيَّة » باعتبارهما من أهمّ وسائل التنمية الثقافيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والصحيَّة ، لرفع مستوى أمتنا وبلادنا ، والقيام بدورنا في التقدُّم الثقافي العالمي .

١٥- ربط التربية والتعليم في جميع المراحل بخطَّة التنمية العامة للدولة .

١٦- التفاعل الواعي مع التطوُّرات الحضاريَّة العالميَّة في ميادين العلوم والثقافة والآداب ، بتتَبُّعها والمشاركة فيها ، وتوجيهها بما يعود على المجتمع والإنسانيَّة بالخير والتقدُّم .

١٧- الثقة الكاملة بمقوِّمات الأمة الإسلاميَّة ، وأنها خير أمّة أُخرجتْ للناس ، والإيمان بوحدتها على اختلاف أجناسها وألوانها وتباين ديارها : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1] .

١٨- الارتباط الوثيق بتاريخ أمتنا وحضارة ديننا الإسلامي ، والإفادة من سير أسلافنا ، ليكون ذلك نبراساً لنا في حاضرنا ومستقبلنا .

١٩- التضامن الإسلامي في سبيل جمع كلمة المسلمين وتعاونهم ودرء الأخطار عنهم .

٢٠- احترام الحقوق العامة التي كفلها الإسلام وشَرَعَ حمايتها حفاظاً على الأمن ، وتحقيقاً لاستقرار المجتمع المسلم في : الدين ، والنفس ، والنسل ، والعرض ، والعقل ، والمال .

---

(١) الآية رقم (٩٢) من سورة الأنبياء .

٢١- التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع : تعاوناً، ومحبَّةً ، وإخاءً ، وإيثاراً للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

٢٢- النُّصْح المتبادل بين الرَّاعي والرَّعيَّة بما يكفل الحقوق والواجبات ، وينمِّي الولاء والإخلاص .

٢٣- شخصيَّة المملكة العربيَّة السعوديَّة متميِّزةٌ بما خصَّها الله من حراسة مقدَّسات الإسلام، وحفاظها على مهبط الوحي ، واتخاذها الإسلام عقيدةً وعبادةً وشريعةً ودستور حياة ، واستشعار مسؤوليَّتها العظيمة في قيادة البشريَّة بالإسلام وهدايتها إلى الخير .

٢٤- الأصل هو أنّ اللغة العربيَّة لغة التعليم في كافة موادِّه وجميع مراحله ، إلا ما اقتضت الضرورة تعليمه بلغة أخرى .

٢٥- الدعوة إلى الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بالحكمة والموعظة الحسنة من واجبات الدولة والأفراد ، وذلك هدايةً للعالمين، وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، وارتفاعاً بالبشر في مجال العقيدة إلى مستوى الفكر الإسلامي .

٢٧- القوَّة في أسمى صورها وأشمل معانيها : قوّة العقيدة، وقوَّة الخلق، وقوَّة الجسم : « فالمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ » .

غاية التعليم في المملكة:

٢٨- غاية التعليم : فهم الإسلام فهماً صحيحاً متكاملاً، وغرس العقيدة الإسلاميَّة ونشرها، وتزويد الطالب بالقيم والتعاليم الإسلاميَّة ، وبالمثل العليا، وإكسابه المعارف والمهارات المختلفة، وتنمية الاتجاهات السُّلوكيَّة البنَّاءة وتطوير المجتمع اقتصاديّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً، وتهيئة الفرد ليكون عضواً نافعاً في بناء مجتمعه .

الأهداف الإسلاميَّة العامة التي تحقق غاية التعليم:

٢٩- تنمية روح الولاء لشريعة الإسلام، وذلك بالبراءة من كلّ نظام أو مبدأ يخالف هذه الشريعة، واستقامة الأعمال والتصرُّفات وفق أحكامها العامة الشاملة .

٣٠- النصيحة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بصيانتهما ، ورعاية حفظهما ، وتعهُّد علومهما ، والعمل بما جاء فيهما .

٣١- تزويد الفرد بالأفكار والمشاعر والقدرات اللازمة لحمل رسالة الإسلام.

٣٢- تحقيق الخلق القرآني في المسلم ، والتأكيد على الضوابط الخلقيَّة لاستعمال المعرفة : « إنّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ مكارم الأخلاق » .

٣٣- تربية المواطن المؤمن ليكون لَبِنةً صالحةً في بناء أمته، ويشعر بمسؤوليّته لخدمة بلاده والدفاع عنها .

٣٤- تزويد الطالب بالقدر المناسب من المعلومات الثقافيَّة ، والخبرات المختلفة التي تجعل منه عضواً عاملاً في المجتمع .

٣٥- تنمية إحساس الطلاب بمشكلات المجتمع الثقافيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ، وإعدادهم للإسهام في حلِّها .

٣٦- تأكيد كرامة الفرد وتوفير الفرص المناسبة لتنمية قدراته حتى يستطيع المساهمة في نهضة الأمة .

٣٧- دراسة ما في هذا الكون الفسيح من عظيم الخلق ، وعجيب الصنع ، واستكشاف ما ينطوي عليه من أسرار قدرة الخالق للاستفادة منها وتسخيرها لرفع كيان الإسلام وإعزاز أمَّته .

٣٨- بيان الانسجام التام بين العلم والدين في شريعة الإسلام ، فإنَّ الإسلام دينٌ ودنيا، والفكر الإسلامي يفي بمطالب الحياة البشريَّة في أرقى صورها في كلِّ عصرٍ .

٣٩- تكوين الفكر الإسلامي المنهجي لدى الأفراد ؛ ليصدروا عن تصوُّر إسلاميٍّ موحَّدٍ فيما يتعلَّق بالكون والإنسان والحياة، وما يتفرَّع عنها من تفصيلات .

٤٠- رفع مستوى الصحَّة النفسيَّة بإحلال السَّكينة في نفس الطالب، وتهيئة الجوِّ المدرسي المناسب .

٤١- تشجيع وتنمية روح البحث والتفكير العلميين، وتقوية القدرة على المشاهدة والتأمل، وتبصير الطُّلاب بآيات الله في الكون وما فيه، وإدراك حكمة الله في خلقه لتمكين الفرد من الاضطلاع بدوره الفعال في بناء الحياة الاجتماعيَّة وتوجيهها توجيهاً سليماً .

٤٢- الاهتمام بالإنجازات العالميَّة في ميادين العلوم والآداب والفنون المباحة، وإظهار أنّ تقدُّم العلوم ثمرةٌ لجهود الإنسانيَّة عامة، وإبراز ما أسهم به أعلام الإسلام في هذا المجال ، وتعريف الناشئة برجالات الفكر الإسلامي، وتبيان نواحي الابتكار في آرائهم وأعمالهم في مختلف الميادين العلميَّة والعمليَّة .

٤٣- تنمية الفكر الرِّياضي والمهارات الحسابيَّة، والتَّدرُّب على استعمال لغة الأرقام والإفادة منها في المجالين العلمي والعَمَلي .

٤٤- تنمية مهارات القراءة وعادة المطالعة سعياً وراء زيادة المعارف .

٤٥- اكتساب القدرة على التعبير الصحيح في التخاطب والتحدُّث والكتابة بلغة سليمة وتفكير منظَّم .

٤٦- تنميَة القدرَة اللُّغويَّة بشتَّى الوسائل التي تغذِّي اللُّغة العربيَّة، وتساعد على تذوُّقها وإدراك نواحي الجمال فيها أسلوباً وفكرةً .

٤٧- تدريس التاريخ دراسةً منهجيَّةً مع استخلاص العبرة منه، وبيان وجهة

نظر الإسلام فيما يتعارض معه، وإبراز المواقف الخالدة في تاريخ الإسلام وحضارة أمته، حتى تكون قدوةً لأجيالنا المسلمة، وتولّد لديها الثقة والإيجابيَّة .

٤٨- تبصير الطُّلاب بما لوطنهم من أمجاد إسلاميَّة تليدة، وحضارة عالميَّة إنسانيَّة عريقة، ومزايا جغرافيَّة وطبيعيَّة واقتصاديَّة، وبما لمكانته من أهميَّة بين أمم الدنيا .

٤٩- فهم البيئة بأنواعها المختلفة، وتوسيع آفاق الطُّلاب بالتعرف على مختلف أقطار العالم، وما يتميَّز به كلُّ قطر من إنتاج وثروات طبيعيَّة، مع التأكيد على ثروات بلادنا ومواردنا الخام، ومركزها الجغرافي، والاقتصادي، ودورها السياسي القيادي في الحفاظ على الإسلام، والقيام بواجب دعوته، وإظهار مكانة العالم الإسلامي، والعمل على ترابط أمته .

٥٠- تزويد الطلاب بلغة أخرى من اللغات الحيَّة على الأقلّ، بجانب لغتهم الأصليَّة، للتزوّد من العلوم والمعارف والفنون والابتكارات النافعة، والعمل على نقل علومنا ومعارفنا إلى المجتمعات الأخرى، وإسهاماً في نشر الإسلام وخدمة الإنسانيَّة .

٥١- تعويد الطُّلاب العادات الصحيَّة السَّليمة، ونشر الوعي الصحي .

٥٢- إكساب الطُّلاب المهارات الحركيَّة التي تستند إلى القواعد الرياضيَّة والصحيَّة لبناء الجسم السَّليم، حتى يؤدّي الفرد واجباته في خدمة دينه ومجتمعه بقوَّة وثبات .

٥٣- مسايرة خصائص مراحل النمو النفسي للناشئين في كلّ مرحلة، ومساعدة الفرد على النموِّ السَّوي : روحياً وعقليّاً وعاطفيّاً، واجتماعيّاً، والتأكيد على الناحية الروحيَّة الإسلاميَّة، بحيث تكون هي الموجّه الأول للسلوك الخاص والعام للفرد والمجتمع .

٥٤- التعرّف على الفروق الفرديَّة بين الطلاب توطئةً لحسن توجيههم، ومساعدتهم على النموّ وفق قدراتهم واستعداداتهم وميولهم .

٥٥- العناية بالمتخلِّفين دراسيّاً، والعمل على إزالة ما يمكن إزالته من أسباب هذا التخلُّف، ووضع برامج خاصَّة دائمة ومؤقَّتة وفق حاجاتهم.

٥٦- التربية الخاصة والعناية بالطُّلاب المعوَّقين جسميّاً أو عقليّاً، عملاً بهدي الإسلام الذي يجعل التعليم حقّاً مشاعاً بين جميع أبناء الأمة .

٥٧- الاهتمام باكتشاف الموهوبين ورعايتهم، وإتاحة الإمكانات والفرص المختلفة لنموّ مواهبهم في إطار البرامج العامة، وبوضع برامج خاصَّة .

٥٨- تدريب الطاقة البشريَّة اللازمة، وتنويع التعليم مع الاهتمام الخاص بالتعليم المِهَني .

٥٩- غرس حبّ العمل في نفوس الطُّلاب ، والإشادة به في سائر صوره، والحض على إتقانه والإبداع فيه ، والتأكيد على مدى أثره في بناء كيان الأمة ، ويستعان على ذلك بما يلي :

أ - تكوين المهارات العلميَّة والعناية بالنواحي التطبيقيَّة في المدرسة، بحيث يتاح للطالب الفرصة للقيام بالأعمال الفنية اليدويَّة ، والإسهام في الإنتاج ، وإجراء التجارب في المخابر والورش والحقول .

ب- دراسة الأسس العلميَّة التي تقوم عليها الأعمال المختلفة، حتى يرتفع المستوى الآلي للإنتاج إلى مستوى النهوض والابتكار .

٦٠- إيقاظ روح الجهاد الإسلامي لمقاومة أعدائنا، واسترداد حقوقنا، واستعادة أمجادنا، والقيام بواجب رسالة الإسلام .

٦١- إقامة الصِّلات الوثيقة التي تربط بين أبناء الإسلام، وتبرز وحدة أمته »[1].

(١) سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ.

هذه هي أسس التعليم وأهدافه ، وتبقى بعدها في سياسة التعليم أهداف مراحل التعليم المختلفة ، والتخطيط لمراحل التعليم وأحكام خاصة تتعلَّق بأنواع معيَّنةٍ من التعليم ووسائل التربية والتعليم ونشر العلم . . إلخ .

وكلّ هذه الجوانب وإن انطوتْ في ظلِّ تلك الأسس والأهداف إلا أنها مأطورةٌ بصورٍ إفراديَّةٍ بالإطار الإسلامي ، ثم بالأحكام العامة التي ختمتْ بها السياسة[1] .

والذي حفزني لإثبات هذه الأسس والأهداف ، بل وتقديمها بالصيغة الخطابيَّة السابقة ، هو الشعور بغفلة الناس عنها ، وعن قيمتها الإسلاميَّة والحضاريَّة ، فإذا تحدَّث الناس عن تطبيق الشريعة ، أو إسلاميَّة المجتمع السّعودي لم يقم في آذانهم سوى جانب محدود هو الحدود الشرعيَّة والقضاء ، مع أنّ التعليم أسبق من القضاء في إسلاميَّة حياة الناس ؛ لأنّ القضاة هم خرِّيجو هذا التعليم .

فضلاً عن هذا فإنَّ كثيراً من الكاتبين عن التعليم والمناهج من المعجَبين ببعض النماذج التعليميَّة الغربيَّة أو غيرها ، وقد يكون تفكيرهم الإسلامي محدوداً يغفلون عن هذه السياسة التي تُمثِّل تفصيلاً لرسالة الدولة السعوديَّة في كلِّ جوانب حركتها ، فيتعاملون مع التعليم باقتراحاتهم ونقدهم ، وكأنه تائهٌ لا هويَّة له ، أو عفويٌّ لا يرتكز على أساس مكين .

---

(١) في ص ٥٤ باب « أحكام عامة » ورد :

٢٣٢- التعليم بكافة أنواعه ومراحله وأجهزته ووسائله يعمل لتحقيق الأغراض الإسلاميَّة ، ويخضع لأحكام الإسلام ومقتضياته ، ويسعى إلى إصلاح الفرد ، والنهوض بالمجتمع خلقيّاً وفكرياً واجتماعياً واقتصادياً .

وكما قلت فإنَّ إيراد هذه الأسس والأهداف كاف عن التحليل والتعليق، ومن أراد أن يدرك أكثر تميُّز هذه السياسة وسبقها إسلاميّاً وحضاريّاً فليقارنها بسياساتٍ تعليميَّةٍ أخرى، أو بإستراتيجيّات ثقافيَّة لدول أو منظَّمات .

على ضوء هذه السّياسة قام التعليم في المملكة في مختلف المراحل :

* **في الابتدائيَّة والمتوسِّطة** حيث يدرس الطالب إضافةً إلى العلوم الرياضيَّة والاجتماعيَّة والتقنيَّة أصول العلم الشرعي :

- القرآن الكريم حفظاً وتلاوةً، ومعرفةً بأحكام تجويده .
- والعقيدة في قضاياها الكبرى [(١)] .
- والفقه في مسائل العبادات والمعاملات التي تهمّ الطالب .
- والحديث قراءةً وشرحاً لجوامع الأحاديث في دعائم الإسلام وخصائصه، والقيم السلوكيَّة والآداب الاجتماعيَّة .
- وتفسير القرآن الكريم -في المتوسط- لبعض السور القرآنيَّة .

* **وفي الثانويَّة** تبدأ التخصصات في مجالات العلوم البحتة، والآداب . . .، ولكن تبقى العلوم الشرعيَّة بشمولها لعقيدة الإنسان وعباداته وقيمه الخلقيَّة .

وإلى جانب المتوسّط والثانوي العام توجد « المعاهد العلميَّة » التي تشتمل على مرحلتي « المتوسط والثانوي » وتتركَّز الدراسة فيها في العلوم الشرعيَّة واللُّغويَّة .

---

(١) في الابتدائي تدرس مجموعةٌ من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب السهلة العبارة، والمركّزة على معالم الإيمان والعبادة، والتعريف بالمصطلحات الشرعيَّة « العقدية » .

وفي المتوسط يدرس كتاب « التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي يحمي العقيدة من كلّ لوثات الشرك والفساد .

* **في المرحلة الجامعيَّة** وتطبيقاً للسياسة التعليميَّة التي نصَّتْ -كما سبق في رقم (١١)- على أنّ « الثقافة الإسلاميَّة مادَّةٌ أساسيَّةٌ في جميع سنوات التعليم العالي » فقد عُمِّمَتْ مادة « الثقافة الإسلاميَّة » في الكليَّات الشرعيَّة واللّغويَّة والاجتماعيَّة والتطبيقيَّة والعسكريَّة وغيرها .

وتهدف مادة الثقافة الإسلاميَّة في المرحلة الجامعيَّة إلى :

- إبراز النظرة الشموليَّة للإسلام وتخليص العقل المسلم من النظرة الجزئيَّة له ، من خلال دراسة ركائز الإسلام وخصائصه .
- تعميق انتماء الشاب المسلم لدينه وأمته ووطنه الإسلامي .
- تحصينه اعتقاداً وفكراً وسلوكاً من التيارات الغازية بدراستها وكشف زيفها .
- ربطه بحاضر أمته بما فيه من سلبيَّاتٍ وإيجابيَّاتٍ ليكون عضواً نافعاً مرتقياً بها نحو الأعلى .

وامتداداً لرسالة المملكة التعليميَّة الإسلاميَّة ، فقد سعتْ من خلال بعض جامعاتها إلى تعميم هذه المادة العظيمة في جامعات بلاد المسلمين فأثمر سعيها ؛ حيث أقرَّتْ هذه المادة بصفتها « مادّةً أساسيَّةً على مستوى الجامعات العربيَّة ، والجامعات الإسلاميَّة »[1] .

كذلك فإنه تطبيقاً للسياسة التعليميّة تشكِّل مؤسسات التعليم لجاناً لفحص المقرّرات ، وبالذات التي لها استمدادٌ من غير المسلمين لتفادي ما قد يتسرَّب من خلال الترجمة أو المراجع المعتمد عليها من لوثاتٍ عقديَّةٍ أو فكريَّةٍ

---

(١) انظر قرار مجلس اتحاد الجامعات العربيَّة ، وتوصية رابطة الجامعات الإسلاميَّة في كتاب الثقافة الإسلاميَّة -تخصّصاً ومادةً وقسماً ، ص ٥٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ.

لا تتَّسق مع منهج الإسلام .

ولأنّ التعليم المدرسي لا يستطيع تحقيق هدفه التربوي بنجاحٍ إلا بتعاون الأجهزة الأخرى معه، فقد حمَّلتْ السياسة هذه الأجهزة كرعاية الشباب والمكتبات، والصحف وسائر وسائل الإعلام مهمَّة بذل جهدها الخاص لما يحقق أغراض التعليم . . وينمِّي روح الإيجابيَّة بين المجتمع والمدرسة للوصول نحو تحقيق تلك الأهداف على خير الوجوه(١) .

إنَّ الأهداف التي احتوتْ عليها سياسة التعليم -إذا نظر إليها نظرةً شموليَّةً- هي أهدافٌ شاملةٌ ومتنوِّعةٌ في المنظور التربوي، حيث حَوَتْ أهدافاً إسلاميَّةً روحيَّةً، شغلتْ حيِّزاً مناسباً فيها، كما أنها شملتْ أهدافاً معرفيَّةً، وأهدافاً تتصل باكتساب المهارات المختلفة، وأهدافاً تتصل بالميول والاتجاهات والقيم، وأهدافاً نفسيَّةً وحركيَّةً وعلميَّةً(٢) .

وقد انعكس هذا الشمول والتداخل بين ما هو إيمانيٌّ عقديٌّ وخلقيٌّ سلوكيٌّ وفكريٌّ تقنيٌّ على المناهج الدراسيَّة ، حيث تحقق الانسجام فيها بين هذه الجوانب ، وأثمر ذلك في الطالب نفسه بتكوين شخصيَّة يتحقق فيها هذا الانسجام والتراكم الباني لقدرته الفكريَّة في أيّ مجال اتّجه للتخصّص فيه ، وفي عدم الشعور بأيّ تنافر بين إيمانه بالغيبيات -باللّه والدار الآخرة. . .- وممارسة تجاربه المعمليَّة في مختبر مدرسته ، ولا الشعور بأيِّ انفصامٍ في شخصيَّته بين حفظه لآياتٍ من القرآن الكريم وإعمال فهمه وتفكيره في اجتهادٍ

(١) انظر : سياسة التعليم ، الوسائل العامة للتربية والتعليم ، ص ٤٠ .

(٢) التنمية والتقنية في المملكة العربية السعودية ، ص٦ ، بحث مقدم لندوة التنمية التقنية في المملكة في الرياض ٩-١١/ ٤/ ١٤١٤هـ، اشترك في تقديمه الدكتور صالح الصنيع ، والدكتور عبد الرحمن الزنيدي .

فقهيٍّ ، أو إبداعٍ أدبيٍّ، أو تحليلٍ لرموزٍ رياضيَّةٍ .

إنّ التكوين الشرعي للطالب عاملٌ مهمٌّ في تقوية الأساس الفطري لعقله وتصفيته من المشوِّشات الجانبيَّة ، ولهذا فإنّ المفترض أنّ الطالب كلما زاد وعيه الديني تعالتْ قدراته الذهنيَّة وإيجابيّته ، وقد أثبتت دراساتٌ أجريتْ على الطُّلاب أنَّ للموادّ الشَّرعيَّة أثراً إيجابيّاً بارزاً في تنمية لغة الطالب ، وإثراء ثقافته وتوسيع مداركه ، وأنَّ الثقافة الشَّرعيَّة عاملٌ من عوامل تفوُّق الطَّالب وحيازته تقدُّماً في الترتيب في نتائج الامتحانات[1] .

وخلاصة القول أنَّ إسلاميَّة التعليم التي تبنَّتها المملكة في سياستها التعليميَّة تأسيساً على العلوم الشَّرعيَّة ، وتأصيلاً إسلاميّاً للتخصصات التَّقنيَّة والاجتماعيَّة هي المنهج الأمثل بل الوحيد لبناء شخصيَّة إسلاميَّة حضاريّة ، تؤمن بربِّها ، وتدين بالولاء لدينها ومن ثم لأمَّتها ووطنها ، وتعي واقع العصر الذي تعيش فيه ، وتُسَخِّر فكرها في التخصص الميَسَّر لها لخدمة الأمة والوطن ،

---

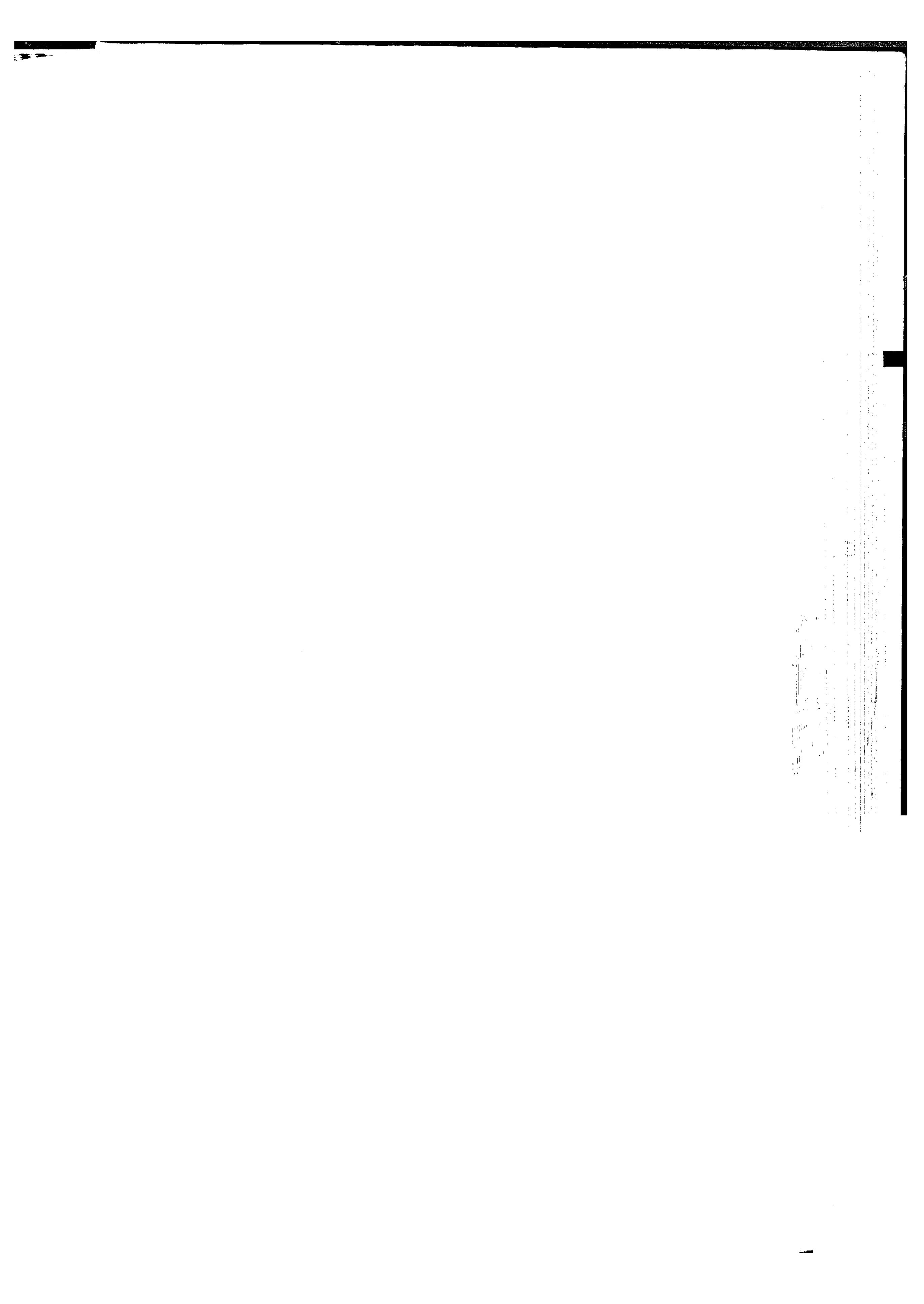
(١) ينظر مثلا :
- أثر حفظ القرآن الكريم في التحصيل اللُّغوي في مجال القواعد النحوية لدى تلاميذ الصف الثالث المتوسط -رسالة ماجستير جامعة أم القرى، إعداد يوسف عبد الله العريفي .
- العلاقة بين مدى حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، ومستوى الأداء لمهارات القراءة، دراسة استطلاعية للصف السادس الابتدائي، محمد موسى عقيلان، بحثٌ مقدمٌ للقاء السنوي الثَّالث للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنَّفسيَّة، الرياض .

ولهذا فإن من الخير لنا إذا أردنا معالجة مناهجنا أن نفرق بين :
- تعاليم دينية تحمل الحق المطلق الذي يزوِّد الطالب بحقائق علميَّة يرتكز عليها فكره فتحقق نضجه، وهي تعاليم القرآن والسنة الثابتة .
- وتعاليم دينية تحمل تصوراتٍ غيبيَّةً زائفةً تصدُّ الناس عن الحقائق العلميَّة ، وتنزل به إلى درك الخرافة .

فلا تكون نظرتنا هائمةً على وجهها لا تفرق بين المختلفات .

منسجمةً مع الحركة المحيطة بها في سعيها لتحصيل المصالح ودرء المفاسد ، بعيداً عن مواقف الرَّفض للواقع واعتزاله ، أو مواقف الأنانيَّة والنِّفاق التي تفرزها نظم التَّعليم ، التي تتطاوح بين مثاليَّات تجعل الطالب ينظر للمجتمع من عَل ، ونفعية ماديَّة مفصولة عن القيم وهدي الدِّين ، تجعل خريجها ميكافيليا مع أمته ومجتمعه ، لا دين له سوى شهواته المادية .

وكلا النَّمطين وبالٌ على الأمَّة في حاضرها ، وعائقٌ لها عن النهوض في مستقبلها .



المبحث الخامس

الدعـوة إلى الله

الدَّعوة إلى الله هي توجيه الناس نحو طاعة ربهم وامتثال شريعته، فهي شاملةٌ لإرشاد الخلق لكلِّ تعاليم الإسلام عقيدةً وعباداتٍ وأخلاقاً ومعاملاتٍ، إرشاد الكفار ليسلموا، والمسلمين ليطبقوا أوامر الله.

وتدخل في الدعوة إلى دين الله المصطلحات التي اشتهرت في الإسلام من خلال ما جاء فيها من نصوصٍ شرعيَّةٍ أو تعامل به المسلمون مثل :

- الأمر المعروف والنَّهي عن المنكر.
- والنصيحة.
- والاحتساب.
- والتذكير بالدين.

وبناء على خاصية « العالميَّة »[1] في دين الإسلام، فإنَّ الدَّعوة لازمةٌ أساسيَّةٌ في بنائه، ومن ثم على حامله ؛ بحيث إنَّ المسلم يصبح داعيةً بمجرد إسلامه، حبّاً للإيمان والعمل الصَّالح يحدوه لنشرهما، وكرهاً للكفر والضلال يدفعه لإبعاد الناس عنهما وتطهير المجتمع منهما.

والدعوة إلى الله هي وظيفة الرسل :

ابتداءً من نوح عليه السَّلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾[2]

---

(١) المقصود بعالمية الإسلام أنه موجَّه إلى البشرية كافة في كل أقطارها وأجيالها إلى أن تقوم الساعة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ ولا يغني أي فرد أو أمة - عند الله - أن تتشبث بثقافاتها أو أديانها حتى ولو كانت ذات أصل موحى به من عند الله ؛ لأن شريعة محمد ﷺ جاءت ناسخةً للأديان السابقة، فانحصر الطريق إلى الله أمام الخلق جميعا بالهدى الذي جاء به محمد ﷺ.

(٢) الآية رقم (٥) من سورة نوح.

حتى محمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾[1] .

وهي وظيفة أتباع الرُّسُل المؤمنين : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2]، ولهذا كانت من ميزات الأمة المسلمة المؤمنة التي بالتفاني فيها نالتْ خيريَّتها على سائر الأمم كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[3] وقال سبحانه في سورة التوبة : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4]. وفي السُّورة نفسها قال سبحانه عن المنافقين : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾[5] .

يقول القرطبي -رحمه الله- : « جعل الله - تعالى - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين ، فدلَّ على أنّ أخصَّ أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام »[6] .

وفي السُّنَّة الشَّريفة نصوصٌ كثيرةٌ تؤكِّد هذه الوظيفة الإسلاميَّة ، كقوله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره : « من رأى منكم منكراً فليُغَيِّرْه بيده، فإن لم

---

(١) الآيتان (٤٥-٤٦) من سورة الأحزاب .

(٢) الآية رقم (١٠٨) من سورة يوسف .

(٣) الآية رقم (١١٠) من سورة آل عمران .

(٤) الآية رقم (٧١) من سورة التوبة .

(٥) الآية رقم (٦٧) من سورة التوبة .

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٤٧ .

يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه »[1]. وكالحديث الذي شبَّه فيه الرسول ﷺ المجتمع بسفينة يشارك في ركوبها بعض الحمقَى الذين سَوَّلَتْ لهم نفوسهم خَرْقَ قاع السَّفينة ليأخذوا الماء بسهولة، وأنه لا بدَّ لنجاتها من أن يأخذ العقلاء على أيديهم ويردعوهم عن فعلهم[2].

من هذه النصوص وغيرها من تعاليم الكتاب وتوجيه النبي ﷺ انبعثتْ حركة الدعوة إلى الله لتنشر دين الإسلام بقيمه السَّامية، وحكمه العدل، وإنسانيّته الحرة الكريمة على أيدي صحابة رسول الله وتابعيهم بإحسان من المجاهدين في سبيله الدَّاعين إلى دينه، الذين اتَّجهوا شرقاً وغرباً يحملون مشاعل النُّور والهداية إلى مختلف الأمم.

واستمرَّتْ الدعوة الإسلاميَّة تقوى أحياناً وتضعف أحياناً خلال العصور الإسلاميَّة، وكان المجدِّدون من القادة أو العلماء يُحْيُونَ هذه الشعيرة دعوةً إلى الإسلام، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، ونصحاً للخليقة.

وحينما قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أعلنتْ منار هذه الشعيرة متخذةً مختلف الوسائل في نشر الدين، وإصلاح الأحوال، وردِّ الناس إلى شرع الله تأليفاً للكتب، وبعثاً للرسائل، وتعليماً للناس، ووعظاً وتذكيراً وجهاداً للباطل والشرك.

وفي القرن الرَّابع عشر الهجري -العشرين الميلادي- تغيَّرتْ أحوال العالم، وتقاربتْ المجتمعات، وعظُم التفاعل الثقافي بين الأمم، كلّ مجتمع له أيديولوجيّةٌ معيَّنةٌ، يسعى لإبراز تفوُّقها وإغراء الآخرين بها، مما أقام الصِّراع

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، صحيح مسلم، ١/ ٣٢٤.

(٢) الحديث سبق ذكره، وهو في صحيح البخاري.

الثقافي بينها، وتحَفَّزَ كلٌّ مجتمعٍ للحفاظ على ثقافته، وتحصين أبنائه من الغزو الفكري والسُّلوكي.

أمَّا وسائل هذا التفاعل والصِّراع فلم تعد مواعظ فرديَّةً أو تدخّلاً حربيّاً مباشراً، لقد استثمر العالم وسائل الإعلام والاتصال والمنظَّمات والتبادلات الثقافيَّة، وتعالتْ قضايا التأثُّر والتَّأثير بصور أعتى وأنفذ وأوسع من الذي كان يجري قديماً في المجتمعات، مما يقضي علىً أهل الإسلام بالمبادرة لبيان الحقِّ ونفع الناس، فهم المكَلَّفون من الله بالدعوة إلى دينه، وهم أحقٌّ الأمم بالسَّبق في هذا المجال الدَّعوي؛ لأنَّهم ينشرون الثقافة الإنسانيَّة التي جاءتْ لتصلح أحوال العالمين كافَّةً في شؤون عقائدها وقيمها ونظمها الحياتيَّة، مما يجعل تقصير المسلمين يُحمِّلهم ذنباً مزدوجاً:

- فهو تخلٍّ عن واجب الشهادة على الناس الذي أناطه الله بهم.
- وهو خيانةٌ للأسرة البشريَّة التي يربطها بالمسلمين رحم الإنسانيَّة والجوار على هذا الكوكب، الذي يعايشون فوقه ما تعانيه هذه البشريَّة من ويلات الكفر والشُّرُود على الله، والكوارث التي تحيق بإنسانيَّتها والهروع السَّريع وراء الفلسفات والنظريَّات والمواثيق الدوليَّة، التي تزعم أنها تقدِّم حلولاً لمشكلاتها، واهتماماً بقضاياها الملحَّة، وبالذَّات جوعها الرّوحي وخللها الخلقي.

والسّعوديَّة مجتمعاً ودولةً، انطلاقاً من الأساس الإسلامي الذي تقوم عليه، وشعوراً بهذه المسؤوليَّة تجاه نفسها وتجاه الشعوب الإسلاميَّة والعالم، جعلتْ إحدى أهمّ الرّكائز التي يقوم عليها نظامها:

« حمل الدعوة الإسلاميَّة ونشرها، حيث إنَّ الدعوة إلى الله من أعظم

وظائف الدولة الإسلاميَّة وأهمّها .

- إيجاد « بيئة عامة » صحيّة صالحة مجرَّدة من المنكرات والانحرافات ، تعين الناس على الاستقامة والصلاح ، وهذه المهمَّة منوطةٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[1] .

وبحكم أنَّ الدعوة إلى دين الله مقارنة للإسلام ذاته ، فإنّ الملك عبد العزيز -رحمه الله- قد حشد جهده الشَّخصي وجهود دولته في سبيل الدعوة إلى الله داخل المملكة وخارجها ، يدعو بنفسه ، ويحثُّ على الدعوة إلى الله تعالى .

يقول : « أنا داعيةٌ أدعو إلى مذهب السَّلف الصَّالح » . ويقول أيضاً : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله من أعظم الواجبات وأهمّ المهمّات . . . فلا صلاح للخاصَّة والعامَّة في جميع القرى إلاَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وبتركه والتغافل عنه يكثر الفساد »[2] .

« لقد كان الملك عبد العزيز داعيةً إلى التوحيد بقوله وفعله ، وقد اقتدى به عددٌ كبيرٌ من دعاة التوحيد في العالم العربي والإسلامي ، ومما يدلُّ على ذلك أنَّ الدعاة في العالم الإسلامي كانوا يأتون ويجلسون إليه ، ويأخذون من أقواله ونصائحه ، ما يعزِّز نشاطهم ، ويحسن أساليبهم في الدعوة إلى التوحيد »[3] .

ولكنَّ الدعوة إلى الإسلام -في داخل المجتمع وخارجه- وإن كانت عامةً لكلِّ قادرٍ عليها ، مؤهَّلٍ لها ، عالماً أو قاضياً أو مدرِّساً أو مديراً لدائرةٍ أو سفيراً

---

(١) أنظمة الحكم والشورى والمناطق ، ص٤ .

(٢) النص الأول من جريدة أم القرى ، العدد [٤٣٤] ، عام ١٣٥١هـ ، والنص الثاني من وثائقنا الوطنية ، ص ٢٨٨ .

(٣) الملك عبد العزيز وأثره في التاريخ المعاصر ، سليمان علي الشايع ، ص ٣٦ ، رسالة ماجستير ، ١٤٠٥هـ .

في سفارة ، إلا أنها نتيجة تضخُّم المجتمع سكانيّاً وحركيّاً، والصِّراع الأيديولوجّي العالمي ، لم تعد الجهود الفرديَّة كافيةً، ولا المبادرات الظَّرفيَّةُ مغنيةً، مما جعل الدولة السعوديَّة طلباً للارتقاء بمستوى الدعوة الإسلاميَّة إلى مواكبة العصر ، وسدٍّ ما يمكن من الحاجة العالميَّة الملحَّة -في العالم الإسلامي والكون كلّه- في هذا المجال ، تنشئ عدداً من المؤسَّسات ذات الصِّبغة الدعويَّة التي تهتمّ بقضايا الإسلام، وهموم المسلمين في كلّ مكانٍ .

سأشير إلى أبرز هذه المؤسسات بما يعطي صورةً موجزةً عن طبيعتها وجهودها :

الرِّئاسة العامة لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو - كما يقول أبو حامد الغزالي -« القطب الأعظم في الدين ، وهو المهمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوِيَ بساطُهُ وأُهمل علمه وعمله لتعطَّلتْ النبوَّةُ ، واضمحلتْ الديانةُ ، وعمَّت الفترة، وفشتْ الضلالة، وشاعتْ الجهالة، واستشرى الفساد، واتَّسع الخرق، وخربتْ البلاد، وهلك العباد »[1] .

ولهذا « تطابق -كما يقول النووي- على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسّنة والإجماع ، وهو أيضاً من النصيحة في الدين »[2] .

ومن عظيم شأنه في المجتمع أنَّ الله - سبحانه وتعالى - جعله شرطاً لتحقيق ولايته للأمة أو المجتمع ، حيث يُنال نصر الله ورعايته وحفظه .

---

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ٢/ ٤٤٣، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، دار قتيبة.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ٢٢، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

أمَّا الذين يُمكِّنُ الله لهم في الأرض، ويتحقق لهم السلطان، ولكنهم يهملون شعائر الدين الكبرى « ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فليس لهم وعدٌ من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه »(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شاملٌ لكل مجالات الحياة، ومطلوبٌ من جميع المؤمنين، ولهذا فهو على المستوى السياسي مطلوبٌ في كلِّ مرافقها، فكلُّ الولايات الإسلاميَّة -كما يقول ابن تيمية- مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٢).

ولكن العلماء الذين بحثوا في السياسة الشرعيَّة، جعلوا -في الدولة الإسلاميَّة- ولايةً خاصَّةً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي « ولاية الحسبة ».

عرَّف الماوردي الحسبة بقوله:

« الحسبة هي: أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله، قال تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ »(٣).

---

(١) من تفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لآية: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ الآيتان (٤٠ - ٤١) من سورة الحج. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، ٥/ ٧٠٣ - الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

(٢) انظر: الحسبة في الإسلام، لابن تيمية، ص ١٣، دار البيان، ١٣٨٧هـ.

(٣) الآية رقم (١٠٤) من سورة آل عمران. وانظر: الأحكام السلطانية في الولايات الدينية، لأبي الحسن الماوردي، ص ٣٩١، دار الكتاب العربي، بيروت.

وقد فصَّل العلماء ما يتعلّق بالحسبة من حيث إطاراتها الشرعيَّة وموقعها في ولايات الدولة المسلمة ؛ كما فصَّلوا في مهمَّة المحتسب وشروطه، وموضوع الحسبة وحدود سلطات المحتسب وغيره، ممَّا لا مجال لإيراده هنا، إلا بإشارة إلى ما ذكره الماوردي -رحمه الله- بشأن متعلَّقات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد ذكر أنَّ الأمر بالمعروف ينقسم ثلاثة أقسامٍ :

أحدها : ما يتعلَّق بحقوق الله تعالى ، سواءٌ كان من فرد أو جماعة .

ثانيها : ما يتعلَّق بحقوق الآدميّين ، سواءٌ كان حقّاً عاماً، أو حقّاً خاصّاً.

ثالثها : ما كان مشتركاً بينهما .

كذلك ينقسم النهي عن المنكر ثلاثة الأقسام نفسها .

وقد فصَّل الحديث وذكر الأمثلة في هذه الجوانب(١) .

وقد تضاءل الوجود الفعلي لولاية الحسبة في الحكم عند المسلمين حتى انحسر تماماً في عامة المجتمعات الإسلاميَّة المعاصرة بشكلٍ رسمي منظَّمٍ، أمّا الجهود الفرديَّة فلا شكَّ أنه لا يزال يوجد قائمون بالحق في كلِّ مكانٍ .

أمَّا المملكة العربيَّة السّعوديَّة فإنَّ إسلاميَّتها جعلتْ من المنطقي أن تقوم فيها هذه الولاية ، وأن تأخذ موقعها المتفرِّد الفاعل في حركة المجتمع وصيانة حركة النهوض من العثرات التي قد تعوقها عن تواصلها إذا لم تجد جهةً تسهر على إقالتها من عثراتها كلَّما عثرتْ، فبعد فتح الرياض واستقرار الأحوال ، كلَّف الملك عبد العزيز العالم عبد العزيز بن عبد اللَّطيف آل الشيخ بولاية الحسبة، وكلَّف آخرين من العلماء بمساعدته، ثم زوَّدهم برجالٍ وجنودٍ،

---

(١) انظر : الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ٣٩٤ . وقد تابعه على هذه التقسيمات بعده آخرون، مثل أبي يعلى الفراء في كتابه " الأحكام السلطانيَّة " ، ص ٢٨٤ .

واتَّسعتْ هذه الولاية مع اتِّساع المملكة لتشمل منطقة نجد والأحساء وشمال المملكة، ومقرٌّ رئيسها العام في الرياض، وفروعها منتشرةٌ في المدن والقرى الأخرى .

وبناءً على أخذها هذه الصفة الرَّسميَّة النظاميَّة فقد أصبح لها مسؤوليَّاتها المحددة، وصلاحيَّاتها الواضحة، ونظامٌ تناوبِيٌّ في أداء العمل والقيام بالجولات الميدانيَّة .

وقد تتابع على رئاستها علماء بررةٌ ذَوُو غيرة على الدين، وحكمة في تسيير هذه الهيئة، مثل الشيخ عمر بن حسن، ومثل الشيخ عبد الله بن حسنٍ .

وبعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز أمر بإنشاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكَّة المكرمة : « وبذلك كان للملك عبد العزيز -رحمه الله- الفضل بعد الله في تأسيس أوَّل هيئة رسميَّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكَّة المكرَّمة »[1] . وقد تشكَّلتَ الهيئةَ برئاسة الشيخ عبد الله الشيببي .

وجاء في أهدافها ما يلي :

١- تتبع المعاملات والعادات، فما وافق الشَّرع منها تقرُّهُ، وما خالفه تُزِيله .
٢- منع البذاءة اللِّسانيَّة التي تعوَّدها السوقة .
٣- حث الناس على أداء الصلوات الخمس جماعةً .
٤- مراقبة المساجد من جهة أئمَّتها ومؤذِّنيها، ومواظبتهم وحضور الناس بها، وغير ذلك من دواعي الإصلاح .
٥- أن تتخذ في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جميع الوسائل الموصلة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا أعياها أمرٌ من الأمور

(١) الدعوة في عهد الملك عبد العزيز، ص ٣٢٩، مصدر سابق.

رفعتْ مذكِّرةً إلى وليِّ الأمر لإجراء اللازم[1] .

وقد صاغ الشيخ محمد بهجت البيطار دليلاً يوضِّح منهج عمل موظّفي الهيئة واختصاصاتهم ، من خلال كتاب " الحسبة " لابن تيمية ، وما اقتضاه تطوُّر الحياة في الجزيرة العربيَّة[2] .

وقد دمجت الرئاستان : رئاسة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوُسطى وما يتبعها مع رئاسة هيئة الحجاز في رئاسة واحدة هي : الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي مقرُّها الرِّياض الآن .

ولقد كانت مهمَّات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متَّسعةً لكل الجوانب العباديَّة والخلقيَّة والعمرانيَّة والصحيَّة والاقتصاديَّة ، وحينما تطوَّرتْ الدولة بإنشاء المؤسسات المتخصِّصة ، توزَّعتْ هذه المهمَّات على جهاتٍ عديدة ، كالشؤون البلديَّة ، والداخليَّة ، والتجارة ، والصِّحة .

وبذلك تركَّز الجهد الأكبر لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رعاية العقيدة الإسلاميَّة والآداب العامة ، والأخلاق الإسلاميَّة ، والشعائر العباديَّة ، بإحيائها في السَّاحة الاجتماعيَّة ، والتصدِّي للعناصر الفاسدة التي تسعى لخرقها ، والاستهتار بها .

ولقد حظيتْ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة خلال مسيرتها الطَّويلة بمقام اجتماعيٍّ ورسميٍّ متفوِّق ، لم تبلغه مؤسساتٌ أخرى كثيرةٌ ، وصار لها هيبةٌ في نفوس أهل الفساد والشَّرِّ ، وحبٌّ وتأييدٌ من المجتمع وثقةٌ بها .

---

(١) الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، ص ٣٢٩ .

(٢) أصول الحسبة في الإسلام ، لمحمد إمام ، ص ١٣٤ .

والفضل في ذلك أوّلاً لله وحده ، الذي أنعم بها على هذا المجتمع ، وزرع لها في النفوس ولاءً وحبّاً .

ثم لا شكّ أنّ للمقام العلمي والديني للقائمين عليها أثراً في ذلك ، فضلاً عن الشعور الإيماني لدى أفراد المجتمع السعودي الذي يدفعهم لتأييدها والوفاء لها ، لكن الفضل الأكبر -بعد الله - في هذا المقام إنّما يعود للموقف الإيماني السُّلطوي من الملك عبد العزيز -رحمه الله- فهو الذي تَبَنّى إنشاءها ، ورعى مسيرة تطوُّرها ، وكان يفرض سلطتها بتوجيه مباشر منه على الرَّعيَّة .

قال -رحمه الله- في اجتماعٍ له بموظَّفي الدولة : « نحن وضعنا جماعةً تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبلاغاتها وقراراتها تشمل الجميع على السَّواء ، وأنتم -يا جماعة الموظَّفين - أحقُّ الناس باتِّباع أوامرها واجتناب منهيَّاتها . . »[1] .

وكان يرفض وشايات الشَّانئين الذين يُشوِّهونها بتصيُّد بعض الأخطاء من بعض أفرادها ، ولكنه من جانب آخر ينصح رجال الهيئة بسعة الصَّدر مع الناس ، بحيث يُعْطَى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه بالشرع ، ولا يتعدَّى أمر الشَّرع[2] .

وكان أيضاً يستعين برجال الهيئة في التعرُّف على ما يجد من منكرات عامة تدخل للمجتمع مع حركة تفاعله مع المجتمعات الأخرى ، فيوجِّه بإزالتها أو تخفيفها ما أمكن .

وفي الآونة الأخيرة ، ومع كثرة العمالة الوافدة والانفتاح الكبير للمجتمع السّعودي على المجتمعات الأخرى ، برز دور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حفظ الأمن وصيانة أخلاقيَّات المجتمع من التَّدنيس ، وكبح جماح

---

(١) صحيفة أم القرى ، العدد [١٤٢] في ٦/٣/١٣٤٦هـ.

(٢) من مخطوطات دارة الملك عبد العزيز برقم [١٩٧٩] .

المجاهرة بالمنكرات ، وإبقاء الصِّبغة الإيمانيَّة الشرعيَّة في المجتمع : الأسواق، وأماكن الترفيه والمساجد وغيرها فتحقَّقَ بها خيرٌ كثيرٌ، وانكبحَ بها شرٌّ عظيمٌ ؛ مما جعلها نموذج قدوة للمجتمعات الإسلاميَّة الأخرى، التي أدركتْ أنَّ الرقابة الدينيَّة والخلقيَّة، وحتى الآداب الاجتماعيَّة لا يمكن أن تقوم بها شرطة آداب لا يحملون مسؤوليَّة أنفسهم فضلاً عن تحمُّل مسؤوليّة المجتمع في هذه القضايا الخطيرة، التي تحتاج أشخاصاً يملكون العلم الشرعي من جهةٍ، والغيرة الدينيَّة من جهة أخرى، والولاء الإيماني للدولة والمجتمع من جهةٍ ثالثةٍ، والحكمة في معالجة القضايا الاجتماعيَّة الحسَّاسة من جهةٍ رابعةٍ، وهي العناصر التي تبني الهيئات شخصيَّات أعضائها المباشرين للمهام العمليّة على استيفائها بدرجة كافية .

ولهذا نجد أنَّ الناس قد منحوا هذه المؤسسة ثقتهم وتعاونهم ، وشعروا من خلال التجربة الواقعيَّة بدورهم في حفظ المصالح حتى الماديَّة، فقد يأتي للهيئة صاحب مُجَمَّعٍ تجاري يدعو الهيئة إلى الحضور لمُجَمَّعه لأنَّ بُعْدَهم يُجَرِّئُ أصحاب النفوس الفاسدة لإيذاء النساء وأولياء أمورهنّ ، مما يجعلهنَّ يعزفن عن هذا السُّوق ، فتكسد تجارته وتهبط إجاراته ، ويأتي مَنْ يدعوهم للمرور بحَارَتِهم، أو يأتون ليخبروهم بمواقع فسادٍ ، ويساعدوهم على كشفها .

ومن دلائل الثقة بهذه المؤسسة أنَّه يسوء الناس بشكلٍ كبير وقوع خطأ من أحد رجالها، أو تصرُّفٌ غير مناسب شرعاً أو ذوقاً، ويذهب أُناسٌ لمُنَاصَحة الهيئات تجاه ما حدث، وبيان استيائهم مما جرى ، وكلّ هذه الأمور دلائل ثقة وولاء وحبٍّ وتعاونٍ مع هذه المؤسسة، التي تنوء بمسؤوليَّة من أعظم المسؤوليَّات في الإسلام ، وتمثّل مفخرةً من المفاخر التي يتفرَّدُ بها المجتمع السعودي في هذا الزمن .

رابطة العالم الإسلامي:

عانى المسلمون في عامة أقطارهم في القرن الرَّابع عشر الهجري محنة تفكُّك وضياع رؤية وفقد جهات توجيه موثوقة، فهم إمَّا تحت استعمار لا يرحمُ، أو تحت حكومات هزيلة تجاهد لتثبيت نفسها، وصارتْ مجتمعاتُ المسلمين مسرحاً لكيد أعدائها الَّذين يبثُّون فيها مشاعر التفرُّق والاختلاف بين صفوفها، والتضليل لوجهتها، والاستخذاء في نفوسها أمام الهيمنة الكافرة، والمشاريع الصِّهيونيَّة القادمة.

وكانت هذه الأمة تتلفَّتُ باحثةً عن من يوجِّه حركتها، ويرعى جهودها، ولقد قامتْ حركاتٌ إسلاميَّةٌ، وعقدتْ مؤتمراتٌ شعبيَّةٌ كثيرةٌ تدعو لتضامن المسلمين على مستوى العلماء والشعوب، وإلى تمثيلهم والإعلان عن حقوقهم، من خلال جهةٍ أو منظَّمةٍ شعبيَّةٍ تكون لديها الإمكانات المحقِّقة لذلك.

ولم يكن مهيَّأً لسوى المملكة العربيَّة السعوديَّة المبادرة لتبنّي هذه المنظَّمة ودعمها؛ لأنَّ هذه هي رسالتها التي نذرتْ نفسها لها.

من هنا كانت الدعوة لعقد مؤتمرٍ إسلاميٍّ كبيرٍ في مكَّة المكرَّمة بعد الحجِّ مباشرةً من عام ١٣٨١هـ، حيث اجتمع جمعٌ من علماء المسلمين وكثيرٌ من قياداتهم الدَّعويَّة، وقرَّروا في ختام أعمال المؤتمر تأسيس «هيئة إسلاميَّة شعبيَّة عالميَّة» تتخذ من مكَّة المكرَّمة مقرّاً لها، تحت اسم «رابطة العالم الإسلامي» يكونُ لها مجلسٌ من كبار العلماء وقادة الفكر في العالم الإسلامي، وقد رُوعيَ في اختيار أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة تمثيل مختلف الشعوب الإسلاميَّة بالعلماء الذين يترأسون أعلى القطاعات في بلادهم.

وعلى الرَّغم من أنَّ الدولة السعوديَّة هي التي تبنَّتْ إنشاء هذه المنظَّمة ، وأنها تُموِّل ميزانيَّتها ومشاريعها في خدمة الإسلام والمسلمين، إلا أنَّ الرّابطة في طبيعتها وواقعها هيئةٌ مستقلَّةٌ شعبيَّةٌ محضةٌ .

تتكوَّن « رابطة العالم الإسلامي » من عدد من المجالس والهيئات إضافةً إلى الأمانة العامة التي يتبعها عددٌ من الإداراتِ والمكاتب والمراكز الخارجيَّة، وفي الرابطة مجالس ثلاثةٌ مختصَّةٌ :

- المجلس التأسيسي .
- والمجلس الأعلى العالمي للمساجد .
- ومجلس مجمع الفقه الإسلامي .

فضلاً عن :

- هيئة الإغاثة الإسلاميَّة العالميَّة .
- وهيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .
- ومؤسسة مكّة الخيريَّة لرعاية الأيتام .

وسائل الرّابطة في تحقيق أهدافها :

الأهداف الجليلة للرابطة ، المتمثِّلة بالدعوة إلى الإسلام والتصدِّي لكيد أعدائه، والدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين في كلّ أنحاء العالم، وتقديم الخدمات التربويَّة والصّحيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة للمسلمين ، تحتاج إلى وسائل عديدة لتحقيقها بصورةٍ نافعةٍ مؤثِّرةٍ ، وقد أخذتْ الرابطة بوسائل عديدةٍ من أبرزها :

- نشر القرآن والسنَّة على أوسع نطاق ممكن .
- العمل على تحكيم المسلمين لشريعةً ربِّهمً في كل جوانب الحياة .

- تشجيع الدُّعاة إلى الله في كلّ مكان ودعمهم والتنسيق بين جهودهم .
- إنشاء المؤسسات التربويَّة الإسلاميَّة .
- إقامة المواسم الثقافيَّة ، مثل موسم الحج الثقافي محاضرات وندوات .
- توزيع الكتب والرسائل العلميَّة على المسلمين والدعاة والمراكز الإسلاميَّة .
- دراسة مشكلات الأقليَّات المسلمة ودعم مطالبها ومساعدتها .
- المبادرات الغَوْثيَّة لمن تحلّ بهم نكباتٌ من المسلمين .
- نشر اللغة العربيَّة لغة القرآن في العالم كلّه .

ولأنّ الرابطة منظَّمةٌ عالميَّةٌ ، فإنَّ لها حضورها في كثير من الهيئات الدوليَّة ، فهي عضوٌ في منظَّمة « اليونسكو » التابعة للأمم المتحدة ، وفي « اليونيسيف » التابعة أيضاً للأمم المتحدة ، وعضوٌ مراقبٌ في منظَّمة المؤتمر الإسلامي ، وعضو في مجلس تنسيق الدعوة الإسلاميَّة التابع كذلك لمنظَّمة المؤتمر الإسلامي .

من أبرز نشاطات الرَّابطة :

(١) هيئة الإغاثة العالميَّة :

وافق المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي عام ١٣٩٩ هـ على إنشاء هيئة للإغاثة الإسلاميَّة ، تنسِّق الجهود ، وتوحِّد العمل بما يحقِّق أكبر قدرٍ من أهدافه ، ويوصل الحقوق إلى أهلها ، ومن أبرز أهداف هذه الهيئة :

- إعانة المسلمين شعوباً وجماعات حين تحلّ بهم كوارث كونيَةٌ أو كيديَّةٌ من أعدائهم ، وقبل ذلك تقديم ما يرفع مستواهم، ويدرأ عنهم برعاية الله حلول الكوارث والنكبات .
- الاهتمام بأقلِّيات المسلمين في العالم .

- رعاية الضعفاء من الأيتام والفقراء بالدعم المادي والكفالات، والمنح الدراسيَّة ونحوها.

ولقد حقَّقتْ هذه الهيئة الكثير من الأعمال الخيريَّة، وأقامتْ عديداً من المشاريع النافعة للمسلمين؛ [مشاريع زراعيَّة، وحفر آبار، ورعاية صحيَّة، وكفالة أيتامٍ، وبناء مساجد، ودراسات مهنيَّة في الحدادة والسِّباكة والكهرباء . . . إلخ].

وللمملكة -قيادتها وشعبها- الدور الأكبر بعد الله في نجاح هذه الهيئات وعموم نفعها واحتلالها مركزاً أوليّاً بين الهيئات العالميَّة المماثلة.

(٢) هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة:

مقرُّ هذه الهيئة مكة المكرَّمة، وقد أنشئتْ بناءً على قرار المجلس الأعلى العالمي للمساجد المنعقد عام ١٤٠٤هـ، والهدف من إنشاء هذه الهيئة:

- تشجيع البحوث الفرديَّة والجماعيَّة في قضيَّة الإعجاز، والتنسيق مع المؤسَّسات العلميَّة في خدمة هذا المجال.
- وضع القواعد المنهجيَّة وطرائق البحث التي تضبط حركة الاجتهاد في دراسة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- تَتبُّع الدراسات في الإعجاز والتدقيق من النواحي الشَّرعيَّة والكونيَّة لنقدها أو إجازتها.
- السَّعي لإدخال مضامين الإعجاز المعتمدة في مناهج التعليم، وإمداد الدُّعاة بها.
- تَتبُّع ما ينشره علماء الكون من حقائق علميَّة، مما له صلةٌ بالقرآن والسنَّة، ودراستها وتمحيصها.
- العمل على صبغ العلوم الكونيَّة بالصِّبغة الإيمانيَّة.

- المشاركة في المؤتمرات العلميَّة الدَّوليَّة لرصد نتاجها في هذا المجال .

وقد أصدرتْ الهيئة عديداً من البحوث في مجال تخصُّصها مثل :

- علم الأجنَّة في ضوء القرآن الكريم .
- أبحاثٌ في العدوى والطِّب الوقائي في الإسلام .
- تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .
- ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .
- عالم النحل .
- اللَّبن وتركيبه الكيميائي . . . وغيرها كثيرٌ .

كما أنَّ للهيئة مجلَّةً علميَّةً متخصِّصةً باسم « الإعجاز » .

(٣) الدعوة الإسلاميَّة :

لما كانت الدعوة المهمَّة الرَّئيسة للرابطة ، فقد أولتْها عنايتها الفائقة متمثِّلةً هذه العناية :

- بتعيين الدُّعاة الموزَّعين على أنحاء العالم ، وقد بلغ دعاتها عام ١٤١٨هـ (١١٣١) داعيةً موزَّعين في (١١٣) دولةً .
- وتقديم المنح الدراسيَّة لأبناء المسلمين في المجالات الشَّرعيَّة والعربيَّة ، وقد بلغ عدد المنح للعام الدراسي ٩٧/ ١٩٩٨م (٥٦٦) منحةً دراسيَّةً .
- وتقديم المساعدات المستمرَّة للمدارس التي تقارب المائة مدرسةٍ ، فضلاً عما يتبع الرَّابطة من مدارس ومعاهد وكلّيَّات .
- الإشراف على المراكز الثقافيَّة الإسلاميَّة لتفعيل نشاطها ، وضبط مسارها : بعضها في أفريقيا ، وبعضها في أمريكا اللاتينيَّة ، وبعضها في دول أوربا ، وتبلغ عشرة مراكز .

(٤) الإعلام :

تستثمر الرَّابطة لتحقيق أهدافها الدعويَّة والثقافيَّة وشرح وجهتها في القضايا الفكريَّة والعالميَّة مختلف وسائل الإعلام ووكالات الأنباء ، والمحطَّات الفضائيَّة ، والمنابر الدَّوليَّة التي تشارك بها .

ولكن أيضاً لها إصداراتها المتعدِّدة الخاصَّة بها في مجال الإعلام ، وهي :

- جريدة العالم الإسلامي (أسبوعيَّة) .
- مجلَّة الرَّابطة (شهريَّةٌ) عربيَّةٌ .
- مجلَّة الرَّابطة (شهريَّةٌ) إنجليزيَّةٌ .
- مجلَّة رسالة المسجد (دوريَّةٌ) .
- مجلَّة المجمع الفقهي (دوريَّةٌ) .
- مجلَّة الإغاثة (دوريَّةٌ) .
- كتاب دعوة الحقِّ (شهريٌّ)(١) .
- فضلاً عن مجلَّة الإعجاز السَّابق ذكرها .

وبعد ، فإنّ رابطة العالم الإسلامي بجمعها علماء المسلمين وقياداتهم الفكريَّة لتنسيق الجهود وتحويل الهموم إلى عملٍ ، وبمشاريعها المتنوِّعة بملياراتها السِّتة التي أنفقتها منذ إنشائها حتى الآن ، تمثِّل إحدى قنوات الخير التي فتحتها المملكة لرفعة الإسلام وإصلاح أحوال المسلمين، والارتقاء بأسلوب الدعوة بما يناسب العصر ، ويؤدِّي الخدمات بحسب الأحوال الاجتماعيَّة ومتطلَّباتها ،

---

(١) انظر فيمايتعلق بالرابطة :

- التحقيق المطوَّل في (١٢ صفحة) في صورة لقاء مع معالي أمين عام الرابطة الدكتور عبد الله العبيد في مجلة " أهلاً وسهلاً " ، العدد (٤)، ذو الحجة، عام ١٤١٨ هـ، من ص ١٨ .

وهي وإن كانت « شعبيَّةً عالميَّةً مستقلَّةً » إلاّ أنها -وكذلك هيئاتها- بحكم مقرِّها، والمصدر الأكبر لتمويلها، ومنهجها في جمع الناس على الحق، وطلب تضامن المسلمين، ترتبط بالمملكة ارتباطاً كبيراً وفي ذلك فخرٌ متبادلٌ، فالمملكة تفخر بدعمها وتبنِّيها لهذه المنظَّمة الخيريَّة الدَّعويَّة، والرَّابطة تفخر بانتسابها لهذا الوطن مقرّاً ومنهجاً وداعماً .

الندوة العالميَّة للشباب الإسلامي:

يواجه الشَّبابُ المسلم في كلّ مكان تحدِّيات فكريَّةً من أعداء دينه، ويعاني في مسيرته الفكريَّة والدَّعويَّة -إنْ كان داعيةً- كثيراً من المعوِّقات والنَّقائص، فهو بحاجة إلى ترشيد مسيرته الإسلاميَّة، وتحصينه من الغزو الفكري وترقية برامج العمل التي يفرغ فيها جهده الإسلامي أفراداً أو منظَّمات، ولا بدَّ لتحقيق ذلك من مؤسَّسةٍ تتوفَّر على تسديد الرُّؤية، وتنسيق العمل في هذا المجال .

وقد بادرتْ المملكة للاضطلاع بمهمَّة إيجاد هذه المنظَّمة المأمولة، فدعتْ إلى لقاء كبير ضمَّ عدداً كبيراً من مندوبي وقادة منظَّمات الشَّباب الإسلامي في العالم في الرِّياض عام ١٣٩٢هـ، وانبثقتْ منه عدَّة توصيات لدعم العمل الإسلامي في أوساط الشباب، ومن أهمِّها إنشاء أمانة عامَّة للندوة العالميَّة للشباب الإسلامي بالرِّياض، وقد دعم الملك فيصل -رحمه الله- هذه التوصية، وتَمَّ بالفعل إنشاء الأمانة العامة، فبرزتْ الندوة العالميَّة للشباب الإسلامي بصفتها كياناً إسلاميّاً رائداً في مجال الدَّعوة والشباب، وأصبحتْ كياناً كبيراً يضمُّ بين جوانبه منظَّمات العمل الشبابي الإسلامي في العالم، وملتقًى فكريّاً يستمدّ خطَّته ووجهته من دعوة الإسلام وسياسة التضامن والتعاون .

أهداف الندوة :

تتمثّل أهدافها بما يلي :

- خدمة الفكر الإسلامي الصحيح القائم على التوحيد الخالص والتصور السَّليم .
- تعميق أسباب الوحدة الفكريَّة الإسلاميَّة بين الشباب المسلم .
- تعريف العالم بالإسلام بجميع الوسائل المناسبة وأحدثها .
- دعم المنظَّمات والجمعيَّات الخاصَّة بالشباب والطلاب المسلمين، وتنسيق العمل بين الشباب الإسلامي .
- توضيح دور الشباب الإيجابي في بناء المجتمع ومؤسسات الأمة، وتوجيهه لتكوين المنظَّمات والمؤسسات المهنيَّة لأداء دوره الإسلامي ، ومواجهة تحدِّيات العصر .

ومن أبرز وسائلها لتحقيق أهدافها :

- إقامة المخيَّمات الشبابيَّة والطلابيَّة ، وتنظيم المؤتمرات وحلقات البحث .
- تأليف الكتب وتوزيعها ، وتوزيع المجلات والنشرات .
- استزارة الشخصيَّات الإسلاميَّة للقاءات الشباب ومؤتمراتهم .
- العناية بالفنون والآداب ذات الطابع الإسلامي .
- إعداد برامج لتبادل الزيارات بين الشباب المسلم في العالم .
- دعم المنظّمات الشبابيَّة والطلابيَّة ماديّاً وأدبيّاً لتؤدِّيَ مهامها الدَّعويَّة .

وخلال سنواتها منذ أنشئتْ أنجزتْ الندوة خيراً كثيراً في ساحة الشباب المسلم ، وما يخدمه ، من أبرز ذلك :

- دعم المنظمات الشبابيَّة ، حيث ضمَّتْ الندوة في عضويَّتها أكثر من (٤٥٠) منظَّمةً شبابيَّةً هي أقوى المنظمات في مناطقها تضم ملايين

الشباب، حيث تدعمها دعماً مباشراً، فـ« ٤٠٪ » من ميزانيَّة الندوة مخصَّصٌ لهذا الدَّعم .

وتدعمها دعماً غير مباشر بتبنِّي مشاريعها ورفعها للجهات المعنيَّة لتتولَّى دعمها .

- التعاون مع عشرات الجهات والمنظَّمات والهيئات المحلِّيَّة في المملكة والخارجيَّة عربيَّةً وإسلاميَّةً .
- التدريب القيادي بتوجيه العناصر الشبابيَّة لتكون قادرةً على إدارة دفَّة العمل الإسلامي، وحسن تنفيذ برامجه .
- أقامتْ الندوة عشرات المخيَّمات الدائمة والمؤقَّتة في مختلف أنحاء العالم .
- أقامت عدداً من اللّقاءات الفكريَّة ، وكثيراً من الدورات في العلوم الإسلاميَّة ، كما شاركتْ في العديد من المؤتمرات واللقاءات والندوات العالميَّة والإقليميَّة والمحلِّيَّة .
- تكميل أدوات بعض المنظمات ووسائل تحقيق مهماتها .
- التعاون مع بعض المؤسسات الإسلاميَّة ، كتفريغ نخبة من القيادات الشبابيَّة لخدمة نشاطات المنظَّمات الشبابيَّة الإسلاميَّة .
- وزَّعتْ ملايين من الكتب الإسلاميَّة المتفاوتة الأحجام ، وكذلك المصاحف والأشرطة .
- قدَّمت بعض البرامج الإذاعيَّة ، مثل برنامج « ندوة الشباب المسلم » الذي قُدِّم من إذاعَتَيْ الرِّياض وجدَّة (١) .

إلى غير ذلك من الإنجازات المتنوِّعة ، والمكثَّفة في ميدان الشباب

---

(١) انظر : الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بمناسبة مرور اثني عشر عاماً على إنشائها .

والطُّلاب، مما كان له الأثر النافع في المواقع التي قامت لها فيها جهودٌ .

وقد استطاعتْ النَّدوة بفضل الله ثمَّ بحكمة القائمين على أمانتها ومجالسها اكتساب ثقة ولاة الأمور ، ومن ثمَّ دعمهم ورعايتهم ، وثقة أهل الخير الباذلين في سبيل الله، كما استطاعت الندوة بحكم موقعها وثقة المسؤولين فيها ، وأمانة القائمين عليها أن تكسب احترام الهيئات والمنظَّمات الدوليَّة ، والقيادات الفكريَّة، والجامعات الإسلاميَّة ، مما جعل تزكيتها مقدرةً، والانتساب إليها دليل خيريَّةٍ وصلاحٍ، واتِّزانٍ في الفكر والعمل .

الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة:

انبثقت هذه الجامعة من شعور المملكة بواجبها تجاه أقطار المسلمين والعالم في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة ، من خلال استقدام أبنائهم إلى أرض الحرمين ، وتزويدهم بالعلم النافع ، والارتقاء بمستواهم الفكري والسُّلوكي ، بما يجعلهم مهيَّئين للقيادة الشّرعيَّة في مجتمعاتهم قضاءً وتعليماً ، ودعوةً وإعلاماً .

صدر بها أمرٌ ملكيٌّ رقم [١١] في ٢٥/ ٣/ ١٣٨١هـ، وتَمَّ استقدام عدد من كبار علماء المسلمين وقادتهم الفكريِّين ، واستشارتهم في وضع النظام السِّياسي والمنهج الدراسي تحت رئاسة المفتي العام سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله .

بدأت الدّراسة بها يوم الأحد ٢/ ٦/ ١٣٨١هـ، وكان عدد الطلبة ذلك العام (٢٥٦) طالباً .

يضمُّ مجلسها الأعلى (١٣) عضواً من كبار العلماء وقادة الفكر الإسلامي، ومديري الجامعات .

جاء في نظامها :

١- الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة مؤسَّسةٌ إسلاميَّةٌ عالميَّةٌ من حيث الغاية، وعربيَّةٌ سعوديَّةٌ من حيث التبعيَّة، ذات شخصيَّةٍ اعتباريَّةٍ مستقلَّة.

٢- تهدف الجامعة إلى تثقيف من يلتحق بها من طلاب العلم من المسلمين من شتَّى الأنحاء، وتكوين فقهاء في الدين، متزوِّدين من العلوم بما يؤهِّلهم لحل ما يعرض للمسلمين من مشكلات في شؤون دينهم ودنياهم، على هدي الكتاب والسنة، وعمل السَّلف الصالح.

تضمُّ الجامعة الإسلاميَّة خمس كلِّيَّاتٍ هي:

- كلِّيَّة الشريعة.
- كلِّيَّة القرآن والدراسات الإسلاميَّة.
- كلِّيَّة الحديث والدّراسات الإسلاميَّة.
- كلِّيَّة الدعوة وأصول الدين.
- كلِّيَّة اللُّغة العربيَّة.

إضافةً إلى خمسة معاهد ودور حديث في مكة والمدينة، ومعهد عال في السنغال، وبما أنها أصلاً لأبناء العالم الإسلامي فإنَّ المنح الدراسيَّة توزَّعُ على أقطار العالم بحسب الحاجة، وتقوم الجامعة باستقدام الطالب مُتكفِّلةً بتذاكر مجيئه وعودته، وسكنه ونقله إلى الحرم المدني، ومنه، وخدماته الطبيَّة، فضلاً عن مكافأةٍ شهريَّة، كالطلبة السعوديِّين.

وبعد تخرّجه غالباً ما تتعاقد معهم جهاتٌ دعويَّةٌ، كالرابطة ووزارة الشؤون الإسلاميَّة للعمل في بلادهم أو بلادٍ أخرى.

وللجامعة نشاطاتٌ دعويَّةٌ واسعةٌ، كالمواسم الثقافيَّة وابتعاث الدعاة،

وإقامة الدورات الشرعيَّة في مختلف أنحاء العالم[١].

ولقد نفع الله بهذه الجامعة فيما خرَّجته من أجيال من الشباب الذي يحمل همَّ أمته، وهدي دينه، وعلم شريعة ربّه، ويتحرَّك بهذه الرُّوح لصالح مجتمعه ووطنه.

وإنَّك لتسعد حقّاً حينما تزور دولاً كثيرةً فتجد أنَّ كثيراً من البارزين فيها علماً وحكمةً ودعوةً، من خرِّيجي هذه الجامعة المباركة، حتى صار كثيرٌ منهم يقودون العمل الإسلامي، وأصبح منهم السُّفراء والوزراء في دولهم.

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية:

وضع نواة هذه الجامعة الملك عبد العزيز والشيخ محمد بن إبراهيم رحمهما الله عام ١٣٧٠هـ معهدا علمياً ثم كليتي الشريعة واللغة، وأصبحت رئاسة عامة، وفي عام ١٣٩٤هـ صدر مرسوم ملكي بجعلها جامعة، وصدر نظامها متضمنا سبعاً وأربعين مادة.

جاء في المادة الأولى عن أهدافها:

- توفير أسباب التعليم الجامعي والدراسات العليا في العلوم الإسلامية والعربية وما يتصل بها من علوم أخرى كالعلوم الاجتماعية والتاريخ الإسلامي.
- العناية بالبحوث الإسلامية.
- تنظيم العلاقة مع جامعات العالم لسد الفراغ في الدراسات الإسلامية.
- العناية بالبحوث الفقهية المقارنة.

---

(١) انظر: الجامعة الإسلامية خلال (٣٣) عاماً، والعدد الأول من مجلة الجامعة الإسلامية (٤١) والعدد الثاني (١١٠).

- إعداد علماء متخصِّصين في العلوم المشار إليها في الهدف الأول وقضاة ودعاة مؤهلين.

- والإسهام في تلبية حاجات البلاد الإسلامية إلى تخصص طائفة من أبنائها في العلوم المتقدم ذكرها.

وتضم الجامعة اليوم عديداً من الكليات - تشتمل على كثير من الأقسام التي تقوم فيها دراسات عليا - والفروع التابعة لها في داخل المملكة وخارجها.

وقد أقامت هذه الجامعة عددا من المؤتمرات والأسابيع والندوات، ونشرت كتبا كثيرة تراثية ومعاصرة.

وتقيم بالتعاون مع المؤسسات الأخرى دورات شرعية، وملتقيات علمية في كل عام. وقد تخرج فيها ألوف من حملة الشهادات المختلفة ومنها الدكتوراه والماجستير من أبناء المملكة ومن طلاب المنح من أنحاء العالم الإسلامي.

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد:

هذه الوزارة إحدى مؤسسات الدعوة الضخمة في المملكة الي تضطلع بمهمة الدعوة أساسا داخل المملكة وخارجها.

وقد أنشئت عام ١٤١٤هـ وارثة لجوانب مهمة من الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وهو جانب الدعوة، ومن وزارة الحج والأوقاف وهو الأوقاف.

ولهذا تعد وزارة ناشئة نرجو لها التوفيق في مهامها الجليلة في العالم اليوم.

ويتبع هذه الوزارة - فضلاً عن وكالاتها المنوعة بحسب أهدافها - عدد من المؤسسات المهمة مثل:

- الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- ومركز البحوث والدراسات الإسلامية.
- والمسابقة العالمية لحفظ القرآن الكريم.
- وأمانة التوعية الإسلامية في الحج.
- ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف؛ وهو أعظم مجمع في العالم لخدمة القرآن الكريم طباعة ونشراً وترجمة لمعانيه، وتحقيق كتب السنة والسيرة النبوية ونشرها وتوزيعها وترجمتها.

ويتبع الوزارة آلاف من الدعاة في الداخل والخارج ممن ترعاهم أو تشرف عليهم، وكذلك مراكز للدعوة، وتوعية الجاليات.

ومن المؤسَّسات أيضاً مجمعا الفقه الإسلامي:

- مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظّمة المؤتمر الإسلامي بجدَّة.
- ومجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة.

حيث يلقيان الدَّعم الكبير من المملكة، والشعور بقيمة ذلك في الارتقاء بأحوال المسلمين، وفي بيان موقف الإسلام من القضايا المهمَّة.

يقول خادم الحرمين الشَّريفين: «في السّعوديَّة أنشأنا مجلساً للفقه الإسلامي، لقد أردتُ من ذلك أن يلتقي علماء المسلمين وفطاحلهم في الفقه، ويتدارسوا... نريد أن يلتقي فقهاء العالم الإسلامي ليدرسوا ما حولهم، ويعطوا رأيهم في ضوء ما جاء في الكتاب والسُّنَّة.، لقد تابعتُ إنشاء المجلس، وإنَّني ساعٍ لتطويره...»(١).

---

(١) كلمات منتقاة، ١/١٨٨.

وإضافةً إلى ما سبق من مؤسَّسات الدعوة، لا ننسى « إذاعة القرآن الكريم » و« إذاعة نداء الإسلام » ، والجهود المتتابعة في سبيل الدَّعوة الإسلاميَّة، كإنشاء المراكز والمساجد في العالم ، وإقامة الدَّورات الشَّرعيَّة .

ومن أهمِّ الصور المباشرة للدعوة الإسلاميَّة التي برزتْ بها المملكة : « دعوة التضامن الإسلامي » التي رفع لواءها الملك فيصل -رحمه الله- في وقت كانت الدعوات القوميَّة، والحركات اللادينيَّة في أشدّ صولاتها لرفض الأديان، ورفض الإسلام بصفته الهويَّة الجامعة للأمة المسلمة ، ولكنه صَبَرَ وصَابرَ ودَعَا وزَارَ حتى حقق الله له كثيراً مما أراد ، ولم يبق التضامن الإسلامي في دائرة تلك المنظَّمات الرَّسميَّة . إنَّ المملكة العربيَّة السعوديَّة كما تشهد بذلك مواقفها، وأقوال قادتها وعلاقاتها وعموم سياستها تعدُّ التضامن الإسلامي أحد المقاصد الشَّرعيَّة التي ينبغي أن تأخذ اعتبارها دائماً ، وأن يبذل في سبيلها ما يمكن من جهود ، فإنَّ الصورة التي ينبغي أن يظهر بها العالم الإسلامي هي كما يقول خادم الحرمين الشَّريفين : « في صورة التضامن والتماسك، لا صورة الهويَّات المتنافرة والتفكير المتباعد »(١) .

وكل صور التضامن التي فيها سبيل لقوة الأمة في أي من المجالات وعلى أي مستوى تحقق ، تدعمها المملكة وتشجعها .

واقتناعاً بهذا يقول خادم الحرمين الشَّريفين : « أؤكِّدُ دائماً من جديد أنَّ المملكة شعباً وقيادةً في قمَّة الصفوف استعداداً للتضحية والبذل والعطاء ، ونسيان الإساءة وتجاهل الماضي ، والرَّغبة في بدء عهد جديد من الوفاق ، والتضامن العربي للانطلاق إلى استعادة الحقوق والكرامة والأوطان »(٢) .

(١) كلمات منتقاة، ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق، ص ١١ .

هذه إشارةٌ إلى بعض وجوه الدعوة التي تتبدَّى بها شخصيَّة المملكة، لم تستهدف الاستقصاء ، إنما بينا إسلاميَّة الدولة السعوديَّة في هذا الجانب ، ولا ريب أنّ بعض الدول الإسلاميَّة لها جهودٌ دعويَّةٌ داخليَّةٌ وخارجيَّةٌ تقوم بها وزاراتٌ للأوقاف والشؤون الدينيَّة ، ومؤسساتٌ علميَّةٌ أو تعليميَّةٌ ، كما أنّ هناك جهوداً دعويَّةً تقوم بها جمعيَّاتٌ وجماعاتٌ إسلاميَّةٌ متعدِّدةٌ ، لكن المملكة تتميَّز بتبنِّي الدعوة الإسلاميَّة في نظامها الأساسي ، وتقيم لها القنوات الكبيرة المتعدِّدة والضخمة ، وتُسخِّر سائر أجهزتها لخدمة هذه الدَّعوة في التعليم والقضاء، وشؤون الشباب وغيرها .

المبحث الختامي

التحديث الملتزم

التحديث أعتَى مشكلات المسلمين الحضاريَّة في هذا العصر في كلِّ مجالات حياتهم وبالذات في المجال السِّياسي .

إنَّ التحديث بمفهومه المجرَّد ، وهو حياة الشخص أو الأمة على مستوى محدثات العصر في العلاقات والنظم ، والاقتصاد والصناعة . . إلخ ليستْ مشكلةً بالنسبة للإسلام، ومن ثمَّ بالنسبة للمسلم المستوعب لإسلامه استيعاباً صحيحاً ؛ لأنّ هذا المسلم -بهذا الاستيعاب- يكون قد رسخ في وعيه أنَّ قطعيَّات إسلامه وهي واضحةٌ، هي الحاكمة ، فما كان من التحديث -عند النفس أو الغير- منسجماً مع هذه القطعيَّات ، محققّاً المصالح الشَّرعيَّة ، فهو حقٌّ وصلاحٌ ينبغي التشبُّث به ، وما كان مضاداً لها فهو باطلٌ ومفسدةٌ متيقَّنةٌ ابتداءً ، ومن ثمَّ مردودٌ تلقائيّاً ، وما كان بينهما فهو متروكٌ لنظر العقل ومتطلّبات الظروف ، ومن ثمَّ فالمسألة سَلِسَةٌ ولا أزمة لضميرٍ ولا شقاء للعقل بينهما ، أي الإسلام والتحديث .

كذلك فإنّ هذا التحديث ليس مشكلةً بالنسبة لشخص أو أمة ليس لها ثقافةٌ تراثيَّةٌ مُتجذِّرةٌ فيها ، إذ من السهولة على هذا الشخص أوَ الأمة أن يندرج في تيّار التحديث ليمور به مع أهله كاللَّقيط مع لاَقطيه .

لكن هذا التحديث يمثِّل مشكلةً بالنسبة لشخصٍ أو أمَّةٍ لديها ثقافةٌ تراثيَّةٌ ، لكنها تجهلها ، أو لا تثق بثوابتها حتى وإن تغنَّتْ بها .

هنا تقع المشكلة والمعاناة للناس وللثقافة ذاتها .

وقد وقع كثيرٌ من المسلمين في عامة المجتمعات الإسلاميَّة في هذه المشكلة والمعاناة من الحيثيين معاً :

- نقص الوعي بالعناصر الحقيقيَّة لثقافتهم الإسلاميَّة ، المستمدَّة من تعاليم القرآن والسنة .

- واهتزاز ثقتهم بما يتصوَّرونه ثقافةً إسلاميَّةً .

لقد برزتْ مشكلة التحديث عند المسلمين قبل القرن العشرين حينما شعر بعض حكَّام المسلمين بتخلُّف مجتمعاتهم في الجوانب العسكريَّة والمدنيَّة عموماً عن مجتمعات الغرب الحديث ، فأرادوا تحديث حياتهم بما عند الغرب ، وكان المنطق السَّليم أن تتمَّ هذه الحركة من خلال رجال الفكر في الدَّولة ، وهم في ذلك الوقت العلماء الشَّرعيُّون تقريباً ، وأن تنبثق من خلال المؤسسات العلميَّة الراسخة في المجتمع ، حتى يَتأطَّر « التحديث » بثقافة الأمة ، وتؤقلم بما يجعلها « تحديثاً إسلامياً » لا تحديثاً غربياً في مجتمعٍ مسلمٍ .

لكن الذي حدث غير ذلك أنْ لجأ الحكَّام -السُّلطان العثماني محمود الثاني ومحمد علي من مصر مثلاً- في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر الميلادي إلى إقامة « مؤسسات بديلة » ، فلم يهتمُّوا بأن يتبنَّوْا حركة تجديد شامل للجماعة والمجتمع والمؤسساتِ المختلفة ، ولم يهتمُّوا بأن يظهر الجديد انبثاقاً منَ القديم ، إنما أبقوا القديم على حاله من القدم فكراً ومؤسسات ورجالاً ، أبْقَوْهُ على ركوده ، وأنشؤوا بجانبه المؤسسات الجديدة برجال آخرين وفكرٍ آخر .

بقي الجيش القديم وأقيم إلى جانبه فرَقٌ جديدةٌ ، وبقي التعليم التقليدي ، وأقيمتْ بجانبه مدارس حديثةٌ ، وهكذاَ صار هذا الازدواج منهجاً وتقليداً ، سواءٌ في السياسات المنفذة ، أو في بناء عقليَّة الحكَّام المصلحين ، ثمَّ صار منهجاً

يترسَّم على وجه التلقائيَّة في إنفاذ الإصلاح في المجالات المختلفة[1].

وقد أنتجتْ هذه الازدواجيَّة تدهور النظامين معاً، فلا الحديث ارتكز على جذور أصيلة يصبح بها راسخاً نامياً نافعاً، ولا القديم واكب حركة التطور باجتهاداته وإصلاحه الفكري حينما عُزِل وهُمِّشَ.

بل إنَّ الاتجاه الحداثي في ظل الاستعمار ثم ما خلفه من نُظُم عمل على إقصاء الاتجاه الفكري القديم وتصفيته، ومن ثمَّ ساد السَّاحةَ الاتجاهُ الحداثي في مختلف الجوانب الفكريَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، وخاصةً في العقود السَّابقة واللاحقة لمنتصف القرن العشرين، حيث أصبحتْ الحداثة تعني نفي الإسلام، إذْ لا يمكن أن تتحقَّقَ الحداثة إلا بعد تطهير العقول والحركة الاجتماعيَّة من الصِّبغة الإسلاميَّة التي تمثِّل حواجز عائقةً عن مداخلة العصر مداخلةَ تحديث واستيعاب.

هذا الاتجاه الذي يمثِّله مفكِّرون وقادة سياسيُّون، وجماهير تابعةٌ، هو الذي عانى مشكلة الحداثة، ومن ثمَّ ارتبك في التعامل معها، وخسرتْ تجاربه معها أخيراً.

وسبب معاناته ما ذكرناه قبل قليل:

فقد تصوَّر هؤلاء الإسلامَ من خلال ما تلقَّفوه من المستشرقين المشبوهين في دراساتهم للإسلام، ومن خلال التقاليد الشائعة في أغلب مجتمعات المسلمين من تواكليَّة تسمَّى بالتوكُّل، وانعزاليَّاتٍ صوفيَّةٍ، ودَجَلٍ وخرافاتٍ باسم الولاية والكرامات... إلخ.

---

(١) انظر: الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، طارق البشري، ص ٢٤٤، ضمن محاضرات الموسم الثقافي السابع للمجمع الثقافي في أبو ظبي عام ٩٠ - ٩١م.

أو تصوَّروه من خلال الفرق التي شوَّهتْ الإسلام حينما جعلتْ بعض رؤاها الفكريَّة من أساسيَّات الاعتقاد في الإسلام ، كإنكار قدرة العقل على التحسين والتقبيح جملةً وتفصيلاً ، والتنكُّر للأسباب واعتبار القول بها شركاً بالله ، فضلاً عمَّا يعيشه بعض ممثِّلي هذا الدين من العلماء من بُعْد عن الواقع ، خاصَّةً في مجالاته الفكريَّة والسِّياسيَّة ونحوها ، إمَّا بسبب تهميشهم السَّابق كما ذكرنا ، أو بسبب التأثيرات الصُّوفيَّة التي تباعدهم عن الحياة المتدفِّقة .

هذه وأمثالها جعلتْ مقام الدين يهتزُّ في نفوسهم ، ويشعرون أنّه مناقضٌ لبعض الحقائق الأساسيَّة في الحياة ، من حيث اعتبار العقل ، وبناء الحركة العلميَّة والاجتماعيَّة على الأسباب والقوانين الكونيَّة والاجتماعيَّة ، وبناء الدولة سياسةً وإدارةً ، واعتماداً للقوميَّة أو الوطنيَّة على الصُّور المعاصرة ، التي كان لها آثارٌ إيجابيَّةٌ في الحضارة الغربيَّة .

وكان من أبرز تمثُّلات هذه الحداثة -في المجال السِّياسي- العلمانيَّة التي أصبحتْ ضرورةً - لدى هذا الاتجاه - حيث تقام الدولة بعيداً عن الدين وتأثيره ، مُرْتَدِيَةً بعد ذلك لباس أيديولوجيَّة يمينيَّة أو يساريَّة ، وإذا تطاول الدين شاعراً بضرورةِ اهتمام الدولة به ، فإنَّه يُحَارَب منْ قبلها ، لِتتفرَّد في الساحة .

لقد اتخذت الحداثة في العالم الإسلامي الحداثة الغربيَّة سلفاً ، وطمعتْ بأن تنتهيَ إلى نتائجها ، فافترضتْ أمامها عدواً هو الدين الكابت لكلّ عناصر إنسانيّة الإنسان ، ولكنها لم تحارب ديناً مفترضاً غير موجود ، وإنما حاربتْ ديناً موجوداً لا يحمل تلك الخاصيَّة التي كانتْ علَّة حرب الأوربيِّين له .

رأتْ هذه الحداثة أنَّ التشكيل الحضاري للمجتمع لا يمكن أن يتمَّ إلا بتفكيك الثقافة المحلِّيَّة تفكيكاً يُفقدُها فاعليَّتها لتكون السّاحة مُهيَّأةً للبناء عليها .

لقد استُبْعِدَتْ المؤسسات الدينيَّة ، وعُطِّلتْ مهامها في الدولة ، مما أدَّى إلى انعدام الثقة بين ذوي العلم الشَّرعي ، ومن ثمَّ الشعوب وبين الحكَّام ، مما أدَّى إلى زيادة « اعتمادهم على الخبرات الأجنبيَّة في المجالات التي تشكِّلُ مصادر قوَّتهم، وتمكِّن لنفوذهم ؛ ولهذا لم يكن المجتمع يشعر بأنَّ هذه النظم منه وإليه. . . »[1].

ولم يكن الانفصام محصوراً بما بين الحاكم نفسه ونُخبَته من جهة ، والشعب من جهة أخرى ، ولا ببعض مؤسساته التي علاقتها بالجمهور محدودةٌ. إنّ الانفصام يَتَجَذَّرُ في أعرق عناصر الدولة المماسَّة للشعب ، وهو « القانون » الذي نُقِلَ من مجتمعٍ غربيٍّ له ظروفه وبِنْيَتُهُ القيميَّة الخاصَّة إلى مجتمعٍ إسلاميٍّ مغايرٍ ، بل مناقضٍ في جوانب كثيرة ، مما جعل هذا القانون منفصماً عن دين المجتمع وقيمه.

« فرغم العدل والإصلاح النسبي والنموّ العمراني المهمّ ، لم تتَّحد القاعدة القانونيَّة بالضَّمير الخلقي »[2].

لقد باشرتْ عمليَّة التحديث « التغريبي » « بتحطيم مفاصل المجتمع الإسلامي ، المرتكزة على العقيدة والثقافة ، ووضعتْ رأس مهمَّاتها تبديل العلاقات الاجتماعيَّة وإبعاد الشَّرع عن أنماط التعليم والتربية . . . وإحلال نسيج آخر للروابط الاجتماعيَّة بين الأفراد والجماعة، من خلال إدخال المفاهيم الأوروبيَّة المتعلِّقة ببِنْيَة العائلة ، وعلاقة الرجل ودور المرأة، وعلاقات الألفة والتضامن، واستبدالها بوحداتٍ أخرى أضعف وأكثر تسهيلاً للتفتيت والسَّيطرة »[3].

---

(١) الخطاب العربي المعاصر ، لفادي إسماعيل، ص ٨٢ بتصرُّف يسير ، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

(٢) مفهوم الدولة، لعبد الله العروي، ص ١٣٩ ، الدار البيضاء ، ١٩٨١م.

(٣) انظر : الخطاب العربي المعاصر ، لفادي إسماعيل، ص ١١٠.

لقد وضعتْ الولاء للدولة مقابلاً للولاء للإسلام، فارضةً الأوّل بالقوَّة محطِّمةً الثاني .

في هذا المسار التحديثي العارم سارتْ دولٌ كثيرةٌ في عالمنا الإسلامي ثوريَّةً، أو قوميَّةً، أو اشتراكيَّةً أو غيرها ، ممطرةً الناس بالوُعود الجازمة بنقلة حضاريَّة في كلِّ المجالات، وبالديمقراطيَّة والحريَّة ، وحفظ الحقوق .
ولَكن . . .
لكن النتيجة كانت بعكس ذلك تماماً .

يقارن " غليون " نجاح علمانيَّة الحداثة الغربيَّة ، وفشل الحداثة العربيَّة بأنَّ الحداثة الغربيَّة قامت هناك لإقامة الوعي العقلاني والعلمي في عالمٍ كانت الكنيسة تسيطر فيه سيطرةً كاملةً ، وتلغي أيَّ مجال مستقلٍّ للممارسة العقليَّة والتجريبيَّة الحرَّة بالفعل، فهي تحريرٌ للعقل البشريِّ العام، وبالتالي حركته المدنيَّة من تحكُّم فئةٍ محدودةٍ بسطوةٍ لاهوتيَّةٍ لا ترحم .

أمَّا الحداثة العربيَّة فإنها تسلك سيرورةً معاكسةً حينما تحصر مجال المعرفة والتعامل مع الدولة بنُخبة مُتغرِّبة تزعم لنفسها العقلانيَّة والكمال، مهمِّشةً ما وراءها من شعوبٍ وقياداتِهم، وكأنَّ هذه الحداثة تقيم كنيسةً مشابهةً لتلك التي فَرَّ منها الغربُ ، ممتطياً حداثته .

« إنَّ الموقف العازل للكنيسة عن السُّلطة السِّياسيَّة في الغرب، قد تحوَّل في المجتمعات التي لم تعرف حقيقة الصِّراع وجوهره ولم تعشه ، إلى نفيٍ كاملٍ للدين من الدولة والمجتمع معاً، وفي هذه الحالة كانت النتائج كارثيَّةً بالنسبة للدولة التي بقيتْ مفتقرةً لكلِّ شرعيَّة ، وأخذتْ تُسيءُ استخدام الدين للحصول عليها، وبالنسبة للدين الذي فَقَدَ السَّيطرة ، وتحوَّل إلى أداة تُسْتَخدَمُ

في أغلب الأحيان ضدَّ أهدافه ذاتها وأخيراً بالنسبة للمجتمع الذي فَقَدَ الدين والدولة معاً كعناصر أساسيَّة ولا بديل عنها، كأطر ناظمة لوعيه، وعاملة على تحقيق اتِّساقه ونظامه وهويَّته، وبلورة إرادته، لقد أصبح الفصل بين الدين والدَّولة شقّاً للمجتمع بين أمَّتين متعاديتين، وذريعةً لهذا الشّقِّ»[1].

والحقُّ أنَّ وصف الدولة العلمانيَّة -في المجتمع الإسلامي- بالعقم إحسانُ ظنٍّ بها؛ لأنها قد ولَدتْ -ولكن- آثاراً سيِّئةً على نفسها، وعلى دين الأمة، وعلى المجتمع، وحتى على المجتمع الدَّولي الذي تمثِّلُ فيه بعض هذه الدول بؤر فساد مقلق.

لقد كانت نتيجة التحديث المتغرِّب للدولة في المجتمعات الإسلاميَّة أن أصبحتْ هذه الدولة حسبما رصدها المفكِّرون العرب:

- «دولةً طفيليَّةً فئويَّةً مقطوعةً عن الأهالي، أو معاديةً لهم».
- «دولةً حزبيَّةً عنصريَّةً تريد فرض قيمِ فئةٍ محدودةٍ شاذَّةٍ عن قيم المجتمع عليه».
- «لقد حولَّتْ هذه الدولة السِّيادة الوطنيَّة إلى تبعيَّة شاملة، والشرعيَّة الداخليَّة تحوَّلتْ إلى حكمِ القوَّة، والتنمية والتلاحُم الداخلي إلى تنمية للتأخر، وإلى تفكُّك اجتماعيٍّ ووطنيٍّ وقوميٍّ متزايدين، ولم تشهدْ المجتمعات بفضل دولة -العلمانيَّة- لا إدارةً عقليَّةً للموارد والتوزيع، ولا اندماجاً للمجتمع في السياسة، والسياسة في المجتمع، لقد تراجع الطابع القانوني للسلطة، وظهرتْ الدولة الحديثة، وخاصَّةً في أوقات الأزمات على حقيقتها أي قوَّة أكثر همجيَّةً وأكثر انحطاطاً... لقد أصبحت دولة

(١) نقد السياسة - الدولة والدين، لغليون، ص ٤٤٦. وانظر أيضاً: اغتيال العقل، ص ٢٤٠.

البناء القومي دولة الخراب القومي، وتحوَّلتْ دولة المجتمع والأمة إلى دولة العداء للمجتمع والقهر للأمة، وصارتْ الدولة الوطنيَّة وكالةً دوليَّةً وقوَّةً أجنبيَّةً » .

- « لقد أصبحتْ دولة العلمنة في البلاد الإسلاميَّة ناشرةً للأمراض الخبيثة في المجتمع ، اجتماعيّاً وثقافيّاً واقتصاديّاً . . . »[1].

وهذا ما جعل هذه الدولة تعيش بعزلةٍ عن شعبها الذي صار يستقذرها، ونزع ولاءه لها من نفسه ليقينه بتهافت حقيقة هذه الدولة وفقدانها سبب وجودها، وصار يبحث له عن مَحَاضن أخرى يمنحها ولاءه جماعات أو جمعيَّاتٍ أو أحزاباً محليَّةً أو خارجيَّةً .

لا ريب أنّ هذه الصُّور والنتائج قد أرَّقَتْ كثيراً من المفكِّرين والقيادات الحزبيَّة أو السياسيَّة ، وأنهم يسعون لتجاوزها ولو قليلاً ، ولكن أغلبهم لتغرُّبه الفكري ونقص تصوُّره الصحيح للإسلام ، ومواقف الشَّدِّ مع الحركات الإسلاميَّة ذات التوجُّه السياسي الحاد ، يجعل سعيهم تائه الوِجهة ، قاصر النظرة ، قلق المواقف .

المملكة والتحديث:

حينما كانت صَوْلَةُ الحداثة في كثيرٍ من أقطار العالم الإسلامي قائمةً في الخمسينات والستينات من القرن العشرينَ بصورتها العلمانيَّة، المقصية للدين عن الحياة الاجتماعيَّة ، أو بصورتها المحاربة للدين في كلِّ مجالات الحياة ،

---

(١) في هذا النقد وأمثاله كُتُبٌ وبحوثٌ كثيرةٌ، انظر مثلاً: "نقد السيِّاسة " و " اغتيال العقل " لبرهان غليون، و " الخطاب العربي المعاصر " لفادي إسماعيل، و " الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر " ، لمنير شفيق، و " مفهوم الدولة " لعبد الله العروي.

باعتباره حجر العثرة عن الحداثة -في هذا الظرف- كانت سهامٌ كثيرةٌ حادَّةٌ توجَّه إلى المملكة بصفتها دولة التخلُّف ومجتمع الرَّجعيَّة والانحطاط واللاإنسانيَّة .

ولم تكن هذه الاتهامات وأمثالها نتيجة تبصُّر في واقع المجتمع السعودي، ودراسة له ، وللنظام الذي يحكمه ، إنَّ سببها مبدئي ؛ وهو إعلان هذه الدولة المتواصلَ التزام الإسلام خياراً وحيداً لنظام الدولة ، وتبنِّيْها له في المحافل الدوليَّة، وإقامة حدوده .

وبناءً على المعادلة الإلحاديَّة الجائرة بالتناقض الحتم بين الدين، والتحديث الذي يرتقي بالمجتمع فإنَّ النتيجة محسومةٌ ضدَّ المجتمع السعودي بأنه بهذا الالتزام الديني سيبقى رَهينَ تخلُّفه وبؤسه .

في مقابل هذا كان رجال هذا المجتمع علماءَ وحكَّاماً يُصحِّحون هذا التصورُّ الخاطئ الذي زرعه التغريب في عقول أولئك المفكِّرين والقادة من أبناء المسلمين ، كان هؤلاء الرجال يُبيِّنون أنَّ الحقيقة بعكس ذلك ، وأنَّ الإسلام هو منطلق التحديث الصَّحيح ، وهو ضامن سلامة مسار التنمية بما يجعلها نافعةً مُعمِّرةً ، وأنه لا تعارض بين التزام المسلم بعقيدته وعبادته وقيمه الخلقيَّة، ومنافسته الآخرين على امتلاك الإمكانات المدنيَّة والحضاريَّة، وتسخيرها في صالح مجتمعه وأمته المسلمة .

يقول الملك عبد العزيز ردّاً على الذين يعيبون عليه التزامه الإسلام، مما يعني بقاءه في خندق الأصالة بعيداً عن المعاصرة : « أمَّا الدين فوالله لا أغيِّر شيئاً مما أنزل الله على لسان محمَّد ﷺ ولا أتبع إلا ما جاء به، وليغضب علينا من شاء، وأمَّا الأمور العصريَّة التي تعيننا وتفيدنا، ويبيحها دين الإسلام فنحن

نأخذها ونعمل بها، ونسعى في تعميمها ، ولا مدنيَّة أحسن من مدنيَّة الإسلام »[١].

وبعد أربعة عقود تقريباً يُعيد الملك فيصل الموقف نفسه ، وهو يتعرَّض شخصيّاً لتهمة الرَّجعيَّة وقيادة شعب متخلِّف يقول : « ديننا يفرض علينا أن نهتمَّ بأمور شعوبنا ، وبتقدُّمها وبرقيها ، وببلوغها مدارك التقدُّم والعلم والقوَّة ، كل هذه الأشياء ديننا يحفز ويدفع إليها بكلّ قوَّة ، والذي يقول : إنَّ الدين الإسلامي يقف في سبيل التقدُّم ، أو يكون سبباً في عدم الرُّقي ، أو السير في سبيل التطوُّر هو واحدٌ من اثنين :

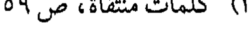
- إمَّا أن يكون جاهلاً ، ولا يعرف عن الدين الإسلامي شيئاً .
- أو يكون مكابراً يريد أن يغالط الحقائق »[٢] .

وفي العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري يؤكِّد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد هذا التصوُّر الصحيح للإسلام إزاء قضيَّة التطوُّر يقول : « إنَّنا نؤمن جميعاً أنَّ الإسلام دينٌ يخاطب العقل ، ويناهض التخلُّف في شتَّى صوره وأشكاله ، ويشجِّع حرية الفكر ، ويستوعب منجزات العصر ، ويحضُّ على متابعتها . . . »[٣] .

كان كثيرٌ من المستغربين يعدُّون هذه المواقف التي تعلن قوَّة التزامها بالإسلام اختناقاً في رحمٍ ضيِّق مظلمٍ أمام عالم النور الفسيح ، وخداعاً للجماهير التي تخدِّرها تلك الخطب ، وتقيم بينها وبين العصر أسواراً غليظةً ، وأنَّ هذه الجزيرة ستصبح مستنقعاً آسناً بين رياضٍ نضرة من الدول الزائغة عن

---

(١) في محرّم ١٣٥١هـ، السعوديون والحل الإسلامي، ص ٣١.
(٢) إنجازات الملك فيصل، لعبد الرحمن الشبيلي، ص ٥، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
(٣) كلمات منتقاة، ص ٥٩ .



الدين، المندرجة في تيار الحداثة العاتي .

ولكنَّ سنن الله غلابةٌ ، فما هي إلا سنون معدودةً حتى انجلى الغبار لكلّ راكبٍ، ليستبين أفَرَسٌ تحته أم حمارٌ؟ .

لقد تهاوتْ الحداثات العلمانيَّة والإلحاديَّة بعد أن أنهكتْ جسد الأمة العليل، كما يفعل المتطبِّب المشعوذ بأجساد مرضاه ، وبقيتْ المملكة ثابتةً على مبدئها، مواصلةً دعوتها إلى العودة إلى الإسلام في تحقيق نهضة الأمة بدل التطفُّل شرقاً وغرباً .

والآن ما هو موقف المملكة من قضيَّة التحديث وقد رفضتْ صور الحداثة التي تعتبرها زائغةً عن الإسلام إلحاديَّةً وعلمانيَّةً، كيف استطاعت المملكة أن تتماسك في هذا العصر المتفجِّر بكل صور الحداثة الفكريَّة والإعلاميَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة مع التزامها بدينها ، بل كيف حقَّقتْ قدراً من الأهداف النهضويَّة التي فشل فيها أصحاب الحداثات المنحرفة ، كيف استطاعتْ بصورة متفوِّقة أن تندمج في الوتيرة الرَّاهنة للتطوّر الحضاري مع حفاظها على التزامها المبدئيِّ بالإسلام ، وقيمها الاجتماعيّة الأصيلة ؟؟

الفهم الصحيح للإسلام : لا ريب أنَّ الأساس الذي به حَقَّقتْ المملكة تفرُّدها في التعامل مع التحديث هو « منهج فهمها للإسلام » الذي أشرنا إليه مراراً، وهو المنهج السَّلفي المتمثِّل بفهم صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم لتعاليم الدين التي جاء بها محمدٌ ﷺ ، والذي نظَّرَه فكريّاً ومنهجيّاً المجدِّد الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن سادتْ مجتمعات المسلمين تصوُّراتٌ منحرفةٌ عن الإسلام عقلانيَّةً وصوفيَّةً ، وهي التصوُّرات التي للأسف ظلَّتْ تسود السّاحة الثقافيَّة والاجتماعيَّة في كثيرٍ من بقاع العالم الإسلامي حتى في

العصر الحديث الذي التقى فيه المسلمون بالحضارة الغربيَّة بثقافتها وعلمها الذي يناقض بعض مقرَّرات تلك التصوُّرات التي يتوهَّم أصحابها أنها الإسلام نفسه ، مما أوقعهم في اضطرابٍ فكريٍّ ، وخللٍ عقديٍّ ، ومن ثمَّ فسادٌ للحياة .

وحتى يتَّضح جانبٌ من تميُّز المنهج السَّلفي عن المناهج الأخرى، أشير إلى موقفه من بعض القضايا ذات الصِّلة بموضوع حديثنا :

- يقوم المنهج السَّلفي على رعاية التوازن بين عناصر شخصيَّة الإنسان الرُّوحيَّة والفكريَّة والماديَّة ، بما يحقِّق لكلِّ عنصرٍ حاجاته التي يعيش بها صاحبها إنساناً سويّاً « متكامل الجوانب » في هذهِ الحياة ، خلافاً للمناهج الأخرى التي أوغلتْ في الجانب الرُّوحي محاربة الجانب الماديِّ والفكري، كالإشراقيَّات الصُّوفيَّة ، أو انحازتْ للجانب المادي -انسياقاً مع ماديَّة العصر الحاضر- على حساب جانب الرُّوح والقيم الخلقيَّة .
- نظرة هذا المنهج إلى الأسباب « سنن الله » في الكون والحياة البشريَّة وسطٌ بين نظرَتَيْ :

* الماديِّين الواقفين مع الأسباب والقوانين الماديَّة والإنسانيَّة ، منكرين وجود الله ، أو منكرين خلقه لهذه الأسباب وتدبيره لها .
* وموقف الذين غَلَوْا في الرَّد على الماديِّين فأنكروا وجود الأسباب ، وعدُّوا الاعتراف بها شركاً بالله ، وعدم توكُّلٍ عليه .

أمَّا المنهج السَّلفي فإنه يتمثَّل في الإيمان بأنَّ الله سبحانه هو خالق العالم كلِّه، وهو مدبِّره والمهيمن عليه لا شريك له في الملك ، وله الخلق والأمر ، ولكنهم يؤمنون أيضاً بأنّ الله سبحانه قد وضع في هذا الكون سُنَناً ثابتةً تجري أحداثه على أساسها ، وأنَّ العلم بها ينفع الإنسان في أمور دينه ودنياه .

- توجيه التفكير البشري نحو الواقع الإنساني والمادِّي :

* الإنساني ؛ لتنظيم الحياة البشريَّة، وحلِّ مشكلاتها من خلال شريعة الله .

* والمادي ؛ للنظر في الكون المخلوق ليزداد شعوراً بعظمة خالقه، وليستثمر منافعه في حياته الماديَّة .

وصرفه عن التيه في قضايا تجريديَّة ترهق الفكر ولا ترتدُّ إلى عمل نافعٍ، ومن هذا كان إنكار ابن تيمية على الفلاسفة والمتكلِّمين صوريَّتهم، وإغراقهم في المباحث الوجوديَّة والإلهيَّة، وإنكاره تركيز المنطق الأرسطي على قياس الشمول المبني على المقدِّمة الكليَّة، معتبراً -أي ابن تيمية- أنَّ الاستقراء الذي يبدأ من دراسة الجزئيَّات العينيَّة في الواقع ليصل إلى القوانين الكليَّة هو المنهج السَّليم[1] فضلاً عن اتِّساقه مع منهج القرآن الذي يوجِّه العقل نحو النظر في الأنفس والآفاق، حتى في مجال تقريراته العقديَّة .

- شموليَّة العبوديَّة والخلافة في الأرض التي أناطها الله بالإنسان لكل جوانب الحياة البشريَّة، بحيث يكون استثمار ما أودعه الله هذا الكون المسخَّر للإنسان لصالح الإنسان، وإقامة منهج الله جزءاً من هذه الخلافة، وتحقيقاً لتلك العبوديَّة في تكاملٍ عادلٍ بين مطالب الدَّارين : الدنيا المَمَرّ، والآخرة المَقَرّ .

- الانفتاح الإيجابي على الجهود الإنسانيَّة لاستثمارها وترشيدها، ولهذا كان مما نقد به علماء السَّلف مواقف بعض الفرق التي تَنكَّرتْ للمعارف التجريبيَّة والرِّياضيَّة، التي دخلتْ إلى البيئة الإسلاميَّة، وعدَّ ابن تيمية هذا التنكُّر بدعةً مخالفةً للدين، فقد ذكر أنَّ من بدع المتكلِّمين « ردّهم ما

---

(١) انظر : الردّ على المنطقيين، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٩٢، الطبعة الثانية، لاهور، ١٣٩٦هـ.

صحَّ من الفلسفة في علم الفلك والحساب ونحوه»[1].

- عدم ربط الدين في مجال الاعتقاد بالنَّظريَّات البشريَّة ، واعتماد منهج النصوص الشَّرعيَّة التي تعاملتْ مع الفطرة المباشرة ، ومع الأدلَّة الكونيَّة الظاهرة على تأكيد الوحدانيَّة، والبعث ، ونحوها ، ولهذا أنكر السَّلف منهج المتكلِّمين الذين بنوا إثبات وجود الله على نظريَّة الجوهر الفرد ، وجعلوا الإيمان بها لازماً لتحقُّق الاعتقاد بوجود الله ، وقد كشف العلم الحديث تهافتها .

هذه بعض العناصر المنهجيَّة للمنهج السَّلفي الذي تمثَّله الشيخ محمد ابن عبد الوهَّاب في دعوته، ومن ثمَّ الدولة والمجتمع السّعودي ، وهي عناصر لا يُقال : إنها تسمح بالانفتاح على التحديث ، بل توجِّه أتباعها نحو استثمار كلّ صالح من هذا التحديث، وتحفزهم أن يأخذوا -بحسب استطاعتهم- دوراً رياديّاً فيها، يسهمون من خلاله في ترشيد مسيرتها لصالح الإنسانيَّة كلِّها .

حكمة القادة:

انعكاس هذا المنهج في شخصيَّة قادة المملكة فضلاً عن أصالة منبتهم أسرةً ومجتمعاً، أفرز عاملاً مهمّاً في إيجابيَّة السُّلوك السّعودي مع الحداثة، وهو حكمة هؤلاء القادة في التعامل مع الأحداث التي تواجه دولتهم ومجتمعهم ، إنّهم يَعُون طبيعةَ شعبهم عقليّاً ونفسيّاً ، ويَعُونَ ضرورة تحديث المجتمع والخروج به من وضعه البدائي وحياته التقليديَّة في مجالات الإدارة والصِّناعة والزِّراعة ونحوها، ويَعُونَ ما تتطلَّبه التنمية الناقلة للمجتمع من حالٍ قديمٍ إلى

(١) الرد على المنطقِّيين، لابن تيمية، ص ٢٦٠. وانظر في الموقف نفسه: مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، ٢/ ٢١٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

حالٍ حديثٍ من تغييراتٍ قيميَّةٍ .

على هذا الوعي في قنواته الثلاث قامت النهضة التحديثيَّة في المملكة في عهد الملك عبد العزيز وما بعده ؛ كان نشر التعليم عاملاً مهمّاً في تهيئة العقول والنفوس بعد تنويرها لقبول الجديد الصَّالح ، وكان الرُّكون إلى العلماء في دعم حركة التحديث بتجلية الموقف الإسلامي تجاه المستحدثات التي قد يندهش لها بعض الناس فيتخوَّفون منها ، وكان الاعتماد على الحزم الإداري في كفِّ الرُّؤى السَّلبيَّة عن أن تفسد مشروع التحديث -كانت هذه العوامل- كفيلةً بأن تسير بالحركة النهضويَّة لتحديث المجتمع السعودي ، وتنقله من العقليَّة والحياة القبليَّة الرعويَّة ، إلى وضعٍ متقدِّمٍ يسير بخطًى مُتَّزنةٍ نحو نهضةٍ حضاريَّةٍ ذات صبغةٍ إسلاميَّةٍ متميِّزةٍ .

ولقد كانت هذه النهضة التحديثيَّة مع التزام الأصالة ، مبعث تعجُّب كثير من المتأمِّلين من الغربيِّين أو بعض المسلمين ، والعرب الذين حَيَّرهم هذا الجمع بين ما يتصوَّرونه متناقضات ، وإن كان هو حسب الرُّؤية الإسلاميَّة الوضع المنطقي لمثل الملك عبد العزيز ومن خلفه من بعده ، يقول " جيرالدوي جور " : « نسمع أحياناً في إنجلترا سؤالاً يتردَّد عن أيّ عصرٍ آخر كنت تودُّ أن تعيش فيه ، سواء كان عصر الإغريق الذهبي ، أو عصر الملكة " إليزابيث " ، أو ربما عصر الوصاية على العرش ولم يكن أيٌّ منّا يدور بخَلَده أنَّ في الإمكان أن يجمع بين عالمين -كما فعل ابن سعود- أن يتبع الشرع الذي أنزل في القرن السَّابع ، بينما هو يستخدم إمكانات القرن العشرين ، ولقد رأينا الآن هذا من خلف مرآة الجزيرة » .

ويقول المؤرخ الألماني " داكوبرت فون ميكوش " : « أثبت ابن سعود أنَّ بالإمكان إدخال وسائل الحياة الحديثة إلى الصحراء مع مراعاة عادات شعبه

وتقاليده وتفكيره . . . لقد نجح ابن سعود أيَّما نجاحٍ في إيجاد الحلول والتوفيق بلباقة بين المتناقضات !! بحيث تفيد بلاده من جميع المستخدمات العصريَّة دون مساسٍ بالدين ، أو بالتقاليد أو العادات الموروثة ، وهو أمرٌ على جانب كبير من الأهميَّة بالنسبة للمملكة التي تضمّ مكة ، ومنها الكعبة قبلة المسلمين ، وعليها أن تكون أكثر الأمم الإسلاميَّة تمسُّكاً بأحكام الدِّين والقرآن الكريم » .

ومن العرب يقول "أحمد حسين " السياسي المصري : « فما أعجب أن يدرك هذا الرجل الذي وُلد في البادية ، ونشأ وترعرع فيها ، وقام بيته على أساس العودة بالإسلام إلى طهارته الأولى وبساطته ، ما أعجب أن يجمع هذا الرَّجل بين الشعور العميق بالإسلام وتقديسه وبين الأخذ بوسائل النهوض العلميَّة الحديثة ! لو طبَّقنا قوانين الوراثة والبيئة لوجب أن يكون ابن سعود أعدى أعداء الآلات والميكانيكا والعلم الحديث ، ولكن ابن سعود ككلّ الأفذاذ خرج على هذه القوانين ، فجمع في شخصه ما بدا في بعض الأوقات لفريق من الناس تناقضاً ، فهو المحافظُ أشدَّ المحافظة على تقاليد الإسلام القديمة ، حتى ليعتبر الكثير مما عليه سائر المسلمين اليوم بدعاً ومحدثات وضلالةً [١] . . . وهو في ذات الوقت يزور الأوربيِّين والأمريكان ويزورونه ، ويأمر بإدخال التليفون والسِّلكي واللاسلكي ، ويركب السيارة والطيارة ، ويمنح الامتيازات للبحث عن البترول والذهب في أطراف الجزيرة »[٢] .

ومن السَّهل على مفكّرٍ أو خطيب أن يقول ويؤكِّد عدم تناقض الإسلام بمبادئه وقيمه وأحكامه والتقاليد الناشئة في رحابه مع محدثات العصر الصالحة ،

---

(١) لا شكَّ أن الكاتب يقصد بتقاليد الإسلام عقيدته وشريعته ، وبالبدع والضلالات عبادة القبور ، والشعوذة ، والسحر ، ونحوها مما هو شائعٌ في كثير من مجتمعات المسلمين .

(٢) النصوص الثلاثة في كتاب : الملك عبد العزيز - رؤية عالميَّة ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ .

ولكن تمثيل هذه الحقيقة في الواقع الاجتماعي لشعب عاش في حياة رتيبة ، منعزلٍ عن العالم ، هو الصَّعب الذي بَهَر هؤلاء الشهود وكثيراً سواهم .

هذا المسلك التحديثي المتَّزن الذي انتهجه الملك عبد العزيز ، لم يكن مجرَّد مزاجٍ خاصٍّ به -رحمه الله- فينقطع بموته ، وإنما هو منهجٌ وقناعةٌ دينيَّةٌ ومنطقيَّةٌ راسخةٌ في كيان الدولة ، ولهذا تواصل مع من بعد الملك عبد العزيز ، فالملك فيصل -رحمه الله- قاد مسيرةً تطويريَّةً ضخمةً في عهده ، استطاع المجتمع أن يحتفظ فيها بتوازنه دون هزَّات ضارَّة : « لقد طبَّق الفيصل في إنجازاته أسلوباً راشداً في التنمية ، ومنهجاً مستنيراً في التطوير وفي التحديث ، إذْ عزَّز قيم المجتمع ، وصان عقيدته ، فتحقَّق التحوُّل الاجتماعي من دون التضحية بالثوابت »[1] .

ولهذا يقول بنو ميشان : « لطالما اتُّهم الملك بالرَّجعيَّة ، وهذا خطأ تماماً ، فالعكس هو الصحيح ، إنه متقدِّمٌ كثيراً وسط شعبه المتمسِّك معظمه بعاداته القديمة ، إنّ فيصل لا يكفُّ عن دفعه إلى الأمام ، لقد كانت مهمّةُ التجديد صعبةً مع الحفاظ على فلسفةٍ أخلاقيَّةٍ ثابتةٍ ، تلك التي تنبع من القرآن الخالد أبداً »[2] .

ولقد كانت عمليَّة التحديث تتمُّ من خلال عناصر ثلاثةٍ :

- علماء الشريعة ، من خلال تحديد المنظور الشَّرعي إزاء صور الحداثة والحدود الممكن قبول هذه الحداثة فيها ، سواءٌ تَمثَّلوا في هيئة كبار العلماء أو المفتي العام أو المجمع الفقهي ، أو اللِّجان ذات الصبغة الشَّرعيَّة أو غير ذلك ، فدور هؤلاء ما من شأنه الاجتهاد الفقهي .

---

(١) إنجازات الملك فيصل ، ص ٤ ، مصدر سابق .

(٢) فيصل الإنسان الحاكم ، بنو ميشان ، نقلاً عن : إنجازات الملك فيصل ، ص ٢٩ .

- أهل الخبرة والاختصاص الذين يتصوَّرون نهايات ما وصل إليه الفكر والتجربة التطبيقيَّة في قضايا السِّياسة والاقتصاد والإدارة وغيرها ، ليُحدِّدُوا مدى قابليَّة المجتمع السُّعودي لها ، وإمكانيَّة تبيئتها فيه ، لتصبح جزءاً منه دون أن تؤذيه ، قد يوجد هؤلاء في مجلس الشورى أو في الهيئات واللِّجان المتعدِّدة ، ودور هؤلاء ما من شأنه الإبداع العقلي .

والاستشارات الأجنبيَّة لأشخاصٍ أو شركاتٍ ونحوها .

وينبغي أن نعلم هنا أنَّ التحديث الذي نتحدَّث عنه ليس محصوراً في الجوانب الماديَّة البحتة ، كالعمران ووسائل المواصلات ونحوها ، ولكنَّه شاملٌ لجوانب الحياة المتعدِّدة ، في التعليم والإعلام والدعوة الإسلاميَّة ، والقضاء وغيرها من الجوانب ، كانت الدولة تطوِّرها بحسب إمكانيَّة المجتمع الماديَّة ، وإمكانيَّة استيعابه لجرعات هذا التطوّر .

ولقد يقال : إنَّ المال والبترول هو الذي حقَّق هذه النهضة المتميِّزة للمملكة .

وبلا ريب فإنَّ للغنى والوفرة الماديَّة دوراً مهمّاً في نهضة أيّ مجتمعٍ ، ولكنه دورٌ تابعٌ ؛ فإذا فقد السَّمتَ أو الآليَّة التي تستوعبه وتوظِّفه في التنميةِ ، فإنه قد يكون سبب ارتباك أو انهيار ، وهاهي دولٌ فيها البترول ، ومن ثمَّ المال ، وربما تتفوَّق على المملكةً بعناصر إنتاجيَّة أخرى ، ولكنها تعاني البؤس والتخلُّف ، والويلات الكثيرة .

أمَّا في المملكة فإنَّ الثروة حينما تضاعفتْ في أواسط السَّبعينات الهجريَّة من القرن الهجري الماضي ، ولم تكن الآليات الموجودة مهيّأةً لاستيعابها ، بدأتْ بوادر أزمة حرجة للاقتصاد السّعودي ، ومن ثمَّ لحركة الدولة ، وتفاقمتْ مع بدأية الثمانينات الهجريَّة ، وصاحب ذلك دعاياتٌ مضادَّةٌ

للإسلام وللمملكة ؛ وفي ظلِّ تلك الأوضاع تولَّى فيصل بن عبد العزيز رئاسة الوزارة عام ١٣٨٢هـ، سمَّاها بعضهم وزارة « الإصلاح » ، وقدَّم الملك فيصل بعد تشكيل الوزارة برنامجاً إصلاحيّاً تطويريّاً مكوَّناً من عشر نقاط ، مؤكِّداً على أنَّ الإسلام هو وحده طريق العدالة والتقدُّم بشكلٍ لم يحقّقه أيُّ نظامٍ آخر .

وتمثَّل هذا البرنامج في العناصر التالية :

أولاً: العمل على إصدار نظامٍ أساسيٍّ للحكم ، مستمدٍّ من الشريعة الغرّاء، وقد حدِّدَتْ العناصر الأساسيَّة التي سيتضمَّنها هذا النظام المأمول .

ثانياً: إصدار نظامٍ للمقاطعات يوضِّح طريقة الحكم المحلِّي للمناطق .

ثالثاً: العمل على إصدار نظامٍ يضمن استقلال القضاء وحصانته مع إنشاء مجلسٍ أعلى للقضاء ، ووزارة العدل ، ونيابة عامَّة للضرب على أيدي الظَّالمين والدفاع عن المظلومين .

رابعاً: تأسيس مجلسٍ للإفتاء يضمُّ نخبةً من خيرة الفقهاء والعلماء .

خامساً: تقرير واجب المملكة في الدعوة لنشر الإسلام والدفاع عنه قولاً وعملاً .

سادساً: إصلاح أوضاع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يتمشَّى مع الأهداف السَّامية للدعوة والإرشاد .

سابعاً: النهوض بالمستوى الاجتماعي للأمّة ، وتكفُّل الدولة بالعلاج والتعليم وإعانات الاستهلاك ، وتوفير الضمان الاجتماعي وإحداث نظامٍ للعمَّال ، وأن لا تطغى الدولة على الحرِّيات الفرديَّة والحقوق ، مع توفير وسائل التسلية للمواطنين .

ثامناً: العمل على إصدار مجموعةٍ من الأنظمة لتنظيم النشاط الاقتصادي

بما يتفق مع الشريعة الخالدة .

تاسعاً: وضع برامج إصلاحيَّة لإنعاش الحركة الاقتصاديَّة ، كالطرق والمياه والزراعة والسُّدود ، والصِّناعة والمرافق العامة ، واستثمار المعادن .

عاشراً: تحرير الرَّقيق ، وإلغاء الرِّقِّ إلغاءً مطلقاً[1] .

هذا البرنامج الذي أُنجز بعضه في عهد الملك فيصل ، وبعضه في عَهدَيْ من بعده ؛ كالنظام الأساسي الذي صدر في عام ١٤١٢هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين يعكس توجُّه الدولة في تحديث المجتمع السّعودي تحديثاً شمولياً لكافة الجوانب من جهة ، وملتزماً برسالة الدولة المتمثِّلة بتطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة والدعوة إليها من جهةٍ ثانيةٍ ، وموجهاً لصالح الإنسان في جانِبَيْه الإنساني والمادِّي من جهةٍ ثالثةٍ .

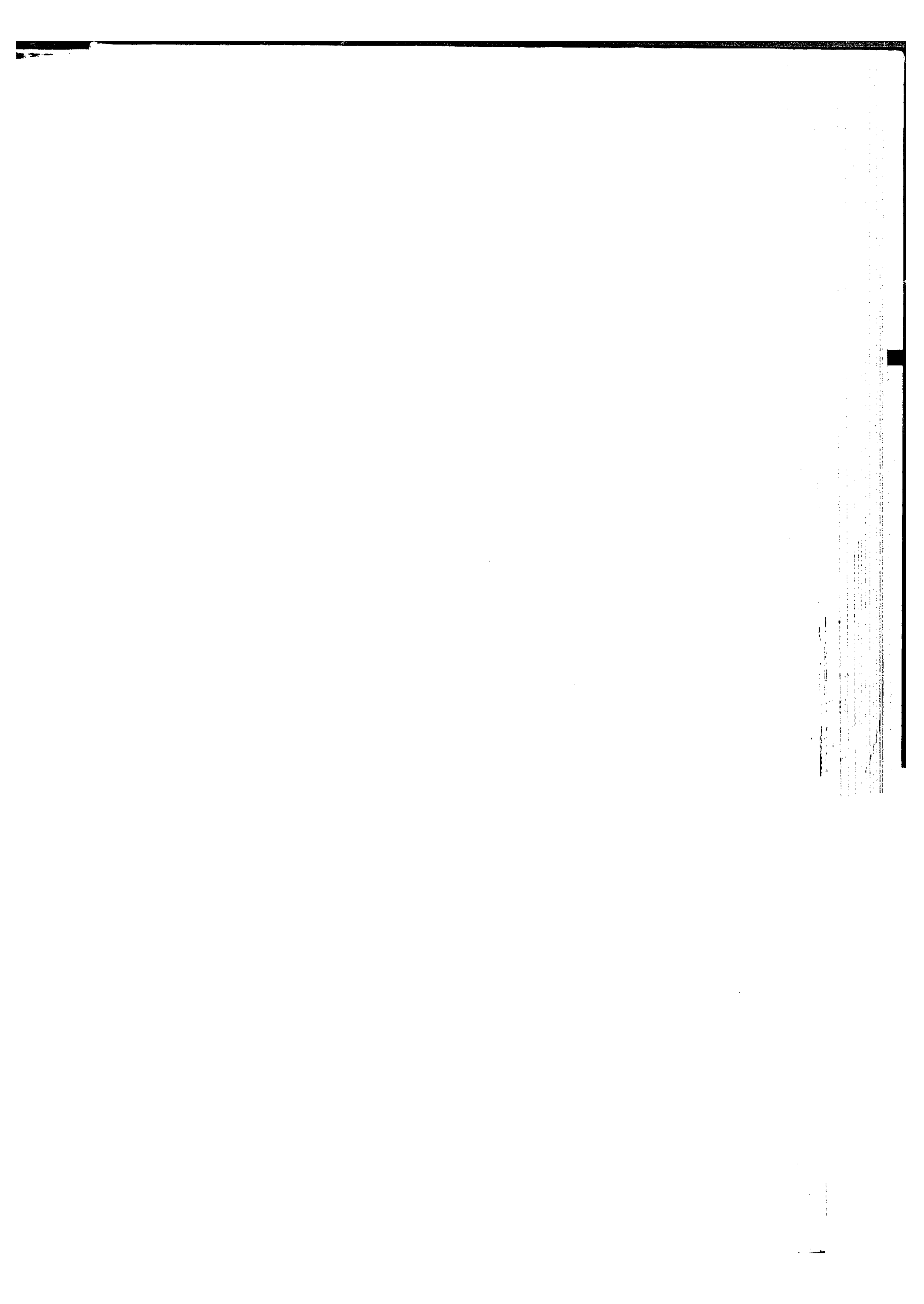
وهكذا بمنهجها السَّلفي الأصيل ، وبحكمة قادتها -علماء وحكَّاماً- حقَّقت المملكة تحديثاً متواصلاً لأجهزتها ومؤسساتها ، ونمط حياة مجتمعها ، مع التزامها بالخيار الذي تبنَّتْهُ منذ ابتدائها بصفته رسالتها التي تمثِّل شرطيَّة وجودها ، وهو الشَّريعة الإسلاميَّة ، تحقَّق هذا الالتزام في بِنْيَة الحكم برفض عَلْمَنَته ، وفي التوجيه الثقافي ببناء شخصيَّة المواطن السّعودي بناءً إسلامياً ، من خلالَ التعليم ، ومنابر الثقافة والدعوة والإرشاد ، وفي التمثُّل الشخصي له باحترام المسؤولين لشعائره وسَمْته في كلّ المحافل المحليَّة والدوليَّة .

ولكن ذلك كله لا يعني أنَّ التحديث لم يؤثِّرْ في سمت المجتمع إطلاقاً ، كلاَّ ! إنَّ هذا التحديث الذي تمَّ بشموليَّة وعمق وسرعة ، كان له بلا ريب تأثيرٌ تغييريٌّ في كثيرٍ من البُنَى القائمة ، سواءٌ كان على مستوى الأنظمة

---

(١) إنجازات الملك فيصل ، ص ٢٦ ، مصدر سابق .

والمؤسّسات، أو على مستوى الحياة الاجتماعيَّة، لكنّ هذا التغيير لم يكن في غالبه مُصادماً لمقررات الشَّريعة ، وإنما هو في مجالات المصالح العامة ، والدولة تسعى لتلافي الثغرات التي تنتج عن تحديث هذه البُنَى بأقلمتها مع مطالب الشريعة، وسمت المجتمع العام، أو وضع بدائل عنها، كما في بعض النظم العسكريَّة، أو الأنظمة المدَنيَّة ، كالذي سبقتْ الإشارة إليه من الازدواجيَّة بين الأنظمة القضائيَّة بين المحاكم الشَّرعيَّة من جهة ، واللِّجان والهيئات القضائيَّة الأخرى، وأنه تلافياً لهذا الازدواج ، وبسطاً لهيّمنة الشَّريعة على كل صور التقاضي ، صدر أمرٌ ملكيٌّ بتوحيدها ، وجعلها تابعةً لوزارة العدل .



الباب الثاني

آثار تطبيق
الشريعة الإسلامية في الحياة
في المملكة العربية السعودية



مدخـــل:

الذين يتساءلون عن علاقة الإسلام وشريعته بالحياة من المنفعلين في العصر الحاضر بشبهة تنافر الدِّين مع ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة من بُنًى مؤسسيَّة، وقيم عالميَّة، ونظريَّات تربويَّة وإعلاميَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة وغيرها، يتساءلون أولاً: هل يمكن تطبيق الإسلام؟ وإذا افترض أن يقوم مجتمعٌ بذلك فكيف يتم تطبيقه = كيف تُسَيَّرُ الحياةُ به؟

إجابة هذا السؤال تمثّلت في الباب الأوّل الذي قال: نعم طُبِّق الإسلام في المملكة العربية السعودية، وفي ظلِّ التطوّرات التي انفتحت عليها المملكة، وصار هذا الإسلام هو المسيِّر لحياة المجتمع الحاكم للتطوّرات المتواصلة فيه.

أمّا التّساؤل الثاني فيقول: ما انعكاسات تطبيق شريعة الدين الإسلامي على المجتمع في علاقاته الاجتماعية وتنميته المدنية، وحاجاته الأمنية وإيجابيته الدوليّة ونحو ذلك من المفاصل الحيويّة في حياة كل مجتمع؟

هذا الباب الذي نفتتحه الآن يستهدف الإجابة على هذا التساؤل مرتبطاً بإجابة السؤال السّابق وبالتالي بتطبيق الإسلام في المجتمع السعودي؛ بحيث يستقرئ آثار تطبيق الشريعة الإسلامية من خلال انعكاسها على هذا المجتمع في جوانب حياته، وفي هذا المجال أشير إلى أمورٍ أرى أهميَّة الإشارة إليها:

* كما يشكِّك بعض الجاهلين بالإسلام في إمكان تطبيقه وصلاحيّته للحياة، فإنّ هناك من يشكك في آثاره الإيجابيّة في عصرنا الحاضر فيتساءل قائلا: قد يكون للإسلام -كما هو للدين عمومًا- في عصور سابقة أثرٌ إيجابيٌّ في تطوّرها وانضباط حياتها، وانتقالها من أطوار همجيَّة -وربما حيوانية- إلى أطوار إنسانية أرقى بفعل مبادئ هذه الأديان التي كانت تمثّل تقدما -في القرون

الغابرة- بالنسبة لأحوال الناس إذ ذاك ، أمّا في العصر الحاضر فإنَّ البعث الحضاري وتجاوز التّخلف وتحقيق سعادة الفرد ورقي أداء الدَّولة أصبحت رهنًا لظروف وعوامل بشريَّةٍ مَدنيَّةٍ وثقافيَّةٍ لا يمثل الدِّين إلا جزءاً بسيطاً منها أو لا يمثل شيئاً .

أو بعبارة أخرى يقال : ألا تُغْني المبدعاتُ البشريَّةُ المتقدِّمةُ في عصرنا لتحقيق كل آمالِ الإنسانية في مختلفِ مجتمعاتها بدون الدِّين ؟ .

لا شكَّ ابتداءً بأنَّ لتلك الظُّروف والعوامل قيمتها في الارتقاء الحضاري ، إذ ليست مقابلةً للدِّين بإطلاق ولا الأخذ بشيءٍ منها معارضاً للأخذ بالدِّين من وجهتنا الإسلامية .

ولكنها -أيضاً بالنسبة للمسلمين خاصة- إنّما تحقّق هذا الارتقاء الحضاري ، ونجاح الحياة إذا اصطبغت بالصبغة الإيمانيّة وتفاعلت تفاعل اندماج مع منهج الإسلام -عمراناً لنفوس الأشخاص ، ورسماً لغايتهم ، وتوجيهاً لمسيرة الحياة- عند ذلك تنتفع الأمة المسلمة والمجتمع المسلم من تلك الإمكانات البشريّة فتحقق وظائفها الإيجابيّة .

أمّا إذا انفلت المسلمون من الدّين -دين الإسلام- فإنَّ الإخفاق الحضاري وسلبية الحياة نَصيبُهم الحتمي حتى لو توفَّرت لهم الإمكانات الحضاريّة -المدنيّة والثّقافية- التي بها نَهَضَتْ أممٌ أخرى، بل إنَّ هذه الإمكانات تستحيل لدى هؤلاء المسلمين إذا انحرفوا عن توجيه الدّين إلى عوامل تدميرٍ داخليٍّ في مجتمعاتهم ، وسبب في زيادة هَوَانهم وتِيهِهم الحضاري .

والنّصوص الشّرعية، والاستقراء العلمي لحال الأمَّة المسلمة، بل والنظر السريع في تاريخ المسلمين يدلّ على هذه الحقيقة دلالةً بينةً .

* الحديث عن آثار تطبيق الشّريعة في الحياة لن يكون استنباطاً من النُّصُوص الشَّرعيَّة فيما ذكرته من غايات وأهداف ومصالح تتحقق بالتزام منهج الله ، ولا افتراضات عامة نثبتها مِن خلالٍ التأمل في قيم الشريعة ومبادئها وأحكامها، وإنما سيكون الحديث عبر نموذجٍ واقعيٍّ معاصر لكنه غير منبت عن تَمثُّلات سابقة في تاريخ الإسلام بعضها أفضل من نموذجنا، وبعضها مثله وغيرها دونه .

ولا ريب أنّ النَّموذج الأعلى الذي تجلّى فيه أثر التزام الإسلام في حياته هو النموذج الأعلى لهذا الالتزام وهو مجتمع صحابة رسول الله ﷺ ، ثم على مرِّ القرون كلّما ضعف التزام المسلمين بدينهم انحسرت عن حياتهم آثاره المباركة، فإذا ما تهيّأ لهم بعثٌ إيمانيٌّ يعيدهم إلى الالتزام الصّحيح بدينهم برزت لهم صورةٌ حياتيَّةٌ جديدةٌ تتجلّى فيها آثار هذا البعث .

وفي هذا الإطار كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربيّة ، ثم كانت حركة الملك عبد العزيز التّوحيدية التطبيقية للإسلام في المملكة العربية في القرن الرّابع عشر الهجري ، العشرين الميلادي .

حديثي عن آثار التزام الإسلام في حياة المجتمع السعودي في هذا العصر سأنْسجُه من الواقع الذي نعيشه والذي عاشه قبلنا آباؤنا وأجدادنا الأقربون الذينَ استحضرنا عن طريقهم ذلك الواقع .

وعليه فإنِّي لن أجعله -إلا ما يجيء عرضاً يقتضيه المقام- أرقاماً وإحصائيات مما تعنى به الدراسات الميدانية المتخصصة، ولا شهادات خارجيَّةً على الرّغم مِن أن لكلٍّ من هذين الجانبين قيمته العلمية[1] ، لكني أردته حديثاً

(١) فمثلا شهادة كبار رجال القانون والفكر في أوربا الذين طلبوا من المملكة توضيح مفهومها لحقوق=

استرسالياً يناسب القارئ المعاصر .

* المقارنة مهمة لأنّ بها يتجلّى تميّز الآثار سواءٌ كانت مقارنةً بالأوضاع السَّابقة في الجزيرة نفسها ، أو بالمجتمعات المعاصرة التي ترفض تطبيق شريعة الله .

* الهدف هنا هو إبراز آثار تطبيق الشريعة الإسلامية وهي آثارٌ إيجابيَّةٌ كلّها في صورها الفرديّة والجماعيّة ، ولكن ذلك لا يعني أنّ المجتمع السعودي مجتمع ملائكة ، ولا أنّه المجتمع المثالي الذي يصوغه الفلاسفة نظرياً لنموذج لا يتحقق في الواقع الإنساني ؛ كلا إنَّه مجتمعٌ بشري ومن ثم ففيه نواقص بشريَّةٌ وهناتٌ اجتماعيَّةٌ ، ولكنها بالتأكيد ليست إفرازاً لتطبيق الشريعة بل هي نتيجة غَفَلات جُزئيَّة عن التزام الشّريعة ، أو أنّها بسبب ظروف محيطة ضاغطة ألجأت إلى التّنازل عن بعض المقتضيات المطلوبة شرعاً من الإنسان أو المجتمع .

* التّغيّرات الأخيرة التي حدثت في المجتمع السّعودي في أواخر القرن الهجري الماضي وأوائل هذا القرن رخاءً مادياً وتطوّراً عمرانياً وعمالةً أجنبيّةً كثيفةً ، وتداخلاً مع المجتمعات الأخرى وغيرها كان لها تأثيرها في الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة ، ولهذا التّأثير جانباه الإيجابي والسّلبي ، وقد كدّر هذا

= الإنسان والتّنظيم القائم بشأنها ، واجتمعوا ببعض وزراء المملكة وأساتذة جامعاتها لدور المملكة العالمي في مجال حقوق الإنسان وسبقها لسائر الدول لها قيمتها الكبيرة لدى المتسائلين عن الشريعة وعن تطبيقها وعن آثار هذا التطبيق . . . لقد قال رئيس هذا الوفد الأوربي وهو " مسترماك برايد " : « من هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره ، وإنّه يتوجب على العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقوق المجهولة على الرّأي العام العالمي والتي كان الجهل بها سبباً لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي » . ينظر : الإسلام وحقوق الإنسان ، لعبد الله بن عبد المحسن التركي ، ص٤٠ الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد .

الجانب السّلبي صفاء الصّورة الناصعة التي كان يلمسها النّاظر في المجتمع السّعودي المتأمِّل في آثار التزامه بالإسلام .

لكنّ الشّريعة بحكم شموليّتها وقدرتها على متابعة التّغيّرات لضبطها وفق المسلك الشّرعي ، وبحكم الإيمان الذي يختزنه هذا المجتمع في النّفسيّة الفرديّة وفي الحسّ الاجتماعي العام للدّولة ، تقوم الشّريعة -بدافع هذا الإيمان- بدورها الإصلاحي إزاء هذه التّغيّرات ، وأشير إلى مثالين واضحين :

أوّلهما : العلاقات العائليّة ، فقد كان برُّ الوالدين وصلة الأرحام والتّكافل الاجتماعي بمفهومه العام بين الأقارب قائماً بصورة عليا في المجتمع السُّعودي ، لكن " الطفرة " التي حدثت في العقود الأخيرة أصابت هذه العلاقات بجفاف كبير ، وانحسر قدرٌ كبيرٌ من روحها الإنساني تحت وطأة اللّهث وراء المصالح الماديّة . . . ولكن المجتمع لم يلبث أن شعر بخسارته في هذا الجانب وبخطورة تفريطه -دينياً وإنسانياً- في هذا المجال ، فعاد يصطنع صوراً للتّكافل الاجتماعي العائلي وللتّواصل القرابي دوريات ، وصناديق عائليّة ونحوها .

المثال الثاني : المخدّرات ، فقد كان المصدر الدّاخلي للإلزام المتمثّل بالإيمان الله وباليوم الآخر عاملاً كبيراً في المجتمع السّعودي يصونه عن مقاربة سموم المخدّرات ، ولكن انفتاح المجتمع وتهافت العمالة ونحوها من الأسباب جعل هذه السّموم تتسرّب إلى المجتمع السّعودي ، ولكن شعور الدّولة بمسؤوليّتها تجاه هذا الخطر على الناس جعلها تأخذ من الشّريعة أحكاماً حاسمةً في درئه ، منها عقوبة التّعزير بالقتل لمروّج المخدّرات .

فالمجتمع يحتمي بدينه وشريعة ربّه كلّما جرت في حياته أحوال أو برزت

فيها مؤثّرات تخلّ بإسلاميّته أو إنسانيّته أو بتطوّره الحضاري فيأخذ من هذه الشّريعة المجاديف التي تضمن لمركبه السّلامة وبلوغ شاطئ الأمان وسط الأمواج العاتيّة .

وأخيراً فهذا الباب (آثار تطبيق الشّريعة في الحياة في المملكة العربيّة السّعوديّة) يتوزّع في ثلاثة فصول :

الأوّل : في الآثار الثّقافيّة

الثاني : في الآثار الاجتماعيّة

الثالث : في الآثار السّياسيّة والاقتصاديّة

والدّراسة ليست استقصائيّة مستوفية ، ولكنها نظرات في هذه الجوانب الثلاثة .

والله وليّ التّوفيق

الفصل الأوّل

الآثار الثّقافيّة

المبحث الأوّل

الثّقافة الشّرعيّة

« لقد أوجدت دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب -فيهم- المجتمع السّعودي- ثقافة مع أميّتهم ، ولم تكن هذه الثّقافة لغيرهم من سكّان الجزيرة العربيّة ، ولمّا أن صار السّلطان في أكثر أصقاعها نشروا هذه الثّقافة في سكّان الحجاز ، وقد كان الجهل بكلّ شيء مسيطراً عليهم حتى إذا انفتحت العقول واستيقظت الأفهام اتّجهت الهمم لإنشاء المدارس ونشر الثّقافة »(١) .

هذا من كلام الشّيخ محمّد أبو زهرة في إشارة منه إلى أثر الالتزام السّعودي بالمنهج الإسلامي في مجال تثقيف الأذهان وارتقاء مستوى التّفكير في مجالات العلم المتعدِّدة .

* وأبرز المجالات التي تجلّت فيها هذه الثّقافة هو مجال العلم الشّرعي ، الذي به يعرف المرء مسائل إيمانه ، وكيفيّة أداء شعائر عبادته والمسلك الشّرعي في علاقاته وتعاملاته .

وفي هذا المجال حقّق التزام الدّولة السّعوديّة بالإسلام تميّزاً ثقافياً شرعياً لا مثيل له في أيّ مجتمع آخر في العصر الحديث .

لقد كانت الرّوح الإسلاميّة الموجّهة نحو العلم الشّرعي بقوّة وصلت إلى جعله أوّل مطلوبات الدّين على الإنسان وربط العمل بصحّة العلم أوّل محقّق لهذا الأثر ، ومن أبرز صور تمثّلات هذا التّوجيه تلك الرِّسالة التي قرّر فيها الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب : أنّه يجب على كلّ مسلم ومسلمة تعلُّم أربع مسائل :

---

(١) ابن تيمية ، تأليف الشيخ محمد أبو زهرة ، ص ٥٣١ ، دار الفكر العربي .

- العلم بالدّين .
- والعمل به .
- والدّعوة إليه .
- والصّبر على الأذى فيه .

مستنبطاً إيّاها من السّورة العظيمة « سورة العصر » ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] .

وكانت هذه الرِّسالة من الرّسائل التي كان يلقِّنها العلماء والدّعاة كلّ النّاس، ناشئين وكباراً، رجالاً ونساءً، باديةً وحاضرةً ، وفي مناهج التّعليم الموجودة الآن يدرسها التّلاميذ في مادة التّوحيد في المرحلة الابتدائية .

لهذا كان الحرص على معرفة الحكم الشّرعي في كلّ ما يعرض للإنسان في حياته حافزاً للمرأة والرّجل على التوجّه نحو أهل الذّكر من العلماء وطلابهم لعرض مشكلاتهم وطلب فتاواهم .

فضلاً عن هذا فإنّ تلك السّنن الحسنة التي توارثها المجتمع جيلاً بعد جيل منذ دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب والمتمثّلة بإعطاء القراءات في كتب العلم الشّرعي نصيباً كبيراً من المجالس الخاصة والعامة كما أشرنا فيما سبق إلى مجلس القراءة لدى الملك عبد العزيز ، وكذلك المجالس غير الراتبة ، في المناسبات ، والرِّحلات الخلويّة ، وما يزال المشائخ الفضلاء -الآن- آخذين بهذا المنهج في الجلسات التي يحضرها عموم الناس، وبالدروس الخاصة بطلاب العلم .

(١) الآيات (١-٣) من سورة العصر .

ومثل هذا ما يقوم به طلاب العلم خدمة للثّقافة الشّرعيّة بالقراءة في كتاب تفسير أو سنّة أو غيره من العلوم الشّرعيّة بعد صلاة العصر أو قبل صلاة العشاء في المساجد . وقد كانت هذه العادة شائعةً في كثير من المساجد ولكنّها تضاءلت أخيراً .

ومن أبرز عوامل بناء الثّقافة الشّرعيّة في المملكة وأركزها المناهجُ التّعليميّة التي تركّز بصورة منهجيّة تراكميّة في وعي النّاشئ خلال مراحل تطوّره الفكري عبر مراحل التّعليم المختلفة **العلمَ الشّرعي** الأصيل ، عقيدةً ، وفقهاً ، شعائر تعبديّة ، وشرائع سلوكيّة ، وأخلاقاً ، وتفسيراً وأحاديث نبويّةً .

ففي الصفوف الثّلاث الأولى من الابتدائي تركّز في ذهنه الأصول العامة عن الربّ والدّين والرّسول ﷺ في العقيدة مثلاً ، وعن الطّهارة والصّلاة . . .

ثمّ في الثّلاث الأخيرة تجُلّى الحقائق المرتبطة بتلك الأصول بما يناسب سنّ التّلميذ وعقله ، وهكذا في المرحلة المتوسِّطة ينتقل بالتلميذ إلى بناء عقدي سلوكي أشمل مشاد على تلك الأصول الراسخة .

وبهذا تتأصّل المعرفة في العقيدة والشّريعة وترسّخ في ذهنه حتى تصبح بدهيَّاتٍ يتعامل معها بوضوح ويقين .

هذه العوامل وغيرها في المجتمع السّعودي كان لها أثرها الكبير في تحقيق هذه الثّقافة التي أدرك تفرُّدها وعمْقها الآخرون .

وعلى الرّغم من التّطوّرات الفكريّة ، وتعدّد الوسائل الإعلاميّة إلا أنّ هذا التّميّز بآثاره العمليّة لا يزال بحمد الله واضحاً .

نعم لقد كانت الرّوح الإيمانيّة الفطريّة ، ومحدوديّة المؤثّرات الفكريّة

الخارجيّة أو انعدامها لدى جيل آبائنا وأجدادنا أكثر إبرازاً لهذا الأثر ، وإنّا لنذكر كثيراً من الرِّجال والنِّساء الذين يمثّلون أجيال القرن الماضي والذين ما يزال بعض منهم باقياً كانوا على الرّغم من أميّتهم -لا يقرؤون ولا يكتبون- يعرفون من تفاصيل أمور دينهم في مسائل الإيمان والعبادات والمواريث والتعاملات الماليّة ، والخلقيّة ، ما يفتقده من أجيالنا الحاضرة كثير من الجامعيِّين وحملة الشّهادات العليا .

أمّا الأجيال النّاشئة المغذوة بالمنهج التعليمي المشار إليه -وهو منهجٌ عامٌ للمدارس الحكوميّة والأهليّة - فإنّه من السّهل إدراك هذه الثقافة الشّرعيّة لديهم بمقارنتهم بكثير من نظرائهم المسلمين طلاباً أو جامعيِّين أو من فوقهم- الذين لم يدرسوا العلوم الشّرعيّة في مدارسهم ، أو درسوا مادةً في التربية ، أو الأخلاق ، أو الثّقافة الإسلاميّة هزيلة المضمون مفكّكة المعلومات، تاريخيّة العرض ، أو -وهذا هو الأخطر- أعطوا مواد عن الإسلام والشّريعة ولكن مادتها العلميّة محرفة مشوهة ؛ إمّا لأنّها تدرس الإسلام من خلال الفرق الضّالة قديماً أو من خلال تحريفات معاصرة تكيف المسائل الشّرعية لما يتفق مع الرّؤى العصريّة المنحرفة ، أو مع وجهات الحكومات العلمانيّة .

وأغلب المدارس في مجتمعات المسلمين -للأسف- واقعة في إحدى هذه الصّور الثلاث أو فيها كلّها ، وإن كان يوجد في هذه المجتمعات مدارس أهليّة أو حتى حكوميّة تسلم من هذا الوباء لكن الحكم للعموم .

ويمكن للمقارنة أن تدل على هذا بين طلاب المتوسط والثانوي - مثلاً - بين من درس وفق المنهج التعليمي في المملكة ومن درس وفق مناهج أخرى محقت أثارة العلم الشرعي في مقرراتها[1] .

---

(١) وقد أدرك كثير من المسلمين خطورة إجداب التربية من الشريعة وعلمها، فاهتموا بإنشاء مدارس ذات =

ويكفيك أن تسأل كلاً منهما :

في مجال العقيدة -مثلاً- عن الإيمان وأركانه ومستلزماته وشعبه ونواقضه ، وعن الكفر والشّرك والنِّفاق بأنواعها وصورها ، وعن أحكام السّحر والدجل والشّعوذة والكهانة والعرافة . . . ونحوها فضلاً عن التصوّر السّليم لأصل الكون والإنسان وللحياة الآخرة . . .

وفي مجال العبادة عن الصّلاة ، حكمها وشروطها وآدابها ومبطلاتها ، والزكاة مواردها وأنصبتها ومصارفها ، وهكذا سائر العبادات ستجد فرقاً واضحاً بين متلقي هذا التعليم -في المملكة- في وضوح هذه المسائل العقديّة والشّرعية في ذهنه وفي رسوخها في وجدانه مقابل فقر كامل في معرفة هذه المسائل ، أو معارف بسيطة باهتة لا يتحقّق بها الواجب الشّرعي المتمثّل بمعرفة المعلوم من الدِّين بالضرورة ، الذي يقول العلماء : إنّه « لا يسع مسلماً جهله » .

ولأنّ التّلميذ ومن فوقه يأخذ هذه القضايا مستمدّة ومستندة على نصوص القرآن الكريم والسنّة النّبويّة التي يجمع أسلوبها بين الوضوح والمنطقيّة الفطريّة ، والعمق النّفسي في تأثيرها على المتلقي ؛ لهذا كان لها أثرها في تحصين فكره من التلوّث بالنّظريات التي تفسِّر الكون والحياة والوجود الإنساني النّفسي والاجتماعي بما يصادم ما جاءت به تعاليم الوحي وإن أبرزت نفسها باسم العلم والحقائق ، خلافاً لمن فقد هذا البناء العلمي الشّرعي فسهل على هذه الفلسفات العبثيّة والوجوديّة والبراجماتية والروحيّة أن تخترق فكره فيحمل تصوّراتها المناقضة لدينه مضحياً بهذا الدين ، أو متصوراً إمكان الجمع بينه وبينها نتيجة جهله بمقررات دينه التي لم تتأصّل في فكره قبل تلقيه لهذه الفلسفات ، والنظريات .

= مناهج تربوية إسلامية ، أو سعوا لتعويض أبنائهم ما يفقدونه من ذلك بالتعليم البيتي ونحوه ، سواء كان ذلك لدى الأقليات المسلمة في الغرب أو في البلاد التي لا تهتم بالتربية الدينية في المجتمعات المسلمة .

وربما لا يحملها ولكنها تشوّش على تفكيره فيظل مضطرب التصوّرات ، ممزقاً بين أحاسيسه الدينية -التي لا ترقى إلى مستوى اليقين العلمي- وبين المستجدات المتناقضة في الفلسفة والفكر .

* من الآثار في مجال الثّقافة الشّرعية **إعلاء قيمة القرآن والسنّة المطهّرة** وهيمنة مقرراتها على النفس والعقل مما يجعل الواردات الأخرى أنظمةً أو نظريات أو أفكاراً تأخذ مكاناً تالياً منظوراً إليها من خلال هذين المصدرين ، وهذا خلاف ما وقعت فيه مجتمعات كثيرة استطاع أعداء الأمّة مبشّرون ومستعمرون أن يزحزحوا فيها هذا الشعور لكي تتسيّد الرُّؤى الغربيّة وإن كانت معارضةً لدينهم على تفكيرهم ووجدانهم .

وإنّما جاءت سهولة هذه الزّحزحة بسبب فقد هؤلاء للعلم الشّرعي السّليم بدينهم ، مما يوجد مقاومة في نفوسهم لهذه الحركة التّغريبيّة التي لا تقاومها العواطف الإيمانية المجرّدة من العلم والالتزام العملي القائم عليه .

يتحدث " هـ . جب " في كتاب أخرجه قبل منتصف القرن العشرين عن أحوال العالم الإسلامي في ذلك الوقت راصداً صور التّأثير الغربي على مجتمعاته فيشير إلى « أنّ الجزيرة العربيّة لم يستطع أن يضع النفوذ الغربي فيها قدمه بعد »[1] . أمّا المجتمعات الأخرى فقد خضعت لنفوذ الثقافة الغربيّة بصور متفاوتة وبأساليب متنوعة بعضها تمّ تغريبه بالعنف والسرعة وبعضها يتمّ تغريبه في هدوء بعيد عن العنف .

ويكشف "جب" كيف تحوّل كثير من المسلمين في ولائهم ذلك التحوّل

(١) في كتابه (Whicher Islam) نقلاً عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، الدكتور محمد مُحمد حسين ٢/ ٢١٩ ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٠هـ.

الغريب فبعد تلك الهيمنة الحاسمة لتعاليم الوحي على عقولهم ونفوسهم وجعلها الميزان الذي يُعاير به كل شيء سواهما صار هؤلاء المسلمون يتلقفون ما يقذف به إليهم الغرب بانبهار وإكبار، حيث يستحوذ على نفوسهم منسياً إياهم ذلك الوحي المقدس لديهم . . .

يقول "جب" عن تلك المجتمعات : « إنّ الإسلام بوصفه قوّة مسيطرة على الحياة الاجتماعيّة قد فقد مكانته، فهناك مؤثّرات أخرى تعمل إلى جانبه وهي -في كثير من الأحيان- تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً . ولكنها تشق طريقها ، بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامي في قوّة وعزم . فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللفلاح اتجاه سياسي ، ولم يكن له أدب ، إلا الأدب الديني . ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين . ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلا بمنظار الدين . كان الدين هو كلّ شيء بالقياس إليه . أمّا الآن فقد أخذ يمدّ بصره إلى ما وراء عالمه المحدود . وتعددت ألوان نشاطه الذي لم يعد مرتبطاً بالدين . فقد أصبحت له ميوله السياسيّة وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات في مواضع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين ، بل إنّ وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الإطلاق، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أنّ الشّريعة الإسلاميّة لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل ، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها ، ولكنه يعرف على كلّ حال أنّها ليست مأخوذة من القرآن . وبذلك لم تعد التّعاليم الدينيّة القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحيّة ، فضلاً عن حاجاته الاجتماعية الأساسيّة ، بينما أصبحت مصالحه المدنيّة وحاجاته الدنيويّة هي أكثر ما يسترعي انتباهه . وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى

انحصرت في طقوس محدودة . وقد تمّ معظم هذا التطوّر تدريجياً عن غير وعي وانتباه، وكان الذين أدركوا هذا التطوّر قلّة ضئيلة من المثقّفين ، وكان الذين مضوا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلّة أقل . وقد مضى هذا التطوّر الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه ، وقد يبدو الآن من المستحيل - مع تزايد الحاجة إلى التعليم ، ومع تزايد الاقتباس من الغرب - أن يُصدّ هذا التيار ، أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسيّة والاجتماعيّة »[1] .

وهذا الشّعور الذي انقلب عند الناس من الإيمان بكفاءة تعاليم الدين وكمالها في تحقيق السعادة والعدل إلى ضده استشرى بعد رصد هذا المستشرق لدى قطاعٍ كبير من أبناء المسلمين بفعل التعليم المستغرب والابتعاث دون تأسيسٍ عقديٍّ والمؤثّرات الفكريّة والإعلامية الأخرى حتى أصبح التعويل على المصادرِ البشريّة -بديلاً عن الكتاب والسنّة- في النظر إلى الكون والإنسان ومجالات الحياة الإنسانيّة أمراً عادياً يشيع في المناهج الدراسيّة ، وفي الصحف وفي معترك الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريَّة دون حساسيةٍ أو نكيرٍ .

ولقد كان هذا الوضع مما نقمت عليه الصحوة الإسلاميّة التي استهدفت ردّ الأمور إلى أنصبتها وكشف المخاطرة الكبرى التي وقع فيها كثير من المسلمين بابتغائهم الأحكام البشريّة بديلاً عن حكم خالقهم، ولكن هذا المطلب المنطقي إسلامياً وواقعياً جُوبهَ من قِبَل كثير من الناس على مختلف المستويات بالاستنكار والاتهام باللاعصريَّة ، وبالتخلف والرّجعيّة والشذوذ عن الرؤية العقلانيّة السّليمة .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢١٨، ٢١٩.

أمّا في المملكة فإنّ المقام الأولي لهذه التعاليم لا يزال بحمد الله قائماً تعلنه قيادة الدّولة ، وعلماؤها وعموم المجتمع .

قد يضعف الالتزام العملي فردياً أو اجتماعياً ببعض مطالب المنهج ولكنّه ككلّ بصفته تعاليم وحي الله هو السائد والمقدّم على سواه [1] ، ولهذا لم تستطع مثل تلك الأفكار والمواقف التي تعلن في مجتمعات أخرى ؛ سخرية بتعاليم الدين ، وتهكُّماً بعقائده ، وتشكيكاً بصحّة الوحي أن تبرز نفسها في ساحة المجتمع السّعودي .

ولا شكّ أنّ هذا من آثار اعتماد منهج الإسلام والتزامه وتربية المجتمع على عقيدته وشريعته .

* نتيجة للظّروف التي عاشتها أغلب المجتمعات الإسلاميّة وقوعاً تحت طغيان الاستعمار وضحالة في الثّقافة الشّرعية ، وتأثيراً للحضارة العربيّة على قياداتها الفكريّة والسّياسيّة حدث انشطار في الثّقافة داخل كلّ مجتمع إلى نمطين متضادين متصارعين عانت هذه المجتمعات من صراعهما الويلات .

إنّها -كما يقول عابد الجابري- ثنائيّة على المستويين الجماهيري والعالم .

تتجسم هذه الثنائيّة على المستوى الجماهيري بين القرى التي ما تزال تحتفظ بطابعها الوطني التقليدي المنحدر من قرون غابرة في مجالات العلاقات

---

(١) من كلمات خادم الحرمين الشريفين :
« إنّنا نتمسّك بهذه الشريعة ونلتزم بها ونعلم أنّ فيها سعادتنا وخير دنيانا وآخرتنا » .
« العقيدة الإسلاميّة هي محور حياتنا » .
« إنّ ثروة المواطن السعودي في العقيدة الإسلاميّة هذه الثروة الحقيقيّة لهذه البلاد » .
« إنّ الكتاب والسنّة هما الأصلان العظيمان من أصول الإسلام اللّذان بهما نهتدي وعليهما نسير ولهما نحتكم » . كلمات منتقاة ، ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ١٠٥

الاجتماعيّة كما في مجال السلوك الفردي أو مجال المظاهر الحضاريّة الأخرى من مسكنٍ وملبس ومأكلٍ أو مجال الفكر والذهنيّة والقيم . . . إلخ، وعلى عكس هذا ثقافة المدن التي ذهب التقليد بها للحضارة الغربيّة في مختلف مجالات الحياة الماديّة والمعنويّة إلى حدّ يكاد ينمحي معه فيها أيّ أثر للثّقافة الوطنيّة ، فالمظاهر والسلوك والعلاقات والذهنيّة والقيم والرّؤى والاستشرافات . . . . إلخ كلّها أوربيّة الطابع .

ومثل الثّقافة الجماهيريّة -والتوصيف للجابري أيضاً - الثّقافة العالمة فهي ثقافتان :

ثقافة علماء التراث وثقافة النخبة العصريّة .

« الأولى : تحكمها مرجعيّة عربيّة إسلاميّة قروسطيّة بمفاهيمها وآلياتها ورؤيتها للعالم واستشرافاتها الماورائيّة .

أمّا الثانية فتنشدُّ انشداداً قوياً إلى المرجعيّة الأوربيّة المطبوعة بطابع الحداثة الغربيّة التي تعني أوّل ما تعني القطيعة مع ثقافة الماضي أي ماضٍ كان، وللتمسك بالعصر كلحظةٍ حاضرةٍ تكفي نفسها بنفسها » .

والعلاقة بين هاتين الثّقافتين علاقة تنافر وتنابز وغياب أيّ تواصل أو حوار ، بل هو صراع بين « ثقافة الجمود والتقليد وثقافة الاختراق » يشطر جسم الثقافة العربيّة ككلّ انشطاراً عمودياً لا ينتج بديلا نافعاً بل هو « صراع تناحري يجمّد الحركة في مواقع ثابتة يبحث عنها وراءه في تراثنا أو تراث غيرنا فيعمّق الهوة ويكسر التمزق والتشرذم والهروب إلى الوراء تارةً وإلى الأمام حيناً »[1] .

---

(١) محمّد عابد الجابري، المسألة الثّقافية ، ص ٢١٧ ، ٢٢٠، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، بيروت .

هذه الثنائيّة الحادة التي تتعمق كلّما أوغل العصرانيون في إغراق المجتمع المسلم بثقافة التغريب المناقضة لثوابت الدين وقيم المجتمع مما يستفز الجهة المقابلة لمقاومة هذا التدمير الحضاري لدرجة قد تفقد معها هذه الجهة اتزانها، ويتخذ بعض أتباعها في صراعهم ضدّ الثقافة التغريبيّة ودعاتها شيئاً من العنف والشدّة التي يبرزها أتباعها بأنّها ردّ فعل لهجوم التغريبيين الشرس على الإسلام.

هذه الصورة التي يتراءاها كثير من المثقّفين العرب في مجتمعاتهم وإن كان فيها تحامل على ما يسمّونه (الثقافة التقليديّة)، إذ هي ليست من الانكماش والتكلُّس بالصورة التي يرسمونها في توصيفاتهم الفكريّة، أو رواياتهم القصصيّة عن حياة الريف والمنتسبين للعلوم الشرعيّة إلاّ أنّها توجد بصور ما تبرز فيها حدة التناقض بين الثقافتين، تصل أحياناً في بعض المجالس والبرلمانات بين رجالها، وفي الصّحافة والإعلام إلى الصدام الصّريح بين الإسلام والكفر بين الإيمان والإلحاد، بين حكم الشّريعة، والعلمانيّة الصّارخة.

هذه الثنائيّة غير موجودة في الساحة الاجتماعيّة في المملكة لا على مستوى المواقف الفكريّة التي تعلن في الصّحافة ووسائل الإعلام ولا على مستوى توجيه الأنظمة من خلال الهيئات التّنظيميّة أو التنفيذيّة، لكن ذلك لا يعني نفي التنوّع الثقافي من حيث الرؤى والاهتمامات ومستوى الحياة المطلوب اجتماعياً وثقافياً ومدنياً، وحدود سرعة السير التطوّري للمجتمع وحدود الانفتاح الممكن على صور الحياة التي بدأ يتفاعل معها المجتمع السّعودي.

لكن هذا التنوّع والتفاوت في تقديرات النظر للأشياء يندرج في إطار تلك الدائرة الواسعة المتمثّلة بالإسلام في منهجيّته السّلفية التي تشربها جميع هؤلاء - سواء كانوا علماء شرعيين، أو مفكّرين، أو رجال صحافة، أو ذوي

مسؤوليات وظيفيّة أو مهنيّة- على اختلاف مواقعهم في ظلالها ضرورة الدوران في فلكها، وعدم الخروج عليها.

فالعالم الشّرعي يقف نفسه على رعاية هذه المنهجيّة وتجليتها للفئات الأخرى حتى لا تتغبش صورتها أمامهم نتيجة المؤثرات الكثيرة، محاذراً أن تزيغ بالناس الأهواء عنها يمنةً أو يسرة.

والمفكر ورجل الصحافة يجوسان خلال جوانب الحياة الاجتماعيّة التي تتطوّر في مجتمعنا وفي المجتمعات الأخرى بصور متقاربة أو متباعدة، مستهدفين رصد هذه التطوّرات ورسم المسالك العمليّة التي تحقق مصلحة المجتمع وهو يتطوّر، لكنّهما في المجتمع السّعودي غيرهما في غيره من أولئك المفكّرين الذين يعتمدون لإنهاض مجتمعاتهم مذهبيات مناقضةً للإسلام، مصادمةً لعقائده وتشريعاته فلا يهدون مجتمعهم، ولا ترضى الفئات الأخرى بمسلكهم وإنّما تصادمهم وترفض جهودهم المسيئة للأمة.

أمّا في المجتمع السّعودي فإنّ المفكّرين ونحوهم يرتكزون على قاعدة لا خلاف عليها وهي أنّ المبدأ الرشيد الذي ينبغي أن يُعتمد وحده في نهضة المجتمع وبناء دعائم تطوّره هو الإسلام، ولهذا فإنّك لن تجد -مثلاً- في الصّحافة أو في مداولات مجلس الشورى أو غيره من الهيئات -في المملكة- وجهات رافضة للدين، تصرح بضرورة استبعاده كما هو جار في مجتمعات إسلاميّة كثيرة.

نعم قد توجد آراء، وتطرح وجهات نظر لا تستقيم مع الإسلام ويبدو شذوذها جلياً في المجتمع لكن ذلك لا يعني أنّ صاحبها يبتغي بها الخروج على الدين، وإنّما نتيجة نقص علمه الشرعي، أو كونه عاش خارج المجتمع

السّعودي فترة طويلة فاستمرأ أموراً لم يتجلَّ له موقعها في الدين أو موقف الدين تجاهها -نتيجة مثل هذا- يقع في ذلك .

والحكم هنا للعموم أمّا الشذوذات التي تتدسَّسُ أحياناً مغافلة الناس فإنّه لا اعتبار لها ، بل إنّ القشعريرة التي تصيب المجتمع عندما تبدر بادرةٌ من هذا القبيل وسرعة لفظه لها مؤكِّدٌ قويٌّ على ما نحن بصدده من عمق الثقافة الشرعيَّة في المجتمع السّعودي وعموميّتها لفئاته كافة .

وإذا أردنا أن نلتصق بالواقع أكثر فيما يتعلّق بثنائيّة الثقافة فإنّ أقرب مثال لدينا هو مجلس الشورى الذي يجمع صفوةً « فكريّة » -على مستوى المجتمعِ السّعودي كلّه- متعددة الاهتمامات والتخصصات بين أفرادها ، لكنّها تمثّل في أدائها العملي نخبة واحدة متكاملة ، ولن تستطيع أن تقسّمها على التقسيمات القائمة في المجالس المماثلة في دولٍ أخرى فتقول :

إنَّ هذا المجلس يضمّ نخبةً دينيّةً وأخرى مدنيّةً ، أو نخبةً إسلاميّةً وأخرى عصرانيّةً أو علمانيّةً ، أو فئة الشّرعيين وفئة العقلانيين ، كلّ هذه التصنيفات لا تصدق على هؤلاء في ممارستهم لأعمال المجلس المناطة بهم إنّهم جميعاً « نخبة دينيّة مدنيّة معاً » بتعبير برهان غليون[1] .

فالاهتمام مشترك بين العالم الشرعي ، والمتخصص المدني بالتزام منهج الإسلام كما أنّه مشترك بينهما بإبداع مسالك حضاريّة لنهضة المجتمع .

هذا بالنسبة للثقافة العالمة ، أمّا ثقافة الجماهير فإنّه على الرّغم من التغيّر المدني الذي طرأ على المجتمع السّعودي في عقوده الأخيرة وتضخم المدن وعصريّتها فإنّه لم يحدث ذلك الانبتات الثقافي بين ثقافة القرية -عمارةً

(١) نقد السياسة - الدولة والدين ، ص٢٩٤ - مصدر سابق .

للمساجد وتعليماً للقرآن ووضوحاً للإيمان بالله وقضائه واهتماماً بالمعارف الشّرعيّة- وبين ثقافة المدينة الغافلة عن الدين الواقع أهلها في أسر المادة هماً فكرياً وعملاً حركياً ، وإعراضاً عن كتاب الله وعلوم شريعته .

كلا لقد تحضرت القرى والأرياف مع المدن في الجانب المادي عمراناً وأجهزة ووسائل اتصال ونحوها ، وبالمقابل احتفظت المدن -كما القرى- بثقافتها الشّرعيّة بصورها التي أشرنا إليها في القرية .

لا شكّ أنّ الطّفرة التي حدثت منذ منتصف التسعينات من القرن الهجري الماضي قد غيرت بعض الأساليب والتقاليد والمسالك الحياتيّة ثقافيّة واجتماعيّة ، وأزاغت بعض العيون ولكن سرعان ما عاد التّوازن للمجتمع مدنه وقراه ، بل ربّما تفوقت المدن بآخرة على القرى في هذا المجال ، أقصد مجال الثقافة الشرعية العامة في المجتمع في كثرة المساجد والدروس العلميّة ، وحلقات تحفيظ القرآن والبرامج الشرعيّة في وسائل الإعلام والنشاطات الدّعوية الثقافيّة في المدارس ومراكز التوعية والتوجيه .

ولهذا لن تجد شيئاً من تلك الصورة الموجودة في مجتمعات إسلاميّة كثيرة التي إذا انتقلت فيها من المدينة إلى الريف أو القرى فإنّك تنتقل إلى عالمٍ آخر مناقضٍ له في مجال الثقافة الشرعيّة بالذّات .

* **المعاهد العلميّة** : هذه فكرة عبقريّة للرجلين العظيمين « الإمام الفذ والعالم الجهبذ»[(١)] : الملك عبد العزيز والشيخ محمّد بن إبراهيم رحمهما الله .

إنّها ثمرة للعزيمة الصّادقة على مواصلة التزام الدّولة والمجتمع بالإسلام ، ذلك أنّ العلم الشرعي كلّما كان له رسوخه في المجتمع وامتداده الأفقي ، كان

(١) عنوان لرسالة صغيرة للشّيخ عبد المحسن العباد .

ذلك أضمن لاستمرار إسلاميّته وأمتن لها، بما يصونها عن المؤثرات التي يمكن أن تخترقها شيئاً فشيئاً حتى تودي بها .

هذا الرّسوخ والامتداد لا يتحقق إلا من خلال دراسات تخصّصيّة لا تقتصر على مرحلة جامعيّة محدودة بأربع سنوات ، ولكنّها تمتد قبلها وبعدها لتبني عقل النّاشئ ونفسه بناءً علمياً شرعياً منذ تفتحه المعرفي ؛ لهذا ولدت فكرة (المعاهد العلميّة) التي يبدأ فيها التّخصص الشّرعي للدِّراسة من بعد المرحلة الابتدائيّة أيّ في سن الثانية عشرة من عمر الطالب ؛ حيث يدرس -بتركيز- العلوم الشرعيّة واللغويّة في مرحلتي المتوسّطة ثلاث سنوات ، والثانوية ثلاث سنوات، ثم الجامعة أربع سنوات ثم مراحل الدِّراسات العليا للماجستير والدّكتوراه .

افتتح أوّل معهد علمي في المملكة عام (١٣٧٠هـ) ثم امتدّت حتى بلغت قرابة الخمسين في مختلف أرجاء المملكة وامتدّت خارجها في مثل رأس الخيمة وموريتانيا وجيبوتي ، وإندونيسيا واليابان وأمريكا .

إنّ المعاهد بما ارتبطت به من كليّات شرعيّة وعربيّة وإنسانيّة تمثلت شخصيّتها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة أعطت للمملكة العربيّة السّعودية جانباً مهماً من وجهها الإسلامي محلياً ودولياً .

لقد برزت خلال العصور الإسلاميّة منارات للعلم وبالذات الشّرعي في كثير من الحواضر في بلاد المسلمين تحوّلت إلى مؤسّسات علميّة كالجامع الأزهر وجامع القرويين والزيتونة والأموي ونحوها خرّجت علماء ، وأُلِّفَتْ في رحابها كثير من أمّهات الكتب ودعمت من بعض الدّول التي قامت في الأوطان التي وجدت فيها هذه المؤسّسات ، أمّا في الجزيرة العربيّة فعلى الرّغم

من مكانة الحرمين الشريفين الدينيّة وكونها مَهوًى للمسلمين من كلّ أرجاء العالم سنوياً ، ومع قيام دروس علميّة فيهما خلال القرون تضعف وتقوى إلا أنّها بحكم موقع الجزيرة الثانوي بالنسبة للدول الإسلاميّة التي قامت بعد الخلافة الراشدة في العراق والشام ومصر وغيرها لم يتبلور في الجزيرة مركز علمي شرعي يضاهي تلك المراكز ، فكانت هذه الفكرة الرائدة -المعاهد العلميّة- من الملك عبد العزيز والشّيخ محمّد بن إبراهيم استدراكاً لما فات حيث أصبحت جامعة الإمام بمعاهدها العلميّة إحدى -إن لم تكن- أبرز مؤسّسات العلم الشرعي في العالم اليوم ، خاصة وأنّها جاءت في وقت كان الاستعمار وبدائله قد وجّهوا سهامهم لتلك المؤسّسات الشّرعية في مجتمعات المسلمين بتمييعها أو إلغائها كليّة فكانت هذه الجامعة خير عوض يحتفظ للعلم الشّرعي بأصالته المنهجيّة والموضوعيّة ويؤهّل فئات من أبناء المسلمين بأعلى الدرجات العلميّة ليكونوا على مستوى المشاركة الإيجابيّة في قطاعات الدولة ومؤسّسات المجتمع بعلم شرعي راسخ ووعي فكري بما وصلت إليه البنى الحضاريّة في هذا العصر .

والمتأمل في ساحة الواقع في المجتمع السّعودي يجد أثر هذه المعاهد التي تخرّج فيها ألوفٌ كثيرة من الطّلاب واضحا فيه لا في هؤلاء المتخرّجين فيها فحسب وإنّما في سائر طبقات المجتمع ؛ لأنّ هؤلاء الخريجين هم في الغالب أئمّة المساجد والقضاة وأساتذة المواد الشّرعيّة والعربيّة في المدارس كافة ، وهم رؤساء مراكز الدّعوة والحسبة ، ومنهم الجم الغفير من المسؤولين في مؤسّسات المجتمع الحكوميّة والأهليّة ؛ ومن هذه القنوات انصبغ المجتمع -عامته- بصبغة الثّقافة الشّرعيّة ذات المرتكز السلفي المقدم للكتاب والسنّة على غيرهما ، والفطن في مسائل اعتقاده والحريص على الالتزام بأحكام الشّريعة في عباداته وسلوكه والمتعامل مع تطوّرات عصره باتزانٍ تفاعلاً مع إيجابياته ، واستثماراً

لها، ووعياً بسلبياته واتقاءً لآثارها بعيداً عن التشنج الرافض دون فقه وتبصُّر، وعن الاندماج الأهوج في تيار العصر دون حسابٍ للعواقب، والصحِّ والخطأ، والصحّة والفساد كما هو شأن التائهين الذين لا دينَ عندهم ولا عقل .

ولقد استطاعت المعاهد العلميّة بحكم انتشارها في أرجاء المملكة كلّها أن تشيع الثقافة الشرعيّة الأصيلة في كلّ هذه الأرجاء ولدى شعب المملكة جميعه، وما كان يمكن هذا لو لم تكن هذه المعاهد العلميّة، فلا الزيارات الإرشاديّة المتقطّعة ولا وسائل الإعلام ولا التعليم العام على الرغم من الدَّور المهمّ لكلّ هذه الوسائل أن يبلغ بالمجتمع في ثقافته الشّرعيّة إلى الصورة التي تحققت له الآن بفضل الله ثمّ عن طريق هذه المعاهد .

إنّ مسؤولي الدّولة وعلماء المجتمع يدركون بالدّرجة الأولى التميّز الفريد لهذه المؤسّسة الشّرعيّة وللمعاهد بالذات، ولهذا ما يفتؤون يؤكدون على هذا التميّز مستحضرين حركة التّأسيس لها التي بدأها العظيمان الملك عبد العزيز والشيخ محمّد بن إبراهيم قبل ما يقارب الخمسين عاماً لتكون تواصلاً نظامياً لدروس العلم الشّرعي التي كان يقوم بها العلماء منذ قرون في المساجد لتصعد بالنّاشئ في مدارج هذا العلم حتى يتأهل لأخطر الوظائف في المجتمع قضاءً وإفتاءً واجتهاداً في النوازل وتعليماً للدِّين .

كما أنّ هؤلاء المسؤولين والعلماء يعلنون دائماً أنّ هذه المعاهد تمثّل واحداً من أبرز أوجه إسلاميّة المملكة العربيّة السّعودية، ومن أهمّ معالم رسالتها السلفيّة؛ ولهذا كان الاهتمام بهذه المعاهد ودعمها دعماً مباشراً لالتزام الدولة بالإسلام وصدقاً في حمل رسالتها، وكان بالمقابل التهوين من شأن هذه المعاهد وتخصّصها الشّرعي وتسويغ إذابتها في التعليم العام جهلاً برسالة الدولة وبطبيعة المجتمع السّعودي وضرورة التّخصّص الشرعي المتميّز .

وقد كان من حفظ الله لهذه الدولة أن حفظ لها هذه المؤسّسة المقامة على البرّ والتّقوى رغم مرور السّنين وحدوث تطوّرات كثيرة خلال نصف القرن الماضي، وما تزال، مما جعل هذه التطوّرات تطال المؤسّسات الدينيّة والعلميّة في كثير من البلاد الإسلاميّة ، وتسعى لمسخها باسم « التّطوير » و « التنظيم » بإدخال مواد جانبيّة تزاحم مواد التّخصّص ، بتقليص مواد العلوم الشّرعية أو بصور أخرى من التّدمير .

أمّا المعاهد العلميّة في المملكة فقد بقيت بفضل الله محافظةً على سمتها «العلمي الشّرعي» حتى وهي تتطوّر نظامياً من مرحلة واحدة «خمس سنوات» إلى مرحلتين: متوسّطة من ثلاث سنوات ، وثانوية من ثلاث سنوات .

وعلى ما سبق - بشأن المعاهد العلميّة بصفتها أحد آثار التزام المملكة للإسلام في مجال الثقافة الشّرعية - فإنّ من حق دين الإسلام علينا أوّلاً ومن حق مؤسّسي المعاهد - رحمة الله عليهما - ثانياً ومن حق المجتمع السّعودي قادةً وشعباً والعالم الإسلامي كلّه ثالثاً أن يستحضر الجميع مسؤولين وعلماء وسائر فئات المجتمع التميّز الشّرعي التّخصّصي لهذه المعاهد، ويتواصوا برعايتها، ويدرؤوا أيّ بادرة تهدف إلى الإساءة إليها .

* ومن آثار التزام المنهج الإسلامي الصّحيح **التوازن الثقافي بين المثاليّة والواقعيّة** في الأخذ بالدين وفي التعامل مع الحياة .

لقد عانت المجتمعات الإسلاميّة نتيجة عوامل كثيرة ، منها الجهل بالإسلام الصّحيح ، وهيمنة بعض الأفكار الصّوفية السّلبية الانعزالية، ومنها فقدان القيادات الحكيمة الموجّهة للناس فكرياً ودينياً واجتماعياً، ومنها هيمنة الأعداء من المتسلّطين والمستعمرين بجبروتهم الطاغي ، مما أفرز صوراً حياتيَّةً

كانت مجالاً للنّقد الموجّه من قبل المستغربين من أبناء المسلمين - فضلاً عن المستشرقين - كالاتكالية والتهرب من المسؤوليّة والرضا بالجور والاستسلام للواقع على كلّ حالٍ والانخداع أمام كلّ مخادعٍ ، وهي صورٌ وُجدت بأقدارٍ متفاوتةٍ في المجتمعاتِ الإسلاميّة للأسباب التي ذكرت بعضها .

ولجهل هؤلاء المستغربين بالإسلام فإنّهم يربطون هذه الصور بالدين ، ويتصوّرون أنّه هو الذي يمد الناس بهذه القيم السّلبية وأنّه بالتالي تصدق عليه مقولة الشيوعيين « الدين أفيون الشعوب » .

وكان هؤلاء المستغربون في المقابل يدعون إلى استلهام القيم الحضاريّة للغرب كالحريّة والمساواة وإبراز الذات والمطالبة بحقوقها . . .

وفي هذا الجوّ برزت الاتجاهات الإسلاميّة ورأت نفسها بين هذين الحدين :

- ما توصم به من سلبية تردّ لدينها .
- وما تدعى إليه من إيجابية ترجع إلى حضارة عدوّها

حاول أتباعها بعث القيم الإسلاميّة المضاهية لتلك القيم الغربيّة ، ولعدم وجود المنهج الضابط عند كثير منها ، وللواقع المصادم لكلّ تلك القيم حدث الغلوّ في الطّرف المقابل حيث تحولت لدى هؤلاء السلبيّة والتواكل ونحوها إلى انفلات وتمرّد وانفعال تجاه القضايا التي لا يقبلها الدّين أو المجتمع -كما يرى الشّخصَ المنفَعل- يدفَع صاحبه إلى التهور في الأحكام والمواقف والتّصرّفات حتى عادت الشّكوى الآن لدى الذين كانوا يشكون من سلبيّة أصحاب الثقافة الدينيّة إلى شكوى من التمرّد والخروج على السلطة والعداء للمجتمع كلّه والتخريب وإثارة الفتن والقلاقل .

ومرّة أخرى ربطت هذه الصّور المسماة « بالتطرف » بالإسلام لدى أعدائه ، والجاهلين به .

وما يهمّنا هنا أنّ هذين النّوعين من القيم اللذين يصم بهما أعداء المسلمين أو بعضهم ليسا مجرّد اتهامات كاذبة من أعداء الإسلام والمستغربين من أبناء المسلمين بل إنّ لهما وجوداً في حياة بعض المسلمين قد يتجاوران زماناً وقد يتعاقبان نتيجة مؤثّرات كثيرة ، والمشكلة أنّهم يمارسونها باسم الإسلام وبدعوى اتباع منهجه ، وأساس هذا الموقف الفكري والنّفسي عدم الاتزان بين الواقعيّة والمثاليّة في التّعامل مع الحياة انخذالاً للواقع أو عدم المبالاة به ، أو تشبثاً بصورٍ مثاليّةٍ ومن ثم نقمة على المجتمع البعيد عن هذا المثال ومن ثم رفضاً له .

في المملكة استطاع المجتمع أن يتجاوز هذه المشكلة الثقافيّة بقدر لا مثيل له في المجتمعات الأخرى وكان التزام الإسلام هو سبب التجاوز من جهات ثلاث :

الأولى : هي المنهج الذي يتبنّاه المجتمع السّعودي وهو منهج السّلف الصالح الذي سلكه الصّحابة والأخيار من بعدهم وعليه قامت الحياة الإسلاميّة إلا الشّذوذات التي ظهرت باسم « الفرق » والتي تعاظم أثرها حتى انحرفت بفهم المسلمين لإسلامهم عن ذلك المنهج فكان تخلّف المسلمين وضياعهم .

عماد هذا المنهج فيما يتعلّق بموضوعنا أنّه وسط عدل بين التّفريط والإفراط في التّعامل مع الأشياء كلّها ، وأنّه يبني ثقافة أتباعه على تعظيم النموذج الأعلى للحياة المتمثّل بسيرة الرّسول ﷺ وأصحابه – رضي الله عنهم – وعلى تقدير ظروف الواقع ، والتّعامل معه بقاعدة تكميل المصالح أو تحصيلها ما أمكن ، ودرء المفاسد أو تقليلها ما أمكن ، كما أنّه يبني ثقافتهم على الإيجابيّة في

العمل بالحقّ والدّعوة إليه وإقامة العدل واحترام الحقوق ، وعلى درء الفتن والبعد عن تفريق المسلمين وإشاعة النّزاع والشّقاق بينهم وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح ، ونحوها من المبادئ التي تَنْحَلُّ في صورة تَدَيُّن يتعبد به المسلم لربّه ، قبل أن يكون سلوكاً يتأدّب به في مجتمعه .

الجهة الثانية : هي التزام الدّولة بالإسلام ، ممّا أفرز نتيجتين هما :

* بعث الحركة الاجتماعيّة وتوجيهها الوجهة المنتجة في المجالات الدّينية والدّنيوية ، وقد كان هذا واضحاً خلال تعاقب الدّول السّعودية الثلاث حيث كان انحلال الدّولة يؤدي إلى ضمور الحركة الاجتماعية ، وإلى تفريغ الموجود منها في قنوات غير منتجة بل مدمّرة أحياناً كالفتن والسّلب والنهب والعودة للحياة البدويّة ذات الجفاف المذموم شرعاً . فإذا عادت الدولة عاد معها انتظام الحركة في المسالك الإيجابيّة .

* وقاية الناس من التشنج الذي يحدثه التناقض بين ما يؤمن به المسلم من عقيدة وشريعة ، وما يراه ويفرض عليه وعلى المجتمع من فكر وتعليم وأنظمة تخالف هذه العقيدة والشّريعة .

ولما كان اعتزال الحياة غير ممكن في هذا العصر وفي ظلّ شموليّة الدّولة الحديثة لم يكن بدّ من احتقان الكره والعداء لهذه الدّولة التي فرضت هذه النّظم ، والمجتمع الذي استكان لها ، فإذا انفجر هذا الاحتقان تحوّل إلى بركان مدمّرٍ .

أمّا في المملكة فإنّ تحكيم الشّريعة واحترام الإسلام عقائده وشعائره يُثمر انسجاماً بين الأمرين ولا يجد تنافراً بين ولائه لدينه وولائه لدولته ووطنه إذ تتداخل هذه الولاءات الثلاث مع بعضها فتنتج رؤيةً ثقافيةً موحّدةً ونفسيّةً سويّةً .

الجهة الثّالثة: هي مادة (الثقافة الإسلاميّة) التي سبق ذكرها في الباب الأوّل وقيمتها هنا أنّها تقوم بدور مزدوج للنّاشئ المسلم في المملكة .

فالمتخصّص الشّرعي الذي يدرس الإسلام في صورته النّموذجيّةالمتمثّلة في تعاليم القرآن والسنّة ، تربطه مادة (الثقافة الإسلاميّة) بالواقع المعاصر بقضاياه الفكريّة ، ومذهبياته، وتطوّراته المتسارعة ليدرك ضخامة الواقع ومؤثّراته الكثيرة فيكون -بعد ذلك- في استنزاله أحكام الشّريعة ، متصوّرا تصوّرا صحيحاً هذا الواقع ، ومقدرا أثر الظروف المحيطة به في مدى استجابته لجهوده الإصلاحيّة .

أمّا دارس العلوم الواقعيّة فإنّ مادة " الثّقافة الإسلاميّة " توثق ارتباطه بدينه ليجعل تخصّصه الواقعي خادماً لدينه ومنسجماً مع توجيهاته العقديّة والتشريعيّة .

وهكذا تقوم هذه المادة -إذا وعى واضعو مناهجها ومدرسوها- بدور مزدوج جليل في تحقيق البناء السّوي للشّخصيّة المسلمة يحفظها من التماهي مع الواقع تماهياً لا يفرق بين محموده من مذمومه ومن الانبتار عن هذا الواقع مع صور نموذجيّة مثاليّة .

هذه الجهات الثلاث أمدت المجتمع السّعودي بسمت متزن في نظرتة للأمور المحيطة به وفي التّعامل معها ، ولهذا فإنّ ما يحدث من خرق لهذه السّمت ينبئ بأنّه دخيل على ثقافة المجتمع فمثلاً حادثة التّفجير التي وقعت في « العليا » في الرّياض قبل ثلاث سنوات لا تجد أحداً من العلماء أو المثقّفين أو العامة إلا وهو يستنكرها ويعدها شذوذاً أو حالة هوسٍ من فاعليها ، ليس في تصريحاتهم الصّحفيّة فقط وإنّما في أحاديثهم الخاصة .

في مقابل هذا فإنّك تجد في بعض المجتمعات الأخرى أنّ الذين يمارسون أعمالاً انتقاميّة موجّهة ضدّ الدولة تلقى أحياناً تشجيعاً وإن لم يكن عالي الصّوت بحجّة أنّ الدولة هي التي بدأت بحرب المجتمع وملاحقة دعاته وإشاعة الكفر فيه ، وهذا ما لا تجد أحداً يتجرّأ على القول به ولا اعتقاده في المملكة .

* من الآثار الثقافيّة المهمّة لالتزام المملكة بالإسلام **الثقة بعالميّة الثقافة الإسلاميّة** المرتكزة على تعاليم القرآن والسنّة ، واليقين بقدرتها على حلّ مشاكل العالم ومن ثم تبنّيها في البناء الحضاري للدّولة ، مع المداخلة الإيجابيّة للسّيرورة الحضاريّة الغربيّة والانتفاع بمبدعاتها باحتوائها في إطارات الثقافة الخاصة « الثقافة الإسلاميّة » .

لقد برز الملك فيصل - رحمه الله - في وقت اشتدّت فيه وطأة الأعداء والجهلاء على الإسلام بصفته قاعدة ثقافيّة تقوم عليها بنية حضاريّة متميّزة وناجحة ممّا جعل كثيراً من قادة المسلمين يتنكبون إسلامهم ويبحثون عن ثقافات بديلة مستمدّة من الأمم الأخرى ، أو ملفقة من تشكيلات مختلفة . وراهن كلٌّ على منظومته التي تبناها قوميّةً أو اشتراكيّةً أو بعثيّةً أو غيرها أنّ فيها النّهضة والتّحرّر والمستقبل الحضاري الأفضل ، وراهن الملك فيصل على الإسلام بعقيدته وشريعته وكان وشعب المملكة وراءه علماء وغيرهم ثابت الموقف راسخ الإيمان .

وقد انكشفت -وما تزال- الحقائق وبان عوار هذه الثقافات المشوّهة التي لم تحقّق إلا استتباع المجتمع المسلم للحضارة الغربيّة ، وتجلى الحقّ في الموقف السّعودي الذي تبنّاها الملك عبد العزيز أوّلاً ثمّ القادة من بعده .

لا شكّ أنّ الإيمان بعالميّة الإسلام وبأنّ تعاليمه وحدها مصدر السّعادة وبها حلّ معضلات البشر مسألة يعتقدها كلّ مسلم ؛ لأنّها من مقرّرات الوحي الصّريحة لكن تمثّل هذا الإيمان في شاكلة اجتماعيّة يلتقي فيها القادة والعلماء والمثقّفون ومختلف قطاعات الشّعب وتنتظم فيها حركة الدّولة ، هذا هو الذي يمثّل تميّزاً ثقافياً في المجتمع السّعودي ، ولهذا فإنّ وجود شخص أو أشخاص ينتسبون للمجتمع السّعودي ، ولكن ثقتهم بعالميّة ثقافتهم الإسلاميّة تهتز أمام وهج المذهبيات البشريّة شذوذ لا اعتبار له ، وغالباً ما يدلّ على أنّ مثل هذا الشّخص لم يتلبس بالثقافة الإسلاميّة الماثلة في هذا المجتمع إمّا لنشأته بعيداً عنه ، أو لمسخٍ ثقافيٍّ أبعده عن ثقافته الأصيلة إلى بدائل مغشوشة .

المبحث الثّاني

التّربيــة الصّالحـة

التّربية في لغة العرب تعني التنمية والرِّعاية ، وتعني بالنسبة للإنسان رعايته إعطاءً ومتابعةً في جوانبه الجسميّة والعقليّة والرّوحية ولكنّها تتركّز بشكل أولي على رعاية جانبه الإنساني فكراً ووجداناً من خلال فلسفة معيّنة للحياة .

أمّا التّربية الإسلاميّة فإنّها رعاية الإنسان في جوانبه المذكورة من خلال منهج الإسلام لينضبط هذا الإنسان بهدى الشّريعة ويستهدف غايتها وهي العبوديّة لله والخلافة في الأرض[1] .

وعلى الرّغم من تطوّر نظريّات التربية وتطبيقاتها وكثرة تجارب البشريّة فيها في عصرنا الحاضر إلا أنّ الشّكوى المرّة ما تزال تدور من قبل العقلاء والمهتمّين من واقع هذه التّربية منبّهين على المأساة التي تعانيها المسالك التّربويّة عامة – في هذا الزّمن – والمتمثّلة بإهمال أو تحطيم الجانب القيمي والرّوحي لدى النّاشئ ممّا يجعله يتحوّل – حتى لو تخرج متفوّقا في فنٍّ معرفيّ – إلى مسخ جاف المشاعرَ مهتز القيم يساوره الشّعور بفقدان هدف وجوده .

إنّها تربية – كما يقول " دجار فورد " – « لا تساعد الإنسان على اكتشاف نفسه وفهم عناصر شخصيّته وعمليّات الذكاء والقوانين التي تحكم تطوّره الفزيولوجي ومعنى تطلّعاته وأحلامه وطبيعة العلاقات بين فرد وآخر أو بينه وبين المجتمع ، ولذلك فهي تربية تهمل واجبها الأساس في تعليم الإنسان فنّ الحياة والحبّ والعلم وتجسيد أفكاره ومثاليّاته في المجتمع الذي يعيش فيه »[2] .

---

(١) انظر توصيات المؤتمر العالمي الأوّل للتعليم الإسلامي بمكة – المسلم المعاصر ، العدد ١٠ في ١٣٩٧ هـ.

(٢) تطوّر مفهوم النّظريّة التّربوية الإسلاميّة ، ماجد عرسان كيلاني ، ص ٢٥٣ ، مصدر سابق .

ولا شكّ أنّ تربيةً تفقد التّوجيه السّليم في هذه القضايا الأساسيّة في الوجود الإنساني لا توصف بأنّها قاصرة أو مريضة بل ميِّتة فاقدة للحياة ، ولا غرابة أن تقع أمّة انحسرت منها الرّوح الدِّينية ، وطغت في حياتها الروح الماديّة على حساب القيم الخلقيّة ، واقتصر نظرها على الدّنيا دون الآخرة في هذه الحالة البائسة وأن تنتهي إلى هذه الأزمة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[1] .

لكن الغرابة والأسى أن تَطَّرح بعض مجتمعات المسلمين الهدى الذي جاء به نبيّها في هذا المجال وهو الحقّ الذي لا يحقّق الوجود البشري إنسانيّته وكماله إلا به لتستعيض به تلك النّظريات التربويّة التي شهد أهلها لا بفشلها بل بضررها وتدميرها لحياتهم وإنسانيّتهم .

إنّ الواحد ليتألم نفسياً حينما يجد كثيراً من أبناء المسلمين المتعلّمين يفقدون معرفة أساسيّات البناء التربوي للعقل والنّفس والسّلوك وتطبيقها ، تجد بروداً إيمانياً واعتقاداً إرجائياً يصوِّر له أنّ مجرّد انتسابه للإسلام وإعلانه له كاف في صحّة انتمائه وصدق دينه وفلاحه الأخروي ، تجد جفافاً في المشاعر وتركاً للعبادات ، وخللاً في المشاعر المتبادلة بين المسلمين وتفريطاً في الحقوق وبعداً عن الله وإعراضاً عن ذكره وانسياقاً مع المصالح المادية على حساب الإيمان والأخلاق وطلب الآخرة .

تجد أناساً لا يعتزون بإسلامهم ، ولا يدينون بالولاء له ولأمّتهم ، وإنّما ولاؤهم لأهوائهم وشهواتهم ، أو لفلسفات وأحزاب تناقض دينهم وتحاربه .

ومهما تعدّدت الأسباب التي أفرزت الأجيال التي تحمل هذه السّمة

(١) الآية رقم (٤٠) من سورة النور .

البئيسة فستكون التّربية التي رضعوا لبانها وتراموا في أحضانها على عين عدوّهم المستعمر أو بديله المماثل له هي السّبب الأكبر والأخطر .

لقد أنقذ الله المملكة العربيّة السّعودية من هذه الصّبغ التربويّة المقيتة لنجاتها من الاستعمار ، ولاعتمادها الإسلام منهجاً لحياتها فجاءت الثّمار التّربوية مغايرة لتلك الثّمار .

التّربية التي أخذت بها المملكة هي التّزكية التي مارسها الرّسول ﷺ مع أصحابه فحوّلهم بها خلقاً جديداً باهتماماته ومواقفه ، وغاياته وسلوكه الحياتي .

وهي التّربية التي حددتها الدعوة السلفية التي ظهرت في أمّة تراجعت كثيراً؛ تخلّفاً وجهلاً عقدياً وعبادياً وتنظيمياً، فاستطاع رائدها بهذه التّربية تدريساً ومراسلةً وربطاً بالأصول الصّحيحة أن يبعث صوراً بشريةً تحاكي النّماذج الأولى، وتسعى لتمثّلها الشّمولي للإسلام قوّة اعتقاد وصراحة التزام للشّريعة وولاءً صادقاً للإسلام ودعوته ودولته ونظراً للوجود كلّه من خلال منظار نصوص القرآن والسنّة .

وفي القرن الرابع عشر الهجري العشرين الميلادي أعاد الملك عبد العزيز توحيد الجزيرة بعد تبعثرها وتفكُّك وحدتها، واستطاع هو الآخر بالتّربية وفق ذلك المنهج المتوارث بالذات قبل انفتاح المملكة على العالم الخارجي أن يوجد جيلاً نموذجياً في تديّنه وهمّته وجدّه ووفائه حتى أصبح مثار إعجاب الآخرين وغيظهم في الوقت نفسه .

ولا أقصد بذلك مشروع توطين البدو وإقامة الهجر لتعليم الدّين وإقامة صلاة الجماعة ، وهو المثال الأبرز في أثر التّربية التي قامت بها الدّولة في عهد الملك عبد العزيز، لا أقصد هذا المشروع فقط ،ولكني أقصد اتّجاه الدّولة ككلّ

للحضر والبدو وتعميق التّربية الإسلاميّة باتّخاذ الوسائل الكثيرة تعليماً، وإرشاداً، وحلقات قرآن، وغيرها ممّا جعلها في ذلك الوقت تقلب الأوضاع ابتداءً بنفسيات الناس ثم حركتهم في الحياة، وبالذات في التفاني لإعلاء كلمة الله، وجعل الفضيلة مناط الهمّة والعمل.

وحسبي أن أشير إلى بعض ما ذكره المتأملون في تلك الظّاهرة التي كما يقول «جلال كشك»: «خرجت رجالا يولدون من جديد بعد مرورهم في تيار أيديولوجي يعيد تشكيل فكرهم وسلوكهم فيتحرّكون ويتكلّمون ويتعاملون ويحبّون ويموتون بملامح فوق بشريّة»(١). وينقل كشك بعض انطباعات الغربيين عنهم مثل وصف هاريسون للرِّياض عام ١٣٣٦هـ: «هذه المدينة يعيش سكانها للعالم الآخر، المئات يدرسون في المساجد ليخرجوا وعاظاً ويتوجّهون لهداية القبائل البدويّة، إنّها -أيّ الرِّياض- مركز نظام تعليمي ديني يمتدّ إلى كلّ قرية وسط الجزيرة ويقدم التّعليم للجانب الأكبر من ذكور المدن . . . ومن الممكن أن نقول بأنّه ما من مدينة يهتمّ رجالها بالعالم الآخر أكثر من اهتمامهم بهذا العالم مثل الرِّياض، وهم لا يعرفون العشاء المتأخر بل يأكلون الوجبة الأخيرة قبل الغروب بساعة ليكون لديهم الوقت الكافي للقراءة والعبادة قبل النّوم، وهذا هو البرنامج المعتاد حتى في بيت عبد العزيز نفسه»(٢).

ويذكر كشك صورتين فرديتين تحكيان أثر هذه التربية:

أولاهما من الريحاني عن شاب من عامة الناس اكتروا بعيره في بعض أسفارهم اسمه «نوار».

---

(١) السّعوديون والحلّ الإسلامي، ص ٥٦٩.

(٢) المصدر السّابق، ص ٥٨٠.

وثانيتهما من حسن وهبة عن الشّيخ عبد الله بن حسن آل الشّيخ الذي رافقه في رحلة للمدينة المنوّرة، والذي أنكر على وهبة بعض تصرّفاته التي يرى عدم لياقتها لسمت المؤمن، ولكن وهبة اعترف « بأنّ الشيخ كان نعم الرّفيق المؤاسي أثناء مرضي، فقد كان لا يرضى إلا أن يسقيني الدّواء بنفسه؛ ممّا يدلّ على ما فطر عليه هؤلاء من الإخلاص وطيبة القلب لا يحملون حقداً لأحد ولا يبغضون إلا حيث يعتقدون أنّ منكراً اقترف أو أنّ حقاً من حقوق الله قد أُضيع أو أهمل »[1]. وهي الخصائص نفسها التي ذكرها الريحاني عن نوار الإنسان البسيط، ولكن بلا ريب أنّ ذلك الزخم التربوي والتفاعل الاجتماعي معه خفا عمّا كان عليه، وقامت إلى جانب العمليّة التّربويّة مؤثّرات أخرى لا تعضدها، بل في كثير من الأحيان تصادمها بعد أن انفتح المجتمع السّعودي على المجتمعات الأخرى وتفاعل معها .

ولكن المسار التربوي لم يتغيّر لا في أهدافه ولا في انضباطاته، وقد سبق تجلية ذلك فيما سبق حيث بيّنا السّياسة التّعليمية للمملكة التي التزمت بالخيار الإسلامي بشكلٍ واضحٍ وحاسم وعليها تقوم العمليّة التّربوية في مختلف قطاعات التّعليمٍ وحلقاتٍ تعليم القرآن ودروس المساجد والأنشطة الشّبابية كالمراكز الصّيفيّة، وهي العمليّة التي أثمرت في الواقع عقلياً ونفسياً وحركياً ثماراً تتميّز عمّا أنتجته النّظم التّربوية في المجتمعات الإسلاميّة الأخرى .

وباختصار أشير إلى ما يوضّح المقصود :

* التّربية التوحيديّة الرّابطة للإنسان بخالقه ارتباط عبد بمعبود :

فلقد غرست الثّقافة الإسلاميّة التي أخذت بها المملكة في مناهجها

(١) السعوديون والحل الإسلامي، ص ٥٨٥ .

التعليميّة حقيقة الإيمان بمبادئ الإسلام وأوّلها توحيد الله في أنواعه الثلاثة (الرّبوبية والألوهيّة والأسماء والصِّفات) حيث ترسخ في وجدان المجتمع في وضوح تام عمّا ينبغي وما لا ينبغي من متعلّقاته ، فالشّخص كبيراً أو شاباً لديه وعي ذهني وحساسيّة وجدانيّة تجاه مسائل الإيمان والكفر والنّفاق والشرك والبدع ، والغيبيات كصفات الله وأمور الحياة الآخرة حتى أصبح الوجود أمام الشّخص كأنّه خريطة محدّدة المواقع والتضاريس والأبعاد .

وتستطيع إدراك قيمة هذا الوضوح في قضيّة التّوحيد ومسائل الإيمان لدى المتلقّين لهذه التّربية بالمقارنة بآخرين من أبناء المسلمين الذين تلقّوا في دراساتهم خليطاً من التصوّرات الفلسفيّة والنّظريات الإنسانيّة والكونيّة عن الوجود والإنسان والحياة فتشوشت أذهانهم وفقدوا الرّؤية الصّحيحة التي رسمها خالق الوجود ومدبّر حركته ، إنّه من السّهل عليك أن تلتقي بشباب مسلم بل مثقف وعالم أحيانا يلمّ شتاتا من المعارف المنوعة ولكن قضيته الكبرى « التّوحيد » غائبة عن تصوّره أو باهتة في ذهنه ، يقول « لا إله إلا الله » ، لكنه لا يعي أركانها وشروطها ويؤكّد إيمانه ولكنه يقع فيما يناقضه دون أن يشعر بالخطر ، أمّا الشّركيات والبدع فإنّ كثيراً منهم يتصوّرها من الدّين تبعاً لما هو رائج في بيئته وبسبب فقدان التّربية التي تغرس التّوحيد والإيمان الصّحيح في نفس النّاشئ لتقاوم الصّور الاجتماعيّة الناشزة عنه .

أمّا غير المسلم فإنه بلا شكّ يفقد أوليات ما يتعلّق بالإيمان والتّوحيد ، والتّصورات السّليمة للوجود .

ولهذا فعلى الرّغم من الآفاق التي بلغها العلم التجريبي المعاصر ، والقوانين الكونيّة التي وصل إليها إلا أنّ رجال هذا العلم والفلسفة فضلاً عمن

وراءهم يعيشون - ويا للمفارقة- اختناقاً فكرياً وتصوّرياً عن هذا الكون الذي هو مجال دراستهم ، بل إنّ هذه الدّراسة ذاتها بحكم كونها جزئيّة ، وغير مرتكزة على تصور شامل صحيح للوجود تسهم في إحكام هذا الاختناق ، ولهذا لا غرابة أن يقول مثل إينشتين : « إنّ كلّ ما جمعته من معلومات عن الكون لم يقدم لي عنه إلا أنّه لغز مقفل »[1] .

وفانفر بوش في كتاب " ليس بالعلم وحده " يؤكّد « أنّ الذي يتبع العلم وحده يصل إلى حاجز يمنعه من متابعة الرّؤية »[2] .

إنّ هذا الشعور بالعمى عما يتجاوز تلك الجزئيّات التي يبحثونها في عناصر من هذا الكون جماده أو نباته أو حيوانه غير موجود لدى الإنسان الذي تلقى هذه التّربية الإسلامية حتى وهو طالب في الثانويّة، إنّه يعرف ما وراء هذا العالم المادي الصّغير من عالم غيبي كبير بسمواته وملائكته ، ويعرف الإله الذي خلقه وخلق العالم كلّه، الأوّل قبل كلّ شيء والآخر بعد كلّ شيء والظّاهر فوق كلّ شيء والباطن دون كلّ شيء ، إنّه يعرف أنّ وراء هذه الحياة الدّنيا القصيرة الفانية حياةً لا نهائية هي الحياة الحقيقيّة، وأنّه سيجري فيها أوضاع معيّنة، وأن بها دارين عظيمتين سينتهي إليهما الناس هي الجنّة التي يعرف صفاتها والنّار التي يعرف أيضاً ما فيها .

يعرف هذا كلّه بيقين راسخ أنّه الحقّ الذي لا مرية فيه ، موقناً أنّ كلّ هذه الأشياء راجعةٌ إلى الله الذي منه بدأت وأنّ كلّ ما يكشف العلم من مجهولات الكون وعناصر جزئياته من بنية الوجود الذي أتقن مبدعه صنعه .

(١) نهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمّد سعيد البوطي ، ص ١٣٦ ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ.
(٢) ليس بالعلم وحده ، لجنة من الأساتذة، ومنهم : فانفر بوش ، ص ٢٤ ، دار الآفاق، بيروت .

وهذا يفضي بنا إلى ثمرة تربويّة أخرى مهمّة يجدها متلقي هذا التعليم في نفسه - في خلواته وحتى تعامله مع الكون المحيط به - وهي الشّعور بالسّلام والأنس بالكون المحيط بالإنسان والعلاقة الحميمة بموجوداته[1] التي جعلها الله ميداناً لنشاط الإنسان ومجالاً لاستثماره وانتفاعه . ولكنه حبّ للكون وعلاقة به لا تطغى على ما هو أولى منها وهي العلاقة بالله حباً وعبودية وخضوعاً له سبحانه وثقة به تعالى .

وفق هذه الرّؤية تقوم علاقة المسلم بالكون وخالق الكون ، وتتكامل في خدمتها معارفه العلميّة القائمة على التّجربة والملاحظة مع معرفته العقديّة وإيمانه ، وبهذا يتمّ الانسجام بين عقله ووجدانه .

وإنّما ندرك روعة هذه الثّمرة للتّربية الإسلامية في نفس المسلم إذا قارناها بما يقابلها من النّظرة الوثنيّة التي سادت الفكر والتّعليم في أوربا ومنها انتقلت إلى المسلمين وأثّرت في مناهجهم التّعليمية ، تلك النّظرة الوثنية هي التي انبثقت منها النّظريات التّربويّة وهي التي تزيل منطق السّلام من فكر الإنسان ونفسه ليظل أسير صراع منهك، إنّها نظرة -كما يقول جروس وستانسيو-« تخلق قطيعة بين العلوم والفنون وتولد خصومة بين العلم والدّين وتضع خبرة العلوم المتخصّصة والخبرة العامة على طرفي نقيض ولا ترى استمرارية بين العلم الحديث، والفكر والقيم ، وهي تقوّض في نهاية الأمر أسس العلم ذاته، وهي بهذا المعنى لا تتفق مع نفسها، ومن العسير تصوّر افتقارٍ إلى الوحدة يفوق هذا الافتقار »[2].

---

(١) من التعبيرات الموضحة الجميلة قوله ﷺ : « هذا جبل يحبّنا ونحبّه » . أخرجه مالك في الموطأ ، قال محقق جامع الأصول : « حديث صحيح » . ٩/ ٣٣٨ .

(٢) العلم في منظوره الجديد، جروس وستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، ٣٦، سلسلة عالم المعرفة ، ١٤٠٩هـ .

إنّ التّربية الإسلاميّة وفق المنهج السّلفي الذي تتبنّاه المملكة تحقّق خلافاً لهذا الصراع القاتل في الوثنيّة، توحّد الإنسان مع الكون المحيط به وتوحيده لله معها؛ لأنّه يوقن منذ تفتح ذهنه وقراءته للقرآن أنّ هذا الكون بجماده ونباته وحيوانه، يعبد ربّه ويسجد له ويسبّح بحمده ويصلّي له، وإن كان يعي أنّ محدوديّة قدراته البشريّة تجعله لا يفقه صلاتها ولا تسبيحها، ولكنه يعلم أنّه بتوحيده لله وعبادته له ينسجم مع هذا الكون وحركته في التّوجُّه لله.

أيضاً فإنّ ممّا تغرسه التّربية السّليمة إقامة المعنى الصّحيح للعبادة في حركة المسلم بصفتها غاية وجوده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] سواء كان ذلك بمفهومها العام الذي تشمل به كلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة[2] أو بمعناها الخاص المتمثّل بالشّعائر التعبّدية صلاةً وصياماً وحجاً ونحوها، حيث يتجلى أثر هذه التّربية في السّمة الاجتماعيّة العامة للمجتمع السّعودي من الحيثيات الكثيرة المتعلّقة بهذه العبادات:

- الحرص على الوفاء بها واستكمال شروطها واتقاء مبطلاتها بالسّؤال والتحري.
- الاهتمام بالفرائض والمبادرة إليها صلاةً وصياماً وحجاً ونحوها وتعظيمها وتقديمها على ما سواها، فإنّ الله لا يقبل النّوافل حتى تؤدى الفرائض، والشّعور بضياع من يهملها ويتكاسل عنها وفساده، والاسترابة منه والرّثاء لأولئك الذين يستهينون بالفرائض والعبادات المشروعة متحمسين لعبادات وصور من الأعمال إمّا أنها غير مأثورة أو ثانوية بالنّسبة للفرائض.

---

(١) الآية رقم (٥٦) من سورة الذاريات.

(٢) انظر: العبوديّة لابن تيمية، ٤٤، مصدر سابق.

- تجنُّب البدع والمحدثات في مجال العبادات، والتديّن، والتزام السنّة، واليقين بأنّ كلّ بدعة ضلالة، ومحاولة التزام السنّة في الهدى والعمل حتى صارت الحنبلية وصفاً يطلق في عصرنا الحاضر لدى الدوائر الفكرية والمؤسّسات العلمية ونحوها على منهج المملكة في تطبيق الإسلام، وهي نسبة إلى أحمد بن حنبل - رحمه الله - الذي كان من أكثر الأئمة الأجلاء تشبثاً بالسنّة وأخذاً بالنّصوص لأنه محدّث بالدّرجة الأولى، ولأنّه نموذج الثّبات على مقرّرات النّصوص، أيام المحنة العباسيّة .
- الحرص على صلاة الجماعة والثبات على رأي أنّها واجبة وأنّ الإنسان يأثم بتركها من غير عذر، وقد أثمر ذلك نهضة عمرانيّة للمساجد فاقت التطوّر العمراني نفسه، وأقيمت مساجد أو مصليات في المدارس والدوائر الحكوميّة لأداء الصّلاة فيها جماعةً .
- الرّغبة في نوافل العبادات والتّطوّعات الخاصة صلاةً وزكاةً وصوماً والتّنافس في ذلك لدى كثير من الناس والحرص على الأذكار والأدعية وقراءة القرآن .
- والارتباط بالله والشّعور بمعيَّته، وسرعة الأوبة إليه لمن حصل منه شرود وغفلة .

لا أقول: إنّ هذه الصّور متوفّرة لدى كلّ الناس، ولكني أقول: إنّها تمثّل بعمومها سمة للمجتمع يلحظها كلّ ناظر إليه خاصة إذا قدم إليه من بعض المجتمعات التي سعى الأعداء لاجتثاث بذور التّربية الإسلاميّة فيها فتحولت إلى مجتمعات لاهية صبغتها الإسلاميّة باهتة؛ قلةً وتخلّفاً في مساجدها، وجهلاً ببدهيات العبادات الشعائرية وقلة في ارتياد هذه المساجد، ووقوعاً في البدع . . . إلخ .

* والإيمان بالقضاء والقدر إيماناً حاسماً وإيجابياً من الآثار الثقافيّة لأخذ المملكة بالعقيدة الإسلاميّة وفق منهج السّلف الصّالح .

إنَّ الإيمان بالقضاء والقدر يتضمّن الإيمان بالأمور الأربعة التالية :

- الإيمان بعلم الله السّابق للأشياء كلّها ما كان منها وما سيكون .
- الإيمان بأنّ الله قد كتب في الأزل كلّ ما يتعلّق بالوجود من أحوالٍ وأحداث .
- الإيمان بأنّه لا يحدث شيءٌ إلاّ بمشيئته سبحانه سواء كان ممّا يفعله البشر أنفسهم بمشيئتهم أو ممّا يحدث دون إرادة منهم .
- الإيمان بأنّ الله خالق كلّ شيء .

وهذه يتلقاها النّاشئ في دراسته الابتدائيّة والمتوسّطة بصورة واضحة فتصبح مرتكزاً لتفكيره وحركته .

وإيمانه بالقدر يعني إيمانه بحكمة الله في أفعاله فكلّ ما يجري في هذا العالم قائمٌ على الحكمة حتى وإن لم يدرك الإنسان أبعادها في هذه الحياة .

إنّه بقدر وضوح هذا الإيمان بالقدر بمراتبه الأربع السّابقة، يقوم إيمان المسلم بمسؤوليّة الإنسان عن عمله وارتهانه به ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(١) وبأنّه إذا قصر في المطلوب منه أو فعل المحرم عليه سيحاسب على تقصيره وفعله؛ لأنّه اتّجه إليه وعمله بحريّته واختياره، ممّا يدركه من نفسه كلّ إنسان؛ لأنّ حركة الإنسان ليست نداً للقدر الجاري بأمر الله ولكنها متضمنة فيه، ففعل الإنسان طاعة أو معصية من القدر وهو محسوب للإنسان أو عليه؛ ولهذا فإنّ النتيجة بالنّسبة لموقف المسلم إيجابيّة من ثلاث جهات :

- من جانب شعوره بالمسؤوليّة عن عمله الذي يفعله اختياراً .
- وشعوره بهيمنة الله عليه في هذا العمل وأنّه ليس سيد قدره .

(١) الآية رقم (٢١) من سورة الطور .

- وشعوره أمام الأحداث التي لا اختيار له فيها أنه لا مجال له للتّحسّر ولا للاعتراض، وكيف يعترض على فعل يعلم أنّ به الحكمة والعدل لأنّه من الله الحكيم، بل إنّه يستطيع توظيف هذه الأحداث التي لا خيار له في وقوعها لمصلحته الظاهرة بالصّبر والشّكر الذي به يكون مردودها عليه رضاً من الله وإمداداً له بالنّفع والثّواب(١) .

ولهذا نجد أنّ ما يوجد في مجتمعات أخرى من لطم الخدود والاعتراض على الله في قدره، أو التّساؤل ببلاهة عمّا وراء الأحداث من حكمة، أو الجراءة على الله ونفي الحكمة عن أفعاله لا يوجد بحمد الله في المجتمع السّعودي على شكل ظاهرة واضحة في السّاحة وإن وقع فيه أفراد لدى اهتزازهم أمام المصائب الحادة .

* ومن ثمار التّربية القائمة على الثقافة الإسلاميّة **تزكية الفطرة** التي برأها الله - سبحانه وتعالى - لدى كلّ إنسان متّجهة إلى الله محبة للفضائل نافرةً من الرذائل ولكنها قابلة للتّأثيرات المحيطة بها، فإن كانت التأثيرات إيجابية منسجمة مع ما فيها من نزعات إيمانية وخلقية زكت وسمت وتعالت بها إنسانية صاحبها، وإن كان العكس وتلاعبت بها مؤثّرات تضاد تلك النّزعات، وتعمل على طمسها وإفسادها، فإنّ صاحبها يفقد هدف وجوده وتنحسر شاعريته بالقيم الإنسانيّة، وتتضخم حيوانيّته على حساب روحه وإنسانيّته، وتتحكم به شهواته العاجلة .

ولمّا كانت التّربية في المملكة قائمةً على مرتكزات الثقافة الإسلاميّة

---

(١) روى مسلم في صحيحه أنّه ﷺ قال: « عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له ». صحيح مسلم، ٤/ ٢٢٩٥، حديث رقم[٢٩٩٩] .

الأصليّة في تصوّرها للوجود وعلاقات الإنسان بخالقه والعالم من حوله ، وفي القيم الخلقيّة التي قرّرتها تعاليم الكتاب والسنّة وهي القيم التي جبل الله عليها الإنسان في خلقته الأصليّة الصّحيحة ؛ لهذا كانت ثمار هذه التّربية مميّزة للنّاشئين عليها في هذا المجتمع عن غيرهم ممّن تربّى على موائد أخرى تفقد هذه السّمات .

لا ريب أنّ للمؤثّرات الثقافيّة الغازية للمجتمع المسلم آثارها المزحزحة عن الصّورة المفترضة للنّاشئ على هذه التّربية العالية لكن لما يزل من هذه الصّورة خير وفير .

هناك ارتباط بالفطرة وانشداد إليها بما فيها من قيم إيمانية وخلقية تجعلهم ينفرون بحسٍّ فطري من الصّور الحياتيّة التي تصادم هذه الفطرة ، والتي يبدو بها أتباعها سواء كانوا من الغربيّين أو من مقلديهم في هذه الصور الحياتية حيوانات تائهة عن هدف وجودها .

وهناك ارتقاء بالعقل نحو موقعه السّامي وتطهيره من الخرافات وتحريره من الاستخذاء لدجل المشعوذين ، والسّحرة ونحوهم من خلال مادة التّوحيد التي تجعل ارتباط العبد بالله حصناً له من أعدائه وتجعل الحركة الكونيّة حركة سببيّة قائمة على النّظر العقلي والاستقراء التّجريبي الذي تعرف بها خواص الأشياء وآثارها .

لا ريب أنّه قد ينخذل أناس بسبب نقص تربيتهم أو ضعف إيمانهم لكنهم يشعرون بسوء صنيعهم ويستخفون من الناس في ارتكاب أفعالهم استخداماً للسّحر ونحوه .

هناك أيضاً استقذار للفواحش والجرائم البشعة التي قد تقع شذوذاً أو تنقلها وسائل الإعلام المصوّرة من مجتمعات أخرى ، وقد يكون هذا

الاستقذار -بالذّات لشذوذ المنكر- كالزنا بالمحارم وقتل الوالدين ونحوها عاماً للناس بالنّظرة الإنسانيّة التي تستنكر هذه الفواحش، ولكن الفطرة لا تلبث أن تتضاءل حساسيّتها إذا تكرّرت هذه الجرائم أو فُلسفت من قبَل بعض الفلاسفة وأصحاب النّظريات المنحرفة ، أمّا نتاج التّربية الشّرعيّة فإنَّ هذه الفطرة تتزكى بما تتلقاه من تعاليم الوحي فيظل استنكارها واستقذارها لهذه الفواحش حياً قد يصل إلى انفعال الجسم عند سماعها فيقشعر جلده ، أو يوشك على التقيؤ ، ولا ريب أنّ وسائل الإعلام وبالذّات القنوات الفضائيّة تقوم بدور رهيب في مسخ هذه الفطرة وتمويت حيويّة تعاليم القرآن والسنّة في نفوس الناس من خلال عديد من برامجها التي تروّج للرذيلة بتكرار وإصرار لتبدو عاديةً في حياة الناس بل لتصبح هي الأصل، والفضيلة المناقضة هي الشذوذ الذي لا يتمثّله إلا معزول عن العصر يعيش مثاليّات بعيدة عن الواقع .

المبحث الثالث

الأمن الفكـــري

الأمن الفكري هو القاعدة التي ترتكز عليها جوانب الأمن الاجتماعي الأخرى معيشيَّةً واقتصاديَّةً وسياسيَّةً وغيرها، فإذا اخترقتْ هذه القاعدة وأصاب مجال الفكر اضطرابٌ وخللٌ، ودمَّرته الأفكار الغازية وجرفته الفلسفاتُ والنَّظريَّاتُ التي تفقد المنطق السَّليم والحقائق اليقينيَّة الهادية؛ فإنَّ هذا الفكر « فكر المجتمع وفكر الأمَّة » يتحطَّم ويمسخ ويصبح أشتاتاً ممزَّقةً يحطِّم بضعها بعضاً، وعند هذا لا رجاء في نهوض اجتماعيٍّ لهذا المجتمع لا سياسياً ولا اجتماعياً ولا اقتصادياً ولا سواها.

وحالة أغلب مجتمعات المسلمين اليوم دليلٌ واضحٌ على ما قرَّرناه .

وميزة المجتمعات المسلمة - عربيَّةً وغير عربيَّة- أنَّ أمنها الفكري مرتبطٌ بالتزامها بالإسلام بصفته الركيزة الثقافيَّة التي تقوم عليها وتنطلق منها هذه المجتمعات؛ فإذا حاربت الإسلام أو فقط أهملته وتبنَّتْ ركائز أخرى لنهضتها فإنها تكون بهذا التبنِّيْ قد جلبتْ لنفسها الشقاء ابتداءً بالجانب الفكري الذي يتمزَّق فيه المسلم بين عقيدته الرَّاسخة في أعماق عقله وقلبه وبين المنهج المستورد الذي يطلب منه أن يمنحه ولاءه، وأن يتمثَّله فكرياً ليأخذ به عملياً.

أمَّا إذا التزم المجتمع بالإسلام منهجاً يعتمده في حياته ورسالةً يحملها في المعترك الحضاري فإنه يحمي نفسه ضدَّ الكوارث التي تتَّجه إلى أفكاره لضربها، ويحقِّق الانسجام المتناغم بين مبادئه الفطريَّة الإنسانيَّة وحقائقه الدِّينيَّة وخططه وتنظيماته الحضاريَّة، ممَّا يكسبه أمناً فكرياً ينشر آثاره على جوانب حياته كلّها .

والمملكة العربيَّة السعوديَّة حينما تبنَّت الإسلام رسالةً للدَّولة والمجتمع؛ في سياستها التعليميَّة التي تصوغ عقول الناشئة، وفي أحكامها القضائيَّة التي بها تقام الحقوق بين مقضيٍّ عليهم ومقضيٍّ لهم، وفي نظامها العام الذي حاولت استبعاد ما يخالف الشريعة فيه حقَّقتْ بذلك أمناً فكريّاً للمجتمع السُّعودي قوامه عقيدةٌ صافيةٌ، وقناعةٌ بالمنهج العلمي، وحصانةٌ ضدَّ الأفكار الضارَّة، وتفاعلٌ متبادلٌ بين الجمهور وعلماء الشريعة، وولاة الأمر، حيث تتحد الروح الوطنيَّة بالولاء الدِّيني، وتمتشج الجهود العلميَّة والعمليَّة لخدمة المجتمع وتحقيق المصالح بالتعبُّد والإيمان والخلافة الإنسانيَّة المكلَّف بها الإنسان في هذه الأرض.

وممَّا ينبغي وعيه أنَّ الأمن الفكري في الإطار الإسلامي ليس مجرَّد قضايا فلسفيَّة أو تجريدات فكريَّة تعني قطاعاً من المثقَّفين المهتمِّين بمسائل ذهنيَّة بعيدة عن الواقع.

إنَّ الأمن الفكري في إطار الإسلام هو قاعدة الوجود الصَّحيح للفرد والمجتمع المسلم سلامةً في العقيدة، وزكاءً وسمواً للسُّلوك، وإنسانيَّةً للعلاقات الاجتماعيَّة.

ولهذا نجد أنَّ وعي المسؤولين في المجتمع السّعودي -وبالذات المعنيِّين مباشرةً بقضيَّة الأمن بهذه المسألة- يحفزهم الاهتمام بالأمن الفكري في المملكة للتوعية بضرورة الاختراقات الإعلاميَّة والثقافيَّة التي يخشى من إضرارها به ومن ثَمَّ تدميرها للمجتمع.

سأتناول بعض النقاط التي تجلي شيئاً من صورة الأمن الفكري في المملكة بسبب تطبيقها للشريعة الإسلاميَّة على النحو التالي:

* عرفنا فيما سبق أنَّ السياسة التعليميَّة في المملكة التزمتْ بالمنهج السَّلفي الذي عماده التلقي من القرآن الكريم والسنة المشرَّفة وفق فهم صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان .

وكان مقتضى هذا الالتزام قيام مناهج التعليم بغرس العقيدة الصَّافية في نفوس الناشئة بكل تفصيلاتها المتعلِّقة بالله وأسمائه وصفاته وقضائه وقدره ، وبالكون والإنسان ، وبالنبوَّة والغيبيَّات .

وفي المقابل استبعدتْ كلَّ النظريَّات الإلحاديَّة المستهترة بالغيبيّات والمشكِّكة في الذات الإلهيَّة ، والمنكرة للحياة الآخرة ، والمتخرِّصة التي تنسج تصوُّرات وهميَّةً عن أصل الكون والإنسان مخالفةً لما قرَّره الوحي ، فلم تدرس في المراحِل الدنيا ، وحاولت وزارة المعارف تطهير المناهج من المزالق اللَّفظيَّة التي قد ترد في بعض مقرّرات العلوم التجريبيَّة كالفيزياء والكيمياء والأحياء .

وقد أثمر هذا المسلك التعليمي الإسلامي ثماراً طيِّبةً تبلورتْ في سلامة عقول الناشئة ، من التشوُّشات الفكريَّة الخطيرة على الاعتقاد ، وفي وضوح التصوّر الإسلامي لديهم ، وتركزه في أذهانهم ونفوسهم ، وفي قوَّة الطَّرد التي زرعتها هذه العقيدة في عقولهم للشبه العقديَّة التي قد ترد عليهم من خلال كتاب يقرأ ، أو وسيلة إعلاميَّة ونحو ذلك ، حيث تبدو تلك الشبه وإن تزيَّتْ بزيِّ النظريَّات العلميَّة لدى هذه العقليَّة أساطير خرافيَّة نسجتها عقولٌ تائهةٌ عن الحقائق .

ويمكن أن نقارن ببعض مجتمعات المسلمين التي صيغتْ سياستها التعليميَّة تحت تأثيرات تغريبيَّة فحُشيتْ مناهجها بمصادمات للعقيدة الإسلاميَّة تساق بصفتها حقائق تاريخيَّة وكونيَّة مع خفوت للتصوُّر الإسلامي الصحيح :

« التفكيرات الغيبيَّة هي سبب تخلُّف المجتمعات » .
« الإيمان بالقوى الغيبيَّة تنكُّر للقوانين العلميَّة » .
« القول بالخلق المستقل للإنسان أسطورةٌ لم يَعُدْ يقبلها العلم الحديث » .

. . . إلى آخر مثل هذه الألغام التي تطمس فِطَر الشباب وتلوِّث أذهانهم، فتخرج مزعزعةَ الفكر، سقيمة التفكير، مشوَّهة الاعتقاد، مضطربة الموقف بين دينها الذي تحن إليه نفسيّاً، وتتشكَّك فيه عقديّاً، وبين فكر عصرها الذي تنزع إليه بجاذبيَّة تعلمها له، وتشقى به لمصادمته دينها .

إنَّ الأمان الفكري لا يتحقَّق إلا بعقيدة صافية صحيحة تتبلور في العقل، وتتركَّز في النفس، وتتضح جوانبها كلها للفكر، وهنا :

- يتحقق السَّلام بين المبادئ الفطريَّة الراسخة في كيان الإنسان؛ عبوديَّةً لله، وشعوراً بإنسانيَّته، وتسامياً نحو مكارم الأخلاق، وبين هذه العقيدة التي لا تكون صحيحةً إلا إذا جاءتْ مطابقةً لتلك المبادئ .

وهذا ما يتحقق بالعقيدة الإسلاميَّة التي أوحى بها خالق الإنسان وفاطره .

- كما يتحقق السَّلام بين هذه العقيدة وحركة الإنسان في الحياة؛ لأن هذه العقيدة إذا رسختْ في شخصيَّته كيَّفتْ حياته وفق مقتضاها فحصل الانسجام .

أمَّا إذا كانت العقيدة باهتةً أو مغمورةً بمسالك فكريَّة تقتضي توجيهاً للحياة يخالفها فإنَّ الشقاء نصيب صاحبها، وإلا فكيف حال شخص يؤمن بأنَّ الدنيا دار ممرٍّ والآخرة هي دار القرار وفيها الجزاء الأكبر والمصير النهائي لآباد السنين، ولكنه انسياقاً مع تلك المسالك الفكريَّة لا يتجاوز

في خططه، ولا في غاياته العلميَّة والسُّلوكيَّة دائرة هذه الدنيا المحدودة معرضاً عن تلك الحياة التي يؤمن بها نظريّاً، ألا يكون هذا الشخص في محنة ماحقة ملازمة له في كل حال ومع كلِّ لحظة تفكير وأمام كل خطة أو تصوُّر يضعه لنفسه أو لمجتمعه .

إنَّ كثيراً من الذين يعيشون التذبذب العقدي والأزمات الفكريَّة سواء كانوا على مستوى الشباب المتعلم أو على مستوى المثقَّفين إنما هم- أو كثيرٌ منهم على الأقل- ضحايا مناهج تعليم تفقد التصور الإسلامي السَّليم الذي يصوغ الشخصيَّة الفكريَّة صياغةً متكاملةً تنضجه ليتعامل مع الأفكار بعد ذلك من خلال قاعدة عقديَّة راسخة واضحة .

إنهم ضحايا مناهج تعليم زرعتْ في نفوسهم عناصر سامةً، فلم تستطع نفوسهم - نتيجة فقدانها التصوُّر الصحيح- أن تطرد هذه العناصر وتلفظها، ولم تستطع هذه السموم أن تقضي على كل بذر الفطرة وبقايا الإيمان التقليدي في نفوسهم فتحوِّلهم إلى كفر مسخ مبتور الصلة بدينه وبأمته وبفطرته[1]، ومن ثم ظلُّوا ضحايا صراعٍ نفسيٍّ وفكريٍّ لا يريم .

* كذلك فقد اقتضى تطبيق المملكة للشريعة الإسلاميَّة التي من قواعدها سدُّ الذرائع المفضية إلى الشرك والكفر والضلال عدم السَّماح لأهل الكفر والضلال بإقامة أوكارهم التي من خلالها يبثُّون سمومهم، ويجتذبون السذج إلى موائدهم المأفونة، كما فعلوا في البلاد الأخرى التي فتحتْ لهم الأبواب لإنشاء محافلهم الماسونيَّة ونواديهم، ومراكزهم كالروتاري والليونز وحركات

(١) حتى الذين تمسخهم إلى درجة الكفر الصراح تبقى في طوايا نفوسهم عناصر مقلقة لحياتهم مصدرها ذلك الدين الذي هربوا منه، يقول الطاهر لبيب: «إن صديقاً له شيوعياً عربياً قال له: إني على الرغم من أني أحارب الدين ولكنه قائمٌ في حسِّي، فأنا إذا ركبتُ طائرةً دعوتُ ببعض الأدعية». انظر: الإنتلجنسيا العربية، تحرير سعد الدين إبراهيم، ص ٣٥، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٨٨م، .

التنصير ومدارس التغريب ونحوها، وكمثل التبادل الثقافي الذي يتحوَّل إلى استلاب ثقافيٍّ للمجتمع المسلم أمام المجتمع الآخر الذي له أهدافه الواضحة، وتحفزه الحيُّ لتحقيق هذه الأهداف بعكس مقابله .

لقد قامت هذه النوادي والحركات والمدارس على اختلاف أهدافها بجهود خطيرة في كثير من مجتمعات المسلمين تمثَّلتْ أوَّل ما تمثَّلتْ في اختراق أفكارَ كثيرٍ من المثقَّفينَ والقادة والشباب، فانحرفتْ بها من الولاء لدينها ومجتمعاتها إلى ولاء تائه أو ولاء لأعداء أمتها، ومن الإيمان بقيم دينها وأمتها إلى اللِّهاث وراء شعاراتٍ من صنع أعدائها مما لا يستقيم في بيئاتهم .

إنَّ هذه المنظمات والحركات والمدارس المشبوهة أصبحتْ في كثير من بلاد المسلمين كأوكار المخدِّرات التي تتصيَّد البريء لتوقعه في فخِّها فلاً يستطيع الانفلات منها بعد ذلك، ولذلك يتحاماها المخلصون لأوطانهم المنتمون لدينهم كما يتحامون هذه الأوكار، وكما يتحامون مواقع الألغام محاذرين أن يصيبهم من وبائها عطبٌ مدنِّسٌ .

إنَّ خلوَّ المملكة من هذه المنظَّمات والحركات والمدارس من أعظم ميزاتها ومن أبلغ المؤثِّرات التي حفظتْ لها أمنها الفكري وسلامتها من الزَّيغ عن الولاء للدِّين أو الوطن حتى إنَّ أيَّ بادرة تشمُّ منها رائحة هذا الزيغ لدى متأثِّر بالتغريب، أو مقلد لأهل التيه المستغربين من الشعراء أو المثقَّفين تبدو -هذه البادرة- نشازاً تستوحش حتى منه نفوس العامَّة، وتنفعل بسببه القلوب ويكثر التساؤل حولها حتى تموت .

* ومن أهمِّ وأبرز الجوانب التي لها أثرٌ في تحقيق الأمن الفكري الذي نحن بصدده ما أكدنا مراراً وهو اعتماد الوحي الإلهي في قضايا الغيب

والاستغناء به عن تجديف العقل القاصر فيما لا طاقة له به .

إنَّ من أكبر عوامل تدمير العقل الإنساني وإفساد نوره العقلي الذي به يفهم الأشياء ويحلِّلها ويحكم عليها، إقحامَه في ميدان الغيبيات ليبحث ويقرِّر فيها .

ولهذا نجد أنَّ المجتمعات البشريَّة خلال تاريخها إذا اتجهتْ العقول فيها إلى البحث في ميدان الغيبيات ووضع التصوُّرات عنه كان ذلك أمارةَ تدهورها الحضاري وشللها الفكري وتيهها في الحياة.

لقد ظلَّ اليونان قروناً متطاولةً يعيش في وهم الخرافات والأساطير التي يصوغها له فلاسفته عن الوجود حتى أدرك الغربيون أخيراً : « أنَّ العقل سيظلُّ صاغراً متسوّلاً أمام ساحة تلك القوَّة الخفيَّة الكبرى (الغيب) لا يستطيع أن يطأ حماها »[1]، وأنَّ الفلسفة ما هي إلا خرافات وحيراتٌ ذهنيَّةٌ تشغل الناس عن الاهتمام بما هو أجدى في حياتهم ؛ ولهذا خرج عديدٌ من الكتب التي تسخر من الفلسفة واصفةً إيَّاها بالعجز والإفلاس واعتماد التوهُّم ، ووُجِّه العقل لدى الغربيين في عصرهم الحديث نحو مجال مهيَّأ للعمل فيه وهو ميدان الكون المادي وتأمل سنن الله في المجتمع البشري، فتغيَّرت الحالة لدى الغربيين وقامت لهم حضارةٌ ماديَّةٌ شامخةٌ .

وفي الإسلام حينما جاء الإسلام وجَّه العقل المسلم لسلوك المنهجيَّة السديدة في بناء الحياة وإقامة الحضارة استمداداً للعقيدة من عالم الغيب والشهادة، وللشريعة من خالقه الذي حدَّد هدف وجوده، ويعلم طبيعته وحاجاته، وإعمالاً للعقل في فقه الوحي من جهةٍ، وفي التعامل مع الكون المحيط به لتحقيق الخلافة في الأرض من جهةٍ أخرى .

---

(١) مبادئ الفلسفة، أ. س رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص ٢٥ ، دار الكتاب العربي، بيروت .

وباستيعاب الصحابة وتابعيهم بإحسان لهذا المنهج القويم تحقَّق الظهور الحضاري « الإنساني الخلقي العلمي » ولكنّ دخول المؤثرات الفكريَّة ومنها الفلسفة الميتافيزيقيَّة، وانشغال كثير من علماء المسلمين بها، ثم اشتغال المجتمع المسلم كلِّه بقضاياها كان من أسباب التراجع الحضاري للمسلمين، وفساد حياتهم الفكريَّة والاجتماعيَّة .

ولقد حذَّر علماء السَّلف من هذه الفلسفة التأمليَّة المسمَّاة بـ « الفلسفة وبعلم الكلام » وبيَّنوا أنها تمثِّل منهجيَّةً مخالفةً للمنهجيَّة الإسلاميَّة في العلاقة بين مصدري المعرفة : الوحي والعقل أمام ميداني الغيب والشهادة، ووقع ما حذروا منه .

المملكة العربيَّة السعوديَّة بالتزامها منهج الإسلام -وبالذات في سياستها التعليميَّة- استبعدتْ تدريس تلك الفلسفات خاصةً في المراحل ما دون الجامعيَّة، ووقت عقول ناشئتها من أوهام الفلاسفة وآرائهم المتناقضة في قضايا الوجود التي جاء الوحي فيها بالحقِّ الصراح، وهي الأوهام التي تحشى بها أذهان كثير من أبناء المسلمين في مجتمعات كثيرة منسوبة إلى أصحابها القدماء والمحدثين بهالةٍ من الإبراز لهم بصفتهم النجوم اللامعة في التاريخ البشري مع إهمال أو عرض باهتٍ للتصورُ الإسلامي في هذا المجال، وغالباً ما يقدَّم لهم التصورُ الإسلاميَ من خلال مقولات علماء الكلام حسب المذهب المتَّبع في ذلك المجتمع .

ولهذا تجد أنَّ هذا الشاب ينشأ مُبَلْبَلَ الفكر في أمر عقيدته، سهل الانحراف عنها، ويثمر ذلك هامشيَّةً لهذه العقيدة في حياته بحيث توجّه المصلحة الآنيَّة، والمنافع العاجلة حركته في الحياة وينساق بسهولة للجواذب التي تصطاد الناس لتوثقهم في حبالها، منظَّمات أو أحزاب أو تيَّارات فكريَّة حتى ولو كانت ظاهرة العداء لدينه .

لقد وعتْ المملكة بحسِّها الإسلامي هذا الأمر فغرستْ العقيدة مستمدَّةً من نصوص القرآن والسنة بوضوحها وقطعيَّتها وشمول عرضها في عقول الناشئة ونفوسهم، وعلَّمتهم أساسيات الأحكام الشرعيَّة في عباداتهم ومعاملاتهم ومنهج تطبيق الإسلام في حياتهم ثم وجَّهتْ عقولهم بهذا الزاد الجليل نحو ميادين العلم النافع التي تنتج فيها العقول من جهة، وتحتاجها الأمة والمجتمع من جهة ثانية، وهي ميادين :

- الأحكام الشرعيَّة بفقه النصوص وفق الأصول العلميَّة .
- العلوم الإنسانيَّة بالتأمُّل في سنن الله في الأنفس والمجتمع البشري .
- المعارف التقنيَّة بالنظر في الكون واستثمار خيراته .

وكدليل تطبيقي على السَّلامة الفكريَّة التي يكسبها هذا المنهج أتباعه تجد أنَّ العالم من أي الميادين الثلاثة المذكورة في مجتمعنا يعيش قريباً من الناس بحكم اشتراكه معهم في العقيدة والعبادة والسُّلوك الخلقي، متفاعلاً مع همومهم لأنها ميدان نشاطه الذي توجَّه إليه، وتجده راضياً عن جهوده هذه معهم، فهو منسجمٌ مع أفكاره، يبحث وهو منسجمٌ مع الناس، وهو يشيع بينهم هذه الأفكار .

وهذا خلاف ما عليه أصحاب الفلسفات التي أصبحتْ الآن تجتاح ميادين الأدب بفنونه حيث يعيشون بعيداً عن الناس منعزلين مع أفكارهم أشقياء بهذه الأفكار، وأشقياء في موقعهم بين الناس .

* أيضاً فإن تطبيق المملكة للشريعة حقَّق الأمن الفكري للناس من حيثيَّة دقيقة لكنها مهمَّةٌ تتمثَّل في أنَّ الدولة التي لا تطبِّق الإسلام وهي قائمةٌ في مجتمعٍ مسلمٍ لا تستطيع دائماً التصريح بلادينيَّتها، إذْ تأتي ظروفٌ تحتاج فيها

إلى إرضاء الجمهور واستجلاب ولائه الوطني ، وهنا المأزق .

- فالجمهور المسلم رضاه المحقّق في أن يحكم بالإسلام وأن تبني الدولة مواقفها من خلاله ، وأن يكون انتماء رجال الدولة لتعاليمه .
- والدولة في بنيتها الثابتة لا دينيَّة .

والمخرج الذي تلجأ إليه بعض هذه الدول من هذا التناقض هو التغطية على أهوائها وسوءاتها المخالفة للدِّين وعلمانيَّتها من خلال تلبيس الحق بالباطل وإلباس أنظمتها ثياباً إسلاميَّةً ، وإيجاد المسوغات التي تسوغ كل خطأ تسويغاً شرعيّاً .

وهذا بلا شكٍّ من أسباب إحداث الغبش الفكري وتلويث عقول الناس وتصوُّراتهم المتعلِّقة بالدين ، وهو جدٌّ خطيرٌ لأنه يُذيب على طول المدى حقيقة الدين من قلوب الناس ، ولأنه من زاويةٍ أخرى يجعل الناس في ظل هذه الدولة في حالة فزعٍ فكريٍّ مما تطرحه عبر تصريحات مسؤوليها وصحافتها ووسائل إعلامها بين تصديقه وتكذيبه مما يحدث البَلْبَلَة والاضطراب .

المملكة بحكم تطبيقها للإسلام وولائها لتاريخه لا تحتاج إلى سلوك هذا المسلك الوخيم ، وبحكم وعي مسؤوليها وعلمائها بخطورة هذا التزييف واعتباره جراءةً على الله وتلاعباً بدينه وبيعه بهذه المكاسب السياسيَّة الزهيدة فإنهم ينأون بأنفسهم عن مواقعته واستغلال نتائجه .

يقول الملك عبد العزيز - رحمه الله - : « متى اتَّفق العلماء والأمراء على أن يستر كلٌّ منهم على الآخر فيمنح الأمير ، والعلماء يدلِّسون ويتملَّقون ، ضاعتْ أمور الناس ، وفقدنا - والعياذ بالله - الآخرة والأولى »(١) .

---

(١) السعوديُّون والحلّ الإسلامي ، ص ٣٦ .

وثمرة هذا الموقف السَّديد هو بقاء حقائق الدّين في معتقداته وأحكامه كما قرَّرتها نصوص الشريعة ونظَّرها العلماء، والدولة والمجتمع كلُّه بسائر أفراده مطلوبٌ منهم « من خالقهم أوَّلاً ومن الدولة للمجتمع، ومن المجتمع للدولة ثانياً » أن يتمثَّلوا هذه المعتقدات والأحكام في مختلف شؤون الحياة، فإن ألجأت الضرورة أو جر الكسل والضعف البشري أحداً على ضعف الالتزام بشيء من مطلوبات الدين فإنه لا يتمادى، سواءٌ كان فرداً عادياً أو مسؤولاً ليضفي على كسله الشرعيَّة بتحليل محرَّم فَعَلَهُ، أو تجويز ترك واجب تركه، لأنَّ مما تعلَّمه الجميع في العلم الشرعي أن فعل الذنب وترك الواجب معصيةٌ، أما تحليل الحرام المقطوع بحرمته وتحريم الحلال المقطوع بحلِّه فهو كفرٌ والعياذ بالله .

* وللصَّفاء العقدي الذي حقَّقه التعليم في مقرّرات العلوم الشرعيَّة فقد وَقَى الله المجتمع السعودي -بدرجة عالية- كثيراً من المؤثِّرات الهادمة للفكر والسُّلوك التي ظهرتْ آثارها في كثيرٍ من المَجتمعات التي فقد أهلها أو ضعف لديهم الفهم السَّليم للإسلام .

- لقد وَقَى الله مجتمعنا من التضليل الفكري المتمثِّل بترويج الكفر والعقائد الفاسدة والأساطير الخرافيَّة التي يشيعها أهل الدجل والشعوذة، أو رجال الأدب والفنِّ ونحوهم ممن استغلُّوا نقص الوعي الدِّيني لدى الناس وحرية الإفساد في مجتمعاتهم فعاثوا فساداً فكريّاً أصبح هو نموذج التَّفكير الأمثل في المجتمع الذي يتباهى به الناس، أو على الأقل الذي يقبله الناس لكثرة شيوعه .

في مجتمعنا لا يجد هذا التضليل سبيله إلى الرَّواج والسِّيادة، فهو مرفوضٌ نظامياً بحكم مصادمته للإسلام الذي حرَّم الدجل والشعوذة والسِّحر، والاستهزاء بالدين وترويج الكفر، وإذا تدسَّس شيءٌ من ذلك

إلى المجتمع فإنَّ الناس يرفضونه ويمارسون ضغطاً اجتماعيّاً ضدّه ينتهي به إلى التلاشي .

- أيضاً حَمى الله المجتمع السُّعودي من بذرة التكفير التي تثمر « الهوس السُّلوكي » المتمثِّل بالتعدِّي على حقِّ السّلطة في معاقبة المجرمين بمباشرة القيام بها فيما هو حقُّها ، أو بتكفير المجتمع ومن ثمَّ استحلال دمه وماله والهجوم المسلَّح عليه ، أو بالسَّخط على الدولة والتعبير عن ذلك بتدمير مؤسساتها ، و نحو ذلك من الأفعال .

لقد وقع في المملكة تفجيران شهيران أحدهما في العليا بالرِّياض والثاني بالخبر . أمَّا الثاني فلم تعلن حتى كتابة هذه السُّطور نتائج التحقيق بشأنه .

وأمَّا الأول فقد كشفت التحقيقات ، والحديث المباشر لمرتكبيه أنَّ الأفكار التي تشبَّعوا بها واندفعوا بسببها لتلك التصرُّفات كانتْ مستمدَّةً من خارج المملكة ومن كتب وأشخاص مَوْتُورين ضدَّ المجتمع السعودي فانخدع بهم أولئك الفتية .

والأهم في هذه النقطة هو موقف المجتمع السُّعودي كله بعلمائه وأئمَّة مساجده ومثقَّفيه وعامَّته المستنكر لذلك الفعل ، والذي تشعر أن عقله وحسَّه الديني وذوقه الإنساني كلّها رافضةٌ له وهم يتحدَّثون عنه .

والقيمة هنا تبرز إذا قارنَّا هذا الموقف بمواقف الآخرين في مجتمعات أخرى حينما يحدث تصرُّفٌ من هذا النوع يكون الذي فعله معلناً التزامه الإسلامي أو يُنسبُ إلى الإسلاميِّين وإن لم يعرف فاعله الحقيقي(١) ، فإنك تجد

---

(١) أثبتت التحقيقات في حوادث عنف منوعة أنَّ جهات غير مسلمة وراءها بهدف إشعال الفتنة بين حكومات الدول الإسلاميَّة والإسلاميِّين فيها ، وقد ذكرَتْ « صحيفةً الشرق الأوسط » أن وثائق تركيَّةً أثبتتْ أنَّ الموساد الإسرائيلي هو الذي اغتال الكاتب العلماني التركي الملحد لإغراء الحكومة بمطاردة الإسلاميِّين . حتى لا تكون فتنة ، عمر عبيد حسنة ، ص ١٣٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ.

من كثير من الناس حتى من العلماء تفهُّماً لذلك التصرُّف وربما تشجيعاً له بأنه «عنف ألجأت هؤلاء إليه الدولةُ نفسها » أو أنَّ الدولة فقدتْ حرمتها الشرعيَّة بلادينيَّتها ونحو ذلك من المسوِّغات التي تعلن بعضها الصحف ، أو لا تعلن ، ولكنها تتداول بين الناس .

إنَّ فكر العنف المهووس يفقد في المجتمع السعودي بذوره ومسوغاته معاً .

فلا العقيدة الإسلاميَّة التي عمادها منهج أهل السنة والجماعة تفتح المجال لشيءٍ من ذلك ، بل هي ضدّ الفتنة وإشاعة الفوضى وإحداث التفرق وفساد القلوب .

ولا نظام الدولة العام وموقفها يسوغ هذا المسلك ؛ إذ النظام مبنيٌّ على الشريعة الإسلاميَّة وموقف المملكة القائم هو رعاية الدعوة الإسلاميَّة في الداخل والخارج .

أما التصوُّر التطبيقي فإنه لا يسوِّغ أي تصرّف من هذا القبيل ، وهذا ما تنصُّ عليه عقيدة أهل السنة من « حرمة الخروج على الإمام حتى لو كان فاجراً ما دام مقيماً الصَّلاة للناس »[1] .

فلا ثغرة إذنْ ليداخل هذا التفكيرُ « فكرُ العنف الأهوج » عقلَ المسلم في المجتمع السعودي إلا أن يكون نقصاً في الشخص ، أو عمليَّة غسيلِ دماغٍ ونحو ذلك ، فهذه أمورٌ فرديَّةٌ خارجةٌ عما نحن بصدده .

* قد يتساءل بعض من لا يدرك المصالح الشَّرعيَّة في الحدود التي فرض الله على المجتمع المسلم القيام بها قائلاً : بما أن المملكة تطبق الشريعة الإسلاميَّة

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، بتحقيق التركي والأرناؤوط ، ٢/ ٥٤٠ ، مصدر سابق .

فهي تطبّق حدّ الردة على من يتنكر للإسلام بإعلان خروجه منه، أو السخرية بالله أو بالرسول أو بشريعة الله، ألا يعدُّ قتل المرتد -كما يتصور هؤلاء- إخلالاً بالأمن الفكري للناس، ومصادرةً لحرية القول والدعوة إلى كل ما يراه الإنسان؟

وإجابة هذا التساؤل تتمثّل في أمرين :

الأول : أن التدين وفق المنظور الشرعي مبناه الاختيار ، فالإسلام دعوةٌ تتجه للناس ليدينوا به طوعاً وبناءً على قناعة منبثقة من دواخلهم ، ولا قيمة لإسلامٍ ظاهريٍّ واقعٍ تحت ضغط معيَّنٍ بينما الباطن مطمئنٌّ بالكفر منشرحٌ له، فلا إكراه في الدين ؛ ولهذا كان منهج المسلمين في فتوحاتهم دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن لم يستجب هؤلاء لم يُرغموا على الإسلام في ظلِّ دولته وتحت سلطة المسلمين وإنما يبقون على ديانتهم -يهوديةً أو نصرانيَّةً- مَحفُوظِي الذِّمَام، على أن تؤخذ منهم الجزية .

الثاني : أن الإسلام ليس مجرَّد فكرة فلسفيَّة خاصة بفئة محدودة وليس رؤيةً اجتهاديَّةً في أمرٍ مؤقَّتٍ توازيه في المجتمع رؤًى مساويةٌ، وليس الإسلام أيضاً ديانةً قلبيَّةً فرديَّةً .

كلا إنَّ الإسلام « في الدولة المسلمة » هو خيار المجتمع كله الذي التزم به فكراً ونظام حياة، والمرتد عن الإسلام بعد الدخول فيه يكون بارتداده مسيئاً إلى الإسلام، وداعياً للتفلُّت منه، وساخراً بأهله وبهذا يصبح خائناً للمجتمع كله، ومعادياً له، وساعياً لتحطيم نظامه وحضارته، فهو جريمةٌ بحقِّ الأمة والمجتمع .

ولهذا فإنه لا يمارس هذا الفعل إلا شخصٌ أو أشخاصٌ يقصدون بالأمة شراً أو أنهم أجراءُ لأعداء الأمة وللدولة المسلمة[1]، وقد أخبر الله عن هذا الصنف بقوله : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].

وخيانة الوطن، والعمالة للأعداء، وتَهْديمُ النظام العام تعدُّ -كلها- جرائم كبرى عالمياً، والارتداد عن الدين في دولة الإسلام مثلها، يقول الأستاذ محمد المبارك في حديثه عن هذا الحد : «ولا تقبل الدولة إعلان الخروج عن العقيدة الإسلاميَّة، وتعتبر هذا العمل تمرُّداً على نظام الدولة، ودعوةً للانقضاض عليها، وجزاء المرتد هو جزاء كل مُعْلِن لتهديم نظام دولة، هو القتل إذا أعلن ذلك، أمَّا إذا اقتصر الأمر على عدم الاعتقاد في نفسه دون الإعلان فما عليه من سبيل؛ لأن الدولة لا تحاسب على السَّرائر والبواطن، وإنما تحاسب على ما يظهر ويعلن.

إنَّ الدعوة إلى عقيدة أخرى مخالفة للعقيدة الإسلاميَّة من حيث الأساس، وإلى إزالة الصفة الإسلاميَّة للدولة نتيجة ذلك لا يسمح به الإسلام بداهةً؛ لأنه حينئذ يسمح بإزالة وجوده ويحكم على نفسه بالزوال، بل يدعو إلى مكافحة هذه الظاهرة حين تبدو كل المكافحة»[3]، وفي الحديث الذي رواه البخاري قَرَنَ الردة عن الدين بالخروج على الجماعة؛ لأنه كما يقول القرطبي

---

(١) حتى لو افترض أن الشخص زاغ قلبه عن الحق لشبهه عارضة فإنه لا ينفك عن أحد أمرين :
- أن يخفي هذا الزيغ في طوايا ضميره مكيفا ظاهر حياته مع وضعية المجتمع المسلم فهذا مصون الدم والمال، وحسابه على الله.
- أو أن يعلن زيغه وكفره بالدين متعاليا بهذا الزيغ على الحق الذي كفر به فيندرج فيما ذكر آنفا.

(٢) الآية رقم (٧٢) من سورة آل عمران.

(٣) نظام الإسلام - الحكم والدولة، لمحمد المبارك، ص ١١٧، مصدر سابق.

رحمه الله: « إذا ارتد فارق جماعة المسلمين »[1].

وعليه فإن تنفيذ حد الرِّدَّة في الدولة المسلمة كما حدث في المملكة من أبرز التطبيقات التي تسهم في حفظ النظام العام، وحماية عقائد الناس، وتحقق الأمن الفكري باختفاء أهل الوساوس والتشكيك أو ذهابهم بعيداً عن المجتمع المسلم إلى مجتمعات أخرى تقبل هذه الوساوس.

وهذا الحدُّ من أندر الحدود إقامةً في المملكة لندرة اكتمال موجباته، وهو الوضع الطَّبيعي في المجتمع الإسلامي أقصد ندرته؛ لأن الإسلام دين الفطرة والعقل فلا يخرج من دخله إلا شذوذا ولبشاعة الجرم ورفض السّاحة الاجتماعيَّة لفاعله أوّلاً، ولصرامة الحدِّ ثانياً.

والحكم هذا ليس خاصاً بحدِّ الردَّة، ولكنه عامٌ في الحدود الشرعيَّة كلها، وهي قضيَّةٌ يغفل عنها كثيرٌ من الرافضين لتطبيق الشريعة الإسلاميَّة، إذ يقوم في أذهانهم ارتباطٌ بين الحدود في صورتها الشرعيَّة وبين الجرائم في انتشارها في المجتمعات الكافرة أو التي انفلتَتْ من تطبيق الشريعة فلا يتصوَّرون إلا آلاف الرقاب والأيدي تقطع، والمجتمع وقد أصبح مشلولاً.

وهو تصوّرٌ أبله يربط بين وضعين مختلفين، فالحدود الشرعيَّة إنما تقام في المجتمع المسلم الذي تقوم تصوُّرات أفراده وحركاتهم على وعي بموقع الحدود في خريطة شريعتهم من جهة، وفي خريطة حياتهم من جهة أخرى فيتباعدون عن موجباتها حتى تبقى مجرَّد زواجر سلطوية[2] نظريّة أمام عموم

(١) انظر: الحديث في صحيح البخاري، كتاب الديات، الباب السادس، وباب قول الله تعالى ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، وانظر قول القرطبي في فتح الباري ١٢/ ٢٠٢.

(٢) من تعريفات الحدود لدى العلماء أنها زواجر شرعها الله لمنع عباده من ارتكاب محارمه، وأصل معنى=

المجتمع إلا شواذ ينزلقون من هذا المستوى فيتنزل عليهم التطبيق .

إنَّ الجريمة السلوكيَّة والخرق العملي للنظام ومصادمة الخير وأهله إنما ينبع من نفس شرِّيرة استلهمتْ الفجور وغرقتْ في الشرور ؛ إما من تربية بيئيَّة أو تعليمٍ مدرسيٍّ أو إعلاميٍّ أو غيرها من القنوات الكثيرة في عالم اليوم ؛ أيْ أن الإجرام وليد فساد الذوق الإنساني وانحراف الفكر وتجاهل الحدود الشرعيَّة التي وضعها الخالق لحماية المجتمع من الإجرام .

لذا فإن التربية على الإيمان الواعي بفلسفة الحدود في الإسلام وتفهيم الناس لأبعادها خاصَّةً في ظروف تطبيقها يسهم إسهاماً كبيراً في الارتقاء بالذوق الإنساني نحو توقّي ما يصل بالإنسان إلى مواجهة الحدود في استقامة الفكر وحفظه من الانحراف .

يقول محمد حسين الذهبي - رحمه الله - : « فالحدود بفلسفتها ونظامها ومناهجها وضوابطها ، وكل ما يتصل بها مما يدخل في إطار الفكر والنَّظر متى دخلتْ حقل التربية الإسلاميَّة والتوجيه الإسلامي للناشئة ، وأصبحتْ خيوطها أساسيَّة في النسيج الذي تتكوَّن منه عقولهم وضمائرهم ، وتنفعل به وُجْدَانَاتهم وعواطفهم ، متى دخلتْ « الحدود » حقل التربية من هذا الوجه وأصبحتْ جزءاً من المناهج التعليميَّة لناشئة المسلمين ، يتمثَّلونها وهم في سنٍّ غضَّة من البراءة وسلامة الفطرة فقد ركزنا بذلك في هذه النفوس المستجيبَة للحقِّ والخير بفطرتها أعظم ركيزة تتولَّد عنها حالٌ نفسيَّةٌ خاصَّةٌ يسدُّ فيها الوازع المانع عن مقارفة هذه الآثام التي تدور الحدود عليها ! .

= الحد هو ما يحجز بين شيئين ، فيمنع اختلاطهما .
انظر فتح الباري ١٢/ ٥٨ ، والموسوعة الفقهية « الكويتية » ١٧/ ١٣١ .

إنَّ هذا الذي تحقِّقه « الحدود » تربوياً وتوجيهاً ، أعمق وأبعد في المنع عن جرائم الحدود وغيرها من إقامة شرطيٍّ على رأس كلِّ مواطن يحول بينه وبين هذه الجرائم ! فالضمير الذي يحوي ضمن مكوِّناته صورةً كاملةً للحدود بأبعادها الدينيَّة والنفسيَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة هو حارسٌ أكثر أمانةً وصدقاً وقدرةً على المنع من أيَّة رقابة أو حراسة خارجيَّة ! ويكفي أنه بمنأى عن المساومة والتستُّر والرشوة .

الحدود في إطارها التربوي عاصمٌ قويٌّ يمنع جمهرة الناشئة حينما يصبحون رجالاً ونساءً من مواقعة الحمى ؛ لأنهم يحملون داخلهم جهاز الضمير الذي يقف بالمرصاد لمن يهمُّ بمثل هَذه المواقعة »[1] .

والخلاصة أنَّ الحدود الشرعيَّة بما فيها حدُّ الرِّدة إذا غُرستْ فلسفتها في وعي الناشئ، ثم عاش الناس على هذا الوعي مع وعي موقع الجريمة في المجتمع شرعيّاً وإنسانيّاً ، فإن هذا يمثل سياج صيانة لفكر أفراد المجتمع ووجداناتهم من أمرين :

- من الانخداع بإغراءات الشيطان باستحسان الجريمة ، ومن ثمَّ مقارفتها .
- ومن تلويث جوِّ المجتمع ككلٍّ بنشر الفساد ومضايقة أهل الصلاح والاستقامة الذين يمثِّلون سواد المجتمع الإسلامي .

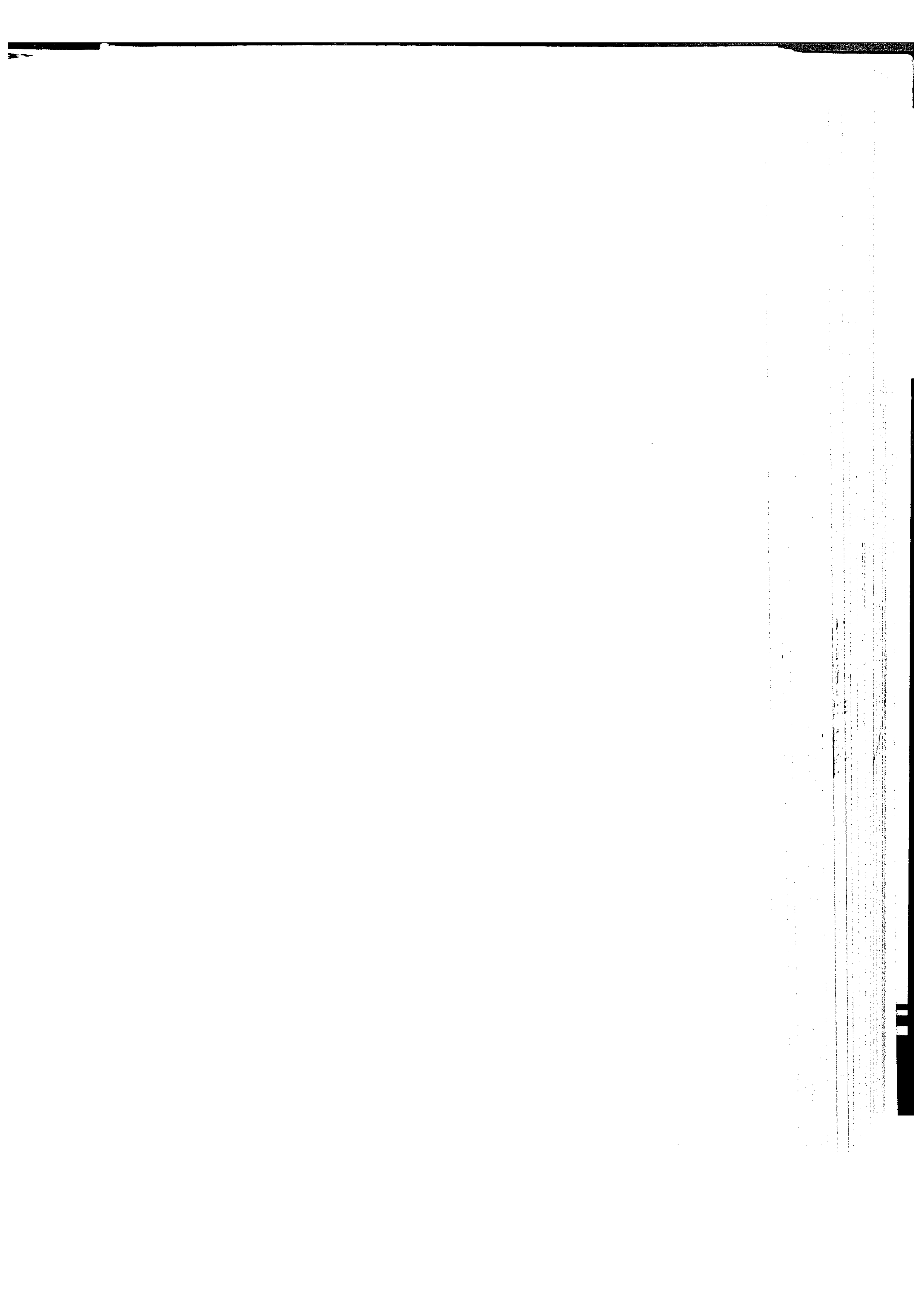
والمجتمع السعودي لا يمثِّل الكمال ولكنه يعطي النموذج النظري السَّامي في هذا العصر لهذه الآثار الإيجابيَّة لتطبيق شرع الله في مجال الأمن الفكري والطهر الاجتماعي .

---

(١) أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ، لمحمد حسين الذهبي ، ص ١٢٢و١٢٣ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ.

الفصل الثاني

الآثار الاجتماعيـــة



المبحث الأوّل

الحريَّة في ظلِّ العبوديَّة لله

«الحريَّة » لفظةٌ تبتهج بها النفوس وقضيتها من أهم القضايا حيويَّةً في العصر الحاضر، ومن أبرز الحقوق الإنسانيَّة المنادى بها دوليّاً .

كان طلب الحريَّة هو الوقود الذي أبرز مواقف الشجاعة أمام الطغاة وألهب حميَّة العزَّة والكرامة أمام موجات الخسف والإذلال، ولطلب الحريَّة قامت حركات التحرُّر من الاستعمار وسائر صنوف الاستعباد .

لكن هذا المفهوم النبيل للحريَّة مسخ لدى فئات من المفكِّرين والمستغلِّين ومن تبعهم من فاسدي الفطر ، فتحوَّلتْ لديهم إلى تَفلُّت من القيم الإنسانيَّة وإلى انطلاق فوضويٍّ لا يرعى للدين ولا للأعراف اعتباراً أو قيمةً ؛ أي أنَّ الحرية أصبحَتْ حالةً من التفسُّخ البهيمي للإنسان .

لهذا كان لا بدَّ من تحرير مضمون هذه اللَّفظة بصفتها حاملةً لقضيَّة إنسانيَّة كبرى فطر الله الخلق عليها ، وهذا يعني تحريرها من الوجهة الإسلاميَّة لأنها الوجهة المتفقة مع هذه الفطرة .

ولَمَّا كانت الحريَّة في الإسلام تنبثق من أعلى قيم الوجود الإنساني وهي العبوديَّة لله ؛ لذا فإننا سنحرِّر هذه القيمة -العبوديَّة- أوّلاً بإيجاز مناسب للمقام لنعود فنرى كيف حقَّق تطبيق شريعة الإسلام في المملكة تلكً « الحريَّة في ظلِّ هذه العبوديَّة » .

العبوديَّة : هي الخضوع والتذلل الذي يشعر صاحبه بعلوِّ المعبود وعظمته، ويعبِّر عن هذا الشعور بصورٍ قوليَّةٍ وفعليَّةٍ من الانقياد والتمجيد ونحوها .

والإنسان عابدٌ بغريزته الفطريَّة ، ومن ثمَّ يلجأ ضرورةً إلى التعبُّد لغيره واتخاذ شيءٍ له هدفاً يمنحه هذا التعظيم والخضوع ، ولهذا كان التديُّن أبرز ظواهر الاجتماع البشري في كل حقب التاريخ ، إذْ لم تخلُ أمةٌ من تديُّنٍ وارتباطٍ بهدفٍ يُمنح تلك الخصائص سواءٌ كانت بدائيَّةً أو متحضِّرةً .

وعلى هذا فإنَّ الخلاف بين البشريَّة لا ينطلق من أنَّ منهم عابدين ومنهم غير عابدين ، وإنما يقوم بينهم في أنواع المعبودات ، وصور التعبير عن العبادة لكل معبودٍ .

وهنا يصف لنا علماء التاريخ والاجتماع الجمَّ الغفير من المعبودات ومن ثمَّ طقوس التعبُّد المختلفة .

وأمام هذه الصور باستطاعتنا أن نقسِّم المعبودات على كثرتها إلى قسمين متمايزين :

الأول : هو الله خالق البشر ورازقهم الذي يصرِّف الكون ويدبِّر الأمر وإليه مرجع الجميع .

الثاني : ما سوى الله من المخلوقات :

- سواءٌ كان من الملائكة أو الأنبياء أو الجن والشياطين .
- أو كان من الأوثان والأصنام التي يصنعها الإنسان ثم يؤلِّهها .
- أو من المبادئ والفلسفات التي يصوغها البشر .
- أو من الأهواء والشهوات التي تتحكَّم في مشاعر الإنسان وسلوكه حتى يكون أسيرها المخلص في الدينونة لها .

وهو تقسيمٌ واضحٌ من حيث التباين بين المعبودين في كل قسمٍ ؛ ﴿ أَأَرْبَابٌ

مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[1].

ويتبع هذا التباين اختلافٌ في منهج التعبُّد، وتناقضٌ في آثار العبوديَّة بين كون المعبود هو الله وحده، وكونه سوى الله أيّاً كان، وليس من شأن هذا البحث أن يتناول آثار عبوديَّة الإنسان لخالقه في شأن تحقيق إنسانيَّته الصحيحة وكرامته وكمال وجوده الكوني، وتوازن جوانب كينونته في التوجه والحركة، وحريته ونحوها من مقوِّمات الوجود الإنساني الأمثل[2]، وحسبنا أن نشير إلى أثر العبوديَّة في تحقيق الصورة الحقيقيَّة للحريَّة التي يهفو إليها الإنسان بدافع إنسانيَّته خلافاً للعبوديَّات الأخرى التي تهوي بأصحابها في دركات الذلَّة والهوان وفقدان الكرامة الإنسانيَّة.

وقبل ذلك نُورد تساؤلاً استكماليّاً لما قلناه عن العبوديَّة وهو: ما مدى إمكانيَّة تحقيق أو تحقق الإنسان بالحريَّة؟

قالتْ قلّةٌ من المفكِّرين ومنهم القدريَّة في العصر العباسي: إنَّ حريَّة الإنسان مطلقةٌ لا يحدُّها شيءٌ فهو سيِّد قدره لا سلطة عليه لأحدٍ حتى الله.

ولكن أغلب المفكِّرين يقولون بأنه لا توجد حرِّيَّةٌ مطلقةٌ لأيِّ إنسانٍ في هذا الوجود، وغلا بعضهم فقال: إنه لا حريَّة للإنسان أصلاً وإنما يسيرُ في ظلِّ جبريَّةٍ صارمةٍ[3].

لكن عامتهم يقولون: إنَّ الإنسان يملك حريَّةً مقيَّدةً:

---

(١) الآية رقم (٣٩) من سورة يوسف.

(٢) انظر: السلفيَّة وقضايا العصر، للمؤلف ص ٥٠٨، مصدر سابق.

(٣) يقول الفيلسوف ديفيد هيوم: «إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً». دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد عبد الله دراز، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص ١٨٢، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

- فهي من جهةٍ تابعةٌ لمشيئة الله .

- وهي من جهة أخرى متأثِّرةٌ بالظروف المحيطة بالإنسان منفعلةٌ بها ، ولكن يبقى له بعد ذلك نطاقٌ مفتوحٌ لحركته الاختياريَّة .

ولما كانت مشيئة الله مما لا انفكاك للإنسان عنها أبداً فلم يبق إلا الجهة الثانية التي يتفاعل معها الإنسان مغالباً إياها لكي يحقق أكبر قدر من حريَّته، لا بل أن يجعل هذه الظروف مساعدةً له على تحقيق هذه الحريَّة ليَحقِّق إنسانيَّته بصورةٍ أفضل وأمثل .

ولكن لما كان من غير الممكن أن يوكل لكل إنسان أن يحدد نطاق حريَّته بما لا يتعدَّى على حريات الآخرين كان لا بدَّ من نظامٍ يضع مسالك جريان حريَّات الناس بحيث تتحقق للمجموع بتساو وتكامل وعدل يضمنه هذا النظام .

وهذه هي الحرية في النطاق الاجتماعي التي تطلبها البشريَّة وتهفو إليها المجتمعات في كل مكان .

ولهذا نستطيع أن نقول : إنَّ الحريَّة -في النطاق الاجتماعي- هي « أن تعيش الأمة -أو المجتمع- عيشةً راضيةً تحت ظلٍّ ثابت من الأمن على قرار مكين من الاطمئنان ، ومن لوازم ذلك أن يعيَّن لكل واحد من أفرادها حدٌّ لا يتجاوزه، وتُقرَّر له حقوقٌ لا تعوقه عن استيفائها يدٌ غالبةٌ ، فإنَّ في تعدِّي الإنسان الحد الذي قضتْ عليه أصول الاجتماع بالوقوف عنده ضرباً من الإفراط ، ويقابله في الطرف الآخر حرمانه من التمتع بحقوقه ليستأثر غيره بمنفعتها ، وكلا الطرفين شعبةٌ من شعب الرذائل والحريَّة وسطٌ بينهما »[1] .

---

(١) الحرية في الإسلام ، لمحمد الخضر حسين ، ص ١٦ ، دار الاعتصام .

أما في الجانب الفردي فإن الحرية تتمثَّل في توجُّه غريزة « التعبد » الملازمة للإنسان إلى معبودها الحق الذي تشعر الفطرة أنه هو مطلوبها الذي تحقق بالتوجه إليه وحده حاجتها النفسيَّة ووجودها الأسمى في هذه الحياة هذا المعبود هو الله وحده الذي خلق الإنسان وفطره على التعبد له وغرس فيه بذرة التوحيد في أصل وجوده[1].

الحرية بهذا المفهوم بجانبيها الفردي والاجتماعي لا تتحقق إلا في ظل العبوديَّة لله – تعالى – وفق المنهج الذي شرعه سبحانه لعباده يعبدونه من خلاله .

فعبوديَّة الإنسان لخالقه إذن لا نقول: إنها تحقق الحرية ، بل نقول : إنها هي الحرية :

- لأنها أداءٌ لحاجة أصيلة في الإنسان ، فهي فعلٌ يفعله لسلامة وجوده كما يشرب الماء ويأكلُ الطعامَ لسلامة وجوده .
- ولأنها تحرِّر الإنسان من كل ألوان العبوديَّات الأخرى التي تهدم الوجود الإنساني للإنسان، أي تهدم كرامته كعبادة الأشجار أو الأحجار أو رجال الأديان أو واضعي النظم البشريَّة وغيرهم .

هذا المفهوم للعبوديَّة هو ما يقرره القرآن : **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾**[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ... ﴾ الآية رقم (١٧٢) من سورة الأعراف .

(٢) الآية رقم (٦٤) من سورة آل عمران .

وهو ما فهمه الصحابة حينما اتجهوا في فتوحاتهم لتحرير خلق الله من استعباد الطواغيت كما في قول أحدهم: « اللهُ ابتعثنا ليُخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[١].

وهو ما أدركه حتى غير المسلمين من بعض زواياه كما في قول "بارتلمي سانهلير": « إنَّ الإسلام قد أحدث رقيّاً عظيماً جداً، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة أخرى غير هذه الحياة، ثمَّ إنه بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثِّل الله قدْ خلَّص الفكر الإنساني من وثنيَّة القرون الأولى . . . »[٢].

لقد حقَّق الإسلام هذه الحريَّة المجيدة من خلال أصوله العقديَّة وأحكامه الشرعيَّة وقيمه السَّامية، فأشرقت النفوس بعد ظلمتها، واتسعتْ آمال الناس، وعظمتْ هِمَمُهُم وتعالتْ في دواخلهم وحركتهم ملكة الاقتدار على الإبداع وتقديم ما ينفع البشَريَّة، وبتلك الحريَّة استنارت العقول فسَاد العلم، وفاضت الحكمة، فقام العدل وتكاملت الخلال المحمودة فقامت للأمة حضارتها الشامخة.

ولمَّا ضعفَ التزام الأمة بالعبوديَّة الحقَّة لربها والتزام منهاجه الصحيح دبَّ فيها الضعف، وكثرتْ فيها الاختناقات والقيود التي صارتْ تفرضها على نفسها تقليداً وعصبيَّةً في مجال الفكر وعبادةً وتقديساً للأضرحة ومدَّعي

---

(١) الكلام لربعي بن عامر أمام "رستم" قبل وقعة القادسيَّة.

(٢) من قضايا العصر ومشكلات الفكر، لأنور الجندي، ص ١٧١، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة.

الولاية والعلم ، وتحاكماً إلى الأعراف القبليَّة وقوانين أهل الكفر ، فعادت تلك الأغلال التي وضعها الإسلام عنهم تكبِّل كثيرين منهم أفراداً ومجتمعات .

وحينما قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تبعث الدين الصحيح وتوجِّه بعقيدته وأحكامه حياة الناس بدأتْ تباشير انطلاقةٍ إسلاميَّةٍ جديدةٍ تفكُّ تلك الأغلال .

وحينما عادتْ السيادة للملك عبد العزيز على معظم الجزيرة العربيَّة في بدايات القرن الرابع عشر الهجري التزم بهذا المنهج -أقصد المنهج السَّلفي وطبَّقتْ المملكة الشريعة الإسلاميَّة ، فكان من آثار ذلك فيما نحن بصدده :

* **رعاية الحاجة الفطريَّة للناس** في تحقيق عبوديتهم لله وذلك بتيسير أداء العبادات التي تصلهم بالله وتطهِّر نفوسهم وأخلاقهم من الأهواء والعفن الخلقي ، وبالذات في شعائرها الكبرى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

لقد تمثَّلتْ رعاية الدولة لهذه الحاجة وهذه العبادات في صورٍ عديدةٍ منها :

- حثُّ الناس عليها وتبصيرهم بالصور السليمة لأدائها من خلال مناهج التعليم والبرامج الإعلاميَّة ، والتوجيهات المرتبطة بمناسبات هذه العبادات كرمضان والحج من خلال كلماتٍ يوجِّهها القادة أو كبار العلماء لتوجيه المسلمين بشأنها .
- إعمار مواقع هذه العبادات المتمثِّلة بالمساجد والمشاعر المعظمة .

من أعظم آثار إسلاميَّة المجتمع السعودي تعالي التنافس بين الدولة والشعب في بناء المساجد ومرافقها وخدمتها ، حيث بُذلتْ أموالٌ طائلةٌ في هذا المجال، ولأن القضيَّة لا تأخذ المنحى الوطني فقد امتدَّ هذا التنافس إلى أرجاء العالم فبرزتْ المملكة العربيَّة السعوديَّة بصفتها الأولى

التي لا تدانيها دولةٌ أخرى في بناء المساجد والمراكز الإسلاميَّة في مختلف أنحاء العالم[1].

ومثل إعمار المساجد : الجهود الضخمة التي بُذلتْ في خدمة الحرمين الشريفين ومدينتيهما ومشاعرهما، وأعظم تلك التوسعة الكبرى التاريخيَّة للحرمين كليهما بما اشتملتْ هذه التوسعة من خدمات مرافقة كالتكييف والمواقف . . . إلخ .

ولئن كانت هذه الجهود ثمرةً لالتزام الدولة بتطبيق شريعة الإسلام فإن غايتها تيسير قيام المسلمين بأداء العبادات وتشجيعهم عليها وبالتالي تحقيق إسلاميَّتهم .

- تنشيط الناس لأداء هذه العبادات لا من خلال الحثِّ عليها وإعمار بيوتها فقط، وإنما باعتبارها جزءاً من نظام المجتمع وسمته الذي ينبغي أن يحافظ عليه وأن يؤخذ على يد من يستهدف هدمه أو الاستهتار به من خلال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء الشرعي وموقف المجتمع ككلٍّ .

وتتجلَّى قيمة هذه الخدمة المتمثِّلة بتيسير أداء العبادة ودعمها إذا قارنّاه بمجتمعات أخرى تنتسب إلى الإسلام ، ولكنها للأسف مقصِّرةٌ في هذا المجال بل إنها تحارِب هذه العبادات وتجعل ارتياد المساجد وممارسة الشعائر من قبل شخصٍ مّا فعلاً محرَّماً يعاقب صاحبه ويتتبع بكل صنوف الاضطهاد والإبعاد . ولهذا تشكو المساجد قلَّة روّادها وقد تُغلَق أو تحوَّل إلى مرافق أخرى .

* تحرير الناس من العبوديات الوثنيَّة :

وهذه من لوازم الأولى ، فإنه كلما تمكَّنت العبوديَّة لله من قلب العبد زاد تحرُّره من العبوديَّات الأخرى .

---

(١) انظر مثلاً : مجلة الفكر الإسلامي، عدد (٥) شعبان، سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٦، ٤٧ . والمملكة العربية وهموم الأقليات المسلمة في العالم ، لعبد المحسن الداود، ص ٢٣، ١٤١٣هـ.

ولقد كان من أهمِّ آثار التزام المجتمع السعودي بالإسلام وفق المنهج الصحيح أن تحرَّر الناس من تلك العبوديات التي كبَّلتْ الناس فترةً من الزمن وما تزال تكبِّل عقول ونفوس كثير من المسلمين في كثير من مجتمعات المسلمين التي لم تقم فيها دعوات عقديَّة تصحِّح لهم مفهوم الدينِ الحق .

لقد طهَّر الله السعودية من الأوثان والقباب المقامة على الأضرحة للتعبد ، وحارب المجتمع قادةً وعلماء ومسؤولين ودعاةً كلَّ صنوف الاستغلال واختراق العقول عن طريق الدجل والكهانة والعرافة والسحر ونحوه .

هذا من جهةٍ .

ومن جهة أخرى فإن خضوع الحكم والقضاء وسائر أنظمة الدولة لأحكام الشريعة الإسلاميَّة التي جاء بها الوحي من عند الله قد حرَّر مواطن هذه الدولة من عبوديَّة الناس لبشرٍ مثلهم ؛ لأن الخضوع هنا هو خضوعٌ لله وحده .

أما الحاكم فهو منفذٌ لشرع الله ، وطاعته إنما هي طاعةٌ لله في الأصل ؛ ولهذا لو أمر الحاكم بما يخالف الشرع فلا طاعة له « لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق » .

وأمَّا القاضي والمفتي فليسا مُشرِّعين إنما هما فقط مبيِّنان للحكم الشرعي بحكم أنهما أقدر من غيرهما على استخراجه من نصوص الشريعة ومقاصدها ، فهما يعلنان أنَّ هذا الحكم -قضاءً أو فتوًى- هو أقرب شيءٍ إلى الشريعة بحسب قدرتهما العلميَّة .

وهكذا فالحاكم والقاضي والمفتي وتبعاً لذلك الداعية ومدرِّس العلم الشرعي ونحوهم تتبلور جهودهم في ربط الناس بشرع الله وإقامة الحق في حياتهم .

أمَّا في غير الدولة المسلمة فإنَّ خضوع الناس للقانون والدستور إنما هو خضوعٌ لمن وضع موادَّهما وهو بطبيعة الحال بشرٌ ، مما يعني عبوديَّة هؤلاء الخاضعين لها لهؤلاء كما أشرنا إلى ذلك في مقام سابق واستشهدنا عليه بحديث عدي بن حاتم في قول الرسول ﷺ له : « إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم فتلك عبادتهم »[1] .

إنه فارقٌ جليٌّ بين أهل الإسلام وغيرهم .

عبوديَّةٌ لله ، ومن ثمَّ تحرُّرٌ من كل صور الوثنيَّة والعبوديات للبشر أو لما دون البشر

بالنسبة للمسلمين .

واستنكاف عن العبوديَّة لله ومن ثمَّ السقوط في حفر العبوديات المتنوِّعة للأهواء والدجالين ورجال الدين والساسة .

بالنسبة لغير المسلمين .

وحينما استعمر الغرب بلاد المسلمين استطاع أن ينحرف بقوَّته وضعفهم بجزءٍ من حياتهم نحو عبودياته ، ففرض فيهم قوانينه الوضعيَّة ، وحارب بقايا الحكم الشرعي في أوطانهم ؛ لأنه يعي أنَّ خضوع المسلمين لقوانينه هو في حقيقته خضوعٌ له واستخذاءٌ أمامه .

ولهذا فإن الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة التي يكافح في سبيلها المسلمون في كل مجتمعٍ من مجتمعاتهم الآن تعني شيئاً أبعد من قضيَّة « قوانين بدل قوانين » إنها تعني لديهم -وفي حسهم الإيماني- التحرر من العبوديَّة لغير الله وتجريد العبوديَّة له وحده ، أي إقامة الإسلام الصحيح في حياتهم الاجتماعيَّة .

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ، حديث رقم [٣٠٩٤] .

وفي هذا تبرز المملكة العربيَّة السعوديَّة في تطبيقها لشريعة الإسلام بصفتها دولة ومجتمع التحرُّر من العبوديَّة لغير الله ، وعبادته وحده في النظام والتشريع .

كما في الاعتقاد والتوجُّه والدعاء والتضرُّع .

* **دعم حريَّة التفكير في الكون :** لقد بينَّا فيما سبق أنَّ القوى التي تسعى إلى استعباد الإنسان دون الله تسعى لخنق العقل الإنساني عن التفكير فيما حوله وبالذات في الكون المحيط به؛ لأن هذه القوى سواء كانوا من السحرة أو مدَّعي علم الغيب والتنجيم أو رجال الأديان الوثنيَّة يصوِّرون أنفسهم أمام الناس على أنهم أصحاب قدرات تفوق الآخرين مما يجعلهم مؤهَّلين لمعرفة أسرار الكون ومخاطبة قواه الكبرى كالنجوم والأفلاك ، كما يصوِّرون أحداث هذا الكون بأنها كرامات لهم ، أو أنَّ لهم سبيلاً إلى إحداثها أو إيقافها ، وكل هذه الدعاوى تتهاوى إذا استطاع العقل أن يكتشف سنن الكون ويعرف أسباب تحوُّلاته ويتفاعل معه تفاعلاً مباشراً؛ ليستثمر خيراته .

لقد عاش العقل الغربي قروناً متطاولةً أسير معلومات ناقصة ومشوَّهة عن الكون كانت تفرضها عليه الكنيسة بصفتها ديناً لا معنًى للتفكير فيها إلا أنه تشكيكٌ في الدين وزندقةٌ يحاكم صاحبها ويُقضى عليه .

ولهذا حينما انْفَلَتَ العقل الغربي في عصر النهضة من هذا الإسار وجاب الكون بملاحظاته وتجاربه واكتشف جريمة ذلك الإسار الذي كان يخنقه لم يتحمل الصدمة فَغَلاَ في العقل وألَّهَه بدلاً عن ذلك الدين الذي نفر منه ، وجعل نتائج هذا العلم ونظريَّاته -أو وهذا هو الحق النظريات التي ينسبها إليه- مضادَّةً لذلك الدين ، بل إن شرعيَّتها تتدعَّم بهذه المضادَّة مما جعله يقع في مثل ما فرَّ منه فيأسر نفسه مرَّةً ثانيةً بإسارٍ بديلٍ .

أمَّا في عالمنا فإن ظهور الإسلام كان عامل تحرير للعقل وكسرٍ للحواجز المقامة بينه وبين الكون بالدعوة إلى النظر فيه وتأمل سننه والانتفاع بمنافعه، مما أدَّى إلى بعث حضارة الإسلام المشهودة، ولكنَّ المسلمين صاروا بعد قرون الازدهار يتراجعون شيئاً فشيئاً عن التزام دينهم ووعي تعاليمه حيث صارتْ تضيق آفاق عقولهم، وتشعر بالرهبة أمام فواتح المعارف الجغرافيَّة والفلكيَّة والطبيعيَّة، وكثيراً ما فسِّرتْ هذه الرَّهبة بأنها حساسيَّة الشعور الديني ويقظة الإيمان أمام الكفر والضلال .

لقد حلَّت كثيرٌ من المجتمعات هذه الأزمة وهي تسعى في هذا العصر للانفتاح على المعارف العصريَّة بآفاقها الواسعة بتبنِّي الأسلوب الغربي في عصر النهضة بالانفلات من الدين وتبنِّي الرؤى الغربِيَّة في فلسفات العلم، وتأكيد التصوُّر الغربي عن الدين بأنه من أسباب حجب العقل واغتيال الإبداع، مما أوجد لدى كثير من أبناء المسلمين الذين تعلَّموا تلك العلوم تصوُّراً مشوَّهاً عن الإسلام ومنهجه العقدي والعلمي .

أمَّا في المملكة العربيَّة السعوديَّة فإنَّ هذه الأزمة حُلَّتْ بالإسلام :

- بتطهير العقيدة من التصوُّرات الخرافيَّة عن الكون وحركته .
- وبكشف زيف دعوى لا إسلاميَّة المعارف الكونيَّة، ودعوى حصر المعرفة التي يحتاجها الإنسان بالمعرفة الدِّينيَّة وحدها .
- وبمقاومة الانغلاق الفكري الذي يجعل صاحبه يتنكَّر لكلِّ شيء جديد لم يعهده في دراساته التي ورثها عن أهله أو أساتذته ونتيجةً لهذا المسلك الحازم المرتكز على أساسٍ إسلاميٍّ انطلقت الحركة العلميَّة -في مجال الدراسات الكونيَّة- بخطًى ثابتة وسريعة لا يشعر فيها الطالب أو المدرِّس

أنه يعيش تناقضاً بين حياته العلميَّة وتخصُّصه وبين إيمانه وتَدَيُّنه ، بل إنه يشعر أنَّ مسلكه العلمي وأنَّ سعيه في طلبه جزءٌ من دينه ؛ لأنه ينفِّذُ ما أمره الله نظراً في الكون واستنفاعاً منه وخدمةً لأمَّته في هذا الثغر المهمِّ .

إنَّ إيمانه بالله الذي وجَّهه في القرآن إلى التأمُّل في الكون للشعور بجلال خالقه يغريه بالإيغال في تطلُّعه المعرفي في هذا المجال ؛ لأنَّ زيادة اكتشافه تعني زيادة تعظيمه لله وشعوره بعظمته .

وهذا بلا ريب لا يتحقَّق إلا بكون إيمان الشخص قائماً على المنهج السَّلفي الصحيح الذي عماده مقررات الوَحْيَيْن أمَّا الذي يقوم اعتقاده على فلسفات علم الكلام التي صاغتْ أدلتها وقواعد هذه الأدلَّة بناءً على التصوُّرات الفكريَّة التي كانت سائدةً في العصر العباسي وما بعده ، فإنه من السهل أن يتزعزع إيمانه إذا اكتشف أن بعض هذه الأدلَّة أو قواعدها مجرد مواضعات فكريَّة تكذِّبها الكشوف الكونيَّة المعاصرة .

* **الكرامة الإنسانيَّة :** تطبيق الإسلام في المجتمع بتعبيده الناس لخالقهم وتحريرهم من هيمنة الآلهة المزيَّفة يرتفع بهؤلاء الناس إلى أفق الإنسانيَّة الكريمة ، حيث يشعرون بهذه الكرامة من خلال :

- ارتباطهم بخالقهم وخالق الكون ارتباطَ حبٍّ واستمداد وولاء .
- وارتباطهم بالوجود من حولهم جمادات ونباتات وحيوانات ارتباط سيادة عليها ، وإقامةً لمنهج الله فيها .

والجامع بين هذين الارتباطين هو ذلك الشعور النبيل القائم في وعي الإنسان موحياً له دائماً بموقفه المتميِّز في هذا العالم ، إنه شعور « المسؤوليَّة » أو « حمل الأمانة » التي عجزتْ عن حملها الكائنات الأخرى وتصدَّى لحملها الإنسان .

إنَّ « المسؤوليَّة » تبدو لبعض الناس مناقضةً للحريَّة التي يتصوَّرونها اختياراً مفتوحاً لا معقِّب له ولا حساب عليه ، وهذا التصورُ مشوِّهٌ للحريَّة أو هي « الفوضى » باسم الحريَّة ؛ لأن الحريَّة الحقَّة متلازمةٌ مع المسؤوليَّة بل هي في الحقيقة نابعةٌ منها ؛ لأن الإنسان إنما أعطي الحريَّة لأنه حمل المسؤوليَّة .

أمَّا الأمور التي لا حريَّة له فيها كحركات نَفَسه وهضمه ونبضات قلبه وارتقائه إلى مرحلة الشباب وعوده إلى مرحلة الكهولة فإنه غير مسؤول عنها ، فالمسؤوليَّة إذنْ مرتبطةٌ بالحريَّة ، وأقصد بها - بالذات - المسؤوليَّة الكبرى التي حملها الإنسان بفطرته وشريعة خالقه .

« إنَّ الشعور بالمسؤوليَّة شعورٌ نبيلٌ لأنه شعورٌ بالاستقلال والتحرُّز من أسر الطبيعة ، شعورٌ بالقدرة على تغيير معالم الأشياء وعلى معالجتها بالعزيمة والإرادة المبتكرة ، شعورٌ بالكرامة التي كرَّم الله بها بني آدم وبالفضل الذي فضَّلهم به على كثيرٍ من خلقه »[1] .

ومن أبرز صور الكرامة الإنسانيَّة التي تحقِّقها العبوديَّة لله من خلال مسؤوليَّته إزاء تطبيق منهج الله ، الوفاء بحقوق مطالب الكيان الإنساني الماديَّة والروحيَّة ، ومطالبه الروحيَّة متمثِّلةٌ بعبادته لله وتمثُّل القيم الإنسانيَّة في وجوده وعلاقاته ، وهي الجانب الأبرز الذي يحقق تطبيق الإسلام في المجتمع للناس سموّهم الإنساني وكرامتهم البشريَّة ، وشعورهم بموقعهم المتميِّز والهادف في هذا العالم .

أمَّا حينما يُحرم المجتمع من هدي الله ، أو يعزف عنه فإنه يفقد هذه الكرامة ، وتنسحق إنسانيَّته تحت وطأة النظم والفلسفات الجائرة ، وواقع

(١) المسؤوليَّة في الإسلام ، لمحمد دراز ، ص ١٩ ، ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية ، ١٣٧٩هـ.

عصرنا شاهدٌ صارخٌ على هذه الحقيقة ، حيث ارتدَّتْ فئامٌ من البشريَّة نحو البهيميَّة ، وصارتْ تعيش في أهدافها وسلوكها في مستوًى حيوانيٍّ أو دون ذلك تحت وطأة النظم العلمانيَّة والاتجاهات الماديَّة التي أهدرتْ جانب الإنسان الرُّوحي وضخَّمتْ جانبه الماديَّ الذي انطلق في غياب الروح والضمير الإنساني على شكل شهوات عارمة ومصالح ماديَّة نفعيَّة، وتحلل من القيم والأخلاق ، وإيغال في خسائس الملذَّات، وما يزال العالم اليوم في ظلِّ الحضارة الغربيَّة يدفعُ الناس في هذا المنحدر الذي يعترف مفكِّرو الغرب ذوو البصيرة التاريخيَّة ، والحدس الإنساني أنه سيرٌ إلى الهاوية وتدميرٌ للحضارة .

وأكثر المجتمعات الإسلاميَّة تسير في تبعيَّة مؤسفة خلف الغرب في انحداره، يدفع هذه المجتمعات إعلامٌ مُضلِّلٌ ونظمٌ تحارب الإسلام أو تُهمِّشه ، وموجات من الهوس العارم الذي يستتبع الناس منصرفاً بهم نحو الماديَّة على حساب دينهم وقيمهم وإنسانيَّتهم .

والمجتمع السّعودي وإن لم يكن بمعزل عن هذه المجتمعات وتأثيرها والتأثير الغربي إلا أنه بالتزامه الإسلامي وتنشئته أبناءه على منهج الله ، ومقاومة الفلسفات الماديَّة ، والإباحيَّة ، وانتشار العلم الشرعي حفظ هذه الكرامة من الذبول ، وأبقى الشعور بالمسؤوليَّة الإنسانيَّة أمام الله متوقِّداً في دواخل الناس ، وقد تعرض لبعض الناس حالات غفلة واستلاب نحو الضلال ، ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يعيد هؤلاء إلى صوابهم ورشدهم .

* وفضلاً عمَّا سبق **فإن للحرية المنبثقة من العبوديَّة حقوقاً كثيرةً** على الإنسان وله ، يعدُّ التفريط بها إهداراً لحقِّ الحريَّة الممنوحة له ، ومن ثمَّ تفريطٌ بالمسؤوليَّة التي يحملها ، ومن ذلك مثلاً :

- حقُّ المساواة ، حيث يتساوى الناس في المجتمع المسلم في عبوديَّتهم لله وفي علاقاتهم فيما بينهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) وفي التزامهم بالحقوق المشروعة .

وحق المساواة متبادلٌ بين أعضاء المجتمع الإسلامي ، فهم سواسيةٌ حكّاماً وعلماء وعامةً ، لا يجوز لأحد أن يخرق هذا الحق بتعالٍ واستعباد للآخرين ، كما لا يجوز له أن يخرقه باستخذاء وعبوديَّة لسواه .

ولا يدخل في هذا تفوُّق الكفاءة الشخصيَّة لإنسانٍ بعلمه أو خبرته أو أخلاقه لأنها معايير مفتوحةٌ للجميع ، فمن تقدَّم بها علَى غيره سبق فضلاً عن أنَّ سبقه لا يعني استكباره على الآخرين .

- حق الشورى ، وهو حقٌّ على الحاكم أن يطلبه من أهله المؤهَّلين له ، وحقٌّ للناس ومن ثمَّ عليهم يحقِّقون من خلاله حريَّتهم ويؤدُّون مسؤوليَّاتهم تجاه الدولة بتقديم رؤاهم فيما يهمُّ أمرها ويُعْلي شأنها ، سواءٌ تمثَّلوا في هيئات منظَّمة أو أفراد يُستشارون ، أو يشيرون من أنفسهم ابتداءً على من يعنيهم الأمر من المسؤولين .

- حقُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يحقِّق فيه المسلم في مجتمعه تلبية أمر الله بهذه الشعيرة ، وللحريَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط في أسلوب تنفيذه للشخص العادي ، وللمكلَّف بالاحتساب ، وللجهات الأمنيَّة كلٌّ بحسبه ، وليس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -كما يتصوَّر بعض الناس- تعدِّياً على حريَّات الآخرين ؛ لأن الأمر والنهي في حقيقته هو ردٌّ لذلك الإنسان نحو نطاق الحريَّة الصحيح حينما اخترقه نحو ما يضرُّه .

---

(١) الآية رقم (١٠) من سورة الحجرات.

لو رأى رجلٌ صبيّاً يفتح علبة سُمٍّ ليأكل منها ثم نهاه عن ذلك لم يكن متعدِّياً على حريَّته ، وإنما منقذاً له من الهلاك في عرف كلِّ الناس ، وهذا تماماً ما يمارسه الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في المجتمع المسلم الذي يسلِّم جميع أفراده ابتداءً بأنَّ المعاصي وكذلك ترك الواجبات مهلكةٌ للإنسان حتى وإن أزاغ بعضهم الشيطان نحو فعل منكر أو ترك واجب .

* ومن خلال ما مرَّ اتَّضح لدينا أنَّ الحريَّة بمفهومها المزيَّف الذي تروِّجه بعض الفلسفات والنظريَّات ، وتدعُ الناسَ إليه جهاتٌ مشبوهةٌ ووسائل إعلاميَّةٌ خبيثةٌ ، هذا المفهوم الذي يتمثَّل في الانفلات من إطار الدِّين وخرق القيم الخلقيَّة والتحلُّل من كلِّ الأعراف الإنسانيَّة السَّليمة في العلاقات ووسائل الكسب والإنفاق ، ومسائل الجنس وموضات الأزياء والتجميلات الجسميَّة وتحويل الجنس . . . إلخ ، تبيَّن لنا أنَّ الحريَّة بهذا المفهوم لا مقام لها في مجتمعٍ تحكمه شريعة الله ، ويقيم أهله في نفوسهم وسلوكهم منهجه المستقيم وحدوده الواضحة ، وتتولَّى السلطة فيه بهيئاتها المتعدِّدة -هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمحاكم الشرعيَّة ونحوها- ردع من تضعف نفسه عن ضبطه على الحق ، ووقاية المجتمع من شروره التي لا تقف عند حدود شخصيَّة ، وإنما تصبح وباءً ينتشر في السَّاحة إذا لم يُقضَ عليه في مهده .

إنَّ سنَّةَ الله في الخلق أنَّ الشرور تزاحم الخير والحقَّ ، وتتقافز بين الناس في كل مجتمعٍ حتى مجتمع الخير والصَّلاح تبحث عن ثغرةٍ تندسُّ منها في جسم هذا المجتمع .

والمجتمع السُّعودي بتوجُّهه الإسلامي شعباً ودولةً يحتلُّ من حيث الطهارة من موبقات تلك الحريَّة المزيَّفة الموقع الأول بين المجتمعات الإسلاميَّة

التي اخترقتْ كثيراً منها دعوات هذه الحريَّة ، بل أغرق الاستعمار ثم الحكومات الثوريَّة البديلة عنه هذه المجتمعات المسكينة بأرجاسها ، فأبيحتْ الخمور علناً للناس ، ووجدت الدّعارة العلنيَّة المدعومة ، ونوادي العراة ، وحُرِّمَ الزواجُ بأكثر من واحدةٍ ، وفتح مجال المخادنة والصداقة الخليعة . نسأل الله العفو و العافية .

المبحث الثاني

تزكية القيم الصَّالحة

سبق الحديث -في الباب الأول- عن تميُّز المجتمع السعودي في تعامله مع القيم والتقاليد الإسلاميَّة ، والحديث هنا إشارةٌ إلى آثار التزام المملكة بالشريعة الإسلاميَّة في تزكية القيم الصَّالحة ورعايتها ونفي القيم الفاسدة .

إنَّ القيم في أساسها صفاتٌ أو قواعد للوجود الإنساني المتفوِّق على الوجود الحيواني ، وهي مغروسةٌ في فطر الناس ، ولذا فهي إنسانيَّة يشترك فيها البشر كلُّهم في أصل فطرهم .

ولأن الإسلام دين الله خالق هذه الفطرة فقد أنزله تعالى متوافقاً مع ما أودعه فيها من مبادئ إيمانيَّة وقيم خلقيَّة ، فجاءتْ الشريعة مُحلَّةً للطيبات محرِّمةً للخبائث ، داعيةً إلى المعروف ناهيةً عن المنكر[1] ؛ أي مقرَّة للقيم الفاضلة ومنفرة من الرذائل المقابلة لها .

ومع ذلك فإن القرآن والسنة لم يكتفيا بإقرار تلك القيم الفاضلة وإنما رَسَما منهج تحقيق هذه القيم في الواقع البشري الفردي والاجتماعي، وقد التزم المسلمون الأوائل بهذا المنهج فبسقتْ لهم حضارةٌ تميَّزتْ بأنها حضارةُ قيمٍ إنسانيَّةٍ لم تقارنها حضارةٌ أخرى .

---

(١) يقول ابن القيم بشأن الآية الكريمة التي جاء فيها عن الرسول ﷺ: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ الآية رقم (١٥٧) من سورة الأعراف . مبيناً أنَّ المقصود بالطيبات والخبائث ما تعرفه العقول السَّليمة قبل أن تأتيهم الشريعة : « فلو كان كونه معروفاً ومنكراً وطيِّباً وخبيثاً إنما هو لتعلُّق الأمر به والنهي عنه لكان بمنزلة أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه ، وأيُّ فائدة في هذا ، وأيُّ علمٍ يبقى فيه لنبوَّته » . مدارج السَّالكين ، ١/ ٢٣٥ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

ولا شكَّ أن المسلمين بعد القرون الأولى قد ضعف التزامهم بتلك القيم فسادتْ حياتهم قيمٌ بديلةٌ تقرب أو تبعد عن تلك القيم الإسلاميَّة ، سواءٌ في ذلك حياتهم البدويَّة أو حياة المدن .

وحينما جاءتْ الدعوة السلفية -كما سبق القول- أعادتْ في الجزيرة العربيَّة كثيراً من القيم الإسلاميَّة لحياة أتباعها ، وعزفت بهم عن القيم التي توارثوها على خلاف تلك القيم .

وإذا نظرنا في آثار التزام المجتمع السعودي بالإسلام في إعلاء تلك القيم وتزكيتها فلا بدَّ لنا أن ندرك **موقع القيم في العالم المعاصر** .

إنَّ العالم اليوم يتغنَّى بالقيم الإنسانيَّة ويدعو إليها ويقيم لها المنظَّمات والإعلانات، والبشريَّة تتفق على عناوين تلك القيم « الحقّ - العدل- الكرامة الإنسانيَّة- الوفاء . . . . إلخ » لكنها تختلف في مضامين هذه القيم فيما بينها ، وفيما بينها وبين الإسلام ، وإن لم يكن ذلك في كل المضامين ، فغالب النظم الخاصة بالدول ، أو الدوليَّة ترى مثلاً أنَّ قتل القاتل عمداً ظلمٌ، وأنَّ حدَّ الزَّاني اعتداءٌ على حريَّته . . . ونحو ذلك مما هو مصادمٌ صراحةً للقيم الإسلاميَّة وشريعة الله .

وعموماً فإنَّ عامة قيم الفضيلة التي فطر الله عليها البشر وجاءتْ بها الأديان قد سُحقَتْ تحت وطأة المذاهب الماديَّة والنظريَّات الإباحيَّة في هذا العصر نتيجة انحسار توجيه الدين للحياة، وهو الذي كان يرعى تلك القيم ؛ وأقصد بالتوجيه إشاعة هذه القيم بصفتها عناصر أساسيَّةً لا تستقيم حياة الإنسان بدونها ، حيث قامت الفلسفات المحاربة له بتأكيد تهافت هذه القيم وأنها تفقد أيَّ أساسٍ حقيقيٍّ لها ، لا فطريٍّ ولا دينيٍّ ، وأنها مجرَّد أمزجة

خاصَّة أو إفراز لأوضاع ماديَّة ، وكل ذلك نتيجة تفسيرها الحيواني للإنسان ورفضها الدينَ[1] . ولقد كانَ من أسباب الحرب المقامة على القيم أنَّ رجال الدين في العصور الوسطى الغربية ضمُّوا التقاليد والأعراف التي سادتْ في جوّ الكنيسة فترةً من الزمن إلى القيم الأساسيَّة في ثباتها وضرورة التشبُّث بها من كلِّ الأجيال على كل الأحوال .

وهذا ناتجٌ عن الجهل بالدين وصلته بالحياة ؛ ولذا نجد أن بعض المسلمين في العصور المختلفة نتيجة جهلهم بالإسلام يربطون به -أي دين الإسلام- كلَّ ما توارثوه من تقاليد وعادات حتى ولو كانت من الوسائل التي يسوغ فيها التغير ، أو أحياناً تقضي المصلحة الشّرعيَّة هذا التغيُّر ، فيربطون به التقاليد والأعراف ، ويجعلون الخروج عن شيءٍ منها إخلالاً بالالتزام بالإسلام .

والمنطق الصحيح أن القيم نوعان :

- نوعٌ ثابتٌ مقرَّرٌ بالنصوص الشرعيَّة لا مجال للتحوُّل عنه مهما تغيَّرت الظروف والعصور ، وهو القيم العليا بمضامينها المحدَّدة شرعاً ، مثل : « العدل والإحسان ، والحق والوفاء ، والصدق والحياء ، والبرّ والتقوى ، وحفظ المصالح ودرء المفاسد وسائر شعب الإيمان وخصاله المقرَّرة بالكتاب والسنة » .
- ونوعٌ مرنٌ قابلٌ للتلوُّن بحسب البيئات ومواضعات الناس ، ويدخل في

---

(١) يقول إنجلز محدّداً الموقف المادي الماركسي من الأخلاق : « وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأيَّة عقيدة أخلاقيَّة مهما كانتْ على اعتبارها شريعةً أخلاقيَّةً أبديَّةً نهائيَّةً وثابتةً أبداً ، بحجَّة أن للعالم الأخلاقي مبادئه الدائمة التي تنهض فوق التاريخ . . إننا ننادي على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقيَّة كانت نتاجاً لأوضاع المجتمع الاقتصاديَّة السائدة في زمنها » . مذاهب فكرية معاصرة ، لمحمد قطب ، ص٣٩٧ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، دار الشروق ، بيروت .

هذا ما يسمَّى بالأعراف والتقاليد، فهذه لها اعتبارها الشرعي ما دامتْ في إطار ما رسمه الشرع، فالكرم وأعمال البر والتطوّع بالمال والجهد والجاه ونحوها لها صورٌ عديدةٌ تحكمها أوضاعُ الناس وبيئاتهم، وهي شرعيَّةٌ ما دامتْ في الإطار الشَّرعي .

ومثل ذلك في علاقات الناس وآداب تعاملهم وزواجهم وتنظيم بيوتهم وألبستهم وغيرها، فهي وإن كانتْ من الإسلام باعتبار كونها مباحةً أو مشروعةً لأنها تحقق مصالح شرعيَّةً، إلا أنها لا تنتقل من صورها الوقتيَّة لتصبح قيمةً ثابتةً يُقْسَرُ الناس عليها على تفاوت أوضاعهم .

الثوب السعودي -مثلاً- يُعد لباساً شرعيّاً في صورته التي استوفى بها شروط اللِّباس بعدم التشبُّه بالكفار، وكونه ساتراً لما ينبغي ستره ونحو ذلك، لكنه لا يملك صفة الثبات التي تقضي بفرضه على كلِّ مسلمٍ، وعدِّ تركه ثلمةً في دين تاركه .

إنَّ اللِّباس الباكستاني -مثلاً- وهو مختلفٌ عن الثوب السعودي هو شرعيٌّ أيضاً باستيفائه شروط اللِّباس في الإسلام، وهكذا .

وإذا كان الأصل في المجتمعات الكافرة الانحراف في مجال القيم سواءٌ الثابتة منها والمتغيِّرة، فإنَّ المؤسف أنَّ كثيراً من مجتمعات المسلمين قد حدث فيها الانحراف في هذا المجال قليلاً أو كثيراً .

فالقيم الثابتة على الرغم من تبنِّي أكثرها شعاريّاً وإعلاميّاً إلا أنه يصاغ لها مضامين لا تتسق مع المعاني الشرعيَّة بقدر اتساقها مع مضامين مخالفة مستمدَّة من الأمم الأخرى التي نقلتْ منها هذه البيئات المسلمة أنظمتها وتقاليدها وأنماطَ حياتها .

وأمَّا القيم المتغيِّرة فإنها تجاوزت الحدود الشرعيَّة مضاهاةً لطرائق الحياة الغربيَّة ، في العلاقات وبالذات بين الجنسين حيث الاختلاط والتبرُّج ، وفي مصاحبة الكلاب وشيوع الخمور وإهمال الدين . . . إلخ .

ولقد حاولتْ -والحق يقال- الشعوب الإسلاميَّة بدافعٍ من دينها وخوفاً من ذهاب هويَّتها التماسك أمام الغزو القيمي لحياتها ، ولكن هذا الغزو كان من القوَّة بحيث فتَّتَ هذا التماسك مدعوماً بالاستعمار والاستشراق والمستغربين من أبناء الأمة قادةً ومفكِّرين .

وإزاء هذه الوضعيَّة المتقاربة لعامة مجتمعات المسلمين فإن المجتمع السعودي بحكم مؤهِّلاته التي أَفَضْنا في الحديث عنها ، وثمرةً لتطبيقه الإسلام في مساره الشعبي والحكومي ، استطاع أن يتماسك أمام الغزو القيمي الغربي ، بل استطاع أن يهذِّب كثيراً من القيم القائمة في المجتمع لتتزكَّى وتنسجم مع المنهج الإسلامي السَّويِّ ، كبعض الأعراف القبليَّة ، أو العادات الشَّائعة في بعض النواحي التي لم تتكثَّف فيها الدعوة في العهود السَّابقة .

ونكتفي ببعض إشارات إلى تزكية القيم الصَّالحة في مجتمعنا السّعودي :

* لأن القيم التي يتبنَّاها المجتمع هي **القيم الإسلاميَّة ذات المرتكز الفطري** ؛ لذا أخذت الفطرة موقعها في تدعيم القيم ، والتعامل معها سواءٌ من مؤسسات التوجيه والتربية أو في نطاق الشعور والعمل المتبادل بين الناس .

وهذا خلاف ما أخذتْ به بعض المجتمعات التي حاولتْ قياداتها الفكريَّة والسياسيَّة بناء القيم وتوجيه حركة المجتمع وفق النظرات المُبْتَسَرة ، المبنيَّة على أسسٍ ضعيفة ، كالاستقراء الناقص والاستبيانات المسحيَّة المنحازة ونحوها ، أو تُبْنَى على أساسٍ فلسفات لا تتفق مع المنهج الإسلامي الذي يعيشه المسلم في أعماقه .

فحينما يقول بعض الاجتماعيِّين : إنَّ مبدأ إكرام الضيف قد انتهى بصفته قيمةً محمودةً ، نتيجة التغيُّرات الحضاريَّة والاجتماعيَّة ، كقيام الحياة على المصالح المجرَّدة من الروافد الخلقيَّة ، وقيام البدائل الماديَّة كالفنادق والمطاعم . . . ، وإن هذا المبدأ كان مجرَّد استجابةٍ لحاجة ماديَّة في زمن مضى .

إنَّ كلَّ ذلك لا قيمة له لدى الناس ذوي الفطر السَّليمة ، وسيبقى إكرام الضيف هاجساً ينبعث كلَّما شعر الناس بمناسبته إلا لدى أناسٍ مُسِخَتْ فطرهم وتحكَّمتْ المادة في حياتهم بحيث صاروا لا يرون لعملٍ ليسَ له مَردودٌ ماديٌّ عليهم أي قيمةٍ ولا إليه اندفاعٌ .

ومثالٌ آخر نسوقه لبيان قيمة هذا العنصر وهو « دعوة الوطنيَّة » التي تحولَّتْ في بعض المجتمعات إلى عقيدة إيمانيَّة المعبود فيها الوطنُ الذي جعل إلهاً ينبغي -وفق منهج أصحاب هذه العقيدَة- أنْ يمنح التعظيم والتقديس كلَّه ، وأن يكون حبُّه أعلى من كلِّ حبٍّ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾[1] ، بل يحبُّونهم أشدَّ من حبِّهم لله .

وفي مقابل ذلك يشتطُّ آخرون ردَّةَ فعلٍ لصنيع أولئك ، فينكرون أيَّ قيمة للوطن في وجدان الإنسان ، وأي حق له عليه ، وأن الأوطان سيان بالنسبة إليه ، ويسوقون شواهد التضحية بالوطن في سبيل العقيدة أو الجوانب الماديَّة الأخرى .

ولكن منطق الفطرة لدى عموم الناس عدلٌ بين التفريط والإفراط ، فالوطن الذي تَربَّى فيه الإنسان وغُذِّيَ بخيراته ، وتشكَّلتْ شخصيَّته في ضوء حركته الاجتماعيَّة له موقعٌ في النفس ، وله حقٌّ على الشخص وتميُّزٌ على البلاد الأخرى[2] .

---

(١) الآية رقم (١٦٥) من سورة البقرة .

(٢) ولهذا وجد تغنِّي الشعراء بالأوطان صدًى في نفوس الناس على ألا يتجاوز المقبول شرعاً ، كتفضيل =

ولكن ذلك لا يتجاوز إلى تأليهه من دون الله ، فالله خالق الوطن وخالق الإنسان فيه ومنه النعم التي نعم بها في الوطن ، وهو أحقُّ أن يعبد ويُشكر ويطاع ويُذكر .

والوطن كسائر أشياء الحياة الدنيا حبُّه إضافيٌّ نسبيٌّ يزداد -هذا الحب- بقدر ما يكون أقرب إلى الله أي بقدر ما يكون أهله قائمين بالحق ، وما يتجلَّى فيه من معاني الفضيلة ، وما يقوم في أرضه من مؤسسات ومعالم الدعوة والهدى ؛ ولهذا نجد أنَّ كثيراً من المؤمنين في مختلف أنحاء العالم يعلو حبُّ موطن الهدى والمقدَّسات في الجزيرة العربيَّة على حبٍّ بلادهم التي نشؤوا فيها وتربَّوا في أحضانها ، والسبب في ذلك ما في هذه البلاد المكرَّمة من ذكريات النبوَّة ، وظهور الإسلام والحرمين الشريفين ومشاعر الحجِّ المعظَّمة ، وأن هذه البلاد أقرب من أوطانهم إلى التزام الإسلام وتطبيق شريعته .

إذا نظرنا في ضوء ما قرَّرناه مقارنين بين المملكة ودول أخرى نجد التميُّز السعودي في التعامل مع الناس من خلال فطرهم السَّويَّة خلافاً لتلك المجتمعات التي تدأب على صنع معايير أخرى خارج فطر شعوبها ، ثم التعامل معهم من خلالها وحملهم عليها ، مما يحدث شقاءً لدى هذه الشعوب بين ما هو قائمٌ في دواخلها وما يراد حملها عليه .

ولنمثِّل بمثال واحد لعلَّه يكون كافياً في هذا المقام :

« التربية الوطنيَّة » مادَّةٌ دراسيَّةٌ - وقد تكون نشاطاً غير منهجيٍّ - تهدف إلى ربط الناشئة والشباب بوطنهم من خلال عديدٍ من القيم الفكريَّة والحضاريَّة

= أحد الشعراء المعاصرين وطنه على الجنَّة في قوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه　　　نازعتني إليه في الخلد نفسي .

والاجتماعيَّة التي تصوغها مجموعةٌ معيَّنةٌ في الدَّولة ، تمثِّل خطَّها الذي اختارته ليكون هو الإطار الذي يتبلور فيه المجتمع كلُّه .

قد تكون هذه القيم مستمدَّةً من الرَّأسماليَّة أو الاشتراكيَّة ، أو ملفَّقةً منهما أو مجموعةً ترقيعيَّةً غير ملتئمة تسمَّى ميثاقاً أو كتاباً أحمر أو أخضر أو غير ذلك من الأسماء .

تسعى الدَّولة بأجهزتها التعليميَّة والإعلاميَّة والثقافيَّة إلى تكريسها في وجدان الناس ، ولكنها تظلُّ قشرةً لا تلامس هذا الوجدان ، وإن لامسته أحدث هذا التلامس صراعاً بينهما ، وتمضي السِّنُون ثم تزول الدولة أو تتغيَّر وجهتها فينكشف الأمر عن أنَّ تلك الجهود كان هباءً منثوراً ، وإفكاً وزوراً .

في المملكة لم يكن هناك مادَّةٌ اسمها « التربية الوطنيَّة » ولم يكن فقْدُ مادَّة بهذا الاسم ثغرةً في المنهج التعليمي ، والسبب أنَّ المنهج التعليمي بما اشتملَ عليه من موادَّ شرعيَّة وأيضاً عربيَّة واجتماعيَّة يتضمَّن منهجاً تربويّاً متكاملاً للناشئ والشاب على القيم الفاضلة في الفكر والخلق والسلوك والنهوض الحضاري ، وهي القيم التي جاءتْ بها الشريعة الإسلاميَّة ، وهي قيمٌ إنسانيَّةٌ لأنها دعمٌ لما هو مستقرٌّ في فطر الناس الأصليَّة ، وهي كذلك قيمٌ وطنيَّةٌ لأن المملكة دولةٌ دستورها ومنهجها الإسلام .

وحينما اتَّجهتْ وزارة المعارف في الآونة الأخيرة إلى تدريس مادَّة باسم « التربية الوطنيَّة » لم يَعْنِ ذلك وما ينبغي له أن يعني استحداث قيم مجانفة لشريعة الإسلام الذي تدين به الدولة ، ولكنها تستهدف تأكيد ربط القيم الإسلاميَّة بالمجتمع السّعودي في ذهن الناس ، حتى يكبر وهو يَعي أنَّ هذه القيم التي يدرسها ليستْ مجرَّد أوامر شرعيَّة مطالب بها في شخصيَّته الفرديَّة ، ولكنها

أيضاً نسيج المجتمع الذي يعيش فيه ، وسمتُ الوطن الذي هو جزءٌ منه ، وعضوٌ من أعضائه ؛ ولهذا نجد أنَّ مفردات مقرّر « التربية الوطنيَّة » تفصيلٌ للآداب التي شرعها الإسلام في العلاقات بين الناس والراعي والرَّعية ، وبين الإنسان والكون المحيط به والبيئة التي يعيش فيها ونحو ذلك .

وفي هذا المنحى أقصد الارتكاز على الأساس الفطري في تدعيم القيم وتزكيتها كان **تعويل المجتمع على علماء الشريعة ودعاة الإسلام في إشادة البناء الاجتماعي وتعليم الناس** ، والاعتماد على أسلوب الترهيب والترغيب فيما عند الله لا في أداء الشعائر التعبديَّة والأخلاق وإنما في العلاقات الإنسانيَّة والعمل الوظيفي والتعامل مع الأنظمة المختلفة .

والدولة والعلماء وعموم الناس يشعرون بأن هذا المنهج - التعويل على العلماء والدعاة. . . - هو المنهج الطبيعي والصحيح لدولة تحكم بشريعة الإسلام ، مما يثمر نتائج طيِّبةً في صالح الوطن والدَّولة والناس، ويعمِّق تلك القيم .

أمَّا حينما يعزل العلماء والدُّعاة -كما في مجتمعات أخرى- عن التوجيه، وتجفف منابع القيم الفاضلة نحو قيمٍ بديلة يُعوَّل في تدعيمها على مفكِّرين وأنصاف مثقَّفين لا يحملون تلك القيم في شخصيَّاتهم ولا الولاء الحقيقي للوطن في نفوسهم ، ولا يلتقون مع الجمهور في خطٍّ مشترك من تلك القيم فإنَّ النتيجة هي فساد المجتمع وتباعد الناس عن الدَّولة وعن أولئك المفكِّرين الذين يشعرون بعزلتهم عن المجتمع ، وغربتهم عن الوطن شيئاً فشيئاً ، فلا يجدون أمامهم سوى اتِّهام هذا المجتمع الرَّافض لطروحاتهم بالتخلُّف والظلاميَّة والتراجع إلى الوراء ونحوها من الأوصاف التي تصدق عليهم أكثر مما تصدق على مجتمعاتهم[(١)] .

---

(١) وكثيراً ما يعترف هؤلاء المثقفون بفشلهم في قيادة مجتمعاتهم نحو الأفضل ، وأنهم ما بين انتهازيٍّ=

* **ربط القيم بالعبوديَّة لله :**

العبوديَّة لله - كما سبق - قاعدة القيم كلها فكريَّةً أو خلقيَّةً أو جماليَّةً أو حضاريَّةً في دين الإسلام ؛ ولهذا لا مناص لمجتمعٍ يمثل الإسلام رسالته والشريعة منهجه كالمجتمع السّعودي من ربط قيمه كلها بهذه العبوديَّة .

وهذا الربط واضحٌ في كل قسمات الحياة الاجتماعيَّة .

ومن صور هذا الربط تلك القاعدة التي بها تتأطَّر قيمٌ كثيرةٌ وعلاقاتٌ متنوِّعةٌ ، وهي قاعدة « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1] التي يرد الآخذ بها كل ما يتلقَّاه من الآخرين ؛ مدرِّسينَ أو مسؤولين وقادةً إلى قيمة العبوديَّة لتحكم عليه بالقبول أو الرفض .

وهي قاعدةٌ مرفوضةٌ في كلِّ النظم العلمانيَّة خاصةً في المجال العسكري الذي يقضي بأن يكون صاحب الرتبة الأدنى منفِّذاً لأوامر ذي الرتبة الأعلى بدون أي مناقشةٍ فضلاً عن اعتراضٍ .

أمَّا في المملكة فإن الناشئ تُرسَّخُ في وعيه هذه القاعدة ضمن القواعد التي يُبنى عليها دينه مما يجعله مستعداً لتحقيقها في حياته في أيِّ إطارٍ ، وتتأكَّد هذه القاعدة في المجال العسكري أكثر حيث يقسم المتخرِّجون عليها حين يتعهَّدون بـ « أن أطيع قادتي في غير معصية الله » .

ومن صور ربط القيم بالعبوديَّة في الحياة الاجتماعيَّة اشتراط القيم الخلقيَّة

= مصلحيٌّ، ومتغرِّبٌ يجهل تراثه ودينه ، ومقلِّد استهلاكيٌّ لأفكار غيره ، ونحو ذلك من الأوصاف التي وصفوا بها أنفسهم . انظر : الإنتلجنسيا العربيَّة، مصدر سابق .

(١) أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي أنه ﷺ قال: « لا طاعةَ في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف » . انظر: جامع الأصول، ٨/ ٤١٦ .

والدين في طالب الزواج ، فلئن أصبح مجرَّد المهارة الحرفيَّة ، أو الشهادة أو الرَّصيد المالي سبب قبول الرجل زوجاً في المجتمعات التي نسيت الله وأهملتْ دينها حتى ولو كان هذا الرجل سيِّئ الأخلاق، منحرف الفكر، فاسد الدين، فإن المجتمع السعودي بحكم ما ورثه من تعظيم للدين وأولويَّة له في الحياة ، قد نجا من ذلك المنحدر ، فوليُّ الفتاة يهمُّه دين الشخص وصلاحه وحسن سيرته ونُبل أخلاقه بالدرجة الأولى ، حتى وإن كان هذا الوليُّ نفسه ضعيف الالتزام بالدِّين ، ثم تأتي بعد ذلك المؤهِّلات الأخرى شهادةً وعملاً ونحوها .

لا شكَّ أنَّ لهذه القاعدة شذوذات تتمثَّل في بعض الذين أعمتْهم المادة ، أو لعبتْ بهم الأهواء ، فضحوا بموليَّاتهم ولَم يرعوا فيهنَّ إلاً ولا ذمَّةً ، ولكنهم يبقون شذوذاً يتحدَّث عنهم المجتمع بازدراءٍ وتهجينٍ لصنيعهم ، والقاعدة خلافهم .

ومن أمثلة ربط القيم بالعبوديَّة لله السعي لإبراز الوجه الديني لأيٍّ قيمة يراد تكثيف اهتمام الناس بها ، حتى ولو كانتْ من القيم التي تمثِّلُ اهتماماً عالميّاً وتؤسس في غير المجتمع المسلم على الإنسانيَّة أو المصالح الماديَّة ، أو حقوق الأجيال المقبلة ونحو ذلك ، ومن أمثال هذه القيم : الإحسان إلى الحيوان ، والمحافظة على البيئة . . . إلخ .

والحقُّ أنه في المجتمع الذي تحكمه شريعة الله يصبح العمل كلُّه نشاطاً سياسيّاً أو اقتصاديّاً أو مسؤوليَّةً إداريّةً أو جهداً مهنيّاً أو غير ذلك جزءاً من عبوديَّة الشخص لخالقه، أي أنه ينطوي تحت قيمة العبوديَّة ، ولهذا نجد أنَّ الشخص كلما قوي تديُّنه لله صار أكثر انضباطاً في عمله وأمانةً في القيام بما وُكل إليه ، والعكس أيضاً صحيحٌ إذا رأيت إنساناً قليل الأمانة فيما أنيط به مهملاً في أداء عمله فإنك تحكم تلقائيّاً بأنه ضعيف الإيمان ناقص الالتزام بدينه علماً وعملاً .

* ومن زكاء القيم : **تلاشي التفرقة العنصريَّة** بدرجة كبيرة جداً ، حيث يشعر الناس على اختلاف أعرافهم القبليَّة ، وألوانهم بالتَّساويَ والأخوَّة في المجالات الحيويَّة كطلب العلم ، وتولِّي المسؤوليَّات ونحو ذلك ، وتدرك قيمة فاعليَّة هذه القيمة بأساسها الديني الشرعي إذا عرفنا أنَّ هذه الأخوة والمساواة قد تبلورتْ في مجتمعٍ كانت الرُّوح القبليَّة تسوده إلى عقود قليلة ، وأنَّ مجتمعات أخرى حاول قادتها استحداث أنظمة تقاوم التفرقة العنَصريَّة ، في ظلِّ وضعٍ حضاريٍّ يساعد على سرعة التغيير ، ولكن هذه التفرقة ما تزال ضاربةً أطنابها في حياة تلك المجتمعات تهدأ أحياناً وتنبعث عند أصغر شرارةٍ تُذْكِي نيرانها ، والمجتمع الأمريكي نموذجٌ لذلك .

* **الرَّابطة القرابيَّة** : « من قيم المجتمع المسلم : أنَّ بين الولد وأبيه رابطةً أبديَّةً لا تنفصم عراها ببلوغ الابن رشده ، أو باستقلاله الاقتصادي ، أو بزواجه ، كما هو عند الغربيِّين الذين يصبح الابن عندهم بعد أن يكبر ويتزوَّج كأنه شخصٌ غريبٌ عن أبويه ، لا يكاد يعرفهما إلا في المناسبات إن عرفهما ، بل إن الإسلام ليوسِّع دائرة الأسرة حتى تشمل الأقارب من الأصول والفروع والعصبة وكل ذي رحم محرَّمٍ من الرجال والنساء ، فالأجداد والجدات والأحفاد والأسباط والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم . . . كل هؤلاء أرحامٌ يجب أن توصل ، وقربةٌ يجب أن تُرعى ، ولها حقوقٌ يجب أن تؤدَّى من الزيارة والمودَّة والإحسان ، إلى وجوب النفقة والرعاية بالمعروف : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[1] ﴿ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾[2] »[3]. هذه القيمة الجليلة « الرابطة العائليَّة »

---

(١) الآية رقم (١) من سورة النساء . (٢) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنفال .

(٣) ملامح المجتمع المسلم ، ص ١١٣ ، مصدر سابق .

بما تثمره من حميميَّة وتكافل اجتماعيٍّ وشعور متبادل بالولاء بين الإنسان ومن حوله لا يتجلَّى طهرها وحيويَّتها إلا في مجتمعٍ يطبّق شرع الله ويعي فيه الفرد مسؤوليَّته في الوجود عبوديَّةً لخالقه ، وإحساناً وبرّاً بالخلق ، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه .

ولهذا فإنَّ الانحراف الذي وقع في الرابطة العائليَّة فأدَّى إلى جفاف العلاقات ، والتفكُّك الأسري وشعور الشخص بالغربة بين أهله وقرابته لم ينحصر في الغربيِّين غير المسلمين ، وإنما حدث في كثير من المجتمعات المسلمة التي صارتْ تحكم العلاقات بين أفرادها معاييرُ أخرى - غير الشريعة - كالأنانية الفرديَّة ، وحريَّة الاستقلال التام بين الوالدين وأبنائهم وبين الإخوة والمصالح الشخصيَّة وغيرها ، حتى إنك لا تفرِّق بين هؤلاء وأولئك الكفار في طبيعة هذه العلاقات .

في المجتمع السُّعودي كانت العلاقات تأخذ منحًى قبليّاً تتكثَّف فيه لحمة العلاقة القبليَّة على حساب العلاقة مع الآخرين ، وكانت العلاقة العائليَّة قائمةً على مأثور الشرع ودافع الفطرة والمروءة إكراماً للوالدين واحتراماً للكبير من الإخوة والأعمام ، واهتماماً بالصغير ونحو ذلك ، فلما تشكَّل الكيان السعودي على يد الملك عبد العزيز سعى من خلال العلماء والدُّعاة ثم التعليم والإعلام إلى تهذيب العلاقات الاجتماعيَّة وفق منظور الشرع والقيم الفطريَّة الإنسانيَّة ، ومنها العلاقات العائليَّة التي كان الملك عبد العزيز نفسه نموذجاً في الوفاء بها بصورتها السَّامية ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك في تعامله مع والده وإخوته وسائر أقاربه ، وكان من ضمن ما أوصى به ابنه الملك سعود - رحمه الله - حينما بُويِع بالعهد قوله : « . . . وأوصيك بالنظر في أمور المسلمين عامةً ، وأمر أسرتك خاصةً ؛ اجعل كبيرهم والداً ومتوسِّطهم أخاً ، وصغيرهم

ولداً، وأهِنْ نفسك لرضاهم، وامح زلّتهم، وأقِلْ عثرتهم، وانصح لهم، واقض لوازمهم بقدر إمكانك»[1].

وإليك صورتين واقعيَّتين تعكسان نموذج العلاقات القرابيَّة في المجتمع السُّعودي خلال العقود التي سبقتْ الانفتاح الحضاري في أواخر القرن المنصرم :

الأولى : التماسك العائلي ، وارتباط الولد بإخوانه وأعمامه وأبنائهم بسبب وحدة السَّكن أو تجاوره ، مما يجعل العائلة الكبيرة المكوَّنة من عدة أسر تجتمع في بعض الوجبات الرئيسة ، كالغداء أو العشاء ، فضلاً عن اللِّقاءات الجامعة التي تكون بسبب قدوم أحد وُجهاء العائلة بعد غُربة عن البلدة ، ومثل ذلك الاجتماع التخييمي الذي يقوم به الناس خلالَ المواسم الرَّبيعيَّة الخصبة في المروج الخضراء لأيامٍ قد تمتدُّ إلى شهرٍ أو شهرين ، ويسمَّى التخليف .

الثانية : الشعور بالمسؤوليَّة الاجتماعيَّة من قبل كل فردٍ من العائلة ، وهذا الشعور له جانبان :

الأوّل : هو أن شدة الحياة والعوز الذي يتعاظم في بعض السنين حتى يلجئ الناس إلى الهجرة عن مواطنهم أعواماً متواليةً ، يجعل الناس يشعرون بضرورة التضامن فيما بينهم ، والبعد عن الاستئثار لدى القادر هذا اليوم ، خشية الغد الذي يكون فيه معوزاً ، ومن ثم محتاجاً لغيره ، فضلاً عمَّا استقرَّ في روع الناس من توجيهات الدين الإسلامي في البر والصِّلة ، وإكرام الجار ، وذي القربى ، ومن الأريحيَّة العربيَّة المتأصِّلة في نفوس الناس .

---

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، للزركلي ص ١٥٨ ، مصدر سابق .

الثاني: أنَّ معايشة الفرد لعائلته بما لها من سمت محافظ ، وكرامة عريقة ، تجعله يشعر بمسؤوليَّته تجاهها، أكثر من مسؤوليَّته تجاه نفسه، وهذه المسألة واضحةٌ في الواقع ، فإن الإنسان قد لا يكترث كثيراً بسبِّك شخصه ، ولكنَّك لو تعرَّضتَ لعائلته بالسَّبِّ لثارَتْ ثائرته ، ودافع عن كرامتها التي هي كرامته .

هذا الشعور تجاه العائلة يتجاوز هذا الأمر إلى أن يجعل الفرد يتحاشى الوقوع في المزالق الخلقيَّة ، والورْطات التي لا تُحمد عواقبها ، رعايةً لكرامة عائلته، وحفاظاً على سمتها المعروف، بل وحذراً من « الضغط الاجتماعي» الذي ستمارسه العائلة تجاهه لو وقع في شيء من هذا ، ولو بالنظر الشَّزْرِ، والقذف بالكلمات المحمومة عليه، أو على والديه أو أولاده .

ولهذا نجد أنَّ الأفراد وحتى الأسر الصَّغيرة التي ابتعدتْ عن عوائلها الكبرى سكناً وتواصلاً ، خاصَّةً التي تغترب في المُدن الكبرى المختلطة والمجتمعات المنوَّعة ، يضعف إحساس فردها الاجتماعي ، وولائه لعائلته، ويلاحظ أنَّ الذي ينشأ في هذه الغربة يلازمه شعورٌ بفقد الهويَّة ، أو على الأقلِّ ضعف الشعور بها، ولا تعوِّضه عن ذلك « شلله وبشكاته » التي قد يمنحها حبَّه وولاءه وطمعه في ملء فراغه ، خاصَّةً إذا كان هذا الشاب تائهاً شارداً عن الحقِّ .

وإزاء هذه المسؤوليَّة الاجتماعيَّة التي يشعر بها الفرد تجاه عائلته هناك شعورٌ جماعيٌّ من العائلة تجاه أي فرد منها، لا ينحصر في زيارته إذا مرض، وتعزيته إذا أصيب، وإجابته إذا دعا فحسب،

وإنما يتجاوز ذلك إلى الاحتجاج على بعض تصرُّفاته التي تشينُ ، فقد يجتمع كبار العائلة للتباحث في أمر فلان منها ، إذا شاع عنه ما لا يليق بالعائلة ، ويكلِّمون أباه ، وقد يتَّخذونَ موقفاً أشدَّ صرامةً ، وبالمقابل فقد تجتمع العائلة لاستنقاذ أحد أفرادها من مشكلة وقع بها بالتوسُّط لدى أفراد المشكلة الآخرين ، سواءٌ كانتْ جهات رسميَّة أو غير رسميَّة ، وبتحمُّل ما حُمِّله بسبب هذه المشكلة .

وعموماً فإن ما وجَّه إليه الإسلام من قيم سامية في العائلة الإنسانيَّة ، وجد في العائلة مجالاً تطبيقيّاً خصباً ، برّاً وإكراماً واحتراماً للكبير وحنوّاً على الصَّغير ، ورعايةً للعهد وحفظاً للحرمات »[1] .

ثم انفتح المجتمع السعودي على المجتمعات المحيطة ، وحدثتْ تحوُّلاتٌ مدنيَّةٌ وثقافيَّةٌ أدَّتْ إلى تغيُّرات في الحياة الاجتماعيَّة ، طفرةً ماديَّةً بعد حالات فقر أو كفاف ، وحياةً مدنيَّةً معقَّدةً بعد حياة ريفيَّة بسيطة ، وتفاوتاً ثقافيّاً بين جيلَين ، جيلَ الآباء غير المتعلِّمين وجيل الأبناء المتعلِّمين ، فكان لهذه التغيُّرات أثرها في العلاقات العائليَّة التي أصابها الجفاف ، والتقاطع والاستعاضة عنها بالشِّلل وزملاء العمل أو الدراسة ، والانشغالات الشخصيَّة ، وعدم المبالاة بقضايا عائلته إذا لم يكن ثَمَّ مردودٌ ماديٌّ خاصٌّ يرجع إليه .

ولم يكن هذا الوضع السَّلبي الذي آلتْ إليه العلاقات العائليَّة مقبولاً من الناحية الشرعيَّة ولا من الناحية الإنسانيَّة ؛ ولهذا كان يؤرِّق نفوس الكثيرين من الناس هذا الوضع على الرغم من وقوعهم فيه ، وزاد هذا الأرق حتى أفرز رغبةً صادقةً في العودة إلى التواصل العائلي واتِّقاء التفكُّك الذي عانوا من آثاره

(١) من بحثٍ للمؤلف بعنوان : الطهر العائلي . سينشر قريباً ، ص ٦١ ، ٦٢ .

السيِّئة ، وقد حاول الناس في تحقيق هذا التواصل واستعادة الروح العائليَّة حيويَّتَها اصطناع عددٍ من المظاهر الجماعيَّة المناسبة لأوضاع الناس الآن .

ومن أبرز هذه المظاهر :

- الدَّوريات ؛ وهي اجتماعٌ عائليٌّ ثابتٌ غالباً ما يكون شهرياً، يلتقي فيه غالب أفراد العائلة في مدينة واحدة أو أكثر ، وهو أكثر المظاهر انتشاراً حيث يندر -الآن- وجود عائلة لا دوريَّة لها .
- صندوق العائلة ، وهو حسابٌ خاصٌ للعائلة في أحد البنوك تقوم على تمويله العائلة ، ويصرف منه على المحتاجين منها حسب مواصفات معيَّنة .
- الاستراحات ، ومثلها المخيمات التي تقام للاجتماعات العامة للعائلة في الإجازات أو المناسبات العائليَّة أو غيرها .

وهناك فضلاً عن المظاهر العامة للتواصل العائلي مبادراتٌ فرديَّةٌ من أشخاصٍ في العائلة تستهدف زيادة إحياء هذا التماسك العائلي وتقريب القلوب والنفوس ، وفق ما وجّه الشرع الشريف .

ولا شكَّ أن هذه الروح الرَّاغبة في إشادة قيم الولاء القرابي بمظاهرها المتعدِّدة منبثقةٌ من الجوِّ الذي تعيش فيه، ومدعومةٌ منه ، وهو الجوّ الإسلامي على المستويَيْن الخاص والعام .

* من القيم التي تفرَّد المجتمع السعودي بدعمها وتزكيتها في ظلِّ تحطيمٍ عالميٍّ لها تحت شعارات الحريَّة والمساواة : **عفَّة المرأة وحشمتها** .

إنَّ العفة مسلكٌ فطريٌّ للأنثى لا تشعر بإنسانيَّتها الحقيقيَّة إلا باحتفاظها بها ، وبحشمتها التي تحفظها عن الأدناس ، فإذا تحلَّلت المرأة من ضوابط العفَّة والصِّيانة فتبرَّجتْ وسفرتْ واختلطتْ بالرجال ، فإنها تكون قد انحرفتْ عن

فطرتها الأنثويَّة الإنسانيَّة ، وتحوَّلتْ إلى مخلوق أحطَّ من الحيوان في شعورها هي عن نفسها ، وفي شعور الرجال حتى من المستمتعين بها ، حتى إنَّ العاهر إذا ارعَوَى واتَّجه إلى إقامة رابط إنسانيٍّ بامرأة بعقد الزواج يأنف أن يرتبط بواحدةٍ من اللائي كان يفجر بهنَّ ، أو اشتهرنَ بغير العفَّة والصِّيانة .

ولقد كان من أسباب انهيار عددٍ من الحضارات تهتُّك المرأة وفقدها طبيعتها الأنثويَّة .

وقد جاء الإسلام ليعيد للمرأة كرامتها وإنسانيَّتها التي أذهبتْها الجاهليَّات السَّابقة على بعثة محمَّد ﷺ ، فصانها من مُدَنِّسات الفضيلة ، وأمرها بالاحتشام ، ونهاها عن التبرُّج والسُّفور والاختلاط المريب بالرجال ، وبين لها أنها مع أخذها بهذه المعالم الهادية ينبغي أن تُؤدِّيَ دورها الاستخلافي كالرجل في هذه الحياة ، طلباً للعلم ، وعملاً بما يحقِّق مصالح نفسها وبيتها ومجتمعها ، وما يحقِّق لها فلاحها الأخروي : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] .

وقد استوعبت المسلمةُ في القرون الأولى هذه التوجيهات الشرعيَّة فقدَّمت النموذج النسائي الأعلى في الحضارة الإسلاميَّة التي ازدهرتْ في قرون الإسلام الأولى .

أمَّا المرأة في العصور الحديثة فإنها بسبب فلسفات ونظريَّات إلحاديَّة وضعها أناسٌ مَوْتورون من الدِّين وإنسانيَّة الإنسان من الفلاسفةِ وعلماءَ الاجتماع ، وبسبب حركات اجتماعيَّة قامتْ لتنفيذ هذه الفلسفات والنظريَّات باسم تحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها قد انحدرتْ في الغرب نحو هاويةِ الضَّياع ،

---

(١) الآية رقم (٩٧) من سورة النحل .

فأجبرتْ على الاختلاط ، واضطرَّتْ إلى ممارسة أعمال الرجال ، واستبيحتْ حرمتها الأنثويَّة حينما دُفعَتْ إلى الرَّذيلة الصَّريحة ، وجعلتْ هذه الأحوال هي الوضع الطَّبيعي الذي تاهَتْ عنه المرأة قديماً ، وقرَّرتْ بعض الدِّراسات النفسيَّة أنَّ خلوَّ الفتاة من صديق تعاشره ، وبقاء البكارة في المرحلة الجامعيَّة دليلٌ على مرضٍ نفسيٍّ لدى الفتاة ، وانطوائيَّةٌ وشعورٌ بالاغتراب تحتاج إلى علاجٍ[1] .

وقد قذف الغرب بهذه الحمى القاتلة إلى عالمنا الإسلامي عبر قنوات عديدة ، فسلكتْ مجتمعاتٌ مسلمةٌ عديدةٌ مسلك الغرب في كلِّ ما يتعلَّق بالمرأة تبرُّجاً وسفوراً ، واختلاطاً وإباحةً للعلاقات غير المشروعة ، وتنظيماً لممارسة الرَّذيلة ، ومتاجرةً بجسم المرأة في الإعلانات ، وأغلفة المجلات ، وأفلام الدَّعارة ، والجذب السِّياحي ، ومحاربة للحجاب وللعلاقات الشَّرعيَّة بين الرجل والمرأة كما في منع تعدُّد الزوجات . . . إلخ .

ولقد عانى المسلمون الملتزمون بدينهم في هذه المجتمعات ، ولَقُوا عَنَتاً شديداً ؛ لأن المسلم الملتزم إمَّا أن يحافظ على أهله وبناته فيعتزل المجتمع المدني ويحرم نساءه من الدِّراسة والعمل ، وإمَّا أن يداخل هذه الحياة فتصيبه وأهله ويلاتها .

في المجتمع السَّعودي كان هناك خطٌّ آخر .

عفَّةُ المرأة وصيانة عرضها من لوث الرَّذيلة ليس بوضع مساومة أو جدل لا من الدَّولة ولا من الشعب ، فلم يكن يدور بخَلَد أيٍّ من قادة الدَّولة أو علمائها ، أو حتى عامة شعبها أن تسير المسلمة في ذلك المسلك الإباحي

---

(١) حسبنا مثلاً نظريات فرويد التي تجعل الحياة كلَّها انبثاقاً جنسيّاً ، وفلسفة الوجوديَّة « السَّارتريَّة » في تحلُّلها الخلقي .

التبرُّجي الذي سلكتْهُ أختها المسلمة في كثير من المجتمعات تأثُّراً بالغربيَّات؛ لأن الأمر هنا محسومٌ عرفاً وإنسانيَّةً « مروءةً » وشرعاً .

ومن ثَمَّ بقيتْ هذه العفة موضع رعاية وتأكيد وتكريس من قبل العلماء والدُّعاة وبرامج الدَّولة والعرف الاجتماعيِّ، وظلَّ مسلكَ التهتُّك مجال مقاومةٍ واستبعادٍ من كلِّ الأطراف .

ولكن ذلك ما كان يعني قطع المرأة عن تحقيق وجودها الإنساني في الحياة ، ومشاركتها شقيقها الرجل في بناء الكيان العائلي والاجتماعي .

لقد فتحتْ لها المدارس والجامعات ، وفتحتْ أمامها أبواب العمل المناسب لطبيعتها ، ومارستْ وظيفتها الاجتماعيَّة والثقافيَّة في مجالات الفكر والإعلام والجمعيَّات النسائيَّة وغيرها .

وحقَّقتْ تقدُّماً مشهوداً في القيام بدورها بما يضاهي بل يفوق زميلاتها في مجتمعات أخرى .

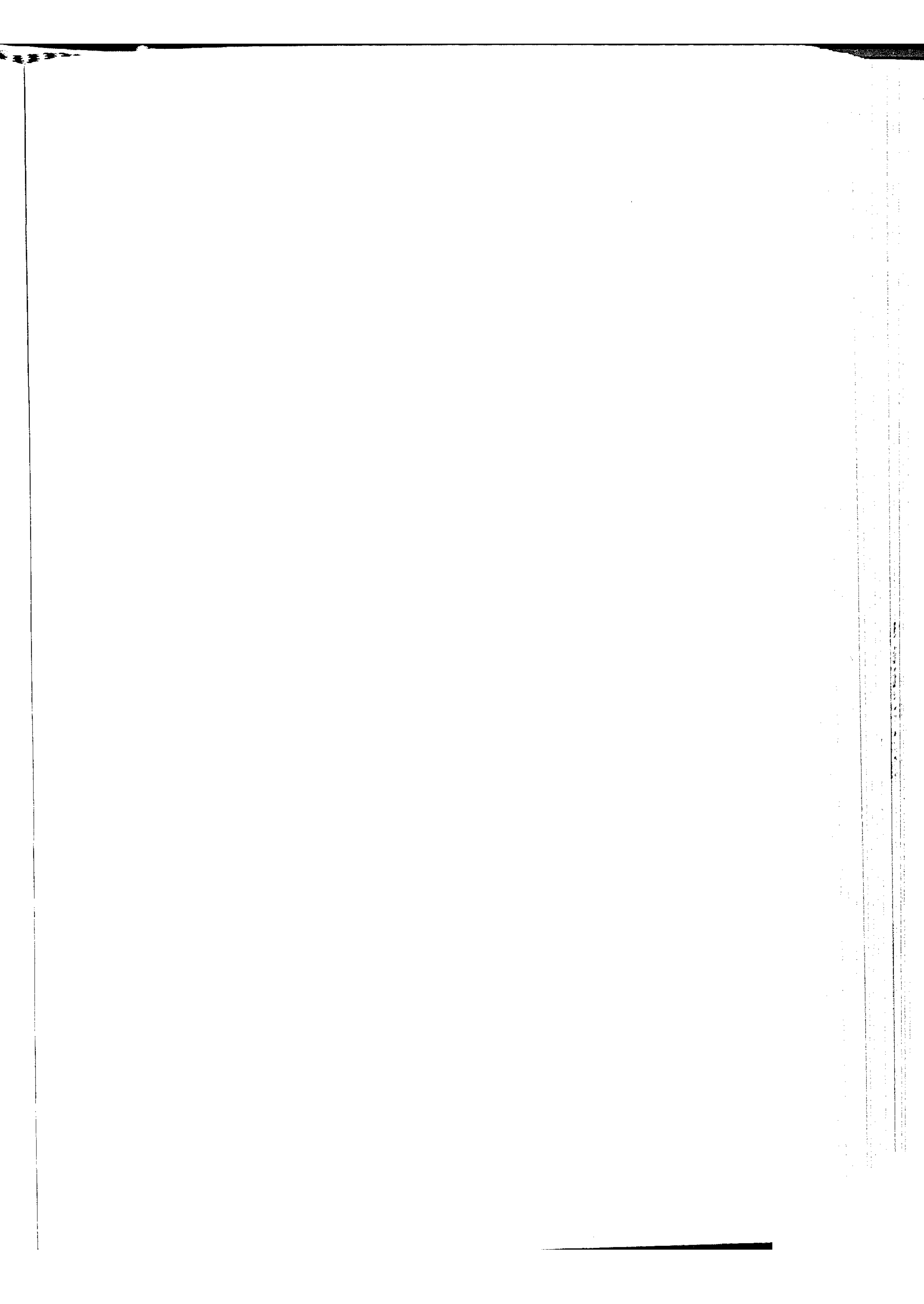
واليوم والغرب ومن ثَمَّ المتتبِّعون خطاه من العرب والمسلمين بدأ يدرك من خلال عقلاء مفكِّريه ، وأصحاب التجارب أنفسهم في ميادين حركة المرأة ما جَرَّه مسلكها التحريري من ضياع وانتكاس للأحوال، واضطراب في الحياة الأسريَّة أوّلاً والمعاشيَّة ثانياً ، والعلاقات الجنسيَّة ثالثاً ، والوجود الحضاري كلّه أخيراً ، وهو لذلك يسعى لوضع مسالك جديدة لحياته، يتفادى بها تلك المصائب التي جلبتها عليه مسالكه السَّابقة ، ولن يجد في غير شرع الله منهجاً ينقذه من تلك المصائب .

أمَّا العالم الإسلامي فإنه يدرك الآن هذه الحقيقة جيِّداً ، وسيجد أنَّ أقرب

نموذجٍ تطبيقيٍّ للحفاظ على قيم العفَّة وحفظ كرامة المرأة وحفظ الأعراض هو المجتمعُ السُّعودي الذي تبلورتْ فيه هذه القيم نتيجةَ تطبيقه لشريعة الإسلام .

هذه إلماحةٌ إلى آثار تطبيق شريعة الله في هذا المجتمع ، في رعاية القيم الصَّالحة وتزكيتها ، لتظلَّ قواعد هاديةً تقوم عليها حياة الإنسان ، فتسمو متعاليةً عن الحياة الحيوانيَّة التي يتردَّى إليها من انحرف عن هذه القواعد شخصاً أو مجتمعاً .

ولا شكَّ أنَّ بشريَّة المجتمع السعودي تقضي بأنه لا يمثِّل الكمال في التزام هذه القيم ، ولا في تمثُّل جميع أفراده لمقتضياتها ، فقد تبرز في المجتمع ظواهر لا تتسق مع القيم الفاضلة لأسبابٍ متعدِّدة ، وقد يُوجد في المجتمع أفرادٌ يَشذُّون عن مسيرته بسبب تأثيرات خَاصَّة بهم ، ولكن عموم المجتمع ونظامه العام هو مدار الحكم الذي يقف عندهُ المتأمِّل في الواقع لرصده ودراسته .



المبحث الثالث

الأمنُ النَّفسي

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] .

هاتان الآيتان من سورة طه تقرِّران بوضوح -كما سبق في التمهيد- أنَّ الأمن النفسي نصيبُ مَنِ التزَمَ شريعة الله ، وأن الشقاء ونكد الحياة نصيب من أعرض عن هدي الله .

وينبغي أن نعيَ أنَّ قوله تعالى : ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لا تتجه إلى الجانب المادِّي مأكلاً ومشرباً وملبساً بالدَّرجة الأولى ، إذْ قد تتوفَّر هذه الأشياء كلُّها للشخص ويستمتع بها ولكنه في الوقت نفسه لا يجد للسعادة طعماً ، ولا للحياة هناءةً حتى يؤول به الأمر إلى الإدمان ، أو حتى الانتحار تخلُّصاً من هذه الحياة النكدة ، مخلِّفاً وراءه ألوان المتع الماديَّة[2] .

الأمن النفسي يتمثَّل في تجلِّيات عديدة لها أبعادٌ ظاهريَّةٌ وأبعادٌ داخليَّةٌ لا يوجد طعم الحياة ولا قيمتها إلا بتوافرها في الشخص ، كما في الكيان الاجتماعي بمختلف علاقاته وبنياته .

إنَّ الأمن النفسي يتمثَّل بـ:

- الشعور بالرضا والسَّكينة والطمأنينة التي تغمر الإنسان وجوَّ المجتمع كلّه .

---

(١) الآيتان رقم (١٢٣-١٢٤) من سورة طه .

(٢) انظر قصة : "« كرستينا أوناسيس" التي ورثتْ عن أبيها خمسة آلاف مليون ريال وأسطولاً بحرياً وشركات طيران وجزراً بحريَّةً ، ولكنها عاشتْ تعيسة ثمَّ وُجدتْ ميِّتةً في أحد شاليهاتها . من كتاب : تجاربهم مع السعادة ، لعبد الله الجعيثن ، ص ١١١ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ، الرياض .

- وبالشعور الواثق بوضوح الطريق أمامه ، طريق العقيدة في مجال الفكر ، وطريق السُّلوك في مجال التعبد والأخلاق .
- وبوحدة الاتِّجاه نحو شريعة واحدة وإله واحد في ذات الشخص وفي حياة المجتمع دون توزُّعٍ مرهقٍ للنفس في المُتَوَجَّه إليه ، أو في التشريعات المفروضة عليها .
- وبإشباع النزعات الغريزيَّة في الإنسان ماديَّةً وروحيَّةً بميزان عدل لا إفراط فيه ولا تفريط .
- وبالنظرة التفاؤليَّة للمستقبل سواءٌ في نطاق هذه الحياة ، أو في الحياة الآخرة حيث الأمان مضمونٌ في كلا المستقبلين للمستقيم على شرع الله .
- وبالأمان المتبادل بينه وبين الآخرين من حوله، ممن يدينون بدينه ويخضعون للشرع الذي يخضع له ويتَّحدون معه في الغاية ، ويشعرون إزاءه بحقوق متبادلة .
- وبالعلاقة الحميمة بكل من حوله وما حوله ؛ بالنظام الذي يحكمه ، والشعب الذي يعيش في وسطه ، والوطن الذي يتفيَّأ ظلاله ، والحكام الذين يسوسون أمره، والعلماء الذين يوجِّهون فكره .
- وبالارتكاز على عنصر الثبات في التصوُّرات العقديَّة والأحكام الشَّرعيَّة ، التي يعتقد صاحبها يقيناً أنها الحقُّ الذي لن يأتيه باطلٌ من بين يديه ولا من خلفه .

. . . . إلى آخر تجليات الأمن النفسي في حياة الفرد وفي حياة المجتمع .

هذه التجليات وأمثالها لا توجد بصورتها المتكاملة والعميقة إلا في ظلال شريعة الله حينما تهيمن على القلوب وتسود حياة الناس ، فتتجلَّى ثمار حملها أمناً وأماناً وارف الظِّلال .

ولقد حقَّق المجتمع السُّعودي في هذا العصر بعد توحُّده على يد الملك عبد العزيز - رحمه الله - صورةً عليا في تحقيق الأمن النفسي العام أصبحتْ مضرب المثل بالنسبة لما سبقها من حالة خوف وقلق ، وما يجري في كثيرٍ من المجتمعات المحيطة به من اضطرابٍ وفساد أحوالٍ .

إنَّ أجدادنا الأقربين الذين عاشوا قبل فترة الاستقرار السعودي في عهد الملك عبد العزيز يحدِّثون عن أمور مهولة لا يتصوَّرها الإنسان إلا في غابة وحوش ، حالات سلب ونهب ، وصِراعِ حاضرةٍ مع بادية ، أو قبيلة مع أخرى ، وعدم الانصياع للسلطاتِ المحلِّيَّة المستضعفة ، واستباحةٍ لكثيرٍ من المحرَّمات .

يعيش الناس أكثر الأيام على أعصابهم في حالة استنفار ؛ إذا كان وقت الزرع وضعوا أيديهم على قلوبهم خشيةً من اعتداء على ما بذلوا فيه عرقهم من زرعٍ ، وإذا كان وقت الرعي خافوا على أنعامهم من قطاع الطرق المسمَّين بـ(الحنشل) ، وإذا كانوا في سفر توقَّعوا كل لحظة هجوم هؤلاء الصَّعاليك عليهم ، وإذا كانوا في بيوتهم ساورهم القلقُ نهاراً وليلاً من اعتداء على حرماتهم وأموالهم ، وهكذا تحيط بهم كآبة الحياة في غالب لحظاتهم التي يعيشونها في قلق وخوف وترقُّب وجلٍ لمفاجآت قد تغيِّرُ مسار حياة الواحد منهم وتهدم صورة المستقبل التي رسمها لنفسه لمن يتجاوز به طموحه هذه العوائق ، وإلا فالغالب من الناس رضوخاً منهم لوطأة ذلك الواقع لا مجال لديهم لطموحاتٍ مستقبليَّة لأشخاصهم فضلاً عن طموحاتٍ حضاريَّة لمجتمعاتهم وأمتهم .

ولهذا كان من الجوانب العبقريَّة في شخصيَّة الملك عبد العزيز رحمه الله ، وهو الذي عاش مثل أجدادنا هذا اللَّون من الحياة ، بل عانى ما هو أسوأ منه ، وهو يرى ملك أجداده يتهاوى وأسرته تضيق بها نجد التي حكموها والخليج الذي أووا إليه -كان من جوانب عبقريَّته- ذلك الطموح الأشمّ الذي فزع به من

الكويت ليقوم بحركة تاريخيَّة نادرة المثال، من مبادئها : تحقيق الأمن الشامل ومطاردة الهلع والاضطراب والفتنة المكدِّرة للحياة الإنسانيَّة في هذا المجتمع ، معتمداً على الوسيلة الناجعة لتحقيق هذه الغاية ، وهي تطبيق شريعة الله في المجتمع ، وردّ الناس كلهم نحو منهج الله ليعمر قلوبهم فترشد نفوسهم فتهتدي ، وحركتهم فتنضبط ، على منطق العدل والحقِّ في الأخذ والعطاء انضباطاً ذاتيّاً مصدر إلزامه الإيمان بالله واليوم الآخر، أو ضبطاً خارجيّاً تفرضه الدَّولة على من ضعف مصدر الإلزام الداخلي لديه .

ولا بدَّ أن أؤكِّد هنا أنَّ الأمن النفسي والاجتماعي الذي تحقق للمجتمع السعودي بعد توحيد الملك عبد العزيز للمملكة بسبب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة لا يرتدُّ إلى تطبيق حدود الله على المجرمين وحده، وإن كان جزءاً مهمّاً من الشريعة ومن قوى الرَّدع لنزعات الشرِّ في البشر، ولكنه يعود إلى صبغ حياة المجتمع كلها بصبغة الله، ببناء التعليم على تربية قلب الناشئ على الخوف من الله واليوم الآخر والالتزام بالدين ، وبإيقاظ الحسِّ الإيماني في المجتمع كلّه تجاه الخروج على الشريعة حيث يمارس المجتمع كله ضغطاً اجتماعيّاً على من تسوِّل له نفسه اختراق السياج الأمني الذي أشاده ، وبالتذكير المتواصل بالدين وجوانب الشريعة ومقتضيات النظرة الإنسانيَّة التي ينبغي أن تكون حاضرةً في وعي كلِّ فرد أياً كان عمره وموقعه الاجتماعي، من قبل العلماء والدُّعاة وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبالنظام القضائي الذي يعي أحكامه العامة سائر الناس بحكم أنهم يقرؤونه في القرآن والسُّنّة .

بهذه القنوات وأمثالها بُني المجتمع على أساس مكين من الدِّين والفضيلة ، وأقيمت الحواجز أمام زواحف الضلال والجريمة التي تريد النفاذ إليه .

ولهذا حينما انفتح المجتمع السعودي على المجتمعات الأخرى فكثرت من جهة العمالة التي لم يستمد أغلب أفرادها من تلك القنوات ، وانفتحتْ من جهة أخرى قنوات تأثير على الناس تشغب على القنوات السَّابقة برزتْ ظواهر من الاختراقات الأمنيَّة التي لم تكن موجودةً من قبل بهذه الصُّورة ، وإن لم تهز الأمن النفسي للمجتمع ، لكنها ندوبات في جداره .

إنَّ حالة الأمن التي رسخها الملك عبد العزيز في المملكة ظلَّتْ مثار إعجاب المستقرئين والزائرين للمملكة من المسلمين وغيرهم الذين يقارنون بين هذه الحالة لدى دولة في بدايات تشكُّلها ، وفي مجتمعٍ إلى البداوة أقرب ، وحالة أوربا وأمريكا التي استقرَّتْ فيها الدول ونظمها منذ عقود طويلة ، فيجدون « أنه ليصعب علينا -كما يقول " جير الددي غوري " - أن نتخيَّل تبدُّلاً جذريّاً يتحقَّق في مثل هذا الوقت القصير . . . فالأمن في العربيَّة السعوديَّة مدهشٌ ، وهو أكثر شمولاً منه في أيِّ بلدٍ أوربّي »(١) .

ويتساءل " جون فانيس " : « لو أرسلت مالاً في سيارة غير مسلَّحة ألف ميلٍ في الولايات المتحدة فكم هي المسافة التي تظنُّ أنَّ السَّائق والسيَّارة يجتازانها ، أما في الجزيرة العربيَّة فيقطعان المسافة كلها في أمنٍ تامٍ ، ومن دون أيِّ معارضةٍ من أيِّ شخصٍ »(٢) .

وفي دراسة الدكتور " حسن السَّاعاتي " **لأسلوب الملك عبد العزيز تجاه قضيَّة الأمن** التي مرَّتْ كما يرى في مراحل ثلاث سمَّاها :

- مرحلة التكامل .

---

(١) موعد مع الشجاعة ، قدري قلعه جي ، ص ٢٧٠ ، دار الكتاب العربي، ١٣٩١هـ.

(٢) ملاقاة الغربي جون فانيس، من: الملك عبد العزيز ، رؤية عالميَّة ، ص ٢٧١ .

- ثم مرحلة التأقلم .
- ثم مرحلة التجديد .

يفصِّل منهج الملك عبد العزيز في هذه المراحل الثلاث فيقول :

« لقد كان التكامل الأمني الذي ألهم الملك عبد العزيز بفكرته ، وبذل لإنجاحه الكثير من جهده وصحَّته وراحته ، يقوم على أساس توطين أعداد كبيرة من بدو القبائل الرُّحَّل ، في حللٍ وقرًى صغيرة تقام بجوار العيون والآبارَ بجهودهم الذاتيَّة ، وبما أخذ الملك يمدهم به -وفقَ خطة متكاملة- من مال لشراء حاجاتهم وبذورٍ يزرعونها وأدوات يفلحون بها الأرض التيَّ أصبحواً يرتبطون بها ، ويعيشونَ على جني ثمارهاً ، فاستقروا وشغلهم العمل المنتج وعبادة الله في المساجد التي أقاموها عن الغزو وما فيه من عدوان وقتل ونهب وسلبٍ ، ورأى أن يعلي فيهم نزعاتهم العدوانيَّة ، بأن يستبدل بهاَ الجهاد ضدَّ الخارجِين على شريعة الإسلام العصاة المتمرِّدين على كل نظامٍ ، تلك كانت تجربة الهجر التي انتشرتْ في اثنتين وسبعين قريةً ومحلَّةً ، واستطاع أن يجنِّد من سكَّانها جند التوحيد ، حيث وحَّد بهم البلاد ، ثم جعل منهم ومن غيرهم من أهل الحضر ، جنداً نظامياً مدرباً .

وفي المرحلة الثانية التي كان فيها ملكاً على كامل نجد حيث البداوة متأصلةٌ ، والحجاز حيث الحضارة غالبةٌ ، رأى أن يترك نظام الأمن في كلٍّ منهما ينمو وفق النظم السَّائدة وبالخطى التي يتقدَّم بها النمو الذي رعاه ولده سعود في نجد ، وولده فيصل في الحجاز ، تحت إشرافه الأعلى وبتوجيهاته السامية الحكيمة ، وهكذا تمكن من نشر الأمن في ربوع نجد والحجاز ، وأصبح أهلها والمسلمون الوافدون للحج ينعمون بالأمن والطمأنينة ؛ تلك كانت المرحلة الانتقاليَّة ، التي تأقلم فيها الأمن وفق بيئة نجد والحجاز وظروف الحياة في كلٍّ منهما .

أمَّا المرحلة الثالثة فكانت مرحلةً تجديديَّةً ، نظم الملك عبد العزيز فيها الأمن في جميع البلاد بعد توحيدها في المملكة العربيَّة السعوديَّة وفق مقتضيات الحكم والإدارة والتنظيم الأمني في العصر الحديث ، مقتبساً من ذلك ما ينفع رعيَّته في حدود الاعتدال ، ووفق ما يتمشَّى مع أسلوب حياتهم ، التي نعموا فيها بالاستقرار تحت رعايته ، فقد كان رائده نشر كلمة التوحيد ، والحكم بشريعة الإسلام ، فاستطاع أن يجعل الحياة في شبه الجزيرة العربيَّة آمنةً مطمئنَّةً »[1] .

ولقد كان من فضل الله على المجتمع السُّعودي وعلى الملك عبد العزيز بالذات أنَّ هذا الأمن اللافت لأنظار وعقول الآخرين منبثقٌ من تحكيم الشريعة الإسلاميَّة ، وأن المملكة تؤكِّدُ ذلك بحالها وبلسان مسؤوليها ، مما جعل الارتباط بين الأمن ونجاح الحياة وبين شريعة الإسلام بصفة أنَّ الأول نتاجٌ للثاني مبدأ حقٌّ يعترف به حتى غير المسلمين ، من الذين ينطلقون من النظر في الواقع إلى الأسس النظريّة التي قام عليها هذا الواقعُ ، وقد شهد بذلك كثيرٌ من المستشرقين نسوق شهادة أحدهم وهو « موريس جارنو » حيث يقول :

« إذا كان ابن سعود قد نجح في لَمِّ شعث الجزيرة العربيَّة تحت لوائه ، وإذا كان قد جعل من بلد مضطرب آهلٍ بالعصابات البلد الأكثر أمناً في العالم ، فمردُّ ذلك ليس للقوَّة والسيف فحسب ، بل لأنه سكب في أعماق الأمة الناشئة أقوى عوامل التراص والتماسك ، أي التقيُّد الشديد بأحكام القرآن ، فالجرائم التي ترتكب حالياً في السعوديَّة خلال عامٍ كاملٍ أقلُّ مما يرتكب في باريس خلال يومٍ واحدٍ . ويعود السبب في ذلك إلى أن الحياة كلها تسير بأحكام

---

(١) سياسة الملك عبد العزيز لحفظ الأمن في المملكة ، حسن الساعاتي ، بحث مقدم لمؤتمر الملك عبد العزيز - نقلاً عن الملك عبد العزيز - رؤيةٌ عالميَّة ، ص ٢٨٥-٢٨٧ .

القرآن، والقرآن مجموعة شرائع تحسبتْ لكل شيءٍ »[1].

والحق أنه توفَّرت للمجتمع السعودي بعد توحيده واستقرار الحكم فيه للملك عبد العزيز كل دعائم الأمن النفسي والاجتماعي المرتكزة على هدي الإسلام المستقيم، وهو المرتكز الرَّاسخ الذي لا يلين ، وهاهي إشاراتٌ مقتضبةٌ في هذا الموضوع :

* حينما خلق الله النفس البشريَّة وسوَّاها وألهمها تعالى فجورها وتقواها فصارتْ بفطرتها مجالاً لصراعٍ محتدمٍ بين دوافع الخير ونزعات الشرِّ ، تميل به الأولى أحياناً ، وتغلبه الثانية أحياناً أخرى ، وإن كان الغالب الأعم في البشريَّة غلبة نزعات الشرِّ عليها .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[3] .

والإنسان يستطيع أن يظلَّ بمعزلٍ عن مقارفة الآثام ما دامت حالته النفسيَّة في وضعٍ متوازنٍ ، هذا التوازن يتحققُ في صورتين :

١ - أن تكون دوافع الخير غالبةً تسيطر فتتقهقر أمامها عوامل الشَّرِّ .

٢ - أن تكون هناك عوامل مناهضةٌ لنزعات الشرِّ فيه لا تقلُّ في تأثيرها على عقله ووجدانه عن تأثير ما يضادها .

والشريعة الإسلاميَّة بتعاليمها المتنوِّعة تحقِّق هذا التوازن ، ومن أبرز صورها **تشريع الحدود على الجرائم الكبرى** .

---

(١) موعد مع الشجاعة ، ص ٢٧١ ، مصدر سابق .

(٢) الآية رقم (١٠٣) من سورة يوسف .

(٣) الآية رقم (١١٦) من سورة الأنعام .

« ومهمَّة الحدود -بما تنطوي عليه من عنصر عقابيٍّ زاجر- أن تحقق في نفس الفرد العادي هذا التوازن بحيث يتمكَّن من السَّيطرة على دوافعه .

هذه السَّيطرة النفسيَّة نتيجة لتوازن العوامل المتفاعلة داخل النفس ، وما يترتَّب عليها إقداماً وإحجاماً يتيح لصاحبها أن يؤثر الإحجام عن الشرِّ ، مستجيباً لنداء العقل الذي يوازن بين ما تنطوي عليه الجناية من لذَة وما ينطوي عليه الحدُّ من إيلامٍ بدنيٍّ ونفسيٍّ يتكافأ معها إن لم يزد عليه .

إنَّ من طبيعة النفس الإنسانيَّة أن تتحرَّك تحت عاملين متضادَّين : عامل الرغبة وعامل الرهبة ، وكلاهما يؤثِّر على النفس إيجاباً أو سلباً من ناحيتين مختلفتين :

عامل الرغبة : يدفع إلى الإقدام على الشيء المرغوب فيه ، وهو هنا إيجابيُّ الأثر ، ولكنه حينما يوجّه إلى شيء آخر ليصرف النفس عن هذا الذي هو موضع ميله واشتهائها ، يصبح مانعاً من الإقدام عليه ، وهو هنا سلبيُّ الأثر ، كما يحدث في حالة من يهمُّ بالزنا أو شرب الخمر ، فيتماثل له ما أعدَّ الله للمتقين فينشط الوازع النفسي فيه حتى يكف عما كان متَّجهاً إليه .

وعامل الرهبة : يؤدِّي إلى النتيجة عينها من طريق آخر ، فالخوف من العقاب المرتَّب على القتل أو الزنا أو القذف أو شرب الخمر متى أيقن المرء بأنه ملاقيه لا محالة ، كان مانعاً قوياً من مقاربة هذه الآثام ، ذلك أن موازنةً عقليَّةً بسيطةً بين ما ينال من لذَّة الجناية وما يصيبه من عقابٍ بالحدِّ عليها تصرفه صرفاً عن قربانها » .

وهذا أمر مشاهد يجده الإنسان فيمن حوله حينما تحيط بهم المغريات التي تجذبهم لمواقعتها ، فيقوم هذان العاملان بمصارعة هذا الإغراء ومقاومة انجذاب الشخص إلى ما حرَّم الله .

وخلاصة القول في هذا التحليل للأساس النفسي الذي بُني عليه نظام الحدود في الإسلام أنه -كما يقول صاحب النص السابق محمد حسين الذهبي - « يتجلّى لنا أن الحدود تمثل في البناء النفسي للفرد في المجتمع المسلم عنصراً رئيساً من عناصر التوازن النفسي يجعله -بوجه عامٍ- بعيداً عن حمى الله ومحارمه الكبرى في الأرض لا يقربها ولا يحوم حوّلها .

وبهذا التوازن النفسي الذي تتيحه الحدود حينما تصبح -بالتربية- جزءاً من النسيج النفسي للفرد المسلم ، بهذا التوازن تصبح الغالبيَّة العظمى من أفراد المجتمع أسوياء لا شذوذ في تكوينهم، ولا انحراف في ميولهم واتجاهاتهم يسهِّل عليهم ارتكاب شيء ما يجعلهم تحت طائلة هذه الحدود »[١] .

والمعاشر لطوائف العمَّال الوافدين إلى المملكة من مجتمعات تجمع بين ضعف الأثر الدّيني في نفوس أفرادها ، وبين تفاهة العقوبات علىٰ مقارفي الإجرام ، بل سهولة التفلُّت من العقاب أصلاً ، يدرك فاعليَّة تطبيق الشريعة في تحقيق قدر كبير من التوازن النفسي لدى هؤلاء ، وكيف أن هذا التوازن يتعمَّق أكثر فأكثر كلما طالتْ إقامة هذا الوافد .

* من دعائم الأمن النفسي أيضاً : الثقة بشرع الله من قبل أفراد المجتمع ، وأنه الحق والعدل دنياً وآخرةً ، فهو يُقبل على تعاليمه ويحتكم إلى قضائه راضي النفس مرتاح الضمير لكلِّ نتائجه حكماً له أو عليه ، وهذا خلاف القانون الوضعي المطبَّق في المجتمع المسلم ، فقد يحكم من خلاله للشخص فيأخذه بدافع الشهوة والطمع ولكنه يظل يؤرِّقه ؛ لأنه يعلم أنه ظلمٌ وباطلٌ سيَبُوءُ بإثمه أمام الله غداً إن لم يعاجله بعقاب دنيويٍّ قاصمٍ .

---

(١) أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ، ص ٩٢-٩٨ ، مصدر سابق .

وإذا كـان الأصل في القـانون بل في النظام كلّه أنه أداةٌ تعبِّـر عن إرادة الشعب في ضبط حركة الناس على المنهج السَّليم دينيّاً واجتماعيّاً ، فإنه لا يتحقق في أي مجتمعٍ مسلمٍ إلا إذا كانت الشريعة هي التي تحكم المجتمع ، ومنها ينبثق نظامه ، فهنا يتفق مع نفسيَّة الشعب الذي يخضع له ويتحاكم إليه فتشعر معه بالأمان والسَّلام وله بالولاء الصَّادق .

أمَّا إذا فُرضَ على هذا المجتمع المسلم قانونٌ ونظامٌ غريبٌ على شريعته وتراثه ، فإنه يحدث بينه وبين نفسيَّة أفراد هذا المجتمع تنافرٌ ، حيث يشعرون بغربة هذا النظام عنهم ومن ثمَّ وحشتهم منه ، بل يشعرون -وهو شعورٌ صادقٌ- أنه سوطٌ مفروضٌ عليهم للعقاب يلهب ظهورهم، إذ هم مُلْجَؤون للتعامل معه والخضوع له ، ولمداراته أحياناً وإن كانوا في دواخل نفوسهم يقبحونه ويتبرَّؤون منه ويستهجنون كل ما تضفيه وسائل الإعلام عليه من تزيين وتزويق لتقبله هذه النفوس ، فهي في صراعٍ مرير بين دينها الراسخ في أعماقها وبين هذا القانون والنظام المسلَّط عليها ، خلافاً للنفس المسلمة في المجتمع الذي يحتكم لشريعة الله ، حيث السَّلام يغمرها دافعاً إيَّاها نحو العمل برضا وسعادة وتفاؤل .

* والأمر هنا ليس محصوراً بتلك التشريعات التي تختلف فيها القوانين عن الشريعة جذريّاً كالحدود مثلاً، إنه عامٌ في صور التنظيمات والتعاميم والمطالب التي قد تتشابه في تطبيقاتها لكنها في المجتمع الذي يحكم بالشريعة تقوم على أساسات منطقيَّة وإيمانيَّة موجودٍ في نفس الفرد، مما يعني الارتياح لفعلها واليقين بنتائجها وعدمَ الأزمة معها .

* وهناك عنصر الثبات في التشريع الإسلامي خلافاً للتقلُّبات

والتراجعات التي هي سمة النظم غير الإسلاميَّة ، سواءٌ كانتْ تغييرات في التشريع نفسه كما في الاشتراكيَّة وغيرها ، أو في التحوُّلات السِّياسيَّة التي تتبعها تحوُّلاتٌ نظاميَّةٌ في التعليم والقضاء وغيرها .

إنَّ هذا العنصر يجعل المسلم في المجتمع المحتكم لشريعة الله مستقرَّ النفس لا مضطرب الحال بين نظمٍ متضاربةٍ ، ويجعله واثق الوجهة فيما يمارس ديناً يدين به وشرعاً يحتكم إليه .

* أيضاً ، فإنَّ من عوامل الأمن النفسي التي يحقِّقها تطبيق شريعة الله أنَّ هذه الشريعة بما تغرسه من عقيدة وقيمٍ ، وما ترسمه من تشريعات علائقيَّة **تحقِّق التوافق بين أفراد المجتمع** على مبادئَ عباديَّة وأخلاقيَّة واجتماعيَّةٍ واحدةٍ ، تضمن التقارب والألفة والتناسب بينهم في المواقف والهموم والتطلُّعات ووحدة المسيرة ، والأخوة الاجتماعية الإيمانية التي تجمعهم على مطالب هذه الشَّريعة ، فتكون هذه الأخوة الوطنيَّة عامل ربط بينهم ، وإذكاء لروح الالتفاف على هذه الشريعة ، كما تكون الشريعة نفسها عامل تحريض على الولاء للوطن وحبِّه وحمايته من كل غزو يستهدف الإساءة إليه ، أو تفكيك وحدته ، أو توهين مسيرته في ظلال هذه الشَّريعة .

* وبعد هذا كلّه فأيُّ أمنٍ نفسيٍّ أعظم من أمن ذلك الشخص الذي أغواه الشيطان فارتكب جريمةً ينتظر عقابها !

إنَّ غير المسلم في ظلِّ قانون وضعه البشر يشعر هنا بالكآبة والأسى على أنه لم يفلت من طائلة القانون ، ويشعر بالقلق والألم النفسي ؛ لأنَّ متعته لم تتم بما قارفه ، بل انقلبتْ عليه عذاباً وعقاباً .

أمَّا المسلم الذي سقط بارتكابه هذه الجريمة فإنه يشعر بالأمن النفسي

وراحة الضمير وهو يستقبل العقاب الدُّنيوي، لأنه يعلم أنه لن يفلت من عقاب يوم القيامة إذا لم يقتصَّ منه في الدُّنيا ، فإن صاحبه الذي ظلمه سوف يلاحقه ليحاكمه أمام الله .

أمَّا إذا اقتصَّ منه في الدنيا فإنه يكون قد تطهَّر من هذا الذَّنب ، وعاد نقيّاً يمارس حياته دون تلك الوصمة الشائنة ، أو يواجه ربَّه وقد تطهَّر منها ، حيث كفرت عنه العقوبة إثم الخطيئة ؛ روى البخاري - رحمه الله - في حديث المبايعة ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يبايعهم « على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونه في معروف » ثم قال بعد ذلك نبيُّ الله صلوات الله وسلامه عليه : « فمن وَفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو كفَّارةٌ وطهورٌ ، ومن ستره الله فذلك إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له »(١) .

وإذا كان الأمن النفسي ضرورة وجود للمجتمع ثم ضرورةً لنهضته وأداء دوره الإنساني فإن المجتمع السعودي بما هو حضن الحرمين الشريفين وبما للعمق الديني الغائر فيه كان قبل أن يوحِّده الملك عبد العزيز -كما يقول خادم الحرمين الشريفين في كلمة له - : « يتلهَّف -أي الوطن- للوحدة ، ويعيشها بوجدانه وآماله وأحاسيسه بعد أن رأى في وقت من الأوقات أنَّ شمله كان يتفرَّق ، وصفوفه تتمزَّق ، وأمنه يتزعزع ، وحياته قد حفت بالخوف والاضطراب ، فتأكد له أنَّ الوحدة قد أصبحتْ ضرورةً قصوى لوجوده ، كما تأكد له أنَّ الأمن والاستقرار أساسٌ في استمراره وعزَّته »(٢) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ٨/ ١٩١ .

(٢) كلماتٌ منتقاةٌ، ص ١٥٦ .

وقد ساعد هذا الاستعداد الملك عبد العزيز - رحمه الله - على تحقيق جمع الشَّمل وإشاعة الأمن والسَّلام في ربوع هذا الوطن المترامي الأطراف المتعدِّد الأقاليم .

المبحث الرَّابع

العَـــدل

بالعـدل قـامت السَّمـوات والأرض ، وبه أُمـر الرسـول ﷺ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[1] وبه جـاءت الشـريعـة الإسـلامـيَّة ، بل هي العـدل ذاته : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾[2]، قـال العلمـاء : « صدقـاً في الأخبـار وعدلاً في الأحكام »[3].

ولقد كـان من الكلمات الأثيـرة عند الملك عبـد العزيز رحمـه الله : « لا يدوم الملك إلا بدولةٍ عادلةٍ »[4].

بناءً على هذا فإن المفترض في مجتمعٍ يطبِّق شريعة الإسلام من جهـة ، ويحكمـه صـاحب تلك الحكمة من جهـة أخرى أن يكون العدل وارف الظِّلال على ربوعـه ، منبثقاً من الناس تجاه أنفُسهم ومن حـولهم ، ومن الدولة تجاه الشعب وتجاه الدول الأخرى متجلِّياً هذا العدل في صور عديدة .

لن أتحدَّث هنا عن صور العدل ذات المنحى الجزئي والشخصي التي عادةً ما تتداول عند الحديث في هذا الصدد كفرض الملك عبد العزيز العقوبة على من يثبت عليه أنه منع مشتكياً من الوصـول إليه ، ومـثل عدم استـثناء نفسـه من الخضوع للشريعة وقضـاتها مساوياً نفسه بالآخرين ، وكقـول الملك فيصل في وصف حرص الملك عبد العزيز على إنفاذ الحق على أيِّ شخصٍ حتى ولو كان من أهلـه وأبنائه : « إنَّ والدي لا يفـرِّق بيننا وبين أبناء شعبـه ، وليس للعـدالة

---

(١) الآية رقم (١٥) من سورة الشورى . (٢) الآية رقم (١١٥) من سورة الأنعام .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ٢/ ١٦٧ .

(٤) توحيد المملكة العربيَّة السعوديَّة ، لمحمد المانع ، ص ٣٢٧، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ.

ميزانان يزن بأحدهما لأبنائه ويزن بآخر لأبناء الشعب ، فالكل سواءٌ عنده والكل أبناؤه »[1] .

لكني سأشير إلى بعض العناصر ذات العموميَّة ثقافيَّةً واجتماعيَّةً ، حيث أقيم العدل - استلهاماً من الشريعة - في كلٍّ منها بين طرفيه اللذين لا بد للخارج عن الشريعة من الاندفاع لأحدهما على حساب الآخر :

العدل بين جوانب كينونة الإنسان :

اقتضتْ حكمة الله - تعالى - حينما خلق الإنسان أن يكون مركَّباً من عنصرين ؛ العنصر الرُّوحي الذي مظهره التعبُّد والقيم ، والعنصر المادي الحيواني الذي مظهره المطالب الغريزيَّة .

وكان لا بدَّ ليتحقَّق الوجود الكامل للإنسان الذي به يستطيع القيام بوظيفته على هذه الأرض أن تلبَّى لهذين العنصرين مطالبهما بالعدل ، فلا يُهضَم حقُّ أيٍّ واحد منهما ولا يُضخَّم على حساب العنصر الآخر .

هذا العدل لم يتحقَّق تاريخيّاً إلا في ظل الاحتكام إلى شريعة الله الحقَّة ، أمَّا خارج شريعة الله فإن الجنوح لأحدهما على حساب الآخر كان هو السَّائد ، وتختلف الحضارات أو الأمم في نوع العنصر الذي يجنح لجانبه .

لقد ضخَّمتْ الديانة الكنسيَّة في أوربا الجانب الرُّوحي ، وبالتالي أهملتْ بل حطَّمتْ الجانب المادِّي في الإنسان ، حتى ذبلتْ حياته ، وانحطَّ طموحه الحضاري .

وحينما انفلتت أوربا من قبضة التحكم الكنسي قذفتْ بنفسها للطرف

---

(١) من حياة الملك عبد العزيز ، للأحيدب ، ص ٣٩ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، الرياض .

الآخر فجعلتْ الجانب الماديّ هو الغاية التي تحصر بها همّها ، وتكرّس لها جهدها ، يستوي في ذلك المذهب اللّيبرالي الذي ترعى فيه الدَّولة حركة الناس فاتحةً أمامهم مجالات الأنشطة الماديَّة دون اهتمامٍ موازٍ ، أو حتى مقاربٍ بالجوانب الروحيَّة والقيميَّة .

أو المذهب الماركسي الذي حسم الموقف تماماً في هذا المجال « فقلَّص دوافع الإنسان وحاجاته ونوازعه ومناشطه إلى حدِّها الأدنى ، الذي يستوي فيه مع الحيوان متمثِّلةً بالطعام والكساء والجنس . وتبقى الحاجات الأخرى مضطهدةً مراقبةً »[1] ، بل تصادر كليَّةً بصفتها إفرازاتٍ للمراحل الاقتصاديَّة غير السَّويَّة في القرون الماضية .

ولهذا أقيمت المقابلة بين « الدين والقيم » من جهة و « التقنية » من جهة أخرى ، وجُعلا وفق الرؤية الشيوعيَّة كفَّتين متضادَّتين ارتفاع أحدهما نزولٌ للآخر ، فكلما كثر التكنوقراط « رجال العلم المادي » وامتدَّتْ هيمنتهم الفكريَّة والسلطويَّة كان ذلك انحساراً لرجل الدين بما يمثِّله من عقائد غيبيَّةٍ وقيمٍ خلقيَّةٍ « إنسانيَّة » .

ولقد عانت كثيرٌ من الشعوب الإسلاميَّة في ظلِّ توجُّهات فكريَّة وسلطويَّة تأخذ بهذا المنحى اليساري ، فتحارب الدين والتربية الإسلاميَّة والقيم الخُلقيَّة في الروابط الأخويَّة والعفَّة والنَّخوة ونحوها ، مما تتصوَّر عقبات أمام التقدُّم الماديِّ والتحضُّر التقني الذي به تلحق بالركب الحضاري العالميِّ السَّابق في هذا المجال ، وكان من شأن الأخذ بهذا المنحى أن قُلبتْ أمور هذه المجتمعات رأساً على عقبٍ ، فدمِّرتْ الفضائل الإنسانيَّة ، وتحكَّمت الأنانيَّة

---

(١) العدل الاجتماعي ، لعماد الدين خليل ، ص ٢٣ ، مؤسسة الرسالة .

والصراعات الماديَّة النفعيَّة ، وأُهين أصحاب الرُّجولة وعلماء الدِّين ، وأُعليَ الأراذل وأسافل الناس همَّةً ومروءةً وديناً ، وانتشرتْ أخلاق الفحش ، والظلم والبغي ، وعبادة الدُّنيا والاستهتار بالدِّين والأخلاق الفاضلة .

وعموماً فقد تدهورتْ أحوال هذه المجتمعات في كلا الجانبين الإنساني ، الذي كانت الأمة المسلمة على الرَّغم من تقهقرها المادي تتفوَّق به على الغرب ، والمادي الذي فقد الأساس القيمي الذي يحفظه ، ولم يجد العقليَّة « النفعيَّة » التي استطاع بها الغرب أن يحافظ بقدرٍ مَّا على مصالحه الماديَّة .

أمَّا المجتمع السعودي فإنَّ اعتماده للشريعة الإسلاميَّة التي أقامت العدل بين هذين الجانبين ، جعله يتفادى الانحياز لأيٍّ من هذين الطرفين ، ويعطي لكلٍّ منهما حقَّه المطلوب له شرعاً في حدود الإمكانات المتاحة والظروف القائمة .

فقد دعم الجانب الإنساني بالتربية الدينيَّة وإعمار بيوت العبادة وإقامة مؤسسات الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودعم الجمعيات الخيريَّة والحفاظ على تقاليد المجتمع الإنسانيَّة في العلاقات ، وجعل القيم الخلقيَّة وحسن السيرة عنصراً مهمّاً في اعتبار الأشخاص خاصةً عند المؤسسات التي ستتحمَّل مسؤوليَّاتهم ، طلاباً في جامعةٍ أو موظَّفين في إدارةٍ . . . إلخ .

كما دعم الجانب الثاني « المادي » بتحضير المجتمع وتشجيع الحركة الاقتصاديَّة في الزراعة والصناعة ، وفتح المجال للعلوم التقنيَّة التي تؤهِّل قادرين على إنماء هذه الجوانب ، ووضع الخطط التنمويَّة المتلاحقة في هذا الشأن ، وليس الوفاء بهذين العنصرين انجذاباً لطرفين متقابلين كما يتصوَّره الذين لا يفهمون الإسلام حقَّ فهمه ، فيتوهَّمون أنَّ المملكة بصنيعها هذا تحاول

أن تجمع بين المتناقضات ، فهي تدعم الجانب الديني والقيمي خضوعاً لتراثها الذي لا تستطيع الانفكاك عنه ، وتدعم الجانب المادي مجاراةً لنزعة العصر وموجة الحضارة الماديَّة .

كلا إنَّ إعطاء هذين الجانبين متطلَّباتهما بالعدل والتناسب المتوازن منبثقٌ ابتداءً من توجيه الشريعة الذي يحفز المسلم إلى طلب «حسنة الدُّنيا وحسنة الآخرة معاً » وهذا الأمر قائمٌ في وعي مسؤولي الدَّولة ومخطِّطي سياستها العامة .

« إنَّ المملكة -يقول خادم الحرمين الشريفين- مثلما هي مصمِّمةٌ بحول الله على تحقيق أهدافها وخططها الإنمائيَّة والوطنيَّة ، وعلى تقوية مركزها المالي وتعزيزه ، فإنها مصمِّمةٌ أيضاً على استكمال قوَّتها العسكريَّة وتعزيز أمنها الوطني ، وسيكون هذا المَطْمَح محور اهتمامنا وركيزة سياستنا دائماً .

ولكن قبل كلِّ شيءٍ فإنَّ اعتمادنا على الله ، وليس على ثروة ولا خلافه ، نحن أنعم الله علينا بشيءٍ أعظم من الثروة المعدنيَّة ؛ إننا نحن مَهبط الوحي وأكرم هذه الأمة بأن جعلَها قدوةً للإسلام والمسلمين ، وأخرج محمّداً لكي يقود الأمة ليس فقط العربيَّة . . وبطبيعة الحال الثروة أيّاً كانتْ سواءٌ بتروليَّة أو معدنيَّة أو خلافها فكل شيءٍ قابلٌ للنضوب .

إنَّ ثروة المواطن السُّعودي في العقيدة الإسلاميَّة ، هذه الثروة الحقيقيَّة لهذه البلاد التي يجب أن نعتمد عليها بعد الله . . إننا عندما نتمسَّك بعقيدتنا الإسلاميَّة لا شكَّ أن الله أكرمنا ، وذلك أن كل هذه الأشياء التي نراها الآن لم تأت إلا نتيجة أنَّ هذه البلاد وطن الوحي »[1] .

---

(١) كلماتٌ منتقاةٌ ، ص٤٨ - ٤٩ .

* ومما يربط بهذا المسار التوازن **فيما يتعلّق بالعلم الشرعي بين إهماله ، أو حصر العلم الذي يوجِّه شباب الأمة إليه به ، والتنكر للعلم التقني** ، فقد وقعت البشريَّة في هذا المجال بين تفريطٍ أو إفراطٍ .

كانت أوربا في عصورها المدرسيَّة تحارب كنائسها وجود معارض خارج دائرة كتبها المقدَّسة ، وتعدُّ أي حركة للعقل خارج دائرة هذه الكتب نوعاً من الزندقة والخروج على الدِّين، لأنه لا عَلم إلا ما في تلك الكتب .

وحتى من المسلمين حصل شيءٌ من ذلك ، والسبب أن الأئمة -رحمهم الله- كانوا قد وقفوا من علم الكلام والفلسفة والمنطق الأرسطي موقف رفضٍ حاسمٍ ، ورفضوا اعتبارها علماً؛ لأنها تبحث في القضايا الغيبيَّة اعتماداً علىَ العقلِ البشري الذي يفقد الأساسات التي تخوله تحقيق نتائج علميَّة بدون اعتماده على الوحي .

وكان هذا موقفاً واعياً منبثقاً من توجيهات الإسلام ، ولكن بعد تعاقب القرون فهم بعض المتأخرين أن رفض علم الكلام والفلسفة ينسحب على العلوم الأخرى « الطبيعيَّة» كالطب والفلك والأحياء ونحوها خاصةً وأنها في تلك العصور كانت محسوبةً من الفلسفة؛ ولهذا صارتْ تنحسر شيئاً فشيئاً حتى أصبحتْ غريبةً بل مستنكرةً ، واقتصر التعليم على علوم الشريعة واللغة العربيَّة ، وقد عانتْ كثيرٌ من المجتمعات الإسلاميَّة في إدخال موادّ العلوم الاجتماعيَّة والتجريبيَّة في المدارس، ثمَّ دخلتْ ولكن تقليد الغرب في اعتماد هذه العلوم بصفتها العلم الحق وحده ، أدَّى إلى الجور على علوم الشريعة فضخمتْ هذه العلوم الاجتماعيَّة والتقنيَّة في مناهجها وقيمها المعرفيَّة والاجتماعيَّة وضويقت العلوم الشرعيَّة باسم التطور أحياناً ، وتحت دعوى

إفسادها عقليَّة الإبداع لدى التلاميذ أحياناً ، والهدف واحدٌ هو إقصاء هذه التعاليم ، وتجفيف منابع التديُّن والفضيلة في حياة الناشئة حتى فقد التعليم الشرعي تماماً من التعليم العام أو انحصر في دراسة تاريخيَّة لحضارة المسلمين ، أو نبذ جزئيَّة في الأخلاق بين طوفان من المعارفِ والنظرياتِ تشحن بها مواد تلك العلوم الاجتماعيَّة والطَّبيعيَّة ، مما جعل الناشئ في تلك المجتمعات وهو مسلم من آباء مسلمين يعرف عن الغرب وتاريخه وعن النظريات النفسيَّة والاجتماعيَّة والمعارف العامة أكثر بكثير مما يعرف عن تعاليم دينه وتاريخ أمته وحاضرها ، فأصبح جاهلاً بالإسلام لا يعلم حقيقة العقيدة الإسلاميَّة ولا يفقه أحكام عباداته وأخلاقه ومعاملاته ، ولا يشعر بهويَّته الإسلاميَّة التي تربطه بسلف الأمة وبعالمه الإسلامي الحاضر .

في المجتمع السعودي الأمر بخلاف ذلك ، فالعلم الشرعي بقي هو ركيزة التعليم الثابتة على تطوُّرات المناهج ، وتنوُّع التخصُّصات ، يأخذ الناشئ منه في المراحل المختلفة ما يؤسس عقيدةً صحيحةً راسخةً لديه ، وما يفهمه بأحكام الشريعة في الشعائر والأخلاق وفي تعاملاته الاجتماعيَّة المتنوِّعة ، وفي دعوته إلى الله ، وما يربطه بأمته الإسلاميَّة ماضيها وحاضرها ربطاً ولائيّاً صادقاً .

فضلاً عن دعم العلم الشرعي التخصصي الذي يؤدِّي رجاله دورهم المتميِّز في البناء الحضاري للدولة تعليماً وقضاءً ودعوةً وغيرها .

أمَّا العلم التقني فقد أخذ مقامه هو الآخر مدعوماً بتوجيه الدِّين للمسلم أن يعمر هذا الكون ويغني نفسه ومجتمعه عن الحاجة لغير المسلمين حتى في أمور الدنيا .

والنهضتان « نهضة العلوم الشرعيَّة وتطبيقاتها ، ونهضة العلوم المدنيَّة

وتطبيقاتها » في المملكة على الرغم من قصر مسيرة التعليم النظامي الزمنية خير شاهد على منطق العدل بين هذين النوعين من العلم المهيمن في حياة الأمة ونهضتها .

* **أمّا الأصالة والمعاصرة أو الحداثة والتراث** فقد سبق بيان موقف المملكة إزاءها في غير مكان من هذا البحث ، وغاية ما يؤكَّدُ هنا هو أن المجتمع السعودي وعياً منه بالقضيَّتين معاً : الحداثة والتراث ، وقبل ذلك انسجاماً مع التزامه الإسلامي لم يجنح لإحداهما على حساب الأخرى .

لقد كانت الاتجاهات القوميَّة والماركسيَّة ونحوها من اتجاهات التغرب تجنح للحداثة على حساب التراث ، الحداثة بالمفهوم المتغرب الذي يعني : « تغييراً في كل الاتجاهات لبنى الواقع والفكر العربيين ، إنها اندراجٌ دون أوهامٍ في العالميَّة والحضارة الماديَّة »[1] .

وقد أشقتْ هذه الاتجاهات بلاد المسلمين التي وقعتْ تحت سطوتها الفكريَّة أو السياسية .

نظرة العدل التي حاول المجتمع السُّعودي اعتمادها في التعامل مع هذه القضيَّة هو أنه استقبل الحداثة والتراث معاً ليأخذ منهما ما ينفعه ويحقق مصالحه ، ويتوقى ما فيهما من نقص وفساد معتمداً معياراً لا يخيس وهو تعاليم الكتاب والسنة وفق الفهم السَّلفيِّ السَّليم ، وقد حقَّق في هذا المجال توازناً فريداً حقق له النجاح في الاستثمار الأمثل للتراث والحداثة معاً ، في التنظيم السياسي ، وفي القضايا الاجتماعيَّة كقضيَّة المرأة مثلاً ، وفي السِّياسة التعليميَّة وغيرها من القضايا .

---

(١) اغتيال العقل ، ص ١٩٤ ، مصدر سابق .

العدالة الاجتماعيَّة :

قضيَّة العدالة الاجتماعية أو ما تسمى بصورة أعمّ (المسألة الاجتماعيَّة) موضع اهتمام المفكِّرين وصانعي النظم في عصرنا الحديث في مختلف جوانبها .

لقد ادَّعت الرَّأسماليَّة أنها تحقق العدالة الاجتماعيَّة بفتحها المجال للحريَّة الفرديَّة أن تأخذ أبعادها الممكنة ، في التملُّك والكسب واستثمار كل المجالات المتاحة ، وأن الإمكانات التي يحصلها الشخص تخوله أن يتمادى في قفزاته ، ويشغل من يستطيع تشغيلهم ممن قصرتْ بهم إمكاناتهم عن مقاربة موقعه ماديّاً .

وقد كشفتْ الرَّأسماليَّة عن صور بشعة من الاستغلال ومصِّ دماء الشعوب لحفنة من الناس وعدد من الشركات الكبرى ، وأصبح أغلب الناس أشبه بالرقيق في ظلها مرهقاً بالديون التي تطاوله عمره كله ، وتحيطه الأنظمة التي لا مناص له من قبولها وإن كانت لحساب غيره على حسابه . وعلى الرغم من التحسينات التي يحاول بها دفع الابتزاز والظلم بالتنظيم وحماية حقوق العمّال إلا أنها ما تزال مثلاً للظلم والتسلط وتقسيم المجتمع إلى مستكبرين ومستضعفين .

وقد طُرحَتْ عديدٌ من المشاريع « الاشتراكيَّة » في أوربا لحل معضلة الرَّأسمالية التي أصبحتْ « ظلماً اجتماعيّاً صارخاً » وأبرز هذه المشاريع كان ما قدَّمه " كارل ماركس " ورفيقه " إنجلز " مما عرف بعد ذلك بالماركسية التي زعمتْ أنها وحدها المحقِّقة للعدالة الاجتماعيَّة من خلال تحطيم الرَّأسماليَّة تماماً وإلغاء الملكيَّات وقيام «حكم الطبقة العاملة » حيث تقوم الدولة أو الطبقة الحاكمة نيابةً عن المجتمع بإدارة واستثمار وتوزيع الأموال العامة بأكبر عدد ممكن من التساوي بين الجميع وفق شعار : « من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته »(١) .

---

(١) انظر : العدل الاجتماعي ، لعماد الدين خليل ، ص٨، مصدر سابق .

ولكنها هي الأخرى كانت خراباً للديار منذ بدأ تطبيقها وصارتْ تتراجع كلما زاد تدهور الحياة بسببها حتى انهارتْ أخيراً وأعلنتْ إفلاسها الرهيب بعد ما خدعت الناس زمناً ، وتصوَّر كثيرٌ من المثقفين –حتى من أبناء المسلمين– أنها المنهج الحق المرتكز على العلم والحتميَّة التاريخيَّة التي ينبغي أن تساق الأمة إليها .

والحقيقة أن العدالة الاجتماعيَّة التي يتحقق بها القسط الشامل لكل الناس فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات لا توجد خارج شريعة الله التي بيَّن فيها منهج العلاقات العادلة فيما بين الناس ، وفيما بينهم وبين الدولة ، وفيما بينهم وبين أصحاب العمل والعمَّال ، وحقوق القربى والجوار وضعاف المجتمع . . . إلى غير ذلك من مسالك العدالة كما قرَّرتها شريعة الله في الكتاب والسنة .

والمملكة العربية السعودية التزاماً بمنهجها في تطبيق شريعة الإسلام سعتْ في وضع نظمها إلى اعتماد تلك المسالك متوقِّيةً الوقوع في المزالق الشائنة التي ارتكستْ فيها الرأسماليَّة أو الاشتراكيَّة .

لقد قامت العلاقات بين الناس على أساس الإخاء الإيماني لا على الطبقيَّة الصراعيَّة، وعلى الحقوق الشَّرعيَّة بين العمال وأصحاب العمل ، ورعتْ ضعفة المجتمع من العجزة والمسنِّين بالضمان الاجتماعي وغيره ، ونفت الضرر والضرار قدر الإمكان .

وهكذا تكاملتْ التشكيلة النظاميَّة المتعلِّقة بالمسألة الاجتماعيَّة في جزئيات نظاميَّة متناسقةً يجمعها تحقيق العدل الاجتماعي لكل الناس ، خلافاً للنظمً الرَّأسمالية أو الاشتراكيَّة أو ما تلقف منهما حيث التناقضات العجيبة في مسالكها بل قبل ذلك في صميم النظريات وأسسها .

الانتماء العائلي بين القبليَّة العمياء والتمرد:

هنا طرفان في الانتماء العائلي وجد كلٌّ منهما في أكثر من مجتمع ماضياً وحتى الآن:

الأوّل: هو الذي ما يزال تسيطر على أصحابه النزعة القبليّة المتمثّلة بحميَّة جاهليَّة يقدم فيها ما يتصوَّره، أو يصوَّر له على أنه مصلحة القبيلة على مصلحة الوطن، بل على ولائه الديني، والغالب أن مجتمعاً تسوده هذه النزعة يذهب ضحيَّة بين القبائل المتصارعة، وتصبح قيادته سخريةً لدى أتباع تلك القبائل.

وما تزال هذه الروح القبليَّة سائدةً في دول أفريقية وغيرها من حولنا، وما تزال عقليَّة الشاعر القديم حيَّةً في نفوس أفرادها:

وهل أنا إلا من غزية إن غوتْ غويتُ وإن ترشد غزيَّةُ أرشد

الطرف الثاني: هو الذي حطَّم هذه النزعة القبليَّة وربط الأفراد ببدائل أخرى تتمثَّل في «الوطن» أو «نظريَّة» من النظريَّات السياسيَّة أو تجمُّعات سياسيَّة واجتماعيَّة كالنقابات والنوادي، وقد سعى هؤلاء إلى تفكيك الرَّوابط العائليَّة حتى يضمنوا صحة ولاء هؤلاء الناشئة لما وجهوهم له فأغروهم بالتمرد على آبائهم والتنكر لأهليهم، في الزواج والسفر والانتماء لأحزاب وهيئات ونحوها، وهذا جارٍ في بعض البلاد الإسلاميَّة.

أمَّا غيرها وبالذات في الدول الاشتراكيَّة فإنها وصلتْ إلى درجة تعمية الطفل عن معرفة أسرته حتى يكون انتماؤه للحزب انتماءً خالصاً، وحتى تنتفي شبهة الملكيَّة من الوالد لولده[1].

---

(١) انظر: العدل الاجتماعي، ص ١٧، وفيه: «حتى الأسرة لم يعد يعرف فيها زوجٌ ولا والدٌ بعينه على نحو الأسر المعروفة، فالمرأة مشاعة من لون مشاعٍ»، تعليقاً على ما جاء في الثورة الثقافيَّة في الصين.

في المجتمع السعودي اتساقاً مع تعاليم الشريعة سعى الملك عبد العزيز - رحمه الله - إلى تهذيب الحمية القبليَّة لتكون حميةً للدين وولاءً للوطن المسلم الذي يعيش فيه الجميع تحت مظلَّة واحدة يذعن لها الجميع وهي مظلَّة التوحيد .

وقد سعت النظم المختلفة تعليميَّةً وقضائيَّةً واجتماعيَّةً إلى بناء الفرد السعودي على تعاليم الإسلام لتكون له شخصيَّته القائمة على العلم الشرعي والإيمان الديني متحرِّرةً من الانسياق وراء عاطفة هَوْجَاءَ تسوقه إلى صرخة قبليَّة لا يدري حقيقة سببها ولا نتيجتها وعاقبتها الدينيَّة والدنيويَّة .

ولكن هذه التعاليم والنظم رعت الحقوق القرابيَّة التي جاءتْ بها الشريعة الإسلاميَّة وأكدتها سواءٌ كانت بين الآباء والأبناء أو بين ذوي الرحم مما أسلفنا الحديث عنه .

المهم أنَّ المملكة أقامت هذه العلائق القرابيَّة على ميزان قسط لا إفراط فيه ولا تفريط ، مما جعلها تحقِّق مصلحة الفرد ، والعائلة كلّها ومصلحة المجتمع والوطن كله .

* **ومما وقع فيه الجنوح المهين مما يتعلق بالأسرة : « المرأة »** التي حاق بها الإهمال بل والازدراء والاحتقار التي يستعيدها الغربيون من تاريخهم السابق حين أنكروا حتى إنسانيَّتها ، مما أوقعهم في ردَّة فعلٍ تجاوزتْ بهم حدود تقديرها حقَّ قدرها الإنساني والأنثوي إلى القذف بها في الهواء باسم تحريرها والارتقاء بها ، وما يزالون يقلبونها سفلاً وعلواً بزعم هذه الحريَّة واستيفاء حقوقها التي هضمتْها إياها في العصور السابقة حتى أصبحتْ لعبةً بأيدي شياطين الإنس من الرجال والنساء أنفسهن ، وابتذلتْ أيما ابتذال ، حتى فقدت -في الأفلام الخليعة وعروض الأزياء ، ومسابقات الجمال وصحافة الجنس

والإغراء . . . – إنسانيَّتها التي كرمها الله بها وعادتْ أدنى من الحيوان .

ولم تنج المسلمة في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين من الوقوع في بعض هذه الدركات نتيجة دفعها من قِبَل هؤلاء الشياطين الذين لا يخافون الله ، وماتتْ في نفوسهم الغيرة الإنسانيَّة .

في المجتمع السعودي كانت المرأة بحكم إسلامها تشعر بكرامتها ، وكان الرجل يقدر مقامها ويجلُّ موقعها الاجتماعي ربَّة بيت وحاضنةَ طفلٍ وزوجةً وأمّاً وأختاً .

وحينما تنوَّعتْ مجالات الدراسة والعمل في المجتمع في ظل حركته الحضاريَّة كان للمرأة مشاركتها الإيجابيَّة دارسةً وعاملةً وقائمةً بدورها التنموي داخل البيت أو خارجه لكن مع احتفاظها بعفافها وشرفها وأنثويَّتها وإنسانيَّتها ، ودون تفريط بأيِّ ذرَّة مما تقتضيه فطرتها أو يقرره دينها ؛ لأن المرأة كالجوهرة الصَّافية يشوِّهها الدنس البسيط ويفسد صفاءها .

الانحراف بين الوقاية منه ومواجهته:

مشكلة المجتمعات المعاصرة البعيدة عن هدي الله سواءٌ كانت كافرةً أو كانت مجتمعات مسلمةً متغرِّبةً في نظمها وحياتها الثقافيَّة والاجتماعيَّة أنها تفقد بقدر كبير جدّاً مبدأ « الوقاية من الإجرام والانحراف » قبل وقوعه ، وإن كانت تعاقب عليه بعد حدوثه ، بل إن هذه المجتمعات تمارس إغراءً بالجريمة وفتحاً لأبوابها ، حتى ليقول المرء أحياناً : إنها تدعو أفراد المجتمع للمنافسة في مقارفتها ، ويتمثل هذا الإغراء في صور عديدة منها :

– الدعاية الإعلاميَّة وبالذات في مسلسلات الإجرام والاستغلال التي

ترسم للشاب أسلوب التعدِّي ، وتُظهره بطلاً طيلة حلقات المسلسل ، وإن كشف خطؤه في آخر الحلقة الأخيرة .

- التفكك العائلي الذي يشعر فيه الشاب بضعف الرقابة عليه من والديه وعائلته، وعدم تربيته في حضن عائليٍّ دافئٍ يشعر معه بقيمة الحياة المستقيمة .

- تشريع ما يدفع الناس دفعاً إلى الجريمة ، كالتبرج والسفور والاختلاط والخلوة ، والاستغلال المادي من خلال بعض القواعد القانونيَّة المغرية بهذا ، مثل : « القانون لا يحمي المغفلين » .

- تحوُّل السجون-بسوء استثمارها دعوياً وتربوياً- إلى مدارس للإجرام يخرج منه السجين بعد أشهرٍ أو سنين وهو غريبٌ عن المجتمع إلا عن الإجرام والمجرمين وأوكارهم .

- تسهيل العقوبات على الجرائم الكبرى وإلغاء عقوبة القتل والاكتفاء بسجن سنواتٍ تتخفف شيئاً فشيئاً مما ينشر خطرين :

أوَّلهما : عدم قناعة أولياء المجني عليه بالعقوبة مما يدفع إلى أخذ الثأر ومن عودة الجريمة وتسلسلها في جرائم متواصلة .

وثانيهما : إغراء القاتل نفسه - بتكرار جريمته وقد اطمأن إلى ذلك العقاب الهين بالنسبة لجريمته .

ولهذا فإن هذه المجتمعات -إذا نظرت إليها بعين المجتمع الملتزم بالإسلام- مجتمعات انحراف وجريمة ، أي أنَّ هذا هو الأصل فيها ، فالسفور والتبرج والزناوهو مباحٌ بالتراضي في أغلبها، والمعاملات الماليَّة الاستغلاليَّة ، والصراع الطبقي ، واستبعاد الفضائل الدينيَّة . . . إلى آخره، كل ذلك صورُ انحراف قائمة

في تلك المجتمعات ، وهي وسيلة الجرائم الكبرى التي تعاني منها تلك المجتمعات .

أمَّا في الإسلام -ومن ثم في المجتمع المسلم كما يتجلى بأفضل صوره المعاصرة في المملكة العربيَّة السعوديَّة- فإن منهج الحماية من الجريمة والانحراف متكاملٌ قبل الانحراف وبعده ، أي وقايةً منه ومواجهةً له .

ومن أبرز عناصر هذا المنهج :

١- الاحتياطات الوقائيَّة من حدوث الانحراف أو الجريمة ، ويتمثَّل هذا العنصر بصور عديدة :
مثل تقوية الإيمان بالله ورقابته ، واليوم الآخر وأهواله ، وتعويد النفوس على حب الخير والنفور من الشرور والرذائل ، وتقوية الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم ، والتعاون على البر والتقوى ، ومنع المثيرات المغرية بالجريمة ، بمنع الاختلاط ، والسفور ونحوها ، والضغط الاجتماعي الذي يتحاشى الشخص مواجهته لوْ قارف شيئاً مما لا يرضاه هذا المجتمع .

٢- ستر الجرائم وعدم الجهر بالسوء سواء من الشخص الذي وقعتْ منه الجريمة ، أو من أشخاص آخرين يكفي أن ينصحوه ويحذروه ولا يشيعوا جريمته خصوصاً إذا كانتْ إشاعتها تؤدِّي إلى تماديه معها ، أو فتح ثغرةٍ لضعاف النفوس ليسلكوا المسلك نفسه .

٣- مشروعيَّة الحدود والعقوبات التعزيريَّة التي يجد فيها المجرم أنَّ خسارته بالعقوبة أعظم من كسبه الإجرامي ؛ لأنه قد تذهب نفسه أو يتشوَّهُ جسمه بسبب إقدامه على الجريمة فينكفُّ عنها .

٤- فتح باب التوبة للمجرم قبل العقاب أو بعد العقاب ليعود إلى ساحة المجتمع عضواً نافعاً نادماً على تلك العثرة التي تخلَّص منها .

٥- العناية بالأحكام والتوجيهات الإسلاميَّة التي تحقق للمجتمع المسلم تكامله المادي والأدبي وتعاطفه وتراحمه وإيمانيته وبرَّه بما يكفل لجميع الأفراد في المجتمع معيشةً طيِّبةً[1] .

وعلى ضوء العناصر السَّابقة تتشكل كل جوانب الحياة الثقافيَّة والاجتماعيَّة في عناصرَ كلُّ عنصرٍ فيها له طرفان ووسط لا تستقيم النظم البشريَّة الوضعيَّة إلا على أحد طرفيه ، قدْ توغل فيه إذا كانت مضادَّةً لنظم على الطرف الآخر ، وقد تقرب إلى الوسط رضوخاً لداعي الفطرة أو هرباً من جحيم الإجحاف بحقوق الجوانب التي من الطرف الآخر ، أمَّا القيام على الوسط قياماً عدلاً في كل العناصر فإنه شأن شريعة الله ومن ثم منهج الملتزمين بها .

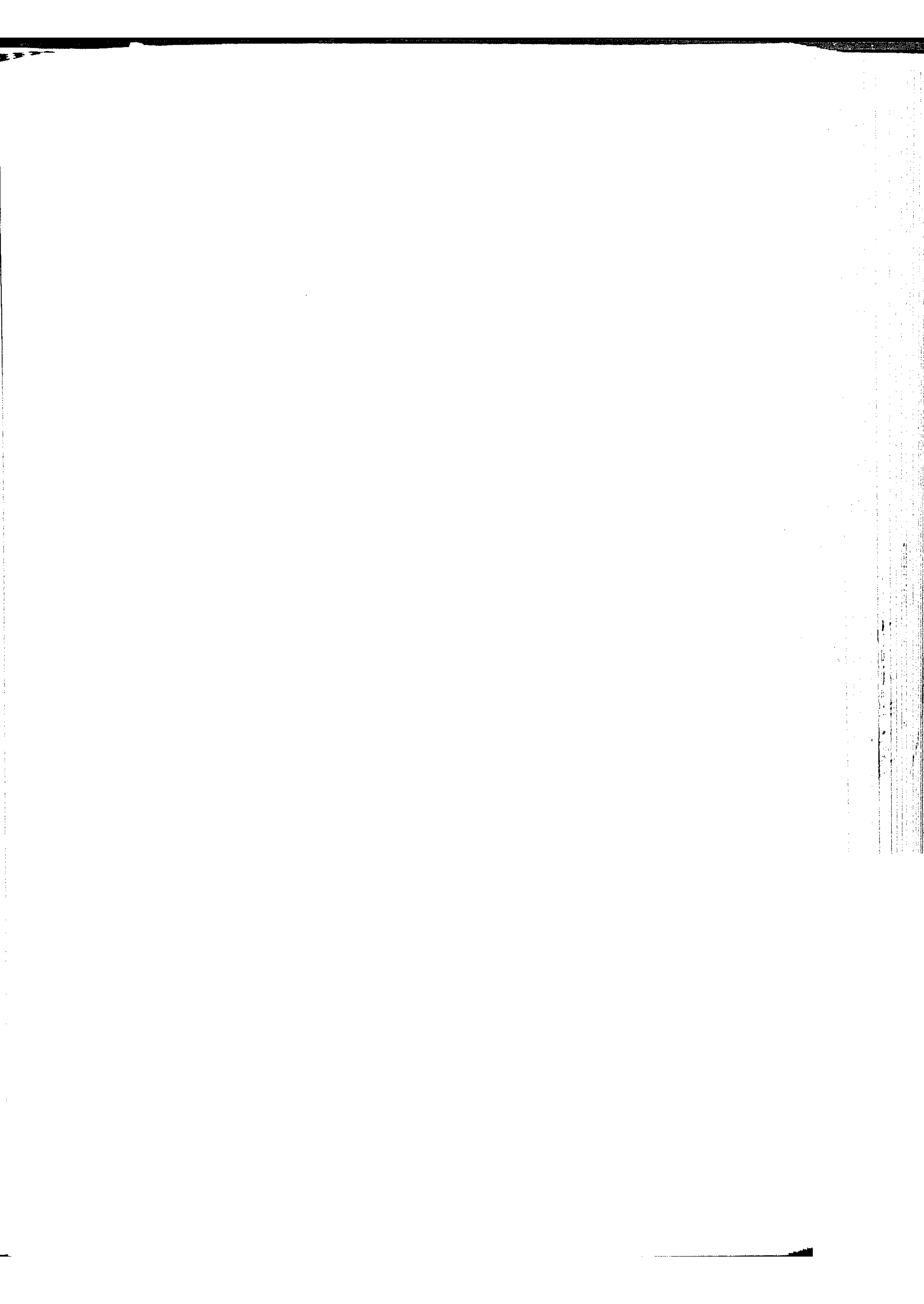
وهنا تبرز المملكة العربيَّة السعوديَّة في هذا العصر محاولة القيام على هذه الوسطيَّة « العدليَّة » لتحقيق إسلاميَّتها ، لكنها بحكم بشريَّة التطبيق سيوجد قصورٌ ونقصٌ ، وحسبها أنها وجهت وجهها نحو هذه الشريعة ، وأنها تحاول بلوغ الكمال الممكن بشريّاً كلما تقدم الزمن .

---

(١) انظر : أثر تطبيق الشريعة الإسلاميَّة في حل المشكلات الاجتماعيَّة ، إبراهيم الجوير ، ص ٤٨-٤٩ ، ١٤١٥هـ ، الرياض .

الفصل الثالث

الآثار السياسيَّة والاقتصــاديَّة



المبحث الأوَّل

الوحدَةُ السِّياسيَّة

الوحدة مطلبٌ بشريٌّ لكل أمة من الأمم لما تدرك البشريَّة بفطرتها وتجاربها من أثرها الإيجابي في قوَّتها وانتصاراتها وقدرتها على الاكتفاء بذاتها فيما ينوبها ، ولهذا نجد الأمم والدول تمجِّدُ ذكريات وحدتها وقادتها الذين يحقِّقون لها هذه الوحدة ، وبالمقابل نجد الدول الغالبة المستعمرة لشعوب أخرى تسعى إلى تفتيتها وبثِّ روح التنازع بين أجزائها وفق المثل البريطاني : « فرِّقْ تَسُدْ » وكما هو معلومٌ تاريخياً أنَّ الأمة الإسلاميَّة -والعربيَّة بالذات- قد آل أمرها في هذا العصر إلى التفرُّق والشتات والتناحر ، ومن ثمَّ الفشل وذهاب الريح .

وقد بُذلتْ جهودٌ متعددةٌ فكريةٌ وسياسيةٌ تتغنَّى بالوحدة وتنادي بها ، وتجعلها هدف الأمة بعد الاستقلال ولكنها ذهبتْ هباءً منثوراً .

محاولةٌ واحدةٌ متميِّزةٌ في مسارها ومن ثمَّ في نتائجها ، استطاعتْ أن تحقق وحدةً نموذجيَّةً في مجتمعٍ كبيرِ المساحة متعدِّد الأقاليم ، وهي الوحدة التي أقامها الملك عبد العزيز - رحمه الله - في القرن العشرين في جزيرة العرب .

« فعندما وافته المنيَّة ترك الملك ابن سعود الذي أطلق عليه البريطانيُّون اسم « نابليون العرب » ترك لابنه مملكةً مساحتها تقابل نصف أوربا ، وتعد ثالث بلد منتجٍ للنفط في العالم ، والزعيمة الروحيَّة للعالم العربي ، موكبٌ مدهشٌ استمرَّ نصف قرن ، وملحمةٌ أكثر غرابةً من أي قصَّة من قصص الفروسيَّة صاغتْ هذه المعجزة في منتصف القرن العشرين ، أنشأ الملك ابن سعود -بعملٍ أقرب ما يكون لعمل السحر- أمَّةً جديدةً من الرمال »[1] .

---

(١) الكلام لـ« موريس جارنو » ، الملك عبد العزيز - رؤية عالميَّة ، ص ٢٤٣ .

والسبب الأول والأساس في فشل الجهود الوحدويَّة القوميَّة والاشتراكيَّة ونحوها ونجاح الوحدة في المملكة العربيَّة السعوديَّة في تأليفها المجتمع السعودي وكونها عنصر تأليف وجمع للمسلمين والعرب ، هو ما نحن بصدده في حديثنا عن آثار تطبيق شريعة الإسلام في الحياة .

فإنَّ الأمم عموماً قد تجتمع على عنصر أو أكثر من العناصر الأرضيَّة ، كالقوميَّة والوطنيَّة والعنصريَّة واللغة . . . لكنَّها عناصر إذا لم تضبط توجُّهها هداية الدين الحق فإنه تكون شراً على أهلها ونقمةً على الأمم الأخرى من حولها .

« لقد جرَّتْ -كما يقول المودودي - هذه العناصر كوارث هائلة على الإنسانيَّة، ووزَّعتْ العالم الإنساني إلى مئات وآلاف من الأجزاء ، وكلُّ جزء من هذه الأجزاء يمكن إفناؤه ولكن لا يمكن تحويله إلى غيره ، لا يمكن أن يبدل جنسٌ بجنس غيره ، ولا وطنٌ بوطن غيره، ولا لونٌ بلون غيره ولا دولةٌ بدولة غيرها ، ولا أن يتكلم أهل لغة بلغة غيرها ، ولا أن تصير المصالح الاقتصاديَّة لأمة مصالح لأمة غيرها بعينها . . . فالنتيجة اللازمة لكل ذلك أن القوميَّات التي تقوم على هذه الأسس لا سبيل إلى التوفيق بينها بأيِّ حال من الأحوال ، وهي على الدوام متحاربةٌ بينها لأجل ما في نفوس أهلها من العصبيَّة ، وتحاول كل واحدة منها أن تقضي على غيرها، ولا تنتهي هذه الحرب بينها إلا بفنائها كلها لتقوم على هذه الأسس نفسها قوميات جديدةٌ ، وتثير في الأرض مثل ما أثارت هي من الويلات والقلاقل والاضطرابات، وهذا مصدرٌ أبديٌّ للفساد والشر يتهدَّد أمن الأرض وسلامها » (١) .

---

(١) بين القوميَّة والإسلام ، ضمن كتاب طائفة من قضايا الأمة الإسلاميَّة، أبو الأعلى المودودي، ص ١٢ ، ١٤٠٣هـ، الرياض .

أمَّا في عالمنا الإسلامي والعربي بالدرجة الأولى فقد كان تبنِّي العلمانيَّة بما أحدثتْ من عداء للإسلام الذي هو هويَّة المجتمع العربي والإسلامي ، ومن تغريبٍ فكريٍّ وسياسيٍّ ، وما تلبَّستْ به من روحٍ تقليديَّة استهلاكيَّة لما عند الآخرين -كانت هذه العلمانيَّة بما تمظهرتْ به من قوميَّة أو اشتراكيَّة أو غيرها- مصدراً للتفريق والتناحر في المجتمع الواحد ، وبين النظم المتجاورة ، لقد خلقتْ ألواناً من العداء التعصبي المقيت بين الناس ، أي أنها انقلبتْ بضدِّ ما كان يهدف إليه الداعون إليها ، إذ كانوا يتصوَّرون أنها ستحقِّق الالتقاء بين الجميع من مختلف الطوائف والأعراق بعيداً عن التعصب والتشرذم ، مستندين على تجربتها لدى الغرب دون اعتبار للفروق بين الوضعيَّتين الغربيَّة والإسلاميَّة .

يقول برهان غليون : « إنَّ عقيدة العلمانيَّة التي كانت أداةً أساسيَّةً لخلق الإجماع السِّياسي في الغرب بقدر ما فتحتْ ساحةً علميَّةً تلتقي فيها كل المذاهب والآراء ، قد تحوَّلتْ - في العالم العربي- إلى طرف إضافيٍّ في الصراع العقائدي ، وتحوَّلتْ بالتالي إلى مصدر جديد لتوليد الخلاف وتعميق الانقسام والتقسيم الفكري والسياسي »[1] .

أمَّا الوحدة السياسية التي حققتْ جمع الشمل وارتباط القلوب ونجحتْ فيما أخفقتْ فيه التجارب الأخرى وهي وحدة أقاليم الجزيرة التي أقامها الملك عبد العزيز فإنها قامت على أسسٍ متينةٍ مناسبةٍ للبيئة التي زرع فيها هذه الوحدة ، ومن ثمَّ سقاها فأثمرتْ وأينعتْ .

- **إنَّ أهمَّ أسس الوحدة بين المسلمين هي العقيدة الإسلاميَّة** ؛ لأنها توحِّد

(١) نقد السياسة - الدولة والدين ، ص ٤٢١ .

وجْهة الناس كلِّهم إلى الله دون سواه فتكون مسيرتهم جميعاً -فكراً ومشاعرَ وحركةً- متناغمةً متوافقةً، ولقد قرن سبحانه العبوديَّة له وحده بوحدة الأمة المسلمة فقال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1] . وقد ارتكزتْ عليها المملكة بصورتها الصَّافية الصحيحة وفق منهج السلف الصالح[2]، وحاربتْ ما يشوش هذا الأساس مما يفرق القلوب ويزرع الشقاق الديني والفكري من ألوان الشرك والابتداع الذي به يتحوَّل الدين إلى أديان والأمة إلى أمم متشاكسة .

وقد وصف الله أهل الكفر بالتفرق والتمزق بسبب التفرق الديني وتعدد الولاءات، يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3] كما حاربتْ المبادئ الهدَّامة التي ما دخلتْ مجتمعاً إلا فرَّقتْ أهله وأثارتْ الصراع والفتنة بينهم كالماسونيَّة والشيوعيَّة والروحية .

- ومن الأسس -وهو قضية عقديَّة أيضاً- : **تحكيم الشريعة والاحتكام إليها** حيث تنسجم وجهة الدولة التشريعيَّة مع قاعدة الشعب الإيمانيَّة ، وهي إفراد الله وحده بالعبادة والتشريع .
- ومن الأسس : **وحدة السلوك** ، سواءٌ كان في مجال التعبد وأداء الشعائر صلاةً وصياماً وزكاةً وحجّاً، أو في مجال الأخلاق والحقوق المتبادلة بين الناس ، بين الراعي والرعية ، وبين الناس كلهم .

---

(١) الآية رقم (٩٢) من سورة الأنبياء .

(٢) من الأناشيد التي كنا ننشدها صغاراً :

رباط العقيدة يجمعنا ... ويذكي بنا عزة المسلم

ولا شيء يجمعنا غيره ... ولسنا إلى غيره ننتمي

(٣) الآيتان (٣١-٣٢) من سورة الروم .

على هذه الأسس وما انبثق عنها من تطبيقات قامتْ وحدة المملكة العربية بصورة متماسكة كتماسك شخصيَّة موحِّدها الملك عبد العزيز رحمه الله ، ولقد صمدتْ هذه الوحدة أمام أخطار التشرذم والتبعيَّات التي كانتْ تتوزَّع عليها الأحزاب في الدول الأخرى ؛ بل إنها لمتانة غرسها الإيماني والإنساني صارتْ تزداد تلاحماً كلما تقدَّم الزمن ، وهو أيضاً ما أثار إعجاب المتأمِّلين ولفت أنظارهم : « فإنَّ الشيء الذي لا ينفك عن لفت أنظار المراقبين لمسرح السياسة في الشرق الأوسط والعالم الثالث عموماً هو استقرار المملكة العربيَّة السعوديَّة بكل أجهزتها وتراكيبها السياسية والاقتصاديَّة والقضائيَّة ، ويلفت هذا الاستقرار أنظار المراقبين بصفة خاصة من حيث استمراريَّة وحدة البلاد ولا سيما عندما نقارن هذه الوحدة بما عرفتْ به الجزيرة العربيَّة منذ سقوط الخلافة الإسلاميَّة حتى الآن من تشرذم وتجزئة واضطرابات قبليَّة وطائفيَّة لم تهدأ على حال حتى تمَّ قيام المملكة العربيَّة السعوديَّة ، وبإقامتها عمَّ الهدوء والسكينة عبر جبال المملكة ووديانها ، هضابها وسهولها ، وصحاريها وحواضرها ، قراها ومدنها .

ظلَّتْ المملكة العربيَّة السعوديَّة الدولة الوحيدة تقريباً في العالم الثالث التي لم تتعرَّض وحدتها إلى التهشُّم أو يشكِّك بها أحدٌ ، إنها ظاهرةٌ نادرةٌ تماماً إن دلَّت على شيء فعلى حكمة شعبها من ناحية وصواب سياسة حكومتها من ناحيةٍ أخرى ، وكأننا بالملك عبد العزيز - رحمه الله - قد أحسَّ في أعماق نفسه في صيف عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) أنه موشكٌ على القيام بخطوة تاريخيَّة حاسمة ستكون لها دلالتها الكبرى ، وذلك بإعلانه تسمية « المملكة العربيَّة السعوديَّة » .

ودخلتْ هذه الوحدة الوطنيَّة في شتى الامتحانات والتجارب القاسية وخرجتْ في كلِّ مرَّة أقوى وأصلب مما كانتْ عليه ، فقد عاش أهلها أيام الفاقة والحاجة وأيام الغنى والنفط ، وتظلَّلوا بظلال السلام مثلما تظلَّلوا بسحب الحرب وقريع طبولها ، مَرُّوا بمصاعب الحرب العالميَّة الثانية وتهديدات الغريب والقريب، من حروب فلسطين إلى حروب الخليج رقم واحد ورقم اثنين .

وفي كل مرة كان شعب المملكة يسارع للالتفاف حول علمه وملكه، مدركاً أهمية هذا الالتفاف لاستمرار هذه التجربة العربيَّة الإسلاميَّة الفريدة ، وأظهرتْ هذه الوحدة الوطنيَّة أهميَّتها لا بالنسبة لأبناء المملكة وحسب، بل وأيضاً بالنسبة لسائر العرب والمسلمين »[1] .

أجل فلم تكن وحدة المملكة حزبيَّةً وطنيَّةً تتقوقع على ذاتها منافرةً للآخرين من حولها .

إنَّ الأساس الإسلامي لها وإنَّ الأريحيَّة العربيَّة التي أشيدتْ عليها قد جعلاها تفيض وداً وقرباً من العرب والمسلمين عموماً ، وتواصلاً معهم وولاء لهم، والملك عبد العزيز نفسه النموذج الأبرز في هذا المجال طيلة عمره ثم بعده سياسة الدولة عموماً .

لقد جعل الملك عبد العزيز قضيَّته مع العالم لا مرتبطة بمصلحة ملكه أو شعبه فقط ، وإنما مصلحة أمته الإسلاميَّة في كل شعوبها في البلاد الإسلاميَّة أو في البلاد غير الإسلاميَّة . وقد بلور هذا في خطابه الذي ألقاه في جدَّة عام (١٩٢٦م) : « . . ثم إنَّ لنا على الدول حقاً فوق هذا كلِّه وهو أهم شيء يهمنا مراعاته ، وذلك أنَّ لنا في الديار النائية والقاصية إخواناً من المسلمين والعرب

---

(١) الكلام للصحفي العراقي خالد القشطيني ، صحيفة الشرق الأوسط ٢٣/٩/١٩٩١م .

نطلب مراعاتهم وحفظ حقوقهم ، ولي الأمل الوطيد في أنَّ الحكومات المحترمة ذات العلاقة بالبلاد الإسلاميَّة والعربيَّة لا تدَّخر وسعاً في أداء ما للعرب والمسلمين من الحقوق المشروعة في بلادهم »[1] .

أمَّا الوحدة العربيَّة التي حاول بعض القوميِّين إنكار دور المملكة في دعمها بحجَّة أنها دولةٌ تقوم على الدين ، والدين منافرٌ للقوميَّة ، فهو إذن مناقضٌ للوحدة ، فإنَّ الحقيقة التي يثبتها تاريخ المملكة أنها أخلص الدول لها وأكثرها دعماً ، وسعياً لإقامتها على الأسس السَّليمة ، أي على الدين الجامع للقلوب .

حينما تمَّ توقيع معاهدة الصداقة بين المملكة واليمن عام (١٩٣٤م) بالطائف هنَّأ ملك العراق « غازي » الملك عبد العزيز على هذه المعاهدة ، وقد ردَّ الملك عبد العزيز على «غازي» مبيِّناً أنه يسعى ليتحقَّق هذا الإخاء بين جميع العرب، وهذا كلامه :

« إنَّ هذه الصداقة وهذا الإخاء كانا وسيكونان دائماً الهدف الذي نسعى جهدنا لتحقيقه بين جميع العرب ، من أجل مصالح دينهم أوّلاً ، ومن أجل رفاهيتهم المشتركة أخيراً . وسيكون هذا الهدف هدفنا ، وآمل أن تقوم جلالتك وسائر زعماء العرب بدعمي لتحقيقه»[2] .

أما الجامعة العربيَّة التي برزتْ كرمز للوحدة العربيَّة فإنها انبثقتْ من خلال خطاب ألقاه وزير خارجيَّة بريطانيا عامَ (١٩٤٣م) وهو " أنطوني أيدن " داعياً إلى حركة تحقق الوحدة العربيَّة في المجالات الاقتصادية والسياسيَّة والثقافيَّة ، وتبنَّاها رئيس وزراء مصر آنذاك ودعا إليها، وكانتْ مصر آنذاك

(١) السعوديون والحل الإسلامي، ص ٢٣ .

(٢) الملك عبد العزيز ابن سعود والوحدة العربية ، لأحمد طربين ص ٨، من بحوث المؤتمر العالمي للملك عبد العزيز، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ.

تحت الاستعمار البريطاني، ولم تكن الحرب العالميَّة الثانية قد انتهتْ ، لذا كان ردُّ الملك عبد العزيز أنه « لا يرى إمكان القيام بأي عملٍ ما دامت الظروف الحاضرة قائمةً » .

ويرى المحلِّلون أنَّ الملك عبد العزيز كان يخشى أن تصبح هذه الجامعة إذا أنشئتْ في ظل توجيه الاستعمار وتحكُّمه مجرَّد منبرٍ لخدمة السياسة البريطانيَّة .

ولهذا حينما أراد التوقيع على ميثاق هذه الجامعة بعد لقائه بالملك فاروق اشترط كما يقول صاحب بحث " الملك عبد العزيز والوحدة العربيَّة " : « أن يسند منصب أمينها العام إلى عبد الرحمن عزَّام حتى نضمن أن تكون الجامعة في خدمة العرب ولا تسير في ركاب السياسة البريطانيَّة »[1] .

أمَّا التضامن الإسلامي ولمُّ شعث المسلمين قياداتٍ وشعوباً فقد كان همَّ المملكة ، وقد حمل لواء هذا التضامن الملك فيصل - رحمه الله - ونادى به في العالم الإسلامي ، فاستجاب له عقلاء من القيادات السياسيَّة وأيَّده العلماء وقادة الدَّعوة الإسلاميَّة ودعوا حكوماتهم للاستجابة لدعوته[2] .

وقد أنشئتْ منظمة المؤتمر الإسلامي كما أنشئتْ رابطة العالم الإسلامي التي سبق الحديث عنها ، والمملكة بحكم موقعها المتميِّز وخدمتها لضيوف الرحمن القادمين بمئات الآلاف كل سنة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج تبذل جهدها لجمع المسلمين والتأليف بينهم ، ولها أيادٍ بيضاء في هذا المجال لا تنكر .

وأخيراً فإنَّ من أهمِّ ما نؤكِّد عليه بشأن الوحدة التي تبلورتْ في المجتمع السعودي بصفتها أثراً من آثار التزامه بالإسلام هو روحها التي ظلَّتْ تعمرها

(١) الملك عبد العزيز الوحدة العربية ، ص ١٨ .

(٢) انظر : التضامن الإسلامي ، لأبي الأعلى المودوي .

منذ أقامها الملك عبد العزيز وحتى الآن ، والتي تمثل عنصر نجاحها وهي الإيمان ؛ الإيمان بالله ، وبالأخوة الإسلاميَّة ، وبالحكم بشرع الله في كل الشؤون ، هذه الروح هي الخيار الذي وفق الله الملك عبد العزيز لاعتماده دون سواه ، وبه تحقَّقتْ لهذه الوحدة مكانتها المتميِّزة إسلامياً وعربيّاً وعالميّاً .

« فبهذا الخيار -يقول زين العابدين الركابي- غدت الوطنيَّة ذات منهجٍ واضحٍ إلى درجة التألق ، منهج العقيدة والشريعة والرصيد الصحي من كريم التراث وسوابق التاريخ والحضارة .

وبهذا الخيار ، تمكَّن الإسلام في الأرض، أي في وطن أو إقليم حرِّ السيادة والقيادة ينتظم جماعةً بشريَّةً ترضى الإسلام وتصطفُّ خلف القيادة بمحبَّة غامرة ووحدة جامعة، وتعتزُّ بالوطن اعتزازاً عاماً مثيلاً لاعتزاز سائر البشرَ بأوطانهم فطرةً وغريزةً، واعتزازاً خاصّاً بموجب أن هذا الوطن نسيج وحده، إذ اختار الله أرضه موئلاً لبيته الحرام، واختار لسانه لغةً لآخر كتبه، وابتعث من بنيه خاتم الأنبياء والمرسلين .

هذه هي « مكانة » وحدة الملك عبد العزيز في منهج الإسلام .

أمَّا مكانتها العربيَّة المجرَّدة فقد حظيتْ باحتفاء لافت ، فمن المعروف أن "ساطع الحصري" -مثلاً- لم يكن يؤمن بقيام الدولَ على أساسٍ دينيٍّ ، ومع ذلك فقد احتفى بإنجاز الملك عبد العزيز في هذا المجال بمقياس العروبة المجرَّدة أو بمعيار « الحمية العربيَّة »، وخير الإنجازات : إنجازٌ يتفق عليه أقوامٌ مختلفو البواعث والرؤى والغايات والمعايير .

وبالمقياس التاريخي السياسي العالمي تتبوَّأ وحدة الملك عبد العزيز مقاماً عَلِيّاً .

فإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد ثلاث وحدات استرعتْ انتباه علماء ومفكّريْ التاريخ السياسي وهي :

١- وحدة إيطاليا التي جمعت إيطاليا -بعد شتات وتفتُّت- على يد ثلاثة رجالٍ بارزين في التاريخ الإيطالي وهم : "غاريبالديّ" ، "وجيوس ماتزينيّ" ، و"كافور" .

٢- وحدة ألمانيا التي أنهتْ فوضى الدويلات (أكثر من ثلاثمائة دويلة ألمانيّة) وقد لمع اسم « بسمارك » في هذا الميدان فلا تكاد تذكر وحدة ألمانيا حتى يذكر هذا الرجل .

٣- عودة الوحدة الأمريكية ، فلقد اندلعتْ حربٌ أهليّةٌ طاحنةٌ بين الولايات الجنوبيّة والولايات الشماليّة ، وهي حربٌ هدّدتْ وحدة أمريكا في الصميم ، وهنالك برز " إبراهام لنكلن " فأرجع الولايات الجنوبيّة الثائرة إلى الوحدة .

إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد هذه الوحدات التي ظفرتْ باهتمام المؤرِّخين ، فإن القرن العشرين والتاريخ الإنساني قد شهدا وحدةً كبرى في جزيرة العرب ، وهي الوحدة التي أسسها وأتمها ملكٌ عربيٌّ الأرومة ، مسلم الاعتقاد والمنهج والوجهة هو الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله . . . وبهذا إذْ حقق هذا الملك المصلح واجباً عظيماً من واجبات الإمام المسلم وهو إقامة وحدة الجماعة المسلمة [في مملكته] وترسيخها والحفاظ عليها ، فإنه أضاف -في الوقت نفسه- إلى السجلِّ العالمي للتاريخ الإنساني فصلاً مجيداً في سياق الوحدة الكبرى للأمم ، مع ملاحظة ضعف إمكانات الملك عبد العزيز بالمقارنة إلى الإمكانات التي كان يملكها "كافور" الإيطالي ، و"بسمارك" الألماني ، و"لنكلن" الأمريكي »[1] .

---

(١) وحدة الملك عبد العزيز بالمقياس الإسلامي والعربي والعالمي، الركابي، مجلة اليمامة، عدد (١٥٢٤) في ٢٨/ ٥/ ١٤١٩هـ، ص ٣٠ .

المبحث الثاني

التمثيل الإسلامي في مجال الحكم وفي المحافل الدوليَّة

من أبرز الآثار التي تميَّزتْ بها المملكة بسبب التزامها بشريعة الإسلام في العصر الحاضر أثران هما :

- التمثيل الإسلامي في مجال الحكم .
- التمثيل الإسلامي في المحافل الدوليَّة .

وسأشير إلى هذا التميز في الأثرين :

أولاً : التمثيل الإسلامي في مجال الحكم

يقول محمّد أسد في كتابه " الطريق إلى الإسلام " عن الملك عبد العزيز - رحمه الله - بعد ضمِّه أقاليم المملكة في دولة واحدة : « . . . ظهر ابن سعود ظهوراً كاملاً أمام أنظار العالم الخارجي ، وكان عندئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، لقد ملأ وصول ابن سعود إلى هذه المرتبة بصورة لم يبق لها مثيلٌ ، وفي وقت كان معظم أقطار الشرق الأوسط يستسلم فيه لتوغُّل النفوذ الغربي ، أقول ملأ وصول ابن سعود إلى الحكم العالم العربي بالأمل في أنه قد جاء أخيراً زعيمٌ وقائدٌ عربيٌّ يخلِّص الأمة العربيَّة من عبوديَّتها ، وتطلّعت إليه جماعاتٌ إسلاميَّةٌ عديدةٌ من غير العرب ، لإحياء الفكرة الإسلاميَّة بأكمل معانيها ، وذلك بإقامة دولة تكون فيها الكلمة العليا لروح القرآن وحده »[1] .

هذا الأمل المثالي تصاعد في ظل فراغٍ وجوديٍّ للتمثيل الإسلامي في مجال الحكم لم يَجْرِ في تاريخ المسلمين مثله .

---

(١) الطريق إلى الإسلام ، لمحمد أسد ، ترجمة عفيف البعلبكي، ص ٢٢٠، الطبعة السابعة، ١٩٨١م .

ذلك أنه فور وفاة الرسول ﷺ وانتهاء مرحلة النبوَّة قامت الخلافة الراشدة ، فالدولة الأموية فالعباسية ، ثم الدولة العثمانيَّة التي امتدَّ حكمها حتى القرن الرابع عشر الهجري، وكانت الدولة في تلك العهود تمثِّل دولة الإسلام، ابتداءً من عهد الخلافة الراشدة التي بقيتْ النموذج الأعلى لتمثل الإسلام ثم ما بعدها من دول الملك كانت تمثل « الرمز الإسلامي » في مجال الحكم احتكاماً للشريعة ورعايةً للجهاد والدعوة ، وذوداً عن الإسلام على الرغم من الثغرات التي وجدتْ بقلَّةٍ أو كثرة في جدار إسلاميةِ كلٍّ منها .

فلما انتهت الدولة العثمانيَّة إلى حكمٍ لا ديني في تركيا وإلى سطوة استعماريَّة تغريبيَّة في تركتها ، كانت الفاجعة للمسلمين حينما تصور المسلمونَ أنه سيحدث فراغٌ هائلٌ حينما انتقض « الحكم »[1]، لكنه كان قد برز « حكمٌ » يسعى لتمثيل الإسلام أي ليحفظ الرمز الإسلامي في مجال « الدولة » في مهد الإسلام من خلال الملك عبد العزيز مؤسس « المملكة العربية السعوديَّة » التي ظلتْ « دولةَ الإسلام » بين مجتمعات المسلمين الواسعة التي تسلط عليها الاستعمار الكافر ثم حكومات ورثت ما خلفه الاستعمار من نظم الحياة « الوضعيَّة » .

وتمثيل هذه الدولة للإسلام لا يعني أنها حققتْ التطابق التام مع الصورة النموذجيَّة لتعاليمه ، وهي الصورة التي يصعب -إن لم نقل يستحيل- تحقيق الكمال فيها، ولكنها حققتْ ما يسميه علماء العقيدة « مطلق الإيمان » ، أي

---

(١) من شعر أحمد شوقي معبراً عن لوعة المسلمين بسقوط الدولة العثمانيَّة :

عادت أغاني العرس رجع نواح ... ونُعيت بين معالم الأفراح
الهند والهةٌ ومصر حزينة ... تبكي علَيك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحى من الأرض الخلافة ماح

الشوقيات، أحمد شوقي، ١/ ١٠٥ ، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي .

الارتكاز على المنهج الإسلامي والالتزام بمطالبه ، وترقية الحياة على هديه في إطار الظروف المحيطة بالدولة والمجتمع .

ولكي تتضح صورة هذا التمثيل فإنها تحسن المقارنة من خلال بعض النقاط :

*** الانتماء الإسلامي لقيادات الدولة:**

ليس مجرد انتماء وراثي ، أي كون الشخص من أبوين مسلمين فقط ، ولكنه انتماءٌ حقيقيٌّ تتمثَّل حقيقته بقناعة إيمانيَّة بأن الإسلام هو المنهج الحق لصلاح الدين والدنيا ، وبروحٍ معمورةٍ بقيم الإسلام حبّاً لها وتعاملاً بها .

وبمشاركة دائمة في أداء العبادات وأعمال البر التي حث عليها الإسلام وما زال المجتمع السعودي يتعاطاها إنسانيّاً ودينيّاً .

إنَّ "محمد أسد" الذي صحب الملك عبد العزيز كثيراً والذي تأسف على أنه لم يقم الدولة العربية التي تراءاها طموحه يقول عن الملك عبد العزيز : « إنه متديِّنٌ جدّاً وينفذ بالحرف كل الأوامر والنواهي الشكليَّة في الشريعة »[1] .

وقد ذكرنا عن شخصيَّته في أول البحث ما يكفي .

أمَّا خطبه فقد كانت اعتزازاً بالإسلام ، وحصراً للهداية به ودعوةً إليه ، ونقداً لكل ما خالفه حتى قال تقرير للقنصليَّة الأمريكية في بيروت تعليقاً على بعض خطبه : « إنها تثبت أن العرب لم يتقدَّموا على ما كانوا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً ، وأنها تجيء على طريقة أئمة المسلمين في الماضي ، أي إعلان

---

(١) الطريق إلى الإسلام ، ص ٢٢٠ ، مصدر سابق .

الكمال المطلق للإسلام وتفوقه ، والتأكيد على أخوة المسلمين وكراهة الأوربيين »[1] .

وعلى المسار نفسه توالى القادة بعد الملك عبد العزيز في القناعات والالتزام ، والتعهد به أمام الشعب .

« لكم عليَّ -يقول الملك فيصل في احتفال بمناسبة البيعة في ١٧/ ٧/ ١٣٨٤هـ- أن أراقب الله - سبحانه وتعالى - في كل ما أعمل، ولكم علي الإخلاص في خدمتي لكم ، ولكم علي أن أعدل بين صغيركم وكبيركم ، وأن أطرفكم عندي مساوٍ لأقربكم إلى الحق »[2] .

ومن كلام خادم الحرمين الشريفين : « إن أهميَّة الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كبيرةٌ ، فمن لم يحكم بكتابه وينفِّذ ما أمر الله به فسوف يكون هالكاً ، وسوف يكون الخاسر في الدنيا والآخرة . . .

ونحن من منطلق الإسلام والدَّعوة إليه تتحدَّد سياستنا في الداخل في جميع المرافق والمجالات ، وأهمُّها على الإطلاق أسلوب الحكم وطريقته »[3] .

ولا أعتقد أني بحاجة إلى المقارنة ، فما تزال تدوِّي خطب قادة كثير من الدول كما كانت تدوِّي من قَبل بالتبجُّح بالعلمانيَّة ومحاربة الإسلام ، متمثِّلاً بدعاته والدول التي تعلن تمسكها به كالسعوديَّة باسم محاربة الرجعيَّة ، أو التقليديَّة المحافظة ، والسخرية بالدين والتحلل من الالتزام به في شعائره فضلاً عن غيرها ، وفتح المجالات الإعلاميَّة والثقافيَّة لتشويه الدين وحرب أوليائه

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي، هامش ص ٣٢ .

(٢) إنجازات الملك فيصل، الشبيلي ، ص ٧٧، مصدر سابق .

(٣) كلماتٌ منتقاة ، ص ١٠ ، ١٣ .

. . . إلى غير ذلك من الصور التي تعجُّ بها كثيرٌ من المجتمعات التي تحكمها العلمانيات المختلفة .

*** شرعيَّة الدولة :**

كلما قويتْ شرعيَّة الدولة زاد ذلك في رضا الشعب عن حكمها وصدق ولائه لها ، وبالمقابل إذا ضعفتْ هذه الشرعيَّة تراجع هذا الرضا والولاء حتى تصبح العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة شكٍّ وتربُّصٍ من كلٍّ من الطرفين تجاه الآخر .

وأبرز مصادر الشرعيَّة للدولة هي :

- انبثاق الدولة من دين الشعب وتقاليده وتبنيها لهما .
- الزعامة المتميِّزة القادرة على الاستحواذ على قلوب الناس .
- أن يكون النظام محقِّقاً مصالح الشعب وأمنه .

فإذا جئنا لننظر في عامة الدول في مجتمعاتنا الإسلاميَّة في هذا العصر فإنَّا نجدها تعاني -كما يقول سعد الدين إبراهيم- « أزمة الشرعيَّة ، وبتعبير -آخر- أزمة تضاؤل الشرعيَّة أو غيابها بتاتاً في (معظم) أنظمة الحكم العربيَّة الحالية ، وهي أزمةٌ معروفة الأسباب والنتائج ، وهي أسبابٌ ونتائج اجتماعيَّةٌ هيكليَّةٌ مرتبطةٌ بمشكلة بناء الدولة الحديثة في الوطن العربي » .

لقد حاولتْ بعض الدول بعد الاستعمار إيجاد شرعيَّات باهتة لها ، ولكنها تخبَّطتْ تخبُّطاً جعل كل شرعيَّاتها -كما يقول الكاتب السابق -« قاصرةً عن ملء فراغ الشرعيَّة ، وهو الفراغ الذي نشأ منذ انهيار المجتمع التقليدي ؛ ومعه شرعيَّته التقليديَّة في دار الإسلام ، والتي كانت الخلافة العثمانيَّة آخر رموزها ، وظلَّت الأنظمة الحاكمة منذ الاستقلال تقف بالتالي على أرضيَّةٍ من الرمال

المتحركة ، ومن هنا عدم توفُّر الاستقرار السياسي والاجتماعي طوال العقود الأربعة الماضية في معظم الأقطار العربيَّة » .

حتى التي حاولتْ أن توجد لها الشرعيَّة من خلال المصدر الثالث بإعلان دستور للدولة وقانون عام ، ارتدَّ ذلك عليها إذْ « ظلَّ هذا التقنين صورياً لا يحترمه الحاكم في معظم الأحيان ، وبالتالي يخرقه المحكومون كلما لاحتْ لهم الفرصة سرّاً أو علناً إذا أدركوا أنهم يمكن أن يفلتوا من عقاب الحاكم »[(١)] .

لننظر بعد هذا في شرعيَّة الدولة السعوديَّة في المجتمع السعودي هل تنطبق عليها تلك الوضعيَّات التي ذكرها سعد الدين إبراهيم ، أو أنها خاصة بتلك الأنظمة التي زرع فيها الاستعمار بعد رحيله « نخبات حاكمةً حاول أن يمدَّها بأسباب الحياة والاستقرار خدمةً لمصالحه في المقام الأولَ ، ومصالحها في المقام الثاني ، مما يُهيئ للقول : إنَّ النخبات التي تزرعها أو تفرضها أو تساندها قوًى خارجيَّةٌ ، مهما تحاول أن تفتعل لها من شرعيَّة فإنها تظل دائماً مفتقدةً إلى ذلك العنصر الجوهري من عناصر الجوهريَّة ، ألاَ وهو القبول الحقيقي من قبل المحكومين ، وبالتالي إفراز الولاء والتعبير عنه بسلوك التأييد والطاعة التلقائيَّة »[(٢)] .

تلك النظم التي لتغرُّبها لم تتبنَّ دين الأمة وتراثها ، ولم تجعل الشريعة الإسلاميَّة قانونها وإنما تمظهرتْ بمذهبيات حديثة ، وأبقتْ بل دعمت النظم الوضعيَّة التي أحلها الاستعمار محلَّ شريعة اللهَ وتقاليدَ المجتمع المسلم ، فأنكرتها قلوب الناس ، وأبغضوها تديناً لله وعدوّها من المصائب التي ينتظرون انكشافها عنهم .

(١) مصادر الشرعيَّة في أنظمة الحكم العربيَّة ، لسعد الدين إبراهيم ، ضمن كتاب " أزمة الديمقراطيَّة في الوطن العربي " ، ص ٤٠٣ ، ٤١٢ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، بيروت .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

الدولة السعوديَّة منذ قامتْ على يد الملك عبد العزيز امتلكتْ الشرعيَّة بمختلف مصادرها .

لقد تبنَّت الإسلام بمصدريه العظيمين المعظَّمين من كل مسلم ؛ القرآن والسنة رسالةً لها ودستوراً ، ومنهما وضعتْ نظامها الأساسي للحكم .

كما أنها جعلتْ الشريعة الإسلاميَّة نظامها التشريعي الذي تحاكم إليه كل شؤونها القضائيَّة والتخطيطيَّة .

وبالسمت الإسلامي والولاء الثابت من قياداتها للإسلام -كما سبق- حققت الدولة الشرعيَّة بمصادرها الثلاثة لا لدى مواطنيها فقط ، بل ولدى عموم المسلمين .

* ولقد كان من التخوفات لدى بعض ذي الهمِّ الإسلامي أنَّ هذه الدولة وقد أعلنتْ التزامها بالإسلام لا تصمد في ظل التغير الحضاري في العصر الحاضر ، خاصةً في مجالات حيويَّة ذات مساس مباشر بالدولة وإسلاميَّتها مثل :

- المنافسة الحضاريَّة في امتلاك التقنية الحديثة واستثمار منجزاتها للمصالح الوطنيَّة .
- إقامة المؤسسات الثابتة للدولة التي تتحكم بها نظمٌ مترابطةٌ تضمن لها تواصل الحركة باتجاه الأهداف مع تغيُّر الأشخاص القائمين عليها والعاملين فيها .

لقد خشي هؤلاء أن تقع الدولة إزاءهما في أزمة تفقدها إحدى المصلحتين ؛ إمَّا التخلي عن التزامها الإسلامي لمداخلة العصر ، أو البقاء بعيداً عن

التطورات النافعة في هذين المجالين حفاظاً على إسلاميّتها ، وهذا ما دفع بعضهم على الرغم من إعجابهم بشخصيَّة الملك عبد العزيز ومهارته الفائقة في إدارة الدولة أن يسألوه : لماذا لم تحاول إقامة دولتك على أساس أقل شخصيَّة ليتمكَّن أبناؤك من أن يرثوا بناءً حكوميّاً منظّماً ؟ فأجاب : « لقد أسستُ مملكتي بسيفي وجهودي ، فليبذلْ أبنائي جهودهم الخاصة من بعدي »(١) .

ولكن الدولة في عهد الملك عبد العزيز نفسه بدأتْ إقامة هذه المؤسسات نظام أساسي للحكم ، ومجلس شورى ، فمجلس وزراء . . . كما أنها وجَّهتْ أبناءها وسخرتْ كثيراً من مواردها لامتلاك التقنية الحديثة واستثمار منجزات العصر لمصالحها الدينيَّة والدنيويَّة ، وشيئاً فشيئاً صارت المؤسسات وإحراز المشاركة الفاعلة في المكاسب التقنية العالميَّة تترسخ في المجتمع ليأخذ مكانةً متميِّزةً في عالمنا العربي لا من حيث استقرار هذين العنصرين فيه واستثمارهما الإيجابي له فحسب ، وإنما أيضاً من حيث منهج التعامل معهما انطلاقاً من الشرعيَّة الصحيحة للمجتمع ، أي من النظرة الإسلاميَّة الحاكمة لتعامل المجتمع معهما .

* ومن العناصر التي تحقق بها التمثيل الإسلامي : حفظها السمت العام لإسلاميَّة المجتمع ، حيث بقيتْ عديدٌ من المظاهر الشرعيَّة طابعاً عاماً في الواقع الاجتماعي في مختلف أقاليم المملكة ، سواءٌ في السمت الشخصي للناس ، أو في التعامل مع العلماء والحكام ، أو في الاهتمام بالشعائر التعبديَّة وبخاصة الصلاة .

والفرق واضحٌ بين هذا المجتمع عند حلول الصلاة ، حيث يعلو الأذان في كل مكان حتى في الدوائر الحكوميَّة والأسواق ، ويهرع الناس إلى المساجد

---

(١) الطريق إلى الإسلام، ص ٢٢١ ، مصدر سابق .

وتقف حركة البيع في الأسواق، والمراجعات في المكاتب ، وبين كثير من المجتمعات الإسلاميَّة التي تدخل فيها أوقات الصلوات وتخرج دون أن تشعر بأنك في بلد مسلمٍ ، بل ربما لا تجد مسجداً في السوق العريض، أو في الحارة كلها ، وإذاً وجدتَ مسجداً فإنك تجد الوحشة تلفه والمصلون يأتون فرادى للصلاة وينصرفون ، لا ريب أنه توجد مساجد عامرةٌ بأداء الشعائر خاصة في الأرياف في بعض المجتمعات الإسلاميَّة ، لكن الحكم هو للعموم وفي دائرة المدن التي أخذتْ -خاصة في عالمنا العربي - طابع المدن الغربيَّة اللاهثة التائهة .

* والتمثيل الإسلامي في مجال الحكم من قبل الدولة قائمٌ على تصور المنهج السَّلفي- الذي تتبنَّاه الدولة والمجتمع السعودي- للدولة وموقعها في البناء الديني في الإسلام ؛ أي بصفتها أداةً - أقوى من الحركة الفرديَّة- لنشر الدين ، وإقامة العدل وحفظ الجماعة مرتكزةً على أمرين :

- التزام الشريعة التي قامتْ لخدمتها دون إحداث عقيدة أو قيمٍ أو نظمٍ تخالفها، ولا يعني هذا منع استحداث ما تحتاج إليه من النظُم التي تقتضيها المصالح العامة أو الخاصة ، إذْ هذا الاستحداث من مطالب الشريعة .
- انبثاقها من الجماعة ، والجماعة هنا هي « الوضعيَّة الاجتماعيَّة الآخذة بهدي الرسول ﷺ وهدي أصحابه قولاً وعملاً » والمظهر العملي لهذا الانبثاق هو « البيعة » التي يلتزم فيها الحاكم بخدمة الجماعة ، وإقامة الدين، وتلتزم فيها الجماعة بقبوله حاكماً وطاعته، والنصح له .

وبهذين المرتكزين تتميز الدولة الإسلاميَّة عن غيرها من الدول سواءٌ منها ذات التوجُّه العلماني التي تعلن أنها ستنشئ للمجتمع فلسفةً ومنهجاً جديدين

من خلال دستور وقانون مغايرين لعقيدة المجتمع ومنهج حياته المرتكزين على الإسلام ، أو الدوَل التي تسمي نفسها وطنيَّةً ولا تضع لنفسها دساتير محدَّدةً أو تضع أشياء مفتوحةً قابلةً لتفسيرات عديدة ترضي كل الأطراف ، فالدولة تفقد إسلاميَّتها « أي صبغتها الإسلاميَّة » بعدم تبنِّيها الشريعة ابتداءً أي عدم قيامها على دين الإسلام منطلقاً لها .

وبعد . . . فإن التمثيل الإسلامي في مجال الحكم الذي تفرَّدتْ به المملكة طيلة القرن الرابع عشر الهجري قد وجد منافسةً بعد دخول القرن الخامس عشر من دول أعلنتْ تبنِّيها للإسلام لا بالانتساب إليه في اسم الدولة ، وإنما بجعله مرجعيَّةً للدستور والقوانين والمواقف ، ونسأل الله سبحانه أن يوفِّق المسلمين في كل مجتمعاتهم إلى العودة لدينهم والتخلص من ربقة التغريب التي أوثقتهم عقوداً طويلةً ليبقوا أسارى مذهبياتٍ ونظمٍ تائهةٍ شرقيَّة أو غربيَّة .

ولكن يبقى أن التبنِّي السعودي للإسلام -على مستوى الدولة والمجتمع ككل- له تفرُّده بين التبنِّيات الأخرى .

- من حيث سلامة المنهج الذي قام التبنِّي عليه وهو منهج السلف الصالح الذي ورثه الأئمة والمجدِّدون من تطبيق الرسول ﷺ وصحابته للإسلام بصفته -أي التطبيق- النموذج الأسمى والأحق من غيره من التطبيقات التي حدثتْ بعد ذلك ، ومن البناءات المذهبيَّة التي أنشئتْ نتيجة صراعاتٍ تاريخيَّةٍ وأسبغتْ عليها الصبغة الدينيَّة .

- ومن حيث السبق التاريخي ، فالتبني السعودي كان في حقيقته من ثلاثة قرون ، وحتى في صورته الثالثة ، أي دولة الملك عبد العزيز كان تبنِّي الإسلام من قِبَل المجتمع والدولة سابقاً لتشكيله الاجتماعي والتنظيمي

بحيث أصبحت الشريعة هي مرجع الصياغة لتشكيلتيه الاجتماعية والتنظيميَّة ، وبدأ بعد ذلك يتفاعل مع العالم المعاصر بهذه المرجعيَّة ، أمَّا الدول الأخرى ، فقد صيغتْ تشكيلاتها الاجتماعيَّة والتنظيميَّة في ظل السيطرة الاستعماريَّة والتغريبية ، وظلتْ عقوداً ثم آبتْ إلى الإسلام -حسب تصور كلٍّ منها للإسلام- لتبدأ عمليَّةَ تخليةٍ ثم تحلية بالمنهج الجديد . وفرقٌ بين الحالين كبيرٌ .

ثانياً : التمثيل الإسلامي في المحافل الدوليَّة

بمقتضى « الشهادة على الناس » التي أناطها الله بالأمة المسلمة فإنها تتحمل مسؤوليَّة الدعوة إلى الإسلام بأن تنبعث لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ولا شكَّ أنَّه في هذا العصر قد تهيَّأتْ سبلٌ كثيرةٌ للقيام بهذه المسؤوليَّة ، فالعالم كثرتْ تجاربه الفاشلة ، وتعاظمتْ الحركة النقديَّة لديه لكل ما بين يديه ، وصارتْ تطلعاته لمناهج وأساليب أكثر تحقيقاً للسعادة تزداد يوماً بعد يومٍ .

ولا شكَّ أنَّ المحافل الدوليَّة اليوم من البيئات الخصبة للدعوة إلى الله وتقديم البديل الإسلامي للمذاهب البشريَّة القاصرة ، ولهذا فإنه يجدر بنا أن « نُطلَّ على العالم في محافله الدوليَّة ، ومؤسساته السياسيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّةَ إطلال الثقة بأحقيَّة عقيدتنا ، والاعتزاز بإنسانيَّة رسالتنا ، فنعرض مقوِّمات منهجنا الإسلامي وملامحه الفكريَّة والروحيَّة ، ونجلِّي أصالة نظامنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي وسموه وكماله وطابعه الأخلاقي ، ووفاءه التام بحاجات البشر ، ونزوعهم الإنساني الخير ، وتطلُّعهم إلى رعاية القيم الطيبة

الفاضلة في واقع الحياة والروابط بين الأفراد والجماعات والأمم ، وهو وفاءٌ تؤكده وتدل عليه تصوُّراتنا الإسلاميَّة عن الإنسان ، وتقرير مبادئ شريعتنا الحقَّة في الحياة الطيبة ، وكرامته وحريته ، وتحقيق ما ينبغي له من عدالة ومساواة »[1] .

ولكن هذه الإطلالة الواثقة من نفسها الشاعرة بتفوُّق ما تدعو إليه ، لا يمكن أن تتمَّ إلا من خلال مجتمعٍ ودولة تتمثَّل هي هذا الإسلام الذي تدعو إليه تمثُّلاً قائماً على قناعة بأنه المبدأ الرشيدُ الذي يستطيع أن يصوغ الحياة البشريَّة الفرديَّة والاجتماعيَّة صياغةً سليمةً يتحقَّق بها هدف وجوده وسعادته ، ولم يكن هذا التمثل والقناعة متوفِّرَيْن بالصورة الحافزة على مثل هذه الإطلالة الإيجابيَّة على العالم لدى عامة دول المسلمين التي كانتْ إمَّا مسيَّرةً بالاستعمار أو مضطربةَ التوجُّه بين ليبراليَّة ، واشتراكيَّة ، تائهة عن حقيقة إسلامها الصحيح .

لكن المملكة العربيَّة السعوديَّة بحكم تبنِّيها الإسلام رسالةً ودعوةً كانت أحرى من يقوم بهذه المهمَّة ، وهو ما شمرتْ له بساعد الجدّ .

فلقد كان من آثار التزامها بالإسلام شعورها بواجب الدعوة إليه، وخدمة أهله في العالم كله ، ومن هذا الشعور انبثقتْ تلك **المؤسسات الدعويَّة ذات الطابع الإسلامي العالمي** على مختلف الصعدات من مثل ما أشرنا إليه في الباب الأول .

- كرابطة العالم الإسلامي .
- والندوة العالميَّة للشباب الإسلامي .

---

(١) نظرات في مشكلة التمييز العنصري ، لعمر عودة الخطيب ، ص ١٧٣ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ.

- ومجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم .
- والجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة .
- وكراسي الدراسات الإسلاميَّة في بعض الجامعات العالميَّة .

أيضاً من هذا الشعور وبدافع الالتزام بمنهج الإسلام كانتْ للمملكة -وهو ما يعنينا هنا- مواقفها الإيجابيَّة التي مثَّلتْ فيها الإسلام في المحافل الدوليَّة التي شاركتْ فيها ، وهي مواقف تمثِّل نموذجاً عملياً واقعياً لإقامة الوجود الإسلامي في المحافل الدّوليّة التي تعالج القضايا الإنسانيّة .

« إنّه نموذج يقتضي الحقّ -كما يقول الأستاذ عمر عودة الخطيب- أن يُسجَّل ويُحلَّل ويُحتذَى ويُقتَدَى به ، بوصفه موقفاً إسلامياً أصيلاً على النّطاق الدّولي ، وخطوةً رائدةً في حركة الوجود الإسلامي على الصّعيد العالمي ، ولوناً من ألوان إطلال شخصيّتنا الإسلاميّة -في مستواها الإنساني الرّفيع- تميّزاً وسمواً وكمالاً في موضع حقوق الإنسان في الكرامة والحريّة »[1] .

ولـمَّا كان هدفنا مجرّد الإشارة إلى التّمثيل الإسلامي من قِبَل المملكة في هذه المحافل وليس استعراض مواقفها فإنّا نكتفي بالتنويه عن موقفها من القضايا المتعلّقة بحقوق الإنسان ، فإنّ المملكة « لم تصوِّت بتاتاً على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عندما طرح على التصويت في الدّورة الثالثة للجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة التي عقدت في قصر شالوه في عام (١٩٤٩م) في مدينة باريس بجمهوريّة فرنسا ، بسبب مخالفة بعض مواد الإعلان لتعاليم الشَّريعة الإسلاميَّة الغرَّاء ، ومن هذه المواد : المادة الثامنة عشرة التي أباحت للإنسان حقّ تغيير دينه ، هذا نصُّها : « لكلّ شخص الحقّ في حريّة التّفكير والضّمير

---

(١) نظرات في مشكلة التمييز العنصري، ١٧٧ .

والدّين ، ويشمل هذا الحقّ حريّة تغيير ديانته أو عقيدته ، وحريّة الإعراب عنهما بالتّعليم والممارسة وإقامة الشّعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أو مع الجماعة » .

كما أنّ المملكة العربيّة السّعودية لم تنضمّ إلى العهدين الدّوليين :

الأوّل : الخاص بالحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافية .

والثاني : المتعلّق بالحقوق السّياسية والمدنيّة بسبب احتواء كلٍّ من هذين العهدين على مواد لا تساير تعاليم الشَّريعة الإسلاميَّة السَّمحة »(1) .

وعلى الرّغم ممّا يثيره مثل هذا الموقف من تشويه وحملات مغرضة ضدّ المملكة فقد صمّمت المملكة على موقفها المتحفظ ، وأوضحت في مذكرة أرسلتها إلى الجامعة العربيّة أنّ عدم توقيعها وإبداء تحفظها لم يكن « تنكراً لهدف هذا الإعلان وهذا الميثاق الذي هو كرامة الإنسان كما صرّحت به نصوصهما وإنّما هو :

أوّلاً : تصميمٌ منّا على بقاء (كرامة الإنسان) محميَّةً لدينا من غير تمييز ما بين إنسان وآخر ، بدافع العقيدة الإسلاميّة الإلهيّة ، لا بدافع القوانين الوضعيّة المادية ؛ لأنّ مفعول العقيدة الإلهيّة في ذلك أقوى من مفعول القانون المادي ، خاصةً ونحن نرى أنّ معظم الاضطراب والشّذوذ في حياة الشّباب في العالم المتقدّم إنّما سببه فقدان العقيدة الإلهيّة والانصراف إلى حياة مادية بحتة تزايدت معها الجرائم ، وحياة الشّذوذ في المجتمع بنسبة بُعْدِ الشّباب عن العقيدة فيّ الله .

ثانياً : رغبةً منّا في التّحفظ على بعض النّقاط في ذلك (الإعلان) وذلك (الميثاق) كان للإسلام فيها منطق خاص في سبيل دعم (كرامة الإنسان) وفي

---

(1) موقف المملكة العربيّة السّعودية من القضايا العالميّة في هيئة الأمم المتّحدة، طلال عطار ، ص ٩٨، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

سبيل حماية (حريّة الإنسان) . عملاً بقواعدنا الإسلاميّة التي شوّهها الجاهلون أو المغرضون ، وتمسّكاً بفلسفتها العلميّة التي لم ينفذ إليها بعض الباحثين ، المؤيّدة بوقائع تاريخيّة حاسمة لدينا في الموضوع ، ممّا جعلتنا نختلف في الاجتهاد فيما أشرنا إليه من نطاقٍ في بعض تطبيقات أحكام (الإعلان والميثاق) لا في مبادئها الأساسيّة حول « كرامة الإنسان، وحريّة الإنسان، والتّعايش السّلمي بين جميع بني الإنسان »[1] .

وقد أبرزت المملكة جوانب تحفظها على ما جاء في الإعلان في تلك المذكرة وكان منها :

- تحفظها -حين وضع الميثاق- على الفقرة (أ) من المادة السّادسة عشرة من (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) وهي الفقرة « التي تعطي للرّجل والمرأة متى بلغا سنّ الزّواج، الحقّ بالتّزويج بدون قيدٍ بسبب الدّين » .
- تحفظها على ما نصّت عليه المادة الثّامنة عشرة من (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) من « أنّ لكلّ شخص الحقّ في حريّة تغيير ديانته أو عقيدته » .

وكما أنّ المملكة امتنعت عن التوقيع وأبدت تحفظها فإنّها لم تقف عند هذا الحدّ وإنّما أبرزت الأسس التي ارتكزت عليها في اتّخاذ هذا الموقف ، والبدائل الشّرعية لما قرّره الإعلان مما يخالف الشّريعة ، ودعت إلى ضرورة تفهّمها لإدراك تميّزها وإنسانيتها ، ومن ثم صحتها للوجود البشري السّليم .

وقد كان لهذا الموقف ولتلك الدّعوة أثرهما الواضح في عديد من الأوربيّين المهتمّين بحقوق الإنسان من السّاسة والمستشرقين وأساتذة القانونٍ ممّا دفعهم إلى

---

(١) انظر في هذا : حول تطبيق الشّريعة الإسلاميّة وحقوق الإنسان في الإسلام، ص٣٠ - ٣١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، والمصدرين السّابقين .

إبداء رغبتهم في التّعمّق أكثر في معرفة مفاهيم حقوق الإنسان في الإسلام ، وكانت استجابة المملكة لهم حيث نظمت ثلاث ندوات في عام (١٣٩١هـ) بيّن فيها الأساتذة السّعوديون حقيقة الإسلام ومنهج رعايته لحقوق الإنسان ، وأجابوا على التّساؤلات التي طرحها هؤلاء الأوربيُّون ، وكانت النتيجة -وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق- أن اقتنع هؤلاء بأنّ الشّريعة الإسلامية هي الحافظة لحقوق الإنسان حتى قال أحدهم : « من هنا ومن هذا البلد الإسلامي -المملكة- يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره »، وقال آخر : « بصفتي مسيحياً أُعلن أنّه في هذا البلد يُعْبَدُ الله حقيقة، وأكّد أنّه يوافق السّادة العلماء على أنّ أحكام القرآن في حقوق الإنسان تتفوّق بلا شكّ على ميثاق حقوق الإنسان »[1] .

(١) الإسلام وحقوق الإنسان ، لعبد الله التّركي ، ص٤٠ ، مصدر سابق .

المبحث الثالث

الأمن المعاشي والاستقرار الوطني

من آثار تطبيق شرع الله في المجتمع تحقيق الأمن المعاشي والاستقرار الوطني وفق المعاني العميقة لهذين اللّفظين « الأمن » و « الاستقرار » .

النقطة الأولى : الأمن المعاشي

الأمن المعاشي مشكلة البشريّة الآن في ظلّ سوء تسخير من الإنسان للكون، وكفر بنعم الله ، وصراع شره على ما هيَّأه الله من موارد .

ولقد بيّن الباري – تعالى – أنّ الأمن المعاشي بصورته الحقيقيّة رهينٌ بالتزام هديه والإيمان به وتقواه .

يقول – تعالى – في سورة الأعراف : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[2] ، وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[3] .
وربما يقال كيف يجعل الأمن المعاشي أثراً من آثار تطبيق شرع الله والالتزام بدينه ونحن نرى صوراً من ضيق العيش على أناس مسلمين ، وبالمقابل نرى أناساً لا صلة لهم بشرع الله قد فتح عليهم من الدّنيا ما لم يفتح على المسلمين ،

---

(١) الآية رقم (٩٦) من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان (٢ ، ٣) من سورة الطلاق .

(٣) الآيتان (٦٥ ، ٦٦) من سورة المائدة .

وكلّ هذا واقعٌ ، وهو من سنة الله في ابتلاء عباده بالسرّاء والضرّاء ، ولكن القاعدة العامة أنّ حركة العيش مرتبطةٌ بالتزام شرع الله وأن ذهابها وأن حصول الكوارث المادية ونقص الأموال والثّمرات إنّما يقع بسبب ذنوب الناس ووقوعهم -حتى ولو صلّوا وصاموا- فيما نهى الله عنه كمنع الزكاة والتّعامل بالرّبا وأكل الأموال بالباطل .

أمّا الكفار فإنّ ما يمدّهم الله به من فتوحات مادية من الاستدراج لهم وتعجيل الطيّبات لهم في هذه الدنيا ، وهي فتوحاتٌ تغريهم بالإخلاد إليها حتى يأخذهم الله وهم فرحون آمنون وذلك أشد لهم كما قال سبحانه :
﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾[1] .

وفرق بين هذا الفتح والفتح على المؤمنين ، فهذا الفتح لا بركة فيه : ﴿ **فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أمّا الفتح على المؤمنين بسبب إيمانهم وتقواهم فهو فتح مبارك : ﴿ **لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾ .

فالفرق كبير بين عطاء النقمة « وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصّلاح والأمن والرّضا والارتياح . . وكم من أمّة غنيّة قويّة ولكنها تعيش في شقوة ، مُهدَّدة في أمنها ، مُقطّعة الأواصر بينها ، يسود النّاس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوّةٌ بلا أمن ، وهي متاعٌ بلا رضاً ، وهي وفرةٌ بلا صلاحٍ ، وهو حاضرٌ زاهٍ يترقبه مستقبلٌ نكدٌ ، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال . .

إنّ البركات الحاصلة مع الإيمان والتّقوى ، بركاتٌ في الأشياء ، وبركاتٌ

---

(١) الآية رقم (٤٤) من سورة الأنعام .

في النفوس ، وبركاتٌ في المشاعر ، وبركات طيّبات الحياة . . بركاتٌ تنمّي الحياة وترفعها في آنٍ ، وليست مجرّد وفرة مع الشّقوة والتَّردِّي والانحلال » [1] .

ولقد تحقّق للمجتمع السّعودي من هذه البركات التي أفاءها الله عليه ما لم يكن في حساب المتوقّعين .

أنعم الله عليه بكنوز من الخيرات ظهرت بها المملكة على حالةٍ فضلت بها كثيراً من المجتمعات ذات السّبق المادي .

ولا ريب أنّ الفضل أوّلاً لله - سبحانه - الذي هيّأ لها ما هيّأ ثمّ لتوكّلها على الله واستعانتها به ، والتزام شريعته .

وعلى الرّغم من أنّ سيلان النّفط واكتشاف كثير من المخزونات المعدنيّة من نعم الله العظيمة إلا أنّ تحكيم شريعة الله أعظم وأجلّ ؛ لأنّه هو الذي حفظ هذه الثروة من أن تبدد في سُبُل الشيطان ، وجعلها خيراً عاماً للناس ، توسّعت به الأرزاق ، وتحسّنت به الأوضاع ، ودعمت به سبل الدّعوة إلى الله .

وهاهي دولٌ أخرى لديها من الفُيُوضات المادية الكثير ولكنها لبعدها عن هدي الله ، وتسلّط من لا يخافون في عباد الله إلّاً ولا ذمَّةً عليها بدَّدُوا ثرواتها ، وأفسدوا مصالحها ، وحاقت لعنتهم بكلّ أرزاق الناس ، فأصبحت هذه الدّول فقيرةً مديونةً ، وصار اقتصادها مشلولاً لا ثقة به ، وأصبح الناس غير آمنين على مصالحهم المادية من أن تجتاح ، ولا على أقواتهم اليوميّة من أن تُنْتَهَب .

لقد وجّه الإسلام المجتمع المسلم ككلٍّ أن يوفّر لفرده الغذاء والكساء بصورةٍ يكون آمناً معها على سدّ حاجاته الأساسيّة وعلى توفير أسباب الحياة

---

(١) في ظلال القرآن ، لسيّد قطب ٣ / ١٣٣٩ ، الطبعة التاسعة ، دار الشروق .

السّليمة من الأمراض والتلوّث .

وممّا يدخل في ذلك بصورة أساسية :

- تهيئة العمل للقادر عليه بصورة يحفظ بها كرامته ويحصل على مقابل عمله من الأجر .
- سدّ العوز للعاجزين عن العمل من ضعفاء المجتمع بما يحفظ لهم إنسانيّتهم ويعينهم على حياةٍ كريمة لهم ولأهلهم سواء كان ذلك مؤقتاً أو مستديماً .
- حفظ صحّة الإنسان ورعاية بنيته الجسديّة من العوارض المفسدة .

ولقد قامت المملكة انطلاقاً من توجيه الشّريعة الإسلاميّة بتحقيق هذه العناصر الثلاثة قدر إمكاناتها ، وقد ساعد ما أمدّ الله به المملكة من ثروة بتروليّة حقّقت لها رخاءً اقتصادياً على تفوّقها في هذا المجال على كثير من المجتمعات الأخرى ، وحتى تفوّقت على كثير من الدّول المتقدّمة في قلّة نسبة البطالة ورعاية العجزة من خلال الضمان الاجتماعي وقنواتٍ أخرى ، ومن خلال الرعاية الصِّحيَّة .

ولا سبيل للمقارنة بين ما تحقّق من توفير في هذه الجوانب وما كانت عليه الحال قبل ذلك ؛ لأنّها مقارنة بين الوجود والعدم .

ومما هو مهم فيما يتعلّق بالأمن المعيشي مما يتجاوز تأمين الرّزق وإمكانيات العمل الوظيفي وهو بناء الحركة الاقتصاديّة في المجتمع استثماراً واستهلاكاً بناءً صحيحاً بحيث ترسم المعالم السّليمة التي يستطيع الإنسان بسلوكها أن يحقّق كسباً نافعاً غير ضار بدينه ولا بمجتمعه، فلا يسلك مثلاً مسالك الاتجار بالمحرمات الضّارة كالشّعوذة والسّحر والمخدّرات ، ولا ينفق أمواله إذا كان

مستهلكاً في هذه الأمور الضّارة لبدنه وروحه وثروته .

كما ترسم له المعالم التي تجعل حركته الاقتصاديّة ناميةً منتجةً ، وتجعل الآخرين منجذبين نحو المسالك السّليمة في كسب المال والعيش الكريم .

وممّا يساعد على ذلك : « تنمية إدراك الإنسان لإمكانياته الإنتاجية ولمهاراته المهنية وتعلّمه كيفيّة توظيفها واستعمالها وتثميرها والتّصرّف بنتاجها . وهذا يعني أنّ الأمن الاقتصادي لا يتحقّق بتوفير سبل العمل والإنتاج وسدّ الحاجات الضّرورية فقط ، بل بكيفية ولُوج هذه السّبل بالصّورة الصّحيحة والبنّاءة فلا يصاب الإنسان بالتخمة ولا بالخمول ، ولا يستسلم للظروف والطّوارئ غير المؤاتية ، بل يتعلّم على التصرّف في الرخاء والقحط على السواء .

وبديهيُ القول أنّه بافتقاد فرص العمل والإنتاج وسدّ الحاجات لا يمكن أن يتحقق أمنٌ اقتصاديٌّ أو أمنٌ اجتماعيٌّ ، إذ عندما تعصف الحاجات المشروعة بالإنسان ولا يتوصّل إلى تحقيقها يضطرب حبل يومه ويغزو فكره وقلبه القلق على المصير فيتوه في مهاوي الاضطراب النّفساني والمعيشي ، وربما أدّى به هذا التيه إلى دروب الجريمة والانحراف »[1] .

لقد سعت المملكة للأخذ بكلّ هذه الأسباب فاستطاعت أن تقيم بناءً اجتماعياً مُتّزِن الحركة آمن العيشة تتقارب فيه الحركة الاقتصاديّة في مختلف القطاعات .

ولهذا فإنّ المشكلة التي برزت أخيراً وهي مشكلة الكثافة في المتقدمين للدّراسة في الجامعات ، ومن ثم في الخريجين الذين لا يجدون عملاً كانت نتوءاً لم يكن موجوداً من قبل مما يقتضي النظر النافذ لعلاجها وفق البنية

(١) الأمن الاجتماعي ، لمصطفى العوجي ، ص ٩٤ ، مؤسسة نوفل ، بيروت .

الإسلاميّة للمجتمع حتى لا تكون شرخاً مؤثراً في بنائه .

إنّ التزام الإسلام في المجتمع لا يقتصر في أثره المعيشي على التّوجيهات التي تستند عليها الدّولة في حركتها الاقتصاديّة وإنّما بصورة أوضح يؤثّر في التعامل الاجتماعي مع الثروة كسباً وإنفاقاً من حيث البعدُ عمّا حرم الله والوقوف عند حدود الله في الإنفاق دون إسراف أو تقتير ورعاية الوالدين والتكافل الاجتماعي المادي بين الجيران والأقاربِ وغير ذلكَ من الصّور التي تتوفر بحمد الله في مجتمعنا السّعودي اتّباعاً لهدي القرآن والسنّة ، وإن كان يوجد من يزيغ عن ذلك فيقع فيما حرم الله فيصبح شذوذاً عن السمت المفترض في مجتمعٍ مسلمٍ .

النّقطة الثانية : الاستقرار الوطني

الاستقرار الوطني أمر أساسي لكلّ عناصر المجتمع حيث يحفظه من الاهتزاز وتزعزع الحياة الاجتماعية وتقلُّب الأحوال ممّا يفتح المجال للفوضى والشّعور بالخوف والقلق على المستقبل .

والمقصود بالاستقرار الوطني : « توفُّرُ حياة عامة دعائمها مبادئ دستورية تضمن تمتع المواطنين بحقوقهم الأساسية وممارستهم لهذه الحقوق في ظلّ أنظمة وقوانين تسهر على تطبيقها أجهزة حكم قادرةٌ وفاعلةٌ . فالحياة السّياسية ممارسةٌ لحقوق وإيفاءٌ بالتزامات وتحقيقٌ لأهداف عامة يتوافق عليها المواطنون ويكلون أمر إنفاذها إلى أجهزة حكم أنشؤوها أو ارتضوا بها يسهرون على سلامتها كما تسهر على سلامتهم ، يؤازرونها في مهامها كما تؤازرهم في جهودهم .

والاستقرار السّياسي لا يتمّ إلا إذا أدرك المواطن ما هو مفروضٌ عليه من واجباتٍ وما هو مطلوبٌ منه من مؤازرةٍ وجهدٍ في سبيل تحقيقه ، كما لا يتمّ

الاستقرار السّياسي إلا إذا أدركت أجهزة الحكم كافة أنّ لوجودها مسوِّغات اجتماعيةً وأنّ عليها التزامات نحو المواطنين وُجدت للوفاء بها . وعمليّةُ الإدراك هذه سواء على مستوىً المواطن أو الحكم هي نتيجة لتوجيه تربويٍّ أساسيٍّ يرمي إلى تنمية الشّعور بالمواطنية لدى الأفراد، وإلى تفهُّمِ لمتطلّبات الحياة السيّاسية وتمرّس في التعامل معها ومع الحياة العامة سواء أكان المواطن في منزلة الرّجل العادي أو في مستوى الحاكم أو الموظف العام . . .

فارتباط الفرد بالدّولة والدّولة بالفرد عبر الواجبات والحقوق المتبادلة ، من دعائم الاستقرار في حياتهما المشتركة يمارس كلّ منهما حقوقه وواجباته عن وعيٍ وإدراكٍ لوظيفته الاجتماعية ولمسؤولياته السّياسية »[1] .

والحقّ أنّه لا نهضة لمجتمع ، ولا أمن لأفراد ، ولا ثقة من المستثمرين فيه ولا طموحات موجهة من قبل ساسته إلا بالاستقرار والشّعور بالأمان على النّفس والمال والوضع الاجتماعي ككلٍّ .

أمّا إذا فقد المجتمع استقراره بتسلّط ظالم أو أنظمة فاسدة أو سلطة فاقدة الهيبة فإنّه يتولد لدى الناس « نوع من الكبت النفساني والانكماش والأنانية الفرديّة فيتراكم الظلم والتأفف حتى إذا لمعت شرارةٌ مّا انفجر الوضع مع ما يرافق هذا الانفجار من عبث بالأمن والنظام وتعدٍّ على أموال الناس وأنفسهم وحرياتهم »[2] .

ولقد عانت كثير من مجتمعات المسلمين في هذا العصر من الاضطراب السّياسي ، والصّراع المتفجر الذي لم تَجْنِ منه تلك المجتمعات إلا الفتن والقلق

---

(١) الأمن الاجتماعي ، ص ٨٩، مصدر سابق .

(٢) المصدر السّابق ، ص ٩٠ .

وذهاب الريح ، وتدمير الحياة الدّينية والاجتماعيّة .

وبخلاف ذلك نَعمَت المملكة العربية السعوديّة بحالة استقرار وطني منذ وحَّدها الملك عبد العزيز فلم يحدث فيها شيء مما يجري في دولٍ أخرى تظلّ سنين وهي في صراعٍ وتحسُّب .

ومردّ هذا الاستقرار الذي انتقل إليه المجتمع السّعودي بعد صراعات كبيرة وإحن متبادلة وتزعزُع في كلّ جوانب الحياة -مَردُّه- إلى تطبيق شرع الله واجتماع القلوب علَى الإيمان الذي به تَخفُّ سورة الشرّ فيها وتتألف فيما بينها وتتجّه للقيام بدورها المنوط بها عبادةً لله وَطاعةً للحكام في غير معصيةٍ ، وجلباً للمصالح ودفعاً للمفاسد .

* الدّين في أي مجتمعٍ مسلمٍ يشكّل عنصراً مهمّاً في الوعي السّياسي لكلّ الناس ليس فقط لرجال السياسة بل لدى سائر فئات الشّعب بحكم ارتباط الدين بالدنيا (الدين بالدولة) .

والمشكلة القائمة في كثير من مجتمعات المسلمين ، هي من جهة تعدُّد مفهوم الدّين أي الاختلاف في فهم الدين ، ومن جهة أخرى موقع الدين المفترض في البنية السّياسية .

إنّ هذه المشكلة من جهتّيها معاً تشكّل أحد الأسباب في عدم الاستقرار الوطني ، وكثرة الزّوبعات والتطاحن بين فئات المجتمع وعدم تحقيق رؤية وطنية تأتلف عليها القلوب حتى يتساءل برهان غليون : « هل بإمكان مجتمعنا إذا استمرّ الخلاف في الدين - كما هو عليه الآن - أن يأمل ببلورة رؤية سياسيّة مستقرّة ، وأن ينجح في الوصول إلى الحدّ الأدنى من الإجماع اللازم لكلّ سياسة وطنيّة»[١] .

---

(١) نقد السّياسة ، ص ١٢ ، مصدر سابق .

في المجتمع السّعودي تنتفي هذه المشكلة، فالدين يحكم تصوُّرَ جميع أفراد المجتمع عنه أمتنُ منهج يرسم معالمه العقديّة وأصوله التّشريعية وفق ما جاء به الكتاب والسنة، وهو المنهج الذي يمثله الرسول ﷺ وأصحابه، وهو المنهج الذي تغرسه في فكر الشّباب ونفوسهم المناهج التربويّة والتثقيف بمختلف مصادره، وموقع الدّين في المجال السّياسي متحدّد أيضاً من حيث قواعده العامة كضرورة التزام النظام السّياسي بتعاليم القرآن والسنّة، والطاعة للحاكم بالمعروف ونحوها ممّا يدرسه الناس في كتب العقيدة والفقه، وهو ما قرّره « النظام الأساسي للحكم » بصيغة تمثّل ما هو متقرّر في عقيدة الناس وفكرهم تماماً ممّا جعله يجد إجماعاً من الشّعب كلّه جماهيره وعلمائه ومثقّفيه.

* أشرنا في مبحث سابق إلى الثنائية التي تطبع مجالات الحياة المادية والثقافيّة متمثلة في تمايز واضح بين ثقافة الأصالة التي يسمّيها العصرانيون « الثقافة التقليديّة أو الأصوليّة » وثقافة المعاصرة التي يسمّيها الإسلاميون « ثقافة التغريب والانسلاخ من الدّين ».

وبيّنا كيف تعمقت هذه الثنائية على مستوى الحياة الشّعبية وعلى المستوى الفكري بين العلماء من جهة والمثقّفين ثقافة عصريّة من جهة أخرى في عامة المجتمعات العربيّة؛ ممّا أوجد انشطاراً صراعياً بين أقطاب هذه الثنائية، وتناحراً استطاع الغرب - كما يقول الجابري - أن يغذيه بما يقوم به من حرب على الإسلام تزيد من توتّر الجماهير المسلمة وتدفعها مع نخبتها نحو تصلب أقوى تجاه التغريب والحداثة، كما يغذي الغرب من جهة أخرى المثقفين العصرانيين والسياسيين بالنفور من الإسلام بتشويهه والتخويف من آثار التحاكم إليه، وهكذا استغلّ الغرب ما رضيه العرب لأنفسهم من تنازع وسرعة انفعال وغلوٍّ في المواقف فجعل من نفسه « المحرك والموقد المغذي للصراع التناحري والحرب

الأهليّة في المجتمع العربي »[1] .

وإذا كانت هذه الثنائيّة ومن ثم الصّراع بين الفئتين شاملة لكلّ جوانب الحياة المادية والثقافية فإنّ من أبرز مواقع الصّراع الساخنة بينهما الموقع الذي يفترض أنّ منه يبدأ الإجماع أو التلاقي الاجتماعي، ومن ثم تسوية الخلافات في كلّ المجالات الأخرى ، هذا الموقع هو « النظام السياسي » الذي احتدم وما يزال النزاع والخلاف الصّريح في مجاله بين « العلمانيّة » من جهة « والتطبيق السياسي للشّريعة » من جهة أخرى ، حيث أصبح أنصار كلٍّ من القضيتين يشكِّل معسكراً مضاداً بالحدَّة نفسها للمعسكر الآخر .

« معسكر اجتماعي سياسي حقيقي يربط مصير السياسة الاجتماعية بتطبيق الشّريعة الإسلاميّة ومحو القيم والمظاهر الأجنبيّة ، وتأسَّس في المقابل -مع تَعَرِّي النظام السياسي القومي وتدهور مواقعه الفكريّة والعقائديّة - نوعٌ من التفاهم والتحالف الضمني بين كلٍّ من يعتقد أنّ الخطر الأكبر اليوم هو إقامة الدّولة الإسلاميّة، وأنّ الحلّ الوحيد لأزمة السياسة الوطنية تكمن في إضعاف الفكرة الدّينية وإخراجها من السياسة وليس هناك من شكّ في أنّ تيَّار العداء للدين ورفض السلطة الإسلاميّة يتعمق بنفس الوتيرة التي يتعمق فيها العداء لكلّ ما يبدو غريباً على الإسلام أو مخالفاً له إذا استمرّت الحال كما هي عليه اليوم فسوف نجد أنفسنا على أبواب حرب دينيّة لا يستطيع أحدٌ أن يُقدِّر آثارها »[2] .

هذه الحالة التي يصوّرها المثقفون العرب ويتشاءمون من مستقبلها يدركها المتأمل بسهولة في نظره في واقع هذه المجتمعات حيث وضحت إفرازاتها السيّئة في العنف الصّحفي والسلطوي والمسلّح ، وهي صورة من صور الاضطراب

---

(١) المسألة الثقافيّة ، ص٢٢٢، مصدر سابق .

(٢) نقد السياسة، ص ٢٧ ، ٢٨، مصدر سابق .

الوطني المخيف الذي لا يأمن فيه الإنسان على دينه ولا العالم والمثقف على فكره ولا يثق فيه الحاكم بقراره ، ويظلّ فيه الوطن مهد صراع لا نتيجة له ولا أمل في شفائه .

في المجتمع السّعودي ذكرنا أنّ هذه الثنائية لا توجد بهذه الصورة التناحرية ، وأنّ القاعدة الاجتماعية بأنّ تعاليم القرآن الكريم والسنّة المطهّرة هي منهج حياة المجتمع ودستور الدّولة قد حسمت الأمر في هذه المشكلة وتواطأ الشّعب -علماء ومثقفين وعامة- والدّولة على هذا المسار الواضح الذي لا مجال لقيام ثنائيةٍ متضادةٍ في داخله .

ويبقى بعد هذا وجهات وآراء في مجال النهوض بالمجتمع وضبط مساره وفق ما يحقّق المصالح ويدرأ المفاسد في إطار تلك القاعدة، وهذه الآراء سواء كانت من مثقفين أو من علماء حتى وإن قام بشأنها سجَالٌ بين نظرات مختلفة تثري الساحة الثقافيّة في المجتمع وتدعم حركته النَّهضويّة وتنتهي إلى مآل سلمي سواء طُرحت في مجلس الشورى ، أو في لجان استشاريّة ، أو في وسيلة إعلاميّة أو غير ذلك فإمّا أن تعضد ويؤخذ بها أو تسقط إذا تبيّن فقرها فيما تقدمت به .

أمّا الرّؤى الخارجة عن إطار تلك القاعدة بغلوٍّ دينيٍّ أو بانسلاخٍ تغريبيٍّ فإنّها حاكمة على نفسها بمجرد هذا الخروج بالسقوط والفناء ، وهكذا تنتفي من هذه الزاوية كلّ مسببات ذلك الصّراع إنْ في إطار هذه الثقافة العامة أو في قضيّة طبيعة السلطة ويتحقّق بذلك الاستقرار الوطني المتمثل بوحدة الكلمة واجتماع الصفّ وعلاقات الثقة بين الشّعب والدّولة .

* هناك زاويةٌ أخرى لعدم الاستقرار الوطني في كثير من المجتمعات

الإسلاميّة في هذا العصر ، تتمثّل هذه الزاوية بالدّولة نفسها ، هذه الدّولة التي انفلتت من الالتزام بالقيم الإسلاميّة ممثّلة في أحكام الشّريعة الإسلاميّة ، ولم تلتزم حتى بالقيم العلمانيّة التي بشَّرت ببناء الدّولة عليها دستوراً وقوانين ، فبقيت تائهة مفلتة مع وجود الدساتير والقوانين نظرياً، ونتيجة لهذا لم يبق موجّها للدّولة إلا أهواء الحاكم والنخبة التي يصطفيها لدعم هذه الأهواء وإضفاء المشروعيّة عليها ، وبما أنّه لا يمكن التلاعب بعقول الجماهير بتصوير هذه الأهواء والأفكار الفجة التي يطرحها الحاكم ونخبته على أنّها حقائق فيها الخير والمصلحة للمجتمع ما دامت هذه الجماهير واعيةً بالقيم الإسلاميّة والإنسانيّة التي تمثّل معايير فاضلة ، ومن ثم كاشفة هذه الأوهام المطروحة؛ لهذا سعت هذه الدّول سعياً منظّماً لتدمير الوعي الدّيني وإفساد تلك القيم وتجفيف المنابع التي يستمد منها الناشئ بنيتَه الفكريّة الرّئيسة فطريّةً وإنسانيةً وإسلاميّةً .

وقد أدّى هذا ويؤدّي إلى تدمير الهوية ، وإحلال الفوضى الخلقيّة محلّ الانضباط ، وسيادة الشعور بتفاهة الحياة الاجتماعيّة مما ولَّد شعوراً بضرورة مقاومة هذا التردي لدى فئات ما زالت تحتفظ بمعاييرها السليمة وذلك بإعادة الوعي الاجتماعي واعتبار السّلطة عدواً للناس التابعين لها بقدر ما هي عدوة لدينهم وهويّتهم ، ولإنسانيتهم ، وأدّى هذا بالمقابل إلى توجُّس الدّولة من الناس وزيادة قوّتها القهريّة، وهكذا تصاعدت حدة المواقف إلى الصدام ، ومن ثم اضطراب حبل الأمن واختلال الأوضاع الاجتماعيّة والسّياسية .

في المجتمع السّعودي تنتفي تلك التتابعات كلّها لسلامة الابتداء ، فالدولة تعلن التزامها بالإسلام واعتمادها لقيمه في المجتمع والسّلطة ، والمواطن ينشأ من خلال التعليم والتّثقيف على وعي تلك القيم والتعامل بها في

علاقاته الاجتماعيّة وفي موقعه السلطوي إذا أصبح ذا منصب، وبالتالي وقى الله المملكة تلك النّهايات المؤسفة لبعض المجتمعات الأخرى .

* وحَدُّ الرِّدَّة -وهو أحد الحدود الشّرعية المطبَّقة في المملكة- عاملٌ مهمٌّ في تحقيق الاستقرار الوطني لأنّ المعلن ارتداده عن الإسلام قد أجرم في ناحيتين :

الأولى : بحق الإسلام الذي يمثل هويّة المجتمع كلّه مما يجعل أفراد المجتمع كلّهم متحفزين للانتقام منه، فإذا قامت السلطة بهذه المهمّة هدأت ثائرتهم وزاد ارتباطهم الولائي بدولتهم، أمّا إذا تقاعست فضلاً عن أنْ تناصر هذا المرتد فإن تحفز الشعب قد يفلت -كما حصل في بعض المجتمعات- فينتقم الناس من المجرم ويجدون من يسوّغ لهم هذا الانتقام بعدم الوجود الفعلي للسلطة مما ينذر باضطراب أوضاع المجتمع .

الثانية : أنّه مجرم بحق المجتمع بما يمثّله من سلطة؛ ولهذا جاء ذكر حدّ الردّة في الحديث مقروناً بالخروج على الجماعة حيث قالَ ﷺ « والمفارق لدينه التارك للجماعة »(١) .

وهذا أمرٌ واضحٌ بالنسبة للسّلطة؛ إذ إنّ إعلان الكفر بالدّين أو الاستهتار بأحكامه رفضٌ صريحٌ لدستور الدّولة ونظامها، أيّ أنّه خيانة وطنيّة وهي من أعظم جرائم الإخلال بالاستقرار الوطني في مختلف نظم العالم .

وقد كان الملك عبد العزيز حاسماً في موقفه تجاه هذه المسألة وواعياً وثاقةَ الارتباطِ بينهما (الإلحاد في الدّين والخروج على الدّولة) يقول - رحمه الله - عام

---

(١) الحديث يقول فيه ﷺ : « لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والثّيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة ». رواه البخاري وغيره . انظر كتاب الدّيات حديث رقم [٩٤٨٤] .

(١٣٥١هـ) : « أُحذّركم أمرين :

الأوّل : الإلحاد في الدّين والخروج عن الإسلام في هذه البلاد المقدّسة فوالله لا أتساهل في هذا الأمر أبداً، ومن رأيت منه زيغاً عن العقيدة الإسلاميّة فليس له من الجزاء إلا أشدّه، ومن العقوبة إلا أعظمها .

الأمر الثاني : السفهاء الذين يسوّل لهم الشّيطان بعض الأمور المخلّة بأمن البلاد وراحتها »[١] .

* بما أنّ الإسلام دين ودولة فإنّ الجانب الديني يتركز بالدّرجة الأولى في داخل الإنسان في قلبه ونيّته، والله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى الصّور والأجسام وإنّما ينظر إلى القلوب وأعمالها ، وإن كان ذلك لا يعني انفكاك العمل الحركي عنها أو كونه ثانوياً، لكن المدار هو البعد الدّاخلي للشيء الظاهر « إنّما الأعمال بالنيّات »[٢] .

أمّا الجانب الآخر وهو الدولة وسلطة المجتمع بصفة عامّة فإنّها تتركز بالعكس في ظاهر الإنسان وما يعلنه ويبديه، أمّا داخل قلبه وما يستتر به من أمورٍ فمردّها إلى الله؛ ولهذا قال ﷺ : « من أتى منكم شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله الجميل فإنّ من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه الحدّ »[٣] .

وإبداء الصفحة الذي أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث هو المجاهرة بالمعاصي والمعالنة بها، وهو في المجتمع المسلم دليل تحدٍّ وإعلان الخروج على النظام العام .

---

(١) الأمن في حياة الناس وأهميّته في الإسلام ، لعبد الله التّركي ، ص ٩٥ ، وزارة الشؤون الإسلاميَّة والأوقاف والدعوة والإرشاد ، ١٤١٧هـ.

(٢) أول حديث في صحيح البخاري ، باب كيف كان بدء الوحي .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحدود، وكذلك الحاكم في الحدود ، قال الذهبي : «صحيحٌ على شرطهما» .

إنّ المجاهرة بالمعصية في المجتمع المسلم تعني استخفافاً بأمرين معاً :

- بالسلطة القائمة على أمر الله في المجتمع .
- وبالأخلاقية السائدة في الجماعة .

« إنّ المجاهرة بتحدِّيها للسلطة الشرعية القائمة على حدود الله من شأنها أن تجرِّئ آخرين ممن لديهم استعداد وتنقصهم الجرأة الكافية ، وأخطر ما تصاب به جماعة أن تتهاوى هيبة السلطة المسؤولة فيها وتبدو ضعيفة في نظر العامة .

والمجاهرة بتحدِّيها للأخلاق السائدة من شأنها أن تخلخل من قيمتها ، وتهون من الالتزام بها ، وتزيد من الخروج عليها بالقدوة السيّئة : « ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيّئةً فعليه وزرُها ووزْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة »[١] لأنّه صار إماماً متبوعاً تجرّأ بالمخالفة ، فجرّأ الآخرين بالمجانة والمجاهرة »[٢] .

ولهذا شرعت الحدود والتّعازير لردع المجاهرين وحفظ سمت المجتمع المسلم وإبقاء هيبة الدّولة وسلطتها ومن ثمّ استقرار الوطن وحمايته من السّهام المخلّة بأمنه .

والفرق الواضح بين السّمت العام للمجتمع السّعودي وكثير من المجتمعات الأخرى من حيث الالتزام الأخلاقي العام ومن حيث رعاية الدور الرّقابي للسّلطة، سببه اعتماد المملكة للشّريعة بعامّة ولمقاومة الإعلان بالفسوق والعصيان بخاصّة .

* هناك نوعان من الطاقة الإنسانيّة يحتاج كلاهما إلى تصريفٍ سليمٍ

---

(١) رواه مسلم وغيره . انظر : صحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ .

(٢) أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ، ص٧٠، مصدر سابق .

يحتفظ به الفرد - صاحب الطاقة - بتوازنه ومن ثم يحفظ المجتمع نفسه من التّدمير ؛ لأنّ هذه الطّاقة إذا فقدت التّصريف السّليم احتقنت ثم انفجرت مدمّرةً لصاحبها ولمجتمعه:

النّوع الأوّل : يتمثّل في النّزعات الغريزية في الإنسان ؛ النزعة الجنسيّة ، ونزعة التملّك وأمثالها .

هذه النزعات التي تجتمع فتشكّل طاقة تحتاج إلى تفريغ ، والتفريغ المشروع يحتاج إلى جهود شخصيّة للزواج ، وحيازة المال مثلاً .

في المجتمع غير المسلم أو غير الملتزم بالإسلام يجد الشّخص نفسه وبخاصة في مرحلة الشباب ، وبالذات عندما يجد نفسه محاصراً بمجتمع يلومه -حالاً إن لم يكن مقالاً- بعجزه عن تكوين نفسه اجتماعياً مدفوعاً لإرواء هذه الغرائز بالطرق المحرمة شرعاً ، السيّئة اجتماعياً وصحّياً ، وشخص يتمادى في هذا السبيل يكون في البداية والنّهاية خسارة لنفسه وعامل فساد في مجتمعه ، وعنصر قلق لسلطة بلده ، وستمتص هذه المسالك المحرمة في النّهاية كلّ طاقته ليخسره المجتمع عضواً نافعاً فيه .

بخلاف هذا المجتمع المسلم الذي يربّي ناشئته على قيم الدّين ومسالك الفضيلة من جهة والذي يقيم حدود الله على من يتجاوز نحو مسالك الرّذيلة ، فتجعلها هذه الحدود مغلقة أمامه .

في هذا المجتمع لا مجال لشيوع الزّنا وهو يعلم الحدّ الذي ينتظره إنّه سيمتنع تلقائياً متجهاً نحو إشباع غريزته عن طريقٍ مشروعٍ هو الزّواج .

ولا مجال لشيوع السّرقة وأمامه حدٌّ يبقى عارُهُ مرتبطاً به طول حياته ،

وإذاً فسيبحث عن طريق سليم لكسب المال . ولن تشيع الخمر وحدُّها يفوق لذة شربها فضلاً عما يجده بعد ذلك من عارٍ اجتماعي وفضيحة بين الناس [1] .

وهكذا تجد نفسك إزاء هذا المجتمع أمام أشخاص يتمتعون بتوازن نفسي تحوّلت فيه طاقاتهم نحو مسالكها السّليمة في عملٍ مثمرٍ نافعٍ لأنفسهم ولمجتمعهم ، وارتفعت جوانب الحياة في هذا المجتمع إلى مستوى سامٍ ، مصون الحرمات ، وطاهر التّعامل .

النّوع الثاني : طاقة تولّدها التربية الإسلاميّة في شخصيّة المسلم .

وتتمثّل هذه الطاقة في شعورٍ ينمو مع نمو الشّعور بإسلاميّة الشّخص ، بأنّ هذه الإسلاميّة لا تتحقق في وجودها الصحيح باستكمال عناصر الصّلاح الذّاتي أي باستكمال (الأنا) إسلاميّتها الشّخصية ، وأنّه لا بدّ مع هذا الاستكمال من حركة إيجابيّة تجاه الآخرين لتحقيق إسلاميّتهم قدر استطاعته ابتداءً بمجتمعه ، فأمّته ، فالعالم كلّه .

هذه الحركة تتمثّل في الدّعوة إلى الله والنّصح للآخرين ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، ويتداخل في كلّ منها بيان الحقّ الذي تركه الناس ودعوتهم إليه ، وكشف الباطل الذي واقعوه والبعد بهم عنه . وهنا تكون المشكلة بين الناس والدّولة .

فالدّولة التي لم تجعل الإسلام رسالتها ، ولا الدّعوة إلى الله همّها تقف عاجزةً أمام تلك الطّاقات المتهيّئة لتفريغها في ميدان الدّعوة وإقامة الحقّ .

فهذه الدّولة وإن أوجدت بعض الهيئات المحدودة للدّعوة كتواصل تراثي

---

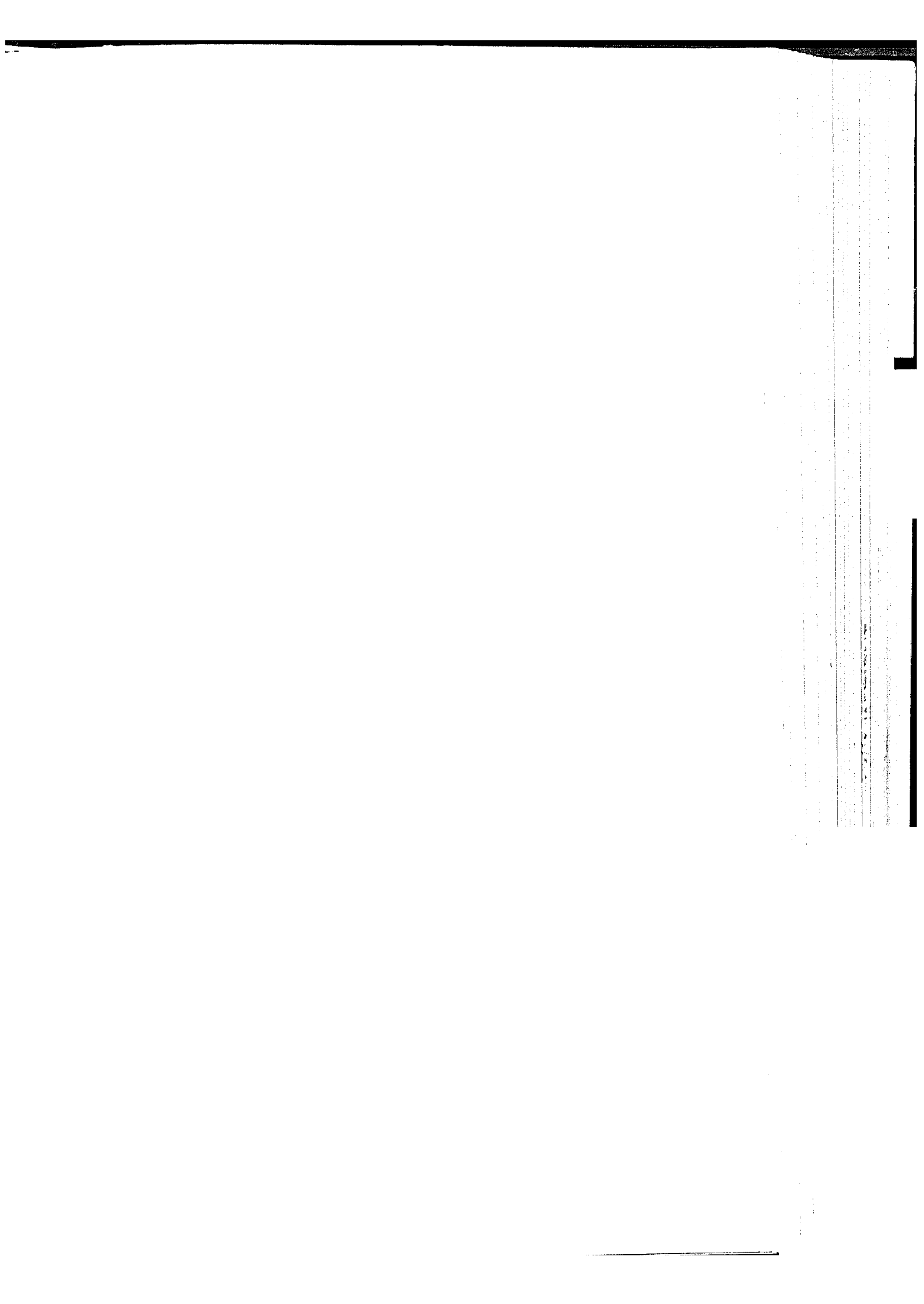
(١) انظر : أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ، ١٣٤ .

إلا أنّها لا تستطيع استيعاب الطاقات المحتشدة بل ولا التفاهم معها؛ لأنّ هذه الدّعوة بما يتبلور في ساحتها من حركات وجمعيات ونخبات فكريّة ستكون على حال نقيض لوجهة الدّولة؛ مما يعني توجيه الدّعوة أوّلاً إليها وهنا ينشأ الاضطراب، وانفصال الدّعوة عن الدّولة، وسعي الدّولة إلى مطاردة الدّعوة حتى لا تصبح مصدر كشف لسوءاتها وتطاول عليها، أو على الأقلّ حركة اجتماعيّة خارجة عن سيطرتها، مما يعني التّفرق والانقسام ومناوأة الدّولة، وحدوث مشكلات العنف والفوضى.

المجتمع السّعودي بحمله رسالة الإسلام أصبح تلقائيّاً مجتمع دعوة إلى الإسلام، وقد حدّد النظام الأساسي للحكم موقع الدّعوة بين واجبات الدّولة، من حيث جعل الدّعوة عنصراً يتخلل النظام التعليمي والإعلامي، ومن حيث تحمّلُ الدّولة مسؤولية الدّعوة داخلياً وخارجياً، وفتحها مجالات استيعاب الطّاقات التي يواصل النظام التعليمي حشدها في هيئات الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ومراكز الدّعوة في داخل المملكة وفي خارجها، وتنظيم الدّورات الشّرعية والحلقات القرآنيّة وغيرها من سبل الدّعوة الكثيرة التي تستوعب العاملين دون أن تفرض عليهم ترويضاً معيناً ينحرف بدعوتهم عن هدفها الأسمى نحو ترويجٍ رخيصٍ لمصالح سياسيَّةٍ باهتةٍ.

وهذا الجانب من أبرز عوامل استقرار المملكة وأمنها والسير الواثق لنهضتها وتوحّد الدّولة والدّعوة، وشعور المجتمع بنهوض الدّولة بمسؤوليّتها الدّعويّة ومن ثم الاندراج في مسيرتها الإسلاميّة الدّعويّة.

الخاتمة



تطبيق شريعة الله في الأرض غاية كلّ مسلم ، وتحصيل الأمن والسّعادة ، والحياة الطيّبة أمنيَةُ كلِّ إنسانٍ على وجه الأرض .

والقضيتان متلازمتان ؛ فالأولى سبيل الثانية ، وذهاب الثانية دليل على التّخلّي عن الأولى .

ذلك وعد الله في قرآنه الكريم والله لا يخلف الميعاد ، وهو شهادة التاريخ حسب سنة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ، وحاضر « الأمّة الإسلامية » من أعظم الشّواهد الواقعيّة على هذه السنّة الإلهيّة الماضية في خلقه .

فمنذ انفلت بعض أبنائها من دينهم ، وتهافتوا على الموارد الملوَّثة ينهلون منها ليُسقوا أمّتهم من أوضارها ، حلّت بها الرزايا وتبدد شملها ، وفقدت رشدها وأمنها ، وسعادتها ، وموقعها الحضاري .

هذا واقع أغلب مجتمعات المسلمين .

« المجتمع السّعودي » جزءٌ من هذه الأمّة ؛ ولكن الله - تعالى - امتن عليه بأن جعله يأخذ مساراً آخر في حياته ، سلكه تاركاً مسار الغربة عن الدّين ، الذي سلكه الآخرون .

* طبق شريعة الله التي جاء بها رسوله محمّد ﷺ بحسب ظروفه القائمة .

* فانعكس ذلك آثاراً حميدةً في حياته الدّينية والثقافيّة والاجتماعيّة .

هاتان -التطبيق وانعكاساته الأثريّة- مسألتا هذا البحث الذي بُنِيَ على تمهيد :

- حرّر المنهج الإسلامي في بنائه التّكاملي للمجتمع المسلم .

- كما حرّر المنهجيّة السّلفية التي بعثتها الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربيّة ،

والتي تشرفت الدّولة السّعودية بأن تكون دولتها التي التزمتها بعد ذلك .

- ثم تناول الحركة التّوحيديّة التي قام بها الملك عبد العزيز -رحمه الله- فأنشأ الدّولة السّعوديّة وفق مسارها المتفرد في صلتها بالإسلام .

هذه العناصر الثلاثة التّمهيدية تمثّل القاعدة الأساسية التي قام عليها المجتمع السّعودي ، ومنها انبثقت إسلاميّته ومن ثم تبلورت شخصيّته المتميّزة .

أمّا عنصرا البحث « تطبيق الشّريعة » و « آثاره في الحياة » في المملكة العربية السّعودية فقد تناولتهما بدراسة حاولت أن تكون شموليَّةً ، وإن لم تكن مستوعبةً لجوانبها كلّها .

بيّنت في الباب الأوّل المتعلّق بتطبيق الشّريعة في المملكة :

*** العناصر النّظريّة لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة متمثّلة بما يلي :**

- المنهج السّلفي في معالمه الواضحة التي من أبرزها : مرجعيّة القرآن والسنّة ، وأخذ الإسلام بخارطته الكاملة وفق مراتبه المفصلة في حديث جبريل المشهور ، والتّوحيد بأنواعه الثلاثة المقابلة للشّرك بنوعيه الأكبر والأصغر ، وشموليّة الإيمان للاعتقاد والقول والعمل ، وخضوع جميع أنواع الولاءات للولاء الدّيني ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وفق المنهج الشّرعي السّليم ، والخلافة في الأرض حسب شرع الله ، وقصر العبوديّة على الله دعاءً واستغاثةً وتوكّلاً . . . دون تعطيل الأسباب ، والوسطية المعتدلة في المواقف ، والخيريّة لخلق الله . . . . .

وبيّنت كيف قامت على هذا المنهج المملكة حيث تجلى ذلك واضحاً

من خلال : الوعي الحيوي بالمنهج ، والإعلان الصّريح به ، والحكم بما أنزل الله ، وإزالة كلّ مظاهر الشّرك ، والتربية العقديّة للناس ، ونشر المنهج السّلفي علمياً ، والإصرار الواثق على التّأكيد من خلال التّجربة الحية على إمكانية استيعاب التقدم المدني مع التزام العقيدة السّلفية .

- العلم بمفهومه الشّمولي لكلّ أنواع المعارف النافعة النقلية والعقليّة والكونيّة ؛ حيث بَنَتْ المملكةُ على هذا العلم سياستها الثقافيّة ومناهجها التّعليمية .
- القيم السّامية التي أرساها الإسلام لتحقيق إنسانيّة الإنسان حفاظاً عليها ورعايةً لها .
- التّراث الإسلامي باتّخاذ الموقف المعتدل منه دون تحقير مطلق وقطيعة ، ولا تعصُّب أعمى لكلِّ ما فيه من حقٍّ وباطلٍ ، وإنّما ردّه إلى مقرّرات الكتاب والسّنّة .

* العناصر العمليّة لتطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المملكة ، وقد تمثلت بما يلي :

- النّظام الأساسي للحكم وهو النّظام الذي قام على شريعة الإسلام لا في الجانب التّشريعي فقط وإنّما الإسلام بشموله صار هو القاعدة الكليّة التي تنبثق منها جميع النّظم الرّئيسة للدّولة .
- مجلس الشّورى الذي أقيم وفق صيغة إسلامية في أساسه النّظري ومجالات عمله، والتعامل مع إنتاجه .
- القضاء وهو أبرز مجالات تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في نظام الدّولة، وقد نظم القضاء في المملكة تنظيماً يكفل له تحقيق مُهمَّاته الجليلة بالصّورة الشّرعية والحضاريّة.

- التعليم الذي يمثّل أهمّ عناصر وجود الأمم ، من خلاله تعلو أو تهبط حضارياً، وفي هذا المجال بَنَتْ المملكةُ سياستَهَا التّعليمية على الإسلام عقيدةً وشريعةً علماً به، وتطبيقاً له، وولاءً لمنهجه، وهي سياسةٌ متفردةٌ في عالمنا الإسلامي اليوم .

- الدّعوة إلى الله ، حيث جعلت المملكة حمل الدّعوة ونشرها وتمكينها في الأرض داخلياً وخارجياً إحدى أهمّ ركائزها الثابتة ، وقد تبلور لهذه الدّعوة مؤسّسات عملاقة مثل : هيئة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، ورابطة العالم الإسلامي ، والنّدوة العالمية للشّباب الإسلامي ، والجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة . . .

- التحديث الملتزم ؛ برعاية التّوازن بين جانبي الإنسان المادي والرّوحي وتنمية الجانبين معاً ، والانفتاح الإيجابي على الجهود الإنسانيّة لاستثمارها وترشيدها في ضوء مقرّرات الدّين .

أمّا الباب الثاني في آثار تطبيق الشّريعة في المملكة فقد بيّنت فيه ما يلي :

*** الآثار الثقافيّة :**

= **الثقافة الشّرعية** المتمثّلة بما يلي :
- الارتفاع بمستوى الناس في ثقافتهم الشّرعية بما يحقّق لهم أداء عباداتهم ومعاملاتهم بقدر كبير من السّلامة .
- وإعلاء قيمة القرآن والسّنّة وهيمنة مقرّراتهما على النّفس والعقل .
- انتفاء التناقض الحاد الحاصل في كثير من مجتمعات المسلمين بين الثقافة التّقليدية والثقافة العصريّة .
- إنشاء المعاهد العلميّة لتأصيل العلم الشّرعي في المجتمع السّعودي .

- التّوازن بين المثاليّة والواقعية في الأخذ بالدّين وفي التّعامل مع الحياة .
- الثّقة بعالميّة الثقافة الإسلاميّة واليقين بقدرتها على حلّ مشكلات العالم ومن ثمّ تبنيها في البناء الحضاري .

= **التّربية الصالحة :**

التي قلبت نفسيات الناس ثمّ حركتهم في الحياة من هممٍ متخلفةٍ راكدة إلى هِمم نهضوية متعلّقة بالفضيلة طموحة نحو الحقّ .

وبها كان غراس التوحيد في النفوس ، والحساسيّة الإيمانية تجاه الشّرك وشوائبه، والأنس والسّلام الذي يشعر به الشّخص مع الكون المحيط به وقيام المعنى الصّحيح للعبادة بصفتها غاية وجود الإنسان ، وتزكية الفطرة بما فيها من فضائل وقيمٍ .

= **الأمن الفكري :**

الذي تبنيه العقيدة الصحيحة في نفس الناشئ فيعيش سلاماً بين مبادئه الفطريّة وهذه العقيدة ، كما يتحقق السّلام بين هذه العقيدة وحركة الإنسان في الحياة.

والذي يحقّقه تطهير المجتمع السّعودي من الضّلال الشّركي الذي يتسرب عبر منظّمات وحركات كافرة ومدارس تغريب وتنصير ونحوها .

كذلك اعتماد الوحي في أمور الغيب يحفظ الفكر من تدمير طاقته في مسائل لن يصل فيها إلى طائل بنفسه .

وصدق التّعامل بين الحاكم والمحكوم اللّذين يجمعهما مصدرٌ واحدٌ خلافاً لحكم لا ديني في مجتمعٍ مسلمٍ حيث التباين والتنافر والتزييف المتبادل للمواقف .

وإقامة حد الردة الذي يحمي المجتمع من بثّ أيّ كفرٍ أو زندقةٍ في رحابه .

*** الآثار الاجتماعيّة :**

= الحريّة في ظلّ العبوديّة :

فالمجتمع الذي عماده العبوديّة لله -كالمجتمع السّعودي- تتحقّق له الحريّة الحقيقيّة التي لا ينالها سوى من حقّق هذه العبودية، حتى الهاتفون بها لأنّهم علموا أو لم يعلموا خاضعون لأعرافٍ ونظمٍ من وضع بشرٍ مثلهم فهم في الحقيقة عبيدٌ لهم ، يُنفِّذون أوامرهم .

ولتحقيق هذه العبوديّة المحرّرة كانت جهود إعمار بيوت العبادة -في المملكة- وحض الناس على إقامتها، ومحاربة الوثنيّة بكلّ صورها، ودعم حريّة التّفكير في الكون .

= تزكية القيم الصّالحة :

بالارتكاز على الأساس الفطري في تنشئة الشّباب عليها، وجعل علماء الشّريعة مرجع الناس بشأنها وربطها بالعبوديّة لله لتكون منبثقة منها، وإثارة الحساسية تجاه الشّذوذات الخلقيّة، وحميميّة الرّابطة القرابية، وصيانة المرأة وحفظ عِفّتها وكرامتها .

= الأمن النّفسي :

المتمثّل بالرّضا والطمأنينة وبوحدة الاتّجاه نحو شريعة واحدة، وبالنظرة التفاؤلية للمستقبل وبالأمان المتبادل بينه وبين الآخرين منّ حوله ممن يدينون بدينه، وبالعلاقة الوديّة بالنظام الذي يحكمه ونحوها من التّجليات التي حقّق المجتمع السّعودي بعد توحّده على يد الملك عبد العزيز صورةً عليا منها .

= العـــدل :

بين القيم المادية والقيم الإنسانية في المجتمع في التعامل مع الفرد وفي الخطط العامة ، والعلم الشّرعي بين إهماله لحساب العلوم المدنيّة ، أو الانكفاء عليه وإهمال ما سواه ، والعدالة الاجتماعيّة بين طغيان الفرديّة وطغيان الجماعيّة بإيفاء كلّ جانب حقّه المشروع له ، والانتماء العائلي بين القبليّة العمياء والتّمرد الأهوج ، والمرأة بين إهمالها ، واستغلالها حتى امتهانها ونحوها من العناصر التي غالباً ما تجنح البشريّة إلى طرف منها على حساب آخر ، حيث حاولت المملكة القيام على وسطيّة عدليّةٍ فيها انسجاماً مع شريعة الإسلام السّمحة .

*** الآثار السّياسية والاقتصاديّة :**

= الوحدة السّياسية :

التي حقّقت جمع الشّمل وارتباط القلوب مرتكزة على العقيدة والشّريعة ، وعلى الأصالة العربيّة منفتحة على أُمّتَيْها العربيّة والإسلاميّة بالهمّ المشترك والجهد المبذول لما فيه وحدة العرب وتضامن المسلمين بما ينهض بهم ويحفظ حقوقهم .

= التمثيل الإسلامي في الحكم وفي المحافل الدّولية :

- التمثيل الإسلامي في مجال الحكم متمثّلاً بالانتماء الإسلامي لقيادات الدّولة في أشخاصهم وبياناتهم ، وقيام شريعة الدّولة على الحكم بالكتاب والسنّة ، وحفظ الدّولة للسمت الإسلامي في الحياة الاجتماعيّة .
- والتمثيل الإسلامي في المحافل الدّوليّة حيث كانت المملكة هي الدّولة التي أبرزت موقف الإسلام من عديدٍ من القضايا التي تثار على الصّعيد العالمي

كما في موقفها من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في نهاية الأربعينات من هذا القرن العشرين ومن العهدين المتعلقين بالحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسّياسية في السّتّينات وأوضحت موقف الإسلام إزاء هذه القضايا للعالم .

= الأمن المعاشي والاستقرار الوطني :

- الأمن المعاشي :

برسم المعالم السّليمة للحركة الاقتصاديّة استثماراً واستهلاكاً وحفظ صحّة الإنسان من الموبقات المهلكة ، وسدّ عوز العاجزين وتهيئة العمل للقادر عليه .

- الاستقرار الوطني :

حيث تحقق الأمان الاجتماعي الذي يتمتّع فيه الناس بحقوقهم في ظلّ أنظمة سياسيّة موثوقة الأداء في القيام بمهامها ، ويرتبط فيه المواطنون بالدّولة عبر الواجبات والحقوق المتبادلة ، وقد ارتكز هذا الاستقرار على وحدة مفهوم الدّين الجامع بين الدّولة والشّعب ، ومن ثمّ وحدة الثقافة الجامعة بين الأصالة والمعاصرة ، وعلى إقامة الحدود الشّرعية الرادعة عن المغامرات الطائشة المخلة بالأمن العام ، وعلى مقاومة المجاهرة بالمعاصي حتى لا تشيع الفاحشة ويضطرب الناس ، وعلى امتصاص الطاقات المتحفّزة في مسالك نافعة شرعية دون إهدار يفسدها ، أو كبت يُفجِّرها تدميراً في المجتمع .

هذا هو موضوع البحث دراسةً لواقعٍ قائمٍ وماضٍ مرتبطٍ بنا نَعِمَ به هذا

الجيل سالفاً وحاضراً ، وعاشه الآباء والأجداد ؛ أمّا المستقبل « مستقبل المجتمع السّعودي » فليس لنا سوى استشرافه وتوقّعه توقّعاً مزيجاً من الربط بين الأسباب ومسبباتها اللاحقة ، ومن الطموحات الطامعة وحتى يكون استشرافنا المتفائل متماساً مع الواقع المحيط بنا فإنّنا سندمجه ضمن رصد للاستشرافات المتنوّعة لمستقبل المملكة من مفكّرين – عصرانيين أو إسلاميين – أو من غيرهم .

مع العلم بأنّ الاستشراف بما هو توقُّع فإنّ الأماني والتطلّعات -خيِّرة أو شريرة- كثيراً ما تداخله فيتراءى الشّخص والناس تحقّق ما يتمنون وإذا أبى عليهم الواقع ذلك أحالوه إلى حتميَّة مستقبليّة آتية لا ريب فيها .

١- هناك من يرى أنّ المملكة مستقبلاً ستبقى محتفظة باستقامتها على النهج الإسلامي محافظة -كالسّابق- على ولائها لخيارها الوحيد وهو الإسلام ، وأنّه سيتعمّق بروزها الإسلامي ، ومن ثمّ تأثيرها الخارجي من جهة ، وتمحصها للإسلام من الدّاخل من جهة أخرى ، وأنّها ستواصل نجاحها المتفرد في اجتياز العقبات التي ما تنفك تواجهها منذ نشأت وبالذّات بين الأصالة والمعاصرة ، وما واجهته من سَفَه ذوي الاتجاهات السّيئة وكَيْد أعداء الأمّة ، وزلزلة الطفرة المادية .

ويدعم هذا الاستشراف توقعاته المستقبليّة لثبات الخيار الإسلامي للدّولة السّعودية بمؤكدات كثيرةٍ منها :

- خصائص التكوين التاريخي والمكاني للمملكة بصفتها وريثة دعوة سلفيّة تغذي جذور هذا المجتمع بمبادئها الصّافية ، وبصفتها بلد الحرمين الشّريفين وراعية إقامة الرّكن الخامس من أركان الإسلام وهو (الحجّ) .

- والقناعات الرّاسخة لقيادات المملكة بالإسلام ديناً ومنهج حياة .

- ورسوخ العلم الشّرعي في المجتمع .
- وبروز دور المواطنين في العمليّة الحضاريّة مما يجعل حركة المجتمع تحتاج إلى عمليّة ضبط أكثر من قبل مؤسّسات الدّولة ، وعلى الانتقال بالرّوح الجماعيّة من مرتبة العدل إلى الإحسان -الأوقاف والتبرّعات والإسهامات الوطنيّة . . . . إلخ – مما يزيد من الحاجة إلى إذكاء القيم الإيمانية التي تحفز على الإنتاج والتطوّع والتعامل بأخلاق تحفظ بها الحقوق وتقوم عليها الثّقة .
- تغيّر الأحوال في العالم الإسلامي – ظهور الصّحوة الإسلاميّة ، وتساقط المذهبيات الضالة في العالم العربي – مثلاً .
- وأبرز الأشياء هو « النّظام الأساسي للحكم » الذي صدر في عام ١٤١٢هـ مؤكّداً على المستوى الدّستوري الثابت اعتصام المملكة بالإسلام من خلال المصدرين : الكتاب والسنّة وفهم السّلف الصّالح لهما مستقبلاً .

٢ – هناك من يرى أنّ المجتمع السّعودي يسير نحو التّحلّل من التزامه الدّيني ، ومضاهاة المجتمعات الأخرى ، وأنّ مآل المملكة مستقبلاً أن تَتَعَصْرَنَ في أنظمتها وعلاقاتها ومن ثمّ في حياتها الاجتماعية وقد يبقى للدّين ما بقي له في بعض المجتمعات العصرانية من أحوال شخصيّة ومنا سبات موسميّة .

والجانحون نحو هذا الاستشراف نمطان :

الأوّل : يتمثل في العصرانيين من العرب وبعض المستشرقين وهؤلاء :

- إمّا أنّهم مسكونون بهاجس التضاد الحتمي بين الدّين والحياة المدنيّة من الماركسيين والوضعيين ونحوهم ممن يحتمون القاعدة المادية التي خلاصتها أن التقنية متضادةٌ مع الدّين فكلّما انتشرت الأولى انحسر الثاني تلقائياً

وكلّما زاد بروز الرّجل التقني « رجل الصّناعة » قابله انسحابٌ لرجل الدّين (١) .

ومثلها قاعدة « أوجست كونت » التي تجعل مرحلة الوضعيّة قافية لمرحلتي الدّين والميتافيزيقيا .

وبما أنّ المملكة مقبلة على مستقبل تقني متقدم حيث سبقت الآن في تطوّرها الصناعي والإداري كثيراً من المجتمعات « التقدّميّة » في العالم الثالث . . فإنّها – حسب القاعدة– تتحلّل بالمقابل من التزامها الدّيني .

– أو أنّهم من أعداء الإسلام ، الموتورين تجاهه يغيظهم أيّ بروز لاسمه على المستوى الدّولي أو الشّعبي ، ويتمنّون اضمحلاله فيسقطون هذه الأماني على الواقع ، ولما كان الحاضر يصادم أمانيهم من خلال المملكة بالدّرجة الأولى نقلوا أمانيهم إلى المستقبل لتكون استشرافاً يبحثون له عن تفسيرات تدعمه .

= كالتمثيل بمجتمعات أخرى كانت محافظة ولكن التّغريب استطاع أن يمسخ أجزاء كبيرة من حياتها .

= ومثل بعض الانفلاتات الواقعة سواء كانت انحرافات قائمة في الواقع المشهود، أو كانت تجاوباً من بعض أبناء المجتمع مع بعض الأفكار والصّور غير الإسلاميّة .

---

(١) وهي قاعدة كاذبة ، وقد كشفت الصّحوة الإسلامية التي تفيض بالتقنيين الإسلاميين سذاجة تصديق هؤلاء الماركسيين العرب بها حتى قال د. علي الكنز : « إن التحليل السوسيولوجي الذي جاء به عبد الله العروي وتبنّيناه نحن ما هو في نهاية الأمر إلا مغالطةٌ » . الإسلام والهوية ، للدّكتور علي الكنز ، عن مجلّة « البيان » الإسلامية ، عدد ٤١ ، ص ١٢ .

وتجد هذا الصّنف يغتاظ من جوانب الظهور للمملكة ومن الاهتمام الدّولي بمواقفها، ويتأسَّفون أحياناً على أنّها أصبحت الآن بعد أن كانت مرفوضةً مزدراةً من النظم التقدمية في عقود ماضية تمثل منطلق حكمة وعقلانية في تصفية الخلافات وتوحيد الأمّة تلَجأ إليهاَ النظم « التقدمية » للاستفادة منها والاعتداد بوجهة نظرها ، ولأنّ هؤلاء لا يؤمنون بدور الإسلام في تفوّق المملكة الحضاري فإنّهم غالباً ما يردونه إلى الجانب المادي فـ« تضخم الثروات النفطيّة والماليـة للسّعودية هو الذي ضخم دورها في إدارة شؤون الوطن العربي »[1].

- أو أنّهم من السُّذَّج الذين يتلاعب بهم العصرانيون الحاقدون على المملكة وسَمْتها الإسلامي أو على دول الخليج بصفة عامة، فإذا التقى بهم هؤلاء أخذ العصرانيون يغرونهم بتنوير مجتمعاتهم والارتقاء بها وتحريرها من التخلّف والظلامية، والخروج من أزقة التاريخ إلى طريق الإنسانية السّريع ! والاندماج في العولمة دون البقاء خارج التاريخ . . . .

كيف نُحقِّق هذه الأهداف النّبيلة أيّها الأساتذة الأجلَّاء ؟

حرِّروا المرأة من أغلالها لتمارس دورها مضاهية أختها لدينا ، طوِّروا أنظمتكم بإزالة الوحشية والقسوة منها قتلاً وقطعاً ، أزيلوا الازدواجية من مناهجكم التي تجمع علوم الدّين مع علوم الدّنيا ، اسحبوا الناس من التعويل على علماء الدّين في حلّ مشكلاتهم إلى المتخصّصين الاجتماعيين والنفسيين وفق نظريات تستبعد الدّين من حياة الإنسان . . . إلى آخر . . . الاستدراجات الخادعة للضعاف المشوِّهة لواقع مجتمعاتنا في

(١) أزمة الدّيموقراطية في الوطن العربي ، ص ٤٢٦ .

نفـوس بعض هـؤلاء الأبناء حـتى أنّهم يشـعـرون أحـيـاناً بالغـربة عن مجتمعاتـهم ومن ثم يتراءون الصّورة المثاليّة التي رسمت لهـم مستقبلاً ، ستأتي بجهودهم وجهود إخوانهم الذين يمدونهم في الغي ثمّ لا يُقصرون .

ولقد كشفت أزمة الخليج لكثير من هؤلاء تربص أولئك العصرانيين بهم ، وعاد بعضهم ليحاسب نفسه كما يقول الدّكتور محمّد الرّميحي[1] متحدّثاً عن بعض المثقّفين الخليجين :

« لقـد ثبت بالدّليل القـاطع أنّ كـثيـراً منّا غـرر في تصـوّره لما يمكن أن تقـدمه الأنظمـة التي سـميت في أدبياتنا بالثورية . . . لقـد كـانت بعض المفاهيم تُنَفِّر بعض مثقفينا وطلابنا في الخارج من أهلهم وذويهم ، ويُغرر بهم لدرجة أن يتنكّروا لمجتمعتهم .

لقد كان البريق الثقافي لبعض الأطروحات القادمة من الشّرق والغرب التي بشر بها بعض المثقّفين والسّياسيين العرب تبهر بعض شبابنا ، فتجد أسباباً عـديدةً منها : عدم الفـهم الكامل لتركيـبة ، ومسار مجـتـمعنا ، ومنهـا : الانبـهار بالجديد ، ولم نحاول في السّابق أن نسبر أغـوار تلك الأطروحـات ربما لإحسـاس بالنّقص تجاه الآخـرين ، أو لتـضـخـيم في المشكلات التي تواجهنا »[2] .

النّمط الثاني : من أصحـاب الاستشراف المترائي تحـوّل المملكة عن التزامها الإسلامي « من الإسلاميين » .

وهؤلاء بدورهم أصناف :

---

(١) كويتي وهو رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية سابقاً.

(٢) مجلّة اليمامة ، ص ٥٠ ، في ١٣/ ٤/ ١٤١٢ هـ .

وإذا استثنينا المأجورين الذين لا يكتبون عن قناعة ولا عن طلب للحقّ وإنّما لمجردّ إرضاء مؤجريهم فإنّنا نجد أبرز أصناف مَن يمكن تسميتهم بالإسلاميين هي :

= صنف من ذوي العقليات الضيقة الذين يفقدون النّظرة الكليّة من جهة وتقدير الظّروف من جهة أخرى .

- فإذا رأوا أشخاصاً سعوديين يمارسون خللاً دينياً أو خلقياً حكموا على السّعودية كلّها بالانحراف ، وإذا رأوا تغييراً جزئياً عما كان سابقاً في تعليمٍ أو إعلامٍ ، أو قضايا اجتماعية ونحوها حكموا بسير النّظام في طريق الانحراف .

- أمّا عدم تقدير الظروف لدى هؤلاء وهو غالباً بسبب بعدهم عن مواقع المسؤولية ومواجهة التغيّرات التي تفرض أحياناً على المجتمع والدّولة وضعاً غير مُرْضٍ ولكنه من غير المستطاع مواجهته فيُهَادى أو يُتعامل معه كرهاً ، بحكم بُعدِ هؤلاء عن المعاناة فإنّه من السّهل عليهم أن يُنَظِّروا -حديثاً في المجالس ، أو تسطيراً في الكتب- الحلول المثلى نظرياً والتي يرون عدم اتّخاذ المجتمع لها دليلاً على العزوف عن الحلول الشّرعية .

ودون هؤلاء الذين لا يرون الشّريعة إلا صورة حياتهم التي اعتادوها فكلّ تغيير فيها هو إحداث في الإسلام ورضاً بأمور الكفر التقنية ، أو الفنيّة ، أو الفكريّة .

مثل هذه العقليات لن ترى إلا مستقبلاً مظلماً للإسلام في المجتمع السّعودي بحكم لامنطقية مواقفها ، وهي عموماً في انحسارٍ كبيرٍ .

= وصنف آخر من الإسلاميين يتكوّن من فئات متعدّدة ، إذا حاولنا التماس جذر لاستشرافها المستقبلي للمملكة - وهذا الالتماس اجتهاد قد يكون

صحيحاً وقد يكون خاطئاً- فإنّه « المنظور الحركي » الذي يقدم نفسه بديلاً للأوضاع القائمة أياً كانت وضعيّتها .

والحركة الإسلاميّة -في أجنحة كثيرة منها- كسائر الحركات الثورية تأخذ منزعاً مثالياً يتعلّق بالمطلقات ، ويرفض أنصاف الحلول ويرى أنّ أيّ منظّمة أو دولة أو حتى فرد لا يتماهى مع أيديولوجيتها ويدعمها ، ويأخذ الموقف المضّاد لمن تّضاد، منحرف، وراكن إلى النّظم الأخرى علمانية أو كافرة فهو إذاً مثلهم ، أو على الأقلّ ناقص عن مستوى الدّعوة الإسلاميّة التي هي الأصل الذي ينبغي على كلٍّ -منظمات أو دولاً أو أفراداً- الانضمام إليها[1] .

ولا ريب أنّ الحكم المنبثق من هذه النظرة سيكون متشائماً في نظرته للواقع أياً كان؛ لأنّه لا يمكن أن يكون على مستوى الصّياغة النّظريّة المفترضة .

هذا التماس لجذر الموقف ، أمّا الموقف نفسه أقصد موقف التّشاؤم من

---

(١) الاختلاف بين (الدّعوة والدّولة) مشكلة عانت منها مجتمعات كثيرة ذوات مذهبيات متعدّدة .
وكثيرٌ من المجتمعات الإسلاميّة حدث فيها هذه الاختلاف منذ ابتدأ تكوين دولها بعد رحيل الاستعمار مباشرة :
فالدّولة تتجه للبناء الدّاخلي وتقوية ذاتها من خلال التّفاعل المصلحي مع الظّروف المحيطة بها، ومن ثم تعترف بالحدود وبالسّيادات الأخرى وبالتّعايش السّلمي مع من تقضي مصلحة الوطن معايشته من الأعداء . . .

- أمّا الدّعوة فهي متحرّرة من كلّ هذه القيود، إنّها تتصوّر نموذجاً مثالياً تسعى لتحقيقه وتقاوم كلّ من يعترض سبيلها في هذا السّعي .

وكانت المشكلة الأكبر أنّ (الدّولة) الخالفة للاستعمار كانت غير موالية للدّعوة الإسلاميّة أساساً بل كان ولاؤها لدعوات أخرى مما حتم المصادمة بين الدّعوة والدّولة .
في المملكة العربية السّعودية هذا غير موجود فالدّولة تمنح ولاءها للدّعوة الإسلاميّة وتحمل همّها .

- ولكنها تبقى دولة على كلّ حال محاطة بظروف تلزمها بواقعيّة ، لا تأتلف وانطلاق الدّعوة .
- ثم إنّ كثيراً من هؤلاء الإسلاميين للأسف لا يعون تميّز المملكة ربّما بسبب بعدهم عنها، وإنّما يقيسونها على الدّول الأخرى، وهو خطأ فاحش بلا ريب .

المستقبل وتصور أنّ المملكة تسير في الطّريق الذي سلكته المجتمعات الأخرى ، وتوقع انحسار القيم الإسلاميّة من المجتمع شيئاً فشيئاً فإنّه يستند -لدى هؤلاء- إلى :

= القياس على الدّول الأخرى عربية وإسلاميّة دون اكتراث ببحث الفوارق التاريخيّة والواقعية بين المملكة وتلك الدّول من حيث علاقة كلٍّ منها بالإسلام ، أمّا الصّور التي تتبدى فيها إسلاميّة الدّولة ، إعلاناً للالتزام بالإسلام ، وأخذاً به في التعليم أو القضاء ، ودعم قضايا المسلمين ونحوها فهي تُفسَّر لدى هذا الفريق بأنّها لمجرد الاستهلاك الإعلامي والإرضاء الشّعبي .

والحقّ أنّ المقارنة بين المملكة ودول أخرى كثيرة في عالمنا الإسلامي تُبيِّن أنّ المملكة تعد مثالية في التزامها الإسلامي بالنسبة لهذه الدّول .

= بروز فئة المثقفّين ذوي الفكر غير الشرعي ومشاركتهم في ريادة المجتمع بعد أن كان العالم الشّرعي هو سيد الساحة الاجتماعيّة في المجتمع الإسلامي عبر قرونه السّالفة بل وعقوده الماضية . وقد يفسر بعضهم حالات الجفوة التي تعرض أحياناً تجاه أهل العلم الشّرعي والدّعوة بتأثير هؤلاء المثقفين ومنافستهم .

وهنا أيضاً يقع الخلط بين المثقّف العصراني « المنتمي » إلى مذهبية مخالفة للإسلام صراحة كالماركسية والوضعية والوجودية ونحوها في كثيرٍ من المجتمعات ، وبين المثّقف في المجتمع السّعودي الذي لا يتبنى غير الإسلام مذهبية أو لا يستطيع أن يعلن بها لأنّ إعلانه بها سقوط له على مستوى المجتمع وعلى مستوى الدّولة .

والأصل في موقف الدّولة هو تقدير المصلحة طلباً لها ودرءًا للمفسدة ،

فإذا تعارض تقدير هذه المصلحة بين الدّولة والطّرف الآخر فرضت الدّولة بحكم سلطتها ما تراه محقّقاً لهذه المصلحة .

وقد أسلفنا الحديث عن النخبة الدّينية والمدنية في المجتمع السّعودي في مبحث « مجلس الشّورى » .

= ومن أقوى ما تستند إليه هذه الفئة في استشرافها التّحول في المجتمع السّعودي الثغرات التي تمثل تجاوزاً في التطبيق ونقصاً عما هو مفترض ، ومن أبرز هذه الثغرات :

- التّهاون الرقابي « الإعلامي » على ما ينشر أو يبث من برامج وكتب ، إذ يوجد في بعض وسائل الإعلام تجاوزات لما تقتضيه الآداب الشّرعية والقيم الإسلاميّة ، كما أنّ الأسواق يتداول فيها من الكتب والمجلات ما لا يتسق مع الالتزام الإسلامي .
- تعامل البنوك التّجارية بالفائدة الرّبوية المحدّدة النسبة ، ونص البنوك على ذلك في أنظمتها .
- تعدّد الهيئات القضائيّة بتشكيل لجان أو هيئات في كلّ مؤسّسة تنشأ للحكم وتطبيق العقوبات ، وهذا كما يرى النّاقدون « مما يقلص سلطة القضاء ويفقده وظيفته في حلّ الخلافات والمنازعات »[1] .

وتعد هذه الثغرات الثلاث من أعظم المستندات تأثيراً على نفوس كثير من المتدينين والدّعاة في نظرتهم للمملكة وبالذّات الذين يميلون إليها أو يشعرون بالولاء لها فيأسون على وجود هذه الثغرات في مجتمع يمنحونه حبهم ، ويعدونه قدوتهم .

---

(١) التّنظيم القضائي ، سعود الدّريب ، ص ٤٦١ .

وهذه الثغرات أيضاً من أكبر بواعث القلق لدى الشّباب الذي يتراءى الصّورة المثاليّة، وهو يعيش مع تعاليم الإسلام دارساً ومدرّساً وداعياً ثمّ يراها تتراجع في الواقع الذي يعيشه .

وهي نواقص لا مجال للمكابرة بإنكارها، وتداركها مطلب كلّ سعودي بل كل مسلمٍ، ولكن الإنصاف وتوضيح الحقيقة مكتملة يقتضينا تأكيد ما سبق أن ذكرناه من أنّ الغطاء الكامل لنظام الدّولة لا ثغرة فيه تسمح بالخروج على الشّريعة متمثّلاً بالنّظام الأساسي للحكم؛ مما يجعل هذه الثغرات وأمثالها شذوذات انفلتت من حاكمية النّظام وينبغي أن تؤوب إليه .

الأمر الثاني : أنّ الأنظمة التفصيليّة قد حسمت الأمر لصالح الشّريعة فيما يتعلّق بهذه الجوانب بالذات :

- ففيما يتعلّق بالجانب الإعلامي ينص نظام المطبوعات بوزارة الإعلام على (منع نشر أو تداول كلّ ما يخالف أصلاً أو شرعاً) .
- وفيما يتعلّق بالتّعامل الرّبوي نصّت أنظمة وزارة الماليّة ومؤسّسة النّقد العربي السّعودي على عدم جواز التّعامل بالفائدة الرّبويّة أخذاً وعطاءً .

(في نظام مؤسّسة النّقد العربي السّعودي الصّادر بالمرسوم الملكي رقم (٢٣) وتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٣٧٧هـ نصّ على أنّه لا يجوز لمؤسّسة النّقد العربي السّعودي دفع أو قبض فائدة، وإنّما يجوز لها فقط فرض رسوم لقاء الخدمات التي تؤدّيها للجمهور أو للحكومة وذلك لسدّ نفقات المؤسّسة) .

كما نصّت المادة السّادسة من النّظام على أنّه : لا يجوز لمؤسّسة النّقد العربي السّعودي القيام بأيّ عملٍ من الأعمال التّالية . . . (وذكر منها) :

مباشرة أيّ عمل يتعارض مع قواعد الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء ، فلا يجوز لها دفع أو قبض فائدة على الأعمال .

كما نصّت الأنظمة المتعلّقة بالبنوك المتخصّصة على عدم قبض فائدة . كما أنّ نظام الأوراق التّجارية الصّادر بالمرسوم الملكي رقم (٣٧) في : ١١/ ١٠/ ١٣٨٣هـ قد نصّ على أن « اشتراط فائدة الكمبيالة والسّند لأمر كأن لم يكن »[١] .

كذلك في نظام المحكمة التّجارية في المملكة العربية السّعودية (المادة ١٤٩ من الفصل الحادي عشر : العقوبات) : « من ارتكب شيئاً من أنواع الحيل بأن أظهر عقداً مباحاً يريد به محرماً مخادعةً وتوسلاً إلى الرّبا، كما لو باع بضاعةً بثمن مؤجّل ثمّ اشتراها بنفسه أو وكيله أو بواسطة أخرى أقلّ من قيمة البيع نقداً، أو أقرضَ آخر شيئاً وباعه أموالاً بزيادة فاحشة في القيمة يعدّ ذلك رباً وله رأس ماله وعدا ذلك يجازى بالحبس ثلاثة أشهر إلى سنة مع تشهيرهما »[٢] .

فالحاجة إزاء هذه الثغرات هي حاجة تفعيل للأنظمة الحاكمة على الحركة الواقعيّة ولو بخطوات وئيدة ؛ المهمّ بداية الخطوات .

الأمر الثالث : أنّ الدّولة إذا استبان لها خلل ما في نظام ونحوه فإنّها تتّجه لتلافي هذا الخلل وردّ هذا النّظام للشّريعة الإسلاميّة ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك لدى الإشارة إلى نظام العمل والعمال ، ومثل ذلك ما يتعلّق بتعدّد الهيئات

---

(١) تطبيق الشّريعة في العصر الحاضر ، للزايدي، ص ٣٣٢ ، مصدر سابق .

(٢) انظر: تجربة البنوك الإسلاميّة ، ضمن محاضرات الموسم الثقافي لمركز الملك فيصل لعام ١٤٠٦ - ١٤٠٧هـ، ص ٣٢٦، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

القضائيّة حيث أصدرت الدّولة -كما سبق- قراراً لتصحيح أوضاع هذه الهيئات من خلال لجنة يرأسها وزير العدل .

= هناك فئة ليس لها استشراف مستقبلي لأنّ حدود تفكيرها لا تتجاوز واقعها الذي تعيشه نجدها في حديث مجالس العامة ونحوهم ، وفي بعض البرامج والكتابات الصّحفية .

هذه الفئة تدرك نعمة الله عليها بالأمن والألفة الاجتماعيّة وإعلاء شأن الدّين ومظاهر العبادة ، وتزيدها المقارنة بالمجتمعات الأخرى من حولنا شعوراً بهذه النّعمة ، وأنّ سببها تطبيق شريعة الله ، لكنّها تقف محتارة أمام التغيّرات الواقعيّة التي أنتجت شروخا في السمت الاجتماعي في حاضرنا ، وبخاصة مع تكرار ذكر الصّور المثاليّة للأمن وعلوّ شأن الدّين في الفترات السّابقة ، إنّه يتساءل حائراً : كيف نصدّق أنّ مجتمعنا الذي يخشى الأعرابي فيه أن يمس بإصبع رجله كيسا رآه في البريّة خشية المساءلة والعقاب ، تسرق فيه سيارتي الموقوفة أمام بيتي ، أو يسرق فيه بيتي خلال ساعات ذهبت فيها لحضور مناسبة ، وحينما أذهب إلى الشرطة أجد أنّه قد سبقتني بلاغات بفترات لم يتلقّ أصحابها أيّ أخبارٍ تشفي صدورهم .

أيضاً هذا المجتمع الذي كانت تعمر علاقات الناس فيه النخوة والأريحية وتَتَّسم مواقفهم -خاصة في الأمور المهمّة- بالرّجولة وتقدير الآخرين ، كيف وجدت فيه الآن زعانف من شباب وكبار ضعفت فيهم المروءة وأصبحت خلائقهم ماديّة مصلحية .

أيضاً هذا المجتمع الذي يقوم على الصّفاء والاحترام والطّاعة من الولد لوالديه ومن طالب العلم لمشائخه ومن المحكوم لحاكمه ، وعلى الأبويّة

والرّعاية من هؤلاء - الحاكم والعالم والأستاذ والوالد . . . - لمن دونهم كيف ظهرت بعض النّدوب المعكرة لذلك الصّفاء .

أيضاً هذا المجتمع الذي كان رجاله وحتى شبابه مثال الرزانة وضبط النفس لا في الأحوال العاديّة بل حتى في أحوال الفرح والحزن ، كيف أصبحت خفة العقل وفقد التبصّر سمة بعض أفراده ، واعتبر ذلك حينما يفوز نادٍ رياضي ويخسر آخر حال الشّوارع والسيارات . . إلخ

وهكذا صورٌ متنوّعةٌ جرت فيها تغيّرات اجتماعيّة نتيجةً لتحوّلات المجتمع ، وانفتاحه الحضاري ، والتّداخلات الاجتماعيّة المعقدة في حياة الناس ، مما أفرز عدداً من المظاهر السلبيَّة المشوهة لسمت المجتمع الإسلامي ، والمخلَّة بالفضيلة ، والمخلخلة للوضع الأمني « الاجتماعي » لهذه البلاد مما يجعل العلاج ضرورة مستعجلة ، لكن هذه الفئة لا تبحث في الأسباب ولا طموح لدى كثيرٍ منها للإسهام في العلاج ، غاية ما لديها امتعاض من التّغيّرات الجديدة ، وحنين لما كان قبل مما عاشه صغيراً إن كان الآن كبيراً ، ومما سمعه أو قرأ عنه إن كان من جيل الحاضر ، وطمع واله أن تؤوب هذه الأحوال الاجتماعيّة إلى توازن تستعيد فيها رشدها ، وعتب على عدم المبادرة إلى حماية المجتمع من هذه المظاهر المشينة .

وبعد هذا كلّه .

بعد ذلك الرّصيد المترسّخ في المجتمع السّعودي تطبيقاً للشّريعة الإسلاميّة ، وآثاراً حميدة في حياته لهذا التّطبيق ، وبعد هذه الاستشرافات المتفائلة والمتشائمة للمستقبل المنظور في المملكة العربيّة السّعوديّة ، أقول متّجهاً بحديثي إلى كلّ معني بهذا المجتمع ومحب له -مسؤولاً أو عالماً أو داعيةً أو مواطناً أو مسلماً في عالمنا العربي أو الإسلامي أو إنساناً يسعده الحقّ متمثّلاً في حياة البشر ،

أقول بشأن تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في المجتمع السّعودي- :

* إنّ خيار تطبيق الشّريعة في المملكة ليس خياراً تجريبياً يمكن النكوص عنه أو استبدال تجارب أخرى به ، وإنّما هو مبدأ وجود للدّولة ، والشّعب معاً .

* وإنّه حتى لو اتّجهت في مجتمعات المسلمين دولٌ نحو تطبيق الشّريعة -تطبيقاً جاداً لا استهلاكياً- فإنّ المملكة ستبقى صاحبة السّبق المتفوّق بعمقه الاجتماعي وخبرته التجريبيّة وأبعاده التأصيليّة- مهبط الوحي ، موقع المقدّسات ، مهوى أفئدة المسلمين ، الولاء لتطبيق الشّريعة ما يزيد على ثلاثة قرون . . . إلخ - ممّا يجعل المملكة النّموذج المقدَّم في استلهام منهجيّة التطبيق لمن اتّجه إليها من مجتمعات المسلمين ولمن اتّجه للدّراسة الواقعيّة للإسلام من غير المسلمين الذين لا يهتمون بالجانب النظري قدر اهتمامهم بالجانب الواقعي في الحياة بغية الاستفادة العمليّة .

* وإنّ تطبيق الشّريعة في المجتمع السّعودي نعمةٌ امتنّ الله بها عليه حيث هيّأ أسبابها وأنجح حركتها وأمدّها بالقوّة أمام المعوّقات الكبيرة في هذا العصر مما يقتضي شكر الله عليها .

* وإنّ الإسلام – بما هو دينٌ شاملٌ- قد شكّل في المجتمع السّعودي الحاضر السّمة الأساسيّة فيه ، نعم بقيت بعض الآثار لدى بعض الناس من مخلّفات الحياة القبليّة ، ودخلت مؤثّرات كثيرة، ولكن الإسلام بقي سيّد الساحة، هو المسيطر والموجّه لحركة المجتمع ، أمّا تلك البقايا وهذه المؤثّرات الوافدة فإنّها بقيت شذوذات ناتئة لا شرعية لها في الوجود السّعودي؛ لأنّ هذا الإسلام هو ملجأ الدّولة، والشّعب، وقبْل ذلك العلماء في مقاومتها، وكشف فسادها وسُمِّيتها .

* ودولة المملكة بنظامها الأساسي الذي صدر في ١٤١٢هـ حسمت أمر مستقبلها الذي تتطلّع إليه بالثبات على مسيرتها السّابقة في التزام الإسلام التزاماً حقيقياً من خلال التّحاكم الشّامل إلى مصدريه : القرآن الكريم والسنّة المطهّرة وفق فهم السّلف الكرام .

لقد استوفى النظام الأساسي الأصول العامة التي يقوم عليها نظام الدّولة المسلمة ، من حيث إقامة المجتمع على أساس عقدي إيماني ، وسيادة أحكام القرآن والسنّة لأنظمتها ، وتحقيق العدالة الشّاملة وفق تحديدات الشّريعة ، ونشر رسالة الإسلام في العالمين[1] .

لا يعني هذا أنّها دولة عصمة، وكمال، ولكنه يعني أنّ الملاحظات التي تورد وسترد حتماً لا تتّجه إلى النظام العام ولا إلى المقاصد، وإنّما تتّجه إلى جوانب ذات منحى تطبيقي .

إنّ ما تحتاجه المملكة ليس عودةً بعد شرود ، ولا مطالبة بدستورٍ، ولكنّه تلاف لقصورٍ ومواكبة لتطوّرٍ .

* هناك منهج يسلكه كثيرٌ من الكتاب العرب العصرانيين وبعض الإسلاميين وله بلا ريب تأثيره السيّئ التزييفي على عقول الشّباب يتمثّل هذا المنهج بالأحكام التعميميّة التي يطلقونها دون اعتبار لاختلافات حقيقيّة بين العناصر المدروسة ، وما يعنيني هنا هو ذلك التعميم الذي يطلق على الحكومات في العالم الإسلامي أو العربي دون استثناء ورعاية للتّمايزات مثلاً :

(١) من ضمن ما كتبه كاتب صحيفة (للأسف لم أجد قصاصتها) قرأتها خارج المملكة يقول : بعد صدور النظام الأساسي : « إنّ الأنظمة الصّادرة تدلّ على أنّ النظام السّعودي ما يزال متمسكاً بشدّة بالنمط الإسلامي في الحكم في أبعد صوره تشدّداً مما يقضي على الطلائع المهتمّة بنهوض هذا المجتمع أن تتّجه إلى علمنة الحياة الاجتماعيّة من خلال الأدب والصّحافة » .

النظم العربية عدوة لشعوبها ، مخاصمة لقيم مجتمعها ، لا تحكمها مبادئ وإنّما مصالح التسلّط والعمالة ، السلطة في العالم العربي طاغوتٌ مضادٌ للشّرع ، الدّعوة والدّولة في عالمنا الإسلامي نقيضان، ما تمارسه الدّول العربيّة من اهتمامات إسلاميّة متاجرة ونفاق . . . إلى آخر هذه الأحكام .

إنّ منطق الإنصاف عقلانياً وشرعياً يقضي بأنّ هذه الأحكام جائرةٌ وأنّها مبنيةٌ على مغالطة مقصودة أو جهلٍ مركّب ، وكلا الأساسين مما لا يليق بعالم شرعي، ولا مثقّفٍ عقلاني أن يركن إليه .

إنّ المملكة لا تدخل تحت طائلة هذه الأحكام :

فالدّولة من جهة والشّعب بعلمائه ومثقّفيه وجماهيره من جهة أخرى يمثلان وحدة متكاملة ، والشّعب بحكم منهجه السّلفي يتديّن بالبيعة ، أيّ الاعتراف الرّاضي بشرعية الدّولة .

والدّولة ترعى من خلال نظامها الأساسي ومؤسّساتها قيم المجتمع وتدعمها كما سبق.

ونظام الدّولة يدين بالشّريعة فكيف يكون طاغوتاً مضاداً لها ؟

والدّعوة الإسلاميّة جزءٌ من نظام الدّولة، والعلماء والدّعاة يندرجون في سلك الدّعوة من خلال مؤسّسات الدّولة . . . . وهكذا .

* بعض أبناء مجتمعنا السّعودي ممن تمكّنوا من التّخصّصات الاجتماعيّة في الغرب وفق قواعدها العصرانيّة التي تقيم الوجود الإنساني في علاقاته ، وعمله ونظام حياته على القيم العقلانيّة بعيداً عن الدّين ، يرغبون حباً منهم لوطنهم في استثمار هذه التّخصّصات في ترقية الحياة في مجتمعنا ، لكنّ

المشكلة هي أنّ الأرضية هنا تختلف عن الأرضية الغربية ، فأرضيّتنا دينيةٌ « إيمانيةٌ شرعيةٌ » وأرضيتهم - في الجانب الاجتماعي - «لادينيّة» ومن ثمّ فإنّه ينبغي توقِّي مخاطر « استنبات البذور في غير منابتها » كما يقول محمّد حسين هيكل .

وعليه فإنّه ينبغي أن نبني أنظمتنا وحلول مشكلاتنا ، وتسيير حياتنا على القيم الإسلاميّة أيّ على المرتكز الدّيني للقيم لا على المرتكز العقلاني سواءٌ سمي وطنياً أو إنسانياً أو غير ذلك ، فحينما تؤسّس تنفيذ نظام الدّولة على الدّين ، أيّ بصفته واجباً شرعياً يأثم مخالفُه دون عذرٍ شرعي فإنّه يكون أعمق تأثيراً من أن تقول : إنّ حقّ المواطنة ، أو إنّ الإنسان المتحضر هو منفّذ النظام ، وحينما تحارب المخدّرات من زاوية خطورة مواجهة الله على هذه الموبقة ، وما تؤدِّي إليه من موبقات أخرى مشينة في الشّرع كالوقوع على المحارم وقتل النّفس فإنّه أشدُ تأثيراً من الاكتفاء بذكر الخسارة الماديّة ، أو آثارها الجسمية والعقليّة .

لا أقصد بهذا القول الانحصار في المستند الإيماني فإنّ الجوانب الصّحيّة والوطنيّة والإنسانيّة كلّها داخلةٌ في المستند الشّرعي ، إنّما أريد أن يكون الأساس الدّيني هو المقدّم والمستند الأوّل لا أن يهمل نهائياً كما جرى في مجتمعات أخرى فسادتها الفوضى ولم تؤدِّ تلك العقلانيات دورها الارتقائي بنفوس الناس وسمتهم .

* تحدّثت في مبحث مجلس الشّورى عن النّخبة العالمة بجناحيها الشّرعي والمدني حسب التقسيم المعتاد في الكتابات الثّقافيّة العربيّة ، وبيّنت أنّ الانفصام الحاد بين النّخبتين في المجتمع السّعودي غير موجود في ساحة التّعامل الثّنائي والعام من خلال نموذج مجلس الشّورى السّعودي .

ما أريد تأكيده هنا هو أنّ هناك إغراءات لكلّ من النّخبتين ضد الأخرى :

- إما بمنطق أن الصراع بين النخبتين كلما احتد كان ذلك أجدى للمجتمع وأنّ الصراع بين هذه النخب في المجتمعات الأخرى « هو الذي يخلق التوتّر المبدع ، ويدفع إلى عدم الأخذ بالحلول الجاهزة . . . وهو مصدر تطوّر التاريخ والحضارة معاً ، فالتّاريخ صراع بين ذوات جماعيّة من أجل التّجاوز الحضاري المادي والفكري »[1] .

- أو بمنطق إثارة الوحشة ومن ثمّ التّعادي من خلال توصيف كلّ منهما بما يُنفِّر الآخر .

فالشّرعي -كما يُقدم للمدني- ما يزال أسير الرؤى التاريخية ، وهدفه إبقاء المجتمع على وضعيّة ساكنة رتيبة ، وهو يعد النخبة المدنية علمانية محاربة لقيم المجتمع .

والمدني -كما يقدم للشّرعي- جاهلٌ بالدّين ، مغرورٌ ، ومع ذلك يريد سحب البساط من العالم الشّرعي ، وهو صنيعة أعداء المجتمع . . . .

مثل هذه الإغراءات الخادعة ينبغي أن نتجاوزها بالتّعاون بدل الصّراع ، والتّقارب بدل التنابذ .

وسلطة الدّين بحكم أنّ الجميع مسلمون ، وسلطة الشّرع بحكم أنّ الجميع أبناء لمجتمع تحكمه الشّريعة عاملان كافيان لتحقيق ذلك التّقارب والتّعاون ، ويبقى بعد ذلك التّدافع[2] الذي جعله الله سبيلاً لعمران الحياة

---

(١) اغتيال العقل ، ص ٣٣٩، مصدر سابق .

(٢) التّدافع من سنّة الله الثابتة في الوجود البشري بها يقوم العمران، وتتجدد الحياة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الآية رقم (٤٠) من =

-يبقى- ليحقّق للمجتمع تحديثاً ملتزماً بالشّرع بمعزلٍ عن أيديولوجيا الحداثة الغربيّة وقيمها المنافية للإسلام .

* المجتمع السّعودي بما هو مجتمعٌ معاصرٌ فإنّ تغيّرات اجتماعيةً وثقافيةً كثيرة وكبيرة وسريعة تجري فيه بمعدّل ونمطية لم يعهدها المجّتمع خلال قرونه الغابرة والحديثة ، في وسائل المواصلات والاتّصال، وفي العلاقات، وفي مختلف الأحوال ؛ حجم السّكان يتضاعف، والأنماط المعيشية تتغيّر والمراكز الحضريّة تتضخم ، وأنواع من المهن حدثت ، ومعدّلات التعليم زادت وتنوّعت . . . إلى آخر التغيّرات الجارية .

لا ريب أن الشّريعة بنصوصها وقواعدها هي المردّ لضبط هذه التّغيّرات وفق المسار النّافع الصّالح ، لكن هذا يحتاج إلى اجتهاد فقهيٍّ حضاريٍّ مرتكز على فهمٍ سليم للشّريعة ، وعلى تصوّر صحيح متماسّك للمجتمع بتغيّراته ومفاصله الحيويّة ، وهذا يقضي بتعاونِ النخبتين وتكاملهما ، ولا بدّ من إحياء فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد ليكون منطقاً علميا تحاكم إليه الأحداث والأحوال ، وعملياً يسلكه الناس في حياتهم الاجتماعيّة والفرديّة ، لأنّ عصر التّغيّرات ، وتعقد الأمور يربك الناس بين المتعارضات التي تقتضي التّرجيح ، وتشتبه فيها الأمور عليهم بين الحلال والحرام والشّبهة ، وتضطرهم الظّروف إلى خيارات لا مفرّ من أحدها .

إنّ هذا النّوع من الفقه الموازن بين المصالح والمفاسد هو سبيلٌ قويمٌ

= سورة الحج . . . إلخ

وليس التدافع محصوراً بمغالبة الكافرين ، إنّه يقع أيضاً بين المسلمين في مواقفهم وآرائهم حيث تتدافع منطلقة من الشّريعة من جهة ، ومن الواقع من جهة أخرى بين النخبتين الشّرعية والمدنيّة ليتحقّق - حسب المنطق السّليم للمجتمعِ المسلم - تجدد الحياة وتطوّرها مع بقائها مستقيمة على منهج الإسلام .

ضروري للتّعامل مع واقعنا المعاصر بكلّ علله وتناقضاته وضروراته ، به يعلم الناس -ويعيشون- « أنّ الشّريعة قد جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وأنّها ترجّح خير الخيرين وشرّ الشرين ، وتحصّل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وأنّه إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما ، فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركاً لواجب في الحقيقة ، وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما ، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرّماً على الحقيقة ، وإن كانت المنازعة في مجرّد التّسمية فهو خلاف يسيرٌ لا يضرّ ولكن المقصود هو نفي الإثم عن هذا وذاك .

وإنّنا نؤكّد على ضرورة إحياء وتجديد هذه المفاهيم علماً وعملاً ، لأنّه في الأزمة والأمكنة التي تنقص فيها آثار النّبوّة وخلافة النبوّة يكثر هذا التعارض ، وتختلط الحسنات بالسيّئات ، وتزدحم المصالح والمفاسد ، وتتلاقى في مناط واحد ، وإذا حدث هذا الاختلاط وقع الاشتباه والتّلازم ، فمن الناس من ينظر إلى الحسنات فيرجح جانبها وإن تضمّن سيّئات عظيمة ، ومنهم من ينظرون إلى السيّئات فيرجّحون الجانب الآخر وإن أفضى إلى ترك حسنات عظيمة ، ومن الناس من ينشد التّوازن ، ولكن قد لا يتبيّن له مقدار المصلحة والمفسدة ، أو يتبيّن له فلا يجد من يعينه على فعل الحسنات وترك السيّئات ، لكون الأهواء قد قارنت الآراء ، ويقع في ذلك من التجاذب والتهارج ما لا يعرف مداه إلا الله » [1] .

* الاعتماد على الرادع الإيماني والإنساني في حفظ الأمن كان كبيراً فيما سبق بحكم قوّة ذلك الرادع ، ولا ريب أنّ له أثره الإيجابي من حيث توفير

---

(١) الثّوابت والمتغيّرات ، للدكتور صلاح الصاوي ، ص ٣١٧، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

الإنفاق على أجهزة تستهلك كثيراً ، ومن حيث تخفيف الضغط على الناس لأنّ كثرة الأجهزة الأمنية وكثرة حركتها بين الناس يجعلها أشبه بكابوس يكتم الأنفاس .

لكن التأثيرات الخارجيّة على المجتمع وبالذّات ناشئته ، وسائل إعلام واتصال ، ومداخلة لفئات منوّعة من الناس الوافدين أضعف هذا الرادع الإيماني والإنساني وهون عليهم الجريمة وهذا يقضي بأمرين :

الأوّل : تكريس الحركة التّوجيهيّة تربيةً وتثقيفاً وإعلاماً لمقاومة هذه التأثيرات الخطيرة .

الثاني : تقوية الجانب الأمني بالتّغطية الشّاملة مكاناً ووقتاً ، وباستثمار منجزات العصر في ضبط الجرائم ، والتّعامل معها ، وبالرّدع الحاسم الذي يجعل الغافل عن عذاب الآخرة يستحضر العقوبة القريبة التي قد تدمّر عليه وضعه الاجتماعي ومستقبله فيكفُّ عن مقارفة الجريمة .

وينبغي أن يُختار في هذه المهمّات الخطيرة أناسٌ يتوفّر فيهم العقل والدّين والخلق وحسن الأدب سواء كانوا شرطة أمن ، أو رجال مرور أو أمن طرق أو غيرها حتى يثق فيهم المجتمع ويتعاون معهم ، ويقوموا بالأمانة الموكولة إليهم على وجهها الصّحيح ، وحتى لا يرتكبوا هم تجاوزات باسم الأمن حينما تتهيأ لهم فرصٌ مواتيةٌ إذا لم تكن متوفّرة فيهم تلك الخلال .

* ممّا لا بدّ منه لهيبة الدّولة ولصلاح المجتمع ونهوضه أن يتواكب التّطبيق العملي مع التّنظيم النّظري في قواعده وما ينبثق منها من موادَّ ومراسيم وقرارات .

وينبغي أن يتعاون الجميع لتحقيق هذا التّواكب إلزاماً من الدّولة واستجابةً من المعنيين بالتّطبيق ، ورقابةً من المجتمع كلّه .

لقد تبيّن لنا قبل صفحات أنّ الثغرات التي تنقص من سموّ مجتمعنا الإسلامي في الاقتصاد والإعلام أو غيرها هي في الجانب التّطبيقي ، أمّا أساس النّظام فقد كان إسلامياً في رسمه في مجال الحركة في هذه المجالات .

وإذا حدث تغيّرٌ ظرفي (ضرورة عارضة مثلاً ، أو فتوى متغيّرة لمقتضى شرعي معيّن . . . إلخ) فينبغي تداول هذه التّغيُّرات وأسبابها إعلامياً حتى ترتاح الضمائر المؤمنة ، وتزول الظّنون والأوهام .

* أيضاً فإنّه لا بدّ أن يتّخذ المجتمع قدر المستطاع السبيل إلى احتواء الظّواهر الإيجابيّة في ذاتها، والتي قد تتحوّل إذا لم يستوعبها المجتمع إلى ظاهرة سلبية أو مدمّرة .

مثل ظاهرة الشّباب التي تتفجّر طاقة ومبادرة فتحتاج إلى ميادين لتفريغ هذه الشحنات المتوقّدة فيما ينفعها وتقتنع به (مراكز توجيه ، ودورات مهنيّة ، وتشغيل عملي . . . إلخ).

وفي هذا النّطاق أيضاً ينبغي أن ندرأ خطر انفصال الدّعوة عن الدّولة الذي يحتدم في كثير من مجتمعات المسلمين ، ويكون ذلك باستيعاب الطّاقة الدّعويّة المتنامية في المسالك الدّعوية للدّولة لا من خلال الترويض المادي كما تفعل الدّول العصرانية بضعاف النّفوس، وإنّما عن طريق انخراطهم في قنوات الدّولة، ليؤدّوا نشاطهم الدّعوي من خلالها، وبهذا تتحقّق مصلحة الدّعوة والدولة وتوجيه الطاقات نحو ما ينفع الدين والمجتمع والأمة، والالتحام الجماهيري الذي يجعل هذه الجماهير والدّعاة يتفهّمون الحدود التي تمثّل

إمكانياتٍ ظرفيةً للدّولة تمارس فيها نشاطها الدّعوي .

* في أواخر هذه الخاتمة لا بد من التأكيد على قضيّة تعدَّدت الإشارات إليها تمثِّل استشرافاً يُضاف لتلك الاستشرافات السابقة أرجأْتُهُ ليكون موقعه هنا بصفته مطمعاً ومطلباً ترنو إليه عيونٌ وقلوبٌ تخفق بحبِّ الإسلام ، وتتلهَّف ليوم سيادته الحضاريَّة ، ومطلب تشعر الإنسانيَّة كلها بحاجتها الماسَّة إليه ، وإن لم تدرك أبعاده .

هذا الاستشراف ينيطه كثيرٌ من علماء الإسلام ومُفكِّريه ودعاته بالمملكة العربيَّة السعوديَّة قبل غيرها من الدول .

إنه استشرافٌ يمثِّل طموحاً ليس أحرى من المملكة بالتسامي له على المستوى الحضاري العام ، في مثل وضعيَّة المسلمين المعاصرة لأسباب كثيرة ، يستحضرها الذين علَّقوا آمالهم بهذه الدولة ، ولأنقل هنا همسةً هتف بها عالِمٌ كبيرٌ في أذن المملكة ، وهي نموذجٌ لهمساتٍ كثيرةٍ لآخرين من علماء الإسلام ومفكِّريه .

يقول محمد الحسني - رحمه الله - : « إنَّ نظرة المسلمين إليك - يا جزيرة العرب ، يا مهبط الرسالة الأخيرة ومأوى النبوة الخالدة - تختلف عن نظرتهم إلى شقيقاتك من البلاد العربيَّة والبلاد الإسلاميَّة القريبة والبعيدة كل الاختلاف ، فأنت في نظرهم مأرز الإسلام والإيمان ، ومركز الحسن والإحسان ، ومنبع الصدق والوفاء ، ومعدن الحب والولاء ، وملتقى الأرض والسماء .

وأنت في نظرهم -بجانب ذلك- محطُّ الآمال وموئل الأمة الشاردة الحائرة ، المفتتة الموزعة ، المتخاصمة المتناحرة ، وسهمها الأخير الوحيد الذي يتوقف عليه مصيرها ومستقبلها ، وعزَّتها وكرامتها .

إنك لو كنت - يا جزيرة العرب - مثل البلاد الإسلاميَّة الأخرى كتركيا أو إندونيسيا أو أفغانسَتان لخففنا عليك الثقل، وأقلنا عنك الحمْل، والتمسنا لك الأعذار، ولكنك في مكان دقيق وموقف دقيق، ومسؤوليتك أكبر وأضخم من مسؤوليَّة أي بلد إسلاميٍّ في العَالم، فإذا طلبنا من غيرك تضحيةً طلبنا منك تضحيتين، وإذا رجونا من غيرك مرةً رجونا منك مرَّتين، ولا عجب فهي ضريبة الشرف، بل هو عين الشرف.

إنك - يا جزيرة العرب - السهم الأخير الوحيد في كنانة العالم الإسلامي والله أعلم بأسراره وخفايا أموره، فلا تخيِّبي أمله ورجاءه، ولا تنظري إلى هؤلاء «الأقزام» بإكبارٍ وإعجابٍ الذين أساؤوا إلى العالم العربي إساءةً لن ينساها التاريخ.

إنك - أيتها الجزيرة - قد جهرت بالإسلام في كل مناسبةٍ من المناسبات، محلية كانت أو دولية، سياسية كانت أم دينية، بينما استحيى منه الآخرون، واستنكف منه «البعض» وحاربه «البعض الآخر»، وأشَدْتِ بذكره بكل صراحةٍ وقوَّةٍ واعتزاز، وهي مأثرةٌ سوف يسجلها لك التاريخَ بكل تقدير وإعجابٍ، وذلك ما حَمل المسلمين في جميع أنحاء الأرض على أن يعدُّوكَ المعقل الأخير في هذا الصراع الطويل المرير بين الدين واللادينية، والإسلام والجاهليَّة، الذي تدور رحاه في البلاد العربيَّة في أقسى صوره، وأفظع مظاهره، فاعرفي مسؤوليَّتك الضخمة الدقيقة في هذه المعركة الفاصلة الحاسمة، والمرحلة الخطيرة الهامَّة في تاريخك المشرق الطويل»[1].

المملكة إذاً تنوء بهذا الحِمْل الكبير، ولكنه الشرف العظيم؛ أن تحمل

---

(١) الإسلام الممتحن، محمد الحسني الندوي، ص ١٧١، ١٧٧، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.

رسالة الإسلام للعالم، لتكون منطلق وجهة حضاريَّة تمثلها، وتستقطب لها العالم الإسلامي، وتداخل بها العالم الإنسانيّ كله .

ويكون ذلك بأن تأخذ المملكة بزمام المبادرة في تقديم مشروعٍ حضاريٍّ مدعومٍ :

- بصحة المنطلق من المنهج السلفي الصافي الذي ترتكز عليه .
- وبقوة الدولة وإمكاناتها التنفيذية في الأوساط والهيئات والمنظمات الدولية .

هذا المشروع الحضاري « مشروعٌ نموذج » متميز لا يستهدف أن يكون لصيقاً بنماذج أخرى : اشتراكيَّة، أو لبرالية، أو غيرها .

تقدمه المملكة بصفته « مشروع الإنسانيَّة » الذي به فلاحها بعد الخيبات الماضية ، والمقبلة عليها في ظل المشروعات الخاسرة .

لقد سبق الحديث عن التمثيل الإسلامي في المحافل الدوليَّة من قبل المملكة، وعن التفرُّدات الإبداعيَّة في التزامها بالإسلام ؛ كما في السياسة التعليمية، والتحديث الملتزم، ولكن هذا الاستشراف يرنو إلى هدف يقوم على هذه ويتجاوزها نحو فاعليَّة أمضى للمملكة إسلاميّاً وإنسانيّاً :

- إنه الهدف الذي تراءاه الملك عبد العزيز -رحمه الله- حين قال مؤمناً باستمرار حركته الإسلاميَّة التي قادها، وعالمية رسالة الإسلام التي حملها : « إذا وفق الله أولادي كما وفقني ، فسوف يتولون مقدرات مائة مليون مسلم »[1] .

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٣٥، مصدر سابق .

- إنه الهدف الذي اندمجتْ فيه شخصية الملك فيصل في ظل أجواء ملتهبة برفض الإسلام، وحرب على كل من يمثله، فأصرَّ على حمل رسالته، وأنشأ لها المؤسسات، واستقطب لها الأمة كلها .

- إنه الهدف الذي أرسيت في سبيله المشروعات الإسلاميَّة الضخمة من قبل خادم الحرمين الشريفين، كعمارة الحرمين، ومجمَّع المصحف الشريف وغيرها .

هذا الهدف الرسالي الحاضر في وعي قادة المملكة، القائم في حس كل مسلم يتطلع الطامحون في إطار تحقيقه من قبل المملكة إلى ما يلي :

= شحن الشعور السعودي -ومن ثم الإسلامي- بمبادئ النظام الأساسي للحكم، ورسم مسالك الإسهام في تمثله ليكون تمثلاً عضوياً متماسكاً بين الأفراد، وبين الشعب والدولة وفق منطق حضاري معاصر .

= المبادرة لإبراز التشكيل الحضاري الشامل للإسلام للعالم :

- بتبنيه في العالم الإسلامي ، وجمع الكلمة عليه، واستقطاب المسلمين قيادات ومفكِّرين وشعوباً لتبني مشاريعه النهضوية في كل مجالات الحياة .

- وبتقديمه للعالم غير الإسلامي ؛ بصفته الخيار الأفضل لاتقاء الكوارث الحضارية التي تهدد الكون الآن، وذلك عن طريق إبراز المعطيات القيمية، والمعرفية، والاجتماعيَّة والدولية للإسلام، وفق المتطلبات الحضارية الراهنة .

- وبتجاوز ما تسلكه عامة دول المسلمين إزاء المبادرات الدولية في قضايا تخالف الإسلام، وتهين الإنسانية كما هو شأن مؤتمرات السكان ،

والمرأة ونحوها، حيث يتمثل موقف تلك الدول إما بالاندراج فيها باستلاب كامل، أو بمجرد مقاطعتها أو في أفضل الحالات بالتحفظ على بعض بنودها المخالفة للقيم الإسلاميَّة ، ينبغي تجاوز هذه المسالك والمواقف إلى مبادرات تقدَّم فيها المشاريع الإسلاميَّة منظَّرةً وفق هداية الوحي من جهة، وحاجة الظروف الراهنة من جهة ثانية .

- وبطبع كل ممثلي المملكة ، خارجها (سفارات، وملحقيات، ومراكز دعوة، ومدارس، وكراسي علمية . . . وغيرها) بهذه الرسالة[1]، بحيث تصبح هذه المؤسسات ، بخططها، وجهود أفرادها ملتزمة باتجاه الدولة نفسه ، جاعلة رسالة الإسلام قضيتها الأولى في كافة مناشطها وعلاقاتها .

لا ريب أن هذه الغاية الحضارية المجيدة تقتضي جهوداً مضنية من المجتمع السعودي كله قيادةً، وعلماء، ومثقفين، وجمهوراً، وتحتاج إلى فقه حضاريٍّ ، سليمٍ في قاعدته الشرعيَّة، ومواكب لتطورات العصر ، وتتطلب معاضدةً تلتف حولَ مسيرتها من قبل الأمة الإسلاميَّة بالدرجة الأولى، وبالذات من قادتها، وعلمائها، وروّاد حركاتها الإسلاميَّة .

ولا بد لها من مغالبة معوقات كثيرة تترامى أمام كل شيءٍ يبرز باسم الإسلام .

---

(١) في « كلمات منتقاة من خطب وأحاديث خادم الحرمين الشريفين » توجيهات عديدة لقطاعات متنوعة بأن يمثل كل منها رسالة الإسلام في مجاله أمام العالم :
- صحافة المملكة والتزامها الإسلامي ، ص ١٠٨-١٧٨ .
- العسكري السعودي نموذج الالتزام بالعقيدة ، ص ٧٤-١٣٢ .
- اللاعب السعودي صورة للشخصية المسلمة المتدينة ، ص ٩٠ .
- الطلبة السعوديون في الخارج وتقديم النموذج المشرف إسلامياً ، ص ١٢٧ .
- المواطن السعودي وشخصيته في الداخل والخارج ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

كل هذا واردٌ، بل قائمٌ، ولكن هذا الهدف المنتظر هو قدر المملكة الذي وَضَعَتْ، بل وضع الله قدمها في طريقه، وهو شرفها الذي لا مناص لها من التشبث به، لأن وجودها كله مرتبطٌ به.

والإسهام في إعادة القياد الحضاري للإسلام، وإنقاذ البشريَّة من الدمار الذي يهدِّدها، تهون في سبيله التضحيات لأنه شرف الدنيا، وفلاح الآخرة.

إنَّ المملكة هي أكثر دول المسلمين تأهُّلاً للاضطلاع بهذا الدور الجسيم؛ لخصائصها المكانية، وخلفيتها التراثية، وبُعدها الإسلامي الواضح في حاضرها، وهو تأهُّلٌ تدركه الأمة الإسلاميَّة كلها قادة وعلماء وجماهير -كما سبقت إشارات لذلك- ويدركه قبل ذلك قادة المملكة نفسها شاعرين بأنه تكليفٌ وتشريفٌ لا مناص منه.

- فالنظام الأساسي للحكم صريحٌ في تحمل الدولة له.
- وقيادتها تعلن بأن الدولة -كما يقول خادم الحرمين الشريفين- مطالبة «في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى بالقيام بعملٍ جادٍّ قويٍّ لخدمة السلام بنشر مبادئ الإسلام، وإتاحة الفرصة من جديد أمام العقل الإنساني الحائر لفهم الإسلام فهماً صحيحاً يعم مشارق الأرض ومغاربها»(١).
- وما تمارسه الدولة في الساحة العالمية من رعاية للأقليات المسلمة، وإقامة دورات شرعيَّة، وإنشاء للمراكز والمساجد، والحرص من قبل قادة الدولة

---

(١) كلمات منتقاة ص ١٨٤، ويقول أيضاً -حفظه الله- بعد حديثه عن سلف الأمة الدعاة الفاتحين: «فإذا كنا نفخر اليوم ونعتز بجهادهم فإن الفخر لا يكفي، ولا بد لنا من أن نسير على سننهم ونقفو آثارهم فندعو الناس في سائر أقطارهم إلى الإسلام وإلى التمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة». المصدر السابق ص ٧٦.

على الالتقاء بالمسلمين في البلاد التي يزورونها لتحسس همومهم وآمالهم [1] ، كل ذلك برهانٌ على صدق توجُّه المملكة لتحقيق ذلك الهدف السامي النبيل .

لقد أنشأتْ المملكة في عام (١٤١٥هـ) مجلساً إسلاميّاً رفيع المستوى اسمه « المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة » يرأسه النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز وينخرط في عضويته عدد من الوزراء مما جعل بعض المفكرين[2] يتصورن أنه سيكون أداةَ الدولة في القيام برسالتها الإسلاميَّة والإنسانيَّة في الخارج خاصة ، وأن مبادئه وتصريحات أعضائه تتفق مع هذا الطموح ، يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي : « المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة يهتمُّ بقضايا الإسلام والمسلمين في الخارج ، انطلاقاً من الدور الإسلامي الكبير الذي تقوم به السعودية في الخارج ، ولا سيما في ميدان الجاليات والأقليات الإسلاميَّة حيث تقام مراكز ، وتبنى المساجد ، ويوفد الدعاة ، وتترجم الكتب ، وترسل وتستقبل السعودية بعثات الطلاب المسلمين ، وتتبنَّى السعودية كثيراً من قضايا الأقليات والهيئات الإسلاميَّة في مختلف أنحاء العالم .

وعموماً فإن المجلس الأعلى ينظر للشؤون الإسلامية من منظور عام ، ويدرس جهود السعودية إزاءها ، سواءٌ تعلق الأمر بالتعاون مع الدولٍ أو الهيئات ، وتعتبر وظيفة المجلس جزءاً هاماً من رسالة السعوديَّة الإسلاميَّة »[3] .

---

(١) أكتب هذه السطور خلال زيارات سمو ولي العهد لعدد من دول العالم حيث يلتقي بالمسلمين في هذه الدول .

(٢) انظر : السعودية - قدر المواجهة وخصائص التكوين ، أبو القاسم حاج محمد ، ص ١٧٠ ، ١٩٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، .

(٣) الشرق الأوسط ، بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٤م .

وعلى كل حال فإن المملكة بنظامها الأساسي، وبمؤسساتها الوزاريَّة وغيرها، وبالشخصيات الناضجة فيها، وبغير ذلك من المؤهلات حَرِيَّةٌ بالدفع أكثر فأكثر نحو ذلك الهدف الجليل، بحسب ما تمكنها قدراتها، وما تستطيعه في ضوء الظروف المعاصرة، والله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها .

* وختام الخاتمة فإنّ من خير ما نستوحيه لمسيرة مجتمعنا السّعودي مستقبلاً تلك الوصيّة الثمينة التي أوصى بها الملك عبد العزيز ابنه « سعود » - رحمهما الله - بعد أن بويع بالعهد في مطلع الخمسينات من القرن الماضي الهجري .

يقول في هذه الوصيّة : « تفهم أنّنا - نحن والناس جميعاً - لا نُعزّ أحداً ولا نذلّ أحداً وإنّما المعزّ والمذلّ هو الله سبحانه وتعالى ، ومن التجأ إليه نجا ، ومن اغترّ بغيره - عياذاً بالله - وقع وهلك . موقفك اليوم غير موقفك بالأمس ، ينبغي أن تعقد نيّتك على ثلاثة أمور :

أوّلاً : نيّةٌ صالحةٌ ، وعزم على أن تكون حياتك وأن يكون ديدنك إعلاء كلمة التّوحيد ، ونصر دين الله . وينبغي أن تتّخذ لنفسك أوقاتاً خاصةً لعبادة الله والتضرّع بين يديه في أوقات فراغك . تعبّد إلى الله في الرّخاء تجده في الشدّة . وعليك الحرص على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأن يكون ذلك كلّه على برهان وبصيرة في الأمر ، وصدق في العزيمة ، ولا يصلح مع الله - سبحانه وتعالى - إلا الصّدق ، وإلا العمل الخفي الذي بين المرء وربّه .

ثانياً : عليك أن تجدّ وتجتهد في النظر في شؤون الذين سيولّيك الله أمرهم بالنّصح سراً وعلانيةً والعدل في المحب والمبغض ، وتحكيم الشّريعة في الدّقيق والجليل ، والقيام بخدمتها ظاهراً وباطناً . وينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم .

ثالثاً : عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة ، وفي أمر أسرتك خاصة . اجعل كبيرهم والداً ومتوسّطهم أخاً وصغيرهم ولداً ، وهِنْ نفسك لرضاهم ، وامحُ زلتهم وأقلْ عثرتهم ، وانصح لهم ، واقض لوازمهم بقدر إمكانك . فإذا فهمت وصيّتي هذه ، ولازمت الصّدق و الإخلاص في العمل ، فأبشر بالخير . وأوصيك بعلماء المسلمين خيراً . احرص على توقيرهم ومجالستهم وأخذ نصيحتهم . واحرص على تعليم العلم لأنّ الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثمّ بالعلم ومعرفة هذه العقيدة . احفظ الله يحفظك »[1] .

وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، ص١٥٨، ١٥٩ .

فهرس المراجع

الرقم	المرجع
١	ابن تيمية – محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .
٢	الاتّجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر – محمَّد محمّد حسين ، الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ)، مؤسّسة الرسالة .
٣	أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع – محمّد حسين الذّهبي ، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ) .
٤	أثر تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في حلّ المشكلات الاجتماعيّة – إبراهيم الجوير ، الرِّياض (١٤١٥هـ) .
٥	إجراءات التّقاضي والتنفيذ – محمود محمّد هاشم ، جامعة الملك سعود (١٤٠٩هـ) .
٦	الأحكام السّلطانية في الولايات الدّينية –أبو الحسن الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت .
٧	إحياء علوم الدّين – أبو حامد الغزالي ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة، (١٤١٢هـ) .
٨	أدب القاضي – أبو الحسن الماوردي ، محيي هلال السرحان، بغداد (١٣٩١هـ) .
٩	أزمة الدّيموقراطيّة في الوطن العربي – مجموعة باحثين ، الطبعة الأولى (١٩٨٤م)، بيروت .
١٠	الإسلام تشكيل جديدٌ للحضارة –محمد تقي الأميني – ترجمة مقتدي ياسين، الرياض (١٤٠٢هـ) .

الرقم	المرجع
١١	الإسلام على مفترق الطرق – محمّد أسد ، ترجمة عمر فروخ ، الطبعة السابعة (١٩٧٤م) .
١٢	الإسلام الممتحن – محمد الحسني الندوي ، الطبعة الأولى ، (١٣٩٧هـ) .
١٣	الإسلام وحقوق الإنسان – عبد الله التركي ، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ)، وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد .
١٤	الإسلام والفكر العلمي – محمّد المبارك ، الطبعة الأولى ، دار الفكر، بيروت .
١٥	الأصالة والمعاصرة – المعادلة السّعودية – فؤاد فارسي ، دار الأصفهاني بجدّة .
١٦	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن –محمّد الأمين الشنقيطي، الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ) .
١٧	اغتيال العقل –برهان غليون ، الطبعة الثالثة (١٩٩٠م) مكتبة مدبولي .
١٨	الأمن الاجتماعي – مصطفى العوجي، مؤسّسة نوفل، بيروت .
١٩	الأمن في حياة الناس وأهميّته في الإسلام – عبد الله التركي ، وزارة الشّؤون الإسلامية (١٤١٧هـ) .
٢٠	الأنتلجنسيا العربيّة – تحرير سعد الدّين إبراهيم ، الطبعة الأولى، عمّان (١٩٨٨م) .
٢١	إنجازات الملك فيصل – عبد الرحمن الشبيلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .

الرقم	المرجع
٢٢	بحوث الملتقى الإسلامي الأوّل لدول آسيا - مجموعة مؤلّفين، جامعة الإمام (١٤١٦هـ).
٢٣	البداية والنهاية - أبو الفداء ابن كثير ، الطبعة الثانية (١٩٧٨م) مكتبة المعارف، بيروت.
٢٤	البلاد العربيّة السّعودية - فؤاد حمزة ، الطبعة الثانية ، (١٣٨٨هـ)، الرّياض .
٢٥	بين الثقافتين الغربيّة والإسلامية - محمّد المبارك، (١٤٠٠هـ).
٢٦	التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون - عبد الحليم عويس .
٢٧	تجاربهم مع السّعادة - عبد الله الجعيثن ، الطبعة الأولى ، الرّياض (١٤١٣هـ).
٢٨	تجديد الفكر العربي - زكي نجيب محمود ، الطبعة السادسة ، دار الشّروق (١٤٠٠هـ) .
٢٩	تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان - إبراهيم آل عبد المحسن ، الطبعة الأولى، الرّياض .
٣٠	التشريع الجنائي الإسلامي - عبد القادر عودة ، دار الكاتب العربي، بيروت .
٣١	تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في العصر الحاضر ومعوقاته - عبد الله الزايدي، رسالة ماجستير ما تزال مطبوعة على الإستنسل .
٣٢	تطوّر مفهوم النّظرية التربوية الإسلامية - ماجد كيلاني ، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ) .

الرقم	المرجع
٣٣	التّعليم في مكة والمدينة – محمّد الشامخ (١٩٧٣م) .
٣٤	تفسير الطبري – تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر .
٣٥	تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن كثير – طبعة دار الفكر .
٣٦	تفسير المنار – محمّد رشيد رضا، الطبعة الأولى (١٣٢٨هـ)
٣٧	التّنظيم القضائي في المملكة – سعود الدريب، الطبعة الأولى، الرِّياض .
٣٨	التنظيم القضائي في المملكة العربية السّعودية – حسن آل الشيخ، الطبعة الأولى، جدّة (١٤٠٤هـ) .
٣٩	توحيد المملكة العربيّة السّعودية – محمّد المانع، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ) .
٤٠	الثقافة الإسلاميّة تخصّصاً ومادةً وقسماً – مجموعة مؤلّفين، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ) .
٤١	الثّوابت والمتغيّرات في مسيرة العمل الإسلامي –صلاح الصّاوي، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ) .
٤٢	جامع الأصول في أحاديث الرّسول – ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الخامسة (١٣٩٢هـ) .
٤٣	الجامع لأحكام القرآن –محمّد بن أحمد القرطبي، الطبعة الثالثة، (١٣٨٧هـ) .
٤٤	حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز – رابح لطفي جمعة، دارة الملك عبد العزيز، الرِّياض (١٤٠٢هـ) .

الرقم	المرجع
٤٥	حتى لا تكون فتنة - عمر عبيد حسنة ، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ) .
٤٦	الحريّة في الإسلام - محمّد الخضر حسين ، دار الاعتصام .
٤٧	الحسبة في الإسلام - شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار البيان (١٣٨٧هـ) .
٤٨	حول تطبيق الشّريعة الإسلاميّة وحقوق الإنسان في الإسلام -دار الكتاب اللبناني، بيروت (١٩٧٣م) .
٤٩	الخطاب العربي المعاصر - فادي إسماعيل ، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ) .
٥٠	الدّرر السنّية في الأجوبة النجديّة - عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٥١	دستور الأخلاق في القرآن - محمّد عبد الله دراز ، ترجمة عبد الصّبور شاهين ، الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ) .
٥٢	الدّعوة في عهد الملك عبد العزيز - محمّد الشثري ، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ) .
٥٣	الردّ على المنطقيين - شيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الثانية ، لاهور ، (١٣٩٦هـ) .
٥٤	السعوديَّة - قدر المواجهة وخصائص التكوين - أبو القاسم حاج محمد، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ) .
٥٥	السّعوديون والحلّ الإسلامي - محمّد جلال كشك ، الطبعة الثالثة .

الرقم	المرجع
٥٦	سلسلة الأحاديث الصّحيحة -محمد ناصر الدّين الألباني، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي.
٥٧	السّلفية وقضايا العصر - عبد الرحمن الزنيدي، الطبعة الأولى، دار إشبيليا، الرياض.
٥٨	سنن ابن ماجة - محمّد بن ماجة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ)
٥٩	سنن التّرمذي - محمّد بن عيسى التّرمذي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ)، دار الفكر.
٦٠	سياسة التّعليم في المملكة العربية السّعودية، الطبعة الرابعة (١٤١٦هـ).
٦١	السّياسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعي والرعيّة - شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكاتب العربي.
٦٢	شرح العقيدة الطحاوية - لابن أبي العز - تحقيق التركي والأرناؤوط، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ)
٦٣	شرح النّووي على صحيح مسلم، دار الفكر (١٤٠١هـ).
٦٤	الشّعر والشّعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الطبعة الثانية، دار الثقافة - بيروت.
٦٥	الشّورى - عبد الله قادري، دار المجتمع (١٤٠٦هـ).
٦٦	الشوقيات - أحمد شوقي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي.
	الصّحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي - مجموعة مؤلفين، تحرير سعد الدّين إبراهيم، الطبعة الأولى، عمّان (١٩٨٨م).

الرقم	المرجع
٦٧	صحيح البخاري (الجامع الصّحيح)- محمّد بن إسماعيل البخاري المطبعة الإسلاميّة، تركيا
٦٨	صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج ، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
٦٩	صور من حياة الملك عبد العزيز – طلال بن عبد العزيز ، إعداد كمال كيلاني ، الطبعة الثالثة ، الرياض (١٤١١هـ) .
٧٠	طائفةٌ من قضايا الأمّة الإسلاميّة – أبو الأعلى المودودي ، الرِّياض (١٤٠٣هـ) .
٧١	الطّريق إلى الإسلام – محمّد أسد ، ترجمة عفيف البعلبكي ، الطبعة السابعة (١٩٨١م) .
٧٢	العبوديّة – شيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الثالثة (١٣٩٢هـ) .
٧٣	العدل الاجتماعي – عماد الدّين خليل ، مؤسّسة الرسالة .
٧٤	العلم في منظوره الجديد – جروس وستانسيو ، ترجمة كمال خلايلي ، سلسلة عالم المعرفة، عام (١٤٠٩هـ) .
٧٥	علماء نجد خلال ستّة قرون – عبد الله البسام ، الطبعة الأولى ، (١٣٩٨هـ) .
٧٦	عنوان المجد في تاريخ نجد – عثمان بن بشر ، الطبعة الثانية ، (١٣٩١هـ) .
٧٧	فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني ، طبع المطبعة السّلفيّة .

الرقم	المرجع
٧٨	في التّربية – برتراند رسل – ترجمة سمير عبده ، (١٩٦٤م) .
٧٩	في ظلال القرآن – سيّد قطب ، الطبعة التاسعة ، دار الشّروق .
٨٠	في معركة التّراث – عون الشريف، دار العلم، بيروت (١٤٠٠هـ) .
٨١	القاموس السّياسي – أحمد عطية الله ، الطبعة الثالثة (١٩٦٨م) .
٨٢	قضايا العصر ومشكلات الفكر – أنور الجندي، الطبعة الأولى، مؤسّسة الرسالة (١٤٠١هـ).
٨٣	كلمات منتقاة من خطب خادم الحرمين الشّريفين – إعداد عبد الرحمن الرويشد، دار الشبل بالرِّياض (١٤١٦هـ) .
٨٤	ليس بالعلم وحده – فانفر بوش ، ترجمة لجنة من الأساتذة ، دار الآفاق، بيروت .
٨٥	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي ، الطبعة التاسعة (١٣٩٦هـ).
٨٦	مبادئ الفلسفة – رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، دار الكتاب العربي، بيروت .
٨٧	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – نور الدين الهيثمي، الطبعة الأولى مكتبة المعارف، بيروت (١٤٠٦هـ) .
٨٨	مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية -جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ).
٨٩	مجموعة بحوثٍ فقهيّةٍ – عبد الكريم زيدان ، مؤسّسة الرسالة ، مكتبة القدس .

الرقم	المرجع
٩٠	محاضرات الموسم الثقافي السابع للمجمّع الثقافي في أبو ظبي ، عام ٩٠ - ١٩٩١م .
٩١	محاضرات الموسم الثقافي في مركز الملك فيصل لعامي (١٤٠٦-١٤٠٧هـ) ، الطبعة الأولى (١٤١١هـ) .
٩٢	محمّد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم - مسعود الندوي، ترجمة عبد العليم البستوي (١٤٠٤هـ) .
٩٣	مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي، بيروت .
٩٤	المدخل للتّفسير الموضوعي - عبد الستار سعيد ، الطبعة الثانية ، مصر(١٤١١هـ) .
٩٥	مذاهب فكريّة معاصرة - محمّد قطب ، الطبعة الأولى، دار الشروق، بيروت(١٤٠٣هـ) .
٩٦	مذكّرات سليمان باشا - الطبعة الأولى ، نشر نادي أبها الأدبي .
٩٧	المسألة الثقافيّة - محمّد عابد الجابري ، الطبعة الأولى ، بيروت (١٩٩٤م) .
٩٨	المسؤوليّة في الإسلام - محمّد دراز، ضمن سلسلة الثقافة الإسلاميّة (١٣٧٩هـ) .
٩٩	مسند الإمام أحمد، دار الفكر، المكتب الإسلامي ، بيروت .
١٠٠	مصنّفة النظم الإسلاميّة - مصطفى كمال وصفي ، الطبعة الأولى (١٢٩٧هـ) .
١٠١	المعجم الوسيط - إصدار مجمع اللّغة العربية بمصر، طبع المكتبة العلميّة بطهران .

الرقم	المرجع
١٠٢	معجم مقاييس اللّغة – أحمد بن فارس ، الطبعة الثانية (١٣٨٩هـ) .
١٠٣	مفتاح دار السّعادة – ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٠٤	المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، بيروت .
١٠٥	مفهوم الدّولة – عبد الله العروي ، الدار البيضاء (١٩٨١م) .
١٠٦	مقدّمة ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون ، دار القلم (١٩٧٨م) .
١٠٧	ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده – يوسف القرضاوي ، الطبعة الأولى ، مؤسّسة الرسالة .
١٠٨	الملك الرّاشد – عبد المنعم الغلامي ، الطبعة الثانية ، الرِّياض (١٤٠٠هـ) .
١٠٩	الملك عبد العزيز رؤيةٌ عالميةٌ – ساعد العرابي الحارثي ، الطبعة الثانية ، دار القمم للإعلام .
١١٠	الملك عبد العزيز وأثره في التاريخ المعاصر–سليمان الشايع ، رسالة ماجستير عام (١٤٠٥هـ) .
١١١	الملك عبد العزيز والتّعليم – بدر الدّين أبو راس ، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ) ، العبيكان .
١١٢	الملك عبد العزيز والمملكة العربية السّعودية – عبد الله التركي ، بدون ذكر زمن الطبع أو مكانه .

الرقم	المرجع
١١٣	الملك عبد العزيز والوحدة العربيّة - أحمد طربين ، من بحوث المؤتمر العالمي عن الملك عبد العزيز ، جامعة الإمام محمّد بن سعود (١٤٠٥هـ) .
١١٤	المملكة العربية السّعودية وهموم الأقليّات المسلمة في العالم -عبد المحسن الداود (١٤١٣هـ) .
١١٥	من حياة الملك عبد العزيز - الأحيدب ، الرِّياض ، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ) .
١١٦	من شيم الملك عبد العزيز - فهد المارك ، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ) .
١١٧	من وثائق الملك عبد العزيز - المهرجان الوطني للتّراث (١٤١٠هـ) ، الحرس الوطني .
١١٨	مناهج البحث في العقيدة الإسلاميّة - عبد الرّحمن الزنيدي ، الطبعة الأولى ، (١٤١٨هـ) دار إشبيليا ، الرِّياض .
١١٩	منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن - محمّد سعيد البوطي ، دار الفكر (١٤٠٥هـ) .
١٢٠	الموافقات في أصول الشّريعة - أبو إسحاق الشاطبي ، تحقيق عبد الله دراز ، المكتبة التّجارية بمصر .
١٢١	الموجز في تاريخ التّربية - جورج شهلا - تقديم فاخر عقل ، الطبعة الأولى (١٩٦٥م) .
١٢٢	موعد مع الشّجاعة - قدري قلعه جي ، دار المكتب العربي (١٣٩١هـ) .
١٢٣	موقف المملكة العربيّة السّعودية من القضايا العالميّة في هيئة الأمم المتّحدة - طلال عطار ، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ) .

الرقم	المرجع
١٢٤	نحن والتّراث – محمّد عابد الجابري ، الطبعة الخامسة (١٩٨٦م) .
١٢٥	نظام الإسلام –الحكم والدّولة . محمّد المبارك ، الطبعة الثالثة دار الفكر ، بيروت .
١٢٦	نظام الحكم في الإسلام – محمّد يوسف موسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة .
١٢٧	نظام القضاء في الإسلام – مجموعة مؤلّفين ، جامعة الإمام محمّد بن سعود (١٤٠٤هـ) .
١٢٨	نظرات في مشكلة التّمييز العنصري – عمر عودة الخطيب ، الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ).
١٢٩	نظريّة الإسلام وهديه في السّياسة – أبو الأعلى المودودي ، مؤسّسة الرسالة، بيروت (١٣٨٣هـ)
١٣٠	نقد السياسة –الدّولة والدّين – برهان غليون، الطبعة الأولى (١٩٩١م)، بيروت .
١٣١	الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز – خير الدين الزركلي ، الطبعة الثامنة (١٩٩٦م) .

وفضلاً عن هذه المراجع فقد رجعت إلى عدد من الكتيِّبات التعريفيّة بالمؤسّسات وإلى بعض الخطط وعدد من المجلات والصّحف ، ذكرت في الهوامش تواريخها أو أرقام أعدادها وهي الصّحف التّالية :

١- أمّ القرى .

٢- الإنسان .

٣- أهلاً وسهلاً .

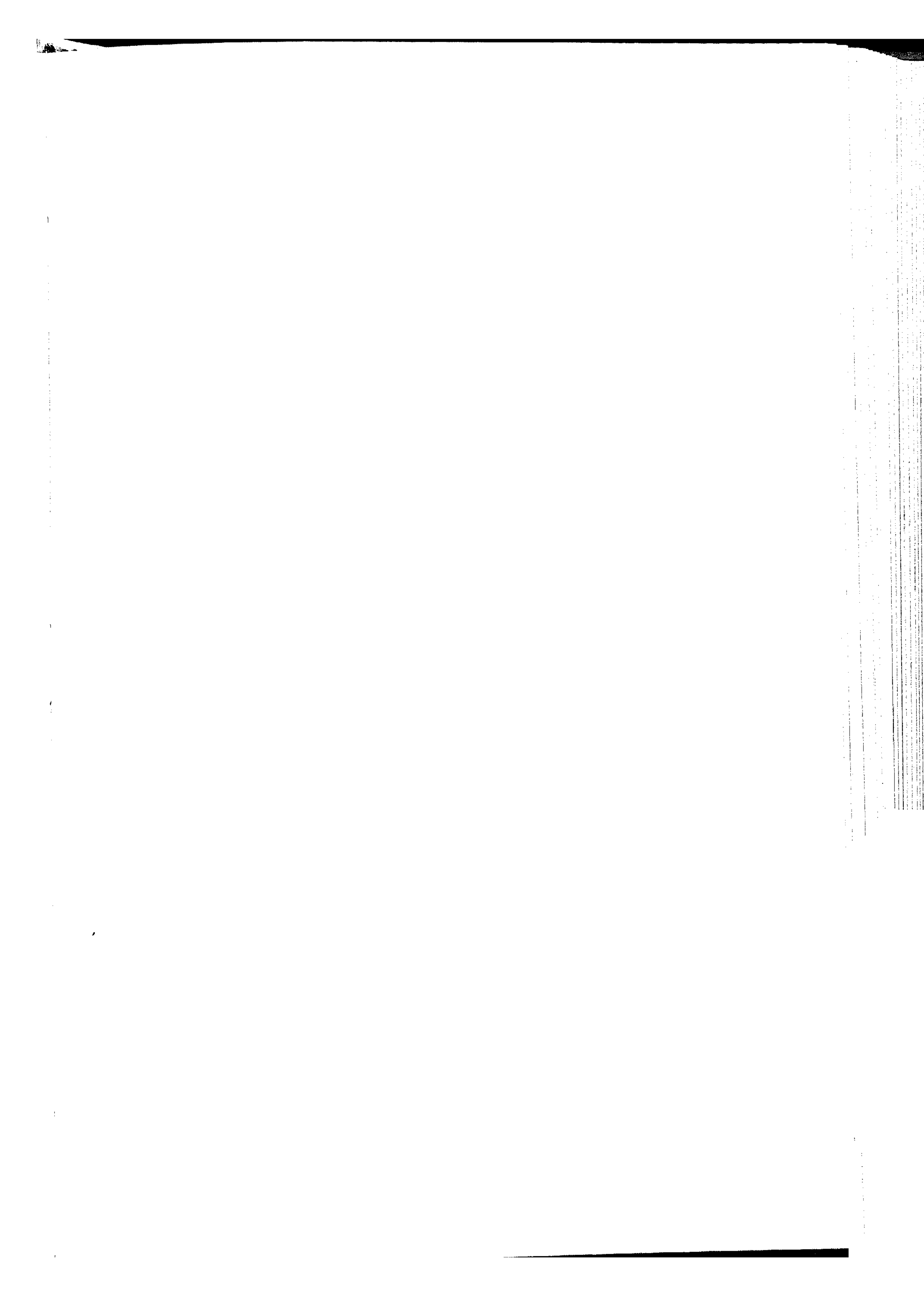
٤- البيان .

٥- الشّرق الأوسط .

٦- الفكر الإسلامي .

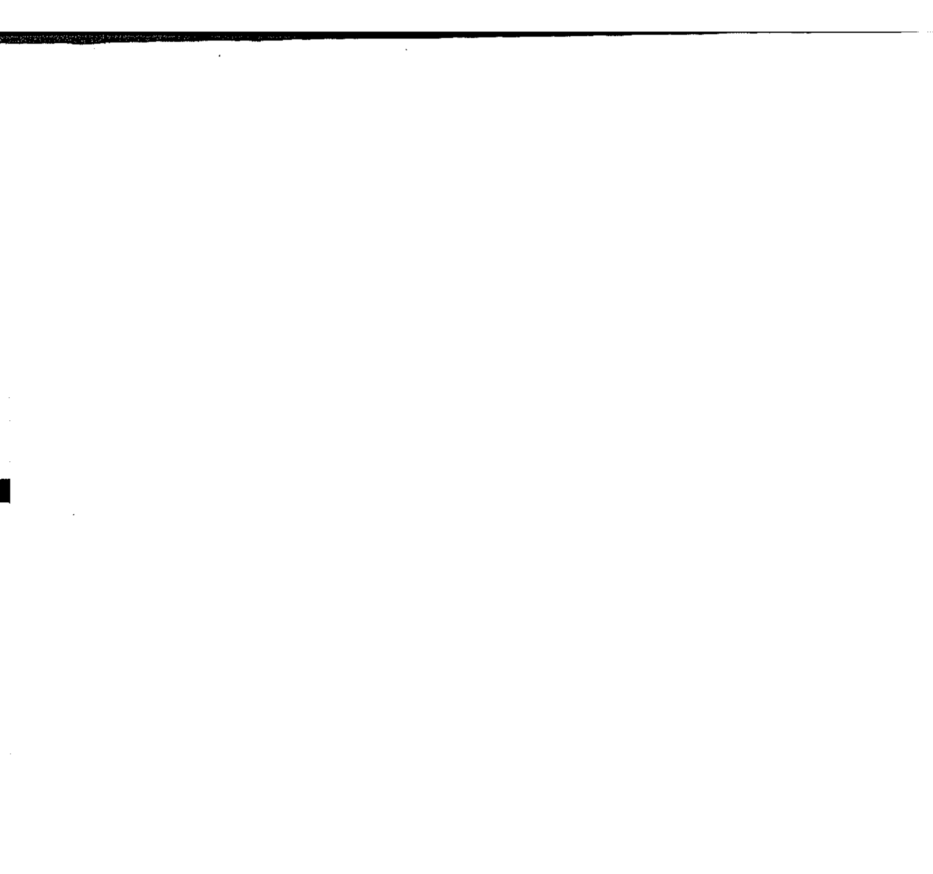
٧- المسلم المعاصر .

٨- اليمامة .



فهرس موضوعات البحث







مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٣١٩ - ١٤١٩هـ

جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - يرحمه الله - مدينة الرياض . وتأسيس المملكة العربية السعودية ؛ تأكيداً لاستمرار المنهج القويم والمبادئ السّامية التي قامت عليها المملكة . ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسس الملكُ عبدُالعزيز في سبيل توحيد المملكة ؛ عرفاناً بفضله . ووفاءً بحقّه . وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام . والتعريف بها للأجيال القادمة .

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة - وهذا الكتاب أحدها - إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظل دوحة علم ؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة . تولّى غرسها الملك المؤسس . وتعهّدها من بعده بنوه ؛ فواصلوا رعايتها وعنَوا بخدمتها حتى عمَّ البلادَ خيرُها . وانتفع بها الجميع .

ردمك : ٢ - ٨٤ - ٦٦٠ - ٩٩٦٠